نظرية علم الاجتماع

الاتجاهات الحديثة والمعاصرة

الأستاذ الدكتور
على عبد الرازق جلبى
استاذ علم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الأستاذ الدكتور
السيد عبد العاطى
استاذ ورئيس قسم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الأستاذ الدكتور
محمد أحمد بيومى
استاذ علم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

دكتور
السيد محمد الرامخ
مدرس علم الاجتماع
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية
...اريطة ٤٨٧٠١٦٣
...الشاطبي ٥٩٧٣١٤٦

Bibliotheca Alexandrina
0197656

نظرية علم الاجتماع

الاتجاهات الحديثة والمعاصرة

نظرية علم الاجتماع

الاتجاهات الحديثة والمعاصرة

دكتور
علي عبد الرازق جلبي
استاذ علم الاجتماع

دكتور
السيد عبد العاطي
استاذ ورئيس قسم علم الاجتماع

دكتور
محمد أحمد بيومي
استاذ علم الاجتماع

دكتور
السيد محمد الرامخ
مدرس علم الاجتماع

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

مقدمة

قدمنا فى الجزء الأول من هذا المؤلف التنظير فى علم الاجتماع ومحاولات الرواد فى المرحلة الكلاسكية . وهنا نحن نقدم الجزء الثانى ليشمل الاتجاهات الحديثة والمعاصرة فى نظرية علم الاجتماع .

والجق ان هناك نوعا فى الاتجاهات النظرية ، فكل منهما يمثل نموذجا تصوريا لكيفية فهم الدوافع الاجتماعية بمتغيراته المتدخلة والمتعددة . وبالرغم من هذه التعددية الا أن الملاحظ أن هذه المداخل النظرية تنبثق من اتجاهين اساسين : الأول الاتجاه الوضعى وما نجم عنه من تكمم للظواهر الاجتماعية ، والآخر الاتجاه المعيارى وما تضمنته من ابعاد انسانية فى الظواهر الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ظهر الاتجاه الراويكالتى بكل ما يحمله من تضامن نقدية وثورية للعلم والمشتغلين به كرد فعل واضح لأخفاق البنائية الوظيفية فى ترصد ظواهر الدوافع المتقد بكل ما كان يحمله من تناقضات بنائية .

على أية حال ، ان أزمة نظرية علم الاجتماع حازا التى مستمرة ومازالت حركة النقد الداخلى للعلم والمشتغلين به جارفة بكل رموز الاتجاهات السابقة . وللأسف فأنه مسار علم الاجتماع العربى قد وقع فى شرك التخبط النظرى للعلم الاجتماع الغربى . والمحاولات التى قدمت فى هذا الشأن مازالت التى فى بداياتها ولم تتبلور بعد لتشكل اطر نظرية عربية أو اسلامية . والامل مازال معقودا على الباطن العربى لتطوير متطورات نظرية تحقق الرؤية الشمولية للواقع العربى

وقد حاولنا فى هذا المؤلف ان نجمع معظم الاتجاهات النظرية الحديثة والمعاصرة ، كذلك تعرضنا لازمة علم الاجتماع العربى وتبعه علم الاجتماع العربى . ونرجو من هذا المؤلف ان يكون اضافة للمكتبة العربية وللباحثين فى علم الاجتماع .

وعلى الله قصد السبيل

المؤلفون

الفهـــرس

الفصل الرابع

الاتجاه السيكولوجي

الفصل الخامس

الذات والمجتمع وعلم اجتماع الحياة اليومية

الفصل السادس

التفاعلية الرمزية : منظور مغاير

الفصل السابع

نظرية التبادل الاجتماعى

الفصـــل الثـــامن

البنيـــوية

الفصل التاسع

علم اجتماع المعرفة والثقافة

الفصـل العـاشر

المناهج الشعبية « الاثنوميثودولوجيا »

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الاتجاه النقدى فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الثالث عشر

الاتجاه الراديكالى

الفصل الرابع عشر

الديموقراطية والتصنيع والنظرية السوسيولوجية

الفصل الخامس عشر

علم اجتماع الطبقة والسيطرة

الفصل السادس عشر

ازمة علم الاجتماع الغربى والبدائل المطروحة



الفصل الأول
ملامح النظرية السوسيولوجية المعاصرة

الفصل الأول

ملامح النظرية السوسيولوجية المعاصرة

كان التطور السريع الذى حدث فى العلوم السياسية والاقتصادية والعمرانية أثرا فى ظهور علم الاجتماع - حيث ظهرت الحاجة الماسة الى تنظيم علمى وعملى فى شئون الحياة الاجتماعية بالاجمال. وقد استعار المفكرون المعاصرون أصول نظرياتهم من اراء كونت ودوركايم وزيمل وسبنسر وأضفوا عليها بعض خصائص الحياة المعاصرة . واختاروا من نظريات الرواد ما يساعدهم فى فهم المشاكل التى تواجههم وكيفية حلها [1].

ولقد لمس العلماء المعاصرون ضرورة الاهتمام بالاصلاح الاجتماعى وتقديم الحلول للمشاكل الاجتماعية التى تواجهها الشعوب والقواد ، فبدأو فى الاتجاه العملى فى نظرتهم الى المجتمع ونزلوا الى الميدان - الحقل الاجتماعى - لأن النزول الى الميدان يكشف للباحث عن المشاكل والامراض التى تتطلب العلاج السريع ، فمعظم هؤلاء العلماء فهموا علم الاجتماع بمعنى علم الاصلاح الاجتماعى أو علم الطب الاجتماعى وهو علم وقائى وعلاجى فى الوقت ذاته [1]. وحتى علماء الصف الأول الذين تشبهوا بالفلاسفة الاجتماعيين وأخذوا يبحثون فى الأصول الفلسفية والنظرية لحقائق الاجتماع لم يلجأوا الى ذلك حبا فى البحث النظرى المجرد لذاته ، ولكنهم كانوا يريدون الانتفاع بما ينتهون اليه من حقائق فى أعمال التنسيق والتنظيم الاجتماعى وأعمال الرعاية والانعاش والخدمات الاجتماعية ، ومحاولة الارتقاء

---

(١) نقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمد وعواد واخرون ، الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٢ .

بالأوضاع والنظم القائمة أى أن أغراضهم كانت أغراضا عملية تطبيقية قبل كل شئ وارادوا أن يمهدوا لها بقدر يذكر من الدراسة النظرية التحليلية [1] .

هذا ، وقد حمل لواء الحركة الاجتماعية فى مستهل قيامها علماء يعتبرون من الدليل الأول نخص منهم بالذكر لستروارد L.Ward الذى أعتبر علم الاجتماع علم العلوم . وهو فى هذا الصدد ينقل فكرة أوجست كونت الذى ذهب الى أن قيام علم الاجتماع يحقق وحدة المعرفة الوصفية وهو العلم الذى يتزعم العلوم الانسانية . كما تأثر بدوركايم حيث أعتبر المجتمع قوة روحية خالقة تخلق القيم الأخلاقية والعقلية والمعايير الجمالية وتصطلح على الأوضاع والظواهر التى تسود حياة المجتمع .

وكذلك العم سمول Small بدراسة مظاهر التطور والتغير الاجتماعى بعيدا عن الفلسفة وقريبا من الموضوعية وذلك بتتبعه ما طرأ على العلاقات والظواهر الاجتماعية من تغيرات وتحولات – غير أنه أرجع القوى المؤثرة فى هذا التطور الى المحركات النفسية والرغبات الفردية – وبذلك خلط بين حقائق الاجتماع ومطالب النفس الانسانية .

ومن المعروف ان دراسة سمنر Sumuner قد اهتمت بدراسة العلاقات الاجتماعية وتطورها والقوانين التى تخضع لها فى دراسته الى الاتجاه التطبيقى ، ووضع نظريته فى تصنيف المجتمعات حيث قسمها الى جماعات داخلية وأخرى خارجية وذلك على أساس تصنيفه للعلاقات والعمليات الاجتماعية . وأولى مزيد اهتمامه لدراسة العادات والعرف والتقاليد ومختلف مظاهر السلوك الجمعى Folk ways ومعظم بحوث

(١) المرجع السابق .

هذا العالم مستمدة من الملاحظة والتجربة ومن الميدان الاجتماعى . وقد اسبغ هذا الاتجاه على الدراسات الاجتماعية صفات خاصة حددت شخصية علم الاجتماع المعاصر (١) .

ويمكننا أن نضيف الى هؤلاء علماء أخرون ساروا بالدراسات الاجتماعية نحو النضج والاكتمال والتخصص بعد أن اجتازت هذه الدراسات مرحلة النشاة والتكوين بفضل علماء الصف الأول . ومن أشهر هؤلاء العلماء زنانيكى ووليم توماس اللذان وضعا بحثا عن الفلاح البولندى فى أوربا وأمريكا . والعالمان بارك وبرجسون اللذان وضعا كتابا عنوانه « مقدمة فى دراسة علم الاجتماع » يعتبر أحسن ما كتب بشهادة كثير من النقاد المتخصصين ، فقد عالج فيه المؤلفان موضوعات تتعلق بالصراع والتنافس والتمثيل الاجتماعى والسلوك الجمعى والشخصية الاجتماعية .

ولقد كان لانتشار النظم الفاشية والنازية والشيوعية فى أوربا وما فرضته هذه النظم من حجر على الحرية الفكرية ثم قيام الحرب العالمية الثانية ، أثر فى هجرة عدد كبير من علماء الاجتماع النارزين من أوربا الى أمريكا . وكان من الطبيعى أن تقوم حركة واسعة النطاق لنقل التراث الأوربى الى أمريكا وكانت كتب الاجتماع فى مقدمة التراث الأوربى الذى ترجم للانجليزية ، لأن المجتمع الامريكى كان فى مساس الحاجة الى هذا اللون من الدراسة والبحث . لأن الامريكيين بطبيعتهم لايميلون الى الدراسات الفلسفية والميتافيزيقية بل يميلون الى الدراسات المتصلة بشئون الحياة وخاصة الحياة الاجتماعية . هذا ، الى أن ظروفهم الخاصة وتطور حياتهم بسرعة فائقة الزمهم بضرورة دراسة الحركات الاجتماعية

---

(١) المرجع السابق .

التى أدت بهم الى ما استحدث من أوضاع ، فساعد ذلك على نمو وتقدم الدراسات الاجتماعية العملية .

ولعل أهم الموضوعات الدراسة التى تستأثر بمزيد من عناية علماء الاجتماع المعاصرين ما يأتى [1] :

١- دراسات تاريخية فى علم الاجتماع . وقد تقدم هذا النوع من البحث في الثلاثين سنة الأخيرة . وكان فى طليعة القائمين به العلامة جيدنجز فى كتابه مبادىء علم Principles of Sociology والعالم سوروكن Sorokin فى كتابه Social and Cultural Dynainions وبيكر فى بحوثه عن أسس الدراسة ومناهج البحث Pynmics فى علم الاجتماع .

٢- دراسات فى أثر العوامل الجغرافية والبيئية فى المجتمع . وكان القائمون بها تلاميذ مدرسة « راتزال » .

٣- الدراسات الايكولوجية Ecology وهى دراسات تتعلق بالبحث فى البيئة الاجتماعية . وقد تقدم هذا النوع من الدراسة فى الربع الأول من القرن العشرين وكان الدافع الى سرعة نمو المدن الصناعية وزيادة المؤسسات وتعقد العلاقات الاجتماعية فيها وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية والسياسية وتبعا لزيادة عدد السكان واهتم القائمون بهذه الدراسة بالمسائل المتصلة بانتشار الجرائم ولاسيما جرائم الاحداث وانحلال الروابط الاسرية ، وانخفاض المعايير الاخلاقية ومستويات الذوق العام .

٤- الدراسات الاثنولوجية والانثروبولوجية ، والبحث فى أصول

(١) المرجع السابق .

الثقافات ومدى انتشارها . وكان الدافع الى هذه الدراسات زيادة تيارات الهجرة حيث اهتموا بتحليل أصول الاجناس وكشف مهادها وتتبع تفرعها وتشعبها ودراسة نفسية الجماعات والعلاقات الاجتماعية التى تسودها . وأهتم كثيرون من أنصار هذه الدراسة بدراسة العادات الشعبية الدارجة والتقاليد ومظاهر العرف وغير ذلك .

٥- مدرسة الاجتماع البيولوجى . وتعتبر هذه المدرسة فرعا من مدرسة هربرت سبنسر حيث اهتم انصارها بعقد مقارنات بين المجتمع والكائن الحى ، فاتجه البعض الى دراسة المشكلة السكانية وهناك من بين الباحثين من درس أثر الوراثة فى مشكلات المجتمع وأهتم بعض آخر من الباحثين بدراسة مشاكل تحسين النسل والمشاكل الجنسية .

٦- علم الاجتماع النفسى Phsycological Sociology وأهتم أنصاره كولى Cooley وروس Ross وجيدنجز Gidding بدراسة العلاقات الاجتماعية فى ضوء مبادىء وقوانين علم النفس كدراسة الجماعات الاجتماعية والقيادة والرأى العام والشائعات وغير ذلك .

٧- دراسة العمليات الثقافية وتطور النظم الثقافية والاجتماعية .

٨- علم الاجتماع الاقتصادى : وأهتم الباحثون فى هذا التخصص بدراسة الناحية الاقتصادية وأثرها فى تنفيذ برامج الانعاش الاجتماعى - وما بين الحياة الاجتماعية والاقتصادية من تأثير وتأثر متبادل .

٩- علم الاجتماع الجنائى : ويحكم هذا المجال الجريمة فى نشأتها ومقوماتها والظروف المهيئة لها ، وأثر الوراثة الفردية والاجتماعية فى زيادة موجاتها - ودراسة الانحراف لدى الاحداث واسبابه وكيفية علاجه كذلك دراسة نظم السجون ومراقبة المنحرفين .

١٠- دراسات فى الأسرة وعلم الاجتماع العائلى : وفى هذا المجال نجد اهتمام ظواهر الزواج والطلاق والحقوق والواجبات الاسرية وانحلال الروابط الاسرية وتفكك العلاقات بين الاقرب وغير ذلك من دراسات .

١١- دراسة اجتماعية للوحدات الاقليمية Regionalism وفى هذا التخصص يدرس اقليم دراسة شاملة تتناول خصائصه الثقافية ونظمه الاجتماعية وسلوكه السياسى ، فهى تدرس اقليما اجتماعيا ليست له حدود سياسية أو ادارية وله ظواهره الاجتماعية وتياراته الفكرية وما يسودها من اتجاهات سوية أو شاذة ومعايير فى الذوق والفن والأخلاق والرأى العام .

١٢- دراسة التغير الاجتماعى Sociology of Change ويهتم القائمون به بدراسة المخترعات الحديثة وأثرها فى التغير الاجتماعى وتطوير الحياة الاجتماعية فى مختلف المجالات ، ودراسة ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من مظاهر التقدم والتحسن المطرد فى الأحوال المادية والمعنوية كذلك دراسة معوقات التقدم الاجتماعى والثقافى .

١٣- دراسات عملية تطبيقية فى الميدان الاجتماعى : وفيها يقام بدراسات وابحاث ومسوح اجتماعية لبيئات محدودة ولمدن معينة للوقوف على احتياجاتها الاجتماعية ومحاولة القضاء على الانحرافات غير السوية التى تنتشر فيها نتيجة للتغير الاجتماعى السريع ودراسة أثر الهجرة الخارجية على المجتمع .

١٤- علم الاجتماع الثقافى : لما كانت الحياة الاجتماعية تتطلب توجدا فى المواقف والاتجاهات وتجانسا فى القيم ، وتوافقا ضروريا بين مختلف الانماط الاجتماعية من هنا نشأت الحاجة الى ضرورة دراسة الميدان الثقافى دراسة علمية والوقوف على القوانين التى تحكمه

وهذا ما يهتم بدراسته علم الاجتماع الثقافى حيث يحاول سد الفراغ بين التقدم الثقافى والتخلف الاجتماعى حتى تسير الحياة الاجتماعية بطريقة موحدة .

١٥- دراسات اجتماعية فى الحروب واقتصاديتها ، وذلك من حيث نشأتها ودوافعها وأسبابها الكامنة فى طبيعة المجتمعات والنظريات التى قيلت بصددها .

على أية حال ، فبعد أن انتقل علم الاجتماع من القارة الاوربية الى امريكا فى بداية هذا القرن ، ظهر واضحا قياس علم الاجتماع الامريكى لتقديم تصور نطرى شامل للحياة والمجتمع الامريكى ومشامله ، ولهذا لجأ علماء الاجتماع الامريكان وأى الاستعانة بالاطر النظرية التى قدمها علماء الاجتماع الاوربين خاصة الفرنسيين والالمان .

ولهذا بدأت تظهر فى الأفاق تصورات نظرية لتفسير الواقع الغربى وتقديم الحلول العملية لما يعانيه من مشاكل وتقديم صورة متكاملة وعلمية لفهم السلوك الانسانى ومساعدة الانسان المعاصر على اتخاذ القرار .

الاتجاهات النظرية التى ظهرت فى المجتمع الغربى لم تكن لا استجابة للحاجة الملحة التى كان يعانى منها المجتمع الغربى ، ولهذا فالاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع الغربى المعاصر لم تكن « عبثا » أو رفاهية فكرية بقدر ماهى دليل عمل خاص يهدف الى التكامل مع البيانات المتاحة فى البحث وشاعر على وصف الواقع وتفسيره ، كما أنها تزود الباحث برؤية مستطبلية عن هذا الواقع ، وتحاول الساحقن فى تشكيل مستطيل يخلو من الاضطرابات والفوضى .

ان ظهور الاتجاهات النظرية [1] المعاصرة ماهو الا دليل على حيوية فكر العلماء المعاصرين حيث أن النظرية الاجتماعية المعاصرة ماهى الا نماذج عملية وتكاميلية فكرت ركود فعل لمواقف اجتماعية وتاريخية استقرت على البند الغربى فى فترات معينة . ولهذا لايمكن فهم هذه الاتجاهات الا بالكامل الدقيق للفترة التاريخية والمدرس الفكرية التى كانت سائدة فى تلك الفترة .

ان ما يمكن ان نخلص به عن خصائص النظرية الاجتماعية الكلاسيكية هو :

١- ان محاولات التنظر عن رواد المرحلة الكلاسيكية كان بمثابة استجابة فكرية للمنظر للبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية التى كان يعيشها مجتمعه فى تلك الفترة . ومن ثم جاءت ضرورة المحاولات التنظيرية كرد فعل لهذه المواقف والظروف المتغيرة .

٢- أن علماء الاجتماع المرحلة الكلاسيكية لم يحاولوا اجراء درجات امبريقية لاختبار فروضهم أو تساؤلاتهم العلمية ، واكتفوا بالاستعانة بالتاريخ والاحصاءات المتاحة لديهم ولهذا جاءت النظرية الاجتماعية فى المرحلة الملاسيكية غير مدعمة بالادلة الامبريقية عن الواقع الاجتماعى المعاش .

٣- عكس الاتجـــاه التطورى على مـــعظم منظرى المرحلة الكلاسيكية ، فلقد شغل معظم علماء الاجتماع فى تلك المرحلة انفسهم باثبات نظرية دارون فى النظم والفوارق الاجتماعية مثلها كونت وسبنسر ودوركايم وتوتير ونجدهم خبرت من غير ذلك .

(١) جراهام كينلوتش ، تمهيد فى النظرية الاجتماعية تطورها ونماذجها الكبرى . الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ترجمة سعيد فرج ، ص و - ز .

٤- ان القارىء لمعظم النظريات الكلاسيكية فالكثير من المفاهيم نجد واضحة وليس لديها دلالات امبريقية . كذلك الحال ، فإن هناك تأثير ملموس مع جاء من فلسفة التاريخ ، فمعظم المفكرين الاجتماعيين فى تلك المرحلة اهتموا بالكشف عن القانون العام الذى يفسر كل احداث التاريخ ومن ثم المجتمع الانسانى .

٥- تعد أبهر معظم منظرى المرحلة الكلاسيكية رباتنار ماركس - بالمثل الراسمالى الغربى ، ولهذا جاءت معظم النظريات الاجتماعية مدافعة عن هذا النظام وكأنه النظام الأمثل بلانسانية جمعاء . بل نجد أن منهم من حاول اطفاء الطابع الدينى على الراسمالية الحديثة ليكون هذا بمثابة نوع من التصديق الدينى على المجتمع الرأسمالى المعاصر .

٦- سيطر على الفكر السوسيولوجى القربى ثلاثة نماذج فكرية هى :

أ- النموذج العضوى والميثق فيه الاتجاه الوظيفى والبنائية التطبيقية فيما بعد (المجتمع نسق كلى تبعد من اطراء مترابطة ومتساندة تطبيقا كما هو الحال فى الكائن الحى) .

ب- النموذج الصراع وانبثق منه المدخل الراديكالى والنقدى فيما بعد (النجتمع يتكون من نسق به تعرى متعارضة متنافسة تتأصل من أجل وجودها) .

جـ - النموذج السلوكى الاجتماعى والذى تطور من خلاله كل نماذج التبادل والتفاعلية الرمزية (والمتبع يتكون من عدد متغيرين الانفراد والعلاقات الشخصية) .

٧- أما من ناحية المتهمين فلقد سيطر على النظرية الوسيلة

الكلاسيكية الجامعية مهمتين :

أ- الاتجاه الأول وهو الاتجاه الوضعى ويرى أن الباحث يتعامل مع الظواهر الاجتماعية من خلال مهتمية البحث في العلوم الطبيعية . فالباحث هنا مستقل عن الظاهرة التى يدرسها ، ولايتقبل منه أى أحكام قيمية ، كذلك فانه لايدرس الظاهرة الا ما هو قابل للقياس فقط .

ب - الاتجاه الثانى وهو الاتجاه المعيارى ويرى أن الباحث مطالب بفهم الظاهرة الاجتماعية من الداخل ولهذا فالباحث مطالب بالتوحد مع الظاهرة أو الفاعل (سوارترد أوجماعة) ولكن انه يقوم بعملية التخصص الوجدانى لكى يصل الى « الفهم » السببى للأفعال الاجتماعية .

٨- هناك اختلاف بين المدارس النظرية فى هذه المرحلة ، فعن القرشيه ترى أن الجماعة هى وحدة الدراسة والتحليل ، فيه نجد أن المدرسة الالمانية تؤكد على الفعل الاجتماعى ، وتميل مدارس فكرية اخرى لدراسة السلوك الاجتماعى غير أنه وحدة الدراسة والتحليل .

٩- ان الظروف الخاصة بنشأة النظر ومكانته العلمية رد الشعارت والظروف التى كانت سائدة فى عود لاشك ان لها تأثير مباشر على الصيغ النظرية التى قدمها . فالنظرية الاجتماعية ماهى الا رد فعل لمجموعة كامنه من الظروف المشكلات المجتمعية والشخصية .

أما عن ملامح التنظير فى المرحلة المعاصرة فيمكن اجمالها فى الاتى :

١ - ان نظرية علم الاجتماع المعاصرة مازالت متأثرة بالنماذج النظرية التى جاءت من المرحلة الكلاسيكية (العضوية - الراديكالية -

السلوكية الاجتماعية ، كذلك التى وسع المهتمين الوضعية المحدثة والاتجاهات الصارمة (القنوفوليفة - الاثنوثيولوحيا .. الخ) . على عكس النظرية الايضاحية التقليدية .

٢- اعتمدت النظرية المعاصرة على الادلة الامبريقية والتجريبى اكثر من اعتمادها عبر التاريخ والاحصاءات . ولقد اتيح التجريزى لعلمى مهنة لها ماكنة علمية متخصصة .

٣- حاولت النظرية المعاصرة الاهتمام بالسياسات الاجتماعية والتغير والاصلاح الاجتماعى والثورات والنظر الى الفرد على أنه اساس المجتمع المعاصر (الاتجاه الراريكالى) وما يتعرض له من تزييف لوعده .

٤- بعد ثورة الشباب وظهور الحركات الراريكالية والتعدية فى منتصف الستينات فى اوربا وامريكا بدء النظرية السوسيولوجية المعاصرة أثرا مع نفسها وبدت النقد الداخلى لمحتوى النظرية ومصداقيتها ووظائفها ومهمة عالم الاجتماه - المجتمع المعاصر والمهتمين المستحدثة ولهذا اظهرت الاتجا النقدية التى تطالب بمتطلبات نظرية ومهتمين جديدة .

ب - ان الأرمة التى توقعها جولدنر لعلم الاجتماع الغربى مازالت مستمرة وبدأت المؤلفات النظرية تنظر لعلم الاجتماع على الاجتماع كنظام عالمى أى عالم اجتماع اقليمى أو مؤبس والامل معقود على تجاوز هذه المرحلة وتقديم البديل النظرى الملائم .

الفصل الثانى

الاتجــاه الوظـيفى

الوظـيفية السوسيولوجية : ملامح عامة

مفهوم النسق .

الوظيفية وديالكتيك الحياة اليومية : ميرتون .

الوظيفية والصراع والتغير الاجتماعى .

الوظيفية والتدرج الطبقى .

الفصل الثانى

الاتجاه الوظيفى

ظهر الاتجاه الوظيفى أو الوظيفية Functionalism، أول ما ظهر كمنهجية ونظرية متميزة لدراسة المجتمع، فى أعمال كونت وسبنسر ودروكايم، وفى مجال الانثروبولوجيا ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر والبدايات الأولى من القرن العشرين فى كتابات العالم الانثروبولوجى رادكليف براون-A.R.Radcliffe Brown (١٨٨١-١٩٩٥) ومالينوفسكى B.Malinowski (١٨٨٤-١٩٤٢). غير أن دروكايم، بصفة خاصة، كان أكثر علماء الاجتماع تأثيراً فى تطور الوظيفية السوسيولوجية، وذلك لأنه كان يرى أن النظم الاجتماعية توجد فقط من أجل إشباع حاجات اجتماعية معينة. «فكل الأنساق الأخلاقية تشكل -على حد تعبيره- وظيفة التنظيم الاجتماعى»، وبغض النظر عن الحالات الشاذة وغير السوية، يطور كل مجتمع الأخلاقيات اللازمة لأداء وظائفه على نحو كفؤ وملائم. (Durkheim, 1953, P.56). وفى كتابة «قواعد المنهج فى علم الاجتماع» "The Rules of Sociological Method". «يقرر دروكايم صراحة أن وظيفة الواقعة الاجتماعية وظيفة اجتماعية لأنها تؤدى بالضرورة إلى نتائج مفيدة اجتماعيا. يقول :

«ولكى يمكن تفسير الظاهرة الاجتماعية، علينا أن نبحث عن السبب الكافى الذى أوجدها والوظيفة التى تحققها كلا على حدة (Durkheim, 1982, P.123.

ويرتبط السبب والوظيفة -عند دروكايم- بأهداف وغايات معينة وبخاصة الأهداف التى تعنى بالتضامن الاجتماعى والمحافظة على المجتمع ككل عضوى. وتحاول الوظيفية الشمولية - كما صاغها دوركايم- تفسير الوقائع لا من خلال التركيز على السبب الذى تعتمد عليه الوقائع الاجتماعية فقط، بل بتوضيح وظائفها فى «تأسيس التناغم والانسجام العام وتدعيمه». لذلك نجد

دوركايم فى تحليله لتقسيم العمل ينظر إلى تزايد الكثافة المادية والأخلاقية على أنه سبب كافى لوجود الظاهرة، بينما ينظر إلى الحاجة الاجتماعية التى تسبقها ظاهرة تقسيم العمل، والتى تتمثل فى تكامل البناء الاجتماعى للمجتمع الصناعى الحديث، على أنها وظيفة للظاهرة.

عنى دروكايم عناية خاصة بتوضيح أن وظيفة الوقائع الاجتماعية ذات طابع أخلاقى، ذلك أن النظم الاجتماعية تعمل فى العادة على تعزيز أهداف التضامن الاجتماعى. ومن ثم تشكل الأخلاق بناء للوظائف الاجتماعية يتجسد فى الضمير الجمعى للمجتمع ككل. وبهذه الطريقة يقوم نظام الدين والتعليم بوظيفة الارتقاء بالقيم الأخلاقية التى تعمل على تكامل الأفراد المختلفين فى «جمع» اجتماعى. وبالمثل تقوم «الجريمة» -كخاصية سوية وصحية فى كل المجتمعات بوظيفة تقوية وتدعيم المشاعر الجمعية من ناحية، وتسهيل «النمو السوى» للأخلاق والقانون من ناحية أخرى. ويرى دوركايم أن وجود السلوك الإجرامى يمثل مؤشرا على مرونة الضمير الجمعى، حيث يشير المستوى السوى للجريمة إلى أن الضمير الجمعى يفتقر إلى السلطة اللازمة لقمع كل الانحرافات داخل المجتمع. وتعكس الجريمة فى ذاتها وجود ظروف اجتماعية تمكن الأفراد من التعبير عن أنفسهم كأفراد. «فإذا لم تكن هناك جريمة فان شرطا مثل هذا لن يتحقق.... وبالتالى تبلغ المشاعر الجمعية درجة من الكثافة ليس لها مثيل من قبل فى التاريخ... كذلك يجب ألا تكون السلطة التى يتمتع بها الضمير الأخلاقى متطرفة، وإلا لن يكون هناك من يجرؤ على مهاجمتها من الأفراد، وبالتالى يصبح من السهل تحجرها فى شكل ثابت لايتغير». يكشف وجود الجريمة إذن عن أن المشاعر الجمعية ليست بالقوة الكافية لقمع أى شعور بالفردية (Durkheim, 1982, P. 101).

وفى الوقت الذى ظل فيه المدخل الوظيفى لدراسة النظم عند دوركايم مرتبطا باطار المذهب التطورى فى القرن التاسع عشر، مال دوركايم إلى تأكيد الأبعاد البنائية المتزامنة للمجتمع وذلك على حساب الأبعاد التاريخية والنشوئية والمرحلية. ولذلك كان لتصور المجتمع ككل متمايز ومتكامل - تقوم فيه العناصر المختلفة بوظائف مستقلة من أجل تدعيم الكل الموحد والمركب - أثره

الواضح فى عملية الفصل بين «الوظيفة» و«التطور»، وتصور أنماط اجتماعية مجردة وغير تاريخية مثل «التضامن الآلى» Mechanical Solidarity و«التضامن العضوى» Organic Solidarity وبنفس الطريقة، رفض كل من مالينوفكس ورادكليف براون - فى دراستهما للمجتمعات القبلية الباسيفيكية، وبخاصة جزر التروبرياند Trobriandوالآنداماه Andaman - المدخل التطورى الانتشارى، فى الوقت الذى أقرا فيه بأهمية التحليل البنائى. وبدلا من أن يتساءلا عن «كيف يظهر نظام أو عادة اجتماعية معينة؟»، عنى مالينوفسكى ورادكليف براون بالبحث عن «الكيفية والمدى الذى يكون فيه النظام أو العادة ملائما فى السياق الاجتماعى الأكبر، أو الكيفية التى يرتبط فيها الجزء بالكل. وعلى العكس من الانثروبولوجيا الثقافية الأمريكية، والدراسات الاثنولوجية الألمانية، طور علماء الانثروبولوجيا البريطانيون فى البدايات الأولى من القرن العشرين مدخلا سوسيولوجيا متميزا لتحليل البناء الاجتماعى للمجتمع باعتباره نسقا متكاملا.

لقد تخلى رادكليف براون بصفة خاصة عن البحث فى الأصل، والنشأة، أى دراسة الماضى التاريخى للنظم والعادات، وذهب إلى «أن كل ثقافة تشكل نسقا مترابطا ومتكاملا يعمل وفق قوانين عامة أو وظائف Radcliffe-Brown, 1953, P.180. كذلك أعلن مالينوفسكى أنه يتعين على الانثروبولوجيا أن تتعامل مع «المركب الكلى للعناصر الاجتماعية والنفسية والثقافية التى تتكون منها الحياة المشتركة للأفراد، وذلك لأن هذه العناصر متداخلة فيما بينها بالدرجة التى يصعب معها فهم أيا منها دون أن تأخذ فى الاعتبار كل العناصر الأخرى» (Malinawski, 1922, P.XVI). بهذه الطريقة حللت ظاهرة «السحر» فى ضوء ما تقوم به من وظيفة فى المجتمعات البدائية من خلال أشباعها لحاجة اجتماعية لايمكن لظاهرة أو عنصر آخر من عناصر الحضارة البدائية أن تشبعها». هذا فى الوقت الذى تتحدد فيه وظيفة الطقوس والشعائر الجنائزية فى «اطار ماتلعبه من دور فى الحياة الاجتماعية ككل، وبالتالى فى اطار ما تسهم به من نصيب فى الابقاء على الاستمرارية البنائية للمجتمع» ويشير مفهوم النسق الاجتماعى Social systemعند رادكليف

براون إلى «البناء الاجتماعي الكلي للمجتمع جنبا إلى جنب مع التركيب الكلي للاستخدامات الاجتماعية». كما يشكل النسق الاجتماعي في نظره «وحدة وظيفية Functional unit»، أو «حالة تعمل فيها كل الأجزاء في درجة كافية من الانسجام والاتساق الداخلي، أي دون حدوث صراعات دائمة لايمكن حلها أو تنظيمها». ومن هذا المنطلق، تمثل الثقافة كلاً متكاملاً بحيث يتطلب فهم أو تفسير أى معتقد أو عادة أو نظام ضرورة تحليله فى إطار ربط العنصر وظيفيا ببناء الثقافة كنسق (Radcliff-Brown, 1952, Ch.9).

تؤكد النظرة السابقة للمجتمع على عناصر الانسجام والاتساق دون أن تهتم بعناصر الصراع والتناقض. حيث تعرف الوحدة الوظيفية للنسق فى ضوء النظام الاجتماعى العام Social Order . وفى تعريفها للمجتمع فى إطار كلى شمولي، تقرر الوظيفية أنه طالما أن كل شئ داخل النسق هو بالضرورة «وظيفي» بالنسبة للكل، لذلك فان التغير – الذى يستند على الصراع – يجب أن يتصور على أنه يمثل تهديدا لأساس النسق ذاته. ومن هنا، يستند الميل نحو اعتبار الوظيفية سوسيولوجية محافظة على اهتمام الوظيفية بتكامل المجتمع ومماثلتة بالكائن العضوى الاجتماعى الذى تتوحد صحته أو سلامته الاجتماعية بالنظام الاجتماعى العام، بينما يتوحد «مرضه» بالصراع الاجتماعى. وفى هذا الصدد، كانت أكبر مشكلة واجهها دوركايم فى كتابه «تقسيم العمل» تتمثل فى محاولة التوفيق بين تزايد التمايز الاجتماعى فى المجتمعات المتقدمة وبين حاجتها للتكامل الاجتماعى. أن وظيفة تقسيم العمل –فى نظر دوركايم– هى أن يعمل، شأنه فى ذلك شأن عناصر الكائن العضوى الاجتماعى – على تعزيز الوحدة بينما يعمل شكله «غير السوى» على وجود الإنحلال والصراع الذى يسلم فى النهاية إلى تفشى حالات فقدان المعايير أو الأنومى Anomie. وعلى أية حال، يمكن النظر إلى الوظيفية الشمولية عند دوركايم – فى اهتمامها بمشكلات النظام الاجتماعى العام – على أنها محاولة لتطوير علم موضوعى للمجتمع يرفض التصور الأسمى للمجتمع باعتباره مكونا من أفراد، وبالتالى يرفض أى محاولة لتفسير الظواهر الاجتماعية فى حدود سيكولوجية.

لقد كانت الوظيفية، منذ مراحل تطورها المبكرة فى علم الاجتماع الدوركايمى، تمثل الاتجاه العام لعلم الاجتماع الأوروبى خلال السنوات الأولى من القرن العشرين. وفى المقابل كان علماء الاجتماع الأوائل فى أمريكا - مثل البيون سمول A.Small وروبرت بارك R.Park وتشارلز كولى Ch.Cooley وتوماس W.I.Thomas - أكثر انجذابا للمدخل الفردى السيكولوجى الذى طورته نظريات تارد G.Tard وزيمل G.Simmel، ذلك المدخل الذى انتقده دوركايم بشدة لفشله فى تفهم المجتمع كظاهرة جمعية. وبطبيعة الحال، كان الاتجاه الفردى الأمريكى، جنبا إلى جنب مع الاتجاه الامبيريقى وعلم النفس الاجتماعى، يمثل حجر عثرة أمام أى محاولة لتطوير نظرية عن المجتمع على غرار النظريات التى طورها علماء الاجتماع الأوروبيون. ومع أن تصورا جمعيا للمجتمع كان قد ظهر فى أمريكا فى فترة الثلاثينات فى شكل ماركسية دوجماطيقية، إلا أنه فشل فى أن يرسخ جذوره بعمق فى الثقافة الفكرية الأمريكية. وعلى أيه حال، لم يتطور الاتجاه الوظيفى السوسيولوجى ليصبح اتجاها مسيطرا على علم الاجتماع الأمريكى إلا فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ففى كتابة «المجتمع الانسانى Human Society» (١٩٤٩)، عرف كينجزلى دافيز K.Davis المجتمع فى حدود أطر سوسيولوجية كبرى Macro Sociological، مركزا بصفة خاصة على مفاهيم التكامل والبقاء وعلاقة الأجزاء بالكل، ثم سرعان ما أصبحت الوظيفية فى أعمال تالكوث باسونز T.Parsons (١٩٠٢-١٩٧٩) شكلا من أشكال «تحليل الأنساق».

ويعتبر بارسونز بحق أكثر الشخصيات أهمية وتأثيراً فى تحول علم الاجتماع الأمريكى من النظرية النفسية الاجتماعية ذات الصبغة الفردية إلى المنظور الشمولى المعادى للفردية والذى سيطر على علم الاجتماع الأمريكى فى فترة ما بعد الحرب. فقد كان بارسونز أول عالم اجتماع أمريكى يطور نظرية متماسكة عن المجتمع باعتباره كلا متكاملا، وذلك فى مقابل النمط السائد من الامبريقية السوسيولوجية المعادية للنظرية. ومع ذلك لم تكن أعمال بارسونز فى فترة الثلاثينات، والتى جمعت فى كتابه «بناء الفعل الاجتماعى»

The Structure of Social Action (١٩٣٧)، تتحدث بالتحديد عن اتجاه وظيفى واضح، بل كانت بمثابة تطوير للنظرية الطوعية الإرادية حول الفعل الاجتماعى التى أنفرد بها كل من فيبر ودوركايم لتصورهما أن التكامل الاجتماعى يتمحور حول المعايير العامة والمشتركة، وأن أعضاء المجتمع يجب أولا أن يتقبلوا القيم كمسائل مشروعة.

أكدت نظرية الفعل الاجتماعى عند بارسونز - تلك النظرية التى قللت من قدر ومكانة ماركس فى تاريخ النظرية الاجتماعية - الحاجة إلى وجود قيم محورية فى فترة ما من التاريخ الأمريكى - هى فترة الكساد فى الثلاثينات - وذلك عندما بدت القيم الأمريكية وكأنها أكثر اجهادا. لقد عارضت النزعة الطوعية لدى بارسونز النظريات الماركسية عن حتمية الصراع الطبقى والايديولوجيات الطبقية والنضال الطبقى، واعتبرتها فى مجموعها من قبيل النظريات الحتمية. ذلك لأن بارسونز كان يعتقد أن حل مشكلات التفكك وعدم التنظيم الاجتماعى انما يكمن فى تطوير المزيد من القيم الأخلاقية التى تدعم ترابط المجتمع كوحدة متماسكة، كما يكمن فى تأكيد الجوانب الطوعية والارادية فى الفعل. لذلك كان بارسونز يؤكد دائما على ضرورة أن يعمل الأفراد وأن يوجدوا الظروف الضرورية واللازمة لبعث الحياة الاجتماعية من جديد.

غير أنه خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وبدءاً بنشر مقاله عن «مكانة ومنظورات النظرية فى علم الاجتماع» The present position and prospects of systematic theory in sociology (١٩٤٥)».. تحول مدخل الفعل عند بارسونز إلى مدخل النسق، الذى قلل من شأن البعد الطوعى والإرادى. ففى الوقت الذى كانت «وحدة الفعل» نقطة الانطلاق الأساسية فى كتاب مثل «بناء الفعل الاجتماعى»، أصبح «النسق الامبيريقى» و «البناء الاجتماعى» يمثلان نقطة البدء فى كتاب مثل «النسق الاجتماعى» The Social system (١٩٥١)، حيث ركز فيه بارسونز اهتمامه على «تكامل دافعية الفاعلين مع المستويات الثقافية المعيارية التى تعمل على تكامل نسق الفعل

ويصل الأمر ببارسونز بعد ذلك إلى حد محاولته - فى أعماله اللاحقة - ربط الفاعل بالبناء الاجتماعى داخل إطار النسق الذى عرفه فى ضوء منظور معادى للأرادية والطوعية.

ومع بداية الخمسينات، لم تعد الوظيفية السوسيولوجية مجرد مدخل من المداخل السوسيولوجية، بل غدت منهجا وطريقة للبحث السوسيولوجى. ففى سنة ١٩٥٩، نشر كنجزلى دافيز مقالا له بعنوان «اسطورة التحليل الوظيفى كنهج خاص فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا» The Myth of Functional Analysis as special Mehtod in sociology and Anthropology» يعلن فيه أن الوظيفية ببساطة ليست إلا منهجا يستخدمه كل العلماء الاجتماعيين بغض النظر عما إذا كانوا يعتبرون أنفسهم وظيفيون أم لا. أن الوظيفية -على حد تعبير دافيز- منهجا لربط الأجزاء بالكل ولربط الأجزاء بعضها بالبعض، أنها - أى الوظيفية- منهج يتميز به أى علم. ثم يذكر دافيز أنه «إذا كان هناك منهجا وظيفيا فانه ببساطة سيكون منهجا للتحليل السوسيولوجى». ومع ذلك، انتقدت الوظيفية لأنها إلى جانب كونها لاتمثل منهجية محايدة فى العلوم الاجتاعية، فانها تمثل ببساطة تعبيرا مباشرا للأيديولوجية المحافظة. ففى محاولتها لتفسير الحاجة إلى الاستقرار والنظام الاجتماعى العام، فشلت الوظيفية السوسيولوجية فى تقديم التحليل الملائم والكافى لظواهر التغير والصراع الاجتماعى، خاصة وأنها أرجعت الأساس التاريخى للمجتمع كعملية وكبناء إلى مفهوم استاتيكى عن التضامن الاجتماعى والاجتماع. أن الوظيفية - على حد تعبير الفين جولدنر Alvin gouldner فى نقده لبارسونز - تطنن بالمشاعر التى تحبذ الاحتفاظ بالمزايا والامتيازات... أنها نظرية تتخذ من الأبقاء على النظام الاجتماعى العام محور اهتمام لها .... لذلك نجدها من الناحية الأيديولوجية تصادف هوى فى نفوس من لد يهم الكثير ويخشون ضياعه» (gouldner, 1971, PP. 243-4).

ويتشابه نقد جولدنر للوظيفية، وبصفة خاصة نقده لأعمال بارسونز - مع نقد س. رايت ميلز C.Wright Mills لها فى فترة الخمسينات، حيث

عرف ميلز الوظيفية بأنها مثال لما أسماه بـ «Grand Theory»، فهي تعكس القيم المسيطرة على الرأسمالية الأمريكية، وتفشل في الوقت نفسه في تفسير حقيقة وواقع القوة في المجتمع». وفي تحليله لأعمال بارسونز في كتابة «الخيال السوسيولوجي» «The Socological Imagination» (١٩٥٩)، ذهب ميلز إلى أن النظام المعيارى الذى عرفه بارسونز كأساس لأى نسق اجتماعى يفشل تماما فى شرح حقيقة أن هناك فى كل المجتمعات من يقوم بصنع القرار وإن هناك أيضا من يطيعه ويمتثل له. أن نظرية بارسونز –على حد تعبير ميلز– تفترض أن الأفراد فى نهاية الأمر يحكمون أنفسهم عن طريق الاجماع والاتفاق الاجتماعى الذى يبطل مسبقا أى اعتبار بامكانية التلاعب بهذا القبول والاجماع» (Mills, 1959, Ch.2).

وبوجه عام يمكن القول بأن هذه الانتقادات السابقة أخطأت الهدف : فمنها من انتقد باسونز لأن الذات الإنسانية كانت قد اختفت داخل الإطار التصورى لنظريته الاجتماعية، ومنها من اتهم الوظيفية بافتقارها إلى الاهتمام الذاتى بمسائل القوة. غير أنه لايمكن أن يحكم على الوظيفية بالاعدام، لأنها اهملت موضوع القوة في المجتمع، أو لأنها غفلت عن مشكلات الصراع الاجتماعى والمصالح المكتسبة. فالحقيقة أن أعمال بارسونز تنطوى على مناقشات كثيرة حول مصادر الصراع والقوة. وفي الوقت الذى كانت فيه قضيته الأساسية تدور حول تفسير النظام الاجتماعى العام، إلا أنه وعلى نحو تلقائى عفوى ركز اهتمامه على بعض العناصر التى تميل إلى إحداث عدم الاستقرار الاجتماعى. زد على ذلك أن الحاجة إلى التماسك وبالتالى إمكانيات حدوث تغير اجتماعى كلها أمور مقنعة، بمعنى أنه يتعين على كل نظرية سوسيولوجية أن تربط بين تحليل الديناميكا والاستاتيكا، أى الثبات والتغير. بهذه الروح ذهب روبرت ميرتون R.K-Merton إلى أن الوظيفية أبعد من أن تجسد أيديولوجية محافظة، وأن الوظيفية السوسيولوجية يمكن أن تكون ذات طابع نقدى راديكالى، وذلك عندما تشير إلى مظاهر الفشل أو الخلل الوظيفى فى بعض

النظم التى تبدو أنها عاجزة عن إشباع الحاجات الجمعية للمجتمع. أن تطوير واستخدام بعض الكتابات الوظيفية لمفاهيم مثل « البدائل الوظيفية» و«المقومات الوظيفية» و« التوازن المتحرك» و«التوحد» ، جنبا إلى جنب مع اهتمام بعض هذه الكتابات «بالوظائف الايجابية للصراع الاجتماعي» ودوره الخلاق فى التغير المنظم، من شأنها أن تضعف الانتقادات التى وجهت للوظيفة كنظرية للحفاظ على النسق، والتماسك. لذلك، كانت الوظيفية فى نظر ميرتون مثلا نظرية محايدة من الناحية المنهجية، لكنها تأخذ لونا ايديولوجيا فقط من خلال توجيهها سياسيا. أن التحليل الوظيفى - على حد تعبير ميرتون - يخلو من أى ارتباط ايديولوجى معين. ولكن ذلك لايعنى أن هذا الارتباط الأيديولوجى لم يكن متضمنا فى أعمال بعض المحللين الوظيفيين، بل يعنى أن هؤلاء سيظلوا غرباء أو متطفلين على النظرية الوظيفية (Merton, 1957, PP. 38-43) ولكن، ماهى الوظيفية السوسيولوجية إذن؟

الوظيفية السوسيولوجية : ملامح عامة :

بمقدورنا أن نلخص الخصائص المميزة للوظيفية السوسيولوجية على النحو التالى:

١ - أن المجتمعات عبارة عن «كليات» ، أى أنساق من أجزاء مترابطة فيما بينها ارتباطا متبادلا. ويكتسب كل جزء ماله من معنى فى ضوء علاقته بالكل، كما يقوم كل جزء بأداء وظيفة معينة داخل النسق. لذلك فالمجتمع عبارة عن نسق من عناصر بينها ارتباط واعتماد متبادل بحيث يسهم كل منها فى تكامل النسق وتوافقه ككل. ومن ثم، تصبح العملية الاجتماعية ذات طابع تعددى تبادلى.

٢- أن مفهوم النسق - وهو فى الأصل مفهوم سوسيولوجى مشتق من أعمال باريتو - مفهوم محورى لكل أشكال الوظيفية السوسيولوجية. لذلك كانت العلاقات الوظيفية بين الأجزاء والكل هى أهم ما يميز الوظيفية عن المداخل الكلية والشمولية الأخرى Holistic. فالمجتمع وفقا لوجهة النظر الوظيفية عبارة عن بناء من عناصر لها شكلها النمطى، أما نقطة الانطلاق فتتمثل فى النسق ككل وفى العوامل الضرورية واللازمة لبقائه ونموه

وكفاءة أدائه الوظيفي. من هنا تختلف «وظيفية الأنساق» Systemic Functionalism عن الوظيفية العامة : حيث تنطلق وظيفية الأنساق بدءا بافتراض أن كل العناصر تسهم فى المحافظة على الكل، بينما تعنى الوظيفية بشكلها العام بالوظائف الإمبيريقية للعناصر المختلفة التى قد تسهم وقد لاتسهم فى المحافظة على الكل. ومع ذلك تعنى الوظيفية بشكليها العام والنسقى بما أسماه ميرتون «بالنتائج الموضوعية والخارجية التى يمكن ملاحظتها»، ولاتعنى «بالميول أو الأهواء الذاتية (كالدوافع والمقاصد) التى تشكل فى النهاية أساس كل وظيفة تقوم بها العناصر أو الأجزاء.

٣- أن كل العناصر التى يتركب منها النسق الاجتماعى مقومات ضرورية لاغنى عنها بالدرجة التى تقوم فيها بأداء بعض الوظائف الخاصة التى ترتبط «بحاجات» النسق كنسق. وفى هذا الصدد، طورت الوظيفية البارسونية فكرة «المتطلبات الوظيفية Functional Pre-Requisites» للأنساق الاجتماعية، يشير بها إلى الأشياء التى يجب أن تتحقق فى أى مجتمع إذا أريد له الاستمرار والبقاء. أى تلك الظروف والشروط العامة والضرورية للمحافظة على النسق وتشتمل هذه المتطلبات الوظيفية على تهيئة العلاقة الملائمة بين الفرد والبيئة، وعلى تمايز الأدوار واكتسابها، وتوجيهات معرفية مشتركة وأهداف واضحة، وعلى الانتظام المعيارى للوسائل، وتنظيم التعبير العاطفى، والتنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى للسلوك الانحرافى. وكثيرا من المتطلبات الوظيفية يكون دائما متضمنا فى أى تصور للمجتمع، ولذلك فان ذكرها وتفصيل الحديث عنها يكون من قبيل اللغو والتكرار : حيث يتعين أن يكون لكل المجتمعات أنماط للتنشئة ووسائل للاتصال، طالما أنه لايستقيم ولايتحقق أى تصور للمجتمع بدونها بغض النظر عما إذا كانت نقطة الانطلاق النظرية لهذا التصور وظيفية أو اسمية أو فعل اجتماعى أو ماركسية. ومع ذلك، يعود بارسونز مرة أخرى فيجمع هذه المتطلبات الوظيفية مصنفا أياها إلى أربعة مقولات أساسية هى التوافق Adaptation، وتحقيق الهدف Goal attain-ment والتكامل Integration والكمون Latency (يوجز بارسونز المتطلبات

الأربعة في (AGIL). فيشير التوافق إلى النشاطات التى من خلالها يتوافق النسق مع بيئته كما يعد لها ويسيطر عليها وفقا لحاجاته. أما تحقيق الهدف تشير إلى تحريك الموارد بهدف تحقيق أهداف بعينها والبحث عن هذه الأهداف بطريقة منهجية، ويشير التكامل بدوره إلى تماسك النسق وتضامنه وبقائه ككل متماسك، ثم أخيرا يشير الكمون إلى عملية تراكم الطاقة وتوزيعها، تلك الطاقة التى تأخذ شكل الدافعية. (Parsons, 1967). وفى كتاباته الأخيرة أشار بارسونز إلى هذا المتطلب الرابع تحت مسمى «تدعيم النمط Pattern Maintenace أو «إدارة التوتر» "Tension Manage-ment". وعلى الرغم من أن تأكيد بارسونز كان موجها وبوضوح نحو التضامن والتماسك والاستقرار الاجتماعى، إلا أن التغير كان ماثلا فى شكل تمايز بنائى يمكن النسق الاجتماعى من الاستجابة لحاجاته. ومع تزايد المجتمعات تعقيدا تنمو أنماط جديدة للتكامل.

٤- أن تكامل كل أجزاء النسق - أى الأنساق الفرعية - لايكون كاملا أبدا. وفى هذا الصدد، نجد ميرتون يصف الوظيفية العامة بأنها «مثال» لايمكن أن يتحقق فى الواقع : فعلى سبيل المثال أكدت أعمال دوركايم فكرة عدم الاستقرار - أى الطابع الهش والقابل للكسر الذى يتميز به التماسك الاجتماعى داخل المجتمعات المتقدمة وما يرتبط بها من مشكلات تكامل الفرد فى الكل الاجتماعى. أن الاتجاه الأساسى للأنساق الاجتماعية يكون نحو تحقيق التوازن والانسجام بين النظم الاجتماعية، ومع ذلك فان عناصر «اختلال التكامل» تكون دائما موجودة بما يؤكد أهمية ميكانيزمات الضبط الاجتماعى.

٥- أن الإنحراف والتوتر والضغوط توجد كلها كعناصر «تعويق وظيفى» تميل إلى أن تصبح ذات طابع نظامى، أو إلى أن تحل، فى خضم الاتجاه نحو التوازن والتكامل الاجتماعى.

٦- يأخذ التغير الاجتماعى طابعا توافقيا تدرجيا. فاذا كان هناك تغير اجتماعى سريع فانه يقع داخل النظم الثقافية أكثر مما يقع داخل النظم الاقتصادية.

وينطوى كل تغير اجتماعى، مهما كانت سرعته، على ميل نحو ترك الإطار النظامى الأساسى على ماهو عليه.

٧- يتحقق التكامل الاجتماعى بصفة أساسية من خلال الاجماع القيمى أو «الموجهات الإدراكية المشتركة»، أى من خلال مجموعة من المبادئ العامة التى تضفى على البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى القائم طابع المشروعية.

وفى بعض الأحيان، يميز الباحثون بين الوظيفية العامة والوظيفية المعيارية Normative. أما الوظيفية المعيارية، والتى ارتبطت بأعمال بارسونز على وجه الخصوص، فتفترض وجود «عناصر قيمية مشتركة «تشكل أساس التماسك الاجتماعى والاجماع، ذلك على اعتبار أن المجتمع عبارة عن نسق من أجزاء بينها ارتباط متبادل. وتؤكد الوظيفية المعيارية على إسهام الاجماع القيمى فى المحافظة على النسق الاجتماعى المتوازن والمتكامل. وهى تحاول أن تركب بين التصور الدوركايمى للمجتمع ككل متكامل معياريا من خلال القيم المشتركة، وبين نظرية الفعل الاجتماعى عند فيبر، وبين الفرد والمجتمع، مؤكدة مركزية التحليل الوظيفى للأدوار و العمليات والمعايير والنظم الاجتماعية التى تسهم فى الضبط الاجتماعى. وتعنى الوظيفية العامة والوظيفية المعيارية معا بتصور المجتمع كنسق تكون فيه التنشئة عنصرا هاما، الأمر الذى جعلها مستهدفة لانتقادات عدة تدور حول أن الوظيفية فى محاولتها تضييق نطاق الفردية والاختلاف (على اعتبار أن الاختلاف سلوك انحرافى) قيدت نفسها بتصور للإنسانية مبالغ فى طابعة الاجتماعى. حقا أن الوظيفية العامة تحاول أن تقلل من محورية التكامل الوظيفى للأجزاء، لتركز على نتائج الاختلال الوظيفى بين القيم المختلفة بل والمتعارضة، إلا أن هذا التمييز بينها وبين الوظيفية المعيارية ينطوى على قدر كبير من المبالغة : ذلك لأن اختلاف ما يسمى بأنصار الوظيفية العامة - مثل دافيز وميرتون - عن أنصار الوظيفية المعيارية اختلاف فى الدرجة وليس اختلافا فى النوع. إن كلا من الوظيفتين يسلمان - كما سنرى فيما بعد - بالنظرة إلى التكامل الاجتماعى على أنه

نتاج لكل من القوى البنائية والمعيارية بحيث لايمكن رده إلى واحد منهما دون الآخر

مفهوم النسق :

يرجع تطور مفهوم المجتمع كنسق إلى إنكار الوظيفية البارسونية. حيث رفض بارسونز النظريات الفردية الذرية التى سيطرت على علم الاجتماع الأمريكى المبكر، وذهب إلى أن نظرية عن المجتمع لا يمكن أن تبنى على الوقائع وحدها. ذلك لأن معطيات العلم الاجتماعى ذاتها يجب أن تبدأ من النظرية وأن تشتق من نظرية. فالواقعة أو الحقيقة عنده هى دائما قضية أو مسألة خبرة صيغت فى حدود إطار تصورى معين. كما أن الوقائع لاتسلم بذاتها إلى موضوعية خارجية، إذ أن النظرية مسألة ضرورية ولازمة فى نظر بارسونز ويختلف النظرية الكبرى - التى كان بارسونز يشير إليها فى حديثة - عن النظريات متوسطة المدى التى أشار إليها ميرتون فيما بعد. أن أهم ما يميز المدخل الوظيفى عند بارسونز عن وظيفية ميرتون العامة هو تصور بارسونز لمفهوم النسق. ففى كتابة «النسق الاجتماعى» ربط بارسونز مفهوم النسق بنسقين متمايزين من وجهة النظر التحليلية هما الثقافة والشخصية. ذلك أن النسق الاجتماعى يتكون - فى نظر بارسونز مفهوم النسق بنسقين متمايزين من وجهة النظر التحليلية هما الثقافة والشخصية. ذلك أن النسق الاجتماعى يتكون - فى نظر بارسونز - من مجموعة من الفاعلين يتفاعلون فى موقف سوسيوثقافى يتوسطه مجموعة من الرموز المشتركة والمنظمة ثقافيا. ويشير بارسونز إلى أن كل نسق اجتماعى يتركب من أربعة أنساق فرعية كبرى هى ونسق القرابة ونسق التدرج الطبقى ونسق القوة والنسق الدينى/ويختص نسق القرابة بصفة أساسية بعملية التنشئة الاجتماعية، بينما يمثل نسق التدرج الطبقى وسائل توزيع المكافآت داخل البناء الاجتماعى المتمايز ويعمل هذان النسقان الفرعيان السابقان على تدعيم نمط اللامساواة فى المجتمع وفى هذا الصدد يقول بارسونز

«ونتيجة لذلك، فان ارتباط النسق الصناعى المتمايز مهنياً مع نسق القرابة

سيؤدى إلى وجود نسق للتدرج الطبقى، فيه يحصل أطفال المكانات العليا على امتيازات خاصة بفضل مكانتهم القرابية الموروثة بحيث لايشاركهم فيها أطفال آخرون دونهم فى المكانة» (Parsons, 1951, P.161).

وتنقسم هذه الأنساق الفرعية الداخلية، أى الاقتصاد والسياسة والتنشئة الاجتماعية والمجتمع المحلى (وهى تقابل ما ذكره فى الفقرة السابقة أى نسق التدرج الطبقى ونسق القوة ونسق القرابة والنسق الدينى)، إلى أقسام أو أنساق فرعية أصغر للفعل هى (التوافق، وتحقيق الهدف، والتكامل، وتدعيم النمط أو (AGIL). وبطبيعة الحال، لم يعرف بارسونز المجتمع فى ضوء تفاعلات الأفراد، ولافى ضوء تركيبات جماعية لهذه التفاعلات، بل عرف المجتمع فى ضوء البناء الذى يربط الأفراد بالكل. ويؤكد مدخل الأنساق على عامل الدافعية، أى أن الفاعلين يتابعون أهدافهم داخل إطار من عناصر طوعية إرادية لايمكن أن تختزل إلى أفراد أو إلى تفاعلات ذرية.

ويعتبر «النسق» مفهوما محوريا فى نظرية بارسونز، يرتبط معناه ارتباطاً مباشراً بعلاقته بمفهوم البيئة. أما مفهوم «النسق الفرعى» Subsystem فقد مكن بارسونز من التعامل مع الفرد فى علاقته بهذه البيئة، فى الوقت الذى يظل فيه جزءا من نسق الفعل. لذلك يحتوى النسق الاجتماعى على مجموعة من العوالم الاجتماعية المتصارعة لكل منها ثقافته وقيمه الخاصة، ومن ثم يبدو النسق الاجتماعى مفتقرا إلى وجود مركز موحد ومتماسك وذلك رغم احتفاظه بكليته وشموليته. وفى الوقت الذى يتوافق فيه النسق أو الكائن الحى البيولوجى بالضرورة لبيئته، نجد أن النسق الاجتماعى كيان صنعته الإنسانية، فيه تحاول الجماعات الاجتماعية والطبقات الاجتماعية أن يكون لها هويتها الخاصة داخل الكل الاجتماعى، وتجاهد لأن تبقى مستقلة بذاتها فى حدود نظمها وقيمها. إن الوظيفية البارسونية لاتعرف أى معنى للمجتمع كبناء [illegible] متعدد الوجوه يبنى على أساس مصالح وقيم مختلفة. بل يميل كل نسق على حد تعبير بارسونز – إلى أن يحقق تماسكا شاملا يقوم على أساس توازن داخلى يخضع باستمرار للتغير مما جعل بارسونز يطلق عليه اسم «التوازن المتحرك». يقول بارسونز

«يتكون توازن النسق الاجتماعي ذاته من عدة توازنات فرعية ومتقاطعة فيما بينها مع أنساق متعددة للشخصية تختلف فيما بينها من حيث درجات توازنها الداخلى، لتكون أنساقا متوازنة ومختلفة مثل الجماعات القرابية والطبقات الاجتماعية والكنائس والطوائف والمشروعات الاقتصادية والأجهزة الحكومية. وتدخل كل هذه الأنساق فى توازن متحرك هائل وضخم، فيه تتواصل حالات عدم الاستقرار فى أى نسق فرعى للشخصية أو المجال الاجتماعي بطريقة تلقائية لتحدث اختلال فى توازن النسق الأكبر أو فى جزء منه يظل مستمرا إلى أن تحدث عملية جديدة لإعادة التوازن أو أن يتغير شكل التوازن الكلى». (Parsons and shils, 1962, PP. 226-7).

بيد أن هذا التصور الذى قدمه بارسونز يثير مشكلات عدة وذلك عند محاولة ربطه باهتمامه بالنزعة الطوعية وبالفعل الاجتماعى. فهو عندما تحدث عن مدخلات ومخرجات الأنساق الكبرى والأنساق الفرعية مثلا كان يبدو وكأنه يرفض الوظيفية المعيارية من أجل ما يمكن أن نسميه بالوظيفية السيبرناطيقية «Sybernetic Functionalism» والتى يصبح فيها المجتمع نسقا متوازنا توازنا ذاتيا وقائما بذاته. وبهذا المعنى سيطرت على أعماله نظرية تشيئية ولا انسانية للمجتمع، تقرر أن عملية التوازن تحدث خارج الفعل الانسانى مستقلة عن الوعى والمصالح والصراع. ومع ذلك نجده، حتى فى هذا التصور، يحاول أن يضفى طابعا كيفيا على استخدامه لهذه التصورات: فالتوزان – على حد تعبيره – ليس حقيقة أو واقعاً امبريقيا، لأنه ليس هناك مجتمع يتوازن بالمعنى الذى تتلاءم فيه أجزاؤه لبعضها البعض فى تناغم وانسجام كامل. أن التوازن كما يتصوره بارسونز أداة للتوجيه والإرشاد تستخدم فى ارتباط وثيق بمفهوم «مبدأ القصور الذاتى inertia» فغياب التغير داخل نسق الفعل يؤدى إلى حالة ركوده، ولكن أنساق الفعل فى الحقيقة تتعدل وتتغير باستمرار عن طريق عمليات مثل الاتصال والتمايز واتخاذ القرار. وتتضح هذه النقطة بصفة خاصة فى تحليل بارسونز للتكامل: فطالما لايوجد نسق يمكن أن يكون متكاملا على نحو تام، لذلك يصبح من اللازم تطوير بعض النظم التى تتوسط صراعات المصلحة المحتمل حدوثها والصراع الداخلى والمظاهر الأخرى لفشل

التنسيق، ومن ثم يعمل النسق الفرعي المتكامل على تحقيق توافق الأفراد لأهداف النسق الاجتماعي وذلك بايجاد قيم مشروعة، أي «بالتأسيس النظامي institutionalization لمتغيرات القيمة التي تحدد الأطار البنائي الأساسي للمجتمع وتنظم سلوك وحدات النسق وفقا لحاجات النسق إلى التكامل وتحول أو تعكس الاتجاهات التخريبية نحو السلوك الإنحرافي وتدعم في نهاية المطاف حالة التنسيق المنسجم والمتآلف» (Parsons & Smelser, 1959, PP. 16-23).

ويعمل توازن كل أجزاء النسق الاجتماعي على التوفيق بين الحالة السوية للمجتمع وبين الصراع ، وإن كان الصراع يمثل عنصرا غير سوي وعارض. لذلك يتميز المجتمع بوجود «توجيهات قيمية Value Orientations» تلتزم بها بعض الجماعات أو التجمعات المتماسكة (كأصحاب المهن الفنية العليا والعلماء ... إلخ) التي تستطيع بمرور الوقت أن تخترق النسق القيمي للمجتمع ككل. ويعرف بارسونز النسق القيمي بأنه مجموعة من الأحكام المعيارية التي يتمسك بها أعضاء المجتمع الذين يحددون مايبدو لهم مجتمعا فاضلاً» (Parsons, 1951, PP. 36-37). غير أنه في كثير من الأحيان قد لايتفق كل أفراد المجتمع بالضرورة على مايكون «المجتمع الفاضل». وعلى أية حال يبدو أن مدخل بارسونز لايتيح للأفراد إلا فرصة ضئيلة للاختيار في هذا الصدد. ذلك لأن المعايير والقيم والأهداف الجمعية تحكم وتوجه السلوك الفردي. ويتابع بارسونز دوركايم في تأكيده على الحاجة إلى ضبط الأفراد، حيث يقرر أن الأهداف الجمعية والاجتماعية - وليست الأهداف الشخصية- هي التي تدفع وتوجه الفرد نحو النسق القيمي. ولذلك فان استدماج الفرد للأهداف الجمعية يعني - في نظر بارسونز - تنشئته اجتماعيا، كما يعني زيادة تدعيم النظام الاجتماعي العام. والحقيقة أن نظرة مثل هذه توحي بعلاقة سلبية - وليست ايجابية - بين الفاعل الفردي وبين القيم، إذ أن عملية استدماج المعايير تقترب من عملية تكوين العادة، وبالتالي تعزيز الوضع القائم. ويستطيع الفرد من خلال المؤسسات المعنية بالتنشئة كالأسرة والمدرسة والمجتمع المحلي أن يستدمج وبنجاح الأهداف المجتمعية بالدرجة التي يصبح فيها النظام الاجتماعي العام حالة سوية لاتثير أية مشكلات. وشأنه شأن دوركايم، أكد

بارسونز على أن القسر والإجبار لايفرضان على الفرد، بل يتطوران بطريقة عضوية عن الشعور والضمير الجمعي، أى عن المجتمع. يقول «وبهذه الطريقة يكون المقوم الأخلاقي للضمير الجمعي اجتماعيا» لأنه يوفق مابين القيم المشتركة والعامة التى أمكن استدماجها عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية. (Parsons, 1967, PP. 27-28).

والثقافة عنصر له أهميته فى هذه العملية، لذا يذكر بارسونز فى حديثه عن ماركس «أن نظرية غير ملائمة للشخصية هى التى جعلت ماركس لايفهم حقيقة أن الفعل ليس إلا وظيفة لتنظيم السلوك فى ضوء قوانين عامة تسمح ببرمجة تنوعات واسعة وكبيرة من السلوكيات الخاصة». أن هذه القوانين الثقافية تكمن وراء المقومات المعيارية للمجتمعات. لأن المجتمع - على العكس مما ذهبت إليه النظرية المادية عند ماركس- لايسيطر عليه الصراع الطبقى والصراع الاجتماعى سيطرة تامة. ومن ثم نجد بارسونز يوصى بمفهوم «التضامن العضوى» عند دوركايم كأفضل طريقة لفهم المجتمع الحديث، ويذهب فى الوقت نفسه إلى أن افتقار المادية الماركسية إلى المفاهيم الملائمة عن النظام والشخصية جعلها تفشل فى تفسير ما أسماه بارسونز «بالتوجيهات الدافعة للعمل»، وأن نظرية ماركس الاجتماعية ستبقى نظرية ساذجة من الناحية السيكولوجية، لأنها فشلت فى تفسير أهمية العوامل الثقافية فى الأبقاء على النظام الاجتماعى العام وعلى التكامل الاجتماعى والتوازن» (Parsons, 1967, PP. 123-35).

ومما لاشك فيه، أن نقد بارسونز لماركس يركز على احدى نقاط الضعف الكبرى فى المادية التاريخية كما تطورت فى تحليل الرأسمالية الحديثة فى كتاب «رأس المال»، وأصبحت تمثل رؤية عالمية لدى الأجيال الماركسية اللاحقة. وتتمثل نقطة الضعف هذه فى اخضاع العنصر الطوعى الإرداى إلى قوانين كامنة وبناءات خارجية. والغريب فى الأمر أن هذا هو نفسه موقف بارسونز. والمثال على ذلك أنه على الرغم من انتقائه لفكرة الصراع الطبقى والتناقضات البنائية التى ارتكزت عليها الماركسية، نراه يطور مفاهيم مثل «الضغوط» و«التوترات» مشيرا إلى أن هناك فى المجتمع الحديث قدراً كبيراً من

الأنومى أو فقدان المعايير مما يوحى بامكانية حدوث صراع بنائى. غير أن النسق هو الذى ينتج الضغوط والتوترات - على حد تعبير بارسونز - بحيث تشير إلى فشل مؤسساته التى تعنى بالتنشئة والتنظيم. أما داخل المجال المغلق للنسق فلايوجد فى نظر بارسونز مجالا لفعل اجتماعى مستقل، لأنه ليس هناك مصادر لمعارضة مشروعة للقيم المحورية الشاملة، وليس هناك وسائل نظامية للتعبير عن إمكانية البدائل الاجتماعية أكثر من الشكل الإنحرافى. وهكذا فلحت الوظيفية البارسونية فى أن تمحو الذات الإنسانية من النظرية الاجتماعية.

الوظيفية وديالكتيك الحياة الاجتماعية : ميرتون :

فى حديثه عن الضرورة الوظيقية للدين فى المجتمع الصناعى الحديث، تقبل بارسونز محاولة دوركايم التى تربط بين الأخلاق والمقدسات مشيرا إلى فكرته الهامة حول التكامل والترابط الوثيق بين تسق الرموز الدينية للمجتمع وبين الأنماط والنماذج التى تجيزها المشاعر الأخلاقية العامة لأفراد المجتمع. (Parsons, 1954, P.206). وبنفس الطريقة كتب اثنان من أكبر ممثلى الوظيفية العامة هما (دافيز ومور) يقولان :

«ويمكن أن نعرف لماذا كان الدين ضروريا فى المجتمع بالرجوع إلى حقيقة أن المجتمع الإنسانى يحقق وحدته من خلال تمسك أعضاؤه بمجموعة من القيم والأهداف الكبرى والمشتركة. وعلى الرغم من أن هذه القيم والأهداف تحمل طابعاً ذاتياً، الا أن تأثيرها على سلوك الأفراد يكون واضحاً، كما أن تكاملها يمكن المجتمع من أن يعمل كنسق ... وحتى فى المجتمعات الدنيوية العلمانية فان ثمة نسقا لابد أن يوجد من أجل تكامل القيم والأهداف النهائية والتعبير عنها، ومن أجل تحقيق التوافقات العاطفية فى حالات الموت والموض والاحباط وخيبة الأمل (Davis and Moore, 1969, P.499).

وفى نقده للتفسير الوظيفى المتطرف للدين، ذهب روبرت ميرتون R.K.Merton (١٩١٠ - ...) إلى أنه على الرغم من أن وجود نسق اخلاقى فى المجتمع يعتبر أمراً ضروريا من الناحية الوظيفية، إلا أن الدين يمكن أن يكون

عاملاً لتحقيق الوحدة من وجهه النظر الوظيفية، وأن يكون فى نفس الوقت معوقا وظيفياً. ويشير ميرتون إلى أن التوجيه الدوركايمى للتحليل الوظيفى كان يستند فى أساسه على وظيفة الدين فى المجتمعات البسيطة أو «الأمية»، وعلى حقيقة أن هذه المجتمعات كانت ولاتزال تخلو من تواجد أديان مختلفة. أن اتجاه المجتمع الحديث نحو تعدد الديانات، إلى جانب تزايد التحول نحو دنيوية القيم والمعتقدات، أمر من شأنه أن يطرح تساؤلات عدة خطيرة حول الوظيفة التى يقوم بها الدين فى ذاته من أجل الارتقاء أو تدعيم الوحدة البنائية للمجتمع. اذ بأى معنى يستطيع الدين أن يحقق تكامل المجتمع الكبير اذا كان محتواه المذهبى وقيمه تبدو أمورا شاذة ومعارضة لمحتوى القيم غير الدينية التى يتمسك بها عدد كبير من أفراد نفس المجتمع؟. أما فى المجتمعات البسيطة أو «الأمية» فلايوجد فى العادة الا دين واحد يمكن أن يتخذ كنموذج للوحدة الوظيفية. لذلك، يرى ميرتون أن مفهوم «البديل الوظيفى» يلعب دورا هاما وملحوظا فى تحليل علاقة القيم بالتماسك الاجتماعى فى المجتمعات الحديثة. ومع أن هذا الموقف لايزال يوحى بفكرة «مركزية القيم الدينية» بالنسبة لتصور الوحدة الاجتماعية، إلا أنه يطرح فى الوقت نفسه تساؤلا حول درجة هذه الوحدة فى العالم الاجتماعى والتاريخى.

لقد أوضح ميرتون أن مسلمة الوحدة الوظيفية الكلية تتعارض تماماً مع الواقع الاجتماعى، كما أنها تعوق التحليل الاجتماعى لأنها تجذب الانتباه بعيدا عن تنوع وتعدد النتائج المحتملة لأى عنصر ثقافى واجتماعى لتجعله يركز فقط على تنوع الجماعات الاجتماعية والاختلافات التى توجد بين أعضاء الجماعات. فكل المجتمعات الانسانية - كما يقول ميرتون - مجتمعات متكاملة، ولكن عدداً قليلا منها هو الذى يتميز بدرجات عالية من التفاعل، فيها ينظر إلى أى نشاط أو معتقد قنن ثقافيا على أنه عنصر وظيفى بالنسبة للمجتمع ككل. وفى رفضه لفكرة الوحدة الوظيفية أو الضرورة الوظيفية للعناصر، طور ميرتون فكرة «توازن النتائج الوظيفية» التى تتجنب الاتجاه نحو التحليل الوظيفى، وتركز على الوظائف المحتملة. وفى هذا الصدد، يخلص ميرتون إلى أن هناك قضية نظرية هامة بالنسبة للتحليل الوظيفى هى « أنه كما

أن العنصر الواحد يمكن أن يؤدى وظائف مقصودة، كذلك فان الوظيفة الواحدة يمكن أن تقوم بها عناصر بديلة ومختلفة

يعرف ميرتون الوظيفة تعريفا موضوعيا بأنها «نتائج يمكن ملاحظتها تحقق توافق وتكيف النسق»، كما يعرف «المعوق الوظيفى» كنتائج تقلل من امكانية تحقيق هذا التوافق والتكيف. ويمضى ميرتون فى تعديل النظرية الوظيفية لتماسك النسق، فيميز بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة. أما الأولى Manifest Function فتتركب - فى نظرة - من النتائج الموضوعية والخارجية التى تسهل عملية توافق النسق وتكيفه وتكون «متعددة» ومدركة من جانب الأفراد. وعلى العكس من ذلك، تكون الوظائف الكامنة Latent Function الوظائف الكامنة غير مقصودة وغير مدركة. وكمثال على ذلك التمييز، يشير ميرتون إلى تحليل ثورستين فيلين Thostein veblen للنشاط الانسانى المرتبط «بالاستهلاك الترفى»، فهو من ناحية يشبع حاجات المستهلكين كأفراد «وظيفة ظاهرة»، ومن ناحية أخرى يعمل على تعزيز المكانة الاجتماعية طالما أن السلع لاتشترى بسبب منفعتها بل بسبب بهاظة أثمانها «وظيفة كامنة». وبهذه الطريقة فان ما يبدو فى نظر من هم خارج الجماعة على أنه سلوك غير عقلانى يقوم به أفراد جماعات أخرى قد يكون هو نفسه سلوكا وظيفيا بالنسبة للجماعة ذاتها. ومن ثم، تشكل الوظائف الكامنة فى نظر ميرتون تطوراً هاماً فى النظرية السوسيولوجية طالما أنها تتحدى المعارف الشائعة والمألوفة، وتركز فقط على المقومات الخفية للعمليات الاجتماعية. (Merton. 1957, PP. 27-33 & 51-58).

حاول ميرتون أن يقدم شكلا أكثر مرونة للتحليل الوظيفى، ولكنه عندما فعل ذلك كان قد طمس التمييز بين الفاعل والنسق: اذ يفترض نسق الوظيفة الظاهرة وجود قدر من الادراك من جانب الفاعل بالنتائج الفعلية المترتبة على الفعل. ولكن هل كان ذلك يعنى أن هناك لدى الفاعل نفس القدر من الادراك بنتائج الفعل على النسق ككل؟.أن النتائج غير المتوقعة للفعل، والتى عرفت بأنها وظائف كامنة ذات طابع نسقى هى الأخرى، بمعنى أنها تربط

الأفعال الاجتماعية الفردية بطريقة جمعية وبالمجتمع ككل ومع أنه تجنب استخدام مفهوم النسق اعتقادا منه أن التحليل السوسيولوجى يجب أن يبدأ بالوحـــدات والعناصـــر بدلا من النسق ككل، إلا أن فكرته عن البناء الاجتماعى، بأجزائه ذات الاعتماد المتبادل، كانت تتضمن مدخلا نسقيا حتميا، ظهر ذلك بصفة خاصة فى تحليله للوظائف الكامنة للنزعة الرئاسية Bossism أو «الاحتيال السياسى فى المجتمع الأمريكى».

فمن وجهة النظر السطحية، يلاحظ أن الجهاز السياسى غير المشروع يعتدى على كل المعايير الأخلاقية والقانونية المقبولة، ومع ذلك يفلح فى أداء بعض الوظائف الايجابية التى قد لاتقوم بها بناءات أخرى مشروعة بطريقة ملائمة أو كافية. فى هذا الصدد، يذهب ميرتون إلى أن الجهاز السياسى يقوم فى البداية بوظيفته كوسيلة لتمركز الأسس المبعثرة والمشتتة للقوى السياسية، كما يقوم الجهاز السياسى ثانيا بتقديم العون للجماعات الفرعية المحرومة التى لايتاح لها فرصة الحصول على قنوات مشروعة. ويقوم الجهاز السياسى الفاسد أو المنحرف فى النهاية بوظيفة أساسية تتمثل فى توفير سبل الحراك الاجتماعى للأفراد والجامعات المحرومة من الامتيازات ... فى مجتمع يشجع على الوفرة الاقتصادية والرقى الاجتماعى لكل أعضائه. لذلك لاتكون نزعة حب الرئاسة Bossism مجرد وسيلة للتوسع الذاتى لجماعة الأفراد المتعطشين للقوة والمنفعة فحسب، بل تصبح امدادا منظما للجماعات الفرعية التى استبعدت أو عوقت فى سباق تحقيق ما هو أحسن، الأمر الذى يجعل الاستهجان الأخلاقى لها أمرا غير ملائم لفهم الدور البنائى والوظيفى للجهاز السياسى (Merton, 1957).

من هنا تبقى الرئاسية كبناء فى نظر ميرتون، لا من خلال اشباعها لحاجات حيوية للنسق ككل، بل من خلال علاقة تبادل المنفعة التى توجدها بالوحدات الأصغر. أن معيار تبادل المنفعة norm of Receprocity يمكن العنصر من أن يتمتع باستقلاليته، ذلك أن علاقة الجزء بالكل ليست علاقة متكافئة، ومع ذلك فان الجزء أو النسق الفرعى لايمكن أن يفهم فى النهاية الا فى حدود النسق الأكبر بهذه الطريقة تتحول النتائج غير المقصودة لتتمثل

شكل بناء كامن أشبه «باليد الخفية» عند «سميث» أو أشبه «بديالكتيك ماركس للتاريخ» أن الرئاسيه فى نظر ميرتون أكثر من مجرد تخريب، انها عمليه تقوم بوظيفة مزدوجة على مستوى الوحدات الصغرى Micro والوحدات الكبرى Macro للنسق الاجتماعى، تعتمد وظيفتها الكامنة على فشل المؤسسات والنظم الأخرى داخل الكل الاجتماعى. لذلك ينهض تصور ميرتون للوظيفة الكامنة على التحليل النسقى، كما أنه يقلل من دور الذات طالما أن النسق ذاته هو الذى يحدد وظائف النظم وأهدافها المقصودة وغير المقصودة وذلك على مستوى الوحدات الصغرى.

من هذا المنطلق، تبدو النزعة المحافظة لوظيفية ميرتون واضحة حيث تفسر «الرئاسية» بعيدا بالتركيز على نتائجها على أولئك الأفراد الذين ينغمسون مباشرة فى أعمالها غير أن وجود التخريب السياسى وانتشاره يشكل بدوره خطرا وتهديدا على مشروعية النظام السياسى الديموقراطى. كما أن استمرار وجود هذا التخريب السياسى أمر من شأنه أن يضعف الايمان بالعمليات الديموقراطية فى المجتمع ككل لقد تطورت «الرئاسية» من وجهة النظر التاريخية عن ضعف المجتمع المدنى وعن الفشل فى تحول المجتمع ككل إلى الطابع الديموقراطى لذلك نجد ميرتون فى تحليله يتقبل - كأمر بديهى - الفكرة التى سبق أن شرحناها فى موضوع سابق، والتى مفادها أن «النزعة الصفوية El-itism»، أيا كان شكلها، تعمل على تدعيم وتعزيز بعض المصالح الخاصة ضد المصالح الأخرى التى تعارضها، وذلك من خلال تنظيم المجتمع من عل ويفترض تحليل مثل هذا وجود أفراد سلبيين، أى دوات تتلاعب بها الصفوة وتوجهها بالغش والاحتيال نحو أهداف لاتعرفها

وهناك انتقادات أخرى مماثلة توجه إلى أكبر اسهام لميرتون فى مجال الوظيفية، وهو دراستة لفقدان المعايير «الأنومى» والبناء الاجتماعى لقد قدم ميرتون تنميطا معينا لتصنيف التوافقات الفردية للانفصال بين الطموحات العليا التى تدفع الثقافة الى التطلع اليها، وبين العقبات أو المعوقات التى يضعها البناء الاجتماعى أمام سبل تحقيق هذه الطموحات، أى ذلك الانفصال بين النجاح

في كسب المال كهدف ثقافي مقنن ومعترف به رسميا «ولو أن ميرتون يشير إلى أن الثقافة الأمريكية قد حددت أهدافا أخرى للنجاح»، وبين الوسائل النظامية المشروعة لتحقيق هذا الهدف أن الثقافة تولد الدافعية دائما، بينما يشكل البناء الاجتماعي وسائل اشباع الطموحات والتطلعات . ولكن لايستطيع أى فرد - على حد تعبير ميرتون - أن يحقق هذا النجاح، ومن ثم ينتج فقدان المعايير أو الأنومي عندما يكون هناك انفصال حاد بين المعايير والأهداف الثقافية وبين قدرات أعضاء الجماعة لأن يعملوا وفق هذه الأهداف والمعايير. فى هذا الصدد يقدم ميرتون خمسة أنماط للتوافق هى:

١ - الامتثال للأهداف Conformity والوسائل النظامية وهو أكثر أشكال التوافق شيوعا وبدونه لايمكن لأى مجتمع أن يواصل وجوده وبقائه.

٢ - التجديد، innovation وفيه تتقبل الأهداف ولكن لاتوجد وسائل نظامية يمكن استخدامها لتحقيقها، مثال ذلك جرائم الياقة البيضاء.

٣-الطقوسية، Ritualisticوفيه يحط من قدر الأهداف بينما تتقبل الوسائل كأمور مشروعة، الأمر الذى يخفف توترات المكانة. فالفرد «الطقوسى» يستمر فى متابعة المعايير النظامية المفروضة، مثال ذلك البيروقراطى المتمثل.

٤ - التراجعية، Retreatism وهو نمط رافض للأهداف والوسائل معا، وفيه يتمثل الفرد كمعيار فكرة أن الفشل أو الاحباط يؤدى إلى التخاذل والصمت والانسحاب «الاستقالة»، أو يجنح إلى الهروب فى عالم خاص من ادمان المخدرات والمسكرات أو دنيا الصعلكة.

٥- التمرد والعصيان، Rebellion وهو ارتباط قبول ورفض الأهداف والوسائل معا وفى وقت واحد، كما هو الحال عند الأفراد الثوريين الذين يحاولون تشييد مجتمع جديد تماما، أو الذين يصبحون ناقمين وغير مقتنعين بفشلهم فى تحقيق الأهداف

تنميط نماذج التوافق الفردى

نموذج التوافق	الأهداف الثقافية	الوسائل النظامية
الامتثال	+	+
التجديد	+	−
الطقوسية	−	+
التراجعية	−	−
التمرد والعصيان	−+	−+

إن كل مجتمع ـ فى نظر ميرتون ـ يولد المعايير التى تحكم السلوك، ولكن هذه المعايير «تختلف فى مدى تكامل الأعراف والطرائق الشعبية والضوابط النظامية مع الأهداف التى تقع فى قمة التدرج الهرمى للقيم الثقافية». ولا يستطيع كل فرد أن يحقق نقلة إلى أعلى، أو أن يتابع أسلوب حياة الطبقة الوسطى. وينطوى نموذج ميرتون على افتراضات مماثلة لأفكار دوركايم عن الطبيعة الإنسانية (وبخاصة ميلها إلى النضال التنافسى من أجل النجاح أكثر من ميلها إلى التعاون مع الآخرين) ووظيفة النظم فى الحفاظ على الثبات والاستقرار، وبالتالى تدعيم الوضع الراهن. غير أن تحليل ميرتون كان على مستوى النسق: حيث يفترض نموذجه التحليلى ضرورة وجود أيديولوچية نسقية يتقبلها الأفراد دون نقاش وبطريقة سلبية، كما يفترض أن وظيفة النظم ليست هى توسط الأيديولوچية بل تعمل كوسائل محايدة من أجل تحقيق الأهداف الأيديولوچية. غير أن الأفراد لا يتنشأون بطريقة سلبية داخل المعايير الثقافية المسيطرة حيث تقوم الطبقة الاجتماعية والأسرة واتحاد العمل وغيرها من المؤسسات والنظم الأخرى كوسائط للثقافة الرسمية، تعمل على خلق قيم تعاونية قد تشتمل على رفض الأهداف المسيطرة والوسائل النظامية كما حددها ميرتون. غير أن هذا النشاط لا يمكن أن يتوافق بسهولة مع التنميط الذى وضعه ميرتون والذى يفترض أن الاستقرار والثبات الاجتماعى؛ أى توازن النسق الاجتماعى، يجب أن يرتكز على فكرة عن

الإنسانية تفرط في تأكيد الطابع الاجتماعي

الوظيفية، الصراع، والتغير الاجتماعي

لعل من أهم الانتقادات التي وجهت إلى الوظيفية السوسيولوجية، كما تطورت داخل الإطار المميز لعلم الاجتماع الأمريكي في الفترة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٥٠، أنها باءت بالفشل في تفسير التغير الاجتماعي واستمرارية الصراع الاجتماعي داخل المجتمعات المتقدمة. بيد أن بارسونز لم يتهرب من محاولة تحليل التغير الاجتماعي والثورة واللامعيارية. ففي مناقشته للفاشية الألمانية، كتب بارسونز خلال الأربعينيات فوصف النازية بأنها «واحدة من أكثر الأحداث الاجتماعية خطورة وأهمية في ذلك الوقت» (Parsons, 1954, ch. 6) . هذا في الوقت الذي نجده في كتابه «النسق الاجتماعي»، يخصص جانباً كبيراً من الفصل الذي عرض فيه لموضوع التغير الاجتماعي، لتحليل الشيوعية الروسية وثورة ١٩١٧ وبوجه عام، فقد ذهب بارسونز إلى أنه في كل نسق اجتماعي يكون التوازن دائمًا محفوفًا بالمخاطر، وأن انهيار التوازن، شأنه شأن استمراره وبقائه يمثلان معًا ظواهر هامة وخطيرة من وجهة النظر العلمية .(Parsons, 1951, p.338)

ويرتكز تحليل بارسونز للفاشية الألمانية على افتراض أن النسق القيمي العام في المجتمع الحديث يميل دائمًا إلى الانهيار وإلى انتاج ضغوط وتوترات تؤدي إلى اختلال التوازن واللامعيارية. وتعتبر الحركة الثورية في نظره أحد النتائج المترتبة على هذه الضغوط، وخاصة الضغوط التي تحقق السيطرة عندما تتوافر بعض الظروف الخاصة مثل «الكثافة السكانية الكافية، والانتشار الواسع للعناصر الدافعية المغتربة». لقد كان نجاح النازية ـ في نظر بارسونز ـ راجعًا إلى التطور الصناعي والتكنولوجي السريع في ألمانيا، والذي أوجد بدوره ضغوطًا داخل النسق الثقافي الفرعي أسلمت هي الأخرى إلى انعدام الأمن وانتشاره على نطاق واسع وإلى قدر كبير من العدوانية المنطلقة بغير حدود. وباختصار، كانت هناك عملية للتحول تجاه العقلانية ونحو دنيوية وعلمانية القيم الدينية استطاعت أن تقوض الأنساق الرمزية ذات الطابع التقليدي المحافظ، وأن تنتج بناءات نظامية

غير متكاملة وتعريفات أيديولوچية للموقف وأنماط للاستجابات النفسية أقرب ما تكون إلى اللامعيارية. هكذا حلل بارسونز الفاشية والشيوعية كحركات تجسد الثورة الرومانسية ضد الميل العام للتحول نحو العقلانية فى العالم الغربى فقد أوجد التغير الاجتماعى السريع حالة من عدم الاستقرار، فيها لم تعد المعايير قادرة على تنظيم المجتمع، فكانت اللامعيارية جنباً إلى جنب مع الفاشية والشيوعية حركات جماهيرية استطاعت أن توجد متنفساً للمشاعر العدوانية التى ولدتها التكنولوچيا والصناعة الحضرية (Parsons, 1954, pp. 104-41).

على هذا النحو صاغ بارسونز نظرية فى الحتمية الثقافية. فعلى الرغم من انتقاده لماركس بسبب فشله فى تطوير نظرية عن الدافعية، ذهب بارسونز إلى أن ارتباط بعض العناصر الثقافية هو الذى حتم ضرورة أن تنحرف ألمانيا عن المسار الغربى السوى للتطور الصناعى، كذلك يلاحظ أن تحليله للبلشفية قدم بطريقة مماثلة فى ضوء نموذج معين للتوازن لا يترك مجالا للممارسة الإنسانية العملية: حيث ذهب إلى أن الأحداث التى وقعت فى روسيا كانت ـ شأنها شأن الأحداث التى أحاطت بألمانيا ـ ذات طابع حتمى بحيث لا يمكن تجنبها. إن الحركات الثورية تتميز ببناء متناقض، حيث تمزج العناصر اليوتوبية مع العناصر الواقعية، وهى وإن كانت تبدأ بمنظور نقدى شامل للنسق الاجتماعى الراهن، إلا أنها تضطر وباستمرار لأن تتوافق مع الواقع بعد حدوث الثورة. ولكن ليس بمقدور أى مجتمع «أن يصبح ـ على حد تعبير بارسونز ـ مستقراً على أساس أن يصبح البناء الدافعى المتناقض تجاه قيمه المركزية وأيديولوچيته قاعدة أو معيار. ذلك أن القيم الأساسية والمحورية للمجتمع القديم سرعان ما تعيد تأكيد ذاتها. لذلك تظهر تمايزات الأجور فى الصناعة ويظهر نسق التدرج الطبقى الصارم كحاجة ضرورية لبناءات توافقية تكون أشبه بالمتطلبات الوظيفية... كما أن ظهور الحاجة إلى الامتثال من جديد يرتبط بالمجتمع القديم بما هو عليه. «هناك إذن استمرارية فى التغير جعلت بارسونز يختتم تحليله بأمل يحدوه أن يوجد التصنيع نمطاً عالميًا للإنجاز بدفع روسيا السوفيتية إلى التحول تجاه نسق اجتماعى يماثل النسق الأمريكى (Parsons, 1951, pp. 523-33)

وبالمثل، لم ينكر بارسونز حقيقة وجود الصراع فى المجتمع الحديث «فالصراع الطبقى واقع مؤكد فى المجتمع الصناعى الحديث» ومع ذلك لم يكن الصراع الطبقى فى نظر بارسونز وغيره من الوظيفيين يشكل عنصراً بنائياً مسيطراً فى نسق التدرج الطبقى الاجتماعى (Parsons. 1954, p 329) إن الصراع ليس مصدراً للتغير بل مؤشرا لتدهور الضبط الاجتماعى وللاستجابة المنحرفة لعدم مساواة الدخل والمكانة والقوة. إن النموذج البارسونى للتوازن يقلل من أهمية القوة والصراع، ولكنه لا ينكر فى الوقت نفسه ما لهذين العنصرين من أهمية واقعية وبالمثل تعترف نظرية الصراع بأهمية التوازن والاتساق. من هنا رفض بارسونز وميرتون معًا مقولة ضرورة أن ينقسم علم الاجتماع إلى نظريات تؤكد الصراع وأخرى تؤكد التوازن والاتساق. وفى نوع من المماثلة العضوية يذكر بارسونز أنه لا توجد نظريات تشير إلى صحة الكائن العضوى وسلامته من ناحية، وأخرى تشير إلى حالته المرضية من ناحية أخرى (Parsons, 1975) ومع ذلك تراكم تراث علمى واسع النطاق داخل إطار علم الاجتماع يعترف ويتقبل هذه الازدواجية.

لقد تطورت النظرية السوسيولوجية للصراع فى أواخر القرن التاسع عشر استجابة للنظرية الماركسية فى الصراع الطبقى. وكان أنصارها المبرزون ـ من أمثال جامبلوويتز Gumplowicz وراتزنهوفر Ratzenhofer ونوفيكو Novicow منظرين محافظين عملوا داخل إطار الاتجاه العضوى والداروينية الاجتماعية «أما منظرو الصراع فى أوائل القرن العشرين، من أمثال الأمريكيين فبلن Veblen وروس Ross وسمول ـ فقد رفضوا النموذج العضوى وأكدوا الدور التأسيسى والإنشائى الذى يقوم به الصراع الاجتماعى بالنسبة للحياة الاجتماعية بصفة عامة وعلى العكس من ذلك، مالت الوظيفية السوسيولوجية إلى النظر إلى الصراع على أنه معوق وظيفى أو حالة مرضية»، ومن ثم صرفوا انتباههم عن دور الصراع البناء والتأسيسى فى تكوين البناءات الاجتماعية والابقاء عليها.

لذلك، نجد لويس كوزر Lewis Coser فى كتابه «وظائف الصراع

الاجتماعى» The Functions of Social Conflict (١٩٤٥)، يعمل داخل الإطار السوسيولوجى الشكلى عند جورج زيمل، ذلك الإطار الذى اعتبر الصراع «جوهر» الحياة الاجتماعية. فى هذا الكتاب ذهب كوزر إلى أن الصراع الاجتماعى يؤدى وظيفته بطريقة إيجابية فى حدود البناء الاجتماعى. لذلك نجده فى نقده للنموذج الاستاتيكى المتوازن عند بارسونز، يقرر أن الصراع ليس عاملا من عوامل الفرقة والاضطراب، بقدر ما هو وسيلة لأحداث التوازن، وبالتالى وسيلة للمحافظة والإبقاء على المجتمع. فالصراع - على حد تعبير كوزر - لا يؤدى إلى تمزق المجتمع إلى أجزاء متصارعة، بل يضطلع بوظائف المحافظة على الجماعة بالقدر الذى ينظم فيه أنساق العلاقات. فهو - أى الصراع - يعمل كميكانيزم «صمام الأمان» الذى يحقق فى النهاية التوازن والاستقرار، حيث يعمل على إيجاد معايير وقيم جديدة، ويعيد تأسيس الوحدة من جديد بين الجماعات المختلفة، يربط ما بينهم بروابط جديدة، ويتخلص من احتمالات حدوث «اللامساواة» التخريبية فى توزيع السلطة والقوة. إن المجتمع الذى يخلو من الصراع مجتمع متحجر وراكد، كما أن المجتمعات التى يأخذ فيها النظام شكلا أو طابعًا نظاميًا مجتمعات أكثر استقرارًا وتكاملا عن المجتمعات التى تتميز بناءاتها بالجمود والصرامة. وفى هذا الصدد يذكر كوزر:

«تستطيع الأنساق الاجتماعية، عندما تسمح بالتعبير المباشر عن الدعاوى المتصارعة، أن تستعيد توافق بناءاتها وذلك عن طريق إقصاء واستبعاد مصادر عدم الرضا. إن الصراعات المتعددة التى تمر بها الأنساق الاجتماعية يمكن أن تفيد فى اقتلاع أسباب الفرقة، وفى تشييد الوحدة من جديد. إن هذه الأنساق تستطيع، من خلال إجازة الصراع وإعطائه الصفة النظامية، أن تفيد بعضها البعض كميكانيزمات للثبات والاستقرار». (Coser, 1956, pp. 153-155)

وينهض المدخل الوظيفى للصراع عند كوزر بصفة أساسية على تصور أن الصراع النظامى سوف يسهم إسهامًا إيجابيًا فى قدرة النسق الاجتماعى على التوافق، ويزيد بالتالى من مرونة البناء الاجتماعى، وأن التغير الاجتماعى لا يحدث إلا إذا تعاونت العلاقات المتصارعة داخل المجتمع مع القوى الموحدة، وهنا يذكر كوزر:

«إن أهم ما يهدد توازن البناء ليس هو الصراع فى ذاته، بل ما يكشف عنه البناء من جمود وصلابة، ذلك الجمود الذى يسمح بتراكم العداوات لتسير فى مجرى الفرقة والتصدع إذا دخلت فى موقف الصراع» (Coser, 1956, p. 157) .

لهذا كله تسمح المجتمعات الديموقراطية والمفتوحة بتشجيع التغير الاجتماعى من خلال عملية التشكيل النظامى للصراع، وذلك لأن الصراع يؤسس الوحدة الاجتماعية ويدعم التوازن داخل البناء الاجتماعى. غير أن اهتمام كوزر لم يكن موجهاً نحو الصراع النسقى، أى نحو التناقضات الأساسية داخل النسق ذاته، وبالتالى نحو احتمال وقوع التغير الثورى، بل كان اهتمامه موجهاً نحو تنافر الأجزاء المختلفة المكونة للنسق، مثل الجماعات الاجتماعية والمجتمعات المحلية والأحزاب السياسية. ومع ذلك، كانت النتيجة التى انتهى إليها كوزر على قدر بالغ من الأهمية، وهى أن تغير النسق أو التغير الذى يحدث بداخله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بدرجة التماسك التى يحققها النسق، وأن الديموقراطيات الرأسمالية ببنائها النظامى المتين القائم على أساس المجتمع المدنى تسمح بصراع الجماعة وتستخدمه استخداماً خلاقاً، وأن المجتمعات الشمولية الديكتاتورية تعجز عن الاستجابة للصراع فى هذا المعنى المحدد، طالما أن وسائل التعبير عن المصالح والقيم والاهتمامات المختلفة غائبة تماماً فى موقف الاجماع الأيديولوجى.

ومن ناحية أخرى، فشلت الوظيفية السوسيولوجية خلال تطورها التاريخى فى أن تواجه مشكلة الصراع الاجتماعى وأسسها الاجتماعية وعلاقتها بالتفكير الاجتماعى. غير أن ذلك لا يعنى أن الوظيفية لا تستطيع أن تقدم تفسيراً للتغير الاجتماعى. ولكن المسألة هنا هى - أنها أى الوظيفية - تعرف التغير وتحدده من داخل المجال المغلق للنسق، وذلك باعتباره نتاجاً للتعارض أو الانفصام بين الثقافة والبناء الاجتماعى، أو باعتباره محصلة الضغوط والتوترات التى تنمو على نحو مستقل فى الجماعات والمصالح الطبقية والثقافة والأيديولوجية. كما أن إعادة اكتشاف بارسونز للاتجاه التطورى، وذلك فى مقالته حول «المبادئ التطورية العامة للمجتمع» Evolutionary Universals In

Society (١٩٦٤)، لم يتجاوز إطار النزعة الصورية التى التزم بها فى أعماله المبكرة، حتى أنه استخدم نفس المصطلحات التى استخدمها من قبل - مثل القدرة التوافقية واحتياجات النسق الخ - ولكن مع ربطها بإطار تطورى، يؤكد أهمية الانتشار الثقافى إلى جانب مبدأين هامين من المبادئ التطورية العامة هما «نسق التدرج الطبقى» ونسق الشرعية الثقافية. زد على ذلك أن مخططه التطورى، الذى بلغ أوجه فى السياسات الديموقراطية الحديثة، قد قلل من التأكيد على الأهمية البنائية للصراع والقوة والأيديولوچية والثقافة فى الشرائح الاجتماعية الدنيا.

وبوجه عام، عمدت الوظيفية إلى تحويل الصراع وتمثله فى شكل عملية تجرده من كل المقومات الإنسانية الايجابية والفعالة. لقد قللت النظريات الوظيفية بشكل خاص من أهمية العلاقة التبادلية بين النظم أو البناءات وبين الذوات الإنسانية التى تكونها، لذلك تصورت التغير على أنه تفكك فى التوازن البنائي، لا على أنه نتاج لأزمة فى التبادلية والتغيرات المصاحبة فى وعى الذوات الإنسانية وقيمهم. وهكذا تتفق الوظيفية مع الماركسية فى عملية تشيىء المجتمع كنسق خارجى يبنى على أساس التوازن والانسجام، أو ككل يسمو على أجزائه، فكلاهما - أى الماركسية والوظيفية - تجاهل الذات الإنسانية الفعالة كمصدر للعلاقات الاجتماعية والتغير الاجتماعى

الوظيفية والتدرج الطبقى:

فى سنة ١٩٤٥، نشر كنجزلى دافيز Kingsley Davis وولبرت مور Wilbert Moore مقالا لهما بعنوان «بعض مبادئ التدرج الطبقى» Some Princi;les of Stratification، فيه حاول الباحثان أن يقدما نظرية وظيفية للتدرج الطبقى الاجتماعى. ولقد برهن عملهما على أن مقالهما كان واحداً من أكثر الأعمال إسهاماً لعلم الاجتماع، حتى أن أى مناقشة أو خلاف حول طبيعة التدرج الطبقى الاجتماعى فى المجتمع الصناعى الحديث لابد وأن تنطوى على قدر ما من مناقشة أعمال دافيز ومور.

وعلى عكس ما هو متوقع، كانت نقطة الانطلاق التى بدأ بها دافيز ومور

مقولة أن مجتمع اللاطبقة مجتمع غير معروف وغير موجود. ذلك لأن كل المجتمعات تتميز ببناءات لعدم المساواة تنطوى على ملامح عامة وأخرى خاصة متغيرة إذ يتعين على كل الأنساق الاجتماعية أن تطور بعض الوسائل التى يتورع بها الأفراد على الأوضاع والمكانات المهنية التى تتفاوت فيما بينها من حيث أهميتها الوظيفية. وإذا ما أريد للمجتمعات أن تبقى ويستمر وجودها فإنه لابد من تطوير الوسائل الكافية ـ من الناحية الوظيفية ـ لتحقيق المواءمة بين الأفراد الموهوبين وبين المهن المختلفة. لذلك فالتدرج الطبقى عبارة عن النسق الذى يحدد أن الأفراد دربوا إلى الحد الذى يمكنهم من شغل أوضاع حيوية وجوهرية، من وجهة النظر الوظيفية، يكافئون عليها بالمكانة الاجتماعية العالية. ويشكل التدرج الطبقى ميكانيزم من خلاله تضمن المجتمعات أن تشغل المناصب عالية الأهمية بأكثر الأفراد كفاءة وجدارة. وبهذه الطريقة يدفع الأفراد ليحتلوا مواقع مختلفة فى البناء الاجتماعى. ومن ثم تكون اللامساواة الاجتماعية بين الأفراد نتيجة حتمية لهذا الموقف. فالتدرج الطبقى لا يعنى إلا عدم المساواة. وفى هذا الصدد يذكر دافيز ومور:

«لذلك، فإن اللامساواة الاجتماعية عبارة عن وسيلة تتطور لا شعورياً بواسطتها تمايز المجتمعات بين الأشخاص فى حدود الهيبة والتقدير». (Davis and Moore. 1969, p. 497)

وعلى الرغم من أن التدرج الطبقى واللامساواة أمور عادية، إلا أن أشكالهما تختلف من مجتمع لآخر، باختلاف مستوى التطور الاجتماعى، ومدى ندرة الموارد والحاجة إلى مهارات ومواهب متخصصة. (والمثال على ذلك أن يتمتع المدرسون بقدر أقل من الأهمية الوظيفية فى المجتمعات الأمية عنها فى المجتمعات الصناعية الحديثة)

وتنهض دعوى دافيز ومور على قضيتين أساسيتين هما:

١ ـ الوجود الفعلى والواقعى للمهن الهامة من الناحية الوظيفية.

٢ ـ الحاجة إلى نسق كفؤ للمكافآت والحوافز يدفع الأفراد الموهوبين إلى التدريب الأساسى باستمرار

وفى كتابه «المجتمع الإنسانى» Human Society، عدل دافيز من دعواه بأن التدرج الطبقى يعمل كميكانيزم وحيد لتوزيع الأفراد الموهوبين على الأوضاع الاجتماعية، مشيراً إلى الدور الهام الذى يلعبه عامل المولد والوراثة، كعناصر أساسية فى تحديد الوضع والدور. غير أن ذلك لا يمثل مشكلة كبرى فى نظره طالما أن تطور المجتمع الصناعى من شأنه أن يضعف تأثير الثروة والمكانة الموروثة. ولكن لا تزال مشكلة تحديد الأوضاع ذات الأهمية الوظيفية قائمة بلا حل. فقد يمكن القول مثلا أن الأطباء أكثر أهمية من الناحية الوظيفية عن الممرضين، وذلك لأن تدريبهم وخبرتهم تمكنهم من أن يقوموا بمهام التمريض، فى الوقت الذى لا يستطيع فيه الممرضون أن يقوموا بمهام الأطباء. وهناك فى المقابل أمثلة أخرى توضح أنه على المدى البعيد لا يمكن أن تبقى «مهنة» الأطباء بدون «الممرضين». إن كلاهما ضرورى لأحدهما الأخرى من الناحية الوظيفية، لأنهما يطوران علاقة تبادلية. لذلك فإن القول بأن الأطباء وغيرهم من أصحاب المهن الفنية العليا يستحقون مستوى عالى من المكافآت والحوافز المادية نظراً لما يتلقوه من تدريب طويل وشاق وباهظ التكاليف، قول يتغافل التدريبات الشاقة لمهنة التمريض والمهن التى على شاكلتها.

لقد ارتبطت المهن الفنية العليا ـ تاريخياً ـ بالفئات والشرائح العليا فى المجتمع، كما كانت المكانة والمكافآت أقل ارتباطاً بالوظيفة عنها بالسوابق الاجتماعية والثقافية. ولقد أدى الطابع غير التاريخى وغير المهتم بعوامل النشأة والتطور، والذى تميزت به الوظيفية، إلى تقديم تفسيرات للظاهرة الاجتماعية تتصور أن الشكل الراهن للظاهرة هو الشكل الطبيعى لها. هل يمكن القول بأن العامل فى سباكة الرصاص مثلا يقل فى أهميته الوظيفية فى المجتمع الصناعى عن أهمية أستاذ اللاهوت؟ أو الكهربائى أو سائق القطار؟، ثم كيف يمكن قياس الموهبة؟ لقد أشارت الكثير من الانتقادات التى وجهت إلى الوظيفية إلى أن البناءات الاجتماعية تعمل على تحديد الإمكانات الدفينة لدى الأفراد، من خلال ميكانيزمات مختلفة ترتبط بالطبقة الاجتماعية والتعليم والثقافة السائدة. ثم أيضاً ما هو الأمر بالنسبة للدافعية؟ ألا تتحدد هى الأخرى

عن طريق الوسائل التى بها يعرف الأفراد أنفسهم بالنسبة للآخرين وللمجتمع ككل؟ إن الدافعية ليست عنصراً محايداً، بل تتأثر ببناء الطبقة والثقافة والأيديولوجية.

ويرتبط المفهوم الخاص بالوضع الهام من الناحية الوظيفية بالقضية الأساسية التى تتبناها الوظيفية وهى أن التدرج الطبقى يعمل على تكامل النسق الاجتماعى حول مجموعة محورية من القيم التى تضفى الشرعية على اللامساواة القائمة. هذا هو جوهر النظرية الوظيفية للتدرج الطبقى. إن الحقيقة التى تؤمن بها الوظيفية هى أن التقسيم المعقد للعمل يتطلب وجود وسائل ملائمة وكافية لتوزيع الأفراد على المهن الضرورية التى تسلم إلى درجة ما من المكافآت والحوافز غير المتساوية، تلك الحقيقة التى شاركت فى تأكيدها كل نظريات الطبقة بدءاً بنظرية سميث وانتهاءً بماركس وفيبر. وتنحرف الوظيفية بعيداً عن هؤلاء الكتاب فى أنها استبعدت القوة والمصالح الطبقية كمبادئ بنائية هامة فى تشكيل اللامساواة، رغم أن هناك العديد من الشواهد التى تشير إلى مدى الأهمية التى يستأثر بها التدرج الطبقى والتوزيع غير المتساوى للقوة فى المجتمعات الصناعية الحديثة. لقد تعثرت الوظيفية فى أن تكون تفسيراً سوسيولوجيا، حيث نسبت «الحاجات» إلى المجتمع، وكأن المجتمع يشكل ذاتاً فعالة وإيجابية وليس نسقًا تاريخياً أو بناءً وعملية يتغيران من خلال «الحاجات» والمصالح الخاصة بالذوات أو الفاعلين.

الفصل الثالث

البنائية الوظيفية ، الوضوح والأزمة

تمهيد

أولا : فكر الرواد والمقدمات المنطقية للبنائية الوظيفية

(١) المجتمع والطابع النسقى

(٢) المجتمع نسق طبيعى

(٣) المجتمع نسق أخلاق

(٤) المجتمع نسق متوازن

ثانيـــا : الاطار التصورى للبنائية الوظيفية

(١) مفهوم البناء الاجتماعى والمفهومات ذات الصلة

(٢) مفهوم الوظيفة الاجتماعية والمفهومات وثيقة الصلة

ثالثـــا بارسونز ووضوح البناء الفرضى للوظيفية

(١) المجتمع نسق اجتماعى معيارى

(٢) يتوقف توازن النسق الاجتماعى على ميكانزمات التنشئة الاجتماعية والضبط

(٣) يتوقف تكامل النسق الاجتماعى على ميكانزمات التساند بين احزانه

رابعـــا نقد وتعديل روبرت ميرتون للبنائية الوظيفية

خامسا : توجيه البنائية الوظيفية لتيار البحث فى علم الاجتماع

(١) الانحراف والمحافظة على النسق عند اريكسون

(٢) فهم التغير الاجتماعى عند نيل سملسر

(٣) التدرج الاجتماعى لدى ديفز ومور

سادسا : ازمة البنائية الوظيفية وظهور نماذج نظرية جديدة

(١) أزمة البنائية الوظيفية

(٢) النماذج النظرية البديلة

تمهيد

يمكن النظر إلى علم الاجتماع فى جملته باعتباره محاولة للاسهام فى فهمنا للطبيعة النظامية والنمطية للواقع الاجتماعى تلك التى يمكن التنبؤ بها .

غير أن أفكار النظام وامكانية التنبؤ التى تتردد بين علماءالاجتماع عموما تختلف عن القول بثبات العلاقات الاجتماعية وان الاحداث الاجتماعية تحددسلفا وبالضرورة . ذلك لأن مفهوم النظام يقوم على حقائق نستنبطها من الملاحظات مثل تلك التى تقول أن توقعاتنا لسلوكنا الخاص وتوقعاتنا لنشاط الآخرين يمكن أن تنمو أو تظهر وتتشكل من خلال الخبرات التى نكتسبها ، وليس معنى هذا القول بأننا نعرف بالضبط ما قد يفعله الآخرون فى أى وقت،وانمايعنى أن لدينا فكرة لا بأس بها عن الأفعال المحتملة . فالتاجر الذى نطلب منه أن يبيع لنا علبة من السجائر لا يحتمل أن يقوم بمسح أحذيتنا . وكلنا يعرف مدى الخوف الذى قد يعترينا ويجعلنا لا تغادر منازلنا اذا لم نتمكن من معرفة الكيفية التى قد يتصرف بها مختلف الأشخاص الذين يمكن أن نقابلهم خارج المنزل .

ويعد التركيز على الأساليب التى يتم من خلالها تنظيم الحياة الاجتماعية محوراً للاهتمام المشترك بين كل منظورات علم الاجتماع(١) . وتظهر الاختلافات بين هذه المنظورات حسب صياغتها التصورية لطبيعة عملية ظهور وادارة هذا النظام الاجتماعى.ويميل كل منظور إلى التركيز على جوانب مختلفة أو الاهتمام بتلك الجوانب من الحياة الاجتماعية التى يعتقد أنها تسهم أكثر من غيرها فى تحقيق هذا النظام الاجتماعى .

وباستطاعتنا من ناحية أخرى أن نتعرف فى اطار علم الاجتماع على مدخل أوسع يقوم على افتراض مؤداه : ان افعالنا الاجتماعية وما تشكله من بناء يتأثر

---

(١) يستطيع القارىء أن يتابع التحليل الدقيق لمشكلة النظام فى علم الاجتماع فى كتاب دكتور أحمد عبد الله زايد ، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، طبعة أولى ، دار المعارف ، مصر ١٩٨١ ، ص ص

إلى حد كبير بالبيئة الاجتماعية من حولنا وأنه يمكن النظر إلى مايسود بيننا من قيم واتجاهات وما يترتب عليها من نشاطات وعلاقات على أنها نتيجة أو على الأقل تتأثر إلى حد كبير بتنظيم وبناء المجتمع الذى نعيش فيه ولقد مهد هذا الافتراض لظهور ذلك المدخل للأوسع الذى يطلق عليه البعض اسم البنائية Structuralism . وكذلك نستطيع فى اطار هذا المدخل الأوسع أن نفرق بين مجموعتين مختلفتين من صيغ البنائية تمايز كل منهما من خلال ما ننطوى عليه من مجموعة مسلمات وأطر تصور به وبناء فرضى نستعين به فى تحليل الواقع الاجتماعى وفهم وتفسير النظام الاجتماعى[1] . وقد كشف الفصل السابق عن المجموعة الأولى من هذه الصيغ التى اطلقنا عليها اسم البنائية التاريخية . ونحاول فى الفصل الحالى معالجة الصيغة الثانية للبنائية التى نميل إلى نطلق عليها اسم البنائية الوظيفية .

وعلماء الاجتماع الذين استطاعوا تطوير منظورا فى علم الاجتماع يطلق عليه البعض اسم منظور الاجماع او الاتفاق concensus بركزوف صراحة على مسألة النظام على مستوى المجتمع، بمعنى أنهم يميلون إلى التركيز على النظام فى المجتمعات بأكملها . وتقوم تحليلاتهم النظرية والواقعية عموما على افتراض مؤداه : انه يمكن النظر إلى المجتمعات باعتبارها كيانات متكاملة وثابتة ومتماسكة ومستمرة وانه اذا كان هناك اختلاف بينهما فان هذا الاختلاف يرجع إلى الاختلاف فى الترتيبات البنائية والاجتماعية والثقافية لهذه المجتمعات .

ولقد ترتب على هذا الافتراض أن ظهر اطار تصويرى واسلوب فى التحليل عرف خلال السنوات الأخيرة تحت اسم الاتجاه الوظيفى Functionalism والتفرقة بين الاتجاه الوظيفى المهتم بالوحدات الكبرى Macro وغيره المهتم بالوحدات الصغرى micro وأول ما نلاحظه على الكتابات التى اهتمت بمعالجة هذا الاتجاه ميل بعضها إلى تناوله تحت اسم التحليل الوظيفى Functional analysis ، وميل بعضها الثانى إلى تسمية الاتجاه المحافظ وميل بعضها الثالث إلى تناوله تحت عنوان الاتجاه الكلى .

(1) C.C.Cuff & G.C. Payne, Perspectives in Sociology, op.cit, p.22.

وهناك مبررات موضوعية وراء تفصيلنا معالجة هذا المنظور فى الفصل الحالى تحت عنوان البنائية الوظيفية واغفال مجموعة التسميات السابقة ذلك لأن تسميات الاتجاه الوظيفى والتحليل الوظيفى لا تدل على مضمون هذا الاتجاه ، وقد تثير الخلط والتداخل وخاصة وان هناك تحليلات وظيفية فى علوم أخرى مثل البيولوجيا وعلم النفس وحتى الرياضيات كما أن التسميات الأخرى مثل الاتجاه المحافظ والاتجاه الكلى قد تحول دون التفرقة والتميز بين هذا الاتجاه النظرى وغيره من اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع وفى مقدمتها البنائية التاريخية . ذلك لأن البعض يرى أن البنائية التاريخية اذا كانت نظرية ثورية فى خارج المجتمعات التى تأخذ بها ، فان هذه النظرية تعد نظرية محافظة فى داخل هذه المجتمعات . هذا فضلا عن أن تعمق البنائية التاريخية يدل بما يدع مجالا للشك على أنها تمثل واحداً من الاتجاهات الكلية أيضا .

ويسمح لنا الأخذ بعنوان البنائية الوظيفية أولا تسميه الأشياء بمسمياتها وثانيا الانطلاق فى معالجة هذا الاتجاه النظرى من فكر بارسونز الذى كان يميل إلى هذه التسمية ، والذى أسهم فى وضوح وبلورة هذا الاتجاه الذى يضرب بجذوره فى كتابات رواد علم الاجتماع من امثال كونت وسينسر وباريتو ودوركايم ، وغيرهم من علماء الانتروبولوجيا وبخاصة مالينوفسكى ورادكليف براون . وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه أخذ يوجه البحث فى علم الاجتماع فى بلاد غرب أوربا وأمريكا منذ بداية الاربعينات وزاع صيته إلى الحد الذى اصبح معه البعض يقول أن كل دراسة فى علم الاجتماع ينبغى أن تكون دراسة بنائية وظيفية بالضرورة ، الا أن الظروف التى استحدثت على صعيد علم الاجتماع والمجتمعات الغربية وذلك مع حلول الستينات ، قد ادخلت هذا الاتجاه النظرى فى أزمة ، ما لبث وأن ظهرت لها ردود فعل متباينة افضت فى النهاية إلى نماذج نظرية جديدة ، ولهذا كله فضلت أن اضيف للعنوان الرئيسى فى هذا الفصل عنوانا فرعيا هو الوضوح والأزمة . ولن نخرج فى معالجتنا لهذا الاتجاه النظرى عن الطريق الذى سلكناه فى معالجة البنائية التاريخية ، من حيث توضيح مجموعة المسلمات ، والاطار التصورى والبناء

الفرضى ، وتيار البحث ، ومظاهر الأزمة والمعارضة والنقد والتطوير وظهور نماذج نظرية جديدة .

أولا : فكر الرواد والمقدمات المنطقية للبنائية الوظيفية

نستطيع تلمس مجموعة المقدمات المنطقية والمسلمات التى تنطلق منها البنائية الوظيفية فى كتابات الاباء المؤسسين لعلم الاجتماع . اذ تعود الكثير من هذه المقدمات إلى الاعمال الأولى فى علم الاجتماع . فقد ظهرت فكرة تكامل الأجزاء فى « الكل » وتساند عناصر المجتمع المختلفة فى فكرة الاتساق العام عند كونت ، وفى فكرة التكامل الناتج عن التباين عندسينسر وفى الاتجاه العضوى عند كولى وفى تصور باريتو للمجتمع باعتباره نسقا متوازنا ، أما تأكيد فكرة الدور أو الاسهام الذى تقدمه البناءات الاجتماعية للكل ، فيعود فى الواقع إلى كل من دور كايم وتوماس(١) .

ويمكن أن نحصر اسهامهم فى هذا الصدد فى مجموعة المسلمات التى ينظر بعضها إلى المجتمع باعتباره ذا طابع نسقى ويؤكد بعضها الآخر ان المجتمع بعد بمثابة نسق طبيعى ، ويشير بعضها الثالث إلى أن المجتمع عبارة عن نسق اجتماعى اخلاقى ، ويوضح فى الأخير كيف أن المجتمع يعتبر نسقا اجتماعيا متوازنا ، نحاول فيما يلى توضيح اسهام هؤلاء الرواد فى مجموعة المسلمات هذه .

المجتمع ذو طابع نسقى :

قسم اوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) موضوع الدراسة فى علم الاجتماع إلى فرعين رئيسيين هما الاستاتيكا والديناميكا . وكان يعنى بالاستاتيكا دراسة المجتمعات فى جملتها ويهدف إلى وصف الكيفية التى تعمل بها وتؤدى وظيفتها كانساق متشابكة تتكون من أجزاء مختلفة . وتهدف الديناميكا إلى الكشف عن القوانين التى تفسر الكيفية التى يمكن بها أن تتغير

(١) نيوقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة عربية ، اعداد دكتور محمود عود ــ وآخرون ، ودار المعارف ، مصر ١٩٨٠ ، ص ص ٣٢٠ ــ ٣٢٣

هذه المجتمعات عبر الزمن . وتبدو فكرة الطابع النسقى للمجتمع واضحة فى النظر إلى المجتمعات كانساق متشابكة تتكون من أجزاء مختلفة .

وكان هربرت سبنسر H.Spencer (١٨٢٠ ــ ١٩٠٣) وجهات نظر مماثلة إلى حد ما فى مقدمتها قوله أن المجتمع يماثل الكائن العضوى بمعنى أنه يمكن النظر إلى المجتمع كما لو كان كائنا حيا . وان المجتمعات تسير فى عملية تطور تماثل ذلك النوع من التطور البيولوجى الذى يميز الكائنات الحية والذى أشار إليه داروين[١] .

ويتكون المجتمع شأنه فى ذلك شأن الحيوان من أجزاء أو عناصر مختلفة عليها جميعا أن تعمل على وجه أفضل اذا كان على المجتمع أن يستمر على نحو صحى ويشبع احتياجات البيئة حتى يكتب له البقاء . وبما أن هذه المطالب والضغوط تتغير مع تغير الزمن فانه على المجتمع أن يتكيف ويتوافق معها بنفسه لكى يستمر فى البقاء . وفى حالة المجتمع نجد أن هذه الأجزاء ليست هى الأذرع أو الأرجل أو الرئيتين انما هى مجموعة من الترتيبات الاجتماعية الضرورية . وكانت هذه الترتيبات فى نظر سبنسر متمثلة فى الحاجة إلى ضمان تحقيق ثلاث وظائف حيوية هى الانتظام والتوزيع والتغذية . والواضح أنه ينبغى أن تحكم المجتمعات ويتحقق فيها الضبط وكذلك يجب أن يتم انتاج وتوزيع السلع الاقتصادية . ولا ينبغى على السكان أن يظلوا على حالتهم بل عليهم أن يعيدوا تجديد أنفسهم باستمرار من خلال الطرق المنظمة للزواج والفرص المناسبة لانجاب الأطفال . وهكذا فالمجتمع يتكون من أجزاء هى النظم Institutions بمعنى مجموعة الأنساق التى تحقق التنظيم الاجتماعى Social organization وذلك مثل الأسرة والاقتصاد والسياسة .

ويتضح تأكيد سبنسر للطابع النسقى للمجتمع من اعتباره المجتمع كل يتكون من أجزاء مختلفة ، تتمثل فى مجموعة الترتيبات الاجتماعية والضرورية ، والتى تأخذ شكل النظم بمعنى مجموعة الانساق المنظمة التى تحقق التنظيم

E.C.Cuff & G.C.Payne, op.cit., P. 24.

الاجتماعي وكان دوركايم قد وافق كومت وسبنسر على أن المجتمعات تمثل انساق تتكون من عناصر اجتماعية متشابكة .

(٢) المجتمع نسق طبيعي

لم يكن اوجست كومت هو الذى صاغ كلمة الاجتماع فقط ، ولكنه أدعى أيضا أن هذا النظام الفكرى الجديد ينبغى أن يمثل ذروة العلوم وادعى كذلك أنه ينبغى على علم الاجتماع أن يمثل قمة البحث العلمى . وقد ذهب أولا أن الفهم الانسانى والمجتمعات قد تطورا عبر ثلاثة مراحل تاريخية ، المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة العلمية . ولقد اتضح فى المرحلة التى نعيش فيها اليوم للناس قوة العلوم الطبيعية المتطورة مع سيطرتها الزائدة على الطبيعة كما يظهر ذلك مثلا فى تطور التكنولوجيا والانتاج الصناعى(١) .

وقد أصبح من الممكن للناس أن يفهموا ويعيدو تشكيل حركة المجتمع من خلال الأخذ بالأساليب العلمية الجديدة فى التفكير وتطبيقها لتحقيق هذا الغرض . واكسبت صعوبة مهمه اعادة تشكيل المجتمع وأهميتها فى ذلك الوقت ، علم الاجتماع ذلك الوضع البارز بين العلوم . ومن هنا اعتقد كومت أنه ينبغى تأسيس فروع علم الاجتماع — الاستاتيكا والديناميكا — على أساس موضوعى بقدر الامكان وذلك من خلال ضرورة استخدام مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الحقائق الاجتماعية . وبهذا المعنى اعتبر كومت الابنية الاجتماعية للمجتمعات مشابه لأنساق الطبيعة ويمكن دراستها بنفس المناهج المستخدمة فى العلوم الطبيعية(٢) .

---

(1) G.C.Cuff, & G.C.Payne, op.cit. P. 23.

(٢) يمكن الرجوع إلى المقال التالى لمتابعة اسهام كونت فى علم الإجتماع وكيف اثرت ظروف الثورة الفرنسية فى ذلك الوقت فى هذا الاسهام : دكتور محمود عود ، نشأة علم الاجتماع دراسة فى سوسيولوجيا المعرفة ، دراسات فى علم الاجتماع والانتروبولوجيا ، مجموعة من اساتذة علم الاجتماع دار المعارف مصر ، ١٩٧٥ ، ص ٥٩

وكان دور كايم[١] قد حدد المعالم التفصيلية للاستراتيجية العامة للبحث التى يمكن الاستعانة بها فى بحث الظواهر الاجتماعية وذلك على نحو فاق ما ذهب إليه كومت وسبنسر .

وعلى أية حال وبالرغم من أنه قد ادعى بأنه ينبغى أن نفترض جدلا فيما يتعلق بعلم الاجتماع ككل ، بأن هناك مدخلا سوسيولوجيا واحدا ومجموعة واحدة أيضا من مناهج اجراء البحوث فالأمر القريب من الدقة أن ننظر إلى أعماله باعتبارها تمثل اسهاما رئيسيا فى تطور المنظور البنائى للاجماع . فلقد طور على وجه الخصوص غير ذلك أسلوبا فى التحليل فى علم الاجتماع عرف اليوم عموما تحت اسم الوظيفية Functionalism كما حدد أيضا المعالم التفصيلية للاستراتيجية العامة للبحث التى يمكن الاستعانة بها فى بحث الظواهر الاجتماعية وذلك على نحو فاق ما ذهب إليه كومت وسبنسر .

وقدم دوركايم فى كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع وصفا مبدئيا للمناهج التى يمكن استخدامها فى دراسة المجتمع غير أنه أمضى بعض الوقت فى وصف طبيعة الظواهر التى يمكن دراستها[٢] .

ويتمثل موضوع الدراسة فى نظر علماء الاجتماع أو الظواهر التى يمكن لهم أن يقوموا بدراستها بالطريقة العلمية يتمثل ذلك الموضوع فيما يعرف باسم

---

(١) ليس هناك شك فى أن اميل دوركايم E.Durkheim (١٨٥٨ ــ ١٩١٧) قد أضاف اسهاما ضخما إلى نمو علم الاجتماع فى عصره ، وكذلك ليس هناك شك فى أن اسهامه هذا لا يزال له قوته المؤثرة على كل من النظرية والبحث فى علم الاجتماع حتى اليوم . ولمزيد من التفاصيل حول اسهامات اميل دور كايم فى نمو الوظيفة وعلم الاجتماع . راجع : دكتور محمد على محمد ، تاريخ علم الاجتماع ، الجزء الأول ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ م . ص ص ٤ .

(٢) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب :

اميل دور كايم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع ، ترجمة محمود قاسم ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

الحقائق الاجتماعية Social Facts وهذه الحقائق الاجتماعية تختلف عن غيرها من نوع الحقائق الأخرى لأنها تمثل النسيج الحقيقي للمجتمع، أى نسقا من العلاقات الانسانية والروابط الاجتماعية فهو مثلا ينظر إلى معدل الانتحار Suicide rate في المجتمع على أنه نظام متميز يتسم به الواقع. ولا يمكن أن نفهم من معدل الانتحار في نسبة ألف من السكان أنه يمثل مجموعة حالات فردية بدون أن يتطرق إلى المعنى الحقيقى لهذا المعدل، فالمعنى الألفى يعتبر بمثابة ظاهرة جمعية أو بمعنى آخر ما هو الا حقيقة اجتماعية ولقد أدرك دور كايم وجود ارتباط مباشر بين الطبيعة الاجتماعية للمعدل وبين احصائيات الانتحار في جماعات مختلفة، وبالرغم من أن المعدلات قد تختلف من جماعة إلى أخرى الا أن بعض الجماعات يرتفع فيها المعدلات بينما تنخفض في أخرى وان كل جماعة منها يبدو أن لها معدل مماثل من عام إلى آخر. وأدت هذه الملاحظة بدور كايم إلى أن يقرر بأن معدلات الانتحار تنشأ من الظروف الاجتماعية للمجتمع ومن هنا فهى تعد بمثابة حقائق اجتماعية. وتعتبر الموضة Fashion بمثابة مثال آخر على الحقيقة الاجتماعية فموضة مثل الشعر الطويل والاثواب القصيرة والأحذية العالية لا يمكن أن نردها إلى حالات فردية بدون أن تفقد المعنى الجوهرى للموضة أو التقليعة. فالتقاليع تعتبر بمثابة ظواهر جماعية لأنها تشتمل على فعل جمعي وعواطف لعدد كبير من الأشخاص ويقرر دور كايم أن الحقائق الاجتماعية توجد فيما وراء الحالة الفردية وتشكل واقعا متميزا ومنفصلا. فالواقع الاجتماعي هو واقع المجتمع وهو ذلك الواقع الذى ينبغى على علماء الاجتماع دراسته فقط[١].

وهذه الظواهر التي تتسم بالوجود المنفصل تمارس ضغوطا على الأفراد ومن ثم يكون لها تأثيرا الزاميا عليهم ونحن لا يمكن لنا أن نشعر بهذا الالزام مثلا أو حتى بالذنب عندما نخرج على هذه التقاليع ولا نأخذ بها. وانتهى دور كايم في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع من تحديد معناه لمجموعة الاجراءات

---

(١) E.C.Cuff & G.C. Payne, op.cit. P. 29.

المنهجية المتبعة فى علم الاجتماع والواقع أنه ليس هناك من سبق دور كايم فى تقديم مثل هده المجموعة الواضحة من التوجيهات المنهجية وبنفس التفصيل من قبل لأن هذه الاجراءات لا تزال لها تأثيراً كبيراً على الطريق الذى يسلكه الكثير من علماء الاجتماع فى بحوثهم حتى اليوم . وكان هدفه الأساسى أن يعطى البحث فى علم الاجتماع طابعا موضوعيا وعلميا بقدر الامكان . ويوضح مؤلفه هذا إلى أى حد كانت هذه الأهداف صعبة عند التطبيق فنجده يقول أنه ينبغى على الباحث أن يتخلص من كل تصوراته السابقة وأن يدخل إلى الظاهرة موضوع البحث بعقل مفتوح بقدر الامكان وعليه أن يحاول نسيان تحيزاته الشخصية وعليه أن يركز على الخصائص الخارجة للحقائق الاجتماعية بمعنى تلك الخصائص التى سيتمكن غيره من الباحثين من ادراكها بوضوح وعليه ألا يستعين بتفسيراته الذاتية . ومن خلال التركيز على هده الخصائص الخارجية التى يمكن ملاحظاتها سيتمكن الباحث من التوصل إلى تعريفات واضحة بعيدة عن الغموض — للحقائق الاجتماعية التى يقوم بدراستها ، وهذه الحقائق الاجتماعية حسب تصور دور كايم يمكن أن يميز فيها بين نوعين مختلفين وهى اختلافات من الضرورى أن نأخذها فى اعتبارنا فى أى دراسة اجتماعية . فهناك حقائق طبيعية أو سليمة Normal وهناك حقائق اجتماعية مرضية أو معتلة Pathological وتعتبر الحقائق الاجتماعية طبيعية عندما تنتشر وتصبح عامة فى كل المجتمعات . وقرر أيضا أن الظواهر الاجتماعية التى تعتبر عامة فى كل المجتمعات ينبغى أن تكون طبيعية . وبما أن الجريمة مثلا توجد فى كل المجتمعات بصورة أو بأخرى فهى تعتبر ظواهر اجتماعية طبيعية . والطريقة التى استخدم بها المفهوم الطبيعى تعنى ضمنا أن هذه الظواهر الاجتماعية التى بالامكان أن نطلق عليها هذه التسمية تعتبر ضرورية للمجتمع الذى يتسم بالنظام والسلامة . وبما أن الجريمة توجد فى كل المجتمعات ، فهى تعد من هذه الزاوية طبيعية وهذا يعنى بدوره أنها تمثل جانبا متكاملا فى مجتمع يتصف بالسلامة .

ويقترح دور كايم أيضا أنه برغم أن بعض الحقائق الاجتماعية قد تكون عامة فى المجتمع الا أنها قد لا تتفق فى الواقع مع ظروف هذا المجتمع . وبالامكان

مثلا ، بالنسبة للظواهر الاجتماعية أن تكون بالية Out of date لأنها تنتمى إلى الشكل الماضى للمجتمع . ولذلك نجد دور كايم يعدل الشرط المتعلق بالعمومية بشرط آخر مؤداه أن الحقائق الاجتماعية ينبغى أن ترتبط والشروط العامة للحياة الجمعية لذلك النوع من المجتمع ، وعند هذه المرحلة المحددة من التطور أو تغير ذلك النوع من المجتمع[1] .

وفى ضوء هذا الاستخدام لمفهومات المعتل والطبيعى ، يبدو أن دور كايم قد اقترب من وضع أحكام قيمية تتعلق بما هو صالح أو طالح بالنسبة للمجتمع . ويبدو أنه أيضا بما أدخله من شروط معدلة وكأنه يستخدم ضمنيا المماثلة العضوية عند سبنسر ، مشيرا إلى أن هناك حقائق اجتماعية معينة يمكن أن تكون صحية أو غير صحية بالنسبة لمجتمعات معينة .

واستطرد دور كايم فى تحليله للحقائق الاجتماعية بأن ذهب إلى أنه ثمة نسق معين ضرورى لهذه المجتمعات التى قام بتصنيفها لكى نحدد ما اذا كانت الحقائق الاجتماعية طبيعية أو معتلة ، ويذهب دور كايم متفقا مع سبنسر إلى أن هذه المجتمعات يمكن وضعها فى فئات طبقا لدرجة تعقيدها أو تنظيمها .

فعلى الطرف الأول من هذا المقياس يوجد هناك الشكل البسيط أو البدو الرحل The Horde ، وعندما تنتقل عبر هذا المقياس نجد هناك ، مع زيادة التعقيدالعشيرة Clan ثم القبيلة ، وأخيرا المدينة ويمكن أن ندخل فى كل تصنيف ما يساعد على التمييز بين المجتمعات طبقا لدرجة التضامن Coalescence وهذا معناه ، تصنيفها طبقا للمدى الذى تختلط فيه أجزائها المكونة معا لتكوين نمطا متكاملا من مجموعة نظم . وتعتبر عملية تصنيف المجتمعات بمثابة مطلبا ضروريا أيضا كشرط سابق لاستخدام المنهج المقارن ، ذلك المنهج الذى نظر إليه دور كايم على أنه الاجراء الأكثر نفعا فى التوصل إلى البراهين السوسيولوجية ولذلك عنى كثيرا بضرورة أن تكون نظريات علم الاجتماع من النوع الذى يمكن اختباره ، ولما كانت عملية التجريب بالتطبيق على

(١) Ibid, P. 30.

المجتمعات فى جملتها أمرا مستحيلا ، كان من الضرورى استخدام المنهج المقارن باعتباره منهجا شبيها بالتجربة ، ذلك المنهج الذى يعد بمثابة تجربة غير مباشرة . وعلى عالم الاجتماع فى اجرائه لبحوثه أن يقارن نتائجه التى تتعلق بمجتمع ما بتلك النتائج المتعلقة بمجتمعات أخرى من نفس النموذج ومن نماذج مختلفة . وعليه لكى يجرى بحوثا أخرى فى المستقبل أن يقوم بفحص الحقيقة الاجتماعية فى مجموعة مختلفة من نماذج المجتمع بقدر الامكان .

ولعل ذلك الجانب من منظور الاجماع الذى عمل دور كايم على اضافته متجاوزا بذلك اسهامات كل من كومت وسبنسر هو ذلك الذى يتعلق بالتحليل الوظيفى باعتباره أحد أشكال التحليل السوسيولوجى .

وأشار دوركايم فى كتابه قواعد المنهج فى علم الاجتماع إلى أنه عند تفسير الحقائق الاجتماعية ينبغى على الباحثين :

(أ) أن يتوصلوا إلى أسباب الحقائق الاجتماعية .

(ب) ويكشفوا عن وظائف الحقائق الاجتماعية .

بمعنى الدور الذى تلعبه فى المساعدة على الحفاظ على المجتمع فى حالة منظمة . وفى البحث عن الأسباب ، ينبغى أن يبحث علماء الاجتماع عن حقائق اجتماعية سابقة ، بمعنى تلك الحقائق الاجتماعية التى تسبقها ، ويبدو أنها تتسبب فى وجود الحقائق الاجتماعية موضوع البحث . وفى البحث عن الوظائف ينبغى عليه أن ينظر إلى الحاجات العامة للكائن العضوى الاجتماعى . وهذه هى البنائية Structuralism فى ذروتها[1] . الحقائق الاجتماعية هى الظواهر التى تنشأ فقط عند التفاعل بين الناس بعضهم وبعض . وهذه الظواهر لا يمكن ردها إلى عوامل سيكولوجية أو بيولوجية وبالرغم من أن دوركايم قد افترض أن الناس قد يكون لهم نفس الطبيعة الانسانية الأساسية ونفس الخصائص السيكولوجية ، الا أنه لم يكن معنيا بدراسة هذه الأمور .

(١) Ibid, P. 31.

وما كان دور كايم يهتم به تلك الحقيقة القائلة ان الناس يطورون علاقات اجتماعية متباينة وترتيبات اجتماعية فى مجتمعات مختلفة ، برغم التماثل المحتمل ولتفسير أى واحدة من هذه الحقائق الاجتماعية ، علينا أن نكشف عن الوظائف التى تؤديها هذه الحقائق فى المحافظة على النسق الاجتماعى التى توجد فيه . وبالنظر إلى الحقائق الاجتماعية السالفة ، نجد أن الطريق الذى يمكن أن نسير فيه هو التركيز على التشكيل الداخلى للجماعة الاجتماعية ، بمعنى خصائص وظروف الحياة الاجتماعية التى تميز أى جماعة اجتماعية ، ويعتبر التنظيم الاجتماعى ــ بمثابة الواقع الجوهرى الذى لا يحتاج عالم الاجتماع إلى تجاوزه فى بحثه . لأنه فى اللحظة التى يمس فيها العوامل السيكولوجية أو البيولوجية فانه لم يعد بعد ينتمى إلى علم الاجتماع .

وبهذا الفهم للمناهج التى يمكن استخدامها فى دراسة المجتمع ، وفى تحديد الحقائق الاجتماعية ، التى توجد فيما وراء الحالات الفردية وتشكل واقعا متميزا ومنفصلا ، هو واقع المجتمع ، والذى ينبغى على علماء الاجتماع دراسته ، حاول دور كايم أن يعطى البحث فى علم الاجتماع طابعا موضوعيا وعلميا بقدر الامكان خاصة وانه تمكن من التميز فى هذه الحقائق الاجتماعية بين نوعين مختلفين ، حقائق اجتماعية طبيعية أو سليمة وحقائق اجتماعية مرضية أو معتلة ، واعتبر المنهج المقارن هو المنهج الأكثر نفعاً فى الوصول إلى البراهين السوسيولوجية ، بما أن عملية التجريب بالتطبيق على المجتمعات تعد أمرا مستحيلا لذلك كان من الضرورى استخدام المنهج المقارن باعتباره منهجا شبيها بالتجربة ، أو بعد تجربة غير مباشرة . وأكد دوركايم عند تفسير الحقائق الاجتماعية ، ضرورة التوصل إلى أسباب الحقائق الاجتماعية ، والكشف عن وظائف هذه الحقائق ، بمعنى الدور الذى تلعبه فى المساعدة على الحفاظ على المجتمع فى حالة منظمه .

(٣) المجتمع نسق اخلاقى

لقد وافق دور كايم على ما ذهب إليه كومت من أن **المجتمعات تمثل أنساقا**

تتكون من عناصر اجتماعية متشابكة. غير أن ماهو أهم في نظر دوركايم هو أن هذه الانساق الاجتماعية تعتبر **بمثابة كيانات أخلاقية** . وبالرغم من صحة القول بأن كل من كومت وسبنسر قد ذكروا هذه الخاصية للمجتمع ضمنيا ، الا أن دور كايم هو الذى أكد هذه الخاصية . وهى خاصية تمثل فى نظر دور كايم إفتراضات جوهرية اعتقد أنه ليس بالامكان الاستغناء عنها كخاصية للمجتمع .

وذهب دوركايم إلى أن كل العلاقات والروابط الاجتماعية تعمل على ظهور توقعات حول أنماط السلوك . وعندما يرتبط الأشخاص فيما بينهم بمعنى اقامة العلاقات مع الآخرين فانهم يميلون إلى تطوير طرق مشتركة فى الادراك والتقييم والمشاعر والعمل . وهذه الأنماط الجديدة للقيم والادراك والفعل تعمل على ظهور توقعات وضوابط تتعلق بالكيفية التى يجب أن يتصرف بها الأشخاص فى مواقف معينة . وهكذا عندما يرتبط الأشخاص ببعضهم الآخر فانه يظهر هناك وعيا اجتماعيا Collective: Conciousness يعمل بدوره على الزامهم واضطرارهم على السلوك والتصرف بطرق معينة .

ونحن نعرف من توقعاتنا الخاصة أنه من الشائع أن يتحدث الناس عن الضغوط الأخلاقية التى يمارسها المجتمع كما يتحدثون عن نشاطات لا يسمح بها المجتمع وعن واجب المجتمع حماية نفسه ضد من يشرع فى كسر قواعده ، وعن الدين الذى ينبغى أن يوفيه للمجتمع أولئك الذين يقصدون الأبواب الخلفية(١) . وتنطوى هذه الملاحظات والأفكار على تصور مؤداه أن المجتمع يوجد على نحو ما فوقنا وفيما وراءنا . ويبدو أن هذا التصور قد استخلصه دوركايم من قوله بأن المجتمع يعتبر بمثابة واقع أو كيان أخلاقى (Moral) ويشتمل هذا الواقع الأخلاقى فى نظره على القيم الجمعية وعلى نظام الأولويات الذى يوافق عليه أعضاء المجتمع وافترض دوركايم أنه لكى يعيش جماعة من الناس معا وعلى نحو تعاونى فيما بينهم ، عليهم أن يطوروا بعض القواعد المشتركة والمتفق

(١) E.C.Cuff & G.C. Payme, op.cit., P. 25.

عليها والتى تتعلق بأولوياتهم كجماعة وترنبط بالكيفية التى يبحي .ه عليهم التصرف ازاء بعضهم الآخر وترتيب علاقاتهم وهذ ما قرره دور كايم عندما كان يوجه نقده لأفكار القدماء من الفلاسفة الاجتماعيين والسياسيين وبخاصة نظريات توماس هوبز (Hobbs) فكان (هوبز) يقترح أن المجتمعات قد تكونت بواسطة الأشخاص الذين أقدموا على الاتفاق فيما بينهم وابرام عقد يخول لهم العيش فى سلام إلى جانب بعضهم الآخر ، بدلا من الاستمرار فى الحرب والاعتداء على بعضهم الآخر وقرر (هوبز) أن الناس قد وافقوا على وقف الحرب بينهم .

« حرب الكل ضد الكل » وعلى تنظيم أنفسهم فى ظل الدولة والحكومة وذلك لكى يضمنوا المحافظة ذاتيا على جموعهم ويوافق الناس فى نظر هوبز على أن يتنازلوا عن حريتهم فى محاربة بعضهم الآخر ، وفى متابعة اشباع رغباتهم الفردية فى مقابل الأمن الذى قد توفره الدولة الجديدة فى محاولة ضبط وحماية قوة الأفراد الخاصة(١) .

وقرر دوركايم أنه لكى يقدم الناس معا على ابرام عقد ، عليهم أن يصلوا إلى شيء من الاتفاق المشترك على القيم الخاصة بهذا العقد وبعض الاتفاق المشترك على الارتباط والتمسك بالقواعد غير المدونة لهذا الموقف الذى يخص التعاقد وهذا الاتفاق السابق يمثل فى نظر دوركايم اطارا للنظام الذى يعد جوهر أو أساس المجتمع . واذا أمكن للناس ابرام عقد مع بعضهم الآخر فذلك لأنهم أعضاء فعلا فى مجتمع ويتمسكون بقيم معينة شائعة بينهم . وهكذا يصبح الاجماع الأساسى أو الاتفاق على قيم أساسية مرادفا لفهم أو ادراك تصور المجتمع .

ويبدو تأكيد دور كايم على الطبيعة الأخلاقية للعلاقات الاجتماعية واضحا فى كل أعماله . ففى كتابه مثلا عن تقسيم العمل فى المجتمع الذى وضع له عنوانا فرعيا « دراسة تنظيم المجتمعات المتقدمة » ، ادعى أن تقسيم العمل ذاته يعد

(٢) Ibid. P 26.

بمثابة ظاهرة أخلاقية أكثر منها ظاهرة اقتصادية فهو يركز فى هده الدراسة على المشكلات السياسية والقانونية والأخلاقية للمجتمعات وذلك فى تغيرها من الأنساق البسيطة الزراعية التقليدية إلى المجتمعات الصناعية الحديثة . وذهب إلى أن كلا من هدين النموذجين للمجتمع يتسم بأن له أشكالا مغايرة من التضامن الاجتماعى ولها أنساق اجتماعية للأخلاق متباينة

وكان كومت قد قرر سابقا أن تقسيم العمل قد يترتب عليه زيادة الصراعات ، وذلك كلما تطور الأفراد والجماعات واستطاعت أن تحمى مصالحها الخاصة ، وكذلك ذهب سبنسر إلى أن تقسيم العمل قد يترتب عليه زيادة فى الاعتماد المتبادل من خلال تزايد التمايز ذلك الذى يجعل المجتمعات الصناعية الحديثة أقل عرضة للتفكك والتدهور من المجتمعات البسيطة(١) .

ولقد أخذ دوركايم من كل منهما بعض الأفكار . فقرر أن المجتمعات البسيطة أو البدائية بها تقسيم عمل أقل . وذهب إلى أن لهذه المجتمعات بناءا قطاعياأو تتكون من قطاعات، بمعنى أنها تتكون من وحدات متشابهة مثل الأسر والقبائل . وهناك فقط عدد محدود من الأدوار التى تستطيع كل جماعة أن تقوم بها . ونتيجة لذلك فإن هذه الأدوار المشتركة وأساليب العمل والتوقعات والمعتقدات هى التى تعمل على الربط بين بعضهم البعض وهى تشكل ما أطلق عليه دوركايم اسم التضامن الآلى وذلك لأن كل جزء من المجتمع يمكن مقارنته بكل الأجزاء الأخرى . ويمكن فهم كل جزء بهذا المعنى على أنه عنصر أصغر فى المجتمع الأكبر . وباختصار ، يرتبط الناس فيما بينهم بقيم مشتركة تقوم على الخبرات المشتركة والشائعة بينهم .

وكلما زاد تقسيم العمل وتطلب الأمر ظهور أدوار جديدة ، حدثت زيادة فى تمايز الوحدات أو التجمعات . وفى نفس الوقت تضعف وحدة المعتقدات والأفكار الأخلاقية ، غير أن المجتمع لا يتفكك وبدلا من ذلك يظهر شكل جديد للتضامن وصورة جديدة من صور النظام الأخلاقى لكى تدعم القواعد

(١) Ibid. P. 26

الضعيفة كأساس لهذه القيم المشتركة . وهذا ما يطلق عليه دوركايم اسم التضامن العضوى ، وهو تضامن يتميز بالاعتماد المتبادل بين العناصر المتباينة من خلال القبول العام للحاجة إلى التمايز . حيث تقبل الاختلافات وتصبح فى الواقع متوقعة . فمثلا يبدأ الانسان الحديث فى توقع أنه يمكن أن يعتمد على الأفراد الآخرين ومن بينهم عامل فى منجم فحم لا يراه وعامل فقير آخر وصانع كروت عيد الميلاد وفلاح ... إلخ . وهكذا فان طبيعة الاجماع الأخلاقى تتغير ولا تزال القيم المشتركة والشائعة مستمرة لأنه بدونها لا يكون للمجتمع وجود ، غير أنها تصبح عامة طالما أنها فقدت جذورها فى مجال الخبرات اليومية المشتركة . وبدلا من تعيين وتحديد تفاصيل الفعل تميل القيم المشتركة إلى أن تكون دعائم أكثر عمومية للممارسات الاجتماعية الفعلية . وبهذا يمكن النظر إلى تقسيم العمل باعتباره ظاهرة أخلاقية .

(٤) المجتمع نسق متوازن

والملاحظ أن دوركايم كان يستخدم على نحو ضمنى ، شأنه فى ذلك شأن كونت وسبنسر من قبل ، نموذج التوازن للمجتمع .

حيث ينظر إلى المجتمع على أنه نسق منظم وثابت تتغير فيه الخبرات ويعمل التوافق والتكيف مع الموقف المتغير بطريقة ما على اعادة تشكيل نظام جديد وحالة جديدة للتوازن . ويعتبر مفهوم التوازن Equibbruim مفهوما هاما فى مدخل الاجماع . وعموما ، يفترض أن تكون المجتمعات ثابتة ومنظمة إلى أن يقع حدث أو تغير آخر . وعندما يحدث هذا من المفترض أن يحدث المجتمع تغيرات أخرى كجانب من عملية التكيف الموقف الجديد لكى يعيد بناء حالة التوازن ، ويترتب على استخدام هذا المفهوم ، بطبيعة الحال ، ميلا إلى تشىء المجتمع بمعنى اعطائه خصائص الشىء الفعلى والافتراض أن لهذا المجتمع حياته ووجوده الخاص به ، **وتكمن جذور هذا الافتراض** فى القول بأن المجتمع يشبه الكائن العضوى ، وبالرغم من أن سبنسر نفسه ، كما أوضحنا ، لم يكن يعتقد

فى أن المجتمع يعد بمثابة كائن عضوى ، لأنه عالج فقط المجتمع كما لو كان كائنا عضويا . الا أنه كان هناك غيره من فعل ذلك(١)

والمحتمل أن دوركايم قد نظر إلى المجتمع على أنه نوع من الكائن العضوى وهو لا يشبه غيره . وانما ادعى أن المجتمع يوجد على نحو فريد Sui generis وهذا معناه أن المجتمع يوجد فى ذاته ككيان مستقل ومنفصل . وكان دوركايم أكثر فخرا فى اضفائه طابع الشيئية على المجتمع أكثر من كومت وسبنسر وأكثر من أى عالم اجتماع آخر كان له هذا التأثير . ويتضح ادراكه لهذه الخاصية للمجتمع بشكل جلى فى مناقشته لاستراتيجية البحث أو قواعد البحث التى يجب اتباعها فى دراسة المجتمع . وفى تحليله الوظيفى للصور الأولية للحياة الدينية .

وبالرجوع إلى تفسيره الوظيفى للصور الأولية للحياة الدينية ، نجد دوركايم يذهب إلى أن النشاط الدينى يوجد فى المجتمع لأن له وظيفة ايجابية : فهو يساعد على الحفاظ على الوحدة الأخلاقية للمجتمع . وقام دوركايم بتحليل النشاط الدينى فى القبائل البدائية على افتراض أن لكل المجتمعات خصائص أساسية مشتركة وان فهم الدين فى هذا المجتمع البسيط قد يؤدى إلى فهم الخصائص الجوهرية للدين فى أى مجتمع فقام دوركايم بدراسة القبائل البدائية فى استراليا واستنتج أن وظيفة الطقوس الدينية هى دعم التضامن بين أعضاء المجتمع . اذ تساعد أوجه النشاط الطقوسية هذه على أن توضح لهم أنه برغم معيشتهم المنفصلة والمبعثرة فى عشائر متباينة ، فهم جميعا جزء من نفس المجتمع ولهم نفس القواعد الأخلاقية والتوقعات والالتزامات الأساسية التى تمارس عليهم نوعا من الضغوط والضبط وبداخل القبائل تعتبر العشيرة هى الوحدة الأساسية للحياة الاجتماعية ، ولكل عشيرة توتم Totem والتوتم عادة يأخذ اسم حيوان مثل السحلية Lizard ويشبه شعار النبالة أو أى شعار آخر ، بمعنى الرمز الذى يعد مقدسا وينطوى على معانى خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتخذون منه

(١) Ibid, P. 27.

توتما لهم . ويعتبر التوتم بمثابة وسيلة ملموسة للتعبير عن مشاعر الناس على أن المجتمع والذى يعتبرون أنفسهم أعضاءا فيه مجتمع أكبر وأفضل من كل فرد فيه ، وهو يعمل على تذكرة الأفراد بواجباتهم وصلاتهم بالقبيلة فى جملتها وكم يعلقون على هذه الروابط من قيم وأهمية ، وتتدعم هذه المشاعر بمعرفة القبيلة ككل وذلك على فترات زمنية يتم فيها التجمع على موائد الطعام والرقس والطقوس الدينية ، ويتمتع كل فرد بمشاعر المرح وتسمو انفعالاته ، الأمر الذى لا يمكن له أن يتحصل عليه الا فى ظل هذا التجمع فقط . وتتأثر مشاعر الفرد بالقوة الخارجية ذات القيمة ويشعر معها بالتضامن مع أقرانه . وهكذا فان الشعار التوتمى يذكره بالقوة العليا للمجتمع .

والواضح أن هذه الشعوب البدائية لا تعتبر هى نفسها هذا الشعار ممثلا للمجتمع . فهم يشعرون بأنهم يعبدونه فى ذاته . فكان دور كايم اذن هو عالم الاجتماع الذى أدرك مغزاه الواسع والمستتر ، أو الوظيفة التى يقوم بها من أجل الحفاظ على النظام الأخلاقى للمجتمع البدائى .

ويقارن دوركايم فى تحليله وتفسيره الوظيفى بين توتم العشيرة وبين العلم لدى الدولة . اذ يعتمد التضامن القومى على مشاعر حب الوطن فى أذهان الأعضاء الفرادى فى هذه الأمة . وللحفاظ على التضامن القومى ومشاعر حب الوطن يحتاج الأمر إلى بعض التعبير الجماعى من وقت إلى آخر . وتساعد كل الطقوس المتعلقة بالأعلام ، والملك وقادة الدولة ... إلخ على تحقيق هذه الوظيفة وهذه الطقوس تمكن أفراد الأمة على تركيز مشاعرهم على الكيان الجمعى الذى يعتبرون أنفسهم جزءا منه وهذا يساعد بدوره على الحفاظ على وجودهم من خلال دعمهم للتضامن الاجتماعى .

ثانيا : الاطار التصورى للبنائية الوظيفية

بمعنى مجموعة المفهومات التى يتردد استخدامها فى اطار البنائية الوظيفية وعلى الرغم من أن مفهوما البناء Structure والوظيفة Function باعتبارهما

مفهومين رئيسيين فى هذا الاطار ، وقد دخلا على يد كومت وسبنسر ، الا أن البنائية الوظيفية شهدت نمو اطارا تصوريا يضم مفهومات مثل النسق والنظام والدور والقيم والمعايير وغيرها ترتبط بمفهوم البناء ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كما شهدت ظهور مفهومات مثل الوظيفة الظاهرة والوظيفة الكامنة . والبدائل الوظيفية والمعوقات الوظيفية والوظيفة الميسرة وغيرها ترتبط بمفهوم الوظيفة ، وقد أضيفت هذه المفهومات على يد علماء مثل مالينونسكى ورادكليف براون ، وبارسونز وميرثون وماريون ليفى وغيرهم .

(١) مفهوم البناء الاجتماعى والمفهومات ذات الصلة

يذكر روبرت ريدفيلد أن من استخدموا مفهوم البناء الاجتماعى، لم يستخدموه بمعنى واحد ، ويبدو أنهم يستخدمون عدة افكار أو تصورات مختلفة بشأنه . وحرص رادكليف براون أحد رواد البنائية الوظيفية فى محاضرته التى القاها ١٩٤٠ وعنوانها فى البناء الاجتماعى على حسم هذا الخلاف . ويقصد بالبناء الاجتماعى مجموعة العلاقات الاجتماعية المتباينة التى تتكامل وتتسق من خلال الأدورار الاجتماعية ، وثمة أجزاء مرتبة ومتسقة تدخل فى تشكيل الكل الاجتماعى ، وتتحدد بالأشخاص والزمر والجماعات وما ينتج عنها من علاقات ، وفقا لأدوارها الاجتماعية التى يرسمها لها الكلى وهو البناء الاجتماعى .

أ ــ النسق الاجتماعى Social System

ويعنى النسق فى أبسط معانيه العلائقية أو الارتباط أو التساند . وحينما تؤثر مجموعة وحدات وظيفية بعضها فى بعض ، فانه يمكن القول أنها تؤلف نسقا ، ذلك الذى يتسم بخصائص معينة .. ويستطيع مفهوم النسق الوفاء بكثير من متطلبات التحليل الوظيفى ، ولعل أهمها انه يمكننا على مستوى التجريد من التعرف على النشاطات المختلفة والخصائص المتميزة للمجتمع ككل ، فالمجتمع ذاته يوصف بانه نسق اجتماعى متفاعل .

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ١٥١ ــ ١٥٢

وتتضمن فكرة النسق الاشارة إلى البيئة المحيطة به ، وتنطوى هذه البيئة على اقصى درجات التفاعل والتداخل بين مختلف عناصر ومكونات النسق كذلك تثير مسألة البيئة مشكلة حدود النسق ، والحدود هى الاطار الذى يحيط بالنسق ويتبادل معه التأثير والتأثر .

ب ــ النظام الاجتماعى Social institution

استخدم مالينوفسكى مصطلح النظام للاشارة إلى الجماعة الاجتماعية . وهو يدافع عن ما يسميه عزل النظم عن بعضها البعض . وكل نظام يؤدى فى الواقع وظيفة اجتماعية على الأقل ، أو بعبارة أخرى يشبع حاجة اجتماعية مستترة واذن من الممكن تقسيم النشاط الثقافى العام للمجتمع إلى وحدات تنظيمية متميزة ، بحيث يطلق على كل وحدة من هذه الوحدات مصطلح النظام وهذه النظم هى العناصر الثقافية المنعزلة التى تخضع للبحث والدراسة العلمية فدراسة النظم تشتمل على الثقافة ، بوصفها الجهاز الذى يواجه اشباع الحاجات والملزمات الوظيفية المتعددة .

ويذهب مالينونسكى إلى أن كل نظام يمكن تحليله بوصفه وحده تنظيمية إلى ست اجزاء مكونة هى : الميثاق بمعنى الأغراض والقيم التى ينطوى عليها النظام وتوجه وتنظم سلوك الأعضاء فى المجتمع . ثم العاملون ، وهم مجموعة الأعضاء الذين ينتظم سلوكهم على اساس المهار ، والامتيازات والمكافأت وبعض مبادىء السلطة . ثم القواعد والمعايير وهى مجموعة المبادىء الاخلاقية والفنية والقانونية المقبولة أو المفروضة على الأعضاء على أساس مهاراتهم وسلوكهم فى الجماعة ثم الجهاز المادى .. والأنشطة .. والوظائف

ويفيد هذا الاطار فى تقديم معرفة شاملة عن النظام ، ومعرفة التفاصيل الخاصة بكل عنصر من عناصر البناء الاجتماعى

وقد حدد مالينونسكى مجموعة النظم الاساسية التى توجد فى كل مجتمع وأوضح جذور هذه النظم فى الحاجات الأساسية والوسيلية والتكاملية

فالأسرة والزواج والقرابة مرتبطة بالحاجات الأساسية إلى التناسل والانجاب وتنظيم الجنس والنظم المهنية والفنية ترتبط بالملزمات الوسيلية ، اما النظم السياسية والدينية فتتعلق بالملزمات التكاملية[1]

وكان رادكليف براون يرى أن ما اصطلح على تسميته بالنظم الاجتماعية ما هى الا صورا منتظمة للعلاقات المتبادلة ، مثل الاسرة والدين والحكومة والقانون .. وهى تمثل وحدات التحليل السوسيولوجى . ويستطرد براون فى تعريف النظم فى ضوء المعايير الاجتماعية والقيم .

جـ ـ الدور الاجتماعى Social Role

يعد مفهوم الدور مفهوما محوريا سواء لفهم النتائج أو الآثار أو لفهم مكونات البناء الاجتماعى . فالدور هو الوظيفة ، بمعنى أنه السلوك الذى يؤديه الجزء من أجل بقاء الكل . وتشكل انماط العلاقات الاجتماعية بين الادوار الشخصية جوهر البناء الاجتماعى ، وبالمثل تشكل أنماط العلاقات بين النظم الاجتماعية المفهوم الأشمل لبناء المجتمع ككل .

د ـ نسق القيم Value System

ويشير إلى القيم التى يتبناها المشاركون فى النسق الاجتماعى كموجهات سلوكهم وهذه القيم هى المسئولة عن التوازن والوحدة كما أنها تحقق التماسك وتمنح الفعل الاجماعى شكلا وتعطيه معنى .

(٢) مفهوم الوظيفة الاجتماعية والمفهومات ذات الصلة .

يذهب رادكليف براون إلى أن وظيفة النظام هى الدور أو الاسهام الذى يقدمه الجزء من أجل النسق الاجتماعى ككل . ولكى يوضح هذه الفكرة استخدم المماثلة العضوية تماما كما استخدمها هربرت سبنسر ففى الكائن الحى نجد أن العضو البنائى (وليكن القلب مثلا) يؤدى دورا أو وظيفة معينة فى الاسهام الذى يقدمه لاستمرار الكل (منح الدم إلى كافة انحاء الجسم) واستمرار

(١) محمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ص ٤٤٥ ـ ٤٥٦

وجود الكل يعتمد على العلاقات الوظيفية بين الأجزاء ، فالبناء والوظيفة والعملية هى الجوانب المرتبطة الثلاث للنسق الاجتماعى ككل[1] .

وكان ميرتون قد أضاف تعريفا شهيراً للوظيفة حيث قال « اها تلك النتائج أو الآثار التى يمكن ملاحظاتها والتى تؤدى إلى تحقيق التكيف والتوافق فى نسق معين » . وطور ميرتون بعد ذلك مجموعة تصورات بدأه بالتفرقة بين الوظائف الظاهرة والكامنة ، ودعمه بمفهوم البدائل الوظيفية ، واختتم اسهامه بمفهوم المعوقات الوظيفية كأداة لفهم التغير الاجتماعى .

(أ) الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة Manifest & Latent

قدم ميرتون تفرقة واضحة وتمييزا قاطعا بين الوظائف الظاهرة والكامنة وهو تمييز اشار إليه ضمناً بعض الدارسين الأخرين . فالوظائف الظاهرة تشير إلى النتائج الموضوعية التى تحدثها سمة اجتماعية أو ثقافية معينة ، تلك النتائج التى تفرض على الأفراد تبعيتها أو التكيف معها ، فهى إذن نتائج يتوقع الأفراد حدوثها . أما الوظائف الكامنة فتشير إلى النتائج غير المقصودة وغير المقررة . ولتوضيح ذلك نقدم فيما يلى المثال الذى استعانه به ميرتون نفسه : فالوظيفة الظاهرة للاستهلاك الاقتصادى هى الانتفاع بينما يعد تحقيق الهيبة وتأكيد المكانة العليا — على حد تعبير فيبلن — أحد الوظائف الكامنة لهذا الاستهلاك .

ولقد شاع التمييز الذى قدمه ميرتون بين علماء الاجتماع الامريكيين خاصة خلال السنوات القليلة التى تلت الطبعة سنة ١٩٤٩ من كتاب النظرية الاجتماعية والبناء الاجتماعى . ومن الجدير بالذكر هنا أن ميرتون ذهب فى احدى مقالاته القصيرة والتى تناولها فيها كيف يواجه الجهاز السياسى الحضرى حاجات الجماعات المختلفة والتى لا تشبعها المنظمات الرسمية ذهب فى هذا المكان إلى أن التمييز الذى قدمه بين النوعين من الوظائف كان تميزا على درجة بالغة من الاهمية لأنه لفت الأنظار إلى الوظائف الكامنة التى كانت مغلقة على التحليل الاجتماعى عموما .

(١) محمد على محمد ، تاريخ علم الاجتماع ، مرجع سابق ص ص ٤٤٦ — ٤٥٤

(ب) البدائل الوظيفية Functional Alternatves

وعندما حاول ميرتون مناقشة موضوع الجهاز السياسى ، كشف بجلاء عن أهمية مفهوم البدائل الوظيفية . وتكمن أهمية هذا المفهوم فى التحليل . حينما نتخلى عن التسليم بفكرة الوظيفية التى ينطوى عليها بناء اجتماعى معين . ومعنى ذلك أنه يتعين علينا الا نسلم مثلا بأن الجهاز السياسى يمثل الوسيلة الوحيدة لمواجهة حاجات جماعات معينة مثل رجال الاعمال ، والطموحين من أفراد المستويات الاجتماعية الدنيا . واذن فمفهوم البدائل الوظيفية يركز الاهتمام على مدى التنوع الممكن فى الوسائل التى تستطيع أن تحقق مطلباً وظيفيا . وبذلك فهو يذيب ذاتيه ماهو موجود بالفعل وما هو محتم أيضا .

(جـ) المعوقات الوظيفية Dysfun ctions

وأخيرا نجد ميرثون يحذر من الاهتمام الشديد بدراسة الجوانب الاستاتيكية فى البناء الاجتماعى ، وهو اهتمام اولاه بعض من ممثلى المدرسة الوظيفية . وفى هذا الصدد يستخدم ميرثون مفهوم المعوقات الوظيفية يشير إلى النتائج التى يمكن ملاحظتها والتى تحد من تكيف النسق أو توافقه . فالتفرقة العنصرية مثلا قد تكون معوقاً وظيفيا فى مجتمع يرفع شعار الحرية والمساواة ويوضح ميرثون أهمية هذا المفهوم يقول « ان مفهوم المعوقات الوظيفية بما يتضمنه من ضغط وتوتر على المستوى البنائى يمثل اداة تحليلية هامة لفهم ودراسة الديناميات والتغير[1] .

(١) نيقولاتيماشيف ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣١ ــ ٣٣٤

ثالثا : بارسونز ووضوح البناء الفرضي للوظيفة

لا يمكن لكل من يدرس علم الاجتماع على مجمل الجدية أن يتجنب التعرف على أعمال تالكوت بارسونز . فلقد كتب أكثر من (١٥٠) مقالا منشورا وكتاب فى أقل من (٥٠) عاما وظل يكتب حتى وقت قريب (١٩٧٠) . وتتميز معظم هذه الأعمال بمنظور الاجماع فى علم الاجتماع . وعلينا أن نشير إلى عناوين بعض كتبه لندرك مدى اهتمامه بهذا المنظور . ففى عام ١٩٥١ كتب مؤلفه « النسق الاجتماعى » Social System ووضع حديثا جدا كتاب بعنوان المجتمعات ، المنظورات المقارنة والتطورية وبعدها أصدر كتابه عن « نسق المجتمعات الحديثة » ، والمتفق عليه عموما بين علماء الاجتماع اليوم أن تالكوت بارسونز قد أضاف اسهامات رئيسية إلى تطور منظور الاجماع من خلال بلورته المفضلة لاطاره التصورى الأساسى ومحاولته تنسيق الأفكار الأساسية والفروض التى قدمها العلماء الآخرون والمناصرون لمنظور الاجماع فى اطار نظرى متماسك[١] .

(١) المجتمع نسق اجتماعى معيارى

أشار بارسونز إلى أنه بالامكان تحليل المجتمعات باعتبارها أنساقا اجتماعية وأنه اذا كان على أى نسق اجتماعى أن يستمر عليه أن يعمل على تحقيق أربعة شروط أساسية أو بعابرة أخرى عليه أن يتغلب على أربعة مشاكل أساسية . ولقد أطلق على هذه المشكلات أو الشروط اسم الملزمات الوظيفية Functional Imperatives أو المتطلبات الوظيفية F.Prerequisites وهذه الملزمات لا تهم

---

(١) ويستطيع القارىء التعرف على الجوانب المعرفية والمنهجية فى فكر بارسونز والأسس التصورية لهذا الفكر ، والوظيفية البنائية مرحلة النسق النظرى ونهاية الوظيفية البنائية وظهور الوظيفية النسقية والوظيفية التطورية والاتصال والانفصال فى فكرباسونز فى الدراسة المتعمقة والشاملة التى قدمها فى كتابه :

دكتور محمد عارف ، تالكوت باسونز رائد الوظيفية المعاصرة فى علم الاجتماع ، مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة أولى ، ١٩٨٢ م .

التنظيم الاجتماعى فقط وانما تتعلق بالحاجات الشخصية لأعضاء المجتمع أيضا[١] وهذه المشكلات الأربعة هى

١ ــ التكيف مع البيئة Adaptation to the environment

وعلى كل مجتمع أن يحقق الحاجات الطبيعية لأعضائه اذا كان عليه أن يستمر ولكى يحقق ذلك ، عليه أن يضع الترتيبات اللازمة مع بيئته الطبيعية . ويعتبر الغذاء والمأوى بمثابة حد أدنى من هذه المتطلبات ، وعادة ما يشتمل مجالها على الأنساق الفرعية الخاصة بالانتاج والتوزيع .

٢ ــ انجاز الهدف Goal attainment

ينبغى على أى مجتمع أن يتوصل إلى بعض الاتفاق المشترك بين أعضائه حول أهدافهم وأولوياتهم . وهكذا عليهم أو يوفروا الترتيبات الضرورية للتعرف على واختيار تحديد هذه الأهداف الجمعية وتوفير الترتيبات البنائية الضرورية لبلوغ هذه الأهداف .

٣ ــ المحافظة على النمط وادارة التوتر :

Pattern maintenance & Tension management

على كل مجتمع أن يتأكد من أن أعضائه متحفزين ما فيه الكفاية لأداء الأدوار الضرورية المطلوبة ولتحقيق الالتزام الضرورى بالقيم فى هذا المجتمع . وعليهم أيضا ، أن يكونوا قادرين على ادارة التوترات الانفعالية التى يمكن أن تظهر بين الأعضاء خلال التفاعلات الاجتماعية اليومية .

٤ ــ التكامل : Integration

ولكى يحافظ أى مجتمع على وجوده عليه أن يضمن قدرا من التعاون والضبط بين العناصر الداخلية للأجزاء المختلفة من النسق الاجتماعى . وتتعامل المشكلتان الأولى والثانية ــ التكيف مع البيئة وانجاز الأهداف

(١) E.C.Cuff & G.C. Payne, op.cot., P. 35.

الجمعية ـ مع ظروف ومتطلبات تتحقق من خارج النسق . وعلى هذا يمكن النظر إليها على أنها أدائية Instrumental إلى حد كبير بمعنى أنها تتطلب أداء مهام مثل تعبئة الوسائل من أجل بلوغ الأهداف ذات القيمة .

وتترتب مشكلات المحافظة على النمط والتحكم فى التوتر . والعمل على التكامل بين أفعال الأعضاء ، تترتب على الحقيقة التى مؤداها أنه يوجد هناك دائما أكثر من شخص واحد فى النسق الاجتماعى . وبعبارة أخرى من المعترف به أن التفاعل الاجتماعى ذاته يثير مشكلات من داخل المجتمع . وهاتان المشكلتان ينظر اليهما على أنهما يتعلقان بالجوانب التعبيرية Expreeive إلى حد كبير ، بمعنى المحافظة على القيم الاجتماعية وضبط التغيرات الانفعالية .

وعلى أن مجتمع لكى يحل هذه المشكلات ويحافظ بالتالى على وجوده أن يوفر أربعة سمات بنائية رئيسية . وهذه السمات البنائية فى نظر بارسونز تتمثل فى الانساق الفرعية الرئيسية المتعلقة بالاقتصاد والسياسة والقرابة والتنظيمات الثقافية والمحلية .

وتؤدى النظم القرابية وظائف المحافظة على الأنماط المتوقعة للتفاعل الاجتماعى وتساعد على ضبط التوترات الشخصية المتبادلة إلى حد كبير من خلال عملية التنشئة الاجتماعية . والواقع أن عملية التنشئة الاجتماعية هى التى تشكل شخصيات من يلعبون الأدوار بالدافعية الكافية والالتزام بقيم المجتمع(١) .

أما النظم الثقافية والمحلية مثل الدين المنظم والتعليم ووسائل الاتصال فهى تقوم بوظيفة العمل على التكامل بين العناصر المتباينة فى النسق الاجتماعى . وهذه النظم بامكانها أن تشكل القيم الاجتماعية وتعمل على تدعيمها فى الوقت نفسه . وقد تكون هذه النظم فى حاجة إلى مساعدة تتلقاها من الهيئات الرسمية

---

(١) Ibid, P. 36.

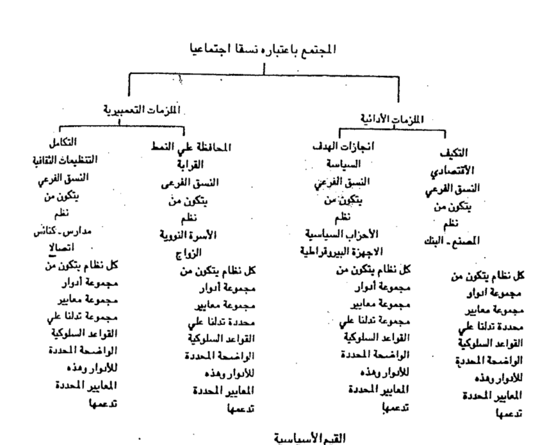
الخاصة بالضبط الاجتماعي مثل قوى البوليس والجيش أو من نظم قانونية خاصة بالمحاكم والتشريع خاصة اذا اتضح عدم كفاية هذه النظم الثقافية.

ويتأثر الشكل الخاص الذى تأخذه هذه الأنساق البنائية الفرعية أو النظم فى أى مجتمع بنسق القيم الخاص بهذا المجتمع وكان بارسونز متأثرا إلى حد كبير بأعمال دوركايم ، لأن كلا منهما كان يعتبر المجتمع فى أساسه بمثابة كيان أخلاقى . وعندما يشير بارسونز إلى بناء المجتمع بمعنى البناء الاجتماعى فانه يشير إلى البناء المعيارى Normative Structure بمعنى أنه يشير إلى بناء التوقعات الذى يتجسد فى عملية لعب الأدوار وكل الأنساق النظامية الفرعية مثل القرابة والاقتصاد والسياسة المشار إليها سلفا تتكون من أدوار .

ففى الاقتصاد مثلا هناك المديرون والموظفون والعاملون فى البنوك وسواعد المصنع والباعة ... الخ . وهذه فقط مجرد أمثلة على بعض الأدوار التى يمكن أن يتكون منها النسق الاقتصادى الفرعى . غير أن الدور يعتبر بمثابة تصور معيارى لأنه يشير إلى التوقعات المرتبطة بوضع معين . وتعمل توقعات معينة ، كما يرى بارسونز ، والتى تحدد الأدوار التى يتشكل منها النظام المجتمعى على دعم نسق القيم فى المجتمع والتأثر به فى نفس الوقت . ويمكن أن يوضح الجدول التالى بالرسم الاطار التصورى للمجتمع أو النسق الاجتماعى عند بارسونز[1] .

---

(١) Ibid, P. 37.



ويوضح الجدول أن المجتمع يتكون من عدد من الأنساق النظامية مثل القرابة والدين والسياسة والاقتصاد والتعليم وكل واحد من هذه الانساق يتكون من نظم معينة مثل الأسرة والكنيسة والمدرسة وهذه النظم بدورها تتكون من مجموعة معينة من الأدوار والتى يمكن ببساطة تحديدها على أنها طرق متوقعة للسلوك ، ومن أمثلتها الأم والأب والزوج والزوجة والمعلم ورجل الدين والتلميذ . وعلى الرغم من أنه قد يلعب مجموعة مختلفة من الأفراد دورا واحدا الا أنه يتوقع منهم أن يمتثلوا للطرق المتوقعة للسلوك التى تفترضها طبيعة هذا الدور . وتتأثر المعايير المحددة التى ترشد وتؤثر وحتى تضبط أشكالا معينة للسلوك بدورها وتتدعم من خلال النسق العام للقيم الذى يميز مجتمعات معينة . وللمجتمعات أنساق قيم متباينة ، ويمكن لهذه الأخيرة أن تعمل على ظهور أشكال مختلفة من البناء الاجتماعى وهكذا فان بارسونز يوافق دوركايم فى

اعتباره نسق القيم فى المجتمع بمثابة أحد خصائصه الجوهريه . وفى نظر كلا العالمين يعتبر الاتفاق المشترك على قيم أساسية معينة سمة متكاملة أو تكوينية لأى مجتمع . ويعتبر الاجماع فى نظرهما أيضا ، على القيم الأساسية بين أعضاء المجتمع بمثابة عنصر فى تحديد المجتمع ، وبدون مثل هذا الاتفاق لا يكون هناك مجتمع .

(٢) يتوقف توازن النسق الاجتماعى على ميكانزمات التنشئة الاجتماعية والضبط

تنعكس مركزية الطبيعة المعيارية للبناء الاجتماعى أيضا فى استخدام بارسونز لمفهوم حالة التوازن داخل اطاره التصورى ، وعلى الرغم من أن فكرة التوازن متضمنة إلى حد كبير فى أعمال كومت وسبنسر ودوركايم وعلماء الأنثروبولوجيا ، الا أن بارسونز قد أدخل هذه الفكرة صراحة فى اطاره النظرى . فالمجتمع فى نظره الذى يعيش فى حالة التوازن هو ذلك المجتمع الذى يخلو من الصراع ، وهو المجتمع الذى يعرف كل فرد فيه ما هو متوقع منه فى أى دور ذلك المجتمع الذى يعمل باستمرار على تحقيق هذه التوقعات وهذه هى احدى شروط التوازن التام ، وهو أمر لا يتحقق فى الواقع ، وانما يفترض أنه أحد الشروط التى يناضل المجتمع دائما من أجل بلوغها

وتعتبر عمليات التنشئة الاجتماعية Socialization والضبط الاجتماعى Social Control بمثابة عمليات أساسية تسهم فى بلوغ هذه الحالة النظرية للتوازن اذ يتعلم من يقومون بلعب الأدوار بمعنى أنه يتم تنشئتهم على التوقعات المرتبطة بالدور وهى عملية تدعمها الجزاءات الايجابية (الثواب) والسلبية (العقاب) لكل من يؤدى الدور والذين يعملون على تحقيق هذه التوقعات أولا يحققونها . وتتمثل المشكلة الرئيسية فى مراقبة من يلعبون الأدوار وهم يعملون على تحقيق هذه التوقعات ففى المجتمعات تامة التكامل تسخر المستويات الأعمق من الدوافع لانجاز توقعات الدور وهكذا فهناك علاقة ضرورة بين شخصية الفرد والبناء الاجتماعى لمجتمعه عندما يكون فى حالة توازن

ولذلك تعد عملية التنشئة الاجتماعية عملية بالغة الأهمية بالنسبة لأولئك الذين يستعينون بهذا المنظور للاجماع فى تحليل طبيعة وعمليات السلوك الاجتماعى . لأنها العملية التى من خلالها يتعلم الأفراد ما هو متوقع منهم فى مواقف متباينة ، بل هى العملية التى يصبح من خلالها أعضاء المجتمع ملتزمين بنسق قيم المجتمع . وفى عملية التعليم الاجتماعى هذه ينظر إلى دور الوالدين على أنه أمر حاسم . ويعتبر الوالد والوالدة فى نظر بارسونز أهم من يسهم فى تشكيل شخصية الطفل وكان بارسونز فى وصفه لأساليب عمليات التعليم يعتمد بشدة على علم النفس الفرويدى . فمثلا نجده يستخدم مفهوم التوحد Identification ليفسر عملية اتحاد الطفل الصغير أو استدماج Internalizing قيم الأم باعتبارها ممثلا للمجتمع حيث يتوافر للأم الفرصة لممارسة ضبطا محكما على موقف التعليم ويمكن لها أن تدعم ميول سلوك الطفل . ويعتبر الارتباط العاطفى الذى يشعر به الطفل تجاه أمه هو العامل الهام فى عملية تعلم القيم الاجتماعية .

وأكد بارسونز على عملية اكتساب القيم ومطاوعة وحساسية العضو حديث الولادة فى المجتمع ، الذى تجعله اعتمادية ينغمس فى الروابط الانفعالية العميقة وينظر إلى الطفل على أنه وعاء فارغ ينبغى ملئه بالثقافة ، وبالالتزام بالقيم وبالتوقعات المتعلقة بالأدوار . وبهذه الطريقة يتم نقل ثقافة المجتمع إلى الأعضاء الجدد ، ويتم استدماج المجتمع فى الجيل الجديد ، لذلك فالتنشئة الاجتماعية تشكل وتضفى نوعا من التماثل على الصغار . هنا يفترض بارسونز أن الأفراد ما هم الا باحثين طبيعيين عن القبول والرضا ، وهم مشغولون بتعلم القيم والمعايير وتوقعات المجتمع ، والامتثال لها وهم يشبهون الأوعية الفارغة لأن بارسونز لم يوجه الانتباه نحو أى مصدر أساسى للتوتر . وانما يؤكد مدخله النظرى على أثر العوامل الماضية فى عملية التنشئة الاجتماعية فمثلا قد يعتبر تبنى الالتزام الأبوى ببعض القيم الاجتماعية بمثابة عاملا سابقا بالنسبة لأطفالهما والذى يؤثر

على نحو عكسي على نوعية عملية التنشئة الاجتماعية . ومن ثم يفسد فرص تحقيق الأطفال لتوقعات المدرسين بعد ذلك[١] .

وبهذه الصياغة التصورية لعملية التنشئة الاجتماعية ، توافر لدى بارسونز أيضا اطارا نظريا يمكن استخدامه فى دراسة وتفسير الانحراف Deviance. فهو ينظر إلى المنحرفين على أنهم أولئك الذين لم يتم تنشئتهم اجتماعيا على نحو كاف ،أولئك يعتبر التزامهم بالقيم ومعايير مجتمعهم غير كافيا وكان هذا هو الافتراض المتعلق بطبيعة وأسباب الانحراف الذى أدى بعلماء الاجتماع إلى استخدام هذا المنظور فى بحث ودراسة الخبرات المبكرة فى الطفولة لأنه ينظر إلى الأسرة باعتبارها الاطار الذى تجرى فيه كل العمليات الأساسية للتنشئة الاجتماعية وتطوير الشخصيات الثابتة والالتزام بالقيم الاجتماعية . ويحدد الانحراف فى ضوء نسق القيم السائد وينظر إليه باعتباره حالة معتلة Pathological ويمكن تفسير الانحراف أيضا على مستوى المجتمع على أنه الاخلال بحالة توازن النسق الاجتماعى الذى يتطلب تدخل هيئات الضبط الاجتماعى مثل قوة البوليس والمؤسسات العقلية وخدمات السجون[٢] .

ويبرهن بارسونز أيضا فيما يتعلق بمفهوم حالة التوازن على قبوله للفكرة التى مؤداها أن أجزاء البناء الاجتماعى معتمدة فيما بينها ، فمثلا نجده شأنه شأن غيره من علماء الاجتماع قد لاحظ التغيرات فى بناء الأسرة وبخاصة الانتقال من الوحدات الأسرية الممتدة إلى الوحدات النووية . وفى وحدات الأسرة الممتدة عادة ما يكون هناك ثلاثة أجيال يعيشون الحياة الأسرية معا أما تحت نفس السقف أو على مقربة من بعضها . واليوم انتشرت فى المجتمعات الغربية الصناعية الحديثة وحدات الأسرة النووية التى تشتمل على الأم والأب وأطفالهما الصغار . وقرر بارسونز أن هذا التغيير فى بناء الأسرة يرتبط بالتغيير فى وظائفها . وادعى أنه كلما تغير المجتمع فان الوظائف المطلوبة من الأسرة تتغير بالضرورة ومن هنا يتغير بناء الأسرة .

(١) Ibid, P. 40.

(٢) راجع دكتور محمد عارف ، مرجع سابق .

ومع نمو عمليات التصنيع ظهرت نظم متخصصة مثل خدمات الرفاهية والتنظيمات السياسية والتعليمية ، ونقصد خدمات رعاية المرضى وكبار السن وتعليم الأطفال فى المجتمع وتنظيمات تقرير الكيفية التى يمكن بها ادارة موارد المجتمع وتوزيعها وفى نفس الوقت تزايد طلب الاقتصاد الصناعى والذى يقوم على نظام المصنع على المستويات العليا من المهارات المتخصصة وكذلك حدث نوع معين من التنقل الجغرافى لقوة العمل . وقد تزايد توزيع المهن على أعضاء المجتمع طبقا للمقدرة والاستحقاق أكثر منه حسب الوراثة . وأصبح الانجاز قيمة اجتماعية عامة ومالت — فى هذا المجتمع الصناعى الجديد — إلى الارتباط بالنجاح المالى . ومثل هذه التغيرات فى القيم وبناء المجتمع كان لها انعكاساتها على الأسرة .

وظهر هناك ميل بين الأسر الصغيرة إلى الانتقال حيث يمكن للزوج أن يحسّن استخدام مواهبه فى الاقتصاد الصناعى ، وإلى أن تقوم الأسر بتخفيض عدد الأطفال الذى يمكن لها انجابهم ، ومن ثم تستطيع عمل كل ما بامكانها ، وأن تطلب هذا التضحية ببعض ملذاتها ، لكى تشجع على النمو المحتمل لكل طفل . وبالامكان استثار الكثير من موارد الأسرة بما فى ذلك وقت الأم وبتزايد مع هذا العدد القليل من الأطفال فرص كل طفل فى تحقيق النجاح فى حياته .

ولما كانت الأسرة قد أعطت بعض وظائفها السابقة لهيئات متخصصة خارجيا ، أصبحت أكثر تخصصا فى وظائفها المتعلقة بتنشئة الأطفال وتوفرت البيئة الاجتماعية التى يستطيع البالغون من خلالها تنمية والحفاظ على شخصيات متوازنة وثابتة(١) .

وينطوى هذا التحليل العام على افتراض مؤداه أن بناء الأسرة النووية يناسب بناء الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الصناعى على أفضل وجه ، ويفضل فى الحقيقة الوحدة الأسرية الممتدة بالشكل الكبير والسابق . واعتبر بارسونز هذه التغيرات مثالا على عملية التمايز البنائى Structural differentation وادعى أن

(١) E.C.Cuff & G.C. Payne, op.cit, p. 41.

القرابة التى تميل إلى السيطرة على البناء الاجتماعى للمجتمعات البدائية يتحقق الجانب الأكبر منها فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بالمقارنة ، من خلال أبنية غير قرابية — مثل التنظيمات السياسية والكنيسة ومؤسسات الأعمال والمدارس ومن خلال عملية التمايز هذه يتم نقل وظائف معينة من الأسرة إلى النظم الأخرى . وهكذا تصبح الأسرة مع هذا القدر القليل من الوظائف الذى يمكن أن تقوم به وحدة اجتماعية أكثر تخصصا . وما ظهر هناك هو نموذج جديد للبناء الأسرى أقام علاقة جديدة مع البناء الاجتماعى العام .

ولنعود الآن إلى قضية بارسونز القائلة بأن المعايير يمكن أن تكون فى حالة صراع داخل الأجزاء المتباينة من النسق الاجتماعى ومع ذلك لا تقلب حالة التوازن الاجتماعى ويمكن لنا أن توضح هذه القضية من خلال تحليل بارسونز للتعليم وعلاقاته المتشابكة مع الأنساق الفرعية الأخرى فى البناء الاجتماعى ؛ وبخاصة الأسرة والاقتصاد . فهو يقترح بأن نمو النسق التعليمى الرسمى والالزامى فى المجتمع الصناعى يمكن النظر إليه على أنه طريقة المجتمع فى محاولة اعادة بناء حالة التوازن بعد حالة التمزق الاجتماعى التى ترتبت على تطور الاقتصاد الصناعى . اذ يحتاج الانتاج الصناعى وذلك الشكل الصناعى للتنظيم الاقتصادى نوعية من الناس يستطيعون العمل فى مختلف المهن طبقا لقدراتهم . ويتطلب الاستخدام الأكثر كفاءة للقوة العاملة أن يعين الأشخاص فى الوظائف طبقا لما يستطيعون هم عمله ليس طبقا لمن هم ؟ وتلعب العواطف دورا ضئيلا فى استخدام العمالة وهذا فضلا عن أنه قد تم التخلى عن المحاباه والمحسوبية من أجل المحافظة على الهدف العام للاقتصاد الصناعى ، ونعنى انتاج أكبر قدر ممكن مع أقل قدر من الاستثمار فى العنصرين البشرى والمادى . وفى موقف الأسرة يتوقع الاتيان بطرق أخرى فى السلوك ذات قيمة فالمعتاد بالنسبة لنا أن نساعد أعضاء أسرنا ونقدم لهم ما هو باستطاعتنا من أجلهم ، لأنهم أعضاء فى هذه الأسرة . وتعتبر العواطف أمرا مناسبا فى العلاقات الأسرية ومثل هذه العواطف يمكن أن تتسبب فى وجود الصراعات المحتملة بين التوقعات فى مثل هذا المجتمع الحديث وخاصة بين الأدوار الأسرية وبين الطرق المتوقعة فى

السلوك فى ظل هذا النوع من الاقتصاد

ويمدنا النسق التعليمى بالميكانزمات والأساليب الاجتماعية التى تجنبنا أو تقلل من هذا الصراع المحتمل ففى المدرسة ، يتعلم الطفل أن المحسوبية ليست أمرا مناسيا وانه تتم مجازاة الناس أساسا على ما يستطيعون عمله وعلى ما يمكن لهم انجازه ، ويتمكن التلاميذ الصغار من أدراك انهم كلما تقدموا فى تعليمهم من الروضة إلى الأولى ومن المدارس الثانوية إلى تعليم آخر أعلى ، كلما عبروا نحو المزيد من التخصص وهم فى مدارس الأطفال يكون لهم معلم واحد فقط يعد شبها للأم فى نظرهم من جوانب كثيرة ، وفى المدارس الثانوية بعد ذلك لا يقوم متخصصون بتعليمهم فقط وانما يحتمل أن يطلبوا النصيحة من مستشارين متخصصين فى التغلب على ما قد يواجههم من مشكلات انفعالية(١) .

وبهذه الطريقة يمكن النظر إلى النسق التعليمى على أنه يقوم بدور القنطرة بين العلاقات المتصارعة احتمالا والتوقعات التى يواجهها الأشخاص فى أنساق الأسرة والاقتصاد . وهذه القنطرة يمكن النظر إليها على أنها تساعد على الحفاظ على حالة التوازن للمجتمع من خلال ما تقدمه لأعضاء المجتمع من فرص فى تعليم كيفية التكيف والتوافق مع التوقعات المتصارعة بالطرق الموافق عليها فى المجتمع .

(٣) يتوقف تكامل النسق الاجتماعى على ميكانزمات التساند بين اجزائه

تتضح الأهمية التى يعلقها بارسونز على المعايير والقيم من خلال مفهوم متغيرات النمط(٢) . ويمدنا هذا المفهوم بأساس الاطار التصنيفى الذى يحدد فئات قيم ومعايير أى مجتمع . وأكثر من ذلك يدعى بارسونز أن هذا الاطار لمتغيرات النمط يمكن أن يفيد فى الكشف عن مقدار التكامل فى المجتمع ويقرر بارسونز أنه يمكن تصنيف أى قيمة أو دور أو معيار أو نظام أو نسق فرعى فى

(١) Ibid, p. 53.

(٢) راجع :

جى روشيه ، علم الاجتماعى الامريكى ، دراسة لأعمال تالكوت بارسونز ، ترجمة دكتور محمد الجوهرى ، والدكتور أحمد عبد الله زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٥٤

المجتمع أو حتى المجتمع ككل بواسطة هذا الاطار ، وأن الأهمية الجوهرية لهذا الاطار تتضح فى الطريقة التى تؤثر فى المعايير والسمات الأخرى للأنساق الاجتماعية . ويمكن لعالم الاجتماع حاصة أن يستخلص مقياسا للتناسب بين المعايير والقيم من خلال الاستعانة بهذا الاطار التصنيفى لمتغيرات النمط .

ويوضح الجدول التالى تصور باسونز لمتغيرات النمط* :

قيم النمـــــط (أ)	قيم النمـــــط (ب)
تميز القيم التعبيرية والمعايير بمعنى التركيز علي الاشباع الانفعالى	تميز القيم الأدائيـة والمعاييـر بمعني تأكيد أهـداف الانجـاز وانجـاز الواجبــات
النسب Ascription	الانجاز Achievement
التركيز علي خصائص وسمات الفاعلين من يكونوا ؟	التأكيـد علي أداء الـفاعلين ماذا يفعلـون ؟
الانتشار Diffuseness	التخصص Specificity
تأكيد العلاقات الواسعة ومعالجة نطاق أكبر من المصالح والأهداف . ونعني العلاقات بين الام والطفل	التأكـيد علي العلاقات المحدودة بين الطبيب والمريض
الاصطفائية Particularism	العالمية Univer salism
تأكيد تنظيم العلاقات الخاصة مع فاعلين معينين ونعنى الولاء للأم	تأكيد تنظيم التفاعل طبقا لمبادىء عامة . ونعنى معاملة كل شخص علي انه مسو لغيره أمام القانون
العاطفة Affectivity	الحياد العاطفي Affective Neutrality
تأكيد أشباع العواطف	تأكيد تأجيل الاشباع بمعني ضبط النفس
الاهتمام بالجماعة Coggective Orıen	الاهتمام بالذات Sef-one
تأكيد الجماعية بمعني مجاراة المصالح المشتركة	تأكيد الفردية ، بمعني مجاراة المصالح الخاصة

* درجت المؤلفات العربية على ترجمة هذا المفهوم إلى متغيرات النمط ، وأرى أنه من الأفيد ترجمته إلى قيم نمط

ويقترح باسونز أن نسق القيم الأساسي في المجتمع الصناعى البيروقراطى الحديث يمكن أن يتميز بقيم النمط (ب) وأن نسق القيم الأساسى فى مجتمع قبلى صغير يمكن أن يتميز بقيم النمط (أ) . ومع شيء من المقارنة العامة يمكن أن ندرك الصلة بين المجموعتين من قيم النمط عند بارسونز وبين أشكال التضامن العضوى والآلى عند دوركايم . ولكن بارسونز قد ذهب إلى أن اطاره هذا يتجاوز ذلك ، ويمكن أن يساعدنا فى التعرف على صور الصراع المحتملة بين القيم والمعايير التى ينبغى على المجتمع أن يتغلب عليها للمحافظة على حالة التوازن هذه بمعنى تحقيق حالة الثبات داخله . فمثلا يمكن أن تتميز الأسرة فى مجتمعنا إلى حد كبير بقيم النمط(أ) ، بينما يمكن أن تتميز عموما نظم أخرى موجودة فى الأنساق الفرعية السياسية والاقتصادية بقيم النمط (ب) . ولكن لما كان هناك نوع من التبادل فى الأعضاء بين هذه الأنساق ، يمكن أن يظهر الصراع المحتمل، غير أنه على المجتمع أن يتعامل مع هذه الصراعات من خلال بعض ميكانزمات التكامل من أجل ادارة مثل هذه التوترات لكى نضمن تحقيق الدرجة اللازمة من حالة التوازن والحفاظ على النظام .

وتعتبر عملية تخصيص الأدوار واحدة من مثل تلك الميكانزمات وكما رأينا فعلا تميل الأسرة إلى التطور فى بناء نووى منعزل فيه تقبل مشاركة معظم الأعضاء فى النظم غير الأسرية ، ويلعب الذكور البالغون من الوجهة النموذجية ما أطلق عليه بارسونز « الدور الحدى » Boundary-role كلما تحرك جيئة وذهابا بين الأسرة وغيرها من النظم غير الأسرية . وهو يميل أيضا إلى التركيز على الوظائف الأدائية والمعنية بالواجبات . وتميل الاناث البالغات إلى البقاء فى المنزل والتخصص فى الوظائف المعنية بالجوانب التعبيرية .

وبالمثل بالامكان أن تقوم المدرسة بوظيفة تحقيق التكامل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية التدريجية للطفل الذى كان قد خبر فى موقف أسرته تلك القيم والمعايير التى صنفت تحت قيم النمط (أ) على الأدوار ومن ثم المعايير والقيم التى يمكن تصنيفها تحت قيم النمط (ب) . وهكذا تواجه المدرسة كنظام بعض

مشكلات التكامل فى النسق الاجتماعى ، وهكذا تساعد على الحفاظ على حالة التوازن الكافية . ويساعد مفهوم قيم النمط على تحليل وفهم طبيعة العلاقات الممكنة بين مختلف النظم ويسلط الأضواء على الاعتماد المتبادل والقائم بين العناصر المتباينة للنسق الاجتماعى[1] .

وبالرغم من أننا قد أشرنا ضمنيا إلى أن النموذج النظرى عند بارسونز المتعلق بالنسق الاجتماعى يشير إلى المجتمعات فى جملتها ، ومن المهم أن نذكر أنه قد ادعى أن هذا النموذج يمكن تطبيقه فى التحليل على مختلف المستويات النظامية (القرابة) ومختلف النظم (الزواج) ، وحتى على العلاقات بين أدوار شخصين اثنين ، مثل الزوج والزوجة وهذه الامكانية العامة لتطبيق تصوره للنسق الاجتماعى توضح مرة ثانية كيف قدم بارسونز وزود علماء الاجتماع بمجموعة أكثر تفصيلا من المفهومات ، تجاوزت ما كان متاحا من قبل ، تساعد على فهم طبيعة السلوك الاجتماعى من داخل منظور الاجماع .

والخلاصة أنه قد وجه النقد لبارسونز أساسا لأنه قدم لنا اطارا نظريا مجردا يصعب تطبيقه فى البحث الامبيريقى . وسوف نعرض فى الأقسام التالية لهذه الانتقادات من خلال فحص أو مراجعة بعض البحوث التى استعانت بهذا المنظور للاجماع . وسوف نبدأ على أية حال ، بدفاع ميرتون ، وبتعديله المقترح للمدخل الوظيفى لكى يناسب البحث السوسيولوجى .

رابعا : نقد وتعديل البنائية الوظيفية عند روبرت ميرثون :

ادعى روبرت ميترون R. Merton أن الاطار النظرى من النوع الذى قدمه بارسونز لا يساعدنا على القيام بأعبائنا الواقعية فى علم الاجتماع ، بمعنى القيام باجراء البحوث السوسيولوجية . وبدلا من محاولاتنا انتاج وتقديم نظريات شاملة ومتقنة علينا أن نتذكر أن علم الاجتماع ليس بالعلم القديم ولا الذى اكتمل انشاؤه كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ولذلك علينا أن نكرس كل طاقتنا فى صياغة القضايا التى يمكن اختبارها والمجموعات المحدودة من الفروض

(١) E.C.Cuff & G.C. Payne, op cit, p. 44.

المتعلقة بمواقف محددة . واذا فعلنا ذلك نكون قادرين على التوصل إلى بعض النتائج والانتقال منها تدريجيا صوب النظرية الأكثر عمومية . ولقد اعتبر ميرتون نظرية بارسونز بالغة الغموض وأكثر حرصا على بناء اطار نظرى ضخم لا يساعدنا على تناول المشكلات العملية فى اجراء البحوث(١) .

وذهب ميرتون إلى أن التحليل الوظيفى يعتبر بمثابة مدخلا سوسيولوجيا واعداً يرجى من وراءه الكثير ، غير أن ما وعدنا به لم يتحقق لأنه قد مال بعيدا عن الدقة المنهجية . واعتقد أن هذا النقص المنهجى يرجع أساسا إلى المفهومات والافتراضات غير الدقيقة والمشوشة . ومن هنا حدد هدفه فى التعرف على هذا التشويش ليوضح ويعالج النقص ، ويقدم قائمة يمكن مراجعتها تحدد مالا يمكن أو يمكن عمله عند دراسة أى ظاهرة فى ضوء الاطار الوظيفى(٢) . ولقد أطلق على هذه القائمة المنسقة التى يمكن مراجعتها من المفهومات والاجراءات اسم النموذج القياس Paradigm فهناك مشكلة تواجه مفهوم الوظيفة ذاته ، على حد زعمه ، لأنه قد استخدم بمعانى وطرق كثيرة ومختلفة . ففى اللغة الشائعة ، نجد أن لهذا المفهوم معانى عديدة ومتباينة تبدأ بالمهنة والحدث المفرح ، والنشاطات التى تنجز من خلال الدور أو المنصب ، وتشير أيضا وعلى نحو أكثر تجريدا إلى الدوافع والمقاصد والأهداف .

واقترح ميرتون أنه قد يكون من المفيد لدرجة كبيرة انه عند استخدام هذا المفهوم فى علم الاجتماع أن نحصره فقط فى تلك النتائج التى يمكن ملاحظاتها للأحداق الاجتماعية أو الترتيبات التى توضع من أجل التكيف أو توافق نسق ما (الجماعة أو المجتمع) . فمثلا ينبغى دراسة نمط الترتيبات الاجتماعية فى الأسر أو الأنساق السياسية لكى نلاحظ نتائجها فيما يتعلق بتحقيق متطلبات النسق

---

(١) راجع : دكتور على ليله ، النظرية الاجتماعية المعاصرة دار المعارف ، مصر ، ١٩٨١ م .

(٢) يستطيع القارىء أن يجد تفاصيل ذلك فى كتاب :

الدكتور محمد على ، تاريخ علم الاجتماع ، الجزء الثانى ، البنائية الوظيفية ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ١٩٨٣ .

الاجتماعى الثابت والنظم التى تشكل جزءا فيه وقد ينظر مثلا إلى الأسر على أن لها وظائف مد المجتمع بالأعضاء الجدد والعمل على تنشئتهم على عملية لعب الأدوار بكفاءة وتنمية شخصيات تتسم بالثبات .

وهناك أيضا مشكلات ترتبط بالفروض العامة التى صاغها الوظيفيون ، ويذهب ميرتون بخاصة إلى أن هناك على الأقل ثلاثة افتراضات مضللة فى التحليل الوظيفى والتى حاول أن يعالجها وهذه الافتراضات هى :

افتراض الوحدة الوظيفية للمجتمع Functional Unity of Society وهناك افتراض شائع وخاصة بين الأنثروبولوجيين بأن كل المعتقدات المقننة (العناصر الثقافية) أو الأساليب الموحدة (الأدوار والنظم والنشاط الاجتماعية) تعتبر وظيفته بالنسبة للنسق الثقافى أو الاجتماعى فى جملته .

والمشكلة التى تواجه هذا الافتراض هى أنه بالرغم من أنه قد يصدق عموما على المجتمعات البدائية والصغيرة الا أنه يفقد معناه بالنسبة للمجتمعات المعقدة والكبيرة . فقد لا تكون كثير من العناصر وظيفية بالنسبة للنسق فى جملته وانما قد تكون كذلك بالنسبة لأحد أجزائه فقط ، وبخاصة فى المجتمع الصناعى الحديث الذى يمتاز بالتعقيد وزيادة التمايز . وهكذا وعندما نبحث عن وظيفة نشاط معين أو ترتيب أو معتقد قد يكفى أن نفحص نتائجه بالنسبة لوحدة معينة فقط أو جزء من أجزاء المجتمع ككل . ولذلك من المهم أنه عندما يقول عالم الاجتماع أن أى عنصر معين يعتبر وظيفيا ، عليه أن يحدد الوحدة التى يعنيها ، لأنه قد يكون وظيفيا فقط بالنسبة لنظام معين أو جماعة أو أسرة واحدة أو مدرسة . فمثلا القول بأن المعتقد الدينى والنشاطات الطقوسية تعد وظيفية بالنسبة للمجتمع الذى تعمل فيه على دعم التضامن بالنسبة لكل أعضاء هذا المجتمع ، قول ليس كافيا فى حالة ايرلندا الشمالية ، حيث تعمل الفروق الدينية على تقسيم المجتمع[١] .

---

(١) E.C.Cuff & F.C. Payne, op.cit., p. 46.

افتراض الوظيفة الشاملة Universal functionalism

ويرتبط هذا الافتراض ارتباطا وثيقا بافتراض الوحدة الوظيفية للمجتمع ويصعب فصله عنه . اذ من المفترض أن نجد وظائف ايجابية لأى عنصر اجتماعى مهما كان بمعنى أن أى اسلوب عليه أن يحقق وظيفة مفيدة ما اذا كان عليه أن يعيش فترة زمنية معقولة . ويستشهد ميرتون مثلا بافتراض كلوكوهن Kluckhohn بأن الأزرار التى توضع على كم معطف الرجل ليست عديمة الفائدة ولكنها تحقق وظيفة ايجابية لأنها تحافظ على المألوف وعلى مشاعر القديم . وذهب ميرتون إلى أنه ليست كل العناصر بالضرورة تحقق وظائف ايجابية . لأننا اذا وافقنا على ذلك فان هذه العناصر قد لا تكون وظيفية للمجتمع فى جملته ، ويترتب على ذلك أن هذه العناصر قد تكون وظيفية بالنسبة لبعض الوحدات أو الأجزاء وليست كذلك لغيرها اذ من المحتمل أن تكون لبعض العناصر نتائج سلبية بالنسبة لبعض الأجزاء ، بمعنى أنها قد تؤدى إلى عدم الثبات والاضطراب أكثر مما تسهم فى المحافظة على النسق . وكما عبر ميرتون عن ذلك قائلا يحتمل أن تكون بعض العناصر معوقة وظيفيا Dysfunctional بمعنى لها نتائج اضطرابية بالنسبة لأجزاء معينة فى النسق ، أو قد تكون حيادية أو أن نتائجها غير وظيفية ، فهى ليست ايجابية أو سلبية بالنسبة لأجزاء أخرى . وما ينبغى على عالم الاجتماع أن يفعله ، طبقا لرأى ميرتون ، أن يوازن بين الوظائف الايجابية وغير الوظيفية أو المعوقة قبل أن يقرر ما اذا كان هذا العنصر وظيفيا أم لا ، مع العناية بالطبع ، بتحديد أى الوحدات يخصها بالاشارة على وجه الدقة .

افتراض الضرورة الوظيفية Indispensibility

وهذا الافتراض يخلط بين الأفكار التالية :

أ ــ الملزمات الوظيفية Prereqı isite بمعنى أن هناك وظائف أساسية محددة ينبغى تحقيقها اذا كان على وحدة معينة (مجتمع أو جماعة) أن تستمر أو يكتب لها البقاء .

ب ـــ والأشكال الاجتماعية /نظم /أساليب .

اذ ينبغى مثلا أن يكون للمجتمع بعض الترتيبات المنظمة التى تضمن له تحقيق الملزمات الوظيفية مثل الانتاج وتوزيع الطعام وغير ذلك من الموارد النادرة . غير أن هناك طرق كثيرة ونماذج عديدة من الترتيبات الاجتماعية الملموسة والواقعية لانجاز هذه الملزمات ، ونعنى الوحدات الزراعية المكتفية ذاتيا واقتصاد الصيد والاقتصاد الذى يعتمد على العبيد وذلك الذى يعتمد على المال والاقتصاد الرأسمالى وذلك الاشتراكى . ولذلك ليس من المفيد أن ننظر إلى أى نشاط محدد أو أسلوب فى أى مجتمع ونقرر أنه ضرورى لهذا المجتمع ذلك لأنه يحقق أحد الملزمات الوظيفية . لأنه قد يوجد هناك أشكال اجتماعية أخرى وأساليب وتستطيع على قدر متساو تحقيق ذلك . ولذلك ينبغى أن ندرك أو نعترف بأنه بالنسبة لأى أسلوب اجتماعى ، قد يوجد هناك بدائل وظيفية Functional Alternatives وهذا الافتراض يلصق بالوظيفة أكثر من الفروض الأخرى اسما غير مستحب ويعتبرها اتجاها محافظا ، بمعنى أنه يسعى إلى تبرير النظم القائمة فى المجتمع(١) وهكذا يقرر الوظيفيون وقد ضلوا الطريق أن هذا الشيء ضرورى بالنسبة لسلامة المجتمع على أساس من هذا الافتراض الخاطىء المتعلق بالضرورة الوظيفية .

الوظائف الظاهرة والكامنة Manifest & Latent Eunctions والاضافة المتقنة الأخرى التى يقترحها ميرثون بالنسبة للتحليل الوظيفى تتمثل فى قوله أنه فى بحوثنا قد نميز بين الوظائف الظاهرة التى تعتبر معترفا بها ومقصودة من جانب الأفراد المعنيين ، وبين الوظائف الكامنة التى تمثل النتائج غير المقصودة وغير المعترف بها للسلوك الاجتماعى . اذ من المحتمل أن يكون لبعض المعتقدات والأفعال والعادات وظائف ميسرة أو وظائف معوقة بالنسبة لأحد أجزاء المجتمع أو بالنسبة للمجتمع ككل والتى قد لا يكون المشاركين الأفراد مدركين له .

---

(١) يمكن متابعة تفاصيل النقد الأيديولوجى للوظيفة فى كتاب بيرس كوهن ، النظرية الاجتماعية الحديثة . ترجمة عربية اعداد دكتور عادل الهوارى مرجع سابق

فلطقوس اسقاط المطر مثلا عند قبيلة هوبى Hopi فى نظر أعضاء القبيلة غرضا مقصودا ومعترفا به هو الحصول على المطر ، غير أن عالم الاجتماع الذى يلاحظ هذا النشاط قد يكتشف أن هذه الطقوس المتكررة والمتعلقة باسقاط المطر لها نتائج تتعلق بالمحافظة على مجتمع الهوبى من خلال دعم مشاعر التضامن بين أعضائه . واذا لم يكن شعب الهوبى مدركا وغير قاصدا لهذه النتيجة المحددة ويمكن أن يوضح حدوثها ، عندئذ نطلق عليها اسم الوظيفة الكامنة لطقوس اسقاط المطر . وكما نستطيع البحث عن الوظائف الكامنة بامكاننا أن نبحث عن المعوقات الوظيفية الكامنة Latent dysfunction وبهذه الطريقة يستطيع عالم الاجتماع أن ينظر فيما وراء السلوك والنشاط الخاص بجماعات الناس فى المجتمع[1] .

ويذهب ميرتون إلى أن المنظور الوظيفى يمكن أن يمدنا أو يزودنا بمدخل مضىء للحياة الاجتماعية ويمكن أن يكشف عن معلومات ساحرة أو مبهرة حول أنفسنا وحول الأسلوب الذى ننظم به مجتمعاتنا . ومن أمثلة الأعمال الامبيريقية الشهيرة . دراسة عمال المصانع تلك المعروفة تحت اسم دراسات هاوثورن وشركة الكهرباء الغربية . وكان البحث معنيا فى الأصل بالعلاقة بين الاضاءة فى المصنع والانتاجية . وأجريت العديد من التجارب التى حاولت أن تغير من ترتيبات الاضاءة ، الا أنه لم يتم الكشف عن أى علاقة ثابتة وبدلا من ذلك وجد أن الانتاج يتزايد خلال التجربة سواء زادت الاضاءة أم قلت أو أبقى عليها مستمرة . وفيما بعد اكتشف أن السبب وراء هذا هو أن وجود الباحث كان له نتائج كامنة غير مقصودة على الانتاجية ولقد أصبح معروفا بعد ذلك أن الترتيبات الاجتماعية لنسق العمل لها أهمية متزايدة تفوق أهمية الظروف الطبيعية المتعلقة بكمية الاضاءة التى ينبغى أن يباشر العامل عمله فى ظلها . ولقد نجم ذلك عن الحقيقة التى مؤداها أن هناك أشخاصا خارجين يهتمون بهم ويقومون بدراستهم ومراقبتهم الأمر الذى جعلهم يعملون بمعدل أسرع . وبعد

(١) E.C.Cuff & G.C.Payne, op.cit., p. 47.

هذا الاكتشاف أعيد توجيه البحث نحو نتائج الترتيبات الاجتماعية والسلوك على الانتاج .

ولذلك بالامكان أن يزودنا التحليل الوظيفى بمجموعة متباينة من نماذج التفسير ، برغم أن كل منها سيدخل ضمن الاطار الأوسع فى الاشارة إلى نتائج أفعال اجتماعية معينة أو ترتيبات بالنسبة لنسق اجتماعى يمكن التعرف عليه أو حتى بالنسبة لنسق فرعى[1] . ويوضح ميرثون بعض هذه الجوانب فى تحليله الخاص الذى قدمه للجهاز السياسى فى المدن الأمريكية .

والسؤال الذى طرحه هو ، كيف يمكن لتنظيمات الحزب السياسى المحلية أن تستمر فى البقاء فى الولايات المتحدة الأمريكية مع التسليم بأنها فاسدة وغير أخلاقية ؟ وكانت اجابته فى ضوء الوظائف التى تستمر هذه التنظيمات فى انجازها اذ يقترح بناء على بحوثه أن الادارة السياسية الرسمية تتميز بالعجز العام الأمر الذى نجم عنه ظهور بناء بديل وغير رسمى لكى يحقق حاجات جماعات معينة . اذ يقوم الرئيس السياسى بتنظيم دائرته الانتخابية من خلال قادة هذه الدائرة الذين يقيمون علاقات شخصية وصلات مع الجمهور فى هذه المنطقة . ويقوم أعضاء الجهاز السياسى بدورهم — ومن أجل تجميع الأصوات للسكان المحليين — بتقديم الخدمات التى يحتاجون إليها ، مثل الطعام والعمل والنصيحة والمساعدات المادية . ويميل الناس فى الواقع إلى تفضيل هذه الترتيبات عن التعامل مع العاملين الرسميين فى مجال الرفاهية . واستنتج ميرثون أن الجهاز السياسى يؤدى أربعة وظائف أساسية للنسق الاجتماعى الذى يعد جزء فيه :

١ — فهو يقوم باشباع رغبات المحرومين اجتماعيا ، تلك الرغبات التى لا تتحقق على نحو كاف من خلال البناء الاجتماعى الشرعى .

٢ — يخص الرئيس السياسى المؤسسات الضخمة خاصة بالمميزات السياسية التى تحقق مكاسب اقتصادية ومباشرة . اذ تسعى هذه المؤسسات إلى

---

(١) Ibid, p. 48.

البحث عن المساعدات السياسية التى تمكنها من استقرار موقفها وتحقيق أهدافها فى زيادة أرباحها .

٣ ــ ويوفر الجهاز السياسى الوظائف وفرص العمل المثمرة أمام الجماهير الذين نشأوا فى ظل خلفية فقيرة ومحرومة وأولئك الذين يعملون لصالح الجهاز يستطيعون التمتع بفرصة تحقيق الحلم الأمريكى المتعلق بالصعود إلى أعلى .

٤ ــ ويدعم الجهاز السياسى الأعمال غير المشروعة ، مثل البغاء والقمار وحوادث السكر ، طالما أن هذه المشروعات توفر خدمات مماثلة لخدمات الأعمال المشروعة لأن كلا النوعين من الأعمال يوفر السلع والخدمات استجابة للطلب عليها .

وهكذا فانه لا يمكن الغاء هذا الجهاز حتى يتم ابتكار بديل وظيفى مناسب يستطيع تحقيق هذه الوظائف .

ولم يتخل ميرثون فى محاولته توضيح وبلورة الصيغة الوظيفية فى التحليل عن النظرة المميزة للاطار التصورى الخاص بمنظور الاجماع ، فهو يميل على أية حال إلى استخدام هذه النظرة ضمنيا عنه بصراحة . فهو مثلا نادرا ما يشير صراحة إلى مفهوم النسق الاجتماعى ، على الرغم من أن هذا المفهوم كان متضمنا فى تحليله وبالمثل يميل إلى وضع افتراض ضمنى بأن المجتمع يعتبر بناءا معياريا وأخلاقيا فى أساسه . ويقدم ميرثون خاصة فى مقالة بعنوان « البناء الاجتماعى والأنومى » افتراضا مؤداه أنه يوجد فى المجتمعات أهداف محددة يمكن لأعضاء المجتمع أن يتعرفوا عليها ويهدفوا إلى تحقيقها . ثم يلحقه بافتراض آخر مؤداه يوجد فى المجتمع أساليب مقبولة ووسائل لبلوغ الأهداف . والأمثلة التى يستعين بها من المجتمع الامريكى تتضمن قيمة النجاح الاقتصادى والأساليب المقبولة فى بلوغه من خلال العمل المضنى والأمين . وتعمل الأهداف ذات القيمة والمعايير التى تنظم الوسائل المقبولة لبلوغها على ظهور أنماط للتفاعل والترتيبات الاجتماعية التى تتفق مع البناء الاجتماعى للمجتمع . وذهب إلى أنه

فى بعض الأحيان يمكن أن تكون العناصر المختلفة للبناء الاجتماعى فى حالة انفصال ، بمعنى أنها لا تكون متوافقة فيما بينها ومن هنا تمارس ضغوطا بنائية على الأفراد للقيام باستجابات انحرافية . فقد لا يحصل أطفال الطبقة العاملة مثلا ، وبدون خطأ ارتكبوه بأنفسهم ، على التعليم المطلوب للحصول على الوظائف التى ستجعلهم يحصلون على مرتبات ضخمة . وهكذا تمارس ضغوطا بنائية عليهم للحصول على المال بوسائل غير مشروعة وغير قانونية . وعلى الرغم من أن ميرتون لم يستخدم فعلا المصطلحات أو المفهومات الدالة على ذلك فى تحليله ، الا أن هذا التحليل يعنى ضمنيا أن الاستجابات الانحرافية تظهر عندما يكون النسق الاجتماعى برمته فى حالة تفتقر إلى التوازن .

وبالامكان أن ندرك تأثيرات أخرى لنظريات الاجماع على مدخل ميرتون[1] . اذ ينطوى استخدامه لمفهوم المعوقات الوظيفية مثلا ضمنيا على فكرة النظام والثبات وحتى حالة التوازن . فهناك اقتراحه بأن المعوقات تشير إلى عناصر الاضطراب فى النسق الاجتماعى . وبهذا المعنى فهذه الأفكار ترتبط من الناحية التصورية بفكرة دوركايم حول الحقائق الاجتماعية المعتلة . وبالنسبة لكل هؤلاء العلماء بما فى ذلك ميرتون يبدو أنهم يأخذون بافتراض أساس مؤداه أن المجتمعات تعتبر ثابتة ومنظمة وأن الافتقار إلى النظام يعد ظرفا غير طبيعى . ولهذا السبب غالبا ما كان يوجه لمدخل الاجماع فى علم الاجتماع اتهام بأنه مدخل محافظ بالرغم من أنهم جميعا قد أدعوا بأنهم معنيون بالتوصل إلى اطار تصورى من أجل البحث العلمى الموضوعى الا أن مجموعة المفهومات التى استعانوا بها ونعنى حالة التوازن واختلال التوازن والطبيعى والمعتل والوظيفى والمعوق وظيفيا .. إلخ تنطوى ضمنيا على وجهة نظر تقويمية للمجتمع . وهذا

(١) راجع :

جون ركس ، مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية ، ترجمة عربية ، دكتور محمد الجوهرى وآخرون ، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ص ١٢٤ — ١٢٦

يعنى أنهم يبدون وكأن فى أذهانهم ترتيبا مثاليا للمجتمع[١] .

وبعد أن حددنا العناصر الأساسية للاطار التصورى الذى استخدمته مدخل الاجماع ، وبعد أن تعرفنا على نطاق الافتراضات الأساسية التى بنى عليها هذا الاطار ، سوف نختتم هذا الفصل بالنظر إلى بعض الطرق التى استخدم فيها هذا المنظور بمعرفة علماء اجتماع معنيين فى بحوثهم وتحليلاتهم لبعض المجالات المحددة والهامة فى المجتمع .

خامسا : توجيه البنائية الوظيفية لتيار البحث فى علم الاجتماع :

١ ــ الانحراف والمحافظة على النسق عند كاى اريكسون :

Kai Erikson, Deviance & system Maintenance

قام اريكسون بدراسة احدى قرى ماساشوتش ، التى يدين أهلها بالبروتستانتية منذ القرن السابع عشر . ونظر اليها على أنها نسق اجتماعى له تكوينه الخاص وحاول أن يوضح كيف أن معدلات الجريمة يمكن أن تحقق وظيفة ايجابية فى الحفاظ على تكامل هذا النسق عبر الزمن .

والافتراض بامكانية النظر إلى المجتمعات من الناحية التحليلية باعتبارها كيانات أو أنساق توجد بذاتها ، ينطوى ضمنيا على ضرورة أن يكون لهذه الأنساق بعض الحدود التى توضح نطاق نشاطاتها وتميزها عن غيرها من الأنساق الأخرى وعن بيئتها . والمعتاد أن نسمع الناس يتحدثون عن حالات السقوط وعن خروج المجرمين على المجتمع وعن ضرورة أن يتعامل معهم المجتمع لأنهم يمثلون مشكلة بالنسبة للمجتمع[٢]. وينطوى مفهوم « الحد » Boundary على القول بضرورة أن يبنى المجتمع داخله ميكانزمات معينة لضمان المحافظة على الأساليب المتوقعة والمقبولة للسلوك وينطوى هذا المفهوم لذلك على نوع من نسق الضبط الاجتماعى الذى يقوم بدوره عندما يحاول أعضاء المجتمع تجاوز ما تم قبوله على العموم . وبالامكان النظر إلى القانون وقوة البوليس وغيرها

(١) راجع كتاب :

دكتور عبد الباسط عبد المعطى ، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨١ ، ص ص ١٦٩ ــ ١٨٤

(2) E.C.Cuff & G.C. Payne, op.cit., p. 50

باعتبارها أمثلة نموذجية على هيئات الضبط الاجتماعى التى تعمل على المحافظة على حدود المجتمع

وقام أريكسون فى دراسته بتحليل ثلاث موجات مختلفة للجريمة Crime waves موجه الجدل والنقاش التى تهدف إلى معارضةالقانون فى عام ١٦٣٦ وموجة اضطهاد المرتدين Quaker عام ١٦٥٠ م ، وموجة جنون السحر عام ١٦٩٠ . ولقد نظر اريكسون إلى كل موجة منها على أنها محاولة من جانب أعضاء المجتمع المحلى « القرية » لاعادة تحديد حدود مجتمعهم. وزعم أريكسون أن هذا المجتمع فى اتخاذه قرار يحدد. من هو المنحرف ، كان يحدد معاييره الخاصة به . وكان سكان هذه القرية « البروتستانت » فى تركيزهم على نماذج معينة من الانحراف يضعون حدودا للأساليب والطرق المتوقعة وذات القيمة الخاصة بالسلوك . وبعملهم هذا أصبحت الوحدة المعيارية لمجتمعهم المحلى وأسلوبهم فى الحياة واضحة للعيان . ومن هنا يذهب أريسكون فى أثناء تحليله لهذه الموجات الثلاث المختلفة للجريمة إلى أنه طالما كان المجتمع المحلى يتغير ، وكانت حدوده المتعلقة بما يمكن قبوله أو رفضه قد تغيرت ، لهذا فان هذه الموجات تقوم بوظيفة توفير لحظات أمام أعضاء المجتمع المحلى يمكن لهم فيها النظر إلى أنفسهم واعادة تثبيت القيم المشتركة بينهم .

وهكذا أمدتنا دراسة أريكسون ببعض الشواهد المشتقة من موقف محدد التى ترتبط بالتفسير العام للانحراف كما اقترحه دوركايم . وهذا التحليل يدعم الفكرة القائلة بأن المجتمع يحتمل أن يكون فى حاجة إلى المنحرفين ، لأنه طالما كان هناك بعض الأعضاء الذين يعتبرهم بقية أعضاء المجتمع منحرفين ، تنشط محاولات ضبطهم فى توفير الحدود للسلوك المتوقع والمقبول بالنسبة لكل الأعضاء الآخرين . واذا تم ادراك الجماهير للانحراف واوقعوا عليه العقاب ، فانه يقوم بوظيفة تذكير أعضاء المجتمع المحلى ، أو المجتمع بما تكون عليه المعايير المناسبة . ويقوم كذلك بوظيفة تسليط الأضواء على الصواب ، من خلال تحديد وضع الخطأ وهكذا يقوم الانحراف بوظيفة المحافظة على الاجماع فى

المجتمع . ولهذا سوف تتأكد المجتمعات من توافر الانحراف بالمستوى الكاف أو ستعمل على توفير هذا المستوى حتى تضمن المحافظة على حدودها .

٢ ــ مدخل الاجماع وفهم التغير الاجتماعى عند نيل سملسر :

Neil Smelser, The Consensus Approach to Social Change

وتوضح أعمال سملسر كيف أن عالم الاجتماع الذى يستعين بمنظور الاجماع يستطيع أن يتناول بالدراسة مشكلة التغير الاجتماعى . فلقد استعان بمفومات النسق الاجتماعى والتمايز البنائى فى النظر إلى المشكلة على أنها تتعلق بعمليات التوافق التكيفى Adaptive Adjustment اذ يعمل النسق الاجتماعى على تحقيق التوافق أو التكيف بنفسه لكى يعيد بناء حالة التوازن ومن هنا يتغلب على أى شد أو توتر يعمل على اضطراب ميله نحو الثبات والتكامل .

ولقد طبق سملسر هذا الاطار النظرى والذى عرض له فى كتابه عن التغير الاجتماعى فى الثورة الصناعية طبقه فى دراسته المنفصلة المترتب على التطور الصناعى لصناعة القطن فى لانكشير خلال الفترة من (١٧٧٠ ــ ١٨٤٠) وذهب إلى أن هذه الفترة يمكن النظر إليها على أنها سلسلة من عمليات التوافق حدثت فى المجتمع وذلك بالمقارنة بالفترة التى سبقت عام ١٧٧٠ والتى كانت تتسم بالثبات النسبى وتمثل فترة من فترات حالة التوازن . ورغم أنه قد تحقق نوعا جديدا من حالة التوازن فى الأعوام التى تلت عام ١٨٤٠ . وذهب إلى أن هناك ظروفا أساسية معينة أدت إلى عجز البناء الصناعى عن تحقيق المتطلبات الانتاجية من خلال عملية التمايز البنائى ، والتى يصفها فى ضوء التعاقب أو التسلل العام لمجموعة مراحل يمكن التعرف عليها ، وظهر بناء جديد ومناسب . وعقب على ذلك قائلا أن نفس العملية العامة والمراحل المتعاقبة للتمايز البنائى التكيفى يمكن أن ندرك حدوثها فى الأسرة عندما أصبحت عاجزة عن انجاز وظائفها على نحو كاف وذلك نتيجة للتغيرات فى الاقتصاد . ثم الحق تحليله ووصفه لنمو عمليات التمايز البنائى داخل مجموعة متباينة من النظم مثل نقابات العمال وبنوك الادخار ، وجمعيات الصداقة وهكذا ونظر إلى هذه النظم على

أنها توفر جزئيا الهيئات المتخصصة الضرورية التى ستتوسط بين الأسرة والاقتصاد ، طالما أصبحت حياة الأسرة منفصلة عن العمل .

وهو يزعم بتحليله هذا أنه طوال هذه الفترة كانت الأجزاء المختلفة فى المجتمع الانجليزى تقوم بعمليات توافق مستمرة مع بعضها الآخر ، الأمر الذى يدلل على حالة الاعتماد فيما بينها ، وميلها الجمعى نحو تحقيق حالة التوازن(١) .

ويقترح سملسر فى صياغته المتقنة لنموذجه الخاص بالتمايز البنائى قائلا أن نسق القيم هو المصدر الأول بالنسبة لتقييم التغير البنائى المحتمل فى المجتمع ذلك لأن نسق القيم هو الذى يوفر المعايير المتعلقة بالموافقة على الترتيبات الجديدة والتوقعات واكسابها طابع الشرعية . وهكذا فان نسق القيم يحدد اتجاهات ودرجات التغير . وهذا معناه أنه يوافق على القول بأن القيم يمكن أن تتغير غير أن تغيرها عموما يكون بطيئا بالمقارنة بتغير البناء الاجتماعى . وهكذا يظل نسق القيم الأساسى ثابتا إلى حد كبير خلال التعاقب الفريد للتمايز ، وبالنسبة لهذه الفترة لم تتغير معايير تقدير أداء أى وحدة فى هذا البناء .

٣ ــ النظرية الوظيفية للتدرج الاجتماعى لدى ديفزومور :

Davis & Moore. The Functional Theory of Stratification

لقد أسهم كل من ديفز ومور وبارسونز باقتراح النظرية الوظيفية للتدرج الاجتماعى ، ومع ذلك فهى تشبه الكثير من أنواع التحليلات التى ترتبت على استخدام منظور الاجماع المشتق من أعمال دوركايم .

وينظر إلى التدرج الاجتماعى ، مثل الجريمة ، باعتباره سمة مشتركة لكل المجتمعات ، ولذلك فهو يعتبر بمثابة سمة طبيعية للمجتمع . والمفترض أنه يقوم بتحقيق بعض الوظائف الايجابية أو حاجات المجتمع ولقد أضاف مور وديفز افتراضات أخرى مؤداها أن بعض المهام التى يحتاجها المجتمع تتمتع بالأهمية أكثر من غيرها . والمفترض على وجه الخصوص أن مهام الادارة والحكم فى

(١) Ibid, p. 52.

المجتمع لها مثل هذه الأهمية و لنفرض أيضا تمشيا مع آراء بارسونز . أنه من الضرورى للمجتمع أن يوفر الترتيبات البنائية التى تدفع أعضائه الأفراد إلى القيام بأداء الأدوار المطلوبة . وهكذا على المجتمع أن يحفز الأعضاء على شغل أوضاع معينة فيه ودفعهم إلى أداء الواجبات المحددة لهذه الأوضاع . واذا كان من السهل شغل كل هذه الأوضاع وأداء هذه المهام على نحو متساو وكانت كلها متساوية الأهمية من أجل بقاء المجتمع واذا كان كل أعضاء المجتمع متساوون فى ما لديهم من قدرات ومواهب بالنسبة للمهام المطلوبة . فلن تكون هناك مشكلة غير أن هذا ليس هو الحال . ذلك لأن المواهب توزع على نحو متغاير أو متمايز . ولذلك ينبغى أن يتوافر فى المجتمع بعض أنواع الجزاءات والحوافز لكى يشجع أولئك الذين لديهم القدرات المناسبة على شغل الأوضاع الأكثر أهمية(١) .

وعادة ما تأخذ هذه الحوافز شكل الجزاءات العليا ، سواء فى صورة سلع أو هبة ، بالنسبة للوظائف الهامة فى المجتمع . ويمكن أن تحصل معها قدرا هائلا من القوة ، والنتيجة هى أن تلك الثروة والهبة والقوة التى يوفرها المجتمع لهذه الأوضاع يجعل أولئك الذين يشغلونها فى مستوى الامتياز .

وبهذه الطريقة يفسر ديفز ومور لماذا ينبغى أن يوجد التدرج الاجتماعى ، وبخاصة فى أى مجتمع معقد حديث . ويسهم تقسيم العمل بالضرورة فى وجود التباين فى الجزاء لأنه بدون هذه الصور المختلفة للجزاء لا يمكن ضمان استمرار هذا التقسيم . فالمجتمع ينشأ التباين الاجتماعى الذى يعد وظيفياله . وكل مجتمع ليس فقط فى حاجة إلى التباين الاجتماعى ، وانما يمكن أيضا اعتبار هذا التباين سمة واقعية فى كل المجتمعات التى نعرفها . ولذلك فالتباين الاجتماعى أو اللامساواة تعتبر ظاهرة عامة ، ضرورية فى المجتمع .

---

(١) Ibid, p. 53.

الخلاصة :

لقد أوضحنا حتى الآن وجهة النظر التى تقر كيف أن عالم الاجتماع يدخل إلى دراسة الحياة الاجتماعية وقد اعتمد على افتراضات تصـ ـرية ونظرية يضعها حول المجتمع والسلوك الاجتماعى . وذهبنا إلى أن هناك مجموعة من الكتابات التى عرفت باسم البنائية قد تأخذ بمنظور الاجماع لأنها تستند إلى الافتراضات التالية :

أ ـــ يعد الاجماع على القيم الأساسية بمثابة السمة الأساسية التى تربط أجزاء المجتمع معا وتحافظ على نظامه .

ب ـــ يمكن النظر إلى المجتمع على أنه نسق متكامل يتكون من أجزاء معتمدة فيما بينها .

وأوضحنا أيضا أن هذا المنظور قدم تفسيرات لعمليات معينة وترتيبات توجد فى المجتمع فى ضوء الوظائف التى تحققها فيما يتعلق بالمحافظة على المجتمع برمته ، أو أى نسق فرعى معين داخله . ومن هذا المنظور ، تعتبر المجتمعات كيانات متكاملة لها بناء يلزم الأشخاص داخلها .

وعلى أعضاء المجتمع استدماج التوقعات الثقافية والمعايير والأدوار التى يحتاجها المجتمع من أجل استمراره . وتشكل مفهومات الاجماع والتوازن والنسق والوظائف والملزمات الوظيفية والاعتماد المتبادل والتضامن والتكامل محور هذا المنظور وتوجه أنواع البحوث نحو مشكلات معينة يقترحها وتقدم اجابات خاصة وهذه الاجابات يمكن أن نصفها بأنها نظريات وظيفية أو اجماع(١) .

ولقد تتبعنا نمو وتطور هذا المنظور ابتداء من الرواد الأوائل فى علم الاجتماع حتى أولئك الذين ساهموا فى الوقت الحاضر فى تطبيق هذا المدخل وأوضحوا

---

(١) Ibid, p. 53.

الطرق التى يميلون بها إلى تناول ودراسة مجالات أساسية مثل الأسرة والدين والتدرج الاجتماعى والتنشئة الاجتماعية والانحراف والتغير الاجتماعى . وما قدمناه هنا يعد من جوانب كثيرة عرضا مبسطا ، يمكن به أن نفهم أنه حتى داخل هذا المنظور الواسع وحده هناك اختلافات عديدة تؤكد على بعض الجوانب الخاصة أكثر من غيرها . ومنذ أيام دوركايم وسبنسر دخلت الكثير من التعديلات والتطورات المتقنة على يد علماء من أمثال تالكوت بارسونز وروبرت ميرثون والفن جولدنر وويلبرت مور وماريون ليفى ووليام جودوكنجزلى ديفز وغيرهم ، وتعتبر أعمال تالكوت بارسونز بمثابة المحاولة الأكثر اتقانا لبلورة هذا المنظور كمدخل سوسيولوجى عام وكان قد استعان بمفهوم النسق على نحو شامل ولم يطبقه فقط على بناء المجتمعات والعناصر المحددة داخلها ، وانما طبقه كذلك على الشخصية والثقافة بالمثل وذهب إلى أن المجتمعات كأنساق للتفاعل ، تتكون من علاقات متشابكة ومعقدة بين كل الأنساق . ولقد حدد بالتفصيل خصائص بناء وعمليات النسق الاجتماعى ، وقرر أن هذا المفهوم يمكن تطبيقه على كل المجتمعات الممكنة . وتبرهن أعماله على تطور منطق التفكير الوظيفى . ولقد أثار هذا كله موجات النقد ومشروعات البحث الأمبيريقى الفعلى .

وهذا المنظور يشيع استخدامه فى علم الاجتماع ، وأن كان بطريقة ضمنية دائما ، وأحيانا بدون الاعتراف بوجود منظورات أخرى أو اعتبارها تتمتع بدرجة صلاحية متساوية .

سادسا : ازمة البنائية الوظيفية وظهور نماذج نظرية جديدة :

انتشرت البنائية الوظيفية فى الجامعات الأمريكية باعتبارها نظرية وحيدة وفريدة ومشتركة وممثلة لعلم الاجتماع الأمريكى ووجهت موجة البحث خلال فترة امتدت من نهاية الأربعينات حتى بداية الستينات ... ولقد بلغ تأثيرها ذروته فى خلال هذه الفترة ، بل امتدت لتشمل علماء الاجتماع الأكاديميين من

العالم أجمع[١] . ويرد هذا الانتشار والتأثير إلى الدور الذى لعبته البنائية الوظيفية كبديل امريكى للماركسية فى الوقت الذى كانت فيه الأخيرة هى النظرية الاجتماعية الكبرى والقائمة والمعروفة لكثير من المفكرين فى الغرب والتى استند اليها الخصوم العالميين للرأسمالية[٢] .

ومع حلول الستينات وقعت أحداث هامة وتغيرات داخل وخارج الولايات المتحدة ترتب عليها تغير فى الاتجاه البنائى الوظيفى نفسه وفى الموقف الأكاديمى والقومى من هذا الاتجاه وظهرت الحاجة إلى اتجاه نظرى جديد ليوجه البحث السوسيولوجى فى هذه المرحلة ، ففى خارج الولايات المتحدة أصبح للاتحاد السوفيتى قوى هائلة واشتد تأثيرها ليشمل نصف بلاد الكرة الأرضية وازدهرت الدول الأفروأسيوية الاشتركية ونشب الصراع الفيتنامى ، وبدأت الولايات المتحدة نفسها تحل سياسة الجار الطيب ، محل سياستها القديمة[٣] . وفى داخل الولايات المتحدة تضخمت قوى السود ، وسحبت تأييدها للقيادة السياسية القومية ، ونشبت ثورة الحقوق المدنية والحرب على الفقر وثارت حركة الشباب الأمريكى وظهرت الحركات الطلابية واليسار الجديد . وتضخم دور الخدمات العسكرية والثقافية فى الهيئة السياسية التى كانت تسهر على ازدهار ونمو دولة الرفاهية . وتبلورت الحاجات المتشابكة والمعقدة لدولة الرفاهية فى قيام الاقتصاد على التخطيط الحكومى ، وازدياد الحاجة إلى التكنولوجيا ودورها البارز فى المجتمع الصناعى ، وتدعيم هيئتها بالتكنولوجيين الذين يلتزمون بالنظام القائم على التخطيط المركزى وازدياد مسئوليتها تجاه تمويل الحلول التكنولوجية للمشكلات الاجتماعية الجديدة وبخاصة تلك التى تتفق مع مسلمات الصفوة البيروقراطية فى البناء التحتى لهذه الدولة ، وتأكيد الحاجة إلى تأييد العلوم الاجتماعية وإلى نظرية جديدة تهتم بالكيفية التى تتغير بها الظروف الراهنة إلى ما هو أفضل والمعاونة فى التغلب على المشاكل القومية المعترف بها

(1) R.W.Friedrichs, op.cit. pp. 13-21.

(2) A.Gouldner, op.cit. pp. 188-197.

(3) R.W. Friedrichs, op.cit., p. 25.

والمعلن عنها ، وكذلك السيطرة على التوترات الاجتماعية والصراعات بطريقة مسبقة ، واحداث اصلاحات اجتماعية معينة عن طريق التغيير المخطط والمستمر ومواجهة الضغط الذى تمارسه الطبقات الاجتماعية المحرومة نسبيا سودا وعمالا وكذلك الجيوب التى تقاوم هذا التغيير عن طريق الافلات من الضرائب . هذا فضلا عن تحديد الكيفية التى يمكن توسيع نطاق القوى الأمريكية فى الخارج بطريقة مباشرة وغير مباشرة من خلال أوجه النشاط الحكومى القومى والهيئات الدولية مثل اليونسكو وذلك بهدف التفوق على الاتحاد السوفيتى فى التحكم وتوجيه التصنيع فى بلاد العالم الثالث وكسب تأييد القوى الرئيسية التى قد تمتعت بها بعض هذه البلاد[1] .

أزمة البنائية الوظيفية :

ولما كانت البنائية الوظيفية فى كل تطوراتها وباعتبارها وريثة للاتجاه الوضعى وحتى مع تطورها فى الأنثروبولوجيا الانجليزية وفى صياغة دوركايم لها خلال الفترة الكلاسيكية لعلم الاجتماع ، أقل اهتماما بالدولة وأهمية دورها ومسئولياتها فيما يتعلق بادارة وتوجيه الاقتصاد وحل المشكلات الاجتماعية . وكانت أيضا تؤكد دور القيم الأخلاقية وتتصور أن المشاكل الاجتماعية راجعة إلى انهيار نسق القيم وعيوب عملية التنشئة الاجتماعية وتبين كذلك أن هذه الميكانزمات التلقائية هى التى تحافظ على النظام فى المجتمع وتصل به إلى المستوى الأفضل بدون تخطيط رشيد وتدخل حكومى .. إلخ ، فانه يمكن لنا أن ندرك مدى التعارض بين المسلمات البنائية الوظيفية وبين حاجات دولة الرفاهية ، وأن كان هذا التعارض أمر متوقع لأن البنائية الوظيفية كان لها جذورها فى بناء العواطف والمسلمات المشتقة من الخبرة الشخصية والتنشئة الاجتماعية فى الدولة السابقة على دولة الرفاهية حيث كانت تأخذ بالنزعة الارادية التى تمجد النضال الفردى ، وتجعل من منطلبات المشروع الحر متطلبات مثالية ، وكلاهما ينتميان إلى تصور السوق الحر واقتصاد دعه يعمل ،

(1) A. Gouldner, op.cit., pp. 341-351.

الذى وجد بارسونز أن مجتمعه عموما اختط من أجله ، ومن هنا كان يرى البعض أن البنائية الوظيفية تنطوى على تبرير ايديولوجى للوضع القائم عندما تصورت الأنساق على شاكلة المشروعات المنظمة فى اقتصاد السوق[1] . الا أن هذا التعارض من ناحية أخرى والخلاف بين حاجات دولة الرفاهية ومسلمات البنائية الوظيفية جعل علماء الاجتماع فى أوروبا الغربية وأمريكا يحسون أن علمهم دخل عصر الأزمات والمتاعب وأنه يمر بفترة أزمة مماثلة للفترة السابقة على ظهور نموذج تصورى جديد يوجه البحث السوسيولوجى فى ظل دولة الرفاهية بدون أن يتعارض معها، فحدثت بينهم ردود فعل واستجابات مختلفة ، بين رد الفعل الثورى والثورى المضاد ، ورد فعل بارسونز نفسه ثم محاولة صياغة نماذج نظرية جديدة .

الاتجاه الثورى :

لرد الفعل الثورى عدة مظاهر تتجلى فى تيار النقد الهجومى الشديد الذى بدأ يظهر مع حلول الستينات ، والمنصرف نحو البنائية الوظيفية وتصورها للنسق الثابت ، وفى حالة السخط والشعور بالغربة التى سادت بين علماء الاجتماع الشبان على علم الاجتماع الأكاديمى عموما والوظيفية بوجه خاص ، والتى تبلورت فى تكوين الخلايا الجماعية المنظمة والحركة الراديكالية واليسار الجديد المتفرع عنها ، كما تجلت هذه الثورة قبل ذلك فى المواقف النقدية لبعض تلامذة بارسونز القدامى من البنائية الوظيفية .

اذا كان تيار النقد الذى ظهر فى بدايات الستينات ، يحاول كشف الصورة شبه الأيديولوجية للبنائية الوظيفية باعتبارها تقدم تبريرا للنزعة المحافظة التى سادت الفترة السابقة من تطور علم الاجتماع الامريكى فى أوربا الغربية . وقاد عملية توجيه انتباه العلماء الاجتماعيين نحو الضبط الاجتماعى والاهتمام بعملية التكيف مع الوضع القائم وانصراف نظرهم عن التغير الاجتماعى والصراع

---

(1) Ibid. pp. 341-351.

وتدفقت عن هذا التيار مقالات ميردال Merdal وميلز Mills وروتنج Roteng وكثيرين غيرهم[١] .

وتعد الحركة الراديكالية أو حركة تحرير علم الاجتماع والتى تفرع عنها اليسار الجديد بمثابة ظاهرة عالمية انتشرت فى العالم اليوم كحركة اجتماعية لها مجموعة متباينة من الاتجاهات السياسية وتستند إلى مجموعة من الأبنية السفلية والمسلمات السائدة فى ذلك الوقت ، وترتبط بالتغيرات والأحداث التى طرأت على البناء الثقافى والاجتماعى للمجتمع ، وتؤكد قيم المساواة والحرية والجماعية والديموقراطية والكرامة والابتكار . وتفادى كل ما يحط من شأن القيم الانسانية وحرية المجتمع ، وتتطلع إلى العلاقات الانسانية الدافئة ، بدلا من النظام الرشيد فى المهن والمنشآت البيروقراطية ويحدوها الأمل فى بناء مجتمع جديد واذا كانت هذه الحركة قد ارتبطت بفكر ماركس الشاب ، فانها رفضت الجانب السياسى فى الماركسية التاريخية . وبدلا من أن تستمد تأييدها من الطبقة العاملة استمدته من نمو دولة الرفاهية ومن فئات اجتماعية مثل الطلاب والسود والمغتربين وبعض الأغنياء والفنانين وغيرهم من الفئات التى تنادى بالتغير الاجتماعى ويهتم بنقد الأوضاع الداخلية والسياسات القومية الخارجية والرسمية ، والسلطة والتدرج والامتثال للقيم ومن هنا كانت الحركة الراديكالية واليسار الجديد ترفض البنائية الوظيفية وتتابع البحث عن اتجاه نظرى جديد يناسب الواقع الاجتماعى الذى يعيشونه ، وهذا ما ظهر فى مؤلفات دافيل وجابريل كوهين بنيه D.AndG. Cohen Beniet احد قادة العصيان الطلابى فى فرنسا عام ١٩٦٨ [٢]. ولم تكن هذه الثورة جديدة على البنائية الوظيفية وانما سبق اليها بعض تلاميذ بارسونز القدامى والمنتمين إلى مجموعته الأساسية حين حاولوا انتقاد البنائية الوظيفية وأعلنوا صراحة تنازلهم عنها نتيجة للحالة غير الطبيعية التى وصلت اليها ومن هنا أنكر كنجزلى دافيز وجود نظرية يمكن أن يطلق عليها التحليل الوظيفى

---

(١) R.W. Friedrichs, op.cit. pp. 22-30.

(2) A.Gouldner, op.cit. pp. 376-407

ويسهل تمييزها عن غيرها من نظريات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا لأن الاتفاق على المقصود بالتحليل الوظيفى أصبح أمرا بالغ الصعوبة(١).

الاتجاه الثورى المضاد :

وعلى الرغم من أن الاتجاه الثورى قد ترك أثره على حالة التماسك والوحدة التى سادت بين الباحثين فى علم اجتماع الغربى منذ الحرب العالمية الثانية ، والتى جمعت بينهم حول التصور البنائى الوظيفى للنسق المتوازن الا أن الميدان لم يخل من فريق آخر من الباحثين الملتزمين بهذا التصور الذين حاولوا المحافظة على حالة التماسك السابقة عن طريق مواجهة الاتجاه الثورى على تصور النسق الثابت بثورة مضادة ، انصرفت نحو ادخال سلسلة مطولة من التعديلات على المضامين الخاصة بالبنائية الوظيفية فى تحليل النسق الثابت والمتوازن . وما اعتقدوا أنه قد يفيد فى تحليل النسق المتغير . ولقد تدفق عن تيار الثورة المضادة مقالات ومؤلفات كانسيان Kancian وبراديمير Prademier وسملسر Smelser وفالدينج Faldung وكوزر Coser وفانديبرج وكثيرين غيرهم(٢). اذ انفق سملسر فى مقاله « نحو نظرية عامة للتغير الاجتماعى » الكثير من وقته فى تقنين الماركسية والتوحيد بينها وبين الوظيفة(٣) وعندما اهتم كوزر بتحليل الصراع فانه ركز أساسا على وظائف الصراع دون معوقاته ، أو انصرف باهتمامه نحو تلك الآثار التى يحدثها الصراع الاجتماعى ، والتى يترتب عليها زيادة فى تكيف العلاقات الاجتماعية والجماعات ، وأوضح أن للصراع عدد من الوظائف أهمها اسهامه فى الحفاظ على حدود الجماعة ، وأنه يحول دون انسحاب اعضاء

---

(1) K.Davis, The myth of Functional analysis as a special theory in Sociology and Anthropology, American Sociological Review, Vol 24 pp. 757-772.

(2) R.W. Friedrichs. op.cit. pp. 31-36.

(3) N.Smesler, Toward a General Theory of Social Change in Essays in Sociologioal Explanation. p. 279.

الجماعة منها[1] . وكان فالدينج طموحا للغاية فى محاولته تصور حالة المتعايش السلمى بين بارسونز وميلز . وكان فانديبرج يعتقد أنه يمكن التوفيق بين البنائية الوظيفية والديالكتيكية لأن كل منهما بمثابة وجهة نظر لدراسة المجتمع من جانب واحد ، ومن ثم فهما يكملان بعضهما وأن دراسة الاتفاق والتداخل بينهما قد يشير إلى بداية تمهد للتأليف المثمر بينهما[2] .

الاتجاه البارسونى المعدل

ولم يقف بارسونز من أزمة البنائية الوظيفية جامدا ، بل قدم بعض الاسهامات التى حاول بها توسيع تصوره للنسق المتوازن ليشمل قضية التغير البنائى عن طريق وضع الانساق الاجتماعية فى الاطار الاكبر للتطور الاجتماعى[3] وفى مقدمة هذه الاسهامات مقالاته « عن بعض الاعتبارات حول نظرية التغير الاجتماعى » ١٩٦١ و « القوانين التطورية فى المجتمع » ١٩٦٤ ويذهب بارسونز (فى مقاله الأخير) إلى أن التطور يمر بمرحلتين اثنتين متعاقبتين ، مرحلة بداية وهى المرحلة المرتبطة بالمجتمع البدائى أو القبلى ، وتتميز بسيادة نظام القرابة والتى تستند فيها المكانة الاجتماعية إلى معايير القرابة والنسب وهذه المرحلة بمثابة نقطة انطلاق لمرحلة التطور الثانية تلك التى تشمل كل ما يجىء بعد المرحلة الأولى ، والتى تظهر نتيجة لأثر التبرير الشرعى والثقافى للوظائف الاجتماعية السياسية المتمايزة . وتسمى التدرج الاجتماعى المتميز . ذلك التدرج الذى يحدث أولا وكشرط لشرعية الوظائف ، ثم يحدد بارسونز أربعة قوانين أخرى للتطور تؤثر فى هذه المرحلة ، وهى أنساق السوق ورأس المال والبيروقراطية والاتحاد الديموقراطى والقانون ، هذا فضلا عن

---

(1) L.Coser, Functions of Social Conflict, the free press of Glenco U.S.A. 1956, p. ?

(2) P.Ven Berghe, Dialectic and Finctionalism, American Sociological Review, Oct. 1963. 695-704.

(3) R.W. Friedrichs, op.cit. p. 38.

المتطلبات السابقة على التطور الثقافى والاجتماعى التى يحصرها فى التكنولوجيا واللغة والقرابة والدين(١) . واذا كان البعض يرى من ناحية أن اسهام بارسونز الجديد هذا ينطوى على جوانب التقاء مع الماركسية وخاصة عندما تذكر الأخيرة أنه يمكن التمييز بين مرحلتين فى التاريخ مرحلة المجتمعات العتيقة ثم المرحلة اللاحقة لكل التاريخ المعروف وعندما تؤكد أهمية انساق علاقات الانتاج والأسرة واللغة والدين . الا أنه يشير من ناحية إلى أن هذا الاسهام البارسونى الجديد يعتمد على ميكانزمات التطور دون الثورة ، ويحصر العوامل الجوهرية لبناء المجتمعات الحديثة فى التنظيمات البيروقراطية وأنساق المال والسوق والأنساق القانونية والاتحادات الديموقراطية وهذه العوامل متوافرة فى المجتمع الأمريكى باعتباره يمثل ذروة النمو التطورى بينما تفتقر آفاقا حديثة أخرى وخاصة الاتحاد السوفيتى إلى بعض هذه العوامل . والنتيجة التى يمكن استخلاصها من هذا الاسهام الجديد أن بارسونز يحاول أن يبرهن مستعيناً بالقوانين التطورية على تفوق النسق الامريكى على النسق الروسى الأمر الذى يمكن القول معه أن اتجاه بارسونز الجديد منح أوروبا الغربية وأمريكا ثمنا عزائيا ونصرا نظريا فى مقابل النصر الحقيقى السياسى والاجتماعى والتكنولوجى الذى حققته روسيا بالفعل(٢) .

الاتجاه النظرى الجديد :

ومال بعض علماء الاجتماع الآخرين إلى توجيه استجاباتهم لأزمة علمهم وجهة أخرى تمثلت فى محاولتهم بلورة نماذج نظرية جديدة تماما تتميز بالشمول والراديكالية وباختلاف مسلماتها وأفكارها الرئيسية عن مسلمات وأفكار البنائية الوظيفية . ولقد لمعت شخصية أفرينج جوفمان بين زملائه وارفولدجار فينكل وجورج هومانز وغيرهم الذين اشتهروا بمحاولتهم صياغة مثل هذه النماذج الجديدة .

(1) T, Parsons. Evolutionary Universals in Sociology. American Sociological Review. XIXX,No: 3,1964,pp. 325-342.

(2) A.Gouldener. op.cit., pp. 361-397.

نموذج جوفمان :

أعتبر جوفمان المسرح النموذج لفهم الحياة الاجتماعية ولذلك يحدد نقطة الانطلاق فى تحليله فى دخول الفرد ذاته على الآخرين ، ويركز على ما يحدث فى هذا الموقف من تصرفات وسلوك يعبر بها الفرد عن ذاته بقصد أو بغير قصد ، ومدى تأثر الآخرين بهذا السلوك وبمظهر الفرد نفسه[1] . ويذهب إلى أن الأفراد فى هذا الموقف يتناضلون من أجل توصيل صورة مقنعة عن ذواتهم إلى الآخرين ، بمعنى أنهم لا يحاولون عمل شيء بقد ما يحاولون أن يكونوا شيئا ما . وهم بهذا يلعبون أدوارا أكروباتية ويشاركون فى الألعاب بهدف رفع قيمة الذات وذلك دون الاعتماد على الأخلاق والاحترام ، وانما على اثارة الشعور الضئيل بالشفقة المتبادل بين الناس وبعضهم البعض ومن ثم تصبح الحياة الاجتماعية أو الواقع بمثابة مجموعة من قواعد الألعاب التى يمكن التحكم فيها من ناحية أكثر منها مجموعة من الالتزامات الأخلاقية التى يمكن الاحساس بأثرها . اذ تضحى هذه الحياة بمثابة عملية تفاعل بين مجموعة من الجواسيس الذين يسعى كل واحد منهم نحو اقناع الآخرين بأن ما يدعيه هو حق ، وذلك من خلال النفاذ إلى ذواتهم . اذن ليست الأخلاق هى التى تربط الناس ببعضهم وإنما قدرة الافراد على اقناع بعضهم الآخر بأن أدائهم قد بلغ المستويات المتوقعة هى التى تربط بينهم . ويعتبر اذن الموقف أساس فهم الحياة . وذلك باعتبارها تمارس فى دائرة شخصية ضيقة وغير تاريخية ونظامية . وتستمر فى سيولة كحالة عابرة . فالحياة الاجتماعية ليست بمثابة أبنية اجتماعية ثابتة ومحددة ، وانما هى شبكة مهلهلة تدفع فى تأرجح عبر ممر ضيق يرقيها الأفراد فى حذر . كما أن الأفراد ليسوا نتاجا للنسق وانما هم منفصلين ومغتربين عنه .... والواقع أن جوفمان كان يريد بهذه النظرية تناول أولئك الأفراد الذين يعيشون ويتعاملون

---

(1) Erving Goffman, Presentation of Self to others, in, T. Mairis & B. Meltzer, eds., Symbolic Interaction, Allyn & Bacon, Boston, 5Prin, 1969, pp. 220-231.

مع التنظيمات البيروقراطية الكبيرة الحجم ذات القوة الساحقة ، التى يقل تأثير الأفراد فيها ويحاول بها البحث عن كيفية توافق الأفراد معها وبداخلها[1] .

نموذج جارفينكل

تعد نظرية جارفينكل بمثابة اطار مرجعى بديل للبنائية الوظيفية ذلك لانها تعتبر عملية ممارسة الحياة اليومية بواسطة وسائل يبنى بها الفاعلين عالمهم ويشيدون واقعهم أمرا مشكلا ، وذلك على خلاف البنائية التى كانت تسلم جدلا بهذه العملية على أنها أمر معطى . وكان جارفينكل فى اهتمامه بالنظام الاجتماعى ومتطلباته يتخذ موقفا راديكاليا بحيث لا نجده يدرس القيم الأخلاقية المشتركة كأساس لهذا النظام ، وانما يقوم بالبحث الدقيق عن بناء الفعل الاجتماعى فى ثنايا اللغة ، لغة الحديث اليومية — كوسيط للتفاعل الاجتماعى وبحيث أنه كان يحاول الكشف عن العلاقات المعقدة بين التفكير والعقل ويربط بينهما فى عملية المحادثة بين الأفراد ، ويبحث عن الأبنية التى يمكن بواسطتها التعبير عن مشاعرهم ، ويوصلون بواسطتها ما يريدونه للآخرين وأن صياغة المحادثات فى هذه الأبنية يضع يدنا على الظواهر التى يمكن ملاحظتها ووضع تقارير عنها . اذن يركز جارفينكل على الحياة اليومية ويسعى إلى فهم المواقف الاجتماعية من الداخل كما هى ، وكما تظهر للأفراد الذين بعيشونها ويحاول الكشف عن القواعد الضمنية التى تحكم التفاعل الاجتماعى وتحدد مدى دلالتها بالنسبة للأشخاص الذين يدخلون فى هذا التفاعل ويستخدم جارفينكل مناهج الفطرة السليمة والبرهنة والحادثة أو بعبارة اخرى يستخدم ما يطلق عليه الاثنوميثودولوجى فى استخلاص وصياغة قضايا نظرية[2] .

---

(1) A.Gouldner, op.cit. pp. 368-390.

(2) A. Gouldner, op.cit. pp. 390-394.

الفصل الرابع
الاتجاه السيكولوجى

مقدمة .

أولا : تشارلز كولى :

١- النزعة العضوية .

٢- الذات والجماعة الاولية .

٣- الطبقة الاجتماعية .

ثانيا : وليم توماس :

١- الظنرية الاجتماعية .

٢- الاتجاه الموقفى ودراسة الفعل .

٠٣- الفرد والتفكك الاجتماعى .

٤- الرغبات الاربعة وانماط الشخصية .

الفصل الرابع
الاتجاه السيكولوجي

مقدمة :

شهد علم الاجتماع ظهور اتجاه هام وجديد يطلق عليه اسم الاتجاه النفسي ، ظهر هذا الاتجاه حينما أخذت النزعة التطورية فى الأنعزال وفقدان المكانة .

ويعد تشارلز كولى ووليم توماس من أهم علماء هذا الاتجاه، وسنحاول فى السطور التالية أن نعرض لأهم أرائهما فى هذا الاتجاه .

أولا : تشارلز كولى :

ولد تشارلز كولى بولاية ميشجن عام ١٨٦٤ ، وكان دائما ما ينشد الاستقرار ، وهو ما ساعده على بلورة هذا الاتجاه المتفق الى حد بعيد مع خصائصه النفسية .

أ- النزعة العضوية :

يرى كولى أن المجتمع هو ذلك الكل المعقد الذى يتألف من الصور أو العمليات ، والتى تحقق نموها ووجودها من خلال تفاعلها مع بعضها البعض ، وهى كذلك تؤلف كائنا كليا له وحدة مستقلة بحيث ان ما يحدث فى جزء منه ، تنعكس آثاره على بقية الأجزاء [١] .

ان هذا التعريف يعكس لنا اتجاهات كولى العضوية ، حيث يظهر منه أن المجتمع فى نظره هو كيان كلى يتألف من وحدات متمايزة لكل منها وظيفة خاصة . من هنا قال البعض أن النظرية العضوية عند كولى تؤكد فكرتى وحدة الكل ، وقيمة الفرد فى ذاته معا . فهى محاولة

(١) نيقولا تيماشيف ، مرجع سابق ، ص ٢١١ .

لتفسير كل منهما من خلال الآخر . فتصورنا لفرد منعزل ، هو تجريد لاتعترف به الخبرة ، يعادله فى ذلك تصورنا للمجتمع على أنه شيء مختلف عن الأفراد ، ويرجع ذلك الى أن الفرد والمجتمع لايشيران الى ظواهر منفصلة ولكنهما يمثلان المظهران الجمعى والتوزيعى لشيء واحد [1] .

ولقد شغلت مشكلة أولوية تأثير الوراثة أو البيئة فى تحديد السلوك الانسانى كثير من تفكير كولى ، وأن أجاب على ذلك بقوله « حينما تبدأ حياتنا الفردية ، نلاحظ أن العاملين المؤثرين فى التاريخ هما : الوراثة ، والعامل الاجتماعى ، يتجسمان فى هذا الموقف الجديد ، فيبدوان كقوى منفصلة .. ولكن الوراثة والبيئة هما فى الحقيقة تجريدان ، لأن الشيء الواقعى يمثل عملية عضوية كلية [2] » لهذا يعتبر كولى ان مناقشة الأهمية المطلقة أو النسبية للوراثة أو البيئة مناقشة عقيمة وغير مجدية ، فهى تشبه الجدل القائم حول سيادة العقل على المادة أو العكس .

هذا ولقد رفض كولى الاتجاه الذى يفسر الظواهر الاجتماعية من خلال عامل واحد ، بل يرى أن النظرية العضوية للتاريخ ، لاتعتبر عاملا معينا أو عدة عوامل أكثر أهمية من غيرها ، فهى تنكر فى الحقيقة أن يوجد العقل أو النظم أو الظروف النفسية وجودا واقعيا مستقلا عن الحياة الكلية التى تشارك فيها كافة هذه العوامل ، على نحو يماثل مساهمة أعضاء الجسم فى تحقيق حياة الكائن العضوى الحيوانى [3] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١١ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

٢- الذات والجماعة الأولية :

يرى كولى أن لجماعات الأولية والتفاعل الاجتماعى ، وبخاصة الاتصال ، دور هام ومؤثر فى نشأة الشخصية الانسانية ونموها ، فالذات والآخر لايتحققان كوقائع منفصلة بل تنموان من خلال سياث العلاقات الاجتماعية . لهذا يرى أن الذات فى جوهرها اجتماعية .

ثم يعرض لنا فى كتاب « الطبيعة الانسانية والنظام الاجتماعى » لمفهومه الاساسى عن المرآة العاكسة للذات ، ويعتقد أن هذا المفهوم ينطوى على عناصر ثلاث هى :

- تخيلنا للمظهر الذى نبدو عليه أمام شخص آخر .
- تخيلنا لحكمه على هذا المظهر .
- نوع من الشعور بالذات مثل الزهو أو التقشف [(١)] .

ويعد اكتشاف كولى للذات الاجتماعية باعتبارها نتاجا للتفاعل الجتماعى خطوة سابقة على الاتجاه الثقافى السائد فى الوقت الحاضر فى دراسة الشخصية .

وأما عن تحليل كولى للجماعة الأولية Primary Qroup فيرى أنها ظاهرة عامة فى كافة التنظيمات الاجتماعية ، ومن أمثلتها جماعات اللعب والجوار والأسرة ، وتقوم العلاقات فيها على المواجهة المباشرة الوثيقة والتعاون الواضح والصراع وحرية التعبير عن الشخصية والعواطف ، ويرى أن الجماعة الأولية تنمى لدى الفرد الشعور بالوحدة الاجتماعية ، كما أنها ترسى وتدعم المثاليات الاجتماعية العامة مثل الايمان والشفقة والامتثال للمعايير الاجتماعية والحرية. ويرى ان

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٣

الجماعة الأولية تعد من دلائل التقدم والديمقراطية نظرا لانتشارها فى المجتمع بأسره [1] .

٣- الطبقة الاجتماعية :

يرى كولى أن الطبقات الاجتماعية ، والطبقة المقفلة هى أكثر الجماعات الاجتماعية شمولا وانتشارا ، وأن التوريث والمناقشة يعدان من العوامل الهامة فى تحقيق بعض عناصر وسمات الطبقات المقفلة والطبقات المفتوحة فى كافة المجتمعات .

ورغم هذا فقد كان كولى متعاطفا مع الطبقات الدنيا وكثيرا ما كان ينشر أن يصبح المجتمع الانسانى مفتوح الطبقات مما يتيح فرص التدرج الاجتماعى أمام الأفراد [2] .

ثانيا : وليم توماس :

يعد وليم توماس ثانى رائد من رواد علم الاجتماعى النفسى أما أعماله فكانت مستقلة عن مساهمات كولى ، وما من شك أن توماس أحدث تأثيرا أعمق من كولى فى هذا المجال وهذا ما سيتضح من عرضنا لتلك الأعمال .

١- النظرية الاجتماعية :

يرى وليم توماس أن النظرية الاجتماعية - وهو اصطلاح أطلق على علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى معا - يتعين أن يكون علميا ، فمن الضرورى أن نطور دراسة منظمة وأكثر دقة للسلوك الانسانى ، بحيث نستخدم منهجا يماثل منهج العلوم الطبيعية والبيولوجية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢١٤ - ٢١٥ .

، وتكون فى مستواها . بيد أن هذه الدعوة لاتطابق الفكرة التى تذهب الى أنه يتعين أن تتبنى النظرية الاجتماعية قوانين العلوم الطبعية وتعميماتها . فقد رفض توماس هذا الموقف تماما . فهو يؤكد أنه لكى يصبح علم الاجتماع علميا فمن الضرورى أن يطبق نموذج الاستدلال المستخدم فى العلوم الطبيعية على الواقع الاجتماعى . ويرى أن النظرية الاجتماعية الصادقة لابد أن تتضمن بدورها قوانين تقرر العلاقات الضرورية بين وحدات الواقع الاجتماعى ، لأن هذه النظرية أساسية فى التحليل الاجتماعى ، كما أكد توماس أن الوحدات الاساسية للواقع الاجتماعى هى الاتجاهات والقيم [1] .

إلا أن توماس فقد الثقة بالتدريج فى امكانية الوصول الى قوانين اجتماعية ، لهذا نادى بأن يأخذ علم الاجتماع بالاستنتاجات والتى هى أقل دقة من القوانين .

ويرفض توماس رفضا تاما الأخذ بالمنهج السببى فى دراسة الظواهر الاجتماعية ، فهو يؤكد أن من الضرورى إستبعاد فكرة العلية ونستبدلها بمنهج آخر يسعى الى الكشف عن نتائج محددة ترتبت على مقدمات معينة .

ولقد إهتم توماس فى سنواته الأخيرة بالأساليب الفنية التى تمكن عالم الاجتماع من تحقيق الأهداف العلمية ، وهو لذلك يؤكد أهمية استخدام الجماعات الضابطة من بين اجراءات البحث المختلفة وذلك لدراسة التوزيع الاحصائى للظواهر الاجتماعية ، كأن يدرس مثلا بعض العوامل المحددة التى تؤثر فى السلوك الاجرامى . على أن استخدام الجماعات الضابطة قد أصبح من الاجراءات الشائعة فى الوقت الحاضر ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

ولكن لم يكن قد حقق هذا الشيوع فى الوقت الذى دعا فيه توماس الباحثين الى تطبيقه [1] .

٢- الاتجاه الموقفى ودراسة الفعل :

يرى توماس أن السلوك فى إطار الموقف والتغيرات التى تطرأ على الموقف وما يصاحبها من تغير فى السلوك ، تعتبر جميعا أفضل منهج يمكن أن يستخدمه العالم الاجتماعى لكى تتحقق التجربة فى البحث الاجتماعى .

فتوماس اختار الاتجاه الموقفى ، متأثرا فى ذلك بالنزعة السلوكية ، بل أنه استخدم مصطلح الاتجاه الموقفى والاتجاه السلوكب بمعنى واحد ، ولكن رغم التى تشكل اتجاهات الفرد ، وتحدد بالتالى تعريفاته للمواقف . وقد أشار توماس فى إحدى دراساته إلى أن تعريف الموقف « يبدأ بالوالدين ، ثم يستمر عن طريق المجتمع المحلى ... ويتخذ شكلا رسميا بواسطة المدرسة ، والقانون ، والكنيسة » غير أننا نلاحظ فى الوقت ذاته أن تعريف الموقف من وجهة نظر الفاعل حين يتخذ قرارا لفعله ، يشكل العنصر الثالث للموقف الشامل . وهو عنصر يتضمن دائما عوامل ذاتية (الاتجاهات) . وبخاصة أنه من العسير أن نفهم السلوك ، إلا بدراسته فى نسيجه الكلى . ومعنى ذلك أننا لاندرس الموقف فى جانبه الموضوعى والواقعى ، بل يتعين أن ندرسه كذلك كما يبدو للشخص ذاته . وهكذا يصبح من الضرورى أن نعطى وزنا خاصا لهذا العامل الذاتى فى التحليل الاجتماعى . ويمكن أن نشير هنا إلى أحدى أفكار توماس الأساسية والمعروفة وهى أنه : « إذا كان الأفراد يحددون المواقف تحديدا واقعيا ، فإن هذه الواقعية تتمثل فى نتائجها أو

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

آثارها »[1] .

٣- الفرد والتفكك الاجتماعى :

يرى توماس أنه فى حالة السلوك الفردى فإنه يمكننا أن نميز بين مظهرين لهذا السلوك ، الأول يسمى بالغموض Vagueness وعدم التحديد Indecision ثم تتبعهما مرحلة الصياغة أو التبلور Crystallization وذلك حينما يتمكن الفرد من السيطرة على خبراته الجديدة ، أما حينما يقل تأثير القواعد الاجتماعية على الأفراد فإن التفكك الاجتماعى يظهر .

ومن العسير أن نعتبر التفكك الاجتماعى ظاهرة شاذة أو غير مألوفة . فهو يتحقق - إلى حد ما - فى كل المجتمعات ، وخلال عصورها المختلفة . غير أن فترات الاستقرار الاجتماعى هى التى تتميز بقدوة الجماعة على تدعيم قوة القواعد السائدة ، وبذلك تستطيع مواجهة التفكك الاجتماعى . ومعنى ذلك أن استقرار نظم الجماعة ، يمثل عملية توازن دينامى بين التفكك والتنظيم . ومع ذلك فقد يختل هذا التوازن اختلالا ملحوظا ، الأمر الذى يتعذر معه تدعيم القواعد السائدة ، فى مثل هذا الموقف ، يصبح من الضرورى تطوير معايير جديدة للسلوك ، ونظما أكثر حداثة ، تتوافق بشكل أفضل مع المطالب الجديدة . وهذه هى العملية التى تعرف بالإصلاح الاجتماعى Social Reconstruction ولكى يصبح من الممكن تحقيق هذا الإصلاح الاجتماعى . من الضرورى أن يتخلص بعض أعضاء الجماعة من التفكك الفردى ، خلال فترة التفكك الاجتماعى[2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

٤- الرغبات الأربعة وأنماط الشخصية :

كان لأهتمام توماس بالسلوك الانسانى ودراسته بعمق أن أدخل مجموعتين جديدتين من المفاهيم ، تتضمن المجموعة الأولى ما أطلق عليه الرغبات الأربعة ، أما المجموعة الثانية فتعرف بأنماط الشخصية الثلاث .

١- فيما يتعلق بالرغبات الأربعة ، فإن توماس كان يظن أنها تمثل جزءاً أساسيا بل جوهريا فى النظرية السوسيولوجية ، وان هذه الرغبات لايستطيع أن يشبعها الفرد إلا من خلال أندماجه فى المجتمع . وهذه الرغبات الأربعة هى : الرغبة فى الخبرة الجديدة ، والرغبة فى الأمن ، والرغبة فى الاعتراف ، والرغبة فى السيادة .

ولم يتمكن توماس من أن يصوغ بوضوح العلاقة بين الرغبات الأربعة والاتجاهات ، بل إن الإطار التصورى العام عنده لايتضمن هذه الرغبات وعلى الرغم من أنه يصف هذه الرغبات بأنها العامل المحرك ونقطة الانطلاق للنشاط الإنسانى فى المجتمع ، إلا أن ذلك يعد وظيفة الاتجاهات كذلك . ويشير توماس الى أن الرغبات ليست شاملة وهى كذلك لاتمثل غرائز بيولوجية ، غير أنه ذلك ، لم يقبل فكرة النزعة السلوكية الاساسية ، والتى تذهب الى أنه من الممكن تفسير الفعل الانسانى تفسيرا علميا ، دون أن نرجع الى المظاهر العقلية للفاعلين على المسرح الاجتماعى [1] . من هنا رفض توماس الاتجاهات الأخرى التى شاعت بين علماء الاجتماع فى عصره ، مثل الاتجاه التصورى والاتجاه البيولوجى ولنظرية العنصرية وفكرة المحاكاة عند تارد والقهر الاجتماعى عند دوركايم وما الى ذلك .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

ولقد اختار توماس السلوك ثم ركز بعد ذلك على السلوك المتوافق بوجه خاص ، واعتبره محور إهتمام نظريته السوسيولوجية ، ولكن أكد أن الفعل فى الموقف الاجتماعى ، هو الحقيقة الاجتماعية التى يتعين تفسيرها . ويتكون الموقف الاجتماعى من ثلاثة عناصر متساندة هى : الظروف الموضوعية ، والتى تشير الى القواعد الاجتماعية الملزمة للسلوك، ثم الاتجاهات السابقة عند الفرد والجماعة ، وأخيرا تعريف الموقف بواسطة الفاعل ذاته ، والذى يتأثر فى الوقت ذاته بالجماعة [1] .

ويؤكد توماس وزميله زنانيكى فى كتابهما « الفلاح البولندى » أنه من الممكن التوصل الى علاقات سببية بين الاتجاهات والقيم وهما فى ذلك يحاولان وضع تعريف لهما ، اذ يعرفان المصطلحين بقولهما « نعنى بالقيمة الاجتماعية أى معنى ينطوى على مضمون واقعى وتقبله جماعة اجتماعية معينة ، كما أن لها معنى محدد ، بحيث تصبح القيمة فى ضوئه موضوعا معينا أو نشاطا خاصا ، ونعنى بالاتجاه عملية الوعى الفردى التى تحدد النشاط الواقعى للفرد ، أو النشاط المحتمل فى العالم الاجتماعى . فالاتجاه إذن هو الجانب الفردى للقيمة الاجتماعية ، والنشاط أيا كانت صورته هو الرابطة بينهما » [2] .

والواقع أن هذه التعريفات الجديدة تكشف بوضوح عن وجهة نظر مؤلفى كتاب « الفلاح البولندى » ، وبخاصة ما يتعلق منها بالعلاقات السببية بين الاتجاهات والقيم ، ففكرتهما الاساسية هى أن سبب اتجاه معين أو قيمة بالذات ، لايمكن أن يكون اتجاها أو قيمة أخرى فقط ، ولكن يعنى دائما تكاملا بين مجموعة من الاتجاهات والقيم . وهذا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

بدوره هو الذى يفسر اختلاف استجابة الأفراد لمؤثرات واحدة ، وهما يوضحان هذه الفكرة من خلال تصور موقف اثنين من الأخوة ، عاشا تحت سيطرة حكم الأب ، ولكنهما يستجيبان للموقف بطريقة مختلفة [1] .

ولم يهمل توماس تماما دراسة مفهومى الاتجاه والقيمة . وإن كانا لم يشغلا مكانة كبيرة فى أعماله الأخيرة ، كما هو الحال بالنسبة لكتاب « الفلاح البولندى » . ومع ذلك فهو لايدرسهما بمعزل على سياق الموقف الشامل . وهذا الموقف - كما أوضحنا - يشتمل على عناصر موضوعية ، تشكل القيمة ذاتها جانبا كبيرا منها . كما تشتمل هذه العناصر بدورها على قواعد السلوك ، أى المعايير الاجتماعية التى تستطيع الجماعة بواسطتها أن تحافظ على كيانها ، وتنظم أنماط الفعل المرغوبة ، وتكسبها صفة العمومية ، تلك التى تقيم بدورها التنظيم الاجتماعى . ويعتبر التنظيم الاجتماعى - والذى يمثل نسقا معياريا - هو موضوع الدراسة الحقيقى لعلم الاجتماع ، وهكذا تختلف دراسة علم الاجتماع للقيم - بالضرورة - عن دراسة علم النفس الاجتماعى لها ، الذى يمكن أن نعتبره بحق علما عاما لدراسة الاتجاهات (أو الجانب الذاتى للثقافة) . ولكن العلمين معا يكونان النظرية الاجتماعية [2] .

فى ضوء ذلك تصبح الظروف الموضوعية ، وهى أول عنصر من العناصر الثلاث للموقف الشامل مطابقة - من وجهة نظر توماس - عمليا للقواعد والنظم أدركها فى الوقت ذاته ، على أنها مرتبطة بوجه

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٣ .

عام بالعمليات العصبية . فمن اليسير أن نفسر سيطرة رغبة معينة على سلوك الفرد فى موقف بالذات ، فى ضوء المزاج الطبيعى ، والذى يعتبره ظاهرة كيمائية تعتمد على إفرازات الغدد العصبية [1] .

٢- أما ما يتعلق بالمجموعة الثانية من المفاهيم ، والتى تشير الى أنماط الشخصية الثلاث ،فقد حدد توماس الأنماط الثلاثة بأنها تتضمن : الشخصية المحافظة Philistine والشخصية البوهيمية Bohemian والشخصية الابداعية Creative .

والشخصية المحافظة هى شخصية ممتثلة ، لاتسمح ولاتقبل الاتجاهات الجديدة وتتميز بالاستقرار .

أما الشخصية البوهيمية فهى شخصية غير مستقرة وغير مترابطة ، بحيث تجعل الفرد خاضعا لمؤثرات متنوعة . وأما الشخصية الابداعية فهى شخصية مستقرة ومنتظمة ، فى الوقت الذى تستطيع فيه بالضرورة أن تحقق نموا ملحوظا، ويرجع ذلك الى أن اتجاهاته تتضمن دائما الميل نحو التغيير ، الذى يتمثل فى تخطيط النشاط المنتج .

ورغم اهتمام توماس بشخصية المبدع وايمانه بقدرتها على التأثير فى الثقافة بواسطة الاختراع، إلا أنه لم يقبل نظرية الرجل العظيم . وفى هذا الصدد يبرر توماس هذا الرفض بقوله : « ان العقل الفردى لايمكن أن يرتفع كثيرا من مستوى عقل الجماعةولسوف يكون عقل الجماعة بسيطا ، إذا كانت ظروف البيئة الخارجية والخبرات العنصرية السابقة بسيطة كذلك ، وعلى هذا الاساس يمكننا أن نرجع التحركات الهامة ، والاختراعات الى الأفراد وفقا لقدراتهم وكفاءاتهم فقط » [2]. وهو

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

الموقف الذى يقبله علماء الاجتماع وعلماء التغير الاجتماعى حتى وقتنا الراهن .

ولقد ظل العديد من الباحثين يفيدون من كتابات توماس خاصة كتابه الشهير عن « الفلاح البولندى » حيث استطاع توماس أن يقدم فيه اسلوبا جديدا فى البحث ، حيث يتضمن هذا الأسلوب استخدام الوثائق الشخصية كالخطابات والمذكرات الشخصية التى يكلف أصحابها بكتابتها (ويطلق على هذا النوع من الوثائق فى الوقت الحاضر مصطلح Biograms ، ويشكل تاريخ الحياة جزءا كبيرا من إحدى مجلدات كتاب « الفلاح البولندى » بل أن الكتاب بأكمله قد توسع فى استخدام وثائق شخصية أخرى . ويرى توماس وزنانيكى أن الوثائق تمدنا بقدرة على فهم عميق للعلاقة المتبادلة بين الاتجاهات والقيم والظروف الموضوعية للموقف الاجتماعى [1] .

بيد أن أهمية كتاب « الفلاح البولندى » لاترجع فقط إلى ما تضمنه من مفاهيم ، وقضايا ، وإجراءات جديدة ، بل هى ترجع بنفس الدرجة الى الحقيقة التى مؤداها : أن البحث كان يمثل أول محاولة على نطاق واسع لتطبيق المفاهيم العامة للأنثربولوجيا الحديثة فى دراسة التغيرات الهائلة فى الثقافة والتنظيم الاجتماعى فى المجتماعات المتقدمة . وكان ذلك ، عاملا أساسيا فى إجراء عديد من الدراسات التى استخدمت منهجا مماثلا ، وأسهمت بالتالى فى إثراء علم الاجتماع المعاصر.ولدينا أمثلة عديدة على ذلك، منها دراسات ليند وليند الشهيرة عن «الميدلتون» Middletown (١٩٢٩ - ١٩٣٧) ، وسلسلة دراسات اليانكى سيتى Yankee التى أجراها وارنر Wamer وزملاؤه (انظر الفصل

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

السابع عشر) .

غير أن اهتمام توماس لم يكن مقصورا على إبراز كيفية تطبيق علم الاجتماع المنهج الشائع فى الانثولوجيا ، أى دراسة الثقافات الكلية . ففى كتابه « المرجع فى الأصول الاجتماعية » (١٩٠٩) يؤكد مبدأ مؤداه : أن الدراسات التحليلية لن تتمكن من فهم أى ظاهرة فهما كاملا : حينما تحاول عزلها عن البناء الكلى التى تكون جزءا منه ، فمن العسير أن نفهم أى ثقافة ، حينما ننظر الى عناصرها على أنها وحدات منعزلة ، وهو لذلك يؤكد فى كتابه « الفلاح البولندى » ضرورة أخذ الحياة الكلية الشاملة فى المجتمع فى الاعتبار عند إجراء كافة التحليلات الاجتماعية . والواقع أن هذا المبدأ قد أصبح يمثل وجهة نظر مقبولة عموما فى الانثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع فى الوقت الحاضر [١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

الفصل الخامس

الذات والمجتمع وعلم اجتماع الحياة اليومية

نظرية الفعل ومفهوم الذات : ماقبل بارسونز وما بعده .

التحليل النفسى والذات : فرويد .

الذات الاجتماعية : ميد والتفاعلية الرمزية .

الاتجاه الفينومونولوجى : سونز وواقع الحياة اليومية .

الفصل الخامس

الذات والمجتمع وعلم اجتماع الحياة اليومية

نظرية الفعل ومفهوم الذات: ما قبل بارسونز وما بعده:

تمثلت المشكلة الكبرى التى واجهت علم الاجتماع الكلاسيكى فى ذلك التناقض بين تأكيده على مفهوم المجتمع كنسق أو كبناء تحكمه قوانين موضوعية خارجية، وبين دور الذات أو الفاعل فى تشييد البناء الاجتماعى وإحداث التغير الاجتماعى. من هنا كان التناقض كبيراً وواضحاً داخل إطار علم الاجتماع الكلاسيكى بين مفاهيم الذات والبناء، ومفاهيم الإرادية الطوعية والحتمية: حيث مالت الماركسية والوظيفية والوضعية السوسيولوچية إلى رد الدور الايجابى والفعال للذات إلى نسق اجتماعى اقتصادى ثقافى. كذلك حاولت نظرية الفعل الاجتماعى ـ كما تطورت فى أعمال زيمل وفيبر ـ أن تعيد تحديد موضوع علم الاجتماع كدراسة للتفاعل الاجتماعى. ويقدم بارسونز من ناحية أخرى فى كتابه «بناء الفعل الاجتماعى » The Structure of Social Action (١٩٣٧) مجموعة من القضايا تشير إلى أن النظرية الطوعية للفعل كانت تشكل الشغل الشاغل لفيبر ودوركايم وباريتو، وأنه على الرغم من الاختلافات الهامة بين هؤلاء العلماء ـ حيث عمل كل منهم بمعزل عن الآخرين فى ثقافاتهم القومية المتميزة ـ إلا أن هناك تقارباً والتقاءً حقيقيًا فى النظرية السوسيولوچية. إن تاريخ علم الاجتماع، فى نظر بارسونز، ليس تاريخًا لمدارس فكرية متنافسة أو متعارضة، فعلى الرغم من أن الأشكال التى تمثلها النظرية السوسيولوچية كانت من الكثرة بما يوازى كثرة علماء الاجتماع، وعلى الرغم من عدم توافر الأساس المشترك بين أشكال النظرية واتجاهاتها، إلا أن هناك اتجاهاً واضحًا نحو تطوير هذا الأساس المشترك للنظرية ونحو تحديد الأسس النظرية السليمة التى تبنى عليها. أما التقاء وتقارب النظرية السوسيولوچية، فكان ـ على حد تعبير بارسونز ـ متجهاً نحو تطوير «نظرية عامة للفعل» (Parsons, 1961A, oo. 734-775).

تفترض القضية الأساسية التى عرضها بارسونز أنه من غير الممكن تطوير نظرية سوسيولوچية عن الفعل الاجتماعى على أساس من وضعية القرن التاسع عشر، بإيمانها المعروف بمناهج العلوم الطبيعية. ذلك أن استقرار المجتمع وثباته ووجود النظام الاجتماعى العام أمور لا يمكن تفسيرها فى ضوء القوانين الطبيعية وحدها، خاصة وأن النظام الاجتماعى العام يجد أساساً له فى كل من البناء الموضوعى للمجتمع من ناحية، وفى الأفعال الذاتية التى يقوم بها الأفراد عندما يستدمجون قيم الثقافة من ناحية أخرى. لذلك تجسد الفلسفة النفعية Utilitarian ـ بتصوراتها المعروفة عن سعى الأفراد لتحقيق مصالحهم ـ أقوى عنصر للفعل الاجتماعى، غير أن الفلسفة النفعية لا تستطيع أن تفسر استمرارية النظام الاجتماعى العام فى ضوء تصوراتها الخاصة عن عشوائية الأهداف، وعن التوجيه العقلانى للأفراد نحو الأهداف التى تؤسس على معرفة الموقف، ولا عن طريق تصورها الذرى للمجتمع. ومن ثم، لم يكن من المناسب أن يكتفى بنثام Bentham وعلماء الاقتصاد السياسى الكلاسيكى بأن يشيروا إلى ما أسموه بـ «اليد الخفية» التى تربط المصالح والأهداف الفردية بمصالح المجتمع ككل وبالأهداف الجمعية، أو أن يفترضوا ـ مثلما فعل سبنسر ـ عقداً اجتماعياً بين الأفراد كأساس للنظام الاجتماعى العام. تفترض العقلية النفعية أن النظام الاجتماعى يكون ممكناً من خلال :

(١) الاعتراف العقلانى بالتوحد الطبيعى للمصالح، وبالحلول المنظمة لمشكلة الصراع بين الأهداف.

(٢) التسليم الطوعى بالعقد الاجتماعى الذى يفترض أن الإنسانية تعترف وبطريقة واعية بفائدة الحكومة والاستقرار الاجتماعى. غير أن بارسونز يرى أن المذهب النفعى ـ الذى ارتكز على تصور ذرى للمجتمع وللمعايير العقلانية التى تحكم علاقة الأهداف بالوسائل ـ مذهب غير ثابت طالما أنه يتصور أن الأهداف تتميز بعشوائيتها وذريتها.

وعلى العكس من ذلك، لم يهتم دوركايم وفيبر وباريتو، وإلى حد ما توتيز وزيمل بالمصالح، بل عنوا بالمعايير المنظمة للفعل الإنسانى، والتى تعتبر ـ بعد أن يستدمجها الفاعلون ـ أموراً مرغوب فيها وجديرة بأن تتحقق. لذلك

تشير النظرية الطوعية للفعل إلى عملية بها تقنع الذات وبطريقة إيجابية بمشروعية قيم معينة. من هنا تكون المعايير المنظمة للفعل الإنسانى بمثابة قوى أو ضغوط خارجية (كما هو الحال فى نظر وضعية القرن التاسع عشر والأعمال المبكرة لدوركايم)، بل تكون عناصر ترتبط ارتباطاً عضوياً بالفاعل. وبعبارة أخرى تقرر النظرية وجود علاقة إيجابية (وليست سلبية أو توافقية) بين الأفراد والمعايير، تتميز بأنها علاقة طوعية وخلاقة.

غير أن الفعل الإنسانى يتميز - فى رأى بارسونز - بطابعه النسقى. فقد كانت فكرة الفعل الإنسانى كنسق فكرة محورية فى دعوى بارسونز بأن النظرية السوسيولوجية فى أواخر القرن التاسع عشر تكشف عن حركة نحو الالتقاء أو التقارب: ذلك أنه على الرغم من أن الفعل الإنسانى يفترض وجود الدوافع والأهداف والرغبات، إلا أنه لا يمكن دراسته دراسة علمية إلا من خلال تحليل نسقى موضوعى. وهنا يبدو تأثير باريتو بصفة خاصة على الفكر البارسونى واضحاً، طالما أن كلا من دوركايم وفيبر لم يطورا فكرة النسق بهذا المعنى. أى بمعنى أن يشكل الفعل نسقاً وأن يكون المجتمع نسقاً للفعل. وترتبط وحدة الفعل بالنسق الاجتماعى بنفس الطريقة التى يرتبط بها الجزئ فى الفيزياء الكلاسيكية: فكما أن الجزيئات الطبيعية لا تعرف إلا فى ضوء خصائص الكتلة والسرعة والموقع فى المكان واتجاه الحركة... الخ كذلك يكون لوحدات الفعل بعض الخصائص الأساسية التى بدونها لا يمكن تصور وجود واقعى لها. ويرى بارسونز أن كل الأفعال تشكل بناءً لوحدات الفعل يتضمن الفاعلين. ولذلك فإن الفعل يشتمل فى نظره على فاعل، وهدف يوجه إليه الفعل، وموقف يتضمن بدوره بعض العناصر التى يستطيع الفاعل أن يسيطر عليها وعلى أخرى لا يستطيع الفاعل أن يوجهها أو يسيطر عليها. وفى داخل كل موقف هناك دائماً اختيار لوسائل بديلة أو ما يسميه بارسونز بـ «التوجيه المعيارى للفعل» Normative Orientation of Action.

وينقسم نسق الفعل - كما يقرر بارسونز - إلى أجزاء أو أنساق فرعية صغيرة. وتمثل وحدة الفعل أو الفعل الواحد أصغر وحدة فى نسق الفعل. ويشكل نسق الفعل تنظيماً للتفاعلات بين الفاعل والموقف. كما ينبنى الفعل

الاجتماعى حول قواعد ومعايير وأنماط. ولقد سبق لدوركايم أن أكد على العمليات التى من خلالها يستدمج الأفراد التماثلات الجمعية من أجل تدعيم النظام الاجتماعى العام وبناء الشخصية الذى يتلاءم والبناء الاجتماعى. غير أن نقد دوركايم للوضعية قد أدى به - على حد تعبير بارسونز - إلى تعريف البيئة أو الوسط الاجتماعى فى ضوء نسق متكامل للمعايير، تضمن بدوره وجود نسق مشترك وعام للاتجاهات نحو القيم النهائية. ولأن النسق القيمى العام يحمل طابعًا نظاميًا، لذلك يحمل الفعل طابعًا نظامًا على المستوى الذاتى والموضوعى. يقول بارسونز:

«إن أهم قضايا نظرية الفعل - فيما يبدو لى - هى أن بناء أنساق الفعل يتركب من أنماط ذات طابع نظامى مستدمج من المعانى الثقافية » (Parsons, 1961D,p. 342).

لذلك؛ فإن الفعل الشعائرى فى نظر بارسونز هو نسق للفعل يشتمل على أشياء مقدسة تنجز دون أى حساب منفعى للمزايا وترتبط بعلاقة رمزية بين الوسائل والأهداف. لذلك يلاحظ أنه على الرغم من أن مصدر المقدسات غيبى وروحانى، إلا أن تمثلاتنا الرمزية لها تكون الأشياء المقدسة، كما أن موقف الاحترام الذى تتخذه حيالها - وأيضًا تجاه كل الالتزامات الأخلاقية - يكون تعبيراً عن اتجاهاتنا نحو القيمة النهائية، تلك الاتجاهات التى تتميز بطابعها الاجتماعى طالما أنها تحمل صفة العمومية والاشتراك (Parsons, 1961A., pp. 709-13).

وكواحد من منظرى الفعل، عنى بارسونز بعمومية الفعل، أى علاقة الذات الإنسانية أو الشخصية بالنسق الاجتماعى. وفى كتابه «بناء الفعل الاجتماعى» بحث بارسونز إمكانات الفعل فى العالم الاجتماعى وذلك برفضه للطوعية المتطرفة للمذهب النفعى لتركيزها التام على الاختيار الحر للفاعل، ورفضه أيضاً للحتمية المتطرفة فى الاتجاه الوضعى لتأكيدها الجازم على الأسباب والنتائج. وباختصار، حاول بارسونز أن يحلل العنصر الذاتى للمجتمع الإنسانى كبناء موضوعى خارجى، فيه يتم تنظير الأهداف والوسائل والشروط من وجهة

نظر الفاعل من ناحية، وباعتبارها معطيات خارجية فى نفس الوقت من ناحية أخرى. وفى كتاباته اللاحقة، وبخاصة كتابه «النسق الاجتماعى» (١٩٥٠) حاول بارسونز ـ كما أوضحت من قبل ـ أن يعيد تعريف الفعل فى ضوء مفاهيم النسق، فذهب إلى أن دافعية الفاعل تتحدد فى ضوء مفهوم تحقيق الهدف وذلك عن طريق «حاجات» النسق الثقافى الاجتماعى، ومن ثم يحذف العنصر الطوعى الإرادى، خاصة وأن معنى الفعل يتحدد داخل النسق وليس من وجهة نظر الفاعل. كما أن الفعل ينظم كوظيفة ضرورية لعلاقة الفاعل بالموقف، من هنا يعرف النسق الاجتماعى بأنه :

«جمع من الأفراد الفاعلين، الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض فى موقف له جانب فيـــزيقى بيئى، ويكونون مدفوعين بميلهم للاشباع الأمثل لاحتياجاتهم، وتتحدد علاقاتهم بمواقفهم فى ضوء رموز مشتركة محددة ثقافيًا» (Parsons, 1951, pp. 5-6).

وفى كتاباته الوظيفية، يصف بارسونز الأنساق الاجتماعية فى حدود «الأدوار»، تلك الأنماط الثابتة للسلوك والتى ترتبط بمكانة خاصة مثل «الأب» و«رجل الأعمال» و«المهنى»... الخ. وعلى الرغم من أن بارسونز كان قد ربط ما بين الفعل والنسق فى كتاباته الوظيفية، إلا أنه كان يميل إلى تأكيد الدورالمسيطر الذى يمارسه النسق على الذات. ولذلك نراه يطور مفهوم النسق المغلق. هذا وعلى الرغم من أنه يمكن النظر إلى نظرية الفعل على أنها تمثل نقداً للاختزالية الوضعية فى القرن التاسع عشر، إلا أن ثمة محاولة كانت قد بذلت لعودة الذات الإنسانية إلى النظرية السوسيولوجية، ولتعريف المجتمع فى حدود الأفعال البشرية اليومية المشبعة بالمعنى. وقد أسلمت هذه المحاولة ـ فى أعمال بارسونز ـ إلى فكرة تشيىء المجتمع وإلى تصوره المحافظ للشخصية. حيث اعتبرت الشخصية الإنسانية نسقًا للفعل تحدده وتعمل على استقراره وثباته ثقافة مشتركة تشتمل على اللغة والتنشئة الاجتماعية. وفى هذا الصدد يقرر بارسونز أن المستويات الأخلاقية وكل مقومات الثقافة المشتركة تستدمج لتصبح جزءاً من بناء الشخصية. لذلك تشكل المستويات الأخلاقية «محور ميكانيزمات الاستقرار فى نسق التفاعل الاجتماعى» (Parsons, 1964, pp.

(20-22) . ويترتب على ذلك، أن يكون هناك ما يمكن اعتباره «تلازم» بين نمط الشخصية ونمط البناء الاجتماعى، وتلك نظرة لا يمكن التوفيق بينها وبين النظرية الطوعية الإبداعية للفعل الاجتماعى التى قدمها بارسونز فى كتاباته المبكرة. وعلى الرغم من أن كتاب «بناء الفعل الجتماعى» لم يشر مرة واحدة إلى كل من فرويد وميد، إلا أننا نجد بارسونز فى كتاباته اللاحقة يؤكد على أهمية علم اجتماع التفاعلية الرمزية عند ميد، كما يؤكد وبإصرار على الالتقاء الفكرى بين فرويد ودوركايم.

ورغم تأثر بارسونز فى تصوره للشخصية وعلاقتها بالنسق الاجتماعى تأثراً كبيراً وواضحاً بأفكار فرويد، إلا أن فكرة فرويد حول استدماج القيم الأخلاقية كجزء جوهرى فى بناء الشخصية تلتقى مع نظرية دوركايم عن الدور الاجتماعى التكاملى للمعايير الأخلاقية. ويعتبر هذا الالتقاء بين نظريتين متميزتين ومتعارضتين واحداً من أهم معالم تطور العلم الاجتماعى الحديث فى نظر بارسونز (Parsons, 1965, pp. 18-19) . ومع ذلك، انتقد فرويد لتأكيده المتطرف على الفرد ولفشله فى تحليل الشخصية فى تفاعلها مع الآخرين لتشكل نسقًا. إن نسق الشخصية عند بارسونز يعرف كنسق للفعل يقوم بوظائفه بطريقة مستقلة إلى حد ما بالنسبة لبنائه الدينامى وحاجاته. ذلك أن الشخصية لا تستدمج الأهداف الاجتماعية بطريقة فردية. إن كثيراً من مفاهيم التحليل النفسى عند فرويد (مثل الهو والأنا والأنا الأعلى وعقدة أوديب) قد أعيد تعريفها بطريقة سوسيولوجية عند بارسونز : فوظيفة الأنا الأعلى مثلا تتحدد كلية فى استدماج أنماط التفاعل الاجتماعى، والأدوار الاجتماعية، كميكانيزم تكاملى يمارس سيطرة كبيرة على الشخصية. وبالمثل، ترتبط المرحلة الأوديبية فى التطور البشرى بالمجتمع الصناعى والأسرة النواة.

ونحن وإن كنا سنناقش إسهامات فرويد فى النظرية الاجتماعية فى الجزء التالى من هذا الفصل، إلا أنه فيما يتعلق بمحاولة بارسونز إضفاء الطابع السوسيولوجى على نظرية التحليل النفسى، نجد لزامًا علينا أن نشير إلى أن كثيراً من المفهومات الأساسية عند فرويد قد صيغت لتتطابق مع نموذج التكامل الاجتماعى الذى يستبعد العناصر السلبية والمتناقضة. فمفهوم الذات

مثلا جزء من تأكيد فرويد على كبت الدوافع الفطرية الغريزية، واختزلت الغريزة الجنسية الإنسانية لتصبح إحدى مسائل الدور الاجتماعي والنظام الاجتماعي العام. وبالإضافة إلى ذلك تصور بارسونز تناغماً وانسجاماً أساسياً لا ينقطع بين الشخصية والنسق الاجتماعي. لذلك كان نمو الشخصية ومراحل نموها عند بارسونز منفصلة تماماً عن فكرة فرويد عن الغرائز والدوافع والطابع القمعي للثقافة. وفي الوقت الذى كانت فيه التنشئة الاجتماعية مسألة مثيرة للمشاكل في نظر فرويد، كانت عند بارسونز تشكل عملية منسجمة ومتكاملة لتعليم الخبرات واستدماج القيم المسيطرة.

التحليل النفسى والذات : فرويد:

يؤرخ للبداية الرسمية لعلم التحليل النفسى منذ عام ١٩٠٨ مع تأسيس جمعية ڤيينا للتحليل النفسى، وفى نفس العام انعقد المؤتمر العالمى الأول للتحليل النفسى. وكان من أبرز أعضاء جمعية ڤيينا سيجموند فرويد Sig-mund Freud (١٨٥٦ ـ ١٩٣٩). كان فرويد معاصراً لدوركايم وفيبر وباريتو، جذب الاهتمام نحو الدور الهام الذى تقوم به العناصر غير العقلانية في الفعل والثقافة الإنسانية. وشأنه فى ذلك شأن فيبر وباريتو، تشكك فرويد فى الأفكار التى دارت حول كمال الإنسانية، وفى نظريات القرن التاسع عشر عن التقدم، وفى دعاوى الديموقراطية الشعبية الجماهيرية.

لقد كان اهتمام فرويد الأول موجهًا نحو مجال فسيولوچيا الجهاز العصبى. عنى بدراسة الهستيريا وعلاجها عن طريق التنويم المغناطيسى. وبحلول تسعينيات القرن الماضى، طور فرويد وسيلة «التداعى الحر»، وفيها يشجع المرضى ليقولوا كل ما يعن لتفكيرهم مهما كان مضحكاً أو مخيفاً أو ماجناً. وباستخدام هذه الطريقة كشف كثير من مرضاه عن تجارب ومشكلات جنسية، مما أدى به إلى نتيجة هامة مفادها أن الهستيريا ليست مجرد حالة من الفشل الوظيفى البيولوچى للكائن العضوى، بل نتاج لكبت الغريزة الجنسية وقمع دوافعها. من هذا المنطلق أصبح تأكيد فرويد على دور الغريزة الجنسية فى تشخيص الأمراض العصبية أهم ما يميز مدخله عن مداخل علم النفس

التقليدى: فعن طريق التداعى الحر يسترجع المريض خبراته الجنسية فى مرحلة الطفولة المبكرة التى احتفظ بها عقله واحدة بعد أخرى. ومن ثم، صاغ فرويد قضيته فى أن الهستيريا نتاج «الإغواء الجنسى» فى مرحلة الطفولة المبكرة من جانب أحد الراشدين أو طفل آخر أكبر سناً. غير أنه منذ ١٩٠٠ فصاعداً ـ وخاصة بعد نشر كتاب «تفسير الأحلام» The Interpretation of Dreams (١٩٠٠) و«الأمراض النفسية فى الحياة اليومية» The Psychopathology of Everyday Life (١٩٠١) و«مقالات ثلاث فى نظرية الدوافع الجنسية» Three Essays in the Theory of Sexuality (١٩٠٥) ـ ذهب فرويد إلى أن المرض العصبى يشتمل على الشخصية الإنسانية برمتها وعلى عناصر لا شعورية.

رفض فرويد كلا من المفاهيم العقلانية والميكانيكية للشخصية : فالظاهرة العقلية ليست ظواهر عارضة أو غير عقلانية، بل هى محصلة عملية معقدة من الارتباطات السببية. فأعراض المرض تكون ذات معنى بالنسبة للاشعور عند المريض. وبالمثل فإن الأفعال اليومية التى تبدو فى الظاهر عشوائية، مثل فلتات اللسان ونسيان الأشياء والأحلام، تتساوى فى احتوائها على عناصر لاشعورية فى علاقاتها السببية : فالأحلام والضحك الهزلى تصبح كلها ذات معنى فقط عندما تتكامل فى بناء آخر تطلق عليه نظرية فرويد اسم «بناء العقل الباطن». كذلك لم يوافق فرويد على النموذج البسيط لعلاقة السبب بالنتيجة، فالظواهر العقلية فى نظره ظواهر بالغة التعقيد والتحديد، إنها تركيب من عناصر عديدة وليست مجرد نتاجات لعملية الارتباط السببى فى خط مستقيم. فالأحلام قد تحمل معانى كثيرة ومتنوعة وتشبع العديد من الرغبات المختلفة، كما أن عنصراً واحداً من العناصر المكونة للحلم قد يرتبط بعدد كبير من الملامح المختلفة لعناصر أخرى كثيرة. ولأن الحلم الواحد يكثف أو يلخص العديد من الخبرات فى صورة واحدة مركبة، ذهب فرويد إلى أن العناصر التى تزعج النائم وتقلقه، أو ما أسماه بالمحتوى الظاهرى للحلم (وهو ما يتذكره الفرد) يكون أقل أهمية من المحتوى الكامن (أى البناء الداخلى الذى يعطى للحلم معناه). من هذا المنطلق، اعتبر فرويد تفسير الأحلام أساسًا لمنهج التحليل النفسى وأكثر أعماله أهمية. فتحليل الأحلام يقدم ـ على حد تعبيره ـ شاهداً على البناء الدقيق والعميق للعقل البشرى. يقول:

«لقد اكتشفت يوماً من الأيام حقيقة أن الأعراض الباثولوجية عند بعض المصابين بأمراض عصبية تحمل معنى ما. وعلى أساس هذا الاكتشاف وضع منهج التحليل النفسى من أجل علاجهم. ولكن حدث أثناء العلاج أن المرضى بدلا من أن يكشفوا عن أعراض مرضهم أفصحوا عن أحلامهم، عندئذ رسخ الاعتقاد بأن الأحلام تحمل معنى هى الأخرى» (Freud, 1953, Vol. XV, p. 83).

يعد تفسير الأحلام «البوابة الملكية لمعرفة النشاطات اللاشعورية للعقل». ذلك لأن المعنى الحقيقى ـ أو المعانى ـ للحلم لا يتحدد إلا بتحليل الوسائل المعقدة التى تحرف بها رغبات الحلم عن صورتها الحقيقية أثناء الحلم. إن النوم يؤدى إلى تراخى السيطرة على اللاشعور، ويعمل الحلم على تمويه العناصر المكبوتة والممنوعة للاشعور عندما تظهر داخل الحلم. ومن ثم، تراقب الأحلام عن طريق عمليات التكثيف أو التلخيص والإحلال وذلك بمزج عدد من السمات المختلفة فى صورة مركبة، أو بجعل بعض العناصر ذات الأهمية والمغزى العاطفى بلا أى معنى أو مغزى).

وتنهض نظرية فرويد عن الذات (النفس) على افتراض أن يكبت المجتمع بعض الدوافع الفطرية التى تجد فرصة للتعبير عن نفسها فى الأحلام والرموز والأوهام. ويتميز الكائن الإنسانى فى نظر فرويد بوجود «توتر» بين «مبدأ اللذة» (الدافع الجنسى) وبين «مبدأ الواقع» (دافع حب البقاء). ويرتبط مبدأ اللذة بالطاقة الجنسية أو «الليبدو» Libido التى تبحث باستمرار عن سبل إشباعها وينتشر «الليبدو» فى الكائن الإنسانى كله، كما يشتمل الدافع الجنسى على الإحساس الجسدى بالإضافة إلى تهذيب المشاعر كالصداقة والحنان والرفقة. كذلك تتضمن عملية تحويل الدوافع إلى الشكل الاجتماعى (أى مبدأ الواقع) ضرورة كبت الدافع الجنسى الغريزى. وفى كتابه «الحضارة ومشاعر السخط والاستياء» Civilization and its Discontents (١٩٣٠)، جذب فرويد الانتباه إلى الصراع الحتمى بين الثقافة المتحضرة (الصناعة والتكنولوجيا والفن والتعليم) وبين الدوافع اللاعقلانية لإله الحب عند اليونان ـ الدافع الجنسى ـ وغريزة الموت. وتتطلب طبيعة المجتمع الحديث ـ فى نظره ـ ضرورة نبذ كلا

من الغريزتين لصالح النظام الاجتماعي العام، الأمر الذي يترتب عليه انتشار الذنب والمرض العقلي.

وتفترض النظرية السيكولوچية للشخصية عند فرويد بعداً سوسيولوچيا في حدود الميكانيزم الذي من خلاله يستدمج الأفراد القيم والمعايير الثقافية ليصبحوا كائنات اجتماعية. ففي عام ١٩٣٢ نشر فرويد مؤلفه «الأنا والهو» The EGO and the ID، يصف فيه الشخصية الإنسانية كنسق يتضمن ثلاثة مستويات مستقلة ومتصارعة هي الهو: والأنا والأنا الأعلى. أما المستوى الأول (الهو) ID فيختص بأنه غير أخلاقي وغريزي يسيطر عليه مبدأ اللذة، وفيه يعرف الواقع بطريقة نرجسية «محبة للذات» على أنه امتداد للذات. ولكن خلال عملية التوافق مع الواقع، تصبح الشخصية منقسمة إلى «الأنا» Ego و«الأنا الأعلى» Super Ego. أما الأنا أو الذات فهي تعمل في البداية على حماية وبقاء الفرد خلال عملية التوافق مع البيئة. ولكن الأنا في ذاتها لا تستطيع أن تساير احتياجات الثقافة المعقدة، ومن ثم الأنا الأعلى كضمير أخلاقي للشخصية يظل لا شعورياً في جانب منه رغم أنه يوجه أفعال الفرد من داخله.

من هنا، كان اهتمام فرويد موجهًا بصفة أساسية نحو الأنا الأعلى وعلاقتها ببناء الأسرة. فالطفل في بادئ الأمر يتخذ من الوالدين ـ أحدهما بصفة خاصة ـ هدفًا لرغباته الجنسية. وفي هذا الصدد، يذكر فرويد أنه «كقاعدة يفضل الأب ابنته بينما تفضل الأم ابنها، ويستجيب الطفل لهذا برغبته في أن يأخذ مكان أبيه ـ إن كان ابناً ـ أو تأخذ مكان أمها إن كانت ابنة. ويأخذ الإصرار على رغبات الزنا بالمحارم على هذا النحو السابق شكل عقدة أوديب لدى الفتيان أو عقدة الكترا Electra لدى الفتيات. ولكن فرويد كان أكثر اهتماماً بعقدة أوديب، ذلك المصطلح الذي اشتقه من مسرحية اليوناني سوفوكليس «أوديب الملك»، والتي فيها قتل الملك والده وتزوج من أمه دون علم منه بهويتها. إن الهوية الجنسية ليست في نظر فرويد مادة معطاة من الخارج، فالطبيعة الإنسانية هي في الحقيقة ذات طابع خنثوي يجمع ما بين الذكورة والأنوثة، لذا فإن اختيار الموضوع والثبات على هذا الاختيار هو الذي يحدد في نظر فرويد الطابع الجنسي للأفراد. وتمر الطاقة الجنسية أو ما أسماه

فرويد بالليبدو بعدد من المراحل المختلفة خلال نموها : فالمرحلة الذكرية Phal-lic عند الذكور مثلا تبدأ في سن الثالثة بإدراك الطفل واهتمامه بعضوه التناسلي، وهذا يؤدى إلى رغبة طفلية نحو الأم وغيرة نحو الأب. غير أن المشاعر الجنسية نحو الأم (مبدأ اللذة) سرعان ما تدخل في صراع مع سلطة الأب ومشاعر الخوف منه (مبدأ الواقع والخوف من عملية الخصاء) Costra-tion. ويتخلى الطفل بعد ذلك عن رغبته نحو أمه وذلك بتمثل سلطة الأب الذكرية. وفي هذه الطريقة تنمو الأنا الأعلى عن عقدة أوديب، حيث يتكامل التأثير الأبوى القوى وفكرة الذات في بناء الشخصية. أما التعلق الأنثوى بالأب ـ والذى استند تفسير فرويد له على الأسطورة الأغريقية الكترا التى كانت تبحث عن موت أمها ـ فأمر يمكن حله عن طريق قبول عملية الخصاء والتحول تجاه الأب.

هكذا، يرتبط تطور الأنا الأعلى ارتباطًا وثيقًا بمشاعر الذنب التى تعترى الطفل نتيجة رغباته الجنسية ـ أو رغباتها ـ حيال أمه ـ أو أبيها ـ . وتلعب عقدة أوديب دوراً مؤثراً وفعالا في عملية تمثل القيم الأبوية، لذا خلص فرويد إلى أن الذكور يطورون «أنا أعلى» أكثر قوة مما تطوره الإناث. وربما كان ذلك القول يمثل أكثر أفكار فرويد التأملية وضوحًا بالمقارنة بما جاء في مقاله «الطوطم والتابو» Totem and Taboo (١٩١٣) وفي نظريته عن الدين كمرض عصبي عام يصيب الإنسانية والتى نشرها في مستقبل الوهم The Future of Illusion (١٩٢٧). وتمثل عقدة أوديب ـ في نظر فرويد ـ ظاهرة عامة توجد في كل المجتمعات الإنسانية وكل الجماعات الاجتماعية. غير أن علماء الأنثروبولوجيا ـ مثل مالينوفسكى Malinowski في دراسته لجزر التروبرياند في كتابه «الجنس والكبت في مجتمع متوحش» Sex and Repression in savage society (١٩٣٧) ـ خلصوا إلى أن بناء الأسرة يختلف اختلافا كبيراً عن ما تضمنته نظرية عقدة أوديب. حيث لا تورث المكانة ولا الملكية من خلال الأب بل تسير في خط الخئولة، وحيث لا يلعب الأب دوراً في التنشئة الاجتماعية للطفل يماثل في أهميته دور الأب في أسرة الطبقات الوسطى في أوربا.

وعلى أية حال، فإن أهمية فرويد فى النظرية السوسيولوجية لا تعتمد على مصداقية أفكاره شبه الغامضة عن التطور الثقافى - كالصراع بين غريزتى الحياة والموت مثلا - أو مقولاته غير التاريخية، كعقدة أوديب، بل تعتمد أهميته على محاولته تطوير مفهوم للفعل يرتبط بالشخصية، وتأكيده على الطاقة وعلى فكرة الذات الخلاقة. وأكثر من ذلك، فإن الدور الذى تلعبه القوى اللاشعورية واللاعقلانية فى تركيب الذات والمجتمع يوحى باحتمال غياب الانسجام والتجانس بين الفرد والمجتمع. ومع ذلك، تظل علاقة الذات بالنسق الاجتماعى وبالحياة اليومية - متضمنة التأثيرات الأيديولوجية - غائبة تماماً عن نظرية فرويد.

الذات الاجتماعية - ميد والتفاعلية الرمزية:

على الرغم من أن الاتجاه العام الذى سيطر على النظرية الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان يسير نحو تطوير مفهوم الفعل، إلا أننا لا نجد أحداً من كبار علماء الاجتماع الذين أشار إليهم بارسونز فى كتابه «بناء الفعل الاجتماعى» حاول أن يصيغ فكرة واضحة وكافية عن الذات.فلقد عرفت الذات على أنها فاعل غير متجسد يتمثل المعايير وينتج المعانى بالنسبة للنسق السوسيولوجى الأكبر. أما الذات ككائن اجتماعى متميز، وكمصدر للفعل والطاقة، فقد وجدت على نحو ضمنى كمقوم طوعى ضرورى لعلم الاجتماع المناهض للوضعية. لقد عرفت الذات فى ضوء النظم والأيديولوجيات والثقافة، بينما ظلت تعقيداتها المركبة وجوانبها المتعددة وأشكال الفعل والوعى المرتبطة بها أموراً غائبة تماماً. ومما هو جدير بالذكر أن جورج زيمل كان وحده الذى قدم - فى علم الاجتماع الذى ارتكز عنده على التفاعل والروابط الاجتماعية - نظرية ملائمة حول الذات الاجتماعية الإيجابية والفعالة. كما كان وحده، وليس دوركايم أو فيبر أو باريتو، الذى كان له تأثيراً واضحًا على نظرية الذات التى تطورت فى علم النفس الاجتماعى، وعلى السلوكية الاجتماعية عند چورج هربرت ميد G. H. Mead (١٨٦٣ - ١٩٣١):

أمضى ميد جانباً كبيراً من حياته الأكاديمية يتعلم فى جامعة شيكاجو. والحقيقة، لقد تطورت أول مدرسة كبرى فى علم الاجتماع الأمريكى بجامعة شيكاجو عن أعمال روبرت بارك R. Park، الذى درس مع زيمل فى ألمانيا، وأعمال توماس W.I. Thomas وفلوريان زنانيكى Florian Znaneicki وغيرهم ممن عنوا عناية كبيرة بدراسة موضوعات ترتبط بالوحدات الاجتماعية الصغرى بدلا من دراسة الوحدات الكبرى. ولقد كان من أهم هذه الموضوعات التى عنى بها هؤلاء، موضوع التفاعل الاجتماعى فى المدينة وعمليات التحضر والطرق التى يشيد بها الأفراد الواقع... الخ، لهذا، ذهب توماس وزنانيكى إلى أنه «لما كان العنصر الشخصى عاملا هاماً فى تشكيل أى واقعة اجتاعية، لذلك لا يمكن للعلوم الاجتماعية أن تبقى على السطح، بل عليها أن تتعمق الخبرات والاتجاهات الإنسانية الفعلية التى تشكل الواقع الفعلى المعاش والكامن وراء التنظيم الرسمى للنظم الاجتماعية » (Thomas & Zna-nieki, 1927, Vol. 2, p. 1834) ومن الملاحظ أن المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع، والتى تأسست فى شيكاجو، قامت بنشر عدد كبير من مقالات زيمل فيما قبل عام ١٩١٤، كما احتوى أول مرجع فى علم الاجتماع الأمريكى (وهو كتاب بارك وبيرجس الذى نشر فى عام ١٩٢١ بعنوان «مقدمة فى علم الاجتماع» على العديد من الإشارات والإسنادات إلى زيمل أكثر من أى عالم اجتماع أوربى آخر. لقد صادف تأكيد زيمل على أهمية العنصر الذاتى فى الحياة الاجتماعية وعلى الطبيعة المغتربة للمجتمع الحضرى الحديث استجابة كبيرة فى تركيز مدرسة شيكاجو على افتقاد الثقافة الأمريكية لجذور متأصلة عميقة وعلى تزايد انعزلية الأفراد عن المجتمع والجماعات الأولية. وفى هذا الصدد، كتب روك Rock يقول: «وقد يبدو من المعقول أن تعطى الرأسمالية الأمريكية فى أوائل القرن العشرين للفرد أولوية وجودية على سائر المقولات الأخرى. لذلك يمكن أن نقول أن النظريات التى ركزت على الأشكال الأوربية للطبقات كانت نظريات غير ملائمة. لقد أصبحت الذات موضوعًا يثير العديد من المشكلات (Rock, 1979, pp. 95-96). ومع ذلك، لم تتكامل الذات داخل نظرية سوسيولوچية عن المجتمع كنسق : فقد مالت

مدرسة شيكاجو إلى تعريف المجتمع على نحو ذرى. لذا تكاد تكون النظرية الوحيدة المتاحة عن الذات، والتى تصورت الذات بطريقة غير ذرية وباعتبارها تشكل بناءً، هى تلك النظرية التى تطورت عن المدخل النفسى الاجتماعى عند ميد.

كان ميد مقلا فى ما نشره من أعمال خلال حياته، ومع ذلك فاض تأثيره على معاصريه من خلال مجموعة من المحاضرات والمقالات المتفرقة. وبعد وفاته جمعت هذه المحاضرات والمقالات ونشرت على هيئة كتب كان من أهمها: «العقل والذات والمجتمع» Mind, Self, and Society (١٩٣٤)، و«حركات الفكر فى القرن التاسع عشر» Movements of thought in nineteenth century (١٩٣٦) و«فلسفة الفعل» Philosophy of Act (١٩٣٨)، وترجع أهمية ميد إلى أنه استطاع أن يتحرر من الأفكار السلبية والميكانيكية عن الذات والشعور، تلك الأفكار التى هيمنت على علم النفس وعلم الاجتماع الأمريكى فى البدايات الأولى من القرن العشرين. حاول ميد أن يبحث فى نشأة الذات فى ضوء خبراتها وتجاربها الاجتماعية العملية (مظاهرها الخارجية) وأيضاً فى ضوء خبرتها كوعى أو شعور (مظاهرها الداخلية). وفى هذا الصدد، تأثر ميد فكرياً بالعديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية كان من أهمها الفلسفة البراجماتية عند جون ديوى John Dewey ووليام جيمس William James، والتطورية الداروينية والمثالية الألمانية، ورومانسية القرن التاسع عشر إلى جانب علم الاجتماع الذى طوره شارلز كولى Charles Cooley. من هنا ذهب ميد إلى أنه على الرغم من أن الذات تنطوى على جانب بيولوجى لأنها تعتمد فى تطورها على الجهاز العصبى المركزى، إلا أنه من خلال توافقه مع بيئته وسعيه الدائب للسيطرة عليها يستطيع الكائن العضوى الإنسانى أن يوحد نفسه كذات. ولقد سبق للمثالية الألمانية عند هيجل وللاتجاه الرومانطيقى أن أكدا معًا على أهمية الذات فى بناء الثقافة وتطورها، إلا أنهما فشلا فى أن يجدا للذات مكاناً مادياً فى الخبرة والتجارب اليومية للإنسانية. وكان هذا الفشل هو ما انتقده ميد فى فكرة شارلز كولى عن الذات.

رفض شارلز كولى (١٨٦٤ ـ ١٩٢٩) ثنائية الفرد والمجتمع، وذهب

إلى أن كلا منهما يشكل المظاهر «المجمعة» و«المفرقة» لنفس الظواهر. فالذات تنشأ عن عملية الاتصال بالآخرين وبالمجتمع ككل. إذ من الصعب أن توجد «الأنا» I بدون «الأنت» You ، كما يصعب أن يوحد «الهو» He دون وجود «الهم» They ، ولقد كانت فكرة مرآة الذات Looking glass self من أشهر ما أسهم به كولى فى هذا الصدد. حيث يرى أن مرآة الذات تتكون من تخيل مظهرنا للأفراد الآخرين، وتخيل أحكامهم على هذا المظهر، إلى جانب قدر من الشعور بالذات مثل «الشعور بالكبرياء أو الخزى» . ومع ذلك يتأسس المجتمع فى تخيلات الأفراد عن بعضهم البعض. (Cooley, 1902, pp. 184, 212) . وهكذا نجد أن كولى بتعريفه للذات فى ضوء الأفكار التى تدور بخلد الآخرين عنها، كان قد انزلق فى الاتجاه العقلى، ليعرف المجتمع من وجهة نظر سيكولوچية على أنه «كل سيكولوچى» . وفى هذا الصدد، كتب ميد فى تعليقه على إسهام كولى فى النظرية الاجتماعية الأمريكية يقول:

«لقد كان منهجه منهجًا استبطانيًا يعترف بالعقل كمحل أو مكان للذوات التى تؤثر فى بعضها البعض، أما المشكلة المنهجية التى ارتبطت بعملية تجسيم الفعل فقد طرحها جانباً باعتبارها مسألة ميتافيزيقية... غير أنه أثناء عملية الاتصال يبدو هناك عالم اجتماعى من الذوات يقف على نفس المستوى من الحقيقة المباشرة تمامًا كالعالم الفيزيقى الذى يحيط بنا، وبعيداً عن هذا العالم الاجتماعى وخارجًا عنه تنبثق الخبرة الداخلية التى نصفها بأنها «نفسية» ... ذلك لأن العقل ليس محلا أو مكانًا للمجتمع... على الرغم من أن ما يحدث على الصعيد الداخلى من خبرتنا هو أمر جوهرى وأساسى فى عملية الاتصال الهادف» . (Mead, 1964, pp. 304-305)

إن كلا من الذات والعقل - فى نظر ميد - مخلوقات اجتماعية للحياة اليومية. فالمجتمع الإنسانى كما نعرفه لا يمكن أن يوجد بدون عقول أو ذوات، طالما أن أغلب خصائصه المميزة تفترض امتلاك أعضائه لعقول وذوات» (Mead, 1934, o. 227) . وتستطيع الإنسانية من خلال العقل والذات أن يكون لها القدرة على التأمل والاستدلال والتبصر. لذلك عنى ميد عناية خاصة بتحليل عناصر الذات، مركزاً على عنصرين أساسيين هما ما لها من طابع انعكاسى Reflexive ثم ما لها من قدرة على تطوير الأشكال الرمزية للاتصال.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الذات لا توجد إلا فى علاقة مع جماعات اجتماعية لأن الفرد نفسه ينتمى إلى بناء اجتماعى وإلى نظام اجتماعى عام (Mead, 1934, pp. 1-7). لذلك، كان العقل والذات، وكان الوعى والفعل ظواهر جمعية، وليست فردية، تشتمل على أدوار وعلاقات ونظم اجتماعية.

ولقد عنى ميد عناية خاصة بتحليل أنماط التفاعل، أى تلك الأفعال الاجتماعية التى تشكل أساس المجتمع الإنسانى. إن الواقع لا يمثل فى نظره معطيات ثابتة، بل يتغير باستمرار كلما طور الفاعلون ـ الذوات ـ أدواراً ومعانى جديد، وطالما كانوا يحددون مواقفهم بطرق عديدة ومتنوعة تكون كلها حقيقية بالنسبة لهم. ويتحقق الاتصال عن طريق «الإيماءات الهادفة وذات المغزى» Significant gestures أو الأفعال ذات الوعى الذاتى التى تميز الفعل الإنسانى عن السلوك غير الإنسانى. إن ما يقوم به الطلاب مثلا من أفعال عند عراكهم مع بعضهم البعض تتكون مما أسماه ميد «حوار الإيماءات» Conver-sation of gestures وليست الإيماءات الهادفة، ذلك لأن الحيوانات تستجيب وتتكيف للمواقف بطريقة غريزية، وتحمل الإيماءات الهادفة بالعديد من المعانى لأنها تشتمل على أفكار تم تواصلها من خلال نسق من رموز عامة كاللغة. وبهذه الطريقة وحدها تفسر الكائنات الإنسانية أفعال الآخرين. وفى هذا الصدد، يؤكد ميد على أن قدرة الأفراد على التواصل من خلال الإيماءات الصوتية واللفظية ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتطور المجتمع الذى أصبح فيه النشاط التعاونى معياراً وقاعدة. ومن ثم تعرف الأفعال الاجتماعية كأفعال تتضمن تعاون أكثر من شخص واحد داخل إطار الجماعة.

الذات إذن هى الفرد، ولكن من خلال علاقاته التبادلية بالآخرين وبالمجتمع. والذات هى فاعل Object ومفعول Subject، فالأنا (I) هى الذات التى تفكر وتعمل أى الأنا الفاعل. أما الأنا المفعول (Me) فهى وعى الفرد بذاته كموضوع فى العالم الخارجى للأفراد. وجدير بالذكر أن فكرة ميد عن الأنا الفاعلة (I) فكرة بيولوجية واجتماعية، فهى تركيب من دوافع عضوية وخبرات اجتماعية. لذلك فهى لا تنفصل بسهولة عن الأنا المفعول أو الذات الخارجية. وهنا يؤكد ميد على دور اللغة فى تكوين الذات. ومع ذلك فإن

تأكيده هذا يوحى بأن الأنا المفعول أو الذات الخارجية ينبثق عن الأفعال الكلامية الحوارية، أى تنبثق عن الحديث والكلام، أى أنها فيض داخلى للحديث. وليس هناك بالطبع حديث بالإيماءات بين الأنا الفاعلة (I) والأنا المفعول (Me) أو بين الذات الداخلية والذات الخارجية، بل فقط من خلال الاتصال الحوارى يتطور الوعى بالذات. يقول:

«إن الأنا الفاعلة (I) أو الذات الداخلية هى استجابة الكائن العضوى لاتجاهات الآخرين ومواقفهم، بينما تكون الأنا المفعول Me أو الذات الخارجية مجموعة منظمة من اتجاهات الآخرين ومواقفهم كما يتصورها الفرد نفسه. إن اتجاهات الآخرين ومواقفهم تشكل «الأنا المفعول» أو الذات الخارجية المنظمة، وبالتالى يتفاعل الفرد حيالها كذات داخلية (I) أو «أنا الفاعل» (Mead, 1934).

توجد الذات إذن عندما تتفاعل مع ذاتها ومع الذوات الأخرى فى المجتمع. أى أنها تظهر من خلال قدرتها على اتخاذ موقف الجماعة التى ينتمى إليها الفرد، وعلى تمثل العادات الاجتماعية للجماعة والاتجاهات المشتركة للمجتمع (Mead, 1964, pp. 33-34). غير أن الفرد لا يأخذ اتجاهات الآخرين ومواقفهم نحوه ببساطة، بل يحاول أن يعمل على تكامل العملية الاجتماعية الكلية فى خبرة فردية. ومن ثم، تنتظم الذات فى النهاية فى وحدة واحدة عن طريق «الآخر المعمم» Generalized other.

لذلك، عندما تأخذ الفتاة الشابة دور الأم، فتخاطب نفسها وتسلك حيال ذاتها فتفعل ما تعتقد أن الأمهات يفعلونه، تكون قد نجحت فى الكشف عن ذاتها بتبنى دور «الآخر المهم» Significant Other. فالطفولة فى نظر ميد، كما هى فى نظر فرويد، تشكل أولى مراحل تكوين الذات. أما المرحلة الثانية فيصفها ميد «كمباراة» (تتميز عن «لعبة» المرحلة الأولى حيث تكون الأدوار الفردية مستدمجة) فيها يتخذ الطفل دوراً جمعياً يتمثل فى «الآخر المعمم» أى الجماعة المنظمة. ويوضح ميد هذه العملية بالاستشهاد بفريق الباسبول، حيث يتعين على اللاعب الفرد أن يضع فى اعتباره دور الفريق ككل، وبناءه

كفريق، أو ككل واحد متضمن دائماً فى فعله الفردى. وهناك أمثلة أخرى، كما يقول ميد، تدلل على هذه العملية كالأسرة والتعليم والأحزاب السياسية والاتحادات العمالية... الخ.

وعلى أية حال، تمثل نظرية ميد فى الذات تقدماً ملحوظاً عن ما سبقه من تحليلات سوسيولوجية للفاعل: فالفعل والذات بناءات ترتبط بالبناء الاجتماعى، ومع ذلك فهى تتميز بالطابع الإبداعى والانعكاسى. غير أنه ما إن أصبحت أعمال ميد معروفة على نطاق واسع خلال فترة الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن، حتى تبناها المنظرون الاجتماعيون الذين مالوا إلى تأكيد الطابع السلبى للأدوار ليقضوا على الخصائص الإيجابية والفعالة للذات. فالأنا المفعول (Me) أو الذات الخارجية هى التى تسيطر على الأنا الفاعل (I) أو الذات الداخلية لصالح النسق الاجتماعى والنظام العام. ومع ذلك هناك معنى معين جعل أعمال ميد تميل فى هذا الاتجاه: فمن خلال تأكيده على المجتمع المحلى الجمعى كوحدة، وعلى بناء القيم المشتركة، اقتربت نظرية ميد عن الذات من وجهة النظر المحافظة. ولم يكن فى كتاباته على وعى بالطابع القهرى للثقافة ـ الآخر المعمم ـ ولا بالصراع المحتمل بين الجانب الطوعى والإبداعى للذات والطابع الجمعى الممثل للمجتمع الصناعى الحديث. إن المفاهيم الأساسية عند ميد تتصور أن هناك محوراً مشتركاً وعاماً للقيم التى تظهر من داخل المجتمع والثقافة المشتركة بطريقة ذاتية. ولاشك فى أن هذا الشعور والإحساس بالمجتمع المحلى كان قوياً بالدرجة التى تغافل معها عن إمكانية ظهور قيم متصارعة وبديلة.

ومع ذلك، كان تأكيد ميد على الطابع الإبداعى للذات يشكل تصحيحاً هاماً للأفكار الميكانيكية والمجسمة حول الذات والمجتمع. ذلك أن مقولة المعنى على وجه الخصوص، وضعت داخل الرموز المشتركة للجماعات الاجتماعية وأنماط تفاعلها. ولقد طور بعض منظرى التفاعلية الرمزية كثيراً من أفكار ميد التى عنيت بتوضيح دور الإيماءات والحديث فى تكوين بناء المجتمع الإنسانى. هذا فى الوقت الذى تعارضت فيه النزعة الطوعية لدى ميد واهتمامه بالطابع الحوارى للحياة اليومية مع التصورات والمفاهيم الأساسية لدى الوظيفية البنائية

لذلك جاء هربرت بلومر Herbert Blumer ليؤكد أن المعنى ليس خاصية متأصلة في الموضوع، بل يبنى فقط من خلال تفاعلات أعضاء الجماعة. والحقيقة، كانت فكرة أن المعنى أمر يتحدد بين الذوات، هي ما يربط التفاعلية الرمزية، في شكلها الذى تطور عند ميد وفى أشكالها المتطورة بعد ميد، بالاتجاه الفينومونولوجى (الظاهراتى) فى علم الاجتماع.

الاتجاه الفينومونولوچى ـ شوتز وواقع الحياة اليومية:

يحتل ألفرد شوتز Alfred Schutz (١٨٩٩ ـ ١٩٥٩) فى التطور التاريخى للنظرية السوسيولوچية الطوعية للفعل مكانة هامة لا تقل عن مكانة فرويد وميد. فشأنه شأن ميد، أكد شوتز على الدور الإيجابى الفعال للذات، وذهب إلى أن الواقع الاجتماعى عملية يعاد بنائها باستمرار خلال الأفعال اليومية للأفراد. تابع شوتز فيبر فى رفضه للمنهج الوضعى لاكتشاف الحياة الاجتماعية والثقافية، وذهب إلى أن موضوع علم الاجتماع هو الأفعال ذات المعنى التى تقوم بها الذوات الإنسانية.

نشر شوتز أول كتاب له بعنوان «فينومونولوچية العالم الاجتماعى» The Phenomonology of the Social World فى ألمانيا سنة ١٩٣٢، ثم ترجم الكتاب إلى الإنجليزية فى عام ١٩٦٧. فى هذا الكتاب حدد شوتز معالم المدخل الفينومونولجى (الظاهراتى) لدراسة المجتمع. وقد تأثر فى هذا المجال بالفلسفة الفينومونولوچية عند إدموند هوسرل Edmond Husserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨)، والذى عنى أساساً ببناء الوعى وعلاقة الذاتية بالمنهج العلمى. وفى كتاباته العديدة طرح هوسرل قضية أن لكل العلوم أسسها فى عالم ما قبل المنهج العلمى. فالحقيقة والواقع فى نظره أمور مقصودة أو متعمدة بمعنى أن الذات الإنسانية هى التى توجه وعيها وشعورها نحو الأشياء والموضوعات، كما أن الخبرة دائماً ما تحمل الطابع العمدى المقصود. ومن ثم فإن كل أشكال الوعى والشعور تنطوى بالضرورة على وعى بالأشياء والموضوعات. ومن خلال النشاط الذى يقوم به الوعى والشعور تكتسب الموضوعات والأشياء ما لها من بناء ومعنى. ويترتب على ذلك أن معنى الشيء أو الموضوع لا يكون خاصية

لازمة له بذاته، بل يستقر فى الحياة الداخلية للذات. غير أن عالم الحياة بالنسبة للذات ـ أى الوعى والشعور ـ يتركب هو الآخر من خبرات عديدة ومتراكمة ومن افتراضات وقضايا متنوعة تحول دون تحقق عملية الفهم. من هنا أعلن هوسرل الاختزال الفينومونولوچى والذى من خلاله يتخلى الوعى والشعور عن كل الأفكار المرتبطة بالعالم الخارجى وما يحتويه من أشياء وموضوعات، ليصبح وعيًا خالصاً وشعوراً بحتاً. وبهذه الطريقة يدع الباحث المجتمع والثقافة والتاريخ جانبًا، أى يضعهم بين قوسين Bracketed a way، لتصبح المعرفة نتاجًا «لعمدية» أو «قصدية» الوعى الخالص.

ويطلق هوسرل على هذا الإجراء اسم «تعليق الحكم» Epoche، أى إبطال الاعتقاد بموضوعات الخبرة، بحيث لا يتبقى فى النهاية إلا «الذات المتسامية» Transcendent Ego، أو الوعى الخالص الحر لكى يكتشف معناه الحقيقى أو جوهره. ويصف شوتز هذا الإجراء تعليقًا على هوسرل فيقول: «يعمل المدخل الاختزالى الفينومونولوچى المتسامى Transcendental Pheno-monological Reduction عند هوسرل على تجريد العالم، الذى كان يفترض فى السابق أنه موجود، من هذا الوجود المزعوم بحيث لا يفهم من هذا «التعليق» إلا الحياة الخالصة للوعى، والتى من خلالها يكون العالم الخارجى ككل موجوداً بالنسبة لى وحدى... أى أتخلى وأمتنع عن الاعتقاد بوجود هذا العالم لأوجه نظرى كله إلى وعيى بهذا العالم. (Schutz, 1978, p. 124) .

ويعنى تعليق شوتز على المدخل الاختزالى الفينومونولوچى من وجهة النظر السوسيولوچية ضرورة أن «نعلق» (أو نضع بين قوسين) كل القضايا والافتراضات العلمية التى طرحت حول العالم التاريخى والاجتماعى. إذ يتعين على علم الاجتماع فى نظره أن يبدأ مهمته فى التحليل والفهم، لا من خلال تصور العالم الخارجى القابع هناك، بل من خلال أفعال الذوات ووعيها فى محاولتها لتشييد وإضفاء معنى ما عليه. لذلك، فإن «المعنى» لا ينتظر وبطريقة سلبية أن يكتشف، بل إنه ـ أى المعنى ـ يتطلب عملية إيجابية للبناء والتأويل.

ويعرف شوتز «عالم الحياة» Life-world بأنه فيض مستمر من الفعل والخبرة، بحيث لا يفكر الفاعل فى هذه العملية إلا نادراً. وهكذا نجد أنه فى

الوقت الذى حاول فيه هوسرل أن ينقى الوعى من كل العناصر الأمبريقية. نجد شوتز يبدأ من هذه التجارب والخبرات، أى من دنيا الحياة اليومية، ومن الأفعال الاجتماعية المألوفة للأفراد العاديين. إن العلم الاجتماعى يبدأ ـ على حد تعبيره ـ من الطبيعة المسلم ببداهتها والواضحة بذاتها للعالم الاجتماعى والتى تعتبر خاصية مميزة لأولئك الأفراد الذين يبقون داخل «الموقف الطبيعى»، والمقصود بالموقف الطبيعى هو الموقف الذى يتقبل واقع الحياة اليومية ويتشكك فى كل شىء سواها. ولكى يتفهم العالم الاجتماعى هذا العالم المألوف، عليه أن يفسر الطرق التى بواسطتها يحدد الأفراد، ثم يفكرون مليًا، فى مواقفهم وأفعالهم (مقاصد وأهداف الفاعلين)، إلى جانب بحث بناء هذه المواقف والأفعال.

كذلك يعرف شوتز عالم الحياة اليومية بأنه عالم مابين الذوات الإنسانية: فالعالم ليس حكراً على أحد، بل هو قسمة مشتركة بين الآخرين، إنه جمع من الفاعلين بينهم تفاعل مستمر، حتى أن وجودهم يؤثر على تطور ذواتهم. لذلك، يصبح الواقع الاجتماعى حاصل جمع كل الأشياء ومجريات الأمور التى تحدث داخل العالم الاجتماعى. غير أن هذا العالم له بناؤه الخاص، فهو ليس عالماً ذرياً، بل ينبنى حول علاقات اجتماعية تستوعب العديد من أنماط الاتصال. ويتعين على كل فرد أن يحس وأن يعطى لأفعال الآخرين معنى ما، وذلك بأن يتعلم أن يفسر ماذا يكون عليه الفعل وماذا يدور حوله. ولا يتأتى ذلك إلا بتوافر قسط وافر من المعرفة والفهم المتداول والمشترك بين الجميع، وقدر من تكوينات هادفة وذات مغزى «كالنماذج المثالية» أو «التنميطات». وفى هذا الصدد يميز شوتز بين تنميطات المستوى أو النظام الأول (مثال ذلك عملية إرسال خطاب عن طريق البريد، فهى تفترض معرفة بالأنماط الخاصة والنوعية التى تتضمنها أفعال موظف البريد والمسئول عن تصنيف الخطابات وأفعال من يقوم بتوزيعها... الخ). وبين تنميطات المستوى أو النظام الثانى والتى يستخدمها عالم الاجتماع لتحليل الواقع الذى أعيد بناؤه من جديد.

ويرتكز مخزون المعرفة والفهم المطلوبين، على التجربة والخبرة الفردية، والتى تصبح على مرّ الزمن أكثر رسوخًا وتحجراً داخل ثقافة عالم الحياة، وتتواصل من خلال اللغة طالما أن جزءاً صغيراً من مجموع هذه المعرفة هو ما

يمكن أن يوجد فى وعى الذات الفردية. إن مخزون معرفة الفاعل ببساطة تؤخذ كأمور مسلم بها لأنها ذات طابع عملى يرتبط بالكيفية التى يعمل بها العالم .لذلك يتميز عالم الحياة اليومية ببنائه الخاص الذى يتماسك وإلى درجة كبيرة حول أفكار معرفة «كتب الطبخ» أو معرفة «الوصفات والإجراءات» والتى يختزل فيها الفعل إلى عادات أوتوماتيكية آلية لأمور تافهة غير ذات قيمة (Schutz, 1972, pp. 142-143) . أما المعرفة كما يتصورها شوتز فهى معرفة «المصالح» ذات الطابع العملى دائمًا، التى ترتبط فيما بينها وبين ما يسميه «مشروع» Project الفرد.لذلك يبنى عالم الحياة فى مناطق سيطرة أو «مجالات للملاءمة» ترتبط بروابط جماعية معينة (كالزواج، ومشروع الأعمال، والنادى) . أما عملية الحياة فتتركب من هذه الأنساق المتغيرة من الملاءمة بالنسبة للأفراد، ذلك أنه عند تنفيذ مشروعه يرتبط الفاعل بالضرورة بنسق من الملاءمة الوثيقة الصلة بالمشروع. بهذه العملية يتمكن الفرد من الاختيار والتفسير. فكل الحقائق منذ البداية حقائق تم اختيارها من سياق عام عن طريق نشاطات عقولنا. لذلك فإن الفرد يبنى عالم الحياة من خلال الوعى: أما مخزون المعرفة والتنميط والملاءمة فتشكل فى مجموعها مقولات من خلالها ينظم الوعى عالم الواقع. وتتشابه صياغة شوتز السابقة مع تحليل كانط لمبدأ السببية، حيث يمثل الزمان والمكان مقولتين فطريتين للعقل ينظمان المادة الخارجية وليستا عنصرين متأصلين فى الشىء أو الموضوع،.

ويؤكد وصف شوتز لعالم الحياة على أهمية المعانى المشتركة، أى يؤكد على فكرة أن العالم هو عالمنا نحن، أى ملك لنا، وليس عالمى أنا، أى ملك لى. فهو ـ أى العالم ـ مجتمع لغوى يوجد من خلال الرموز المشتركة والمتبادلة. وفى هذا الصدد يقول شوتز:

«إن عالمنا اليوم، ومنذ البداية، عالم ثقافة بين الذوات: هو عالم بين ذوات لأننا نعيش فيه كأفراد مع آخرين، نرتبط معهم عن طريق عمل وتأثير مشترك، نفهم الآخرين ونكون موضوعاً لفهم الآخرين، وهو عالم ثقافة لأنه منذ البداية عالم لمعانينا، أو إطار للمعنى الذى يجب أن نفسره، وإطار للعلاقات المتبادلة بين المعانى التى نكونها فقط من خلال أفعالنا فى هذا العالم. وهو أيضًا عالم ثقافة

لأننا نكون دائماً واعين بتاريخيته التي نواجه بها في مجريات التقليد وعادات الأمور... فالأفراد الذين ارتبط معهم في علاقة هم أقاربي وأصدقائي أو الغرباء عني. واللغة ليست هيكلا من اعتبارات فلسفية أو نحوية بالنسبة لي، بل هي وسائل للتعبير عن مقاصدي وفهمي لمقاصد الآخرين. كما أن علاقتي بالاخرين لا تكتسب ما لها من معنى إلا بالرجوع إليّ. ولذلك يشار إلى هذه العلاقة بالمصطلح «نحن» (Schutz, 1978, pp. 134-135) .

على هذا النحو، تشكل علاقات «النحنية» في نظر شوتز البناء الأساسي للحياة اليومية، لذلك تعتمد عليها، وترتبط بها، كل العلاقات الأخرى. ذلك أن العالم الاجتماعي يتمركز في نظر شوتز حول الفرد، ويتكون من نسيج العلاقات التي تندرج بدءاً بالعلاقات الشخصية والمباشرة والمنفردة (كالعلاقة الموحدة، كعلاقات الأسرة وعلاقات الصداقة) وانتهاءً بالعلاقات غير المباشرة والأكثر استقلالية (كعلاقاتنا بالمعاصرين لنا والسابقين علينا واللاحقين لنا). أما معرفتنا بالمعاصرين لنا فهي معرفة استدلالية استنتاجية منطقية استطرادية تستند على خصائص نمطية وليست منفردة. وعلى العكس من ذلك تشتمل العلاقات النحنية الخالصة على وعي كل منا بحضور الآخر، وعلى معرفة كل منا بوعي الآخرين به. (Schutz, 1972, pp. 142-3) .

يكون المجتمع إذن، في نظر شوتز، بناءً من وقائع متعددة تترابط حول مجالات مختلفة من الملاءمة في المصالح والعلاقات... الخ. فهو ــ أي المجتمع ــ ليس عالمًا للأشياء، بل عالم كونته أو ركبته الذات الفاعلة. ويفتقر العالم الاجتماعي عند شوتز إلى مركز ثابت يختلف عن تلك الفكرة الغامضة عن النظام العام. إنه عالم أخذ معناه الاجتماعي عن طريق اللغة والقواعد والأدوار والمكانات، ولكنه عالم ثابت ومستقر ومتثل. يقول شوتز:

«ولكي أجد مكانتي داخل الجماعة الاجتماعية، على أن أعرف الطرق المختلفة للملبس والسلوك والرموز والأدوات... الخ التي تعتبر في نظر الجماعة مؤشرات للمكانة الاجتماعية ومن ثم تفضل اجتماعيًا على أنها أمور ملائمة» . (Schutz, 1962-6, Vol. 1, p. 350)

ومن هنا، ليس العالم الاجتماعى نسقًا موضوعيًا أو بناءً خارجيًا، بل هو عالم يفيض من المخزون المشترك للمعرفة ومن التصورات العامة والمشتركة بين الجماعات والمجتمعات المختلفة. ومع ذلك يظل شوتز محتفظًا بفكرة أن المعنى يمثل جزءًا متكاملا من عملية التفاعل، وعند هذا الحد يكون علم الاجتماع عنده علمًا موضوعيًا، إذ لا يكون للفعل أو الوعى أى معنى إلا بالنسبة للبناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية.

ومع ذلك، أصبحت الموضوعية تمثل ـ وبتزايد ـ مشكلة كبيرة فى تطور الاتجاه الفينومونولوجى والتفاعلية الرمزية بعد ذلك. يتضح ذلك بصفة خاصة فى الاتجاه الأثنوميثودولوجى Ethnomethodology (أو ما يعرف بالمنهجية الشعوبية) الذى شارك الاتجاه الفينومونولوجى فى اهتمامه بالوجود الروتينى المألوف كموضوع للدراسة إلى جانب اهتمامه بالطابع الذاتى المتبادل للمعنى. لقد تطور الاتجاه الإثنومينودولوجى فى البداية على يد هارولد جارفينكل Harold Garfinkel فى فترة الستينيات، ويتركب المصطلح من مقطعين «الإثنو» Ethno، وتشير عنده إلى مخزون المعرفة المشتركة والشائعة الملائمة للأفراد، و«ميثود» Method، أى الاستراتيجيات التى بها تضفى الذات الفاعلة معنى ما على العالم الاجتماعى والوسائل التى بها يتم تواصل المعنى. وبوجه عام يركز هذا الاتجاه على «الأفعال العملية كإنجازات مستمرة ومحتملة لما تقوم به الحياة اليومية من ممارسات بارعة ومنظمة». (Garfinkel, 1967, p. 11) ومن ثم تحاول الإثنوميثودولوجية أن تكشف عن القواعد الكامنة والمتضمنة فى الحياة اليومية وعن ما لها من طبيعة مخططة. إن عالم الحياة اليومية يتكون فى نظر جارفينكل من أفعال اجتماعية انعكاسية تجسد تنوعًا من المعانى التى تعتمد على سياق خاص. ويستخدم جارفينكل مفهوم «التكشيف» Indexicality للإشارة إلى ما للمعنى من طبيعة مرتبطة بالسياق، إذ ليس هناك معنى موضوعى فى نظره. ويستطيع الأفراد العاديون عن طريق تركيب المعنى أن ينشأوا

علم اجتماع، وهذا يعنى ـ على حد تعبير جارفينكل ـ أن لا يكون هناك فرصة للاختيار بين علم الاجتماع الذى ينشغل به مهنيون متخصصون، وبين علم الاجتماع الذى يقدمه عامة الناس. فالعلم الاجتماعى فى نظره ليس إلا إنجازاً عملياً.

من هذا المنطلق، لن يكون هناك أمل يرجى من علم اجتماع يتأسس على العلاقة المعقدة بين الذات والمجتمع أو بين الفرد والبناء. ومن هذا المنطلق أيضاً، يكون الاتجاه الإثنوميثودولوچى بمثابة آخر محاولة لجعل علم الاجتماع الطوعى تافهاً بلا أى مغزى أو هدف: فالبناء الاجتماعى والثقافة والأيديولوچية كلها أمور تحلل إلى علاقات ذرية بين الأفراد، ذات بناءات متحررة المعنى. كما أن عالم الحياة اليومية ليس إلا نسقاً يوفق ما بين المجتمع والثقافة والفعل. زد على ذلك أن المعنى يبنى ويعطى بالنسبة إلى موقف خاص، وأيضاً بالنسبة للكل الاجتماعى الأكبر. وفى الفصل القادم سنعرض للنظرية الاجتماعية الشمولية ممثلة فى النظرية البنائية كمثال للنظرية السوسيولوچية التى ترفض فكرة الذات الفعالة المشيدة للمعنى.

الفصل السادس

التفاعلية الرمزية : منظور مغاير

تمهيد

اولا : أسس التفاعلية الرمزية عند جورج ميد

(١) الطبيعة المميزة للكائنات الانسانية

(٢) الدراسة العلمية للعقل

ثانيـا : التفاعلية الرمزية ونقد تحليل المتغيرات عند بلومر

ثالثـا : اسهام مدرسة هيوجية فى تطوير التفاعلية الرمزية

(١) التركيز على المهن

(٢) التعميمات الشكلية

(٣) الاهتمام بالجماعات المهضومة

(٤) اظهار العقلانية

(٥) تحديد الموقف

(٦) الأخذ بوجهة نظر الفاعل

(٧) تفضيل المناهج الكيفية

رابعـا : قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع فى نظر التفاعلية الرمزية

(١) المجتمع باعتباره نظاما للتفاوض فى نظر شتروس

(٢) الذات والمجتمع فى نظر جوفمان

(٣) التنشئة الاجتماعية عملية فعالة عند بيكر

التفاعلية الرمزية

Symbolic Interactionalism

تمهيد

يمكن القول أن التفاعلية الرمزية لا تمثل منظورا موحدا ، بمعنى أنها لا تمثل مجموعة مشتركة من الافتراضات والمفهومات يقبلها أولئك الذين طبقوا هذا المدخل . فالكثير ممن نعتبرهم علماء يمثلون التفاعلية الرمزية قد قبلوا على مضض هذه التسمية ، وفضلوا أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم مجموعة من الباحثين المستقلين أكثر منهم مؤيدون لمنظور محدد . وعلى أية حال . بالامكان أن نتعرف لأغراض دراستنا لنظرية على الاجتماع ، على عدد من الخصائص التى تجعل لهذا المدخل كيانا متميزا .

وعلى الرغم من أننا قد نتعرف على بعض أوجه التماثل بين التفاعلية الرمزية والتراث فى علم الاجتماع الذى ينحدر إلى ماكس فيبر ، والذى يعرف الآن تحت اسم نظرية « الفعل » Action Theory الا أن التفاعلية الرمزية تعد نتاجا امريكيا ، وكان موقعها التنظيمى لفترة طويلة يتركز فى جامعة شيكاغو ، حيث استطاع جورج هربرت ميد Mead (١٨٦٣ — ١٩٢١) فى محاضراته التى ألقاها فى الجامعة على طول الفترة من ١٨٩٤ — ١٩٣١ أن يبلور على نحو متقن الأفكار الأساسية لهذا المدخل .

وتمكن هربرت بلومر H. Blumer أحد تلامذة ميد فى شيكاغو فى سلسلة مقالات كتبها على سنوات عديدة ، من توضيح كيف أن تعاليم ميد كانت ذات صلة وثيقة بعلم الاجتماع . ولقد تمكن ايفرت هيوجيه E. Hughes وزملاؤه وعلى طول فترة طويلة بدأت عام ١٩٣٠ أن يعطى لهذه الأفكار دلالتها ومغزاها الأمبيريقى وعلى الرغم من أن الأفكار الأساسية للتفاعلية الرمزية ترد إلى بداية القرن ، الا أنها ظلت صالحة لأنها تمكنت من القيام بمهمة تقديم تقليد (اتجاه)

يخالف الاتجاهات السائدة فى علم الاجتماع الأمريكى ، برغم أنه ضئيل الحجم[1] .

أولا ـــ أسس التفاعلية الرمزية عند جورج هربرت ميد

George H.Mead, The Bases of Symbolic Interactionalism

السمات المتميزة للكائنات الانسانية

يقوم مدخل ميد على افتراض أساسى مؤداه أنه يوجد هناك اختلاف بين الاستجابات الحيوانية وبين السلوك الانسانى ، ويتطلب السلوك كما يفهمه ميد تملك العقل ، ولهذا كان تملك العقل أحد السمات المميزة للأنواع الانسانية . وأكثر من هذا يقرر ميد أن الانسان يتميز بأن له ذات Self ، وهو المخلوق القادر على أن يكون ذات وموضوع فى وقت واحد . بمعنى أنه بامكان الانسان أن يمر بالخبرة ويدرك أو يعى هذه الخبرة . ويسيطر على حياة معظم الأنواع الحيوانية ، فى نظر ميد ، علاقة المنبه والاستجابة . وهذه العلاقة تنطوى على ارتباط آلى بين ظروف السلوك والسلوك ذاته . فعندما يحدث شىء يستجيب له الحيوان بطريقة آلية وثابتة ، بينما لا ينطوى السلوك الانسانى على هذا النوع من الارتباط الثابت بين الفعل والظرف فهناك درجة كبيرة من « المرونة » Flexibility وقد يتصرف الانسان فى مجموعة ظروف بطريقة واحدة فى وقت واحد ، وبطريقة مختلفة كلية فى وقت آخر ، وبطريقة متباينة مرة ثالثة فى فرصة ثالثة . ولا ترتبط الكائنات الانسانية بعلاقة المنبه والاستجابة ، اذ يمكن لهم أن يخططوا لسلوكهم فى ضوء توقعاتهم بالكيفية التى ستحدث بها الأمور . ويمكن أن يدركوا بعد حدوث أحد الظروف كيف أن أفعالهم التى شرعوا فيها باءت بالفشل وبامكانهم أن يراجعوا توقعاتهم وممارساتهم فى المستقبل فى ضوء ما كانوا قد تعلموه من هذه الخبرة الماضية . واذا كان بامكان الكائنات الانسانية أن تتوقع المستقبل ، وأن تخطط لأفعالها وأن تبنى على

---

(١) E.C.Cuff & G.C. Payne, Perspectives in Sociology, op.cit. p. 89.

السلوك الماضى فينبغى أن تكون قادرة على أن تنعكس على ذواتها وأن تنظر إليها بنفس الطريقة التى تنظر بها إلى أى موضوع آخر ، ولا ينبغى عليهم أن يدركوا الأشياء الأخرى (بما فى ذلك الأشخاص الآخرين) والتى تشكل بيئتهم فقط ، وانما عليهم أيضا أن يتمكنوا من بعض الادراك لذواتهم كأشياء فى نفس بيئتهم . وتعد هذه المقدرة على الوعى الذاتى Self-consciousness أو القدرة على النظر إلى ذواتهم بمثابة سمة بارزة مميزة للكائنات الانسانية فى تصور ميد . ويعتمد الوعى الذاتى فى نظره على مقدرة الكائن الانسانى الفرد على أن يكون نفس الاتجاه عن نفسه كما يأخذ به الآخرون نحوه ، فهو يعتبر من وجهة نظر الناس الآخرين موضوعا فى بيئتهم . ويعنى النظر إلى الذات كموضوع النظر إلى أنفسنا كما يفعل الآخرون . ويعتبر نمو الطفل هو المثال المفضل على ذلك لدى ميد . اذ ينشغل الطفل فى أثناء اللعب بعملية تقليد السلوك الذى يراه حوله . فهو يقلد ساعى البريد أو والده أو رجل البوليس . ويتطور انشغال الطفل فى اللعب تدريجيا إلى المشاركة فى المباريات مع غيره . حيث أن الاندماج المطلوب فى اللعب لا يتطلب مجرد تقليد السلوك وانما يحتاج مع اللاعبين تقدير وجهات نظر الآخرين . وعلى ذلك فانه يمكن لنا فقط أن نشارك على نحو فعال فى المباريات اذا أمكن لنا أن نقدر ظروفها فى ضوء مصالحنا الخاصة بالنسبة لأولئك اللاعبين الآخرين[1] وبامكاننا فى المباريات التنافسية مثلا ، أن تأمل فى الفوز اذا أمكن لنا تقدير ما يفكر الخصوم فى عمله وتوقع دوافعهم . وينبغى أن ندرك كيف تبدو لهم طالما أنهم يحاولون أيضا تخطيط دوافعهم بالنسبة لما سوف نقوم نحن بعمله ولكى تكون مؤثرا مثلا على طول الخط فى لعبة الشطرنج عليك أن تكون قادرا على النظر إلى قطع الشطرنج الخاصة بك كما تبدو لخصمك وان تدرك الاحتمالات وجوانب الضعف فى وضعك كما تظهر له .

وتحول الطفل ، فى رأى ميد ، من مخلوق قادر فقط على الانشغال فى تقاليد اللعب إلى مخلوق يظهر الوعى الذاتى الذى تتطلبه المباريات يوضح بطريقة

(١) Ibid, p. 90.

مصغرة العمليات العامة للتطور الانسانى ذلك أنه لا ينبغى على الكائنات الانسانية أن تتملك الوعى الذاتى فى المباريات فقط وانما عليها أيضا أن تفعل ذلك فى كل النشاطات الاجتماعية ولا يستطيع الفرد بالطبع أن يدرك بالضبط كيف يبدو لكل شخص آخر فى العالم فهناك الكثير منهم وبذلك تصبح المهمة بالغة الصعوبة وانما بدلا من ذلك يستجيب الفرد إلى الآخر عامة بمعنى أنه يستجيب لاحساسه بوجهات النظر العامة والمعتادة والسائدة التى يراها الآخرون فيه . ويعتبر هذا الادراك لاتجاهات ووجهات نظر الآخرين أمرا ممكنا فقط لأن الكائنات الانسانية تتقاسم فيما بينها الرموز ذات الدلالة ، بمعنى أن الكائنات الانسانية بامكانها أن تنشغل فى اتصال ذى مغزى مع بعضهم الآخر من خلال وسيلة اللغة . وانه من خلال الحوار مع الآخرين يصبح الفرد مدركا لوجهات نظر واتجاهات الآخرين . وبامكانه من خلال هذا التبادل ، أن يتعلم طرق السلوك التى يتطلبها الآخرون منه وأن يكتسب الوعى الذاتى الذى يعد جوهريا لعملية تنسيق الحياة الجمعية .

الدراسة العلمية للعقل :

كانت عملية حل المشكلة الفلسفية المتعلقة بالعلاقة بين العقل والطبيعة أحد الاهتمامات المحورية لدى ميد . وتكتسب هذه المشكلة مغزى ودلالة بالنسبة للعلوم الاجتماعية عندما نعرفها على ضوء سؤال كالاتى :

هل بامكان هذه الأساليب التى حققت نجاحا فى دراسة الطبيعة ونعنى أساليب العلوم الطبيعية ، أن تطبق بما يعود بالفائدة فى دراسة العقل ودراسة النشاطات الاجتماعية الانسانية ؟ وحاول ميد أن يوضح أنه ليس هناك حاجة أن نضع حدا فاصلا بين الطبيعة والعقل بنفس الطريقة التى فعلها بعض المفكرين . ذلك لأن هذا الفصل الحاد غير مناسب ، كما يقرر ميد ، لأن العقل يعتبر جزءا من الطبيعة . ولتوضيح وجهة نظره لجأ إلى نظرية التطور التى فهمت عموما على أنها تنتمى إلى الطبيعة ولتوضيح أن العقل يعد نتاجا لجانب معين من العملية

التطورية معناه توضيح كيف أنه يعد طبيعيا كأى شيء آخر برر بواسطة هذه العملية[1] .

ويذهب مثلا إلى أن المقدرة على التحكم فى اللغة ، التى تعد حاسمة بالنسبة لعملية تطور العقل برمتها ، تعتمد على التطور الفسيولوجى للكائن العضوى الانسانى ونعنى تطور الجهاز الصوتى . ويتطلب نمو وتطور العقل ذاته تطور الجهاز العصبى المركزى إلى تلك الدرجة من التعقيد التى يتحرر فيها السلوك من ضغوط الأفعال المنعكسة Reflex arc ونعنى التحرر من العلاقة الآلية لارتباط المنبه بالاستجابة . وباختصار أن تطور الأوتار الصوتية والجوانب الأخرى لفسيولوجية الانسان تخلق امكانية العقل الانسانى . وبهذه الطريقة يوضح ميد كيف يعتبر تطور العقل أحد جوانب العملية التطورية العامة . والعقل يمثل أحد الجوانب التى تميز الأنواع الانسانية عن الكائنات الحيوانية الأخرى . ويعتقد ميد أننا فى حاجة إلى تفسير العالم السلوكى Behaviorist للأصول التطورية ولتطور العقل الانسانى . وبدلا من الاستمرار فى محاولة التغلب على الصعوبات التى يخلقها التصور الضيق « للطبيعة » حاول أن يوسع هذا التصور ليسمح للعقل بأن يدخل ضمنه .

وفى محاولة التعرف على التفسير الذى قصد أن يقدمه كعالم سلوكى ، نلاحظ أن ميد لم يذهب ، مثل غيره ممن استعانوا بنفس الأسم الذى استعان هو به ، إلى أن الخصائص العضوية والطبيعية للوجود الانسانى هى التى يجب دراستها فقط بدون أى اهتمام بأشياء مثل التفكير والشعور فى الواقع . وانما كان ميد ثابتا فى رأيه بانه ينبغى دراسة التفكير والوعى والخبرة . ولا يفيد اسم العالم السلوكى كما استخدمه ميد فى التعرف على موضوع اهتمامه « بمعنى أنه سوف يعنى بمعالجة الأشياء العضوية دون حالات العقل » . وانما فى التعرف على الأسلوب الذى اتبعه . وبنى تفسيره على ملاحظة النشاطات المعتادة فى الحياة الاجتماعية وعلى الحقائق المتوافرة عامة والتى يمكن ملاحظتها على نحو شائع

---

(1) Ibid. p. 91.

والتي ينبغى على كل واحد منا أن يلاحظها فيما يتعلق بحياتنا الجمعية . واذا كانت السمة المميزة للعلم ليست هى الطبيعة المادية للظواهر التى ندرسها وانما امكانية توافر ملاحظاتها أمام العامة ، لذلك فان تفسير العالم السلوكى فى نظر ميد يتفق تماما مع متطلبات العلم .

ثانيا : التفاعلية الرمزية والعلم فى نظر هربرت بلومر

Herbert Blumer

ينظر غالبا إلى التفاعلية الرمزية على أنها تأخذ بوجهة النظر القائلة أن مناهج العلوم الطبيعية لا يمكن تطبيقها دون قيود على البحث السوسيولوجى . وقد يبدو أن ما ذكرناه عند ذكر آراء ميد يتعارض مع وجهة النظر هذه . لأن ميد حاول أن يوضح أن العلوم الطبيعية والاجتماعية تشكل متصلا ، ذلك لأن العقل يناسب كموضوع للدراسة العلمية ولا يختلف عن أى جانب آخر من جوانب الطبيعة فى هذه الناحية . وتعتمد القضية فى كليتها وإلى حد كبير على ماذا نعنيه بمناهج العلوم الطبيعية . ويبدو أن بعض علماء الاجتماع يعتقدون أن اتباع مناهج العلوم الطبيعية يعنى تقليد الاجراءات المحددة المتبعة فى علم الطبيعة مثلا . غير أن بلومر قد هاجم بثبات مثل هذه الفكرة فى علم الاجتماع . وعلى الرغم من أن مخالفة بلومر لهذا تنطوى على مضامين كثيرة ، الا أنه بالامكان التعرف على وجهة نظر بلومر من خلال انتقاداته لتحليل المتغيرات Variable Analysis اذ يتطلب تحليل المتغيرات التعرف على العلاقة بين متغيرين أو أكثر وتحديدها . ولنأخذ مثالا على ذلك نوع تحليل المتغيرات الذى قد يمدنا به العلم الطبيعى ، بالنسبة لأى غاز : يتغير الضغط مباشرة بتغير درجة الحرارة ، ولدينا هنا متغيرين اثنين ، الضغط ودرجة الحرارة ، وكل منهما يعد متغيرا بمعنى أن مقدار كل منهما قد يتغير أو قد يزيد أو ينقص . واذا أمكن لنا أن نكشف عن علاقة ثابتة لها قيمة بين هذين المتغيرين . بمعنى أنه اذا أمكن لنا أن نوضح أن الزيادة فى الضغط ترتبط دائما بالزيادة فى درجة الحرارة نكون قد توصلنا إلى نتيجة لها قيمة علمية . والأفضل من ذلك اذا أمكن لنا أن نضفى الطابع الكمى على هذه العلاقة من خلال توضيح مثلا : أن الزيادة فى كل رطل من الضغط

. بط بالزيادة تدرجتين فى ارتفاع الحرارة[1] . وقد يكون بامكاننا حتى أن نتجاوز ذلك ونوضح اتجاه العلاقة بين هذين المتغيرين ، من خلال نكشف عن أن التغير فى أحد هذين المتغيرين يؤدى إلى التغير فى الآخر ، بمعنى أن التغير فى الضغط يؤدى إلى التغير فى درجة الحرارة ، وفى هذا المثال ، يمكن أن نتحدث عن المتغير الأول وهو الضغط ونعتبره متغيرا مستقلا Independent وأن نعتبر درجة الحرارة متغيرا تابعا أو معتمدا Dependent . ويقول بلومر أن نقل هذا الاجراء بدون تعديل إلى علم الاجتماع أمر لا يمكن قبوله ويضيف إلى ذلك قائلا :

« ان الاجراء المتفق عليه فى تحليل المتغيرات هو التعرف على شيء ما يفترض أن يكون له تأثيره على حياة الجماعة ومعالجته على أنه متغير مستقل ، ثم نختار بعض أنماط النشاط فى الجماعة ونعتبره متغيرا تابعا . هنا يوضع المتغير المستقل فى القسم الأول من عملية التفسير ويوضع المتغير المعتمد فى نهايتها . ثم يحدث تجاهل للعمليات المتوسطة ، أو ما قد يكون له تأثير مساوى ونسلم جدلا بأنه لا يستحق أن نأخذه فى اعتبارنا » .

ويمكن لنا أن نوضح النقطة التى يؤكد عليها (بلومر) فى هذه الفقرة من خلال الاستشهاد بمثال آخر يحاول أن يوضح أن نوعية البرنامج الدعائى الذى يؤيد ضبط النسل قد يؤثر فى السلوك الانجابى فى المجتمع ، ويؤدى إلى زيادة ونقصان فى معدلات المواليد . وقد تنتهى مثل هذه الدراسة إلى نتيجة مضمونها أن النوعية المتميزة للبرنامج الدعائى الذى يؤيد ضبط النسل تؤدى إلى انخفاض فى معدلات المواليد ويمكن التعبير عن الاستراتيجية العامة التى تمثلها هذه النتيجة بهذه الطريقة ، التغير فى المتغير المستقل يؤدى إلى التغير فى المتغير التابع . وعلى هذا الأساس يمكن لنتائج علم الاجتماع أن تشبه نتائج العلوم الطبيعية التى تتخذها نموذجا لها . ولكن لسوء الحظ أن هذا الفهم لتنظيم النشاط الاجتماعى الذى تعبر عنه هذه النتائج يشبه إلى حد كبير القول : المنبه يؤدى إلى الاستجابة .

---

(١) Ibid, p. 93.

غير أن (بلومر) ويتفق فى ذلك مع (ميد) يهاجم هذا التصور للسلوك الانسانى قائلا أن مثل هذا التصور قد يكون كافيا فى دراسة سلوك الحيوانات ، ولكنه لا يكفى فى دراسة السلوك الانسانى . ولا يعنى (بلومر) بهذا أنه لا يمكن لنا تطبيق نموذج تحليل المتغيرات هذا ، أو لا يمكن لنا أن نصل إلى أى نتائج من خلال استخدامه . فبامكانه أن يوصلنا إلى نتائج ولكن هذه النتائج برغم أنها مشوقة الا أنها تعتبر نتائج عارية ، فلا تقدم لنا مثل هذه النتائج صورة دقيقة عن أولئك الأشخاص التى تشير إليهم ككائنات انسانية فى العالم الذى يسكنونه . وباختصار لا توضح لنا هذه النتائج أى شيء عن الكيفية التى تأثرت بها هذه الكائنات ، وذلك نتيجة لأن نموذج السلوك الذى يستعين به يرتبط بالمستوى الأدنى فى التنظيم ولا يتناسب مع فهم السلوك الانسانى ككل . ذلك لأننا اذا وجدنا أن هؤلاء الناس يعدلون سلوكهم الانجابى بعد تعرضهم لبرنامج دعائى يدعم ضبط النسل ، فانه لا يزال أمامنا :

« أن نعرف سير خبراتهم التى شكلت تنظيم عواطفهم وآرائهم . وأن نعرف طبيعة هذا التنظيم ، وأن نتعرف على المناخ الاجتماعى فى محيطهم . وأن نعرف التبريرات والمساندة التى تلقوها من زملائهم وأن نعرف الضغوط والنماذج التى تصلهم من البيئة الخاصة بهم فى البناء الاجتماعى ، وأن نعرف كيف تنظم حساسيتهم الأخلاقية ولماذا هذا السلوك دون غيره » .

فلا يجب اذن أن نترك المسائل الانسانية لتحليل المتغيرات ذلك لأننا نستطيع أن نفهم هذه المسائل على نحو صحيح من خلال هذا التحليل . كما لا يمكن لنا أن نبلور نتائجنا لتماثل القول :

« ان التعرض الزائد لبرامج الدعاية التى تؤكد ضبط النسل بالاضافة إلى التبريرات المؤيدة والمدافعة من جانب الآخرين بالاضافة إلى المناخ الاجتماعى الحماس الايجابى لضبط النسل يؤدى آليا إلى تقليل معدل المواليد .

ولا يؤدى تراكم المتغيرات إلى حل هذه المشكلة ، ولا يجعلنا اضفاء الطابع

التركيبى على العلاقة بين المتغيرات نقترب من الفهم الأفضل للكيفية التى يظهر بها الارتباط بين المسائل على هذا النحو ولماذا ؟

فاذا كانت برامج الدعاية التى تدعم ضبط النسل تؤدى إلى التغير فى معدل المواليد ، فهى لا تحدث هذا التغير لأن الناس يستجيبون آليا لعملية التعرض لبرنامج الدعاية وأى تغير فى السلوك يعزى إلى الطرق التى تؤثر بها برنامج الدعاية على ظروف حياتهم وعلى عواطفهم واتجاهاتهم وتشكل جانبا من تعقلهم لترتيبات شئونهم الخاصة(١) . فعلينا أن نشغل أنفسنا على نحو مفيد بالكشف عن ظروف معيشة الناس ، بدلا من الكشف عن الارتباط بين برنامج الدعاية ومعدل المواليد . ويرى بلومر أنه لكى يقوم الفرد بسلوك معين عليه أن يعرف ما الذى يريده ، وأن يحدد الموضوع أو الهدف ، وأن يرسم خطا متوقعا لسلوكه ، وأن يلاحظ ويفسر أفعال الآخرين ويقدر الموقف ، ويراجع نفسه كما يبدو فى نمو الآخرين ويحدد ما الذى يمكن عمله ازائهم . ويحث نفسه فى مواجهة الغير والمعرفة والمواقف غير المنسجمة » .

ويؤكد نموذج المنبه الاستجابه على أولويه الاحداث الخارجية ، وينظر إلى السلوك الانسانى على أنه استجابة لما يقع فى العالم الخارجى . ويشير بلومر إلى حقيقة مؤداها أن الكائنات الانسانية بامكانها أن تبدأ هى ذاتها خطوط الفعل ، ويمكن أن نشرع فى القيام بفعل الأشياء دون أن يكون عليها الانتظار حتى تقع أحداث خارجية وتثيرهم أو تنبهم إلى الحركة . ويؤكد كذلك المدى الذى يعد معه الفعل الانسانية غرضيا وهادفا Purposive وأن هذا الفعل يحدث لتعقب غاية فى ذهن الفاعل والذى يعد تنظيم الفعل بمثابة وسيلة لبلوغها ، ولا تترك علاقة المنبه والاستجابة مجالا ولو بسيطا لتصورات الاهداف فقط ، وانما تقدم لنا أيضا نظرة للسلوك باعتباره آليا أو انعكاسا يرتبط بشدة بحدوث المنبه . ويذكرنا بلومر بأن الفعل يمكن أن يكون خلاقا ومدروسا أو متعمدا ، فهو فعل مدروس أو متعمد بمعنى أن الفاعل يفكر فيما يقوم بفعله ، ويدرك

---

(١) Ibid, p. 95.

ويقدر ويختار واحدا من بين المسارات البديلة للفعل . ويضع الخطط قبل أن يقوم بالفعل ويراجعها عندما يواجه ظروفا متغيرة ، أو غير متوقعة . وهو فعل خلاق بمعنى أن الفاعل غالبا ما ينشغل بتجميع افعاله فى سبيل تحقيق الأهداف . وعليه أن ينظم أفعاله حتى يسهل حدوث الأشياء . وقد يجمع هذه الأفعال معا بطرق جديدة مبتكرة لم يسبقه إليها أحد .

ولذلك فان هجوم بلومر موجه للفكرة القائلة بأن الفعل قد نعالجه على أنه مجرد رد فعل ، ويشتمل هذا الهجوم أيضا على رفض لمعالجة الظروف باعتبارها مثيرات أو منبهات ذلك لأن هذه الظروف لا توجد بالنسبة للكائنات الانسانية كمنبهات أو مثيرات علينا أن نستجيب لها بطريقة الكائن العضوى الذى يفتقر إلى العقل وتسيطرعليه غرائزه . فما تمثله الظروف بالنسبة لنا يعتمد على الأهداف والخطط والمعرفة التى توجد فى عقولنا ، فمثلا أن الكيفية التى تستجيب بها لسقوط المطر تختلف طبقا لما اذا كنا علماء متخصصين فى فن زراعة البساتين والخضر ونعنى برفاهية محاصيلنا أو ما اذا كنا فى اجازة اسبوعية ونبحث عن الشمس الساطعة . اذ أن نفس المنبه يختلف ــ نعمه أو نقمه ــ باختلاف أهدافنا وانشغالتنا السابقة . وكلا المصطلحات ــ فى رأى بلومر ــ اللذان تنطوى عليهما علاقة المنبه والاستجابة وضعا بطريق مضللة ، وخاصة اذا حاولنا أن نطبقهما على الوصف المنسق للفعل الانسانى فالظروف ليست هى المنبهات أو المثيرات والأفعال ليست مجرد ردود فعل .

أن اعتراض بلومر على تحليل المتغيرات يضرب بجذوره إلى اعتقاده الراسخ بأن الادعاء بتبنى المدخل الموجود فى العلوم الطبيعية ادعاء زائف إلى حد كبير . وهكذا يطلق على هذا المدخل ، كما يستعان به فى علم الاجتماع ، ما يعرف باسم تحليل المتغيرات طالما كانت المسائل التى يحاول التعرف عليها غير واضحة ، ويفصل بين الموضوعات بهذا التركيب الخطى الذى يظن أن المتغيرات الحقيقية ينبغى أن تسير فيه ولا تمثل فى العادة أكثر من مصطلحات مختصرة فى الاشارة إلى الأنماط المتعددة للتنظيم الاجتماعى ، تلك التى لم يقم

الباحث بوصفها ، لأنه فى العادة يكون عاجزا عن القيام بهذاالوصف والمسائل التى يطلق عليها علماء الاجتماع اسم المتغيرات لا يمكن أن تقوم بوصفها على نحو معقول بهذه الطريقة اللهم الا بالطريقة التى لا يعبرون بها عن العلاقات الكمية بين الأبعاد المعروفة للظاهرة .

ان علماء الاجتماع لا يستطيعوا أن يوضحوا لنا بدقة ما هى أنواع النشاطات التى يمكن بها أن تدلل على تلك المقولات المجردة مثل التماسك الاجتماعى والسلطة والروح المعنوية للجماعة ومعظم التعبيرات الفنية الأخرى التى تشكل مصطلحات علم الاجتماع . ومثل هذه التعبيرات فيما يرى بلومر تفتقر فى العادة إلى المؤشرات المنتظمة والثابتة ويحاول كل باحث أن يتصور المؤشرات التى تتناسب مع المشكلة الخاصة التى يقوم بدراستها . وهكذا يختار أحدهم بعض السمات التى تمثل التكامل الاجتماعى للمدن ، بينما يستعين آخر بمجموعة سمات أخرى فى التعبير عن التكامل الاجتماعى لعصابات الأحداث الصغار .

ويؤكد نقد بلومر لتحليل المتغيرات ضخامة ما نحن عليه من جهل فعلى الرغم من مظهر المعرفة والاتقان الذى يمكن أن يضفيه تقليد النظم الفكرية الأكثر تعقيدا على علم الاجتماع ، الا أن بلومر يذهب إلى أن الحياة الاجتماعية بالغة التعقيد وتتشكل من عمليات متشبعة ومفصلة ولا يتوافر لدينا الا قدر محدود من النتائج حولها . ويحتمل أن تكون الميكانزمات الداخلية للحياة الاجتماعية أكثر تعقيدا من العمليات التى عملت على وجودها ، ولا يتوافر لدينا الا الفهم السطحى لطبيعتها فقط . ولذلك كانت التوصية العامة التى قدمها بلومر لتطوير نظامنا الفكرى هى أن نعمل على اكتساب المعرفة المفصلة والودية لمختلف الظواهر التى يضمها هذا النظام الفكرى . وبدلا من اتباع الأمثلة التى يصعب تطبيقها والتى وضعت بمعرفة علوم أخرى . من الأفضل أن نعمل على تحقيق تطوير نظامنا الفكرى إلى درجة يمكن له بها أن يكون حساسا وسريع الاستجابة لتلك المسائل التى تميز الحياة الاجتماعية .

ويدافع بلومر بشكل خاص عن المدخل الطبيعي فى البحث ، والذى يشتمل على فحص أمثلة محددة على الحياة الاجتماعية كما تحدث فى مواقعها المعتادة ، وينبغى دراستها بشيء من العناية والتفصيل . وعلى الباحث أن يهدف إلى فهم العالم بنفس الطريقة التى يفهمه بها الأشخاص الذين يقوم بدراستهم وعليه أن يكون مستعدا للعيش معهم فى كل جانب من جوانب نظامهم اليومى ويعرض نفسه لتلك الخبرات التى يواجهونها عادة . وعليه أن يهدف إلى تحقيق الفهم التعاطفى والحساس لنظرتهم العامة للعالم ، وأن يهدف كذلك إلى فهم كيف أن هذه العمليات التى نتحدث عنها من خلال عباراتنا التجريدية فى علم الاجتماع (مثل معدلات المواليد والأدوار الاجتماعية وأنساق السلطة .... إلخ) يمكن النظر إليها على أنها أنماط منظمة للسلوك والتفاعل الاجتماعى عبر نطاق الخبرة اليومية . وهذا النوع من النصائح لا يوضح لأى باحث يشعر بالميل لاتباع هذا المدخل بدقة ، ما الذى ينبغى عليه عمله ، وانما يقدم لنا بدلا من ذلك احساسا واضحا بما يمكن تجنبه أكثر مما يمكن اتباعه وتقديره ، فهو يعنى ضمنيا مثلا أن نوع الاتصال بين الباحث والمبحوث فى تطبيق الاستبيان المختصر لايحتمل أن يكون هناك هو نوع الاتصال المرغوب فيه من حيث المدة والنوعية[1] . ذلك لأن نوع الاختلاط القوى والمعايشة التى تنطوى عليها البحوث الميدانية قد يكون هو النوع المفضل ، غير أن هذه النصيحة لم تمد القائم بالبحث الميدانى بالتوجيه المحدد وللوسيلة والأهداف والأساليب التى يمكن أن يعتمد عليها فى بحثه الميدانى هذا . ولقد نظر إلى أعمال ايفرت هيوجيه Hughes وزملائه ، على أنها تمدنا بالتوضيح الجيد لنوع النتائج التى يقودنا إليها اتباع استراتيجية بلومر هذه .

ثالثا : اسهام ايفرت هيوجيه فى تطوير التفاعلية الرمزية :

تمثل أعمال ايفرت هيوجيه والكثير من زملائه محاولة لتطبيق استراتيجيات البحث التى أشار إليها بلومر بشكل عام وتركز هذه الأعمال عموما على

(١) Ibid, p. 96.

الفحص الواعى والمفصل والطبيعى لمثال معين وبأسلوب يتبع افتراضات بلومر . ولقد نظمنا مناقشتنا التالية فى ضوء سبعة خصائص متشابكة ورئيسية استطعنا أن نتعرف عليها باعتبارها تعكس الافتراضات الأساسية للتفاعلية الرمزية كمدخل فى دراسة العالم الاجتماعى .

١ ــ التركيز على المهن :

لقد أجرى هيوجيه هو وغيره من الزملاء منذ عام ١٩٣٠ سلسلة من الدراسات التى تركز أساسا على الجوانب المختلفة من الحياة المهنية . ولم ينشأ هذا التركيز على نظام العمل بطبيعة الحال بالصدفة وانما استند إلى احساس بأن العمل يعتبر بمثابة المحور الذى يدور حوله المجتمع المعاصر ، وأنه فى داخل عالم الحياة المهنية يتشكل احساس الفرد بذاته ويتحدد بل ويتأكد أيضا .إذ يمكن أن يعتمد احساس الفرد بقيمته الخاصة وبتقديره لذاته بشكل حاسم على مهنته ومكانته التي يتمتع بها. وأكثر من ذلك تتم الكثير من معاملات الفرد مع مجتمعه من خلال ممارسته لعضويته المهنية . وعلى الرغم من أن العمل يعد بمثابة نظام محورى وحاسم فى المجتمع المعاصر ، الا أنه قد لا يكون مختلفا إلى حد كبير من بعض الوجوه عن الجوانب الأخرى للحياة الاجتماعية ومن ثم قد نتوقع أن نلاحظ فى داخله ، بمثل ما قد نلاحظ فى المواقع الأخرى ، سير العمليات التى يمكن من خلالها أن يحقق أى نظام أهدافه ، ولذلك بامكاننا أن نعتبر أن اجراء دراسة للمهنة بمثابة فرصة نتعلم من خلالها الكثير حول المسائل التى لها أهمية سوسيولوجية عامة ، ويمكن تطبيقها . وسوف نأخذ بعض أمثلتنا فى المناقشة التالية من مجالات أخرى لكى نوضح كيف أن كتابات هيوجيه تقدم مدخلا عاما إلى علم الاجتماع .

تفضيل التعميمات الشكلية :

اهتم علماء التفاعلية الرمزية بصياغة مجموعة من القضايا حول العالم ، وفى تصورهم لا يمكن أن نستخلص هذه القضايا على نحو مفيد من عمليات تحليل المتغيرات واضفاء الطابع الكمى على السلوك الانسانى . ولذلك تطلعو نحو

التوصل إلى تعميمات شكلية Formal تشتق من الدراسة الكيفية المفصلة لمجموعة محددة من الظروف أو الأحداث غير أنهم فى الواقع كانوا يعنون فى الغالب بوصف هذه الظروف المحددة أكثر من اهتمامهم باشتقاق هذه التعميمات وغالبا ما كانت هذه التعميمات متضمنة فى بحوثهم ، أكثر مما كانت واضحة كأهداف أولية لجهودهم فى البحث . ويعكس هذا التفضيل للتعميمات الشكلية تأثير عالم الاجتماع الألمانى جورج سيمل G. Simmel (١٨٥٨ ــ ١٩١٨) الذى اهتم هيوجيه بدراسة اعماله وترجمة بعضها[١] .

وكان سيمل يعتقد أن الجانب الحيوى فى علم الاجتماع ينبغى أن يتمثل فى التحليل الشكلى للعلاقات الاجتماعية وكان يقصد من التحليل الشكلى التمييز بين شكل ومضمون الظواهر الاجتماعية ويقرر سيمل أنه هكذا فيما يتعلق بالظواهر الاجتماعية والمعاملات السياسية والروابط الدينية وجماعات الأصدقاء وبرغم أن محتوى هذه الظواهر مختلف . الا أنه قد يكون لها نفس بناء (الشكل) العلاقات الاجتماعية ، فلقد كان لسيمل مثلا اهتمام عام بالصراع الاجتماعى وبفحص الكيفية التى يمكن أن يوجد بها فى مواقع متباينة (بمضمون مختلف تماما) كرة القدم وعصابة أحداث أو صغار . وقد يكتشف أن هذه المواقع المتباينة كلها تفصح عن نفس الخصائص الشكلية المشتركة أو عن ترتيبات بنائية . وقد يكون بالامكان وصفها على أنها تعارض وارتباط وتعاون ، ويرد الأساس لهذه التعميمات الشكلية إلى الطبيعة العامة للصراع الاجتماعى. ولم يكن التمييز بين الشكل والمضمون من النوع الذى يمكن أن يستمر طويلا أو حتى يزعج . وكل ما فى الأمر أنه يعطى فكرة معينة عن الوجهة التى يتخذها علماء التفاعلية الرمزية . فلقد مالوا عموما إلى التركيز على وضع العمليات الاجتماعية التى يقومون بوصفها وبامكانية تطبيق هذه الأوصاف على مجموعة متباينة من المواقع الاجتماعية . ويمكن توضيح هذه الوجهة من خلال استخدامهم لفكرة المسيرة المهنية (سيرة حياة الفرد فى مهنة معينة) Career كما طورها هيوجيه

---

(١) Ibid, p. 98.

وزملاؤه . ومفهوم المسيرة المهنية مفهوم مألوف فى عالم الحياة المهنية وبخاصة التنظيمات البيروقراطية ، ويشير عادة إلى التعاقب الذى يشتمل على سلسلة من المراحل المتمايزة ، لكل منها عنوانها المميز وجزاءاتها والتزاماتها وخبراتها المرتبطة بها ومهامها ومشكلاتها ، فأستاذ الجامعة فى انجلترا مثلا يبدأ عادة كمحاضر فى العشرينات وقد يصبح فيما بعد محاضرا أول ثم احتمال أن يصل إلى درجة استاذ بعد ذلك . وانتقاله إلى أعلى فى هذا السلم يرتبط بزيادة مرتبة وبالتزاماته بالقيام بأنواع مختلفة من المهام الادارية وحقوقه فى التمتع بموارد مختلفة وتنظيم لقاءات عضوية المجالس فى كل مستوى . والشخص الذى يضطلع بمثل هذا العمل يعرف أن هذه المراحل تمثل المسيرة المهنية المحتملة بالنسبة له .

ولقد طبق علماء التفاعلية الرمزية فكرة المسيرة المهنية على نطاق واسع من أوجه النشاط غير تلك الى كان من المألوف وصفها بهذا الأسلوب . فنظروا مثلا إلى المجرم الذى يظن أن حياته تقوم على نموذج التفكك والاضطراب وصعوبة التنبؤ بأن له إيضا مسيرة مهنية . فهو هكذا يقبض عليه ويتهم ويؤمر بحبسه احتياطيا ثم يحاكم ويدان ويسجن ويمر بسلسلة مراحل يوفرها هذا النسق القانونى وتحدث كل واحدة من هذه المراحل فى نظام زمنى ، القبض يسبق الاتهام والمحاكمة تسبق الاتهام ، بنفس الطرق الشكلية مثلا التى يسبق بها دور المحاضر الأول داخل النسق الجامعى وهذه الخطوات يمكن التنبؤ بها ، وكل واحدة منها لها خبراتها المهتادة ومهامها ومشكلاتها .

ويتمثل النموذج الآخر لامكانية تطبيق مفهوم المسيرة المهنية فى استخدامه مع المرضى العقليين . يمكن النظر إلى المرضى العقليين على أنهم يمرون بتعاقب وينتقلون خلال تسلسل منتظم لمجموعة مراحل من مرحلة سابقة على المرض إلى مرحلة المرض ، وأخيرا مرحلة تلى العلاج فى المستشفى .

ولقد أوضحنا تفضيل علماء التفاعلية الرمزية للتعميمات الشكلية من خلال استخدامهم لمفهوم المسيرة المهنية . فهم يحاولون التعرف على العمليات الاجتماعية التى لها تأثيرها العام وعلى وجودها فى مجالات الحياة التى يظن فى

العادة أنها متمايزة ومنفصلة تماما . وهكذا وبالرغم من أن فكرة المسيرة المهنية تجد امكانية تطبيقها فى العادة داخل مجال الحياة المهنية . أوضح علماء التفاعلية الرمزية أنه بالامكان تطبيقها على مجالات أخرى للحياة الاجتماعية[١] .

(٣) الاهتمام بالجماعات المهضومة Partizanship

لقد وجه إلى التفاعلية الرمزية اتهام لتعاطفها مع أولئك الذين يعانون فى المجتمع . فلقد كانت الكثير من الدراسات التى أجريت بمعرفة علماء التفاعلية الرمزية متعاطفة مع مشكلات أولئك الذين ينتمون إلى المستوى الأدنى للتدرج الاجتماعى والتظيمى وينتقدون أولئك الذين يتمتعون بالأوضاع الأفضل . وربما كان هذا الاتهام صحيحا غير أن هناك أيضا أسبابا فكرية طيبة وراء هذا التحيز لأنه اذا وافقنا على ما ذهب إليه علماء التفاعلية الرمزية بأن المجتمع عبارة عن نزاع مستمر بين جماعات متباينة ، فقد يكون بامكاننا استخلاص النتائج التالية :

أ ــ أن الجماعات ذات القوى الأكثر تتحكم فى وسائل الاتصال الجمعى فى المجتمع .

ب ــ تقوم بنشر صورا مرغوبا فيها عن أنفسهم من خلال هذه القنوات بينما تواصل نشر صورا غير مرغوب فيها للجماعات الأخرى .

جـ ــ ولهذا لا تستطيع الجماعات فى المستويات الدنيا أن تتحدث عن نفسها إلى العامة فى جملتهم بالطريقة المتاحة أمام تلك الجماعات الأكثر قوة .

وتنطوى هذه النتائج على مضامين معينة يفهمها عالم الاجتماع فى بحثه من اكتشافاته المتعلقة بالمجتمع مفادها قد يكون هناك احتمال أن تقدم هذه الوسائل أنباء غير ملائمة تتعلق بهؤلاء المحرومين فى المستويات الدنيا . ويمكن الكشف عن مثل هذه المسائل مثلا من خلال الكيفية التى ينظر بها أولئك الذين ينتمون إلى

(١) Ibid, p. 99.

المكانة الدنيا إلى انفسهم ومن خلال الملاحظة الواعية لما يشتركون فى عمله. وبالمقارنة يحتمل أن يكون الأشخاص فى مواقع القوة قد أشاعوا أو نشروا بالفعل كل شيء يمكن قبوله حول أنفسهم . ومن ثم فان أية معلومات سوسيولوجية أخرى عنهم يحتمل أن تكون سيئة لأنها قد تشتمل على كشف للأسرار الخفية . ولقد كانت المهن واحدة من الأهداف التى حظيت بالاهتمام الموضوعى لعلماء التفاعلية الرمزية ففى عالم العمل تنمو الجماعات المسيطرة فى المجتمع الأمريكى من خلال المهن الاحترافية ، وقد مال علماء التفاعلية الرمزية إلى سبرغور أعضاء هذه المهن وادعاءاتهم حول أنفسهم وتميل هذه المهن إلى أن تقدم صورة عن ذاتها بأنها مكرسة لخدمة الجماهير وأنها قد طرحت جانبا مشغولياتها بالجزاءات المادية لحساب مصالح العملاء . غير أن هذه المهن شأنها شأن غيرها من الجماعات الأخرى تشتمل على الفاسدين وغير الأمناء ، وغير المكترثين بمفهوم الخدمة هذا .

وقد يعثر الباحث السوسيولوجى بالصدفة عند دراسته للعمل المهنى على مادة قد تكون مشككة فى ادعاءات هذه المهن . وغالبا ما يعنى عالم الاجتماع فى اكتشافاته هذه بتلك المسائل التى يقوم أصحاب هذه المهن أنفسهم باستبعادها أو التقليل من شأنها .

الا أن الجماعات الأقل فى القوة والامتياز فى المجتمع تنطوى على جوانب مثمرة بالنسبة للبحث السوسيولوجى طالما أنها تسمح بالكشف عن الجديد . فليس لدينا ما يدل على معرفتنا لوجهات نظر هذه الأقسام الأقل فى القوة داخل مجتمعنا ، وبخاصة فى سياق حياتنا اليومية وسيرها . ولطالما كان ادراكنا لمثل هذه الجماعات غالبا من خلال التفسيرات غير المرغوبة التى يمدنا بها الجماعات الأكثر قوة .

ان الصحف والتليفزيون والقضاه البوليس وعلماء الاجرام والأطباء النفسيين وعيرهم من الموظفين لهم رأيهم فى المجرمين والمرضى العقليين ، وكل واحد منهم ما عدا المجرم والمريض العقلى سمح له بأن يعبر عن رأيه للعامة عن

هذه الصورة ، ونتيجة لذلك ، يحتمل أن تكون الصورة الشائعة عن جماعات المحرومة غير مستحبة تماما . وبامكان عالم الاجتماع أن يقدم الجديد لمجتمعه من خلال الكشف عن أن هذه التصورات الشائعة جاءت على هذا النحو غير المستحب بطريقة غير عادلة . ولذلك قد يعمل عالم الاجتماع على تصحيح هذه التصورات من خلال توضيحه أن هذه الجماعات المحرومة اجتماعيا لا تعتبر غير عادية ، وبيان أن « المنحرفين » و « المنبوذين » هم فى الحقيقة كائنات انسانية عادية تعيش ظروف من نوع خاص(١) .

وينطوى هذا النوع من البحث على ميل ضمنى نحو التعاطف مع أولئك الذين ينتمون إلى الأوضاع الأضعف . ولا يستطيع كل شخص عاقل أن يتوقع منهم أن يعيشوا حياتهم بهذه الصورة غير السارة التى خلفها غيرهم بنفس القدر الذى يمكن به أن يتوقع أن يعيش أولئك الأفراد ذو السيادة الاجتماعية طول حياتهم بهذه الصورة الفخمة التى خلفوها عن أنفسهم . ولقد أدى هذا الميل إلى اختلاف الرأى مع الجماعات ذات القوة الأكبر . وحتى القول مثلا بأن المريض العقلى لهوجهه نظر والتى تلفت انتباه عالم الاجتماع وتستحق الدراسة ، يمكن أن يجد معارضة من الخط الرسمى الذى تعبر عنه النظم المسيطرة . فالمرضى العقليون هم الذين يعتقد على نحو شائع بأنه من الضرورى استبعادهم من حياتنا الاجتماعية المعتادة ، ومعالجتهم لأن عقولهم مضطربة . والمعتقد أنهم لا يملكون القدرات الادراكية أو الانفعالية التى تمكنهم من العمل والتصرف بالطرق المتوقعة من بقية أعضاء المجتمع . ولذلك فليس من المتوقع أن يكونوا قادرين على التفكير بوضوح وعلى نحو واقعى متكامل . وهم يعانون من التحريف فى الادراك ، وقد انفصلوا عن الواقع ومالوا إلى الخيالات والهذيان ، فكيف يمكن القول أن أفكارهم تعبر عن وجهة نظر وكيف يمكن القول أنهم يفهمون الأمور على نحو مغاير لما يفهمه الممارسون للعلاج الطبى والطب النفسى الذى ينبغى عليهم التعامل معهم ؟

ذلك لأن مثل هذه التسؤلات ترتبط بشكل حاسم بالكفاءة المهنية لأولئك

---

(١) Ibid, p. 101.

الذين يتحملون مسئولية هذه الفئات من الناس أولئك الذين يديرون نظما مثل المستشفيات العقلية وهيئات الرفاهية والمدارس والمحاكم وغيرها من أنواع المؤسسات الأخرى والذين يضطلعون بمسئوليات الادارة هذه كجانب من مهمتهم كخبراء فى التعامل مع أولئك الذين يشرفون عليهم فهم يعرفون نزلاءهم ولديهم الخبرة المفصلة والمباشرة واليومية عنهم . وينبغى عليهم أن يفهموا نزلاءهم ويتعمقوا الطرق التى يفكرون بها . وفوق كل ذلك ينبغى عليهم أن يكونوا قادرين على أن يتعرفوا من خلالهم على محاولاتهم خداع وارهاق النظام . والواقع أن ادعاء عالم الاجتماع بأنه يود ويستطيع التعرف على بعض وجهات النظر المستقلة التى يأخذ بها النزلاء وهى وجهات للنظر تجهلها هيئة الاشراف على المستشفى فيه تحدى مباشر لاعتداد هذه الهيئة بنفسها وبمهنتها . وهم يعرفون فعلا ما يفكر فيه النزلاء وكيف يمكن لهم التعامل معهم .

ويستند هذا الموقف إلى أساس منطقى يدفع نحو نوع من المشايعة أو الموالاة غير أن هذا النوع من المشايعة يختلف عن ذلك الذى يقرر أن الفقير والمحروم والهامشى والمنحرف أفضل من القوى والمسيطر والعادى أو الأصيل . وانما نشأت هذه المشايعة نتيجة لتبنى ذلك التصور الذى مفاده أن أولئك الذين يفترض أنه لا قيمة لهم من الناحية الاجتماعية يشبهون كثيرا وبالفعل أولئك الذين تعلقوا بحدود اخلاقية أكثر تقليدية والذين فى العادة ما ترد إليهم القيمة الاجتماعية العليا . وقد يثير التقدير المتدنى للجماعات المهضومة الشك حول الجماعات الأقوى والمسيطرة والتقليدية وما تقرره من معايير يمكن تطبيقها على هؤلاء الآخرين (الذين يعانون) ويحقق لنا تحديد الوضع النسبى للجماعات داخل بناء الاتصال احتمال توصل الباحث عموما إلى المزيد من الأسرار ذات المغزى والمرغوب فيها فيما يتعلق بالجماعات المحرومة. ولذلك ينتهى الباحث بالوقوف إلى جانب الجماعات المحرومة طالما كان يسعى إلى توضيح عناصر السواء Normality الواضحة فى حياتهم . ومن ثم يعمل بالضرورة على أن يرفع من شأن صورتهم فى نظر الجماهير .

٤ ــ اظهار العقلانية The Revelation of Rationality

غالبا ما كان يبرهن علماء التفاعلية الرمزية على وجود العقلانية فى مواقف ومواقع غير متوقعة وليس هناك موقع تمت فيه هذه البرهنة على هذا النحو المؤكد أكثر من فحص المرض العقلى وتنطوى الفكرة السائدة عن الأشخاص الذين يعانون المرض العقلى على اعتقاد مؤداه أن عقلانيتهم ضعيفة إلى درجة يعجزون فيها عن السلوك هم أنفسهم بالطريقة الرشيدة غير أن هناك عددا من البحوث التى حاولت أن توضح أن هناك فى سلوك الأشخاص الذين يطلق عليهم اسم المرضى العقليين جانبا كبيرا من العقلانية لم يكن مدركا من قبل(١) .

فلقد هاجم اروين ليمرت Lemert فكرة المجنون بالاضطهاد وذلك فى كتابه بعنوان جنون الاضطهاد وديناميات الاقصاء والاستبعاد Paranoi & Execlusion فالمفترض أن خيالات المجنون بالاضطهاد تجعله يعانى من الاضطهاد غير أن ليمرت يدعى أن تسميه « المجنون بالاضطهاد » عادة ما تؤدى بنا إلى التقليل من شأنه للغاية إلى درجة جعلت هذا الشخص يعانى بالاضطهاد من خلال مؤامرة مدبرة باحكام له .

وذهب ليمرت إلى أن هناك نوعا من الدائرة المفرغة تنشأ بين المجنون بالاضطهاد وغيره من الناس فالمجنون بالاضطهاد عادة ما يكون شخص يتعثر فى علاقاته الاجتماعية مع الناس وبخاصة الأشخاص الذين عادة ما تكون لهم به صلة غير رسمية فى حياته المهنية . ونتيجة لأنه يجد صعوبة فى هذه العلاقات يبدأ الآخرون باستبعاده من روابطهم غير الرسمية ، عندئذ يصبح الشخص المستبعد (المجنون بالاضطهاد) مدركا لعملية الاستبعاد هذه ويستجيب لها . وتمدنا استجابات الآخرين بالأسباب الجديدة التى تجعلهم يقدمون على استبعاده . فقد يصبحوا بدورهم حذرين ومتخوفين ويتهمونه بأنه قد أصبح مريضا عقليا . وخوفا من استجابة المجنون بالاضطهاد . يحاول الآخرون التخلص من هذا الخوف والوهم ويعمدوا إلى مناقشة ــ مع بعضهم البعض ــ أفضل السبل

(١) Ibid, p. 102.

للتعامل مع هذا الشخص الذى يواجه صعوبة غير عادية وهكذا يكون المجنون بالاضطهاد على صواب من أن أولئك المحيطون به يتآمرون عليه . وتؤكد استجاباته ضد هذه المؤامرة أوهامهم بأنه مريض عقلى ويحتاج إلى علاج . ويدخل الطبيب النفسى ضمن هؤلاء وهوالذى فى محاولته معالجة المجنون بالاضطهاد يعمل فقط وبطريقة اخرى على تثبيت وجود هذه المؤامرة . وهكذا فان محاولات مساعدة الأشخاص المفترض أنهم مرضى تسهم فى زيادة متاعبهم وهكذا يوضع هذا الشخص فى فئة عرفت باسم المريض بجنون الاضطهاد .

وقد تبنى ارفنج جوفمان Erving Goffman فى كتابه مستشفيات الأمراض العقلية Asyluems مدخلا مشابها فى دراسة المرض العقلى . ولقد جرى جوفمان دراسته حول الموقف الاجتماعى للمريض العقلى بناء على الافتراض القائل بأن هذا الفرد يعتبر من الناحية النفسية عادى تماما[1] وكان جوفمان يهدف إلى توضيح أن سلوك النزيل فى المستشفى يعتبر استجابة عقلانية لطريقة الحياة التى يقوم عليها النظام المحيط به . ولقد نظر جوفمان إلى المستشفيات العقلية باعتبارها تتسم بسمات النظم الشاملة ويمثل مفهوم النظم الشاملة Total Institutions هذا مثالا آخر على التعميمات الشكلية التى اتجهت نحوها كثير من جهود التفاعلية الرمزية . ولقد صيغ هذا المفهوم ليساعد فى استخلاص جوانب شكلية معينة للحياة التنظيمية التى تسير فى هذه التنظيمات رغم أنها تنطوى على مضامين أو محتويات متباينة للغاية ، ونعنى التنظيمات المعنية بمهام مختلفة مثل نقل البضائع والركاب (بواخر) وتلك التى ترعى الحياة الدينية (الأديرة) أو التى تسهم فى اعداد الأشخاص للعمل فى الجيش (المدارس العسكرية) وتعذيب وابادة الأفراد (معسكرات أسرى الحرب) وعلاج ورعاية المريض (المستشفيات) وكلها عبارة عن نظم شاملة ، لأنها جميعها تطوق حول دائرة اليوم كله لنزلائها ، فالنوم والعمل والطعام والفراغ ينبغى أن تتم فى اطار نفس الحدود الطبيعية وفى نفس المنظمة .

---

(١) Ibid, p. 103.

وفى رأى جوفمان الحقيقة أن هذه التنظيمات التى تطوق دائرة يوم النزلاء تتفق منطقيا وإلى درجة كبيرة وحياتهم الاجتماعية على نحو نافذ . فهى تفرض على نزلائها ضرورة الاتيان بالسلوك الذى قد يبدو شاذا أو غريبا تماما فى نظر الأشخاص الذين يعيشون حياة عادية ، غير أن هذا السلوك أمر لا مفر منه فى سياق هذا النظام الشامل . فلننظر مثلا إلى السلوك الاختزانى Hoarding للمرضى اذ يقوم بعض المرضى بالابقاء باستمرار على كل ما يمتلكونه ويخصهم كأشخاص ونتيجة لذلك نجدهم يحملون معهم كل أنواع الأشياء التافهة والتى لا فائدة منها . ولذلك يمكن النظر إلى هؤلاء المرضى على أنهم يعانون من نمو متزايد فى حب التملك والتى قد يفهم أنها تخفى وراءها مظاهر القلق وعدم الاحساس بالأمن التى تنمو فيما وراء المستويات العادية . ولذلك قد ينظر إليهم على أنهم يعانون من اضطراب انفعالى . غير أن جوفمان لا يوافق على هذا الرأى وانما يتبنى الموقف القائل بأن ايديولوجية الطب النفسى تركز الانتباه على الشخصية والحالات الانفعالية للأفراد بدون النظر إلى الموقف والظروف التى تظهر داخلها هذه الحالات . ويجعل هذا التوجيه الطبى نفس هيئة المستشفى العقلى تميل إلى النظر إلى السلوك التخزينى للنزلاء على أنه ذو علاقة بأعراض ظروفهم العقلية ولا تأخذ هيئة المستشفى فى اعتبارها نوعية البيئة التى يوفرها التوجيه الطبى النفسى وطبيعة نظام المستشفى لهذا النزيل . وهذه البيئة فى نظر جوفمان تجعلهم يشعرون بالحرمان والنظر إلى كثير من الممتلكات التى يبقيها النزيل لنفسه باعتبارها أشياء تافهة ولا جدوى لها فيه اغفال لطابع الحرمان الذى يميز هذا النظام . وهو نظام حرمان لأنه يندر أن يمد النزيل ليس فقط بالأشياء العادية وانما أيضا لأن النزلاء يفتقرون إلى الخصوصية والأمن فوق ذلك . وربما كان احتفاظ المرضى بالكثير من ممتلكاتهم الشخصية علامة فقط على افتقارهم إلى توافر مكان آمن لهم . ويحتمل أن يفتقدوا أى شىء يخصهم تركوه مهملا .

والتفسير البديل لكثير من هذه الجوانب من سلوك المريض التى تبدو غريبة يمكن أن نجده فى الظروف الغريبة أو الشاذة التى يعيش فى ظلها المريض . ومثل

هذا التفسير لا تأخذ به هيئة المستشفى بطبيعة الحال ، طالما أنهم يخضعون لأيديولوجيات الطب النفسى ، ولذلك فهم يميلون إلى رفض هذا النوع من التفسيرات بالاعتماد على الظروف أو السياق ويفضلون تفسيرات تم صياغتها فى ضوء الشخصية والحالة العقلية بل والأكثر من ذلك ، يحاولون فرض هذه التفسيرات على المرضى[١] وغالبا ما تشمل أيديولوجيات الطب النفسى على خاصية الدعم الذاتى وتتطلب من أولئك الذين تم التعرف عليهم على أنهم مرضى عقليين أن يقبلوا تحديد الطب النفسى لهم باعتباره أحد شروط العلاج . وبعبارة أخرى ، اذا رفض المريض قبول أن سلوكه يعزى إلى اضطرابات الشخصية عندئذ يؤخذ رفضه هذا على أنه علامة أخرى على مرضه . وعندما يبدأ المريض الموافقة على أنه يمكن تفسير سلوكه من خلال اضطرابه العقلى تستطيع هيئة المستشفى تقبله لأنه أخذ يتوصل إلى نوع من التفاهم مع مرضه وبدأ يمثل للشفاء . ولما كانت هيئة المستشفى هى التى تتحكم فى عملية الافراج عن النزلاء ، فان هذا يجعلهم فى وضع القوة لفرض وجهات نظرهم على نزلائهم .

وعلى أساس من مثل هذه الافتراضات بالامكان الادعاء بأنه يوجد هناك قدر من العقلانية غير المدركة فى سلوك المرضى العقليين فى المستشفيات . وفى ظروف النظام الشامل يعد هذا السلوك أكثر توافقا وربما كان هو النوع الوحيد والممكن . وفى الواقع ربما كانت الظروف ذاتها هى التى تفرض هذا السلوك على المريض . كما تفرض كذلك مظاهر عدم المعقولية التى يفصح عنها هذا السلوك .

٥ ــ تحديد الموقف :

تمكن توماس Thomas من خلال الشعار الذى استشهد به أكثر من مرة أن يبرر السمة الهامة والمميزة لمدخل علماء التفاعلية الرمزية ، والذى يقول أنه اذا استطاع الأفراد تحديد مواقفهم على نحو واقعى فانهم سيكونون واقعيين فى

(١) Ibid, p. 104.

كل ما يترتب على ذلك من نتائج . وهذه القضية تؤكد أن محور الاهتمام المشترك بين بحوث التفاعليين الرمزيين تتمثل فى العمليات التى يحاول بها أعضاء المجتمع تحديد ظروفهم وهوايتهم الخاصة .

ويمكن أن نفهم ضمنيا من هذا المدخل التعريفى أن عالم التفاعلية الرمزية يجنب نفسه من اصدار الأحكام الخارجية حول الأشخاص الذين يقومون بدراستهم . فهو لا يضطلع بمهمة معينة أو خاصة تتعلق بتوضيح ما حدث فى الواقع فى المجتمع ، بغض النظر عن فهم الأشخاص الفعلى لما حدث فى حياتهم . وانما يتبنى موقفا يحاول من خلاله وصف المزاعم والادعاءات المتعارضة والمتنافسة التى يقدمها الأفراد حول ما هو واقعى وما حدث فعلا . وهو لا يحاول تقسيم هذه الادعاءات أو يوضح أى منها كان صحيحا .

والمثال على مثل هذا المدخل التعريفى يعبر عنه على نحو ضمنى وشامل ما اشتهر تحت عنوان نظرية تسمية الانحراف Labelling theory of deviance اذ يذهب العلماء الذين يأخذون بنظرية تسمية الانحراف هذه إلى أن عالم الاجتماع فى دراسته للمنحرفين لا يعالج فى العادة كل فئات الأشخاص الذين قد ارتكبوا فعل الانحراف . وانما يدرس فقط بدلا من ذلك أولئك الأشخاص الذين شوهدوا يرتكبون مثل هذا الفعل ومن ثم أطلقت عليهم هذه التسمية طبقا لمشاهدتهم ، ونتيجة لذلك ، فان أى محاولة لاكتشاف الاسباب الحقيقية للانحراف مثل السمات الوراثية أو الخلفية الاجتماعية ببساطة من خلال التركيز على هؤلاء الأشخاص الذين تم التعرف عليهم وتسميتهم بالانحراف يحتمل أن تكون خاطئة، ويلزم للتوصل إلى مثل هذه النتائج ــ الأسباب الحقيقية ــ ودراسة عينة مناسبة من كل الأشخاص الذين يرتكبون الفعل الانحرافى ــ وليس فقط أولئك الذين تم القبض عليهم[1] ويعتقد أصحاب نظرية تسمية الانحراف أنه يندر تكوين مثل هذه العينة . وبدلا من ذلك ، نجدهم يفضلون الرأى القائل « ان الأشخاص الذين عادة ما ينتهكون القواعد الأخلاقية هم

(١) Ibid, p. 105.

الأشخاص الذين عادة ما يندفعون فى الاتجاهات الموافق عليها . وهم ليسوا حالات خاصة ينبغى عزلهم عن الأشخاص العاديين لأسباب تميزهم بسمات وراثية معينة أو غير ذلك من العوامل الأساسية فاذا كان الأشخاص مثلا يقدمون على الشرب برغم أنه عملا محرما ، بمعنى أن القوانين تحرم بيع الكحولات فربما لم يكن ذلك راجع إلى وجود سبب ما يتعلق بهم ويخصهم دون غيرهم ، وانما لأنهم يشربون يوميا برغم تحريم الشرب . واذا تم القبض على بعضهم وهو يشرب فليس السبب فى هذا انهم مختلفون وانما لأنهم غير محظوظين .

ولذلك ينبغى على عالم الاجتماع أن يتفهم طبيعة البيانات التى يعالجها عندما يقوم بدراسة المنحرفين لأنه يستطيع من خلال هؤلاء المجرمين أن يعرف مثلا ما اذا كانوا قد ارتكبوا فعلا الافعال التى ادينوا بها أم لا . وفوق هذا كله لا تستطيع أجهزة البحث الضخمة المتوافرة لدى البوليس والمحاكم أن تساعدنا على التأكد من ذلك وعلى عالم الاجتماع بدلا من ذلك أن يفهم أنه يتفاعل مع جمهور من الناس كان المجتمع قد قام بتحديدهم ككل على أنهم مختلفون واشتهروا بين العامة تحت اسم الانحراف ونتيجة لذلك ، عليه أن يراجع الطرق التى يقوم من خلال المجتمع بتحديد بعض اعضائه باعتبارهم لا يستحقون المشاركة المستمرة فى الحياة اليومية . ولكى يفهم لماذا يحجز بعض الأشخاص فى السجن عليه أن يفهم الكيفية التى يتم بها تنظيم قوة البوليس خلال عملهم اليومى ، والكيفية التى تم بها القبض على هؤلاء الأشخاص . ولماذا يمثل بعضهم أمام المحاكم ويتم الافراج عن البعض الآخر والكيفية التى يتم بها تنظيم المحاكم وتصل إلى الادانة وهكذا . وقد تكون هناك بالطبع بعض الخصائص المميزة لنزلاء السجون لها علاقة كبيرة بحبسهم لأنها تمثل تلك الأنواع من الخصائص التى يعنى بها رجال البوليس والقضاة وأعضاء المحكمة فى عمليات اتخاذ قراراتهم باحتمال الادانة . فمثلا اذا وجد أن الكثير من المسجونين ممن اعتادوا الاجرام Recidivist بمعنى أنه قد سبق حبسهم فلا ينبغى عليه أن يستنتج

من ذلك أن هذه الخاصية ناشئة عن ضعف أساسى وانما عليه أن يلاحظ ، بدلا من ذلك ، أن رجال البوليس والقضاة واعضاء المحكمة يأخذون بالنظرية القائلة بأن الجريمة تنشأ عن هذه الأفعال الاضطرادية المرتدة . وقد تعتمد امكانية تصديق البوليس للانكار المشكوك فيه على وجود عملية حبس سابقة بسبب نفس الجريمة .

٦ ــ الأخذ بوجهة نظر الفاعل

تعتبر الفكرة التى مؤداها أننا فى حاجة إلى النظر إلى الظروف من خلال وجهة نظر الفاعل واحدة من الأفكار المميزة للتفاعلية الرمزية ، والواقع أن الدعوة بضرورة أن يحاول علم الاجتماع فهم وجهة نظر واتجاهات ومعتقدات أولئك الأشخاص الذين يعنى بدراستهم قد ظهرت فى مناسبات كثيرة متفرقة .

ويعتبر ماكس فيبر من أشهر المدافعين عن وجهة النظر القائلة بأنه على علم الاجتماع ألا يسعى إلى دراسة حركات وانعكاسات الكائنات الانسانية وانما عليه أن يعنى بأفعال الناس فى ضوء الفهم والمعتقدات ولا تتمثل الفكرة التى يستند إليها هذا الاصرار لمدخل الفعل فقط وببساطة فى أنه ينبغى العناية بمعرفة ماذا يفكر فيه الناس ، وانما تتمثل فى القول بأنه اذا لم يتمكن الباحث من معرفة ما يفكر فيه الناس ، فلن يتمكن من معرفة السبب الذى جعلهم يتصرفون على هذا النحو . وهم يتصرفون على هذا النحو على أساس من الظروف وطبقا لتحديدهم لها ولا تعتبر الفكرة القائلة بضرورة أن يفهم عالم الاجتماع أو يأخذ بوجهة نظر الفاعل فكرة شائعة عالميا وانما هناك الكثيرون الذين ينظرون إليها بشك قاطع(١) . ويعتبرون هذه الفكرة من الأفكار الغامضة والتى ينبغى الاعتراض على امكانية تطبيقها لخروجها على احتمالات الدقة فى علم الاجتماع . ذلك لأننا فى محاولتنا فهم وجهة نظر شخص آخر مهما كان ، وفى محاولتنا فهم الحالة العقلية لشخص آخر قد يبدو اننا نحاول أن نضع انفسنا فى موقفه ،

---

(١) Ibid, p. 106.

وأن نقوم بنوع من التأمل الانفعالى حوله ولما كانت مثل هذه التأملات الانفعالية يصعب مراجعتها أو التحقق منها ، قد يبدو كما لو كنا نعمل بطريقة غير علمية .

ومثل هذه الاعتراضات ، تخالف هذا القبول المتواصل لتلك الأنواع من وجهات النظر التى يعارضها ميد . ونعنى تلك الوجهات من النظر التى تدعى أن الجسم والعقل منفصلين انفصالا جوهريا ، وتستند مثل وجهات النظر هذه إلى الافتراض القائل بأنه يمكن لنا أن نلاحظ سلوك الجسم الذى يعد سلوكا ماديا وملموسا ومتاحا لكل ملاحظ ، وأنه لا يمكن لنا ملاحظة الأفكار ومشاعر العقل لأنها أمور غير ملموسة وغير مادية وتتوارى داخل حدود الجسم . ونحن نذكر أن مضمون موقف ميد كان يتمثل فى القول بأن سلوك الجسم هو أيضا سلوك العقل . وأن جسمنا الحى يعد كيانا مليئا بالفعل ويعبر عن ما نفكر فيه ونشعر به . وليست الابتسامات أو الانفعالات من نفس انواع الأشياء التى نعالجها على أنها طبيعية (بمعناه الضيق) . ونحن فى العادة لا نفكر فى الانفعال باعتباره يتسرب من أعيننا أو ننظر إلى الابتسامات على أنها ارتعاش للفم ، وانما عموما نعالج هذه الأمور على أنها تعبيرات على الألم والحزن والسرور والرضا والتسلية وهكذا . ونحن نعالج الأفعال التى يقوم بها الناس على أنها تعبيرات عن ما يفكرون فيه ويشعرون به وتدل على انفعالاتهم ووجهات نظرهم . ونفعل ذلك بدون تردد أو صعوبة . ولذلك ليس هناك مبرر أو سبب يفسر لنا لماذا ينبغى على علماء الاجتماع — على خلاف الأشخاص العاديين — أن يتظاهروا بالعجز عن القيام بعمليات التحقق من حالات الفعل التى تعبر عنها أوجه النشاط المختلفة .

وكل ما ينطوى عليه فكرة الأخذ بوجهة نظر الفاعل محاولة القيام بتسجيل ووصف الأفكار والانطباعات التى يعبر عنها الأشخاص فى التفاعل الاجتماعى ويلى ذلك محاولة فهم هذه الأفكاز والانطباعات — من وجهة نظر هؤلاء الأشخاص بدلا من وجهة نظر الملاحظ الخارجى . وقد ينطبق ذلك مثلا على

القول بأنه فى مجتمع مثل مجتمعنا أن الشخص الذى يلاحظ وهو يبتسم أنه يعبر عن لهو أو تسلية ، بينما قد يحتمل أن يكون فعل الابتسام فى بيئة ثقافية مغايرة فى مجتمع آخر معبرا عن شيء آخر ربما كان الشعور الارتباك ومثل هذه الاختلافات الثقافية لا تشكل صعوبات جوهرية . وبعد كل ذلك ، تتمثل مهمة عالم الاجتماع فى محاولة التعرف على هذه التقاليد المتباينة التى تظهر فى مواقف اجتماعية مغايرة . وبامكانه أن يتعلم هذه التقاليد تماما كما كان قد تعلم سابقا تقاليد مجتمعه الوطنى الخاص وتماما كما تعلم مواطنو المجتمعات الأخرى تقاليد مجتمعه هو .

٧ ــ تفضيل المناهج الكيفية Qualitative Methods

ومن بين هذه المضامين التى تنطوى عليها سياسة الأخذ بوجهة نظر الفاعل القول بأنه على البحث أن يكون مركزا وأن ينجز من خلال اكتساب المعرفة المفصلة الفنية لحياة وظروف وطرق أولئك الذين نقوم بدراستهم ونتيجة لذلك يحتمل أن تمدنا المناهج الكيفية بالطرق المناسبة فى تطبيق هذه السياسة (وبخاصة الملاحظة بالمشاركة) .

رابعا : قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع فى نظر التفاعلية الرمزية :

لقد استعرضنا على طول الأقسام السابقة من هذا الفصل العناصر المختلفة والافتراضات التى تشكل تصوراً متماسكا نوعا أو نموذجا للتنظيم الاجتماعى . وسوف نتعمق فى هذا القسم عناصر هذا النموذج صراحة(١) .

وينطلق عالم التفاعلية الرمزية من افتراضات مؤداها أن تنظيم الحياة الاجتماعية ينشأ من داخل المجتمع ذاته وبخاصة عن عمليات التفاعل بين أعضاء هذا المجتمع . ويرفض الفكرة القائلة بأن شكل التنظيم الاجتماعى يحدد من خلال تأثير عوامل خارجية جغرافية أو اقتصادية . وهو لا يغفل بالطبع كلية أثر مثل هذه العوامل فى تشكيل الحياة الاجتماعية وانما يقر من الوجهة العلمية

(١) Ibid, p. 107.

أن أثر هذه العوامل يتوقف على أنواع التكيف الذاتى التى يحاولها الانسان مع هذه العوامل . وليس لهذه العوامل الخارجية فى ذاتها أى نوع من النتائج المباشرة على الفعل . وكما رأينا فى الأمثلة السابقة ، أن النتائج التى تترتب على بعض الأحداث الطبيعية مثل سقوط المطر مثلا ، سوف يعتمد تأثيرها فى الفعل على الفهم والمعتقدات ومصالح الأشخاص . وعلى الرغم من أن تنظيم المجتمع فى نظر علماء التفاعلية الرمزية ينشأ من داخله الا أنه لا يأخذ نفس الطابع المتسق المستقل الذى تكشف عنه تحليلات المداخل البنائية . ومعالجة حاجات ووظائف النسق الاجتماعى على أنها تحدد تنظيم حياة الناس فى المجتمع معناه الاعتقاد مرة أخرى فى أن الأفراد يستجيبون فقط للقوى الخارجية . وهذه الوجهة للنظر كما رأينا ، لا يمكن أن تتفق والمدخل الذى يأخذ به عالم التفاعلية الرمزية .

ولا ينظر علماء التفاعلية الرمزية إلى المجتمع على أنه نوع من النسق المتكامل باحكام والمحدد تماما من مجموعة اجزاء ، وانما يفترض أن المجتمع يتكون من ترتيبات غير ثابتة نسبيا وتجمعات مهنية تنظيمية عرقية طبقية مكانية سياسية دينية غير متجانسة وهكذا ....

وليس هناك نوعا خاصا من الجماعات ينظر إليه على أنه أكثر أهمية بالطريقة مثلا التى تؤكد بها النظرية الماركسية على الطابع الأساسى للطبقات . وتنطوى حركة المجتمع على التفاعل بين هذه الجماعات غير المتجانسة ويتسم هذا التفاعل فى أسلسه بأنه تنافسى بمعنى أن بعض هذه الجماعات (أو بعض التحالف بين هذه الجماعات) قد تكتسب قدرا من السيطرة وقد تتمتع بوضع متميز على نحو خاص داخل عملية الضبط الاجتماعى والتنظيم والاتصال . وليس هناك أى تبرير نظرى مسبق يجعلنا نتوقع وصول جماعة معينة إلى مثل هذا الوضع المتميز[١] .

---

(١) Ibid, p. 108.

١ ــ المجتمع باعتباره نظاما التفاوض فى نظر انسلم شتروس

استطاع شتروس Strauss وزملاؤه فى مؤلفهم أيديولوجيات الطب النفسى « بلورة تصورهم للتنظيم الاجتماعى للمجتمع وأجزاؤه المكونة له ، بالاعتماد على مفهوم نظام التفاوض Negotinated Order ويركز مفهوم نظام التفاوض على الحقيقة القائلة بأن المجتمع يمر بحالة تنظيم مستمرة . وليس معنى هذا أن المجتمع يمثل تنظيما ثابتا ويشرع فى العمل بطريقة ثابتة . وانما معناه أن المجتمع يمر بحالة تنظيم واعادة تنظيم دائمة . ويظل أولئك الذين يعيشون داخل المجتمع فى أخذ ورد باستمرار مع ترتيباته ، فهم دائما ما يعدلونها ويعيدون ترتيبها ويحافظون عليها أو يدافعون عنها أو يعملوا على هدمها . ولذلك فان أعضاء المجتمع دائما ما يدخلون فى عملية تفاوض مع بعضهم الآخر طالما هم الذين يتفقون على الكيفية التى سوف يتصرفون هم أنفسهم بها وطالما هم الذين يراجعون ويغيرون ما اتفقوا عليه عبر الزمن .

ولقد تم ابتكار مفهوم نظام التفاوض خاصة للتغلب على مشكلة تفسير طبيعة تقسيم العمل فى مستشفيات الطب النفسى وقد نتوقع أن يكون لهذه التنظيمات تقسيما واضحا وثابتا ومحددا تماما لكل من العمل والسلطة بالنسبة لأولئك الذين يعملون داخله ، ونعنى الاطباء وهيئة التمريض والمرضى والمساعدون والجمهور. غير أن هذا التوقع لم يكن حقيقيا فى التنظيمات التى قام شتروس وزملاؤه بدراستها بل كان الموقف يمتاز بدلا من ذلك بالتغير المستمر والمرونة وكانت خطوط الاتصال والمسئولية والخصوصية تعدل وتراجع باستمرار ، كما تحققت هناك صور مختلفة للتوازن بين أجزاء متباينة من نفس المستشفى وفى أوقات محددة ، وفى أوقات محددة ، أو فى نفس الأجزاء من المستشفى ولكن فى أوقات متباينة .

وكشف ستروس عن بعض مصادر هذه المرونة على النحو التالى :

١ ــ ليس هناك اجماع ثابت داخل جماعة الأطباء النفسيين على التنظيم المناسب لشئون العمل . وانما هناك مدارس متباينة فى الطب النفسى

وسوف يتوافر لدى أعضاء هذه المدارس المختلفة فهما مغايرا فيما يتعلق مثلا بالمسئوليات الخاصة والحقوق والالتزامات لكل من المعالجين والمرضى .

٢ ــ ليس هناك اجماع كذلك بين هذه الجماعات . اذ يحتمل مثلا أن نجد فى الغالب بين الأطباء النفسيين وهيئة التمريض تصورات متباينة للطرق التى يمكن من خلالها تقديم خدمات التمريض للمرضى وتنظيم برنامجهم الطبى فسوف يتوافر لدى الأطباء النفسيين مجموعة معينة من وجهات النظر حول الكيفية التى يمكن بها لهيئة التمريض أن تنجز عملها وسوف تعمل هيئة التمريض ، ومن خلال تدريبهم غير الطبى ، على تطوير مجموعة أخرى من الآراء حول الأولوية وفاعلية وامكانية تطبيق والأخذ بالأشكال المتباينة من العلاج الطبى .

٣ ــ وهناك حقيقة أخرى مفادها أن الضعيف حتى قد يتمتع بالقوة ، فعلى الرغم من أن الأطباء النفسيين قد يظنون أنهم يحتلون أوضاع القمة فى تدرج السلطة داخل المستشفى . الا أنهم ليسوا فى وضع يمكنهم من تحقيق توقعاتهم وتفضيلاتهم وفرض سياساتهم على الجماعات الأخرى وليست الجماعات الضعيفة مثل هيئة التمريض أو المرضى تفتقر تماما إلى القوة على المستويات الرسمية الأعلى . وذلك لأنه ينبغى على هيئة التمريض أن ترعى السير اليومى لعمليات حماية وتنفيذ النظام المفضل الذى قام الأطباء النفسيون بوصفه للمرض واذا رفضت هيئة التمريض التعاون مع الأطباء النفسيين فانهم فى الحقيقة يضعون العراقيل فى طريق رؤسائهم[1] .

والمهم أن نعترف بأن مفهوم التفاوض ينبغى فهمه على نحو فلسفى . ولم يشر شتروس بأية وسيلة إلى أن الناس ينشغلون طول الوقت فى عملية تفاوض صريحة مع من هم فى أوضاعهم . وأنهم لا يوقعون اتفاقا أو يكتبون ما يتفقون

(١) Ibid, p. 109.

عليه صراحة . وأحيانا بل وعادة ما يدخلون فى نوع من التوافق المتبادل الضمنى وغير المعبر عنه فى أفعالهم ومشاعرهم واتجاهاتهم ومصالحهم وادراكهم والتى كان يرى شتروس اننا نعتبرها كما لو كانت عملية تفاوض أو مساومة .

(٢) الذات والمجتمع فى نظر ارفنج جوفمان :

نذكر أن ميد كان يرى أن الذات ما هى الا كيان قد تم تنشئته وتطوره من خلال التفاعل الاجتماعى . ولا يكون الفرد بذلك مجرد مدركا أو واعيا لوجود الآخرين عموما وانما يكون قد استمد الاتجاهات والقيم السائدة فى الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه ، وقد تعلم الاتجاهات والقيم وقد أدمجها فى تكوينه النفسى بالطريقة التى تمكنه من أن ينفذ تلقائيا إلى هذه الاتجاهات ويستوعب كذلك الخبرة بالمشاعر المناسبة اجتماعيا ثم يقوم بالأفعال المناسبة أيضا على هذا الأساس. واستمرت التطورات فيما بعد على التفاعلية الرمزية لتدعم وجهة نظر ميد وتشاركه تصوره فيما يتعلق بالذات وطبيعتها وكيف أنها تتطور وتتحول عبر الزمن . ومن بين الأفكار المحورية فى هذا المدخل اعتبار عضو المجتمع بمثابة مخلوق له ذات واعية يستخدم ذكاؤه فى تنظيم افعاله . وهذا الاعتراف بأن الفرد يتمتع باحساس بالذات فى حاجة إلى الاهتمام بأصول هذا الاحساس وتطوره . وكيف تصبح الذات محدودة ؟ وكيف أن نمط تحديدها يتعدى عبر الزمن ؟ ولعلماء التفاعلية الرمزية اهتمام عام بالطريقة التى ينشغل بها أعضاء المجتمع ، فى أن يعرف كل واحد منهم بالآخر ومن يكون وذلك من خلال سير تفاعلاتهم العادية ولقد تمت البرهنة على هذا الاهتمام بشكل عام فى دراسة الطرق المتفق عليها والتى يقوم بها الأفراد بتوصيل الآخرين وتعريفهم بمكانتهم الاجتماعية وأدوارهم أو شخصياتهم. ويوضح ارفنج جوفمان فى كتابه « تقديم الذات فى الحياة اليومية » بشىء من البلورة جانبا كبيرا من الجهد الذى بذل فى هذا المجال واضاف إليه اسهامه الأصيل . ويحاول جوفمان فى هذه الدراسة أن يقدم اطارا تصوريا منسقا نوعا يساعد على ملاحظة وتحليل تنظيم عملية الاتصال المتبادلة بين الأفراد هذه[١] .

(١) Ibid, p. 110.

فاذا فكرنا فى الخصائص المتباينة التى تمتاز بها نجدها واضحة ما فيه الكفاية لدرجة أن الكثير منها يصعب ملاحظته بالطريقة التى قد نلاحظ بها لون أعيننا أو شعرنا . وذلك لأنه يمكن للبعض وببساطة بالعين المجردة أن يرى على نحو عادى مثل هذه الخصائص الشخصية . نجد أن هناك الكثير من الأدوار التى نقوم بها والكثير من الخصائص الشخصية التى تميزنا والكثير من الاتجاهات التى نأخذ بها والتى لا يمكن ملاحظتها على هذا النحو المستقيم اذ لا يستطيع أحد أن يقول لنا ما اذا كنا نميل إلى اليمين أو اليسار ، اطباء أو مرضى أمناء أو مفشين للأسرار وذلك ببساطة من خلال النظر إلى مظهرنا الخارجى . ولا يستطيع أحد أن يقرر مثل هذه الأمور . ولقد حاول جوفمان فهم الطرق التى يمكن بها تحقيق هذا الهدف بمعنى الطرق التى يمكن بها ملاحظة تحديدات الذات كل منا للآخر كشيء متوقع أو طبيعى واعتمد فى هذا الصدد على اسلوب الاستعارة . فلنفترض أن حياتنا العادية تشبه الحياة على المسرح . اذ يواجه الممثل على المسرح مشكلة تقديم نفسه للجمهور كشخصية معينة فى المسرحية ، فكيف يمكن للممثل أن يجعل الجمهور مقتنعا بأنه رجل البوليس المقصود فى هذه المسرحية ؟ والاجابة على هذه الأسئلة هى أنه من خلال استخدامه للمواد المساعدة وملابسة وطريقته فى المشى والكلام ومن خلال اعتمادة على الأدوات الميكانيكية والجمالية وهكذا . ويذهب جوفمان إلى أننا نقنع جمهورنا أو أولئك الأفراد الذين يجب أن نعيش معهم ، بأننا من نكون وبما نشرع فى اتخاذه بأنفسنا بنفس طريقة الممثل . فطرقنا فى الملبس وأساليبنا فى الحديث والحركة وخصائصنا الفيزيقية وممتلكاتنا المادية ومواقعنا الجغرافية وكل هذه الأمور يمكن توصيلها وأن نعاملها بطريقة متفق عليها على أنها تعبيرات عن الدور والشخصية والاتجاه . ويقرر أن الكثير من سلوكنا فى معاملاتنا المباشرة ببعضنا مع الآخر ، يمكن النظر على أنها عملية ادارة للمعلومات Information Management ويزيد انشغالنا بعملية التحكم فيما يمكن توصيله عن ملبسنا ومظهرنا وعاداتنا ، حتى يعتقد الآخرون بأننا نفس هذا الشيء الذى ندعيه. فمثلا ، من خلال تقديم أنفسنا فى الطرقات الجانبية للمستشفى ونحن نرتدى معطفا أبيض ونحمل سماعة

طبية ، فاننا ندعو الآخرين إلى التسليم بأننا اعضاء فى الهيئة الطبية[1] .

وأكثر من ذلك ، فبامكاننا أن ننظر إلى الحياة الاجتماعية باعتبارها تشتمل على فرق قام تنظيمها على نحو يحافظ على تصوراتنا لذواتنا . اذ تشتمل هذه الفرق على المسرح مثلا وتتكون من الممثلين والمساعدين الذين يحاولون المحافظة على اقتناع الجمهور بأن ما يشاهدونه هو صراع على القوة بين اثنين من ملوك العصور الوسطى أكثر منه مجرد بعض الممثلين الذين يرتدون ملابس تاريخية ويرون نصا مسرحيا أمام ستارة مزركشة ، وباستطاعتنا بالمثل أن ننظر إلى هيئة المستشفى باعتبارهم فريقا يسعى نحو أن يحافظ على اقتناع المرضى وربما اقاربهم بأن شفائهم أمرا ممكنا ، وأن المستشفى تؤدى عملها بثقة وكفاءة ، حتى ولو أن الهيئة تتوقع تدهور ووفاة المريض ، وحتى ولو أنهم يفتقدون الثقة فى معرفة ما يفعلونه وحتى ولو انهم كانوا مدركين للأخطاء التى قد حدثت .

ويصف جوفمان السلوك فى المسائل الاجتماعية باعتباره يمثل مجموعة طقوس معقدة تتعلق بضبط عملية الاتصال . اذ يسعى نحو التعامل مع الرموز التى تتفرع إليها نشاطاتهم ومظهرهم وتعبيراتهم بتلك الطريقة التى تعمل على دعم تصوراتهم الخاصة وتصورات الآخرين لذواتهم الشخصية وفى اطار مجموعة الطقوس هذه حتى التلميحات أو الأفعال البسيطة والتى قد تبدو لا صلة لها بالموضوع قد ينظر إليها على أنها توصل شيئا ، أو جزءا من عملية تقديم الذات . وتمثل مناقشة جوفمان لسلوك الجراح فى عملياته نموذجا كلاسيكيا على ذلك ، فقد نفكر فى العمليات بالأسلوب التى تنقل به فى الأفلام السينمائية باعتبارها مواقف للتوتر الشديد والقلق والجدية التامة . ويذكر جوفمان أن الجراح على مسرح العملية الجراحية غالبا ما يكون مستهترا فى اتجاهه يلقى الكلمات الساخرة والنكات والحديث غير المبال والذى لا صلة له بالعمل الذى يقوم به . ويعبر هذا السلوك الخال من الحنان فى نظر جوفمان عن احساس الجراح بأنه يتحكم فى الموقف تماما من خلال توصيله لأولئك الذين يظهرون

---

(١) Ibid, p. 111

على المسرح متمدعة بأن العمل الفعلى الذى تتطلبه العملية لا يحتاج منه الكثير لأنه باستطاعته أن يقوم به مع قدر بسيط من الانتباه فقط وبإمكانه أن يكرس بقية انتباهه نحو مسائل ليس لها صلة بالعمل الذى فى يده وقد يعنى القيام بالعمل فى نظر الجراح ، بالأسلوب الذى يوصله الفيلم السينمائى أنه يعطى الآخرين الانطباع بأن كل عملية عبارة عن اختبار شامل وتام لقدراته ومهاراته ، بينما هو ينظر إلى نفسه عادة باعتباره واحدا من الذين تعتبر العمليات بالنسبة لهم مسائل تتعلق بالنظام الاعتيادى والمألوف والذى يقع تماما فى حدود كفاءاته

٣ ـ التنشئة الاجتماعية كعملية فعالة فى نظر هيواردبيكر

ولقد أثار النظر إلى عملية توصيل الفرد لاحساسه بالذات على نحو طبيعى ما فيه الكفاية . أثار مجموعة تساؤلات حول أصول الاحساس بالذات كيف نصل إلى التفكير فى أنفسنا كأطباء أو مرضى أو مهما كان العمل ؟ وكيف تتم عملية تنشئتنا على ذلك وكيف نتعلمها ؟[١]

وكان التفاعليون الرمزيون فى طليعة المدافعين عن البحث المتعلق بعملية تنشئة البالغ وكانوا قد انتقدوا بشدة تلك التصورات لعملية التنشئة الاجتماعية التى تعتبر السمات الأساسية للسلوك قد ترسخت فى مرحلة الطفولة ولا تخضع لأى تعديل لاحق وهذا الفهم لعملية التنشئة الاجتماعية يصفع فى نظر التفاعليون وبقوة الفكرة القائلة « ان ما نتعلمه فى المراحل الأولى للطفولة يؤدى آليا إلى انواع معينة من انماط السلوك التى لا يمكن تعديلها والتى تظهر فى مرحلة البلوغ وهى فكرة تماثل مرة ثانية الرأى القائل بأن :

المنبه يؤدى آليا إلى استجابة ثابتة

ولذلك ليس من الغريب أن نجد المدافعين عن التفاعلية الرمزية يرفضون عموما ذلك النموذج الذى يفترض أن انماط السلوك لدى البالغ يمكن فهمها

---

(١) Ibid, p. 112.

باعتباره مظاهر لأنماط الاستجابات التى ترسخت فى الطفولة وطبقا لذلك ، فانهم يأخذون بالرأى القائل بأن عملية التنشئة الاجتماعية وعملية تعلم السلوك هى عملية مستمرة بمعنى أنها تبدأ فى الطفولة وتستمر على طول مرحلة البلوغ . ويذهبون إلى أن هناك حاجة إلى الاعتراف بوجود واستمرار عملية التنشئة فى مرحلة البلوغ والاعتراف كذلك بأن بعض عمليات التنشئة فى مرحلة البلوغ قد تكون شديدة لدرجة يمكن لها أن تؤدى إلى تغيرات تماما فى تصور الفرد لذاته . فيعد مثل ذلك النوع من الخبرات التى تترتب على دخول التنظيمات الشاملة كافيا غالبا لتحدى احساسنا الخاص بأننا حتى نمر بمرحلة البلوغ فقد ينطوى دخول السجن أو المعسكرات الأسرى أو مستشفيات الأمراض العقلية على انتهاك أو اعتداء على تلك الحقوق المتعلقة بالخصوصية والتحكم فى الاقتراب من أجسامنا والتى نعتبرها مسألة محورية ومكملة لوضعنا كبالغين ، وقد تشتمل اجراءات الدخول إلى هذه التنظيمات على نوع من الاذلال والخزى وبعض الخبرات غير السارة التى تصيب بعنف احساسى بنفسى اعتبارى فردا مستقلا يتطلب الاحترام والمعاملة بأدب من الآخرين ، وبهذه الطريقة يمكن أن يتم تعديل السمات الشخصية فى مرحلة البلوغ ، ومن ثم تعتبر نظرية التنشئة الاجتماعية التى لا تفسح المجال لهذه الامكانية نظرية غير كافية . وتعتبر معظم أنماط السلوك التى يتعلمها البالغ بالطبع قوية فى طابعها كتلك التى تنطوى عليها عملية الدخول إلى مثل هذه التنظيمات الشاملة وفى تطور دورة حياة البالغ يمكن فهمها على أنها عملية تعديل مستمرة للسلوك خلال عملية التعلم . ولقد أوضحت دراسة بيكر على سبيل المثال لعملية التنشئة المهنية لطلاب الطب Boys in White أن هؤلاء الطلاب يقل انشغالهم بتعلم كيف يكونوا أشبه بالأطباء عنه فى تعلم الكيفية التى يكونوا بها طلابا .

ولقد وجد أن هناك نمط يشبه النزعة الكلبية Cynicism فى السلوك يظهر بين الطلاب بمعنى الشك والسخرية وعلى الرغم من أنهم يبدأون فى دراستهم عند الالتحاق بالكلية بنظرة مثالية بما يجب عليهم عمله فى مدرسة الطب وباصرار على أن يصبحوا من أطباء الدرجة الأولى نجد أن الطلاب بعد برهة

ينحصر هدفهم فى مجرد اجتياز امتحانات المدرسة . وتجعل خبرتهم النامية فى مدرسة الطب من الواضح على نحو متزايد بأنه يصعب عليهم استيعاب كل المعلومات التى يلاحقهم بها المدرسين . وكذلك يصعب عليهم الوفاء بكل واجبات العمل المحددة لهم[1] . ويشعر الطلاب بأن عليهم أن يطوروا بينهم طرقا لانتقاء المعلومات والمصادر والعمل وأساليب الاختبار . حتى يتمكنوا من ضمان القيام بعمل كاف على الأقل لتخرجهم .

ويذهب بيكر إلى أن الطلاب كانوا يعملون طبقا لمنظورات زمنية اذ نجدهم قد بدأوا بمنظور طويل المدى ويتصور يتعلق بكيفية الوصول إلى أطباء الدرجة الأولى على المدى الطويل . وقد ثبت أن هذا المنظور طويل المدى يتعذر الدفاع عنه فى مواجهة واقع الحياة فى مدرسة الطب . ولذلك تخلى عن هذا المنظور لصالح منظور قصير المدى نسبيا والذى يتعلق باجتياز الاختبارات ولقد أصبح الطلاب فى شك وسخرية من دوافعهم بمعنى أنهم كانوا على استعداد بعمل أى شيء ضرورى لضمان تخرجهم . ولكنهم لم يتخلوا جميعا عن طموحهم فى التفوق فى ميدان الطب وانما قد علقوا فقط هذا الطموح فى صالح التغلب من الناحية العملية على المتطلبات المباشرة والتى تؤرقهم وكانوا مقتنعين بأنهم بعد التخرج يستطيعون استعادة طموحهم فى الوصول إلى المراتب العليا فى مهنتهم وباستطاعاتهم أن يكرسوا أنفسهم فى هذه المرحلة المتأخرة من مسيرتهم المهنية فى تطوير وتحسين مهاراتهم .

ويؤكد هذا الاستخدام لمفهوم المنظورات الزمنية فى الواقع وهذا الاهتمام العام بالتركيز على استمرارية عملية التعلم فى مرحلة البلوغ يؤكد مرة ثانية الأهمية التى يعلقها التفاعليون الرمزيون على الطابع المؤقت للنشاط . فالحياة الاجتماعية تتم فى الزمن على نحو لا فكاك منه وتمثل خبرة ثابتة باستمرار . ويحتاج عالم الاجتماع إلى أن يتقبل الحقيقة القائلة بأن الأحداث التى يلاحظها تقع على نقطة عبر سير الأحداث ويصعب أن نفهمها الا اذا فهمت فى علاقتها بالأحداث التى سبقتها وتلك التى تلتها . وسوف يساء فهم طبيعة حالة الشك

(1) Ibid, p. 113.

والسخرية Cymicism لدى طلاب الطب اذا نظر اليها ببساطة على أنها عملية حساب ومحاولة استراتيجية للمرور إلى المهنة . وذلك أن هذه الظاهرة لها وضعها النسبى وهى تمثل اتجاها مؤقتا يتبناه الطلاب فى وقت محدد وظروف خاصة .

ولا ينظر التفاعليون الرمزيون إلى العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها تسير وفق نوع من الحتمية ويعتبر الفرد فى نظرهم مخلوقا اجتماعيا وليس مجرد دمية يحركها المجتمع ، ولا تشكله آثار العوامل الخارجية مرة واحدة والى الأبد ، وانما تشتمل هذه العلاقة على التفاعل حيث يتعلم الفرد من المجتمع وفى نفس الوقت يعمل على تعديل مجتمعه من خلال استخدامه لعقله . اذ يستطيع الفرد أن يبتكر ويضيف الجديد وباستطاعته أن يستخدم هذه القدرات فى المساومة مرة أخرى مع النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه(١) .

الخلاصة :

اذا كانت التفاعلية الرمزية عبارة عن نقد لأولئك الذين يتخذون موقف العالم الطبيعى ، فان نفس علماء الاجتماع ينتقدون بالتبادل الطريقة التى لا تعنى بها التفاعلية الرمزية بمشكلات الدليل والبرهان والنظرية المنسقة . وبمثل ما ينتقد التفاعليون الرمزيون أولئك الذين يؤمنون بوجهة النظر الحتمية الصريحة للعلاقة بين الفرد والمجتمع فانهم يواجهون بالرأى القائل بأنهم بدورهم قد أغفلوا أهمية العوامل البنائية والضغوط وقللوا من شأن المدى الذى تعوق به الظروف الاجتماعية عمليات الاختيار . ويعتقد أولئك الذين يؤكدون على استراتيجية البنائية وتحليل الوحدات الكبرى فى علم الاجتماع ، أن مدخل التفاعلية الرمزية قد منى بالفشل لأنه لم يحاول أن يقدم تصورا للتنظيم الاجتماعى وفى محاولته تفسير النظام الاجتماعى الشامل ، نجده يبالغ فى تأكيد أهمية التقسيمات الدينية والعنصرية وما اليها على حساب تلك التقسيمات التى تظهر عن التدرج الاجتماعى . ويعد مدخل التفاعلية الرمزية من هذا المنطبق حليف

(١) Ibid, p. 144.

قوى لوجهة النظر الليبراليه الجماعية تجاه المجتمع ، ويتجاهل المدى الذى يعتبر به المجتمع نسقا ، وكذلك النسق الطبقى داخله ، وحتى علماء الاثنوميثودولوجيا الذى غالبا ما ينظر إليهم على أنهم ينتسبون إلى التفاعليين الرمزيين فهموا فى انتقادهم واتهامهم بأنهم مجرد محاولة تقليدية اخرى فى علم الاجتماع لأنها تعتمد على الفهم الشائع للمجتمع والذى لا يقبل المراجعة[1] .

(١) يستطيع القارىء أن يتابع المناقشة والتقويم لاسهام التفاعلية الرمزية ، والنقد الذاتى والموضوعى والخارجى والتحيز الأيديولوجى على الصفحات ٤٢٢ ــ ٤٣٥ من كتاب دكتور محمد على محمد ، تاريخ علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ م .

الفصل السابع

نظرية التبادل الاجتماعى

مقدمة

١ – القضايا الاساسية .

٢ – انصار نظرية التبادل الاجتماعى .

أ– جورج هومانز .

ب – بيتربلاو .

– مناقشة وتعقيب .

الفصل السابع

نظرية التبادل الاجتماعى(*)

١ - مقدمه

ظهرت نظرية التبادل الاجتماعى فى الخمسينيات من هذا القرن، وهى تقوم على مجموعة من الأفكار الاساسية. يتمثل بعضها فى ان الناس فى عملية التفاعل الاجتماعى إنما يتبادلون أنماط السلوك. حيث ترجع هذه الفكرة الى القرن التاسع عشر. ولقد نبعت تلك النظرية من بعض المصادر الأساسية والتى يتمثل بعضها فى المصدر الاقتصادى، والذى يكون ممثلا فى تلك التغيرات التى صاحبت ظهور الثورة الصناعية، وما ترتب عليها من اتساع لنطاق التجارة بين دول اوربا، وازدهار المشروعات الصناعية والتجارية التى عملت بدورها على إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية بطريقة مباشرة.

كما أدى تشجيع المنافسة الى ظهور النزعة الفردية والتأكيد على الاهتمام من الناحية الاقتصادية بما يعرف باسم «اقتصاد السوق» Market-Economics (١) وترجع فكرة التبادل هذا الى علم الانثروبولوجيا أيضا. حيث ينظر إلى المجتمع باعتباره شبكة من التبادلات المنظمة عن طريق معيار تبادلى، ومن ناحية اخرى يتمثل ذلك المصدر الآخر لها فى علم النفس التجريبى واهتمامه بقيم الناس وسلوكهم الفردى الملموس، والذى

---

* اعد هذا الفصل د. السيد الرامخ

(١) د. محمد على محمد. تاريخ علم الاجتماع : الرواد والاتجاهات المعاصرة، الطبعة الثانية، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤ ، ص ٤٨٦.

تعبر عنه بحوث «سكينر» B.F.Skinner* حيث يحاول أنصار علم النفس التجريبى تجنب إخضاع تلك الجوانب غير الملموسة فى الفعل الانسانى للاختبار؛ ومن ثم فانهم يحاولون بدلا من ذلك بناء أو تشييد نظرية متكاملة عن السلوك تتصل بالاستجابات الواضحة والناتجة عن تلك المثيرات القابلة للملاحظة؛ وذلك على عكس ما أكد عليه بعض انصار التفاعلية الرمزية من امثال «ميد» من ضرورة الاهتمام بالمعانى والجوانب الداخلية غير القابلة للملاحظة. وبذلك يتشابه علم النفس التجريبى مع الانثروبولوجيا فى ذلك المنظور التبادلى وتأكيد كل منهما على ما يعرف باسم «أخلاقية التبادل الاجتماعى» Morality of Social exchange [1].

علاوة على ذلك يرتبط علم النفس التجريبى أيضا بما يعرف «بمذهب اللذة» Hedonism والذى يقوم على اعتقاد يكمن فى قدرة الأفراد على التمييز بين اللذة والألم، وتصور العالم باعتباره عالما يسعى الى تحقيق مزيد من إشباعات اللذة والسرور مع تفادى كل مصدر من مصادر الألم. وبذلك يمكن القول إن النظرية التبادلية إنما ترجع أساسا إلى تلك المصادر الأساسية التى نبعت منها مسلماتها الاجتماعية والتى اشتقت من النظرية الاقتصادية، وهى ترتبط باسهامات اثنين من علماء الاجتماع وهم «چورچ هومانز» و «بيتر بلاو» ، وتعتبر هذه النظرية أن الفرد هو وحدة التحليل فيها، وأنه من خلال فهم السلوك التبادلى للأفراد تتكون لدينا المعرفة بالجماعة التى

---

(1) Rutho A. Wallace & W. , Contemporary Sociological Theory, U.S.A. , N.Y., 1980, PP. 171 - 174.

* وردت معالجات مستفيضة حول إسهامات سكينر فى علم النفس التجريبى وخاصة بالفصل الثالث فى جورج غازدا، ريموند جى كورسينى، نظريات التعلم: دراسة مقارنة، ترجمة د. على حسين حجاج، د. عطية محمود مهنا، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٧٠ ، الكويت ، ١٩٨٣ .

تكتسب صفاتها وخصائصها من أعضائها الأفراد؛ ومن ثم فهى ليست ذات كيان مستقل[1].

١ - القضايا الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعى :

كما تنحصر القضايا الأساسية لنظرية التبادل الاجتماعى فى علم الاجتماع فى خمس قضايا وهى :

أ - «قضية النجاح» وتعنى أنه إذا ما كوفئ شخص نتيجة لقيامه بنشاط معين، فان ذلك الشخص يكون أكثر رغبة بعد ذلك لانجاز هذا النشاط والقيام به.

ب - «قضية الحافز أو المثير» وتعنى أنه لو حدث مثير فى الماضى وأدى الى خلق ظروف معينة قام خلالها الشخص بنشاط حصل منه على مكافأة، وكان هناك تشابه كبير بين ذلك المثير فى الماضى والحاضر لكان من المحتمل قيام الشخص بنشاط مماثل؛ لما قام به فى الماضى وحصل منه على مكافأة. أى أن تلك القضية تعبر عن أن الناس دائما ما تربط بين الأفعال التى يقومون بها فى الحاضر وبين التى قاموا بها فى الماضى وحصلوا من خلالها على مكافات.

جـ - «قضية القيمة» تعنى أنه كلما انطوت نتيجة فعل الشخص أو نشاطه على قيمة كلما زاد احتمال قيامه بذلك النشاط الذى يعد فى نظره ذا قيمة أكبر بالنسبة له. وكذلك تتحدد القضية الرابعة فى العقلانية وترتبط بالاختيار بين أفضل الافعال البديلة؛ حيث إن الشخص يقوم بالاختيار من بين أفعاله بعضها الذى يكون ذا قيمة ويدركها بنفسه.

---

(١) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع: **الرواد والاتجاهات المعاصرة**، مرجع سابق، ص ٤٨٧ - ٤٨٨.

د - «قضية الشبع والحرمان» The deprivation - Satiation وهى تنقسم الى شقين الأول منها ويعنى أنه حينما لا يتمكن الشخص من خلال أفعاله التى يقوم بها الحصول على تلك المكافأة التى كان يتوقعها فإنه سوف يغضب؛ ومن ثم يكون أكثر ميلا نحو القيام بسلوك عدوانى وتصبح نتائج هذا السلوك بالنسبة له فيما بعد أكثر قيمة. ويتحدد الثانى فى أنه حينما يقوم الشخص بفعل معين يتوقع له مكافأة، ومن ثم يحصل على مكافأة أكبر من التى كان يتوقعها، ولم يحصل على العقاب الذى كان يتوقعه، فانه يصبح مسرورا ويكون أكثر رغبة فى القيام بانجاز سلوك مقبول وتصبح نتائج ذلك السلوك أكثر قيمة بالنسبة له؛ وذلك حينما ينطوى الموقف على عدالة فى توزيع المكافآت.

هـ - كما تقدم القضية الأخيرة البديل السوسيولوجى «القانون تناقص الغلة» Declining Marginal utility - كما يعبر عنه الاقتصاديون - فى أنه إذا حصل الانسان على شئ ذى قيمة فإن اهتماهه بذلك الشئ سوف تتناقص قيمته تدريجيا وذلك لمجرد حصوله على أشياء أو وحدات أخرى، وتكمن أهمية تلك القضية بالنسبة لعلم الاجتماع فى التأكيد على أن كثيرا من توقعاتنا إنما تكون ذات جذور عميقة وتنبع أصلاً من العادات والتقاليد والمعايير الاجتماعية والتى تكون مصدراً للحكم على ما يحدث هل هو عدل وحق أم غير ذلك ؟[1].

ومن خلال النظر إلى القضايا الأساسية لها نجد أن تلك النظرية تفترض أن الأهداف والحاجات الخاصة هى المحرك الأساسى للأفراد، نظراً لما تحققه لهم من إشباع عاطفى يفوق بكثير التضحية بالذات، ذلك الاشباع لا يحدث فى فراغ ولكن يتبادلونه من خلال عملية التفاعل فيما بينهم. حيث يحسب كل فرد العائد والتكلفة فى تلك العلاقات الموجودة بينهم، ويقدم

(1) Ruth A. Wallace.. & alison wolf op. cit., p. 165 - 180

بعد ذلك سلوك يتمثل فى الاختيار بين أفضل البدائل المطروحة والذى يطلق عليه «بالفعل الطوعى Voluntary ، ويطلق على الأشياء التى تحقق لهم المكافأة بالقبول الاجتماعى، ومن ثم فإنهم يقبلون أو يستبعدون بعضهم البعض على أساس القبول أو النقد[١].

٢- أنصار نظرية التبادل الاجتماعى

(أ) جورج هومانز[*] G.C. Homans

«ففى الجماعة الانسانية يتجلى المذهب الوظيفى بتركيزه على الغاية أكثر من ارتكانه إلى الوسائل. وقد وضحت وجهة النظر هذه فى أعمال هومانز»[٢].

ويعتبر «جورج هومانز» من بين ممثلى نظرية التبادل الاجتماعى. ويتضح ذلك من خلال إسهاماته العديدة فى مجال بحوث الجماعات الاجتماعية، ولقد تأثر جورج هومانز بأعمال كل من «باريتو» و «هندرسون» Henderson، وكذلك أيضاً تأثر ببحوث سكينر فى علم النفس التجريبى[٣].

وقد اهتم «هومانز» بالتاريخ الاجتماعى الإنجليزى، وأخرج فى عام (١٩٤١) مؤلفاً بعنوان «القرى الانجليزية فى القرن الثالث عشر» English Villager of the thirteenth century ، ومن بين مؤلفاته التى تعبر عن اهتمامه بدراسة الجماعات الاجتماعية مؤلفة بعنوان «الجماعة الانسانية

---

(١) د. محمد على محمد ، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، مرجع سابق، ص ص ٤٨٩ - ٤٩٠.

(٢) د. غريب سيد أحمد، المدخل فى دراسة الجماعات الاجتماعية، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(3) Ruth A. Wallace. & alison wolf. op . cit., p. 165 - 180.

(*) ولد في عام ١٩١٠ في ظل أسرة بجمهورية بوستون Boston ، وتخرج من جامعة هارفارد التى قضى فيها كل عمره الاكاديمى، وذلك ما عدا أربع سنوات ونصف قضاها فى نافيا Navy وبعد ذلك تولى رئاسة الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، ولم يكن معروفاً فى أمريكا قبل ذلك كعالم اجتماع، ولكن حينما قبل الدعوة للاشتراك مع باريتو فى سيمينار، قد تم اختياره فى العام التالى عالم اجتماع بجامعة هارفارد.

(١٩٥٠)، Human Group، وكذلك فإنه مع نشره لذلك المؤلف قد تعرض لانتقادات عديدة حاول بعد ذلك تلاشيها فى هذا المؤلف الذى أخرجه بعنوان مقدمة «فى علم النفس الاجتماعى» Hand Book of Social Psychology، وأخيراً مؤلفه بعنوان «السلوك الاجتماعى وأشكاله الأساسية» (١٩٦١)[1] Social Behavior: its Elementary Forms.

كما يمكن مناقشة اسهامه فى مجال دراسة الجماعات الاجتماعية من خلال تناول مؤلفه «الجماعة الانسانية»، والذى حدد فيه مفهوم الجماعة الاجتماعية، وأوضح فيه الأسباب التى دفعته الى دراسة تلك الجماعات وكذلك يتضح إسهامه من مؤلفه «السلوك الاجتماعى وأشكاله أو عناصره الأساسية». حيث عمل فيه على بلورة مجموعة من القضايا العامة لتفسير سلوك الأفراد داخل الجماعات الاجتماعية، وذلك بهدف التوصل فى النهاية إلى صياغة نظرية ملائمة لدراسة الجماعة. وقد تحدد اسهامه من خلال ثلاث خطوات أساسية قام بها، تمثلت الخطوة الأولى فى حصر الدراسات السابقة والتى تناولت دراسة الجماعة فى حالة ثباتها وتغيرها. وحدد هذه الدراسات فى خمس هى الدراسة التى أجريت على غرفة الملاحظة بشركة ويسترن اليكتريك، ودراسة جماعة الناصية التى قام بها «وليم فوت هوايت» والثالثة هى دراسة التغير فى بناء المجتمع القروى الانجليزى، والرابعة قد أجريت على محددات الروح المعنوية فى إحدى الشركات الصناعية والتى أجراها «ارنسبرج» وغيره، وأخيراً دراسة النسق القرابى فى المجتمعات البدائية[2]. حيث قام بمراجعة النتائج التى انتهت اليها هذه الدراسات من أجل صياغة نسق احتياطى حول سلوك الأفراد فى الجماعات الاجتماعية[3].

(1) Lewis Acoser. Masters of Sociological thought, op. cit., p. 565.

(٢) د. على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ١٠٥

(3) G.C. Homans. Social behaviour: its Elementary Forms. Routledge & Kegan paul London. 1961 p. 8

ولقد حاول فى الخطوة الثانية من اسهامه وضع مجموعة من المفاهيم المرتبطة بسلوك الناس فى الحياة اليومية وهى : «النشاط» Active ويعنى تلك الأشياء التى يفعلها الناس مع ماهو إنسانى مثال قيادة العربية، والكتابة، والعمل ... الخ، ويشير «التفاعل» Interaction إلى تلك العلاقة التى تنشأ بين أعضاء الجماعة أو بين أحد أعضائها مع الجماعات الأخرى. أما «العواطف» Sentiments فانها تشير إلى الاحساسات والمشاعر (مثل الحزن، والغضب، والسعادة) الداخلية والاتجاهات أو المعتقدات تلك التى تتكون لدى اعضاء الجماعة نحو مايقومون به من نشاطات مختلفة، وكذلك فانه يعنى «بالمعايير» Norms تلك القواعد المنظمة لسلوك أعضاء الجماعة فيما يقومون به من أنشطة والتى تحكم سلوكهم تجاه الآخرين، وأخيرا فإنه اعتبر الجماعة بمثابة نسق اجتماعى يتكون من جزئين هما النسق الداخلى والذى يشتمل على النشاط والعواطف والتفاعل والمعايير ومابينهما من علاقة تتحدد تلقائيا بواسطة أعضاء الجماعة والذى يظهر إلى حيز الوجود قبل وجود الجماعة أما النسق الخارجى فانه يعنى به علاقة الجماعة بالبيئة التى توجد فيها وتلك القوى الخارجية التى تفرض عليها[1].

كما انتقل «هومانز» بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة والتى انتهى فيها بناء على المحاولة السابقة إلى بلورة مجموعة من الفروض المرتبطة فيما بينها، حيث وجد فى ذلك الصدد أن مستوى التفاعل بين أعضاء الجماعة إنما يرتبط بسلطة القائد فيها فإذا كانت ديكتاتورية قل التفاعل بين أعضائها، وذلك على العكس حينما يكون ذات سلطة ديمقراطية. وحاول أيضا التعرف على الظروف التى تحيط بالجماعة والتى تشتمل على البيئة الاجتماعية والسيكولوجية، وكذلك أيضا حاول توضيح دور العوامل الأخرى مثل حجم الجماعة وتكوينها وتاريخها الماضى، وأثر كل تلك العوامل مجتمعة على

(1) Clovis R.Shepherd, op. cit.p.. 37 38, 41

الجماعة؛ لأنه وجد أن التغير فى العلاقة بين أعضاء الجماعة إنما يؤثر على تغير الجماعة ككل، ووجد كذلك أن هناك نوعا من الاعتماد المتبادل فى العلاقة بين النسق الداخلى والخارجى[1]، حيث إنه يمكن النظر إلى النسق الداخلى على اعتبار أنه مصدر التغير فى النسق الخارجى والعكس بالعكس، كما وجد أن أى جماعة إنما تميل إلى تطوير نسق داخلى لها، وأنه يوجد فى عملية النمو هذه ثلاثة طرق مميزة هى «الاتقان» Elaboration، والاختلاف «والقياس» Standarization.

أما أسلوب الاتقان فإنه يشير إلى تلك العملية التى بواسطتها يحاول أن يزين أعضاء الجماعة نشاطاتهم بالطرق الواضحة والكامنة والتى يتطلبها منهم النسق الخارجى، ويشير الاختلاف إلى مايوجد بين أعضاء الجماعة من اختلافات فى الأوضاع والمراكز والأدوار التى يقومون بها ويشير الأخير إلى العواطف والأنشطة والتفاعل الذى ينشأ من خلالها النسق الداخلى للجماعة. ذلك النسق الداخلى الذى يكون فى حالة ثبات وأنه إذا تعرض لأى تغير سرعان ماتقوم الأجزاء الداخلة فى تكوينه على إعادته إلى حالة التوازن التى كان عليها من قبل[2].

ويشير «لويس كوزر» فى إطار حديثه عن إسهامات «جورج هومانز» بأنه ظهرت لديه إضافات جديدة فى مؤلفه بعنوان «السلوك الاجتماعى وعناصره الأساسية»، ويتمثل هذا فى تحوله من الاهتمام التحليلى بمدخل النسق إلى اهتمامه بالمنظور التبادلى الاجتماعى السيكولوجى، ويتضح ذلك فيما أكد عليه هومانز من أن التفسير والفهم الشامل للسلوك الانسانى لايكون ممكنا على المستوى السوسيولوجى مالم يتصل ذلك التفسير بالمنظور السيكولوجى، ويظهر فى ذلك مدى تأثره بالسلوكية [illegible] جامعة هارفارد

---

(١) د. على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق، ص ص ٧
C R Shepherd op cit.pp 39 40

(٢) د. على عبد الرازق جلبى، مرجع سابق ص ٨

وعلى الأخص سكينر وذلك كما لو كانت بمثابة شكل «المذهب المنفعة» Utilitarianism[1]، ومن ناحية أخرى يتضح تأثره بالاقتصاد الكلاسيكي في وجهة نظره عن التبادل الاجتماعي للأفراد في عملية التفاعل؛ ولقد حدده في تبادل النشاط بين اثنين من الأشخاص، وذلك طبقا للمكافأة أو العقاب الذي يحصل عليه من الشخص الآخر، لأن الشخص إنما يهتم في ذلك بالنشاط الذي يحصل من خلاله على مكافأة أكثر، وهذا التبادل لايقتصر على الجوانب المادية فقط ولكنه يشمل أيضا تبادلات أخرى غير مادية. مثال العواطف والاحترام، والقبول الاجتماعي الذي يكون مترتبا على ذلك التبادل[2].

وفي تحليله لدور القبول الاجتماعي حاول مقارنته بدور النقود في الاقتصاد وتبادلات السوق، لأنه يعتبر التبادل الاجتماعي أحد جوانب أو أشكال التبادل الاقتصادي إلا أنه لايمكن قياسه أو حسابه بسهولة، ويذكر هومانز أن ذلك القبول الاجتماعي يعالج كل النشاطات والعواطف من خلال استجابة شخص واحد لسلوك الآخر الذي يكون أكثر أو أقل عقابا أو أكثر مكافأة، وذلك لأن إستجابة الشخص لسلوك الآخر إنما تحدد في ضوء مايحصل عليه من مكافأة أكثر أو عقاب أقل.

علاوة على ذلك قد إستخدم «هومانز» قيمة القبول لدى الناس في مناقشة مفهوم الامتثال للمعايير الخاصة بالجماعة غير الرسمية حيث وجد أنه يمكن لأعضاء أي جماعة أن يمدوا كل شخص آخر بالقبول الاجتماعي، وذلك لأن أفضل طريقة للسلوك هي قبول أصدقائهم والامتثال لرغباتهم من أجل حصولهم على الاحترام والقبول، وذلك على اعتبار أن هذا القبول الاجتماعي هو أفضل مايقدمه الناس حينما لايملكون أي شيء آخر من نوعه المتبادل، كما أجرى هومانز في ذلك الصدد دراسة عن ديناميات

---

(1) Lewis Acoser. Masters of Sociological Thought, op.cit.. p. 572

(2) G.C Homans. Social Behaviour: its Elementary Forms . op.cit .p.33

الصداقة والامتثال فى الجماعات الأولية أوضحت نتائجها أن الامتثال يأتى من رغبة الناس فى استمرار علاقتهم بأصدقائهم؛ ومن ثم يكونوا أكثر قبولا وامتثالا لرغباتهم(١).

ومن ناحية أخرى حاول توضيح السلوك فى ضوء مفاهيم القوة والمكانة ومن ثم فإنه قد نظر إلى القوة على أنها تكمن أصلا فى التبادل وتعنى القدرة على الامتداد بمكافآت مرغوبة، وأنها تنعكس فى الثمن الذى يمكن أن يحصل عليه الناس مقابل الخدمات، ذلك الثمن الذى يمكن أن يدفع بطريقة مباشرة فى شكل بعض التبادلات الملموسة كالنقود أو فى أى شكل آخر كالامتثال للنظام، وميز فى تحليله للقوى بين القوى القهرية وغير القهرية، ووجد أن التغير فيما يحصل عليه الشخص من مكافآت أكثر من شخص آخر إنما يترتب عليه تغيير فى القوى؛ وبذلك فانه يفسر القوى بالطريقة التى يفسر بها علماء الاقتصاد ثمن أى شىء ما، ومن ثم يكون متأثرا بما يعرف «بالاقتصاد الجزئى» Micro - Economy.

بناء على ذلك لم يعالج هومانز المكانة على أنها انعكاس مباشر للقوى كما فعل الكثيرون من أنصار نظرية الصراع، لأنه أكد على أهمية مكانة شخص ما للقبول الاجتماعى، ويرى أنه على الرغم مما يسهم به «احترام الذات» Esteem فى المكانة الا أنه لايحددها، وأنها تتحدد من خلال أحد «الجماعات الاثنية» Ethnic ومن خلال تراكم الخبرة، لأنه أحيانا مايشير الناس فى بعض المجتمعات إلى التقدم فى العمر باعتباره رمزا للمكانة، وذلك مما يتضح فى التعامل مع كبار السن، كما أن هناك بعض الأوضاع المهنية ذات المستوى الرفيع التى يشغلها بعض الأفراد تدخل أيضا فى تحديد المكانة؛ هذا إلى جانب مايتميز به بعض أعضاء الجماعات عن غيرهم من أعضاء الجماعات الأخرى فى المجتمع فى جوانب مثل المعرفة والمهارة والثروة أو

(1) Ruth A. Wallace & A.Wolf. op.cit., pp. 183 - 185.

المستوى التعليمي[١]

وأخيرا وجد هومانز فى مناقشته لقضية عدالة التوزيع ومايترتب عليها من شعور بالغضب أو السعادة ضرورة الاهتمام أساسا بتلك الطرق التى يظهر فيها رد فعل الأشخاص حينما تأتى توقعاتهم كما يرغبونها أو حينما تكون مخيبة لآمالهم، ومن ثم وجد أن الناس يقيمون الموقف فى ضوء بعض المعايير الاجتماعية الخاصة بهم، حيث إنه اذا كانت المكافآت التى يحصلون عليها ذات قيمة وكما توقعوها فان الموقف بالنسبة لهم يعنى «عدالة فى التوزيع» Distributive Justice مما يترتب عليه شعورهم بالسعادة، وذلك على العكس ما إذا كانت تلك المكافآت التى يحصلون عليها فى مقابل مايقومون به من نشاط غير متوقعة بالنسبة لهم وبالتالى فانهم يشعرون بالغضب، ومن ثم يعنى الموقف أنه لاينطوى على عدالة فى التوزيع نظرا لانخفاض مكافآتهم[٢]

ويذكر «جولد»أن تبادلية هو مانز إنما تكون ذات معنى مختلف تماما عن البارسونية وذلك فيما يتصل باستقرار وثبات النظم تلك التى لاتعتمد على الشرعية ولكنها تعتمد على تبادل الاشباعات، وهى أيضا تكون متميزة وذات خصائص فريدة عن النموذج الوظيفى وذلك فيما تقوم عليه من مسلمات اجتماعية نابعة من النظرية الاقتصادية، والنظر إلى السلوك الانسانى فى ضوء خصائص السوق والعرض والطلب. وكان يهدف هومانز من ذلك إلى الكشف عما يتضمنه البناء الاجتماعى والثقافى من أدوار، ثم أنه من ناحية أخرى نجد تشابها بين علم النفس السلوكى عند «هومانز» وموقف «جوفمان» فى وعيه بعدم ثبات واستقرار الأشياء، ويتشابه أيضا مع «جا فنيكل» فى تحديد دورا النشاط الذى يقوم به الانسان من بناء واستخدام النظم الاجتماعية وكذلك الأبنية الاجتماعية وأنه ليس ببساطة يرسلها أو

---

(1) Ibid., p.p. 85- 87, 189 - 190

(2) Ibid . pp. 190 - 191

يعطيها ويستقبلها، ومن ثم فإنه يكون بمثابة شكل مختلف تماما عن الميكانيكية.

وأخيرا يتحدد أوجه الاختلاف بين ماعبر عنه «هومانز» في التبادل الاجتماعي وبين المدخل المسرحي عند «جوفمان» وذلك باعتباره نموذج لفهم الحياة الاجتماعية في أن منهما يعكس حساسيته لفئات مختلفة في الحياة الاجتماعية، ففي الوقت الذي يتجه فيه جوفمان إلى أفراد الطبقة الوسطى الجديدة يميل هومانز إلى مسلمات وعواطف طبقة القدامى، ومن ثم لم يتراجع هومانز في تأكيده على أهمية ما يحصل عليه الانسان ومايمنحه لانسان آخر لما فيه من فوائد متبادلة وكمصدر للتضامن الاجتماعي، في الوقت الذي ينظر فيه جوفمان على أن ذلك يكون بمثابة أوهام تعد أو تحسب واستقرت على أنها عملية القبول المتبادل للوهم وذلك لأن جوفمان يرغب في قبول واقع الحياة الاجتماعية بدون أوهام أخلاقية كما في وجهة نظره[1].

ب- بيتربلاو(*) Peter Blau

بدأ «بيتر بلاو» يركز اهتمامه في البداية على محاولة عرض وتحليل تلك العمليات الاجتماعية التي تحدث بين الأفراد في المجتمع، وذلك باعتبارها خطوة أولى نحو بناء نظرية اجتماعية أكثر تعقيدا في البناء الاجتماعي تقوم على اعتقاده في إمكانية تفسير البناء الاجتماعي الأكثر

---

(1)A.Gouldner, op.cit., pp. 395 - 3[illegible]

(*) أنه قد ولد في «فيينا» Vienna عام (١٩١٨)، وعلم في جامعة كورنيل Cornell، وحصل على درجته العلمية من [illegible] Elmhurst College [illegible] بعد أن [illegible] [illegible] في جامعة شيكاغو [illegible] أستاذا في علم الاجتماع بجامعة [illegible] عام [illegible].
وفي عام ١٩٧٤ تولى رئاسة الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع وقام بتحليل للبيروقراطية في بعض الشركات الفيدرالية. اعتمدنا في هذا على:

- Rutho W.& Alison Walf, op.cit., p. 173.

تعقيدا أيضا من خلال تلك العمليات الاجتماعية التى تحدث بين الأفراد[1]. ويعد مؤلفه الذى كان بعنوان «القوة والتبادل فى الحياة الاجتماعية» (١٩٦٤) Exchango and Power in Social Life معبرا عن إسهامه المباشر فى نظريته التبادل الاجتماعى. ذلك الاسهام الذى يكون بمثابة شكل مختلف عن اهتمام هومانز نظرا لاهتمامه بالخصائص العامة للبناء الاجتماعى والنظم الاجتماعية التى تتعلق فقط بالمواقف الاجتماعية أو المجتمعات المحلية وليس بالأفراد، ولقد حدد هذه الخصائص فيما أطلق عليه «بالانبثاق» Energent حيث يذهب فى هذا إلى أنه يمكن وصف التباين فى المجتمع فى ضوء الخصائص المختلفة والمميزة لعدد من الجماعات المهنية أو الدينية، تلك الخصائص التى تكون اجتماعية أساسا، وملائمة للبناء الاجتماعى ومناقضة للسيكولوجية، وهى تنبثق فقط من سياق التفاعلات المعقدة والتى تميز المجتمعات المحلية والجماعات الاولية.

ويتضح من عنوان مؤلفه هذا ، أنه يعكس اهتمامه الأول بالدور الذى يلعبه التبادل باستمرار فى خلق الاختلاف فى القوى، وتوضيح مابينهما من علاقة، وأنه فى اهتمامه بالقوى حاول توضيح أصولها وتحديد تلك العمليات التى تكون من خلالها شرعية أو غير شرعية، ومن ثم يعتقد بأن القوة إنما تنشأ من عدم التوازن فى امتلاكها، فانه عندما تكون قيمة الامداد بالخدمات من جانب واحد فقط فانه يترتب عليه نوع من الاختلاف. ويتضح هذا الارغام أو الاجبار فى أن مايمتلكه الشخص من قوة إنما تمكنه من خضوع الآخرين له هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يتمثل الجانب الثانى لها فى «الاحتكار»Monopoly[2] وفى مناقشة «بلاو» لعملية التبادل الاجتماعى ونظرية الثمن نجد أنه قد وضع تصور لها تأثر فيه أساسا بالنظرية

(1) J.K.Chadwick, Social Exchange Theory, London. Academic Press. 1976. p. 277.

(2) Rutho W.& Alison Wolf. op.cit.. p.174, 206. 207.

الاقتصادية وبعض مفهوماتها مثال العرض والطلب والتكاليف، حيث أكد «بلاو» على أن التبادل يتم عن طريق وسيط كالنقود، كما أن الناس تجد في القبول الاجتماعي والشكوى والاحترام نوعا من التنافس فيما بينهم من أجل حصولهم على ماهو مرغوب لكى ترتفع مكانتهم أيضا، وأنهم دائما يتنافسون في هذا التبادل،وذلك في ظل مسلمة أساسية وهى أن الناس التى تحصل على المكافأة إنما سوف تحصل عليها باستمرار[1].

كما يتشابه «بيتر بلاو» مع «جوفمان» في اهتمام «بلاو» بإبداء اعتبار الهيئة الادارية في عملية التبادل الاجتماعي، وكذلك بالطريقة التى يعرض بها الناس أنفسهم للآخرين من خلال دور متميز... ذلك الذى أكد عليه «جوفمان» في مدخله المسرحي والذى يكون أكثر ارتباطا بالمنظور التفاعلي الرمزى في تأكيده على الأشكال أو الصور الخلاقة للسلوك، ومن ثم يضع في اعتباره أهمية لتلك الطرق التى من خلالها يتصور الناس ما يقوم به الآخرون من أدوار متميزة ويؤدونها بسهولة حيث يعتقد «بلاو» أن مفهوم تميز الدور يكون ذات صلة وثيقة بالتبادل الاجتماعي، وذلك لأن الناس ترغب في تحديد مهاراتهم ومايحصلون عليه من خدمات ومن خلال تلك الدراسات التى قام بها على البيروقراطية في بعض الشركات الصناعية أكد على أن التبادل الاجتماعي إنما يختلف عن التبادل الاقتصادي وبذلك فإن الالتزامات في التبادل الاجتماعي لايمكن تحديدها مقدما.

علاوة على ذلك نجده في تحليله لبعض الجماعات الأولية مثال جماعة الأصدقاء التى يتفاعل فيها الأشخاص بطريقة مباشرة يربط نظرية التبادل بمسلمة أساسية وهى أن الناس يحتارون بين الأفعال البديلة وذلك في ضوء مسلمات معقولة وظاهرة ومن ثم فانهم يكونون عقلانيين، ذلك المفهوم الذى يتقابل مع ما أكد عليه «هومانز» في تحليله للامتثال وحدده بقيمة القبول الاجتماعي، ولقد انتقل بعد ذلك لتناول التبادل والتكامل الاجتماعي على

(1) Lewis Coser, Masters of Sociological Thought. op.cit., p.543.

مستوى المجتمع الأكبر، وذلك من خلال تحليله للسيطرة والخضوع والامتثال لمعايير الجماعة وتطوير قيم جمعية[1].

ويرى «بلاو» أن هناك اختلافا أساسيا بين الناس فى القوة والمكانة، لأن الدافع الرئيسى الذى يحركهم هو حصولهم على مزيد من القوة والمكافآت باعتبار أن هذا من أحد خصائص التنظيمات الكبرى حيث يسعى الأشخاص ذوى المكانة العليا منها - الذين يملكون القوة - إلى محاولة إخضاع الأشخاص الآخرين ليهم والذين لايملكون القوة مما يترتب على ذلك هو سعى الأشخاص الخاضعين إلى محاولة إيجاد طرق أخرى بديلة تحقق لهم نوعا من امتلاك القوة والمكانة، وذلك من خلال الانتماء إلى جماعات أخرى تعمل من جانبها على تطوير المعايير التى تساعد أعضائها على الخضوع والامتثال من جانبهم، ومن ثم يترتب على ذلك نوع من التكامل[2].

وفى ضوء ذلك ناقش «بلاو» تحول تلك القوة إلى سلطة شرعية من خلال الأوامر التى يصدرها القائد فى الجماعة من أجل إنجاز الأهداف العامة والتى تمثل بالنسبة لأعضائها معيارا جميعا، ومن ثم فانهم يعملون على طاعة هذه الأوامر من أجل الحفاظ على تحقيق أهداف جماعتهم، وعلى الرغم من ذلك الا أنه فى أحيان ما تنمو أيديولوجيات معارضة من جانب الأشخاص الخاضعين فى جماعات منعزلة نتيجة لشعورهم بالظلم الواقع عليهم، وبالتالى يكون لديهم رغبة فى مناقشة أمورهم هذه التى ينجم عنها معارضة للآخرين. وفى ذلك الصدد يؤكد «بلاو» على مدى الارتباط بين العزلة وظهور تلك الاتجاهات ، وبذلك يختلف عن «هومانز» حيث انه يرفض محاولة تفسير المتغيرات السوسيولوجية فى ضوء تفسيرات سيكولوجية، وذلك لأن التبادلية لديه تعنى محاولة تفسير التغيرات السوسيولوجية فى

(1) Rutho W.& A. Wolfe, op.cit., pp. 200 - 202
(2) Ibid.. p. p. 210 - 212.

عملية التبادل فى ضوء خصائص الانشاق التى تميز المجتمعات والأفراد والتى غالباً ما تظهر فى عملية التبادل[١].

ونجد ثمة ملاحظة على بعض جوانب الشبه والاختلاف بين «بلاو» وأصحاب نظرية الصراع ، والنظرية الوظيفية، حيث ينحصر التشابه فى اهتمام أنصار نظرية الصراع بما يطلق عليه أصحاب نظرية التبادل «بالاحتكارات» Monoplies أو بالطرق الهامة التى تحافظ فيها الجماعات على وضع السيطرة والتمييز، والذى يكون أكثر تطابقاً مع تحليل «بلاو» لبعض الأوضاع التنظيمية التى تتميز بامتلاك القوة ويتمثل الاختلاف فى تأكيد «بلاو» على أن الاختلاف وعدم المساواة يوجد أساساً فى علاقات التبادل وأنه يعطى مزيداً من الاهتمام لأشكال القوة المتمثلة فى الاحتكار والاجبار وما ينتج عنها من عدم المساواة، وذلك بخلاف معظم أنصار النظرية الوظيفية فى تفسيرهم للتدرج الاجتماعى حيث يعطون مزيداً من الاهتمام لتلك الحواجز التى تضعها الجماعة للحراك الاجتماعى، والتى ترى أن المكافآت يجب أن تقدم باستمرار لأولئك الأشخاص الذين يشغلون الأوضاع المهنية العليا، نظراً لما يتميزون به من إمتلاك لبعض المهارات والمواهب التى تمكنهم من القيام بمتطلبات تلك الأوضاع المهنية[٢].

مناقشة وتعقيب:

انه على الرغم مما اسهمت به نظرية التبادل الاجتماعى فى محاولة فهم وتحليل السلوك الانسانى فى الجماعات الاجتماعية من جانب اسهامات «هومانز»، وكذلك أيضاً محاولة تحليلها للسلوك الانسانى على المستوى التنظيمى، أو المستوى الأكبر من خلال التحليلات التى قدمها «بيتر بلاو» للسلوك الانسانى. إلا أن هناك بعض أوجه القصور التى تؤخذ عليها. ..فبما أن نظرية «هومانز» قد ارتبطت بمجموعة من المصادر تلك التى قد نبعت

---

(1) Ibid., p. p. 213 - 215.

(2) Ibid., p. p. 208 - 209.

أصلاً من علم النفس السلوكى، والاقتصاد، كما أن ما قدمه «هومانز» فى كتابة الجماعة الانسانية من فروض وقضايا، ومفاهيم، حددها فى النشاطات، والتفاعلات وغيرهما كانت مستوحاه أصلاً من بعض الدراسات السابقة ولم يتأكد من مدى صحتها[1]. ومن ناحية أخرى أغفل «هومانز» فى نظريته التبادلية طبيعة إستخدام الرموز بالنسبة للإنسان. وإن تفسيره لعالم القيم والمعايير التى تحدد طريقة الفعل الإنسانى كان غير ملائم، كما أنه أيضاً تجاهل فى تحليله خصائص البناء الاجتماعى التى لا ترجع إلى نزعات الفرد[2].

ومن ناحية ثالثة فإن تفسيره السيكولوجى لعدد كبير من الظواهر الاجتماعية يكون أساساً نوعان أحدهما سيكولوجى، والآخر اقتصادى. وأنه قد عبر عنهما فى صيغة رياضية هى أن الربح يساوى المكافأة ناقص التكاليف» Profit = Reword- Cost، ومن ثم يكون فى ذلك متأثراً بمذهب اللذة الذى يصور أن دافعية الأفراد هى التى تحركهم. وذلك للحصول على كل ما هو مرغوب. ويبعث السرور فى نفوسهم مع محاولتهم تجنب كل مصدر للألم، أو العقوبة[3].

كما أن ما قدمه «هومانز» حول ديناميات الصداقة والامتثال فى الجماعات الاجتماعية لا يكون تفسير ملائم للتكامل الاجتماعى بالمعنى الواسع، وذلك لأن الامتثال لمعايير المجتمع الأكبر إنما يتطلب أكثر من رغبة الناس للصداقة والقبول. ويمكن أن ينطبق ذلك أيضاً على «بيتربلاو» رغم محاولته لتفادى أخطاء «هومانز»[4].

وبصفة عامة يمكن القول أيضاً أن نظرية التبادل الاجتماعى كانت لديها نظرة زائدة (مفرطة) فى النظر إلى الشئ ذو القيمة. وعلى الأخص فى

(1) C. R. Sheperd, op. cit., p. 215.
(2) Lewis Acoser, Masters of Sociological thought, op. cit., p. 573.
(3) Bengt. Abrahamson, Homans on Exchange: Hedonism Revived, A. J. S., Vol. 76, No. 2, 1970, p. 273.
(4) Rutho A. Wallace & Alison Wolf. op. cit., p. 215.

محاولة تفسير أفعال الناس على المستوى التنظيمى. كما أن مسلماتها التى تقوم عليها إنما تنبع من علم النفس التجريبى، ومذهب اللذة وكذلك أيضاً من الاقتصاد، ويبدوا ذلك واضحاً فى بعض المفاهيم التى استخدمها أنصارها مثال العرض، والطلب، والتكاليف. وغير ذلك من مفاهيم، وإن مسلماتها حول القيم إنما تكون ارتباطاً مع مسلمات نظرية الصراع حول «المصلحة الذاتية» Self Interest[1].

علاوة على ذلك فإن تلك النظرية التبادلية، إنما تكون بمثابة تعبير حى عن ذلك الواقع السائد فى المجتمع الأمريكى، ومن ثم فهى تعكس ما فيه من نزعة فردية وأنها تتصور أن العلاقات بين أفراد الجماعة إنما تقوم أساساً على محاولتهم تحقيق مكاسب أكبر، ومنافع شخصية. حيث ينتمى العضو إلى الجماعة أساساً لاعتبارات تتعلق بالمنفعة الخالصة[٢].

وفى ضوء ما سبق يمكن القول أنه يمكن لنا أن نجد تشابها واضحاً فى تحليل كل من ماركس وهومانز للسلوك الإنسانى. حيث سيطر على تحليلهما ثلاثية واضحة، تمثلت عند ماركس فى تأكيده على ضرورة النظر اليه فى ضوء علاقات الإنتاج، والعمل ثم الوعى، وتحددت عند هومانز فى النشاط، والتفاعل ثم العواطف أو المشاعر. وبهذا يتقابل الوعى عند ماركس مع المشاعر والعواطف لدى هومانز. وأن ما حدده هومانز فى التفاعل إنما يعرف بعلاقات الإنتاج عند ملركس. وذلك علاوة على تقابل النشاط فى تحليل هومانز مع العمل لدى ماركس.

---

(1) Ibid., p. 185.

(٢) د. محمد على محمد، تاريخ علم الاجتماع، مرجع سابق، ص ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

الفصل الثامن

النظرية البنيوية

تطور البنيوية : سوسيور .

بنيوية ما بعد سوسيور : اللغة والثقافة .

الماركسية والبنيوية .

الفصل الثامن

النظرية البنيوية

عرضنا فى الفصل السابع لتطور علم الاجتماع الإنسانى فى تركيزه على فكرة الذات الإنسانية المبدعة والخلاقة. ورأينا إلى أى مدى كانت التفاعلية الرمزية والفينومونولوچيا الاجتماعية سوسيولوچيا رافضة لفكرة موضوعية الإنسان التى تبنتها النزعة الوضعية فى علم الاجتماع وشاركتها فى ذلك النظرية الوظيفية. لقد تمثلت أكبر نقاط الضعف التى كشف عنها علم الاجتماع «المرتكز على الذات» فى فشله فى أن يفسر ـ على المستوى النظرى والمستوى التاريخى ـ علاقة البناء الموضوعى، أى المجتمع كنسق، بالفعل الإنسانى والذات الإنسانية. ففى أعمال بارسونز مثلا تمثل المقوم الإرادى أو الطوعى فى نظرية الفعل فى نهاية الأمر فى الحاجات الكامنة للنسق الاجتماعى. وبالمثل، ركزت بعض أشكال الماركسية على المحددات البنائية للأنساق الاجتماعية وعلى القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى، فى مقابل الذات الفعالة والنظرية الطوعية للفعل. لقد تميزت كل من الماركسية والوظيفية بإصرارهما على موضوعية البناء الاجتماعى، فالمجتمعات ليست مجرد حشود متراصة، بل بناءات تتركب من عناصر لا تكتسب ما لها من معنى إلا من خلال علاقتها بالكل.

ومع بداية الخمسينيات، ظهرت نظرية سوسيولوچية جديدة شاركت الماركسية والوظيفية فى الكثير من التصورات الكلية والشمولية، عرفت باسم النظرية البنيوية Struturalism. ظهرت البنيوية أول ما ظهرت فى الدراسات اللغوية، ولكنها سرعان ما كان لها تأثيراتها الواضحة والعديدة فى العلوم الاجتماعية. وقد ترددت هذه التأثيرات على وجه الخصوص فى أعمال كل من ليفى ستروس Levi-Strauss فى الأنثروبولوچيا، وروناند بارزس Ronald Ba-rthes وجوليا كرستيفا Julia Krestiva فى الأدب واللغة، وألتوسييه Althusser وبولانزاس Poulantzas فى الماركسية وعلم الاجتماع وجودلييه Godelier فى الاقتصاد، وفوكو Foucault فى الفلسفة وتاريخ العلوم، ولاكان Lacan فى

التحليل النفسي، ومع ما بين هؤلاء المنظرين من اختلاف وعدم اتفاق حول الطابع الحقيقي للبنيوية، إلا أن هناك إجماعًا واسعًا بينهم على أن المدخل البنيوى لدراسة المجتمع الإنسانى والثقافة يتضمن أفكاراً عديدة منها فكرة الكليات Wholes (أى أن البناء ليس مجرد حشد بسيط من العناصر)، وفكرة التحويل Transformation (أى أن البناءات ليست ثابتة، بل ديناميكية تحكمها قوانين تحدد الطرق التى بها تقدم العناصر الجديدة فى البناء، والتى بها تتغير)، وفكرة الانتظام الذاتى Self - Regulation (أى أن معنى البناء يكون قائمًا بذاته بالنسبة لقوانينه وقواعده الداخلية). أما ما تختلف فيه البنيوية عن الوظيفية والماركسية الوضعية فهو رفضها للحقائق الاجتماعية الموضوعية وتصور المجتمع كمعطيات خارجية وموضوعية مسلم بها. فالحقائق الاجتماعية يجب أن يعاد بنائها فى سياق نظرى إذا ما أريد لها أن تكون ذات معنى. وباختصار تعرف البنيوية الواقع فى حدود علاقته بالعناصر وليس فى ضوء علاقته بالأشياء، والحقائق الاجتماعية. . وفى هذا الصدد، فإن المبدأ الأساسى الذى ترتكز عليه البنيوية هو أنه لن يكون هناك أى معنى لما يمكن ملاحظته إلا بالقدر الذى يمكن فيه ربطه ببناء أو نظام أساسى.

تطور البنيوية ـ سوسيور:

يعتبر عالم اللغويات السويسرى فرديناند دى سوسيور Ferdinand De Saussure (١٨٥٧ ـ ١٩١٣) مؤسس البنيوية المحدثة. تعلم سوسيور فى فرنسا فى الفترة ما بين ١٨٨١ ـ ١٨٩١، أما أكثر أعماله أهمية، فكان كتابه «محاضرات فى اللغويات العامة» "Course in general Linguistics" (وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات التى ألقاها فى جامعة چنيف فى الفترة من ١٦٠٩ ـ ١٩١١) فلن ينشر إلا بعد وفاته. وكخبير متخصص فى اللغات الهندية الأوروبية، حاول سوسيور وضع نظرية عامة فى اللغات منذ سنة ١٨٩٠، تابع فيها دوركايم فى النظرة إلى اللغة على أنها مثال للواقعة الاجتماعية، ولو أن دوركايم لم يكن بالطبع يعتبر الوقائع الاجتماعية كمعطيات طبيعية بسيطة، بل اعتبرها عناصر ترتبط بالأخلاق والتمثلات الجمعية.

ولقد أشار العالم اللغوى الفرنسى المعاصر أنطوان ميليه Antoine Meillet

الذى درس مع دوركايم وسوسيور - إلى أهمية علم الاجتماع الدوركايمى بالنسبة لنظرية سوسيور فى اللغة. كما تابع سوسيور نفسه الحوار الذى أجرى بين دوركايم وتارد (والذى ناقشناه فى الفصل الرابع) حول طبيعة المنهج السوسيولوجى. تقبل سوسيور المنهج الدوركايمى الذى تميز بطابعه الجمعى، فى الوقت الذى رفض فيه منهج تارد الفردى، لذلك نراه يميز بين اللغة Language والكلام Speech فى ضوء الطابع الجمعى للغة والحديث أو النطق الفردى - أى التلفظ بالكلام Utterances of Porole. حيث تكون اللغة فى نظر سوسيور تصوراً جمعياً، أى نسقاً مجرداً من قواعد لغوية تحكم استخدام اللغة، أو بناء رسمى شكلى متماسك يمثل نتاجًا للفعل الجمعى والجماعات اللغوية» (Saussure, 1974, p.5). رفض سوسيور الاتجاه الاختزالى لتفسير اللغة والذى ساد القرن التاسع عشر معارضًا التفسيرات السببية والتاريخية والسيكولوچية. حيث ذهب إلى أن اللغة لا يمكن أن تختزل لترد إلى سيكولوچية المتحدثين، أو إلى التطور التاريخى للمجتمع. فاللغة، كواقعة اجتماعية، تمارس قهراً وإجباراً على الأفراد، وهى تكون نسقًا محدداً أو بناء يوجد على نحو مستقل عن الأفراد المتحدثين والذين يمثل تلفظهم بالكلام مجرد انعكاس غير كامل للكل. ويجزم سوسيور أن المرء لايستطيع أن يحفظ فى ذاكرته نسق اللغة ككل، مثلما لايستطيع أن يعرف النسق القانونى برمته. فاللغة شأنها شأن القانون توجد فى الحياة اليومية داخل شعور الأفراد ووعيهم، وتقيد أفعالهم، كما أن أشكالها المحسوسة لن تكون ذات معنى إلا فى ضوء علاقتها ببنائها ككل أو كتصور جمعى.

ويضع سوسيور تمييزاً هاماً بين الدراسة الآنية أو المتزامنة Synchronic للغة (أى دراسة وجودها فى لحظة معينة فى حدود وظيفتها كنسق) وبين الدراسة المتعاقبة والتتابعية لها Diachronic (أى دراسة تطورها خلال الزمن من وجهة النظر التاريخية)، كما يؤكد أن التعارض بين وجهتى النظر السابقتين تعارض مطلق لا يدع أى مجالا للتوفيق بينهما: ذلك أن الدراسة الآنية والمتزامنة للغة تقتضى من الباحث أن يعنى بالعلاقات المنطقية والنفسية التى ترتبط بين الحدود والمصطلحات والألفاظ المتزامنة فى وجودها والتى تشكل نسقًا فى

العقل الجمعي للمتحدثين، هذا في الوقت الذي يعني فيه دارسي اللغة من المنظور التتابعي بدراسة العلاقات التي تربط بين الحدود والألفاظ المتعاقبة، لا كما يدركها أو يفهمها العقل الجمعي، بل باعتبارها مفردات تحل بعضها محل البعض دون أن تشكل نسقاً (Saussure, 1975, pp.99-100). والجدير بالذكر أن سوسيور عندما يستخدم لفظة «سيكولوجي» أو علم النفس، فإنه يقصد الإشارة إلى علم النفس الجمعي (أو السيكولوجية الجمعية) وليس علم النفس الفردي (أو السيكولوجية الفردية)، وذلك على الرغم من أنه ظل غير متأكد من الطبيعة الحقيقية لسيكولوجية اللغة. لقد كان اهتمام سوسيور موجهاً وبصفة أساسية للدراسة الآنية أو المتزامنة للغة، والتي قارنها وبوضوح بـ «لعبة الشطرنج» . فالشطرنج لعبة لا يفهم معناها إلا في ضوء قواعدها الداخلية وشبكة علاقاتها والتي تعتمد فيها قيمة أي «قطعة» على علاقاتها بالكل، بالدرجة التي تؤدي حركة أو نقلة أي «قطعة» إلى تغير علاقة العناصر الأخرى بالكل. وبعبارة أخرى، فإنك لكي تفهم اللعبة عليك أن تفسرها كنسق. «وكما تعتمد القيمة الفردية الخاصة لكل قطعة من قطع الشطرنج على وضعها على اللوحة، كذلك فإن أي لفظ لغوي تنبثق قيمته من معارضته لكل الألفاظ الأخرى» . وهذا يعني أن الحقائق الآنية للغة شأنها شأن الحقائق الآنية للعبة الشطرنج تتميز بطابعها النسقي. من هنا كان تبني المنظور التتابعي عملية تحول دون ملاحظة اللغة كنسق، لأنها لا تفيد إلا في التعرف على اللغة كسلسلة من الأحداث التي عدلتها. (Saussure, 1974, pp. 88-91) . لذلك يؤكد سوسيور على أن الحقائق التي توفرها الدراسة التاريخية التتابعية للغة تفتقر إلى الطابع النسقي المنظم، ومن ثم فهي تحتل مكانة ثانوية في دراسة اللغة، لأن اللغة ليست إلا نسقاً، فيه لا يمكن، ولا يجب، أن ينظر إلى كل الأجزاء إلا في ضوء تماسكها الآني المتزامن.

تشكل اللغة عند سوسيور جزءاً من علم الإشارة Semiology الذي عرفه كفرع من علم النفس الاجتماعي، يعني بتحليل عالم الدلالات والإشارات في المجتمع ـ الذي نصوره على أنه علم ديناميكي تحويلي Dynamic and transformative. ذلك أن اللغة ـ باعتبارها نسقاً للإشارات Sign - System لا تعكس الواقع الخارجي (كما يتصور الوضعيون)، بل تشكل «مجالاً» للمعنى

يحاول أن ينظم العالم وأن يحدد الواقع والحقيقة. وتشتمل اللغة فى نظر سوسيور على مقومين أساسيين هما «الدال Signifier والمدلول Signified»، أى الصورة الصوتية Sound imageوالمفهوم Cancept أو المعنى Meaning. وعلى هذا، تكون الإشارة اللغوية وحدة الدال والمدلول... وهنا يرى سوسيور أن الإشارة اللغوية مسألة ذات طابع تحكمى بحت، ذلك لأن العلاقة بين الدال والشيء المدلول عليه ليست علاقة طبيعية بل هى علاقة اصطلاحية. وفى هذا الصدد كتب سوسيور يقول:

«إن فكرة «الأخت» لا ترتبط فى علاقة داخلية بتتابع أصوات الحروف التى تكون الكلمة الدالة عليها فى اللغة الفرنسية، بالدرجة التى يمكن تمثيلها بطريقة متساوية لتتابع أصوات الحرف فى كلمات من لغات أخرى مختلفة. فالمدلول (ox) ـ أى ثور ـ مثلا له ما يدل عليه فى الفرنسية وهو B-O-F من ناحية وفى الإنجليزية O-K-S من ناحية أخرى (Saussure, 1974, pp.67-68).

والنتيجة التى ينتهى إليها سوسيور هنا هى أن العرف أو الاصطلاح اللغوى هو الذى يحدد الطابع التحكمى للإشارة، إذ ليس هناك علاقة ضرورية بين الإشارة أو الرمز وبين الواقع الذى تشير إليه. ومن ثم، تعمل اللغة على توضيح الخبرة الإنسانية أو النطق بها لا على مجرد عكسها. فمن خلال الإشارة اللغوية فقط تحدد الفروق والاختلافات بين الأشياء، وينتظم عالم الواقع فى بناء هادف وذى معنى. ومن هذا المنطلق لا يكون للغة جوهراً داخلياً ثابتاً، بل توضح بطريقة تحكمية أو تعسفية. أى أن النسق اللغوى عبارة عن سلسلة من الاختلافات الصوتية ترتبط بسلسلة أخرى من الأفكار المختلفة». فالصورة الصوتية للفظة كرسى باللغة الإنجليزية (Chair) مثلا تتحدد من خلال اختلافها عن اللفظة (زوج) بالإنجليزية أيضاً (Pair) واللفظة (قطعة غيار) أو Spare ... الخ. وبدون هذا الاختلاف لن يكون للفظة أى معنى. كما أن الوحدات التى يتركب منها النسق اللغوى تكتسب معناها فى ضوء وضعها الشكلى وموقعها ووظيفتها داخل الكل. وهكذا يرى سوسيور أن اللغة تنتج اجتماعياً كظاهرة جمعية مستقلة عن الإرادة والمقاصد الإنسانية، أى كنسق لا يمكن أن يرد إلى التلفظات الفردية. لذلك كله، يصبح الحديث والاتصال

أمراً ممكناً عن طريق القاعدة اللغوية الضمنية أو الكامنة، أي نسق المعايير الجمعية التي تعطي للأفعال اللفظية الخاصة معنى معين، ومع أن سوسيور لم يستخدم صراحة مفهوم «البناء»، إلا أن نظريته اللغوية كانت تحمل الطابع البنائي. حيث يؤكد أن شرح وفهم اللفظة الفردية يقتضي ربطها بالنسق «الكامن» للوظائف والمعايير والمقولات. وهذا يعني أن سوسيور كان قد تخلى تماماً عن التفسير السببي أو العلى من أجل التحليل المتزامن والآني لأوضاع ووظائف العناصر داخل النسق. إن قواعد اللغة ـ على حد تعبيره ـ هي التي تفسر كيف تكون اللغة ذاتها موجودة وغير معروفة في آن واحد، وكيف تكون «مختبئة» ومتوارية عن الوعي، ومع ذلك تبني وتنظم الفعل الإنساني.

بنيوية ما بعد سوسيور ـ اللغة والثقافة:

لم ينشر كتاب سوسيور «محاضرات في اللغويات العامة» حتى عام ١٩١٦. ومع ذلك، كان لتصوره للغة كنسق قائم بذاته ودفاعه عن منهج التحليل الآني المتزامن على حساب التحليل التتابعي أثر كبير. في تطور الدراسات اللغوية وبخاصة في النظرية الثقافية والأدبية. ففي الفترة ما بين ١٩١٦-١٩٣٠، حاول بعض الباحثين في روسيا ـ ممن تخصصوا في مجال فقه اللغة Philology ومجال علم اللغة الحديث linguistice والتاريخ الثقافي ـ تطوير ما أسموه بعلم الأدب استناداً على تصور القوانين الخاصة بالصورة أو الشكل الأدبي. وفي هذا الصدد، عرف الأدب كتحويل للحديث اليومي ذى الطابع العملي إلى لغة شعرية ظريفة، وذلك باستخدام أساليب وتركيبات أدبية خاصة، الأمر الذى يسلم في النهاية إلى موضوع فنى مستقل أو إلى كل منظم. أطلق هؤلاء الباحثون على أنفسهم اسم «الشكليون» Formalists، وذهبوا إلى أن مهمة النقد تنحصر في اكتشاف قوانين اللغة الشعرية. وشأنهم في ذلك شأن سوسيور، رفض الباحثون الروس الأساليب التتابعية والتطورية للتحليل والتفسير موجهين جلّ عنياتهم نحو الطابع الآني المتزامن للأشكال والصور الأدبية.

ومع ذلك، لم يستطع الاتجاه الشكلي الروسي أن يحقق نشاطاً أكاديمياً معترفاً به حتى نهاية العشرينيات، ذلك أن السلطات السوفيتية كانت أكثر

دوجماطيقية بنزعاتهم الماركسية، ومن ثم وصموا هذه الحركة بأنها شكل من أشكال الأيديولوچية البورجوازية الغربية على روسيا . فى هذا الوقت وجد رواد الاتجاه الشكلى الأوائل (من أمثال رومان جاكوبسون Roman Jakobson، وڤيكتور تشوڤسكى Victor Shklovsky، ويورى تينيانوف Yuri Tynyanov، وميخائيل باختين Mikhail Bakhtin ، وفلاديمير بروب Vladimer Propp أنفسهم مضطرين إما أن يتوافقوا مع الأيديولوچية السوڤيتية (على الرغم من أن أعمال باختين كانت قد اقترحت من قبل نوعًا من التوفيق بين الماركسية والنزعة الشكلية) وإما أن ينفوا إلى أوربا الغربية. ولقد آثر الكثيرون البقاء فى روسيا. أما جاكوبسون فقد توجه إلى تشيكوسلوفاكيا والتحق بالمجمع اللغوى ببراغ. وخلال فترة الثلاثينيات استطاعت مدرسة براغ أن تتمثل النزعة الشكلية فى نظريتها فى علم الإشارة، فطورت مدخلا بنائيًا لدراسة اللغة والثقافة والجماليات. وكان من أهم الشخصيات الرائدة فى المدرسة عالم الاجتماع جان ميوكاروفسكى Jan Mukarovsky (١٨٩١ ـ١٩٧٥) الذى كانت أعماله فى مجال علم اجتماع الثقافة مثلا متميزًا للمدخل البنيوى . عرف ميوكارفسكى الفن «كحقيقة إشارية رمزية» Semiological Fact ومن ثم دافع عن مفهوم البناء ـ بدلا من الشكل ـ أى عن الكل والشمول، وذلك بهدف وصف الوحدة الداخلية للموضوع الثقافى من خلال العلاقات المتبادلة بين الأجزاء، والتى يلعب التناغم والانسجام جنبًا إلى جنب مع الصراع والتناقض دورًا ملحوظًا فى تشكيلها.

تشعبت البنيوية خلال تطورها إلى اتجاهين متميزين: تابع الاتجاه الأول سوسيور فى تمييزه السابق بين التحليل الآنى المتزامن والتحليل التتابعى، بينما حاول الاتجاه الثانى أن يطور مدخلا له أسس تاريخية. وكمثال للاتجاه الأول نذكر دراسة بروب Propp لقصص الجن والعفاريت The Morphology of Fairy Tales, 1928، والتى كان لها تأثيرها الواضح على الأنثروبولوچيا البنائية عند كلود ليڤى شتراوس Claude Levi Strauss. فى هذه الدراسة دافع بروب عن المدخل التحليلى الآنى، وذهب إلى أنه فى تحليل قصص الجن والعفاريت أمكن التعرف على عدد محدود من الوظائف (إحدى وثلاثين وظيفة) يمكن

أن تنتظم بعد ذلك في بناء أو نسق كامل. وبهذه الطريقة يمكن تصنيف حكايات الجن ـ التي ظهرت في الأصل في ثقافات مختلفة تماماً ـ طالما أن تعدد الشخصيات فيها ارتبط عكسياً بالعدد المحدود للوظائف التي تمارسها الشخصيات في مجرى أفعالهم وسلوكهم.

وعلى النقيض من مدخل التحليل الآني المتزامن عند بروب، طور باختين Bakhtin (١٨٩٥ -١٩٧٥)، ما يعرف بالبنيوية التاريخية. وكانت نقطة البدء عند باختين ممثلة في نقده لسوسيور والذي نشر في روسيا خلال العشرينيات. ذهب باختين إلى أن اللغة ليست نسقاً لغوياً مجرداً على نحو ما ذهب سوسيور، بل هي نسق تاريخي يكتسب أشكاله الراهنة في اتصال لفظي محسوس وملموس. لقد أسلم ما قام به سوسيور من فصل بين التلفظ أو النطق بالكلام وبين اللغة إلى وجهة النظر التي تعتبر اللغة نتاجاً يتمثله الأفراد بطريقة سلبية، لا على أنها ـ أي اللغة ـ «وظيفة أو دالة للمتحدث».، ولهذا السبب رفض باختين الازدواجية التي قدمها سوسيور. حقاً لقد انتقدت الدراسات اللغوية الكلاسيكية لفشلها في بحث العلاقات «الحوارية»، أي التفاعل اللغوي بين المتحدثين المختلفين، إلا أن ما أوضحه سوسيور من تعارض مزدوج للغة «النقية» الفصحى Pure والتلفظ أو النطق بالكلام impure utterance الذي يحمل صفة التلوث أو عدم النقاء في ارتباطه بمرحلة تاريخية معينة، كان أمراً أمكن التغلب عليه عن طريق تعريف الكلمة «كحوار» أو «ديالوج»، وكان ذلك من أكثر إسهامات باختين أهمية في الفكر «البنيوي» . وفي هذا المجال كتب باختين قائلا «لا تعيش اللغة إلا في ذلك التواصل الحواري لأولئك الذين يستخدمونها. ذلك لأن التواصل الحواري هو المجال الأصيل لحياة اللغة التي تسري وتنساب عن طريق العلاقات الحوارية» (Bakhtin, 1973, pp. 102-3.). وتفتقر العلاقات الدلالية والمنطقية للغة إلى هذا الجانب الحواري إلى أن تصبح نطقاً أو تلفظاً بالكلام فتجسد الأوضاع المختلفة للمتحدثين.

ولقد طبق باختين هذه المفاهيم السابقة في دراسة القصة، حيث عرف القصة بأنها أسلوب أدبي يحاول أن يمثل تعددية اللغات في مرحلة تاريخية معينة، وبالتالي يمثل كل «الأصوات» الاجتماعية والأيديولوجية لتصبح ذات

معزى. وكان اهتمام باختين موجهاً بصفة أساسية نحو تحليل العلاقة بين الأشكال والصور الثقافية والبناء الأوسع للثقافة الشعبية. ففي إحدى دراساته السوسيولوجية الهامة والتي ظهرت بعنوان: «عالم رابليه» "Rabelais and his world" عام ١٩٤ ذهب باختين إلى أن كتاباً مثل بوكاسيو وسيرفانتس وشكسبير ورابليه استطاعوا أن يطوروا أساليبهم وتصوراتهم الفنية وذلك من أعماق الثقافة الشعبية التي تشكلت خلال قرون عدة. وأن يدافعوا عن القدرة الإبداعية الخلاقة لدى الشعوب فى أشكال غير رسمية، أى فى تعبيرات وعروض لفظية كلامية». ومن ناحية أخرى استطاع باختين أن يوضح بمزيد من التفصيل العلاقة العضوية بين «صور الاحتفالات الشعبية» فى ارتباطها بالثقافة غير الرسمية للاحتفالات والمهرجانات الشعبية وبين الشكل الأدبى الواقعى عند رابليه. يقول باختين:

«وبفضل هذه الطريقة تصبح صور الاحتفالات الشعبية وسائل لها تأثيرها فى فهم وإدراك الواقع، فهى تستخدم كأساس سليم للنزعة الواقعية الأصيلة والمتعمقة. إن الصور الخيالية الشعبية لا تعكس جوانب طبيعية ومبعثرة بلا معنى للواقع، بل تمثل معنى الواقع واتجاهه» (Bakhtin, 1968, p. 4).

ومن الجدير بالذكر أن تحليل باختين المفصل لقصة رابليه، وصورها الكلامية وعلاقة أجزاءها المختلفة بالكل، كان يدور حول العنصر الأساسى فى المهرجان، فكعنصر قديم جداً فى عملية استمرارية الثقافة فى أصولها التى ترجع إلى الثقافة الشعبية فى عصر ما قبل الصناعة، لا يمكن للمهرجان أن يتمثل فى نسق اقتصادى أو أن يعرف كانعكاس لواقع مفروض تاريخياً. كما أن أدب المهرجانات لا يشير إلى أيديولوچية ما، بل يشير إلى العناصر العامة داخل الثقافة الشعبية الديموقراطية. إن المهرجان ليس عنصراً متأصلا فى الثقافة الإنسانية رغم اختلاف أشكاله من وجهة النظر التاريخية، بل يشكل حقيقة أو واقعاً بديلا عن الثقافة الرسمية بما تحتويه من شعائر كهنوتية أو احتفالات سياسية. يقول باختين:

«يقف عالم الصور والتعبيرات الفكاهية معارضاً للنغمة الجادة والرسمية... للثقافة الاقطاعية. فعلى الرغم من التنوع الهائل للاحتفالات الشعبية ذات

الطابع المهرجانى (كالطقوس والشعائر الكوميدية، والبهلوانات والمهرجون والأقزام والعمالقة والمقلدون، إلى جانب الأشكال المتعددة لأدب الكاريكاتير... الخ) إلا أنها تنتمى فى مجموعها إلى نفس ثقافة المرح والفكاهة الشعبية ذات الطابع المهرجانى» (Bakhtin, 1968, p.4).

يعمل المهرجان ـ كما يؤكد باختين ـ على تحرير الإنسانية من النظام الراسخ والرسمى، فهو بمثابة توقيف أو تعطيل للرتبة والامتيازات والهيبة والمعايير والمحرمات... الخ، فكراهية الإنسان لكل هذه الأمور كراهية أبدية وكاملة. وتؤكد الثقافة الشعبية غير الرسمية على تكافؤ العلاقات الإنسانية كما تعرف الإنسانية فى حدود دينامية ودنيوية بحتة. إن الضحك والفكاهة الشعبية هو ضحك وفكاهة المجتمع كله جنبًا إلى جنب مع السخرية والتفاخر والتهكم والإصرار والتهجم والإنكار والدفن والإحياء والانتعاش... الخ وفى المهرجان «يعى الفرد بأنه جزء أو عضو فى جمع نامى ومتجدد باستمرار، فيه يمثل الضحك أو الفكاهة الشعبية عنصراً من عناصر الغلبة والانتصار على القوانين الغيبية ... على المقدس... وعلى الموت». أى على كل شيء يحمل سمات القمع والقهر.

ويمضى باختين فى تحليلاته ليخلص إلى أن الثقافة الشعبية عبارة عن بناء حى مفتوح يحرر الفرد من الدوجماطيقية والتعصب. ولعل من أكثر خصائص تحليل باختين أهمية ذلك التأكيد على طابع التناقض الوجدانى للضحك والفكاهة ودورها فى الثقافة. فالضحك والفكاهة ترفض ـ على حد تعبيرِ باختين ـ أن تسمح بإضعاف الروح الجدية فى المجتمع، بل تحاول أن تبقى على شكلها المفتوح وغير النهائي. من هنا لم تكن الوحدة التى يختص بها المجتمع الإنسانى مفروضة عليه من أعلى، بل تفيض وتنساب بطريقة عضوية من أعماق الثقافة الشعبية الديموقراطية . لذلك، كان تطور الرأسمالية ونمو البيروقراطية والميل نحو التحول العقلانى للثقافة كلها أمور تميل إلى عزل الثقافة الشعبية عن المجتمع الإنسانى، ولو أن باختين كان قد أشار ضمناً فى أعماله التى حلل فيها اللغات والثقافة إلى ما يوحى باستمرارية الثقافة المفتوحة والمتعددة المظاهر داخل المجتمعات الحديثة.

وفى الحقيقة كانت نظرية باختين فى الحوار، والطبيعة غير النهائية للمجتمع الإنسانى إحدى الإسهامات الهامة فى تطور البنائية التتابعية ذات المدخل التاريخى. وبالمثل كانت الدراسات السوسيولوجية التى أجراها ميوكاروفسكى على الثقافة، وبخاصة فى كتابه «الوظيفة والمعيار والقيمة الجمالية» "Aesthetic Function, Norm, and Value" (١٩٣٤)، حيث طور ميوكاروفسكى تصوراً للفن كحقيقة إشارية Semiotic Fact تستند على العلاقة التاريخية والاجتماعية بين المتحدثين وبين التجمع الإنسانى. وشأنه شأن باختين، عرف ميوكاروفسكى الفن بأنه نسق من إشارات أو رموز مستقلة تنظمها مجموعة من المعايير التى تكون صادقة بالنسبة لمجتمع معين وأنجزها العمل الفنى بطرقة إيجابية فعالة. إن نسق الرموز والإشارات Sign -System كالأدب مثلا ـ عبارة عن أسلوب للاتصال من ناحية وبناء جمالى يتميز بتدرج هيراركى من العناصر التى تترابط فيما بينها حول عنصر «مسيطر» . (يلاحظ أن مفهوم العنصر المسيطر أو الغالب من المفاهيم التى طورها جاكوبسون وكان يشبه إلى حد كبير فكرة «بناء السيطرة» التى قدمها ألتوسيه بعد ذلك. وعلى أية حال، يشتمل مفهوم البناء عند ميوكاروفسكى على كل العلاقات داخل النسق. فهو يرى أن العمل الفنى الجمالى عمل تكون فيه الوظيفة الجمالية غالبة أو مسيطرة "Aesthetic Function, Norm, and Value" بالدرجة التى تجعل الرسالة التى يعمل الموضوع الفنى على توصيلها ذات طابع أدبى وفنى.

وعلى هذا الأساس، لا يمثل الموقف والاتجاه الجمالى فى نظر ميوكاروفسكى حقيقة معطاة، بل يتوجه دائماً نحو الرمز أو الإشارة، كما يشير الرمز والإشارة إلى أشياء خارجة عنها. تلك هى القوانين التى يعمل من خلالها نسق الرموز والإشارات، وهى قوانين تحمل طابعاً اجتماعياً متغيراً بتغير المجتمع ذاته. وباختصار لا تمثل الصفة الجمالية خاصية يتميز بها العمل الفنى، بل تمثل وظيفة له. فهى ـ أي الصفة الجمالية ـ ترتبط بالتنظيم الداخلى للفن حيث تمارس تأثيرها المسيطر، كما ترتبط بالحياة الاجتماعية حيث تقوم بوظيفة ثانوية. وينتهى ميوكارفوسكى إلى أنه من الصعب أن نميز بوضوح تام بين ما هو فنى وما هو غير فنى: ففى مجال الفن المعمارى والموسيقى والأدب

مثلا يتساوى وجود الوظائف الجمالية مع الوظائف العملية وتترابط معها فى علاقة ديناميكية متبادلة. وقد يحدث فى مجال الأدب أن تكون الوظيفة العملية الاتصالية أكثر سيطرة وغلبة على الوظيفة الجمالية.

هكذا طرحت بنيوية ميوكاروفسكى جانبًا فكرة الذات. حيث يعتمد ظهور الأشكال الفنية على بناءات «فوق فردية» تجد جذورها فى الحياة الاجتماعية الجمعية، حيث لا يكون الكاتب أو الأديب أو الفنان الفرد سوى وسيط سلبى لهذه القوى. وتتابع البنيوية التطورية عند ليوسين جولدمان"Lucien Goldman" (١٩١٣-١٩٧٠) تأكيد ميوكاروفسكى على الطابع الجمعى للفن، كما تتابع منظور باختين الإنسانى الواسع . تأثر جولدمان تأثراً كبيراً بكتابات لوكاتش المبكرة، وبخاصة كتابه «التاريخ والوعى الطبقى» History and class conscionsness، والتى اشتق منها مفهومات «رؤية العالم» و«الشمول» و«الوعى». كما تأثر أيضًا بكتابات عالم النفس السويسرى جين بياجيه Jean Piaget وتبنى أفكاره حول بناء المعنى والوظيفة والتركيب والتحليل. وكما سبق أن رأينا، تطورت البنيوية فى بادئ الأمر فى مجالات الفن والأدب والدراسات اللغوية والجمالية، ثم يأتى جولدمان فيتابع نفس التقليد فى مجال علم اجتماع الأدب. ولقد كان من أهم أعمال جولدمان دراسة فلسفة باسكال والأعمال الدرامية لراسين Racine، وبخاصة كتابه «الإله المستتر» (١٩٥٦) "The hidden God" هذا إلى جانب كتاباته عن مالرو Malraux وهيدجر Heidegger وفلسفة عصر التنوير، وانتقاداته للأشكال الأخرى المعاصرة للبنيوية التى لم تتبن منظوراً تاريخياً تطورياً.

ويتمثل المفهوم المحورى فى علم الاجتماع الذى قدمه جولدمان فى مفهوم البناء الذى يتكون ويتعدل بفعل النشاط الإنسانى. فالبناءات تشيد فى نظره من خلال الممارسة العملية الإنسانية. غير أن الذات ليست مقولة فردية بل مقولة جمعية، أى جماعة اجتماعية تشكل المصدر الحقيقى للخلق والإبداع الثقافى. كما أن هذه الذات الجمعية، شأنها شأن الخلق الثقافى، تمثل بناءً للمعنى. وتجسد كل الصور الثقافية الكبرى بناءً للمعنى، أى رؤية للعالم تعبر عن الوعى الجمعى للجماعة الاجتماعية. كما توحد هذه الرؤية

مختلف عناصر ومستويات الصورة الثقافية في وحدة وترابط وثيق. ومن ثم، يبدأ علم اجتماع الأدب عند جولدمان بتحليل البناء الكامن للعمل الفني - أي العمل ككل - ثم يحاول أن يربطه بجماعة اجتماعية. ولأن العمل الفنى يعبر عن ميول وأفعال واتجاهات وقيم الذات الجمعية، لذا فإنه يرتبط بها فى علاقة وظيفية. لذلك يقتضى فهم شمولية العمل الأدبى ضرورة تفسير نشأته التاريخية فى الحياة الاجتماعية للجماعة. ويمكن تحليل الموضوعات الثقافية على مستوى آنى متوازن (العمل ككل) وعلى مستوى تتابعى تطورى (نتاجات الفعل الإنسانى). ولا يكون للبناءات أى معنى إلا فى ضوء علاقتها بالفعل والاتصال الإنسانى. ويؤكد جولدمان أن «الدراسة التتابعية والتطورية البحتة للأنساق والبناءات، عملية صعبة وغير كافية أو ملائمة من الناحية العلمية، ذلك لأن الواقع يمر دائماً بعمليات مستمرة من التركيب والتحليل، يقول:

«يعتبر التاريخ موضوعًا لعمليات التركيب، وهذه العمليات لا يمكن دراستها إلا بتشييد النماذج والأنماط أولا. ومع ذلك، تكون هذه البناءات ذات طابع مؤقت، لأنها محصلة سلوك الأفراد فى مواقف ملموسة ومحددة، تخضع هى الأخرى للتغير والتحول داخل البناءات. وبهذه الطريقة توجد بناءات أخرى جديدة» (Goldmann, 1980, p. 50).

لقد كان تأكيد جولدمان على البعد الإنسانى الخلاق فى البناء هو ما ميز مدخله عن المدخل الذى تبناه معاصره رونالد بارزس Ronald Barthes (١٩١٥ - ١٩٨٠). وفى الوقت الذى لا يدين فيه جولدمان بالكثير إلى النظرية اللغوية، أكد بارزس فى تعريفه للبنيوية عام ١٩٦٧ على أصولها الأولى فى مناهج الدراسات اللغوية.

ويعتبر ليفى شتراوس Levi- Strauss أول من قدم البنيوية فى فرنسا، حيث تأثرت كتاباته فى الأنثروبولوجيا البنائية كثيراً بأفكار جاكوبسون وسوسيور. ففى تحليله للعلاقات القرابية مثلا، ذهب شتراوس إلى أن هذه العلاقات تشكل نسقًا ينبنى بنفس الطريقة التى ينبنى بها نسق اللغة: حيث لا يكون لأى عنصر من العناصر أى معنى إلا فى علاقته بالكل. غير أن النزعة البنائية ظلت حتى فترة الستينيات دون أن يكون لها مثول ملحوظ فى الحياة الفكرية الفرنسية.

ومنذ ذلك الحين، أصبح بارزس أكثر ارتباطاً بهذا التطور، وذلك من خلال دراساته التى أجراها حول الثقافة الجماهيرية والنظرية الدلالية العامة. فلقد عرف بارزس علم الإشارة semiology بأنه الدراسة العلمية للأفعال والموضوعات الإنسانية فى علاقتها بالنسق الكامن للقواعد والاختلافات التى تمكن من حدوث العملية الرمزية الإشارية. وتتكون الثقافة عند بارزس من الظواهر الرمزية الإشارية، وتعتبر ظواهر الموضة والغذاء من بين الأنساق الرمزية التى عنى بها بارزس. ففى كتابه «نسق الموضة» "Systeme De La Mode" (١٩٦٧). وصف بارزس الموضة كنسق، بمعنى أن هناك فيما وراء لفظة الموضة والطعام توجد قاعدة متميزة تحدد أى الثياب تتناسب مع حدث أو موقف خاص، وأى العناصر الغذائية التى تشكل فيما بينها لوناً من ألوان الطعام. فالقاعدة الثقافية هى نسق التمييزات والأعراف التى تولد المعنى بالنسبة لأعضاء الجماعات الاجتماعية المختلفة.

وفى مجال التحليل الرمزى والإشارى، كان لبارزس دراسات عدة، من أهمها دراسته عن الثقافة الجماهيرية والتى نشرت بعنوان «الأساطير» Mythologies ناقش فيها الأنساق الرمزية للرقص والسيارات والزبدة البنائية والمنظفات ولعب الأطفال، وانتهى إلى وصفها بأنها نتاجات الثقافة الجماهيرية وأنها عبارة عن تمثلات أو تصورات جميعة أو أنساق رمزية تعمل على إخفاء الطبيعة الحقيقية للمجتمع الرأسمالى الحديث. وإلى جانب ذلك، يشير بارزس إلى أن هناك مسئوليات مختلفة للتدليل والإشارة: فعند مستوى ما يكون «الحساء» هو ببساطة «الحساء»، كما يكون «النبيذ الفرنسى» نبيذ طيب، ولكن هناك معانى أخرى ثانوية، فالنبيذ الفرنسى «كإشارة لا يعنى أن أحداً يشرب مع آخرين؛ بل هو إشارة على الأسلوب الراقى للحياة الفرنسية، حيث تشكل عملية الشرب ذاتها فعلا جمعياً طقوسياً ينتج شعوراً بالتماسك والتضامن الاجتماعى. وبالمثل، حلل بارزس غلاف المجلة الفرنسية Paris - match، وفيه صور جندى أسود يرتدى الزى العسكرى الفرنسى ويقوم بتحية الراية الفرنسية: تشير هذه الصورة إلى مستويات عدة للدلالة، يتمثل المستوى الأول فى «جندى فرنسى يؤدى التحية للراية الوطنية»، أما المستوى الثانى من المعنى فهو أن الامبراطورية

الفرنسية تخلو من التفرقة العنصرية بما لها من حسنات تجسدها حماس الجندى الأسود لخدمة ما يتهمون بأنه عتاة ظالمين. يقول: «لذلك فقد وجدت نسقاً رمزياً ودلالياً كبيراً: فهناك الدال أو المشير (الجندى الأسود يؤدى التحية الفرنسية)، وهناك أيضاً المدلول أو المشار إليه (هو المزيج الهادف من الفرنسية والعسكرية)، وأخيراً هناك مثول المدلول أو المشار إليه من خلال الدال أو المشير (Barthes, 1973, p. 116). ويشير بارزس إلى أنه عند المستوى الثانى من مستويات الدلالة يصبح الموضوع أو الحادثة «أسطورة Myth» تحاول أن تقدم ما يدعمها من عرف أو إجماع (على هيئة صورة فوتوغرافية أو لون من الطعام أو موضه... الخ) كمعطيات طبيعية. وبالإضافة إلى ذلك، تشير «الموضة فى ذاتها إلى الاختلافات البسيطة فى الملبس، ولكنها كنسق رمزى دلالى تعمل على تواصل المعانى الأيديولوجية الثانوية.

لذلك، نهضت الثقافة البورجوازية - فى رأى بارزس - على أساس المعانى الأيديولوجية والأسطورية، وعملت على توليد بعض المعايير التى بدت على أنها حقائق ووقائع طبيعية، يقول:

«لقد انغمست فرنسا كلها فى هذه الأيديولوجية المستقلة: فصحافتنا وأفلامنا ومسارحنا وملابسنا وكل شيء فى حياتنا اليومية اعتمد على هذا الشعور الذى بلورته البورجوازية وجعلتنا نأخذ به فيما يختص بعلاقة الإنسان بالعالم. لقد أصبحت هذه الأشكال مألوفة وسوية بالدرجة التى لم تعد تجذب قدراً كبيراً من الانتباه، وذلك لانتشارها على نحو من الاتساع أدى إلى ضياع وفقدان أصولها. وهكذا عوملت المعايير البورجوازية على أنها قوانين واضحة للنظام الطبيعى العام» (Barthes, 1973, p. 140)..

وكوسيلة من وسائل الاتصال، تعد الأسطورة لغة تولد لنفسها معانيها الخاصة بها. ولا يتحدد المعنى - فى نظر بارزس - من خلال ما يقوم به الذات أو المتحدث من أفعال إرادية طوعية، ولا من خلال مقاصده الذاتية، بل ينتج من خلال النسق ذاته. لذلك يمكن القول بأن المدخل الذى تبناه بارزس كان مدخلا غير تاريخي وغير تطورى وغير إنسانى، لأنه يؤكد فكرة غلبة النسق وسيطرته على الذات الفردية.

الماركسية والبنيوية:

تطورت خلال فترة الستينيات فى فرنسا شكلا متميزاً للبنيوية الماركسية تميزت بنزعتها اللاإنسانية، كان منظرها الأول فيلسوف الحزب الشيوعى لويس ألتوسيه Leuis Althusser. ففى سلسلة من المقالات والتحليلات قدم ألتوسير «قراءة» علمية راديكالية جديدة لماركس. فمن خلال تأثره بالدراسات اللغوية البنائية وبالعقلانية العلمية عند جاستون باشلارد Jaston Bachelard انتقد ألتوسييه كل أشكال الماركسية الأمبريقية والوضعية، جنباً إلى جنب مع المدخل المثالى الإنسانى الذى تبناه لوكاتش ومدرسة فرانكفورت وعدداً من الماركسيين المعاصرين، من أمثال سارتر ممن جعلوا الماركسية فلسفة للممارسة العملية.

لقد كانت الماركسية، بالنسبة لألتوسييه، علم دراسة التكوينات والهياكل الاجتماعية، أى دراسة منطقها الداخلى والعلاقات القائمة بين مختلف مستوياتها أو بناءاتها. فالطبيعة الخاصة التى يتميز بها أى هيكل اجتماعى ـ كالرأسمالية والاشتراكية ـ لا يمكن تحليلها فى حدود الذوات أو الأفعال الاجتماعية، ولكن يمكن أن تحلل فقط من وجهة نظر «الكل الشمولى المركب» الذى يتكون من ممارسات وبناءات اقتصادية وسياسية وقانونية وأيديولوچية. رفض ألتوسييه نموذج البناء التحتى والبناء الفوقى الذى قدمته الماركسية التقليدية، لأن هذا النموذج يوحى بفكرة أساسية عن المجتمع مفادها أن الكل الاجتماعى يعبر عن عنصر واحد مسيطر، مثل علاقة العمل برأس المال أو اغتراب الإنسانية. وعلى العكس من ذلك، يؤكد تصور ألتوسييه للكل الشمولى على تعددية البناءات الاقتصادية والسياسية والأيديولوچية، وعلى استقلالها النسبى . لذلك فإن التناقضات الأساسية، مثل تناقض العمل ورأس المال، ليست تناقضات بسيطة، بل دائماً ما تكون محددة ونوعية عن طريق الظروف والأشكال التاريخية والمحسوسة التى تتواجد فيها: فهى تتحدد عن طريق أشكال البناء الفوقى (الدولة، والأيديولوچية المسيطرة والدين) وهى تتحدد أيضاً عن طريق الموقف التاريخى داخلياً وخارجياً. بعبارة أخرى، فإن هذه التناقضات ليست تناقضات خالصة، بل هى تناقضات بالغة التحديد، أي أنها تحدد وتتحدد فى نفس الحركة الواحدة. لقد مالت الفلسفة الهيجلية والماركسية الإنسانية إلى

أن نرد هذا التنوع المعقد للمجتمع التاريخى المعين إلى جوهر أو عنصر واحد يعمل على تحديد كل العناصر الأخرى بل وعلى تحديد الكل الاجتماعى ذاته (Althusser, 1969, pp. 106- 113)..

ويترتب على ذلك، أن يكون هناك تطوراً غير متكافئ وغير متساوى بين المستويات المختلفة للتكوين أو الهيكل الاجتماعى. فالتكوينات والهياكل الاجتماعية ليست متناظرة فى بناءاتها. ولكن ماذا عن علاقة الاقتصاد بالبناء الفوقى ؟ هل البناء الاقتصادى مجرد أحد البناءات العديدة، أم أنه ـ كما ذهب ماركس وإنجلز وغيرهما من الماركسيين ـ بناء مسيطر؟ . هنا ذهب ألتوسييه إلى أنه على الرغم من أن التكوين أو الهيكل الاجتماعى يحتوى على مستويات وبناءات مستقلة نسبياً، إلا أن البناء الاقتصادى فى المثال الأخير هو الذى يحدد أى من هذه البناءات أو المستويات يكون مسيطراً . والحقيقة كانت فكرة «البناء المسيطر» هذه هى التى سمحت لألتوسييه بأن يحتفظ بالتأكيد الماركسى التقليدى على تفوق وأولوية البناء الاقتصادى، فى الوقت الذى يقدم فيه شعوراً «جمعياً» و«تعددياً» للتكوين الاجتماعى.

ومع ذلك، فقد كان من أهم النتائج التى ارتبطت بأعمال ألتوسييه ذلك التأكيد المتزايد على النظرية الماركسية لمفهوم نمط الإنتاج وعلاقته بالبناء الفوقى ونظرية الأيديولوچية . حيث يشكل نمط الانتاج ـ من وجهة نظر ألتوسييه ـ عدداً من البناءات المختلفة من بينها البناء الاقتصادى. وتتمايز أنماط الانتاج عن بعضها البعض من خلال الطريقة المعينة التى تترابط بها هذه البناءات فيما بينها. حيث يتكون نمط الانتاج الرأسمالى مثلاً من بناء اقتصادى معين (العمال، وسائل الانتاج... الخ) ومن نسق قانونى وعقلانى يشكل جزءاً من البناء الفوقى ، وفيه يحدد البناء الاقتصادى النوعية المتخصصة للقوانين التى ترتبط بالملكية والعقد: أما فى نمط الانتاج الاشتراكى فهناك ارتباط مختلف بين الاقتصاد والقانون، حيث تحدد العلاقات الاقتصادية الاشتراكية مجموعة مختلفة من المبادئ والحقوق القانونية . ومع ذلك يكون النسق القانونى، باعتباره

بناءً للأيديولوچية، مستقلا نسبياً ليشكل مستوى متميزاً من التكوين الاجتماعي. غير أن هذا المدخل الشكلى الآنى يعجز - كما أوضح تومبسون-E.P. Thomposn فى نقده لألتوسيبه - عن إدراك حقيقة أن القانون كظاهرة تاريخية لا يشكل جزءاً من مستوى منعزل، بل يتداخل دائمًا بين نمط الانتاج والعلاقات الانتاجية ذاتها، كما يقحم نفسه مع الدين والسياسة، وهو إلى جانب ذلك نظام معرفى أكاديمى يخضع لمنطقه الخاص والمستقل. (Thompson, 1978, p. 288). ولأن بنيوية ألتوسييه كانت قد عزلت الذات والفعل الإنسانى عن البناءات نفسها، فقد ترتب على ذلك بعض النتائج الهامة منها، اتجاهها نحو تشيىء التكوين الاجتماعى ومستوياته، وتأكيدها لسيطرة النسق على الفرد، وميل النسق لأن يظل نسقًا مغلقًا يخلو من أية علاقات حوارية اتصالية. فالبناءات لا تستطيع أن تسن القانون كما لا تقوى على تغييرها.

تبدو صلابة ماركسية ألتوسييه واضحة فى تحليله للأيديولوچية: فقد رفض ألتوسييه التعريف الماركسى التقليدى للأيديولوچية «كوعى زائف»، أى كصورة محرفة ومشوهة للعالم الخارجى تتسم بالوهم وعدم الواقعية، وذهب إلى أنه تعريف إنسانى وغير علمى. لقد ارتكزت هذه النظرية التقليدية للأيديولوچية على فكرة «الذات المشيدة» Constituting subject، وعلى تصور أن المعرفة تشكل وتنعكس فى الشعور والوعى الإنسانى، كما تتطور فقط من خلال خبرات هذه الذات وتجاربها. وعلى العكس من ذلك، يرى ألتوسييه أن المصدر الحقيقى للأيديولوچية ليس هو الذات وليست تجاربها أو خبراتها، بل أن الواقع المادى والموضوعى وحده هو مصدر كل أيديولوچية. وكنسق أو بناء موضوعى، لا يمكن للأيديولوچية أن تختزل لترد إلى أفعال ووعى الذات. ومن ثم تعرف الأيديولوچية «كنسق لتمثلات أو تصورات» System of Representations أى تصورات ومفاهيم تفرض ذاتها كبناءات على الطبقات الاجتماعية وعلى الأفراد. لقد ميز ألتوسييه بين «الموضوعات الواقعية» و«موضوعات المعرفة»، ثم أدرج الأيديولوچية تحت مقولة الموضوعات الواقعية، لأنها فى نظره تعتبر «مثالا» أو «شاهداً» على الكل الاجتماعى الشمولى، ذلك البناء المستقل الذى لا

يمكن اختزاله فى مستوى سياسى أو اقتصادى. الأيديولوچية إذن نسق من خلاله يوجد الفرد ككائن اجتماعى يعيش علاقة حية بالعالم، تلك العلاقة التى تظهر ـ على حد تعبيره ـ على أنها علاقة بين علاقات، أى علاقة من الدرجة الثانية. ففى الأيديولوچية لا يعبر الأفراد عن علاقتهم بظروف عيشهم ووجودهم، بل يعبرون عن الطريقة التى يعيشون بها علاقتهم بهذه الظروف، الأمر الذى يوحى بأن هناك «علاقة واقعية» من ناحية وأخرى متخيلة ومعاشة من ناحية أخرى» (Althusser, 1969, p. 233).

ونظراً لأن الأيديولوچية تمثل علاقات الأفراد «المتخيلة» بظروف وشروط وجودهم الواقعى، فهى تشكل بالتالى عنصراً جوهرياً فى كل التكوينات والهياكل الاجتماعية (بما فى ذلك الاشتراكية والشيوعية)، طالما أن التماسك الاجتماعى لا يكون أمراً ممكناً إلا من خلال الوظائف الاجتماعية والعملية للأيديولوچية . وفى هذا الصدد، يميز ألتوسيه العلم عن الأيديولوچية: فالعلم فى نظره معرفة نظرية أو نسق من المفاهيم والتصورات، أو بحث ينتج ويقدم موضوعات المعرفة ويسلم فى النهاية إلى تشكيل إطار نظرى للمبادئ العلمية العامة. هناك إذن اختلاف جوهرى وهام بين المعرفة النظرية ومعرفة العالم الخارجى: حيث لا تعتمد الأولى على شواهد وبراهين خارجية على صحتها وثباتها طالما أنها نظرية صرفة، بينما تستوعب الثانية فى الأيديولوجية، ومن ثم تهيمن الوظيفة الاجتماعية العملية على الوظيفة النظرية لها.

وعلى هذا الأساس، لا تنبثق الأيديولوچية عن مقاصد الذوات الإنسانية، بل عن نظم ومؤسسات وأجهزة خاصة، أصبحت فى المجتمع الرأسمالى الحديث أجهزة الدولة . تترسخ الأيديولوجية إذن داخل النظم والمؤسسات التى هى بدورها نتاجات للأيديولوچية. وفى مقال له بعنوان «الأيديولوچية والأجهزة الأيديولوچية للدولة» "Ideology and Ideological State - Apparatuses". (١٩٧١) – والتى يرد فيها على الانتقادات التى وجهت إليه، والتى رأت فى نظريته الماركسية فى الأيديولوچية محاولة للإقلال من أهمية الصراع الطبقى–

ذهب ألتوسيه إلى أن الأيديولوچية تشكل موقع الصراع الطبقى: فهو يميز بين الأجهزة الأيديولوچية للدولة (التى تتكون من النظم والمؤسسات الدينية والتعليمية والثقافية بالإضافة إلى الأحزاب السياسية) وبين الأجهزة القمعية للدولة (والتى تتكون من مؤسسات القهر كالجيش والشرطة والقضاء)، وذهب إلى أن الأجهزة الأيديولوچية للدولة هى التى تؤمن، إلى حد كبير عملية إعادة الانتاج وبخاصة بالنسبة لعلاقات الانتاج فيما وراء الحماية التى توفرها الأجهزة القمعية للدولة. ثم يشير بعد ذلك إلى أن الكنيسة كانت فى المجتمعات السابقة على الرأسمالية هى الجهاز الأيديولوچى المسيطر، أما فى المجتمعات الرأسمالية الحديثة فقد غدت النظم والمؤسسات التعليمية جهازاً أيديولوچيا مسيطراً . وفى هذا الصدد كتب يقول:

«إنها ـ أى المؤسسات التعليمية ـ تأخذ الأطفال من أى طبقة فى سن الطفولة، وعلى مدى سنوات ـ يكون فيها الطفل أكثر قابلية للتأثر ـ يعصر الطفل ما بين الأجهزة الأسرية والتعليمية للدولة، لتلقنه ـ مستخدمة مناهج قديمة أو مستحدثة ـ قدراً معيناً من المعلومات المعرفية التى تغلفها بأيديولوچية مستترة (كاللغة والحساب والتاريخ الطبيعى والعلوم والأدب)، أو تقدم له الأيديولوچية فى صورتها النقية والواضحة (مثل الأخلاق والفلسفة والتوجيهات المدنية) (Althusser, 1971)..

وتعمل الأجهزة الأيديولوچية للدولة ـ فى نظر ألتوسييه ـ على ضمان استمرارية الخضوع والإذعان للنظام القائم لعلاقات الانتاج. غير أن نموذج المجتمع الذى اقترحه ألتوسييه فى صياغاته السابقة يقترب تماماً من النظام الشمولى الاستبدادى الذى تصبح فيه عملية التلقين الأيديولوچى الكامل للأيديولوجية المسيطرة مسألة تضمنها وتؤمنها سلبية أفراد الشعب من ناحية والافتقار إلى بناءات بديلة من ناحية أخرى. ومن ثم، كان الشعور البنيوى للأيديولوچية، على النحو الذى قدمه ألتوسييه غير ملائم وغير كاف من وجهة النظر التاريخية والسوسيولوچية: ذلك أن المؤسسات الخاصة التى تشكل جزءاً من

الأجهزة الأيديولوچية للدولة، تكون مركزة فى المجتمع المدنى، ولا يمكن أن تتمثل ممارسات الدولة بالطريقة التى تصورها: ففى المجتمع الرأسمالى، يوجه التعليم من خلال ممارسات وتصورات أيديولوچية، ولكنه يوجه أيضاً من خلال قوانينه وقيمه الخاصة، بمعنى أن التعليم يعتمد على نمط الانتاج وبناء الطبقة. ولكنه مع ذلك يكون مستقلا إلى حد كبير فى ضوء قواعده وقوانينه وخصائصه الذاتية.

وعلى أية حال، تمثل بنيوية ألتوسييه أقوى حركة رفض لتراث النظرية السوسيولوچية الذى اتسم بالطابع الإنسانى الاجتماعى الجدلى. فالعالم الاجتماعى لم يكن، ولن يكون، من صنع الإنسانية، بل إن الأفراد، رجالا ونساءً، هم مدعمو البناءات الخارجية، وليس هنالك فى النسق الذى تصوره ألتوسييه مجالا لإرادية أو طوعية من أى نوع. ولكن، كيف يمكن تفسير تطور مفهوم مثل المجالس العمالية من الناحية السوسيولوچية دون أن نضع فى الاعتبار الذات الفعالة والإيجابية ؟ إن مفهوم «المجلس» لم يظهر من قبل المفكرين، بل تزامن ظهوره مع ظهور المؤسسة والنظام نفسه فى عام ١٨٧١ فى فرنسا وعام ١٩٠٥، ١٩١٧ فى روسيا. لقد انتعشت الديموقراطية اللامركزية فى المجالس العمالية كنتاج لثقافة ونشاط الطبقة العاملة. لذلك فان كلا من المفهوم والنظام أو المؤسسة يمكن فهمها من وجهة النظر السوسيولوچية فقط من خلال الاعتراف بوضع الذات الفعالة ومكانها فى النسق. ومع ذلك، فإن المفاهيم والتصورات تطور فى صياغات ألتوسييه السابقة على نحو مستقل عن التجربة والممارسة العملية الإنسانية. ذلك أن المعرفة تنتج من خلال عملية «ممارسة نظرية» فيها تتحول المادة العلمية الخام ـ أى التعميمات المجردة التى تتميز فى جانب منها بالطابع العلمى والأيديولوچى ـ إلى مفاهيم وتصورات أصيلة. ولكن هذه الممارسة النظرية ـ محددة فى هذا الشكل المجرد ـ لا يكمن أن تتوافق بسهولة مع النشأة الخاصة لمفاهيم مثل «المجالس العمالية». إن هناك فى الحقيقة علاقة حوارية جدلية بين المفاهيم والتصورات وبين الثقافة، وبين النظرية والمجتمع يمكن أن تنأى عن هذا النموذج الشكلى الصارم لبنيوية ألتوسييه.

ويتضح غياب البعد التاريخى النشوئى بصفة خاصة فى الدراسات السوسيولوچية التى أجراها نيقوس بولانزاس Nicos Poulantzas عن الطبقة والقوة والدولة (porilantzas, 1973, 1975). فعلى العكس من ألتوسييه، عنى بولانزاس عناية كبرى بالعمليات والنظم الأمبريقية والوظائف النوعية الخاصة بالتكوين الاجتماعى. ومع ذلك ظل عمله مجرداً وبعيداً عن التاريخ إلى درجة ملحوظة. وبوجه عام لم تقدم صياغاته الشىء الكثير عما قدمه ماركس من أفكار حول الاستقلال النسبى للدولة والثقافة، وقضيته العامة التى تقرر أن الرأسمالية كنسق تتطور خلال العمليات التى يقوم بها البناء الكامن. ولكن بولانزاس كشف عن رفضه الصريح لطوعية ماركس، أى تأكيده على صنع النظم والمؤسسات الاجتماعية، على اعتبار أنها أيديولوجية إنسانية بحتة.

الفصـــل التاســـع

علم اجتماع المعرفة والثقافة

علم اجتماع المعرفة والنظرية السوسيولوجية .

مانهايم : العناصر العامة لعلم اجتماع المعرفة .

علم اجتماع المثقفين .

الأيديولوجيا واليوتوبيا .

المعرفة والمجتمع الجماهيرى : مانهايم ومدرسة فرانكفورت .

الفصل التاسع

علم اجتماع المعرفة والثقافة

علم اجتماع المعرفة والنظرية السوسيولوجية:

يعتبر عالم الاجتماع الألمانى «ماكس شيلر» Max Scheler (١٨٧٤-١٩٢٨) أول من استخدم مصطلح «علم اجتماع المعرفة» Wissenssoziologie فى عام ١٩٢٤. حدد شيلر العناصر الأساسية لعلم اجتماع المعرفة فى الاهتمام بدراسة: الطابع الاجتماعى والجمعى للمعرفة، والتوزيع السوسيولوجى للمعرفة من خلال بعض المؤسسات الاجتماعية الخاصة كالمدارس والصحافة، ثم دور المصالح والاهتمامات الاجتماعية فى تكوين الأنواع المختلفة من المعرفة. ويرى شيلر أن كل الأفعال العقلية مشروطة بالضرورة من الناحية السوسيولوجية ببناء المجتمع (Schelev, in curtis and petras, 1970, pp. 170 - 5). لذلك فإن علم اجتماع المعرفة ليس مجرد رؤية سوسيولوجية لتاريخ الأفكار، بل هو محاولة لتتبع الموقع الاجتماعى لأشكال المعرفة المختلفة، ولبحث نشأتها فى علاقتها بعناصر بنائية اجتماعية معينة. وبتحديد أكثر، لا يعنى علم اجتماع المعرفة بصحة الأفكار وصدقها بل يعنى بوظائفها وعلاقتها الاجتماعية بالجماعات والمصالح والاهتمامات الاجتماعية. لذلك يدرس علم اجتماع المعرفة الصواب والخطأ كأشكال للفكر محددة ومشروطة اجتماعياً. وفى هذا الصدد، يذكر روبرت ميرتون R.K. Merton أنه طالما كان الاهتمام مركزاً فى توضيح المحددات الاجتماعية للأيديولوجية والوهم والأسطورة والمعايير الأخلاقية، لم يكن من الممكن تطوير علم اجتماع المعرفة... لقد ارتبط ظهور هذا العلم مع طرح الافتراض الرمزى القائل بأنه لا يمكن تفسير أي شيء، حتى الحقائق ذاتها، تفسيراً اجتماعياً مقبولاً إلا بربطه بالمجتمع التاريخى الذى ظهر فيه (Merton, 1957, pp. 459 - 60).

وبوجه عام يمكن القول بأن الوضعية السوسيولوجية فى القرن التاسع عشر وبإيمانها الراسخ بإن العلم يشكل أساساً صلباً للمعرفة الحقة ـ كانت قد

فشلت فى تطوير تصور ملائم وكفؤ للأيديولوچية، وفى تنظير علاقة الفكر ذاته بالبناء الاجتماعى. كذلك اعترف الإطار العام للنظرية التطورية بكل من الخطأ والزيف والوهم كعناصر يعمل قانون التطور على اقتلاعها فى نهاية المطاف. لذلك، يعتبر ماركس أول منظر اجتماعى يقترح مدخلا منظماً لتحليل انتاج الفكر، ولتحليل علاقة أشكال المعرفة (الأيديولوچية) بالأنماط المختلفة للمجتمعات. ففى كتابه «الأيديولوچية الألمانية» "The German Ideology"، طرح ماركس نموذجًا ميكانيكيًا آليا للانتاج الاجتماعى للأفكار، فيه تقوم مصالح الطبقة ونمط الانتاج بتحديد بنية الفكر داخل المراحل التاريخية المختلفة. ومن ثم، صنفت النظرية الاقتصادية والدين والأفكار السياسية والاجتماعية والقانون على أنها أشكال للأيديولوچية تعكس قيم جماعات بعينها: فقد ارتبطت الفلسفة المادية الفرنسية فى القرن الثامن عشر ارتباطاً مباشراً بالمصالح الدنيوية للطبقة البورجوازية الصاعدة، وكان الاقتصاد السياسى فى القرن التاسع عشر تعبيراً عن الحاجات الاقتصادية لطبقة البورجوازية المسيطرة. وعلى الرغم من أن ماركس قام بتعديل الكثير من صياغاته الميكانيكية المبكرة ـ وبخاصة تلك التى ترتبط بتصوراته عن البناء التحتى والبناء الفوقى ـ إلا أن قضيته الأساسية عن أن المعرفة أو الأيديولوچية نتاج جمعى يرتبط فى نشأته وبنيته بجماعات وطبقات ومصالح اجتماعية خاصة، كانت عاملا أساسيًا فى دفع الجيل اللاحق له من علماء الاجتماع لدراسة الفكر كمقولة اجتماعية لا كمقولة أولية قبلية.

وشأنه فى ذلك شأن ماركس، عرف دوركايم الفكر فى حدود اجتماعية بحتة باعتباره ظاهرة جمعية يعبر عنها فى تمثلات جمعية مثل الدين والاتحادات... الخ. وفى تحليله للتنظيم الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ـ التى ظهرت فى دراساته مع مارسيل موس Marcel Mauss عن «التصنيف البدائى» "The Primitive Classfication" (١٩٨٩)، وفى كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» "The Elementary Forms of Religious " (١٩١٢) ـ الذى استند على العديد من الشواهد الأمبريقية الأنثروبولوجية المستقاة من الدراسات التى أجريت على قبائل الزونى Zuni وهنود السيوكسى-Sioux Indi

ans وسكان استراليا الأصليين، ذهب دوركايم، إلى أن مبدأ التصنيف كان قد اشتق من تقسيم المجتمع إلى عشائر. ذلك أن البناء الأساسي للمجتمع هو الذى حدد ـ في نظره ـ بنية الفكر الإنساني، ومن هنا كانت مقولات الزمان والمكان والعدد مقولات اجتماعية وليست مقولات نظرية في العقل البشرى. ومن ثم، ارتبط تقسيم السنة إلى شهور وأسابيع وأيام ارتباطاً مباشراً بالطابع الدورى والمرحلي للقيام بالشعائر والاحتفالات والطقوس العامة، حتى أن «التقويم» Calender كان تعبيراً واضحاً عن ايقاع الحياة الاجتماعية الجمعية معبراً عنه في شكل ظواهر اجتماعية. كذلك فإن مقولات الفكر المنطقى يمكن أن يقتفى آثارها في وجود التدرج الهيراركي للمكانات الدنيا والسامية في الحياة الاجتماعية. ومن هنا كانت أشكال المعرفة وصورها المختلفة أموراً وظيفية بالنسبة للمجتمع، بمعنى أن الاتصال بين الأفراد يكون أمراً ممكناً لأنهم يشاركون في تمثلات جمعية. ولا يتقضى العيش في المجتمع مجرد الحاجة إلى المسايرة والامتثال الأخلاقي فحسب، بل يتطلب أيضاً تحقيق قدر من المسايرة المنطقية بدونها يتعذر استمراره بسلام : .Durkheim, 1961, pp) (9-17 وترتبط المعرفة في نظر دوركايم بمتطلبات النظام الاجتماعى العام، بالدرجة التي تشتق فيها المقولات العقلية ـ التى تكون التمثلات والتصورات الاجتماعية ـ من المبادئ الأساسية للترابط الاجتماعي. ويضيف دوركايم أنه مع تطور المجتمعات الحديثة والمعقدة أصبح الفكر نفسه منفصلا عن أصوله الاجتماعية من أجل تحقيق الاستقلال والموضوعية. لذلك ذهب دوركايم ـ وشاركه في ذلك موس ـ إلى أن نسق التصنيف الذى كان يميز التنظيم الاجتماعى البدائي، لا يصلح لأن يكون أساساً لتفسير سوسيولوچي للفكر الحديث.

غير أن ما ذهب إليه دوركايم في تأكيده على تمثل المعرفة ومقولاتها لبناء كلي يرتكز على أساس جمعي، من شأنه أن يلغي الدور الإيجابي والفعال للأفكار ذاتها، وأن يقضى على الانشغال العملي للذوات الإنسانية لتشكيل منتجات الفكر. وعلى العكس من ذلك، أكد علم الاجتماع الدينى عند فيبر M. Weber على عنصر الفعل في أشكال الأيديولوچية المختلفة،

فالكالفينية Calvinism والتقوية Pietism والكاثوليكية والكونفوشية كانت كلها أيديولوچيات دينية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بنصائح معينة من الجماعات الاجتماعية التى أمدتها بالدافعية السيكولوچية اللازمة إما لكى يقدم الأفراد قيم تراكم رأس المال أو أن يتحولوا إلى نشاطات دنيوية أخرى. ومن ثم، لم تكن الأيديولوچيات الدينية أوهاماً أو وعياً زائفاً أو مجرد أشكال تابعة تعكس مصالح الجماعة، بل كانت بناءات معقدة للفكر، من خلالها يوجه الفرد نفسه نحو الحقيقة، ومن خلالها يستطيع أيضاً تحديد وتعريف الحقيقة.

هكذا، وضعت الأسس الأولى لعلم اجتماع المعرفة على يد كل من ماركس وفيبر ودوركايم. وبطبيعة الحال، كانت نظرية الأيديولوچية تمثل نقطة محورية فى هذا التطور. غير أنه لم يكن من الممكن تطوير نظرية سوسيولوجية عن الأيديولوچية حتى يمكن تطوير منظورات جديدة ومختلفة تتحدى وجهة النظر الوضعية، التى سيطرت على القرن التاسع عشر فى مجالات الفلسفة واللغويات وعلم النفس والنظرية الاجتماعية. فمع تزايد الصراع الاجتماعى، ظهرت اختلافات القيم والاتجاهات وأنماط الفكر وتطورت إلى الحد الذى جعل التوجيه المشترك للجماعات يواجه باختلافات وتشعبات لا يمكن التوفيق بينها » (Merton, 1957, p. 457).

ويساعد التحليل السوسيولوچى لأشكال المعرفة ـ فى نظر شيلر ـ فى إبراز ما أسماه هو وبعض علماء الاجتماع المعاصرين بأزمة القيم فى عالم سيطرت عليه فلسفات ومنظورات سوسيولوچية وسيكولوچية متعددة مثل الكانطية المحدثة والفينومونولوچية والماركسية والاتجاه الشكلى... الخ: ففى مجال النظرية الاجتماعية سيطرت النزعة النسبية على المستوى الأبستمولوچى المعرفى وسيطرت اللاأدرية على المستوى المنهجى، هذا فى الوقت الذى ظهرت فيه العديد من الفلسفات العالمية كالاشتراكية والماركسية والليبرالية والفاشستية بمزاعمها ودعاويها الخاصة فى رؤية الحقيقة والواقع. وعلى العكس من النزعة النسبية التى تضمنتها أعمال دوركايم وفيبر وماركس، تصور شيلر ـ وعلى غرار الفلسفة المثالية ـ عالماً متميزاً من «جواهر» أبدية وقيم عامة تسمو عالم الحقيقة الاجتماعية والتاريخية. وفى هذا الصدد، يذكر شيلر «أن هناك الكثير

من الحقائق المختلفة، إلا أنها تنبثق عن إدراك العالم الأصلى والوحيد للأفكار والقيم» وتـ حدد المهمة الأساسية لعـ ـع المعرفة فى انتقاء العناصر الصادقة والعامة فى كل هذه الفلسفات والنظرات المختلفة للعالم وتكاملها فى تصور كلى شموى واحد (Scheler, 1970) والحقيقة، وجدت أفكار شيلر الميتافيزيقية طريقًا لها فى التطور اللاحق لعلم اجتماع المعرفة، وبخاصة فى اهتمامه بالمعرفة المطلقة أو «الحقيقة» كما أن كثيراً من الأفكار التى رددتها فلسفة شيلر المناهضة للوضعية ومفهوم ديسلى عن «رؤية العالم» ونظرية ماركس فى الأيديولوچية، وجدت لها هى الأخرى مكاناً فسيحًا فى علم الاجتماع الذى قدمه كارل مانهايم Karl Mannheim (١٨٩٣ ـ ١٩٤٧)، والذى قدم أكبر إسهام أوروبى فى مجال تطور علم اجتماع المعرفة.

مانهايم ـ العناصر العامة لعلم اجتماع المعرفة:

ينتمى مانهايم إلى جيل المفكرين المجرين الذين عنوا بالثقافة والقيم الإنسانية أكثر من أى موضوع آخر. حيث كان عضواً فى الجماعة التى كونها كل من لو كاتش ومؤرخ الفن أرنولد هوسر Arnold Hauser والمؤلف الموسيقى بيلا بارتوك Bela Bartok والفيلسوف ميخائيل بوليانى. Michael Polyani تأثر مانهايم كثيراً بأعمال فيبر وزيمل حول مشكلات الثقافة والأبستمولوچيا (المعرفة)، وشاركهما ـ أي فيبر وزيمل ـ فى انتقادهما للعلم الطبيعى كأساس غير كاف وغير ملائم للعلم الاجتماعى، وحاول خلال فترة العشرينيات أن يطور مدخلا سوسيولوجيا تفسيرياً لتحليل الصور والأشكال المختلفة للمعرفة. وكتب فى هذه المرحلة العديد من المقالات التى اكتشف فيها امكانية تطوير علم اجتماع المعرفة. وكان من أهم أعماله مقاله الذى نشر بعنوان «فى تفسير رؤية العالم» "On the interpretation of weltans chauung" (١٩٢١)، ومقالة بعنوان «المذهب التاريخى» "Historicism" (١٩٢٤)، ومقالة «مشكلة علم اجتماع المعرفة» "The problem of sociology of knowledge" (١٩٢٥)، ومقالة عن «الفكر المحافظ» "conservative thought" (١٩٢٦)، ثم كتابه الذى نشر فى ثلاثة مقالات بعنوان «الأيديولوچية واليوتوبيا» "Ideology of utopia" (١٩٢٩)

تمثلت القضية الكبرى التي دارت حولها أعمال مانهايم في توضيح الطابع الجمعي للمعرفة (فقد استخدم مفهوم الذات الجمعية ليشير إلى أن المفكر الفرد يعبر عن وجهة نظر جمعية، وليست فردية، وأن أعماله تعبر عن الأحداث ومجريات الأمور الاجتماعية الخارجية) وفي تصنيفها ـ أي المعرفة ـ إلى أساليب متميزة للفكر (حيث استعار مفهوم «أسلوب الفكر» Style of Thought من تاريخ الفن، ويشتمل المفهوم على أشكال الفكر البورجوازى والمحافظ والبروليتاري) وفي توضيح علاقتها ـ أي المعرفة ـ الوثيقة بالجماعات الاجتماعية المختلفة. ذلك أن أسلوب الفكر يرتبط في نظر مانهايم ارتباطاً وثيقاً بمصالح واهتمامات الجماعة، ومن ثم تنطوي مهمة التحليل بالضرورة على تحليل السياق التاريخي الخارجي وبنية البناء الاجتماعي للجماعة بالنتاج الفكري، وعلى تحليل الوحدة الداخلية للعمل في ذاته. ولأن أساليب الفكر تمثل «كليات» في ذاتها، لذلك يصعب فهمها من وجهة النظر السوسيولوجية عن طريق المقاييس والوسائل الكمية. لذلك كان من أهم المبادئ المنهجية التي وضعها مانهايم هو استحالة تحليل الكل والمركب في ضوء الجزء والبسيط. وفي استعراضه لكتاب لوكاتش «نظرية الرواية» "Theory of Novel" في عام ١٩٢٠، ذهب مانهايم إلى أن «تفسير الموضوعات الثقافية يجب أن يتم «من أعلى» طالما أن الصورة الفنية ليست إلا واحدة من المقومات المجردة للمحتوى الروحي... وأن تفسير الجزء المجرد لا يكون ممكناً وله ما يبرره إلا إذا انطلق بداية من الكل» (Wolff, 1973, p.3.). والحقيقة كان هذا المبدأ المنهجي هو ما عزل علم الاجتماع الذي قدمه مانهايم عن التراث الوضعي، ذلك أن التفسير التأويلي لا يجعل التفسير السببي مسألة سطحية أو ثانوية، لأنهما يمثلان معاً مقومات أساسية وجوهرية لتحليل الظروف والشروط التي تنهض عليها «فعلية» و«واقعية» معنى معين» (Mannheim, 1952, p. 81).

وفي كتاباته الباكرة، وبالتحديد حتى تاريخ نشر كتاب «الفكر المحافظ» "Conservative Thought" (١٩٢٦)، تبنى مانهايم منظوراً تفسيرياً تأويلياً. فقد عنى أساساً بالبناء الداخلي للصورة أو الشكل الثقافي، وذهب إلى أن «تحليل المعاني يجب أن يكون محور اهتمامنا»، مدافعاً عن كل من النهج

الفينومونولوجى (الذى يركز على العناصر الأساسية التى تدعم كل أسلوب معين للفكر) والمنهج البنيوى (الذى يعنى بعلاقة المعرفة بالعناصر الخارجية).
ويذكر مانهايم بعد ذلك أن لكل موضوع ثقافى ثلاثة مستويات متميزة - لكنها مترابطة - للمعنى هى المستوى الموضوعىobjective، والمستوى التعبيرى Expressive والمستوى التوثيقى documentary: فللمقطوعة الموسيقية مثلا محتوى لحنى نغمى يمكن للملاحظ أو المستمع أن يفهمه بطريقة موضوعية دون أن يكون بحاجة إلى معرفة مقاصد المؤلف الموسيقى، ولها أيضاً معنى تعبيرى يكمن فى المحتوى العاطفى والوجدانى الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقاصد الخاصة للمؤلف. وعلى العكس من ذلك، يعمل المعنى التوثيقى على ربط الصورة الموسيقى ككل بأسلوب الفكر فى مرحلة معينة من أجل تكامل ظواهر ثقافية خاصة فى البنية الكلية لرؤية العالم. (Mannheim, 1952, pp. 42- 45) إن المعنى التوثيقى باختصار إشارة إلى نظرة عامة لرؤية العالم.

غير أن مدخلا مثل هذا من السهل أن يؤدى إلى الوقوع فى دائرة الحلقة المفرغة: «فنحن نفهم الكل عن طريق الجزء، ونفهم الجزء من خلال الكل». كما أننا نستنبط «روح المرحلة» Spirit of Epoch من التعبيرات الفردية الموثقة، بينما نفسر التعبيرات الفردية الموثقة على أساس معرفتنا بـ «روح المرحلة» (Mannheim, 1952, p. 62) وتفادياً «للنسبية» التى تتضمنها هذه الصياغات السابقة، طور مانهايم منهجاً للتحليل يربط به المعنى التوثيقى للأشكال والصور الثقافية بكل من السياق التاريخى والاجتماعى، وبالوحدة الداخلية للكل ذاته. ومن ثم، سيطر على أعمال مانهايم اللاحقة تأكيده على المعانى الكبرى للعناصر الثقافية كالأنماط المختلفة للمعرفة. ذلك أن الطابع الدينامى والمتغير للسياق الاجتماعى والتاريخى يشكل فى نظر مانهايم المعضلة الكبرى التى تواجه علم اجتماع المعرفة. هل كل أساليب الفكر أساليب نسبية من حيث محتواها الحقيقى؟. يجيب مانهايم قائلا «إن علم اجتماع المعرفة هو «تنظيم» للشك الذى يوجد فى الحياة الاجتماعية فى شكل انعدام غامض للأمن أو عدم الثقة وعدم التأكد». إن ما يوجه للعالم الحديث من لوم هو ذلك الموقف الذى جعل الحياة الاجتماعية أكثر اغتراباً وتفككاً وفوضوية. ومن هنا، كتب

مانهايم الكثير من المقالات المتشائمة حول «الانحطاط الفكرى الذى يسيطر على عصرنا الراهن، والفوضى التى تردت فيها حياتنا الاجتماعية والفكرية» (Mannheim, 1960, p. 94s).

والحقيقة، لقد استنبطت هذه التعليقات المتشائمة من واحد من أهم أعمال مانهايم وهو «الأيديولوجية واليوتوبيا» (١٩٢٩)، فيه واجه مانهايم مشكلات الموضوعية والمنظور، والتى أثارها كل من فيبر ولوكاتش بطرق أخرى مختلفة. فإذا لم تكن هناك حقيقة موضوعية، وكانت الحقيقة مجرد مجموعة منظورات متنوعة ومتباينة، كيف للمعرفة التاريخية إذن أن تكون ممكنة ؟ على العكس من فيبر ومعارضته المعروفة للنسبية الثقافية والموقف الشكى لعلم الاجتماع، اقترح مانهايم حلاً تاريخياً، أى تصوراً دينامياً للحقيقة، كمستوى مطلق عن طريقه يمكن الحكم على مدى ثبات المنظورات المختلفة وصدقها تبنى مانهايم مفهوم «الشمول» Totality وذهب إلى أنه على الرغم من ارتباط الأشكال المختلفة للمعرفة بمواقع اجتماعية مختلفة، إلا أن أى منظور جديد يظهر فى مجرى التطور التاريخى يحتوى فى الواقع على أفكار جديدة لها قيمتها بالنسبة للحقيقة والواقع التاريخى ـ فالماركسية مثلا كانت قد أكدت على الصراع الطبقى، بينما أكدت الفاشستية على عنصر الفعل فى الحياة الاجتماعية، فى مقابل تأكيد الليبرالية على أهمية الفرد المستقل. إن كل منظور جديد يقدم تركيباً جديداً لمنظورات سبقته، لذلك تمر أساليب الفكر باستمرار بعملية لا تنقطع من الامتزاج والتداخل فيما بينها. ومن هنا، فإن المجتمع الحديث ـ رغم ما يتميز به من تجزيئية وانقسامية واستقطاب، إلا أنه يضع أساسًا لاتجاه واسع النطاق نحو «المفهوم الكلى»، بمعنى أن أى منظور جديد يكشف عن «حقيقة تقريبية تشكل جزءاً من هيكل أكبر للمعنى داخل بنية الحقيقة التاريخية. وبالطبع، فإن كل المنظورات ستكون بالضرورة «جزئية»، لأن الكل التاريخى الشمولى يكون دائمًا من الاتساع والشمولية بحيث لا يمكن إدراكه وفهمه عن طريق أى من وجهات النظر الفردية التى تظهر خارجًا عنه» (Mannheim, 1960, pp. 94-6) هذا هو معنى «التصور الدينامى للحقيقة عند مانهايم. ففى مقالته التى دارت حول «المذهب التاريخى»

مثلا، ذهب مانهايم إلى أنه ليس هناك طبقة أو جماعة بعينها تستطيع أن تشكل بذاتها ما يمكن أن نعتبره حاملا لحركة الكلية للتاريخ، وأن الكل لا يمكن أن يفهم إلا بأن يوضع فى الاعتبار كل المنظورات المختلفة».

على هذا النحو، تبنى مانهايم نظرة هيجل والتى فيها حولت العملية التاريخية الفكر الأيديولوچى المرتبط بالمصلحة إلى حقيقة موضوعية. لذلك نجده فى كتابه «الأيديولوچية واليوتوبيا» يشيد بنظرية ماركس فى الأيديولوچية لأنها وحدت علاقة المصالح الطبقية بأشكال المعرفة. غير أن ماركس فشل فى تطبيق نظريته على فكره الخاص وتصور أن الأيديولوچية «مفهوم متميز للاشتراكيين». وعلى الرغم من تقدم النظريات السابقة، إلا أن تصور ماركس خلط بين معنيين متميزين للأيديولوچية. أى بين المفهوم البسيط (الخاص) ويشير إلى الحيل الخداعية الفردية والتبرير العقلانى للأفعال على المستوى السيكولوچى، والمفهوم الشمولى الكلى الذى يشير إلى فكر الطبقة الاجتماعية أو المرحلة التاريخية أى إلى أسلوب الفكر. أما المعنى الأخير فيتميز بأنه معنى سوسيولوچى ولذلك فهو يقترب من الحقيقة والواقع. ويشير مانهايم إلى أن مفهوم الأيديولوچية مفهوم غير تقييمى، يحاول فقط أن يوضح علاقة البنى العقلية بمواقف حياتية خاصة، ولذلك فهو يمكن علم اجتماع المعرفة من اكتشاف المحددات الاجتماعية للفكر، ومن طرح مشكلة الحقيقة والزيف على مائدة البحث (Mannheim, 1960, pp. 66- 72)

ومع أن كل أشكال الفكر تتحدد اجتماعيا فى نظر مانهايم، إلا أنه كان يستثنى الرياضيات والعلوم الطبيعية من الاعتماد على العلية الاجتماعية. فعلى العكس من الفكر المحدد تحديداً وجودياً، تخضع الرياضيات والعلوم الطبيعية لعوامل عقلية نظرية، فالمعادلة ٢ + ٢ = ٤ لا تحتوى على مؤشر يحدد من الذى قام بالتفكير وأين. غير أن هناك انتقادات كثيرة أوضحت نقاط الضعف التى اكتنفت هذا التمييز بين المعرفة الشكلية الصورية والمعرفة التاريخية: ذلك أنه إذا كان الفكر يتحدد بطريقة اجتماعية، فإن العلم وهو نتاج الفعل والثقافة الإنسانية لابد وأن يكون هو الآخر كذلك وبوجه عام، فقد فشل مانهايم فى أن يميز وبوضوح بين الأشكال المعرفية المختلفة، فقد تصور أن المعارف

السياسية والأخلاقية والتاريخية والمعتقدات الدينية متشابهة تماماً كالقيم والأفكار اليومية. لأنه إذا كانت المعرفة تتحدد عن طريق عوامل خارجية وغير نظرية أصبح المنطق والعلم والفلسفة والسياسة والأبستمولوجيا أموراً نسبياً من حيث صدق المحتوى.

وتمثل مشكلة النسبية فى الكتابات المبكرة لمانهايم المشكلة الرئيسية لعلم اجتماع المعرفة، لأنها هى التى تضع فى تصوره حدود علم اجتماع المعرفة ذاته. وكان الحل الذى تصوره مانهايم فى كتابه «الأيديولوچيا واليوتوبيا» هو التمييز بين النسبية (بمعنى أن تنسب كل الأفكار إلى موقف ما) وبين الارتباطية أو العلاقية Relationism (بمعنى أن الأفكار، وإن ارتبطت بسياقات معينة، لا يحكم ببطلانها من منظور الصدق والكذب). غير أن مانهايم ينتهى كما رأينا إلى الأخذ بمنظور تاريخى هيجلى مفاده أنه وإن كان علم اجتماع المعرفة يربط الأشكال المختلفة للفكر بمواقف اجتماعية معينة، إلا أن صدق محتوى المنظورات المختلفة يكمن فى ارتباطها بحقيقة «فوق تاريخية». ومن ثم، تبتعد مهمة تقطير الصدق (أى استخلاصه نقطة بعد أخرى) من الخطأ والزيف فى المنظورات المختلفة عن نطاق التاريخ، لتصبح مهمة أساسية يضطلع بها المثقفون.

علم اجتماع المثقفين:

فى كتابه «التاريخ والوعى الطبقى» "History and class conscious-ness"، اقترح لوكاتش حلا تاريخياً راديكالياً لمشكلة النسبية التاريخية هو أن أقصى حالات الصدق والحقيقة توجد لدى الطبقة البروليتارية ذات المزايا الوجودية، والتى جسدت رؤيتها العالمية للماركسية مبدأ «الشمول» والمعنى التاريخى. وشأنه فى ذلك شأن لوكاتش، ذهب مانهايم إلى أن هناك بعض المواقع الاجتماعية التي تمكن الجماعة الاجتماعية من فهم الحقيقة التاريخية بمستوى من العمق أكبر من فهم أى جماعة أخرى، لذلك لا تتساوى كل المنظورات فيما تكشف عنه من صدق. ومع ذلك، رفض مانهايم أن يرد الحقيقة إلى الطبقة كما فعل لوكاتش، وذهب إلى أن مهمة تركيب المنظورات المختلفة تلقى على عاتق شريحة اجتماعية متميزة هى فئة قادة الفكر

الأحرار Intelligentsia، تلك الجماعة التى لا تتقيد بمصالح اجتماعية بعينها، ومن ثم يتحقق لها الاستقلال الفكرى. وبهذه الطريقة، يمكن لنظرية ماركس فى الأيديولوچية أن تتطور داخل إطار علم اجتماع المعرفة فقط من خلال نشاطات وأفعال هؤلاء المثقفين المستقلين الذين يشغلون موقعاً اجتماعياً خارج النظم والمؤسسات الرئيسية فى المجتمع الرأسمالى. وفى هذا الصدد يذكر مانهايم:

«ومن الأمور التى تبدو على أنها متأصلة فى صميم العملية التاريخية ذاتها، أن الحدود التى تعمل على تحديد وتضييق وجهة نظر ما تميل إلى أن تسير فى الطريق الصحيح من خلال تصادمها بوجهة نظر أخرى مضادة. ولذلك تتمثل مهمة دراسة الأيديولوچية فى فهم مدى ضيق كل من وجهات النظر الفردية، وإلى أى حد تتفاعل هذه المواقف والاتجاهات المتمايزة فى العملية الاجتماعية الكلية» (Mannheim, 1960, p. 72)

إن المثقفين وحدهم هم الذين يستطيعون تحقيق المنظور الشمولى. وفى كتابه «الأيديولوچيا واليوتوبيا»، تبنى مانهايم مفهوم ألفرد فيبر Alfred weber الذى وصف به المثقفين «كشريحة لا طبقية نسبياً»، ثم يضيف إليه وصفه لهم بأنهم على درجة عالية من التمايز، ولكنهم يتوحدون برباط التعليم. وفى هذا الصدد ميز مانهايم بين «المثقفين المتحررين اجتماعياً»، كالكهنة والمهندسين والكتاب والأكاديميين، وبين «المثقفين المقيدين اجتماعياً» وذلك فى محاولة منه لأن يميز المثقفين القادرين على القيام بنشاطات معرفية مستقلة عن غيرهم من المثقفين الذين يرتبط دورهم مباشرة بالمصلحة، ولذلك يكون دورهم ذا طابع أيديولوچى.

ويعتبر تطور المثقفين المحدثين فى نظر مانهايم نتاجًا لعملية التحول الديموقراطى التى اتسع نطاقها فشمل المهن الفنية العليا والتعليم والاتصال والمؤسسات الثقافية فى المجتمع الصناعى. والتى حررت المفكر والمثقف من عبوديته أو اعتماده الكامل على نظم الدولة ومؤسساتها. لذلك يمثل المثقفون المحدثون شريحة مفتوحة تتميز – لافتقارها لرؤية موحدة للعالم – بطابعها الديموقراطى الشاك. زد على ذلك أن وضعها الاجتماعى الهامشى يجعلها

أكثر حساسية لما أصيب به المجتمع الحديث من انقسامية وتفتتية على المستوى السياسى والثقافى، وهنا يذكر ما نهايم:

«إن المثقفين المتحررين هم فلاسفة الدعوة ومناصروها، لا يربطهم وضعهم الاجتماعى بأى موقف أو سبب محدد، ولكنهم يتمتعون بحس عال ورفيع لكل المسائل والتيارات الاجتماعية والسياسية» (Mannheim, 1953, p.126).

ويسوق مانهايم العديد من الأمثلة التى تشير إلى هذه الشريحة الاجتماعية فيذكر فلسفة التنوير والحركة الرومانسية كتيارات فكرية طورها المثقفون الذين قاموا بدور المتحدثين باسم الجماعات الاجتماعية المعينة. إنهم ـ أى المثقفون ـ هم الذين يقدمون التعبيرات النظرية عن المصالح المادية للطبقات والجماعات الاجتماعية، وهم إذ يفعلون ذلك يصبحون حلفاء لهذه الطبقات والجماعات دون أن ينتموا إليها. ولذلك وصف مانهايم فلسفة كانط النقدية «بأنها تعبير عن الطبيعة الداخلية للثورة الفرنسية، لا لأن كانط كان قد توحد بأهدافها السياسية، بل لأن فكره كان يسير فى نفس الخط الذى كانت تسير عليه القوة الدينامية الدافعة للثوار الفرنسيين» (Mannheim, 1953, p, 84).

ولقد مالت كتابات مانهايم السوسيولوجية إلى تأكيد الدور السلبى للمثقف فى تشكيل أسلوب الفكر، وفى بعض الأحيان كانت كتاباته تقترب من الماركسية الشائعة، وبخاصة فى النظرة إلى المثقفين على أنهم مجرد تعبير عن الفكر الذى يتلاءم مع جماعة أو طبقة اجتماعية معينة، ظهر ذلك واضحاً بصفة خاصة فى إحدى دراساته الكبرى «الفكر المحافظ» The conservative thought (١٩٢٥). فيها ميز مانهايم الفكر المحافظ عن الفكر التقليدى فى ضوء ما للفكر المحافظ من بناء انعكاسى، وذهب إلى أنه إبان صحوة الثورة الفرنسية، وظهور المجتمعات المفتوحة والمرنة اجتماعياً، وانهيار النظرة الاستاتيكية للعالم والتى كانت سائدة فى مجتمعات ما قبل التصنيع، ومع ظهور الفلسفات الدنيوية والعلمانية الجديدة، ظهر الفكر المحافظ كأسلوب واع بذاته لمعارضة كل من الرأسمالية الفردية والفسلفة الجمعية للاشتراكية حديثة النشأة آنذاك. ويؤكد الفكر المحافظ بصفة خاصة على الطابع العضوى للمجتمع، وعلى

أهمية الأسرة والاتحادات في مواجهة الفلسفة الفردية لفلسفات العقد الاجتماعي بتأكيدها هي الأخرى على الحقوق المكتسبة للفرد وعلى قيم السيادة والسلطة الشعبية. إن الحياة الإنسانية في الفكر المحافظ تتميز باللاعقلانية، ولذلك ينظر إلى التطور التاريخي على أنه عملية عضوية وليست عملية ميكانيكية. وبهذه الطريقة أضفى الفكر المحافظ شرعية واضحة على معارضة كل من الرأسمالية الصناعية والفلسفات الفردية والليبرالية والاشتراكية.

لم يستطع المجلس الصناعي الحديث في البدايات الأولى من القرن التاسع عشر أن يجد مشروعيته في دعاوى الفلسفات والقيم التقليدية في ذاتها. لذلك لم يستطع المثقفون المتحررون أن يكشفوا عن مصالحه الخاصة وأن يضمنوا له وضعًا اجتماعيًا مستقلا، ومن ثم توحدوا مع استجابة الفكر المحافظ في معارضته لقيم وفلسفات التنوير (ركز تحليل مانهايم هنا على ألمانيا بما كان لها من قاعدة صناعية ضعيفة ونسق سياسي منقسم) ولأن جماعة المثقفين لا يرتبطون بمصالح مادية خاصة، لم يكن لهم أيديولوچية محددة، ولكنهم ظلوا على درجة عالية من الحساسية للتيارات السياسية والاجتماعية القائمة. وفي هذا الصدد، يقول مانهايم «إنهم لا يعرفون شيئًا بذاتهم، ولكن دعهم يرتبطون ويوحدون أنفسهم بمصالح شخص أو جماعة ما، عندئذ سيعرفون الكثير مما هو أفضل مما يعرفه أولئك الذين تحددت مصالحهم من خلال طبيعة الأشياء وبحكم ظروفهم الاجتماعية» (Mannheim, 1953, pp. 127).

غير أنه في كتاباته الأخيرة، تصور مانهايم المثقفين على أنهم أكثر من أداة سلبية في أيدي طبقة خاصة. ففي كتاب «الأيديولوچيا واليوتوبيا» تحدد للمثقفين مهمة توضيح مقولة «الشمول» من خلال تركيب المنظورات المختلفة، دون ارتباط منهم بمصالح الطبقة، على نحو ما أشار إليه لوكاتش بالنسبة للفكر البروليتاري والبورجوازي مثلا. وفي مقالة أخرى لاحقة، كتبها مانهايم عن «جماعة المثقفين» intelligentsia في فترة الثلاثينيات ولم تنشر إلا بعد وفاته، استبدل التأكيد على «الشمول» بتأكيد مماثل على «التعاطف» Empathy فكشريحة مفتوحة نسبيًا يشارك المثقفون في التجربة التاريخية من عدة منظورات مختلفة، وذلك لأن الحقيقة ليست أحادية المركز،

بل لها محاور متعددة كنتاج للحراك الاجتماعى وتعقد المجتمع الحديث. ومن ثم، يتعاطف المثقفون مع وجهات النظر الأخرى، ليدخلوا فى حوار نقدى مطورين موقفاً شكلياً مثمراً. وباختصار، يرى مانهايم أن الانفتاح البنائى والمعرفى لشريحة المثقفين هو ما يضفى على الأيديولوجيات المتصارعة معنى ما يتميز به العصر الحديث.

الأيديولوچيا واليوتوبيا:

فى كتابه «الأيديولوچيا واليوتوبيا» Ideology and utopia ميز مانهايم الأيديولوچيا عن اليوتوبيا بأن حدد الأيديولوچية كعملية من خلالها يصبح فكر الطبقة الحاكمة أكثر ارتباطاً بالمصلحة، بالدرجة التى لا يجعلها تدرك أو تتفهم وجود الحقائق التى قد تتعارض مع دعوتها ومطالبتها للسيطرة. وتنطوى الأيديولوچية على حقيقة أن اللاشعور الجمعى لجماعات معينة قد يعمل فى بعض المواقف على طمس معالم الظروف الحقيقية المحيطة بالمجتمع وحجبها سواء عن أعينها أو عن أعين الآخرين، ولذلك تحرص على تثبيت الموقف الراهن. وعلى النقيض من ذلك، يعكس الفكر اليوتوبى نضال الجماعات المقهورة فى بحثها عن تغيير الأوضاع القائمة، ولذلك لا يرى فى الموقف إلا تلك العناصر التى تميل إلى إنكاره وإبطاله. ويترتب على ذلك أن يكون الفكر اليوتوبى عاجزاً عن تقديم تحليل صادق للموقف الراهن ولا يدرك إلا ما قد يحتوى عليه الموقف الراهن من عناصر سلبية. ومن الأمثلة التى يسوقها مانهايم على الفكر اليوتوبى حركة الإصلاح البروتستانتى التى تؤمن بعودة المسيح، والمذهب الهيومانى (الإنسانى) الليبرالى، والاشتراكية الشيوعية، فهى كلها تنهض على أساس مفاهيم وتصورات لم تعد ملائمة للأوضاع الراهنة. وينتهى مانهايم إلى القول بأن جماعة المثقفين هم وحدهم الذين يستطيعون، لوضعهم المتميز، أن يوفروا المعرفة الموضوعية من وجهة النظر التاريخية، وذلك من خلال قدرتهم على تركيب العناصر الصادقة فى المنظورات المختلفة. إن الحقيقة - على حد تعبير مانهايم - تاريخية وشمولية، ولذلك لا يستطيع الفكر الأيديولوچى جنباً إلى جنب مع الفكر اليوتوبى أن يدرك هذا الكل التاريخى.

ويقدم مانهايم فى كتابه «الأيديولوچيا واليوتوبيا» أيضاً تصوراً تطورياً للفكر

اليوتوبى بدءاً بدعوى عودة المسيح وانتهاءاً بالهيومانية الاشتراكية، ثم يشير إلى صعوبة تمييز الأسلوب اليوتوبى للفعل عن الأسلوب الأيديولوچى موضحاً «أن يوتوبيات الطبقات المسيطرة فى الماضى غالبًا ما امتزجت بعناصر أيديولوچية». ولذلك اشتملت رؤية البورجوازية المسيطرة للعالم على نموذج يوتوبى للحرية الإنسانية (فى مقابل النموذج الاتحادى الاشتراكى للمجتمع الاقطاعى) تميز بطابع أيديولوچى لأنه تحقق بالفعل من الناحية التاريخية، وهذا هو السبب الذى من أجله وصف مانهايم الحرية البورجوازية بأنها «يوتوبيا نسبية» (Mannheim, 1960, pp. 188- 4) . لقد ظلت قضية مانهايم تحمل طابعًا تاريخيًا واضحًا: حيث يؤكد «إن أفكارنا ووجودنا مقومات لعملية تطورية شاملة، فيها تبدو الأفكار المحافظة والتقدمية على أنها اشتقاقات لها» (Mannheim, 1952, p. 146) . ونتيجة لذلك، كان التمييز بين الأيديولوچيا-واليوتوبيا مسألة مرتدة ذات أثر رجعى» expost facto، طالما أنه من الصعب على مر الزمن أن نعرف ما إذا كان من الممكن أن تتحقق الحرية البورجوازية فى المجتمع. والحقيقة، إن كثيراً من قضايا مانهايم أخذت هذا الطابع «المرتد»، كما أن كثيراً من قضايا النظرية السوسيولوچية حول علاقة المعرفة بالمجتمع صيغت فى ضوء «الملاءمة للموقف» أو «وفقاً لاحتياجات العصر»، وليس من قبيل المصادفة (Mannheim, 1957, pp. 498-9). ومن هنا، أصبح معيار الصدق – غير مانهيام – ممثلا فى كفاءة الفكر وملاءمته للواقع الراهن، وبالتالى كانت نظرته نظرة وظيفية واضحة وليست نظرة تاريخية.

هكذا، اشتمل علم اجتماع المعرفة عند مانهايم على موقفين نظريين مختلفين ومتميزين :أولهما نظرية تقابل المعرفة، وفيها ترتبط أساليب الفكر بجماعات ومواقع اجتماعية محددة، وثانيهما ذلك التصور التاريخى للصدق والثبات الذى يتعارض مع الفكرة الوظيفية عن «الملاءمة» و«الاحتياجات».

المعرفة والمجتمع الجماهيرى ـ مانهايم ومدرسة فرانكفورت:

قادت النزعة التاريخية مانهايم إلى تطوير علم اجتماع للمعرفة يتفقر إلى نظرية سوسيولوچية متميزة عن المجتمع. إذ على الرغم من أنه ناقش نتاجات المعرفة فى علاقاتها بالجماعات والطبقات والمواقع الاجتماعية، إلا أن الروابط

التى تربط كل مقومات البناء الاجتماعى بأشكال الفكر ظلت دون تنظير عنده. غير أنه فى أواخر أعماله، وبخاصة تلك التى أعقبت نفيه من ألمانيا فى فترة الثلاثينيات، طور مانهايم نظرية عن المجتمع الجماهيرى mass society ارتبطت إلى حد كبير بالنظرية التى قدمتها مدرسة فرانكفورت الماركسية.

أخذت المدرسة اسمها عن مؤسسة فرانكفورت للبحث الاجتماعىFrank fort institute for social research التى تأسست فى ألمانيا سنة ١٩٢٣، وكان من أعضائها المبرزين ثيودور آدورنو Theodore Adorno (١٩٠٣ ـ ١٩٧٠) وماكس هوركهايمر Max Horkheimer (١٨٩٥ ـ ١٩٧٣) وهربرت ماركيوز Herbert Marcuse (١٨٩٨ ـ ١٩٧٨). وشأنهم جميعاً شأن مانهايم، تأثر هؤلاء الرواد تأثراً كبيراً بالمثالية الألمانية وبعلم الاجتماع الثقافى المتشائم عند فيبر وزيمل، وكما تأثروا بالماركسية ذات التوجيه الفلسفى عند لوكاتش وكارل كورش Karl Korsch (١٨٨٦ ـ ١٩٦١). ولكن، على العكس من مانهايم، تقبل منظرو مدرسة فرانكفورت القضايا الكبرى للماركسية ولكنهم تابعوا لوكاتش وكورش فى نقدهما للماركسية اتجاهها نحو الوضعية والتطورية والعلمية. ذلك لأنهم اعتبروا الماركسية نقداً للمجتمع الرأسمالى وأشكال معرفته، ومن ثم كان تأكيدهم مركزاً على الوعى والممارسة العملية والقيم الإنسانية. ومع ذلك اختلفت مدرسة فرانكفورت عن لوكاتش وكورش أيضاً فى أنها بقيت بعيدة عن السياسة على اعتقاد من أصحابها بأن البروليتاريا ستصبح متكاملة مع ما أسموه بـ «الرأسمالية المنظمة» organised capitalism، ومن ثم ستفقد ما لها من دور تاريخى ثورى.

تميزت نظرية مدرسة فرانكفورت عن المجتمع بطابعها التشاؤمى الواضح، وكان مانهايم هو الآخر قد تبنى نظرة تشاؤمية. فقد دفعه ظهور الحكومات الاستبدادية الشمولية ـ الشيوعية والفاشستية ـ إلى القول بأن الاتجاه التاريخى للمجتمع الحديث يسير نحو زيادة المركزية والتفتتية والذرية، خاصة وأن النظم والمؤسسات السياسية والاجتماعية. وبخاصة فى المجتمع الديموقراطى، أخذت تفقد استقلاليتها بطريقة متزايدة. كذلك، فقد كان التصعيد الحتمى للتحول نحو البيروقراطية، وتزايد أعدا د الخبراء الفنيين، وتحول المعرفة إلى سلعة يمكن

التلاعب بها لصالح النظام العام.. الخ، عوامل أدت فى النهاية إلى تقويض دعائم ما يقوم به المثقفون من دور مستقل. ومن ثم أصبحت نخبة المثقفين تمثل مشكلة عويصة وبخاصة عندما استوعب المثقفون فى المؤسسات المركزية والبيروقراطية للدولة. وفى «مشكلة المثقفين وقادة الفكر The problem of intelligentsia» كتب مانهايم يقول:

«لقد فقد البحث الحر أساسه وقاعدته الاجتماعية من خلال ما أُصاب الطبقات الوسطى من تدهور، تلك الطبقة التى كان النموذج القديم من المثقفين الأحرار ينبثق منها. ومما يزيد المشكلة تعقيداً أنه لم توجد بعد شريحة أخرى أو قاعدة بديلة تضمن الوجود المستمر للانتقادات الحرة والمستقلة وغير المرتبطة بمصالح بعينها» (Mannheim. 1956, p. 169)

من هنا، اكتنف أعمال مانهايم تناقض حاد بين نظريته التشاؤمية عن الدور الاجتماعى لنخبة المثقفين فى المجتمع الحديث، وبين نظريته التاريخية المتفائلة عن المثقفين كشريحة اجتماعية حرة تطورت من خلال عمليات التصنيع واتجاهها نحو العلمانية والبيروقراطية وتعددية وجهات النظرة. ومن ناحية أخرى، كانت قضية مانهايم عن النشأة الحتمية للمجتمع الجماهيرى الحديث وانهيار المجتمع المدنى المستقل دافعاً له لتطوير مفهوم «المثقفين» كجماعة تعلو على كل مصالح الطبقة والاتجاهات الإنسانية التى يزخر بها المجتمع الحديث، أى كنخبة وصفوة تقوم بدور الحراس الأخلاقيين للمجتمع ككل.

وبالمثل، طورت مدرسة فرانكفورت نظرية عن المجتمع الجماهيرى mass society والثقافة الجماهيرية mass culture، حيث ذهب أصحابها إلى أن الرأسمالية أصبحت أكثر مركزية، كما أصبح بناؤها الاجتماعى يتجه نحو «الذرية» و«التفتتية» باضطراد متزايد. ففى القرن التاسع عشر عملت البورجوازية على توسيع «المجال الشعبى»، وانفصلت المؤسسات عن الدولة التى من خلالها يديرون أعمالهم ومشروعاتهم وينظمون ثقافاتهم غير أنه مع تطور الاقتصاد والسياسة وتزايد الاتجاه نحو المركزية، ظهرت بعض الأيديولوجيات الجمعية التى أكدت على ضرورة الامتثال والتطابق مع النظام الاجتماعى وقد ترتب على ذلك انكماش مجال العمل الشعبى الجماهيرى، ولم يعد البناء

الاجتماعي يحتوى على نظم ومؤسسات مستقلة وقوية تضمن وتدعم القيم الفردية، ومن ثم اختفى الفرد المستقل. وفى هذه العملية، بدأ العلم يقوم بدور «وسائلي» نفعي، وأصبحت المبادئ العلمية وغير الإنسانية والتى يعتمد عليها العلم البورجوازى متغلغلة فى المجتمع ككل، الأمر الذى أدى بالضرورة إلى نمط جديد من السيطرة استند على التكنولوچيا والبيروقراطية. من هنا أصبح كلا من الوعى والثقافة أكثر اغترابا عن مجال الفعل والقيم والممارسة العملية الإنسانية، كما أصبحت العلاقة بين الأفراد علاقة بين الأشياء.

ولكى تواجه خطر الوضعية العلمية، طورت مدرسة فرانكفورت ـ التى عمل منظروها الأوائل فى الحقل الأكاديمى مفهوم «النظرية النقدية» critical theory. ومثلما كانت فكرة جرامشى عن «فلسفة الممارسة العملية»، كان مفهوم النظرية النقدية يعنى ضمنا الإشارة إلى الماركسية. لقد أكدت الماركسية على الدور الإيجابى والفعال للمعرفة والإدارك، ورفضت نظرية «النسخ المتكررة» أو النظرية الانعكاسية للمعرفة»، وعرفت النظرية على أنها ممارسة مستقلة أو عنصر نقدى فى تحول المجتمع والثقافة. وفى المقابل رفض الرواد الأوائل فى مدرسة فرانكفورت فكرة لوكاتش التاريخية عن توحد البروليتاريا بالصدق والحقيقة التاريخية، ولكنهم تابعوه ـ أى لوكاتش ـ فى كثير من قضاياه الأخرى مثل عمومية الاتجاه نحو التشيئ فى الرأسمالية، والأهمية المنهجية لمقولات مثل الشمولية والسلبية والجدل والتوسط فى مجال تحليل الأشكال الثقافية والأيديولوچية. لقد ركزت مدرسة فرانكفورت على التحليل الثقافى، واشتملت دراساتها على دراسة مشكلات فى مجالات علم الجمال والأدب والفن والموسيقى (كموضوعات تنتمى إلى ثقافة عليا أو ثقافة فكرية). فالثقافة، وليس الاقتصاد أو السياسة، هى مجال الوجود الحقيقى والجوهرى للإنسانية. ذلك لأن الإنسانية تحدد أهدافها وغاياتها وتؤكد ذاتها من خلال الصور والأشكال الثقافية التى تقاوم الاندماج فى البناء المغترب للمجتمع الصناعى.

عنيت النظرية النقدية بالحقيقة والصدق والعمومية والتحررية. ومن ثم

رفضت دعوى مانهايم القائلة بأن المعرفة ترتبط اجتماعياً بمواقع تاريخية معينة، لأنها - أى دعوى مانهايم - تطمس معالم التمييز بين المعرفة الصادقة الحقة والمعرفة الزائفة. لقد تشككت مدرسة فرانكفورت فى الفكرة الكلية التى يستند إليها علم اجتماع المعرفة، وذلك لأن أصحابها وحدوا علم الاجتماع بالوضعية والنسبية واللا أدرية. ومن ثم، لم تكن الماركسية فى نظرهم تمثل علم اجتماع بهذا المعنى السابق، فالماركسية فى ذاتها تعنى بالممارسة العملية والتحرير الإنسانى. كما أن القول بالمنظورات الجزئية التى يمكن تركيبها مع بعضها البعض عن طريق أصحاب الفكر الأحرار، يعنى تطوير نظرية ميكانيكية جشطلية (كلية) للصدق والحقيقة وتقديم فكرة ميتافيزيقية عن «الشمول». لقد تصور علم اجتماع المعرفة عند مانهايم وجود حقيقة تاريخية موضوعية تنعكس على نحو غير كامل فى الوعى والشعور الإنسانى. أما مدرسة فرانكفورت فقد تصورت أن الحقيقة تخلق من خلال الممارسة العملية التى يتحد فيها الذات والموضوع بطريقة جدلية، لذلك كان المفهوم الهيجلى عن «الشمول» وتعبيراته فى قوانين المجتمع والتاريخ هو الأساس الى استندت إليه النظرية الأبستمولوجية (المعرفية) لمدرسة فرانكفورت. ذلك أن النظرية النقدية لا تربط أشكال الفكر المختلفة بجماعات اجتماعية خاصة، وإنما تحاول أن تميط اللثام عن الاتجاهات الاجتماعية العامة التى تعبر عنها هذه الظواهر، وبالتالى تستحضر فى الشعور والوعى تلك التناقضات التى تتمثل فى السلبية وانعدام انسجام الفرد مع المجتمع (Adorno, 1969, p. 32).

ففى مقال له بعنوان «النظرية النقدية والتقليدية» "Critical and Traditional theory" (١٩٣٧)، ذهب هوركهايمر إلى أن غاية العلم الوضعى البورجوازى هو تحقيق المعرفة «الخالصة» وليس الفعل. ففى الوقت الذى تنهض فيه النظرية النقدية على أساس الممارسة العملية، عمدت النظرية التقليدية (الوضعية) إلى عزل الفكر عن الفعل، مؤكدة سلطة الملاحظة على الخيال، ومدافعة عن مناهج العلوم الطبيعية وبخاصة البيولوجيا، وداعية إلى استخدامها فى تحليل الظواهر الاجتماعية والثقافية. ومن ثم تحولت المعرفة إلى شىء

يستقل عن الفعل الإنساني ويعلو عليه فى نفس الوقت. غير أن هذا النوع من البحث الخالص المجرد عن الأغراض والمصالح كان أمراً مستحيلاً داخل إطار المجتمع الجماهيرى الرأسمالى، لأنه - أي هذا البحث - يفترض وجود الباحث الذى يتمتع باستقلال ذاتى، فلقد كان العلم البورجوازى - بما فى ذلك العلم الاجتماعى - مرتبطاً وبطريقة عضوية بالضبط والتحكم الفنى وبالسيطرة التكنولوجية وأيضًا بالعقلانية الوسائلية. ولذلك أقام هوركهايمر تمييزه بين النظرية النقدية والنظرية التقليدية، على أساس أن النظرية النقدية ترفض الوهم البورجوازى بوجود الباحث العلمى المستقل والمعرفة الموضوعية المحايدة سياسياً. ذلك لأن النظرية النقدية تسلم بعلاقة وثيقة بين المعرفة والمصالح. غير أن المعرفة لا تنتج بطريقة آلية أوتوماتيكية، بل تتطلب تدخل إيجابى من جانب المثقفين. ومن ثم، نجد أنه فى الوقت الذى رفضت فيه مدرسة فرانكفورت علم اجتماع المعرفة عند مانهايم، قدمت صيغة معدلة لمفهوم المفكر أو المثقف الحر الطليق، حيث ترى أن المثقفين هم وحدهم الذين يستطيعون أن يكشفوا بطريقة واعية عن القوى السلبية المتناقضة التى تعمل فى المجتمع، وذلك من خلال انشغالهم بالفكر النقدى وبالمصالح «التحررية».

وعلى المستوى المنهجى، طورت مدرسة فرانكفورت فكرة «النزعة النقدية الأصيلة» immanent criticism : فقد ذهب أصحابها إلى أن مناهج العلوم الاجتماعية يجب أن تكون «ملائمة» لموضوعاتها، وأنه لما كانت هذه الموضوعات أموراً غير خارجية وغير ثابتة، تنتج من خلال الفعل البشرى وتوسط الذاتية والقيم الإنسانية، لذلك يتعين على منهج العلم الاجتماعى أن ينطلق من المفاهيم والمبادئ الخاصة بالموضوع ذاته، لا من مظاهرها أو واقعها السطحى. غير أن المفاهيم والتصورات لا تكون مطابقة تماماً للموضوع، لأنها تحاول الكشف عن الاتجاهات المتأصلة فى الموضوع من ناحية، وعلاقة الموضوع بالكل الأكبر من ناحية أخرى. لذلك لا تعرف موضوعات العلم الاجتماعى إلا من خلال الممارسة العملية أى من خلال الذات. ويترتب على ذلك أن يكون الصدق أو الحقيقة عبارة عن «لحظة للممارسة الصحيحة

الصادقة» "A Moment of correct practice" ولكن ما هي «الممارسة الصحيحة» إذن؟... إن العمل الصحيح الصادق عند هوركايمر هو ذلك العمل الذى يرتبط بالمصالح التحررية التى تتميز عن مصالح الجماعة أو مصالح الطبقة بعموميتها وأصالتها (Horkheimer, 1976).

على هذا النحو السابق، كان نقد مدرسة فرانكفورت للوضعية وللعلم البورجوازى أقل اعتماداً على نظرية ماركس فى الطبقة، وأكثر اعتماداً فى الوقت ذاته على التحليل المثالى اللاسوسيولوجى الذى قدمه لوكاتش للاغتراب والتشيىء، وذلك فى كتابه «التاريخ والوعى الطبقى»، والذى تصور فيه جوهراً إنسانياً عالمياً خربته الرأسمالية والتكنولوچيا. غير أن مفهوم المصالح التحررية مفهوم تاريخى تأملى نظرى، كما أن عبارات مثل «المزيد من التحرر الإنسانى» وغيرها من العبارات التى رددها أصحاب مدرسة فرانكفورت (ماركيوز وآدورنو) ليس لها أى معنى سوسيولوچى. وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى تجاوز فيه ماركس أعماله الفلسفية المبكرة متجهًا نحو علم وضعى، تخلت مدرسة فرانكفورت عن علم الاجتماع الأمبيريقى من أجل فكر تشاؤمى مجرد.

الفصل العاشر

المناهج الشعبية « الاثنوميثودولوجيا »

تمهيد

أولا : التراث الفينومينولوجى ونمو الاثنومثيودولوجيا

(أ) هوسرل واسهامه فى نمو الاثنومثيودولوجيا

(ب) شوتس واسهامه فى نمو الاثنومثيودولوجيا

ثانيا : واقع الولايات المتحدة فى الستينات وظهورالاثنومثيودولوجيا

ثالثا : تفسير الاثنومثيودولوجيا لمشكلة النظام والحياة اليومية .

(أ) مشكلة النظام .

(ب) الحياة اليومية .

رابعا : تيار البحث الاثنومثيودولوجى

(أ) هارولد جارفينكل وتجربة الاستشارة .

(ب) دون زيمرمان وتطبيقات القاعدة المستخدمة .

خامسا : نقد الاثنومثيودولوجيا

تمهيد :

تعتبر الاثنوميثودولوجيا من أحدث المنظورات النظرية فى علم الاجتماع . ولقد صاغ عالم الاجتماعى الأمريكى هارولد جارفينكل هذا المصطلح وهو الذى يعد عموما المؤسس للاثنوميثودولوجيا . ولقد نشر كتاب جارفينكل المعنون دراسات فى الاثنوميثودولوجيا والذى يمدنا بالاطار الأصلى لهذا المنظور فى عام ١٩٦٧ . ويعنى مفهوم الاثنوميثودولوجيا عندما ترجم مبدئيا دراسة المناهج التى يستخدمها الشعب لانها تهتم بفحص الطرق والاجراءات التى يستخدمها اعضاء المجتمع فى تصور وتفسير واضفاء معنى على عالمهم الاجتماعى . ولقد اعتمد علماء الاثنوميثودولوجيا إلى حد كبير على التراث الأوروبى الخاص بفلسفة الظاهراتية وهم يعترفون على وجه الخصوص بفضل افكار عالم الاجتماع والفيلسوف الفريد شوتز A. Schutz (١٨٩٩ — ١٩٥٩) ويبدأ الكثير من علماء الاثنوميثودولوجيا بالمسلمة التى مؤداها أن المجتمع لا يوجد الا من خلال ادراك الاعضاء الموجودين فقط . (ويحل مصطلح العضو محل مصطلح الفاعل الذى يستخدمه علماء التفاعلية الرمزية) . ومع هذا التأكيد على وجهات نظر الأعضاء للواقع الاجتماعى ينظر عموما إلى الاثنوميثودولوجيا باعتبارها مدخلا ظواهراتية . غير أن الاثنوميثودولوجيا تعتبر بمثابة منظورا ناميا ويشتمل على مجموعة متباينة من وجهات النظر . ويمدنا العرض التالى بمقدمة مختصرة وجزئية للموضوع .

أولا : التراث الفينومثيولوجى ونمو الاثنومثيودولوجيا :

يعتبر الاتجاه الاثنوميثودولوجى امتدادا للتيارات الفكرية التى أعلنت بشكل واضح وصريح رفضها للنموذج الوضعى فى دراسة الانسان والمجتمع وقدمت الاطر التصورية والمنهجية البديلة .

وبالرغم من أن المدرسة الفنومينولوجية ظلت على ما نشأت عليه بالنسبة

للأسس التصورية والمنهجية للواقع الاجتماعى على يد هوسرل مع بعض التطورات على يد شوتس الا أن التفاعلية الرمزية نعتبرها ممثلة للاتجاه الاثنوميثودولوجيا. وبرغم أيضا أن الأثنوميثودولوجيا قد أخذت عن هده المدارس والاتجاهات السابقة الا أن آراء علماء الاجتماع والفلسفة قد أجمعت على أن المصدر الفكرى الرئيسى الذى استند عليه هذا الاتجاه هو الفكر الفينومينولوجى، حيث أن كل المنتمين لهذا الاتجاه يجمعهم الرجوع والاستناد إلى أفكار العالم الفينومينولوجى شوتس والتى تعد بدورها امتدادا وتطويرا لافكار كل من فيبر وهوسرل.

فلقد نشأت العلوم الاجتماعية فى أحضان الانتصارات التى أحرزتها العلوم الطبيعية مما أدى إلى الاعتقاد فى جدوى تبنى مناهج العلوم الطبيعية مما أدى إلى الاعتقاد فى جدوى تبنى مناهج العلوم الطبيعية فى دراسة الحياة الاجتماعية وفى ذلك الحين لم يتأمل العلماء طبيعة وحدود المنهج الطبيعى لأداء تلك الوظيفة الجديدة، ولم تكن لديهم القدرة الاستبصارية على كشف قصور المنهج مثل الفلاسفة الذين جاءوا بعدهم. لقد فات هؤلات العلماء أن العلوم الطبيعية لم تأخذ فى الاعتبار مسألة مهمة فى دراستها للحياة الاجتماعية كمسألة الهدف Purpose والارادة Will أو القصد(١).

وتعد أفكار فيبر الجسر النظرى بين فلسفة هوسرل الفينومينولوجية وعلم الاجتماع الفينومينولوجى لشوتس ولعل أبرز المفاهيم التى استند عليها شوتس هى الفعل الاجتماعى ومنهج الفهم الذاتى Verstehen والانماط المثالية.

أ ــ اسهام هوسرل فى نمو الاثنوميثودولوجيا

استندت الاثنوميثودولوجيا كما ذكرنا على الفكر الفينومينولوجى وبصفة

---

(١) زينب محمد شاهين، **الاسس العامة لاتجاه الواقعية المنهجية مع دراسة لمفهوم الزواج والامومة عند المرأة القاهرية فى ضوء هذا الاتجاه**، رسالة دكتوراه غير منشورة، اشراف أ. د/ محمد محمود الجوهرى ــ القاهرة ١٩٨٢، ص ٢٢ : ٥٦.

خاصة على فينومينولوجية هوسرل ، فمفهوم هوسرل عن عالم الحياة يعد احد الافكار الرئيسية التى تقوم عليها الاثنوميثودولوجيا الامر الذى حدا بالبعض إلى الاعتقاد بأن الاثنوميثودولوجيا ما هى الا اسم جديد لممارسات قديمة قاصدين بذلك الفينومنيولوجيا ولا يقتصر اسهام هوسرل فى الاثنوميثودولوجيا على فهم عالم الحياة فحسب ، بل تجاوزه إلى أفكاره التى تدور حول رفضه للنظريات السابقة وفكرته عن الاتجاه الطبيعى ورأيه فى النقد الجذرى للحياة بأكملها — وتحرير الانسان من احكام وتصورات هذا العالم .

ويعد هوسرل المفكر الرئيسى وراء نشأة الحركة الفينومينولوجية وكل اتجاه يطلق عليه فينومينولوجى يجب أن يحمل بالضرورة قضيته الاساسية ، ولقد غير هوسرل وعدل فى أفكاره عدة مرات ولكن الفكرة التى ظلت ثابتة عنده هى الاعتقاد أن العلم الوضعى السائد فى وقته فى ازمة وأن الضرورة تحتم البحث من علم فلسفى جديد .

ويدعو هوسرل الفلاسفة إلى دراسة الظواهر ويعنى بذلك دراسة المعطيات أو الوقائع التى تبدو للوعى أو الشعور لكى يتم التعرف على هذا الذى ندركه أو نستشعره أو نفكر فيه أو نتحدث عنه دون وضع فروض أو تفسيرات وهنا يؤكد هوسرل على نقده للعلوم الطبيعية ورفضه للنزعة التجريبية ويدعو إلى الدراسة الوصفية البحتة لوقائع الفكر والمعرفة على نحو ما نحياها فى صميم وعينا دون الأخذ بأية نظرية من نظريات المعرفة كنقطة انطلاق لها ، ففلسفة الظواهر تبغى البحث من جديد عن فلسفة تكون بمثابة علم البدايات .

ويبدأ المذهب الفينومينولوجى الذى وضعه هوسرل بنقد الرياضيات ليتوصل من ذلك إلى اكتشاف طريقة تمكن من تحصيل الحقائق الأساسية ، والقاعدة الأساسية لذلك هى الذهاب إلى الأشياء نفسها مستبعدين كل النظريات السابقة المتعلقة بالواقع ، كما يجب على البحث أن يبدأ من خبرة الذات وما لديها من بداهات فى مجال التجارب المعاشة فى عالم الحياة .

وان الفكرة الأساسية لأعمال هوسرل الفينومينولوجية هى فكرة عالم الحياة ، ولقد كانت فكرته هذه من الأهمية والخصوبة بحيث أثرت على عدد كبير من العلماء وأوحت اليهم بالكثير الذى اسهموا به فى اثراء التراث الفينومينولوجى ، وتعد أبرز هذه الأعمال أعمال كل من مارلوبونتى والفريد شوتس . وتشير فكرة عالم الحياة التى يقول بها هوسرل إلى عالم الواقع الملموس لخبرة الفرد المعاشة بعكس تفسير علماء الطبيعة لهذا الواقع ذاته ، فكل ما فى هذا العالم من أشياء عامة واضحة تمر بها حياتنا اليومية هى بالنسبة للعالم الفينومينولوجى موضوع علم الاجتماع ، ويكشف الفرد هذا العالم الممتد زمانا ومكانا بسرعة عن طريق الحدس والمدركات الحسية ، فتصبح الأشياء المادية ببساطة هناك Outthere موجودة مألوفة محدودة بغض النظر عن انشغال الفرد وتوجيه انتباهه اليها أم لا ، فالانسان الواعى يجد نفسه دائما مرتبطا بعالم — رغم تغيره المستمر — واحد ومتماثل وموجود دائما وهو ليس عالم أشياء وقائع ملموسة فقط ولكنه عالم قيمة أيضا ، ويضم هذا العالم أيضا وقائع ثقافية بما فى ذلك العلوم بنظرياتها وعلمائها .

ويعد كتاب هوسرل « أزمة العلوم الاوربية » من أهم المؤلفات التى أبرزت فكرة عالم الحياة وعالجت موضوعه باسهاب فقد عرض هوسرل مشكلة عالم الحياة كمشكلة جزئية ضمن المشكلة العامة للموضوعية فى العلوم ، ويذهب هوسرل إلى أن هذا العالم هو نتاج الثقافة والأزمنة التى نحياها كما أن العلوم الثقافية والطبيعية وكذلك المنطق والرياضة كلها علوم تحدث فى اطار هذا العالم ، فعمليات التنظير والتبرير والتحقيق كلها تتم فى ضوء عالم الحياة فعندما يطرح العلم أسئلة واجابات فهى منذ البداية أسئلة موجهة نحو عناصر هذا العالم المعطى ، وبناء على ذلك تعد المعرفة العلمية معرفة نسبية اذ أنها تستند على أساس عالم الحياة ، ولهذا تدعونا الموضوعية إلى أن نوجه انتباهنا إلى هذا العالم لكى نكشف الدور الهام الذى يقوم به الوعى المبنى على انعكاسات مسبقة Per-reflective Consciousness فى تكوين ما نعتقده أنه العلم

وبناء على ذلك يؤكد هوسرل أن فكرة عالم الحياة وليس عالم الطبيعة هى أهم الافكار الجديرة بالدراسة ، ذلك العالم الذى تقوم عليه كل حياتنا وانشطتنا اليومية ونقبله وتوجد فيه دون أى تساؤل أو تردد من جانبنا .

ويصف هوسرل هذا الموقف من الفرد تجاه العالم أو الاتجاه الطبيعى Natural attitade والذى يعنى اننا نعيش فى هذا العالم كجزء من واقع اجتماعى نقبله دون ارتياب أو تساؤل ، كما يضم هذا العالم نظام علاقات بين الذوات Intersuljective ويقوم على الافتراض الضمنى بأننا نتفاعل .

ويبدأ منهج الاختزال الفينومينولوجى الذى يطلق عليه هوسرل الابوخية Epoché أى وضع العالم بين القوسين أو تعليق الحكم والذى يعد تعديلا جذريا للاتجاه الطبيعى .

واذا كان الانسان فى رأى هوسرل يعيش واقعا مبنيا على أساس من تفسيراته ، فان دور العالم الفينومينولوجى يتحدد فى اعادة بناء المنهج الذى تتم به عملية التفسير هذه وهذا العمل يتطلب فى اعتقاد هوسرل الاستبصار والادراك الحدسى المباشر لظواهر العالم وذلك هو المصدر والاختبار النهائى للمعرفة .

ويسير البحث الفينومينولوجى فى عدة خطوات تتضمن كل منهارداً فينومينولوجيا أى تعليق الحكم لكل ما لم يبرهن عليه بطريقة يقينية ، ويعنى ذلك عدم الاعتقاد فى النظريات والمزاعم المسلم بها ، وتبدأ الخطوة الأولى بطرح كل الاتجاهات والافتراضات جانبا ومحاولة فهم الظوهرة كما يعيشها الأفراد عن طريق العيان المباشر لها ، هذه الظواهر هى الأمور المعطاة لنا حقا ومهمة العالم الفينومينولوجى تنحصر فى فهم عالم الظواهر هذا ووصفه بكل دقة والوقوف على ما بينها من روابط فعلى سبيل المثال يمكن أن يكون شخص ما كانسان عادى ملحدا ولكنه كباحث يرغب فى دراسة ظاهرة الدين للكشف عن معناها وتأثيرها على المجتمع ، هذه الحالة تحتم عليه أن يضع كل تحيزاته وآرائه واعتقاداته جانبا ويحاول أن يعرف معنى الدين بالنسبة لهؤلاء الذين

يدرسهم وهذا يتطلب منه أن يتمثل الآخرين مستخدما خياله وأحاسيسه وكل قدراته الفنية ، فمعنى أن يضع الانسان نفسه مكان الآخرين هو أن يشعر بما يشعرون وأن يتابع افكارهم واتجاهاتهم كما يعيشونها ، هذه العملية تتضمن الوصف القصدى للأفراد وتشمل استخدام الحدس Intuition والاستبصار Insight والتوحد العاطفى Empathy والمشاركة الوجدانية Sympathy أما الخطوة الثانية فى البحث المنظمة للخبرات الانسانية فتتطلب درجة أعلى من التجريد لا يسأل الانسان الباحث فى هذه المرحلة عن معنى الخبرة الدينية لهؤلاء الذين يعيشونها ولكنه يسأل عن معنى الدين بالنسبة للانسان بشكل عام وللانسانية ككل .

ويرى هوسرل أن الظواهر التى يهتم الفينومينولوجى بوصفها هى ظواهر المعنى وليست ظواهر الأشياء فى ذاتها ... فالمعنى يجب أن يكون هو الشاغل الأول عند الفيلسوف مؤكدا على أن الاشياء منذ البداية انما هى معان وان المعرفة بالأشياء تتطلب فهم معانيها ومن أجل تحقيق ذلك يجب أن يعتمد الفرد على الطريقة التى يستخدمها فى الاستبصار المباشر ، وهذه الطريقة لا تتم الا عن طريق منهج التعليق على الحكم لكل معطيات الواقع المعاش وفكرة المعنى تعد فكرة رئيسية فى فينو مينولوجيا هوسرل كما أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بنظريته القصدية ... وتشير القصدية عند هوسرل إلى أنه من شأن كل وعى أن يتجه إلى موضوع أو أن يستهدف شيئا . فالادراك الحسى هو ادراك لموضوع مدرك والرغبة هى رغبة فى شيء يكون موضوعا لها والحكم هو حكم على حالة قائمة من حالات الأشياء ، ومعنى هذا أن من شأن الذات أن تتجه دائما نحو موضوع وكأنما هناك احالة متبادلة بين الذات والموضوع .

وحين يمارس الفيلسوف الفينومينولوجى عملية التوقف عن الحكم فان ما سيظهر امامه ليس العالم بل معنى العالم وحينئذ لا تكون مهمة عالم الظواهر سوى العمل على فهم أو وصف تلك المظاهر .

(ب) اسهام شوتس فى نمو الاثنومينودولوجيا

ومن أبرز الأفكار التى استندت عليها الأثنوميثودولوجيا هى فكرة شوتس عن الفعل العقلانى وما تتضمنه من مقارنة بين الاتجاه العلمى والاتجاه الطبيعى وكذلك فكرته عن عالم الحياة اليومية واخذه الواقع اليومى كنقطة انطلاق وكهدف أساسى للبحث والتحليل ، وقد انحصرت المشكلة الأساسية عند شوتس فى التوفيق بين فردية الانسان والمناهج العلمية الصادقة .

ويدين شوتس بالكثير لفكرة هوسرل عن عالم الحياة ويقرر قبوله تعريف هوسرل لطبيعة وأهمية هذا العالم ولذلك كانت حياة شوتس العلمية محاولات لتحقيق هدف هوسرل فى الوصول إلى فهم علمى لعالم الحياة ، وكذلك يقبل شوتس ثلاثة أفكار أساسية فى منهج فيبر هى :

الارتباط بالقيم والنمط المثالى والفهم الذاتى ويؤيد الاعتقاد فى أن هذه العناصر الثلاثة تعتبر أدوات هامة وضرورية لاقامة جسر نظرى بين العلم والفردية أى بين الوقائع الامبيريقية والمعانى الذاتية .

ويعتبر شوتس مؤسس المدرسة الفينومينولوجية فى أمريكا وتنطلق فلسفته أصلا من فكرة هوسرل عن عالم الحياة التى أطلق عليها شوتس عالم الفهم الشائع Comman sense world و عالم الحياة اليومية وهى كلها تعبيرات مختلفة لهذا الذى يعتبره شوتس موضوعا لعلم الاجتماع أما دور علم الاجتماع فينحصر فى صياغة نظرية لهذا النشاط الاجتماعى واعداد منهج لوصفه ودراسته .

وقد تصدى شوتس لعدة قضايا منها تنميطات Typifications علم الحياة ومعقولية Rationality ابنيته ويعتبر مؤلف شوتس « أبنية عالم الحياة » حصيلة سبعة وعشرين عاما من العمل المتصل لانجاز هذا المشروع فقد حاول دراسة هذا العالم من أجل الوصول إلى فهم شامل لطبيعة الواقع الاجتماعى .

حيث يرى شوتس أن كل خطوة للفرد فى عالم الفهم الشائع وفى تفسيره له

تقوم فى أى وقت من الأوقات على أساس مخزون من المعرفة Stock of Knowledge انتقل اليه من آبائه أو مدرسيه أو أقرانه ، ويستخدمه هو بعد ذلك كاطار يفسر به هذا العالم ، ان أى تفسير يقدمه الفرد لما هو موجود فى هذا العالم لا يكون من صنعه هو لكنه يكون تفسيرا قد سبق الفرد إلى الوجود بأزمنة طويلة ... ان مخزون المعرفة لدى الفرد بما يحوى من تنميطات يقود سياق الخبرة فى اتجاه المستقبل وكل موقف جار وما يتضمنه من سلوك يمد آفاقه إلى المستقبل .

ومن القضايا الرئيسية الأخرى التى احتلت جانبا من تفكير شوتس هى قضية وصف وتحليل الفعل الاجتماعى — يعتقد شوتس أن العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعى فى اطار عالم الحياة اليومية تخضع لمبادىء عامة لهذه الحياة .

ويتفق شوتس مع فيبر من أجل فهم الفعل لابد من اكتشاف المعنى الذى يضيفه الفاعل عليه وأن مهمة الباحث الرئيسية هى الوقوف على معنى الفعل والتركيز على الفاعل فى تحديده لهذا المعنى وكذلك تحديد الموقف الذى يكون المعنى جزءا منه .

ويعتقد شوتس انه حتى الآن لم تتم عملية الفهم العلمى الكامل للفعل الاجتماعى وان فيبر رغم معالجته لهذه القضايا الا ان مسيرته العلمية توقفت مبكرا لانه اوقف تحليله للفعل الاجتماعى وللفهم الذاتى وللانماط المثالية دون أن يشرح كيف يوجه الناس أنفسهم نحو الآخرين أو كيف يمكن للباحث أن يستخدم تلك المناهج لفهم الفعل الاجتماعى .

ويذهب شوتس إلى أن ابسط مركب للمعنى فيما يتعلق بتفسير الفعل الاجتماعى هو الدافع وهناك نوعان من الدوافع دوافع السبب Because of matives ودوافع الغاية inorder to matives وهو تتضمن التخطيط والوجود المسبق لفكرة ما .

ويرى شوتس أن الباحث يجب أن يتبنى اتجاه الملاحظ الموضوعى فالملاحظ

الموضوعى لا يشترك فى عالم الحياة كفاعل ينقاد لمقاصد وأغراض الحياة اليومية بل يكون عالم الحياة بالنسبة للباحث هو العالم الذى يحياه الآخرون الذين يخضعون لملاحظته .

ثانيا : واقع الولايات المتحدة فى الستينات وظهور الاثنوميثودولوجيا :

لم يكن ظهور الاثنوميثودولوجيا فى الستينات أمرا هاما باعتباره مجرد اتجاه جديد فى علم الاجتماع فحسب ، بل لأنه كان تيارا رافضا بصورة أساسية للافتراضات التى ارتكزت عليها النظريات الوضعية بأشكالها المختلفة ــ فظهور الاثنوميثودولوجيا كان امتدادا للتيارات الفكرية السابقة التى اعلنت بوضوح رفضها للنموذج الوضعى فى دراسة الانسان والمجتمع وقدمت فى ثنايا رفضها هذا اطرا تصورية ومنهجية بديلة .

ولقد مهدت الفلسفات الفينومينولوجية والوجودية وغيرها لظهور الاثنوميثودولوجيا ، اذ كشفت عن فشل المعرفة النظرية القائمة فى اعطاء الانسان فهما كافيا لنفسه وللمؤسسات الاجتماعية من حوله وقد اعلن المنكرون من أمثال هوسرل وشوتس وسارتر وهربرت ماركيوز وغيرهم اخفاق الفكر العلمى والسياسى والثيولوجى فى حل مشكلات الانسان ، وقيام الحاجة الملحة لاعادة فحص الفروض العلمية الاساسية التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية برمتها لكى يمكن أن يقام اساس جديد اكثر واقعية واكثر فهما لهذه الحياة .

وظهرت الاثنوميثودولوجيا فى الولايات المتحدة فى وقت كانت فيه الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية بمثابة التربة الممهدة والمناخ المناسب لنمو هذا الاتجاه ، فاذا كانت الفلسفة الفينومينولوجية قد ارتبط ظهورها ونموها فى أوروبا بأزمة العلوم الانسانية فى مطلع القرن العشرين والأزمات السياسية والأخلاقية التى شهدها العالم فى هذه الحقبة ،فقد ارتبط ظهور ونمو الاثنوميثودولوجيا بأزمة العلوم الاجتماعية والأزمات السياسية والأخلاقية التى كان يمر بها المجتمع الامريكى بالذات فى الستينات .. بينما كانت الحرب فى

فيتنام قائمة فى الخارج ، كان فى الداخل الفقر والبطالة والتمييز العنصرى وسطوة التحالف العسكرى الصناعى وتسلط أقلية محدودة وسيطرتها على مقاليد الأمور وتوظيف القرارات السياسية لمصالح هذه الأقلية فى المجتمع وهو ما هيأ لظهور الاتجاه الاثنوميثودولوجى .

وظهرت الاثنوميثودولوجيا فى الفكر السوسيولوجى فى هذه الفترة كبديل يستند على الفروض الاساسية لعلم اجتماع شوتس الفينومينولوجى وقد لاقى هذا الاتجاه قبولا من طلبة اقسام الاجتماع من الشباب الذين لم يقتنعوا بما درسوه عن الوظيفية وبدت لهم الاثنوميثودولوجيا أكثر اقترابا من الانسان ومشكلاته .

ومن هنا نرى الاثنوميثودولوجيا ظهرت كاتجاه قائم بذاته على يد هارولد جارفينكل أحد تلامذة بارسونز ، وقد اتصل جارفينكل بشوتس خلال دراسته فى الجامعة حيث تبادلا الزيارات واشتركا فى عدد من الدراسات وكانت حصيلة الدراسة التى تلقاها جارفينكل على يد استاذه بارسونز والآراء التى تبادلها مع شوتس ان انتهى إلى صياغة الاثنوميثودولوجيا .

والاثنوميثودولوجيا بالنسبة لجارفينكل هى المعرفة المنظمة التى يملكها الفرد بالنسبة لاموره أو شئونه العادية ولقد ساهم بعض المعلقين على هذا الاتجاه بتعريف وتفسير الاثنوميثودولوجيا بانها تهتم بكيفية تنظيم الانسان لحياته اليومية فى المجتمع وكيفية جعل هذه الأنشطة ذات معنى بالنسبة له وبالنسبة للآخرين ــ فكلمة اثنو Ethon تعنى ناس وكلمة method تعنى طريقة أو منهجا و logy تعنى دراسة أى أن المصطلح يعنى دراسة منهج الناس أو انها الطرق التى يستخدمها الانسان العادى للوصول إلى قراراته .

ويوضح كل من هيوماهن وهوستون وود أن الاثنوميثودولوجيا اسلوب للعمل يولد مناهج ونتائج ونظريات تمكن الذين يؤمنون بها من رؤية الواقع الاجتماعى بشكل جديد .

ويعتبر جارفينكل رائدا ومؤسسا لهذا الاتجاه ، أما آرون سيكوريل فيحتل مكانة بارزة فى التاريخ القريب لهذا الاتجاه فقد اثرى الاتجاه بقضايا تتصل بأسئلة اساسية فى علم الاجتماع منها كيفية افراز الافراد لقواعد سلوكية يستخدمونها فى ضبط سلوكهم وسلوك الآخرين وفى هذا عودة إلى مشكلة النظام الاجتماعى ولكن باسلوب اثنوميثودولوجى مميز .. وقد اطلق سيكوريل على انتاجه الفكرى علم الاجتماع المعرفى لعدم استساغته لمصطلح اثنوميثودولوجيا .

ثالثا : تفسير الاثنوميثودولوجيا لمشكلة النظام والحياة اليومية

(١) مشكلة النظام :

تعتبر مشكلة تفسير النظام واحدة من بين الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع . فلقد اتضح بناء على نتائج العديد من البحوث أن الحياة الاجتماعية تتصف بالنظام والترتيب ويصطبغ الفعل الاجتماعى بالتنسيق والنمطية . ويسلم علماء الاجتماع عموما بأن النظام الاجتماعى له واقع موضوعى . ولقد أثارت بحوثهم بوضوح إلى أن النظام الاجتماعى يوجد بالفعل ، ومن هنا أخذوا يفسرون جذوره وأصوله ، ويقدمون التفسيرات العليه لوجوده . ويقوم النظام الاجتماعى فى رأى المنظور الوظيفى فى النهاية على المتطلبات الوظيفية للأنساق الاجتماعية التى تحتاج اليها كشرط ضرورى لوجودها ، وانطلاقا من الحقيقة القائلة بأن الفعل الاجتماعى تحكمه القيم والمعايير التى ترشد وتوجه السلوك ، يسلم الوظيفيون بأن الفعل الاجتماعى له طبيعة التنسيق والانتظام . وينظر إلى النظام الاجتماعى من المنظور الماركسى على أنه أمر غير ثابت برغم أنه يعترف بوجوده . ويتحقق النظام الاجتماعى بالضغوط المفروضة على أعضاء المجتمع ومن خلال وضعهم فى علاقاتهم بالانتاج و عن طريق دعم البناء الفوقى لهذه الضغوط . بينما يرى المنظور التفاعلى الرمزى ، أن النظام الاجتماعى ينجم عن اجراءات تفسيرية يستخدمها الفاعلون فى مواقف التفاعل وهو يعتبر نظاما للتفاوض Regatisted بمعنى أنه يقوم على المعانى المتفاوض عليها فى عملية

التفاعل والتى تشتمل على التكيف المتبادل بين الفاعلين الذين نعنيهم هنا . والنتيجة هى تأسيس النظام الاجتماعى بناء على عملية التفاعل المنظمة والرتيبة والنمطية ، وبرغم أن النماذج السابقة تمدنا بمجموعة تفسيرات متباينة كلية للنظام الاجتماعى ، الا أنها توافق فيما بينها على أن هناك شكلا ما للنظام يوجد بالفعل وهو لذلك له واقعه الموضوعى .

غير أن علماء الاثنوميثودولوجيا اما يعلقون أو يتخلون عن الاعتقاد فى وجود نظام اجتماعى موضوعى أو فعلى . وينطلقون بدلا من ذلك من مسلمه مؤداها أن الحياة الاجتماعية تبدو على نحو منظم لأعضاء المجتمع . وهكذا تبدو أوجه نشاط الحياة اليومية فى أنظار الأعضاء منظمة ومنسقة . ولا يعزى النظام فيها بالضرورة إلى الطبيعة الأساسية أو الخواص الأصلية للعالم الاجتماعى . وبعبارة أخرى ، قد لا يوجد بالفعل هذا النظام الاجتماعى . وانما قد يظهر ببساطة على أنه موجود بفعل الطريقة التى يدرك بها الأعضاء ويفسرون الواقع الاجتماعى . ولذلك يصبح النظام الاجتماعى خيال ملائم Fiction ويتصور أعضاء المجتمع ظهور النظام . وهذا الظهور يسمح بوصف العالم الاجتماعى وتفسيره . وهكذا يمكن للأعضاء معرفته وتعقله وفهمه وتفسيره . وتشكل المناهج واجراءات الوصف التى يستخدمها الأعضاء فى تصور معنى النظام تشكل موضوع الدراسة فى البحث الاثنوميثودولوجى . وزعم زيمران Zimmerman ويدر Wieder أن عالم الاثنوميثودولوجيا يهتم بالكيفية التى يشرع بها اعضاء المجتمع فى مهمة ادراك ووصف وتفسير النظام فى العالم الذى يعيشون فيه . وهذه النظرة للنظام الاجتماعى يمكن توضيحها من خلال بحث قام به اكينسون Atkinson حول الانتحار حيث كان المحققون Coraners هم الذين يقومون بمهمة خلق النظام . اذ يعرض عليهم سلسلة من حالات الوفاة الغامضة والمثيرة للالتباس والتى تتطلب تقديم وصف لها وتحديدها اما على أنها انتحار أو غير ذلك . ولذلك فهم مطالبون بتصور النظام أو اقامته Construct من خلال تصنيف حالات الوفاة ووضعها فى فئات وتقديم التفسيرات التى يمكن قبولها

لهذه الحالات وزعم « اكينسون » أن المحققين بهذه الطريقة يحولون الاحداث غير المنظمة والتى لا معنى لها إلى وقائع منظمة ومعقولة أو ذات مغزى . وعلى أية حال فان اقامة المحققون للنظام لا يعكس بالضرورة وجود النظام الموضوعى . وهكذا فان حالات الوفاة التى ترتبت فى فئة الانتحار قد لا يكون هناك شيئا مشتركا بينها . وانما قد يعطى لها مظهر التماثل من خلال الاجراءات الوصفية ومناهج الاستدلال Reasoning التى يستخدمها المحققون . واذا كان ذلك كذلك ، فان اعتبار علماء الاجتماع أن احصائيات الانتحار تمثل حقائق ثم شروعهم فى البحث عن اسباب الانتحار يفقد معناه . لأن الانتحار من وضع الاعضاء Canstruction اكثر منه واقعا موضوعيا . ولا تنحصر مهمة عالم الاجتماع فى تفسير الانتحار كما لو كان يوجد فعلا وانما فى فحص المناهج والطرق التى تستخدم فى تصنيف حالات الوفاة ووصفها فى فئة الانتحار . وعموما لا ينبغى على علماء الاجتماع النظر إلى النظام الاجتماعى على أنه حقيقة وانما عليهم اعتباره ، بدلا من ذلك مظهرا للنظام يقيمه الاعضاء . وتصبح مهمة عالم الاجتماع عندئذ هى اكتشاف المناهج واجراءات الوصف التى يستخدمها الاعضاء فى اقامة مظهر النظام .

(٢) دراسة الواقع الروتينى اليومى

تتناول الدراسات الاثنوميثودولوجية كل ما يحدث بشكل عملى فى الحياة من انشطة أو مواقف أو استدلالات سوسيولوجية باعتبارها موضوعات تخضع للدراسة الأمبيريقية وهى تولى هذه الأنشطة العادية الروتينية فى الحياة اليومية نفس القدر من الاهتمام الذى توليه للاحداث غير العادية بهدف اثبات أن هذه الأنشطة العادية تستحق الدراسة كظواهر فى حد ذاتها .... ويعتقد جارفينكل أن هذه الأنشطة الروتينية التى يزاولها الناس بحكم العادة يسيرها نوع من القانون الضمنى غير المكتوب هذا القانون يتضمن معانى أو صفات ينقلها الناس بعضهم إلى بعض عندما يتحدثون عن أحد هذه الأنشطة العادية ويتصرفون جميعا فى ضوء هذه الوصفات أو ما يشبه القوانين .

ويرى جارفينكل أن احاديث وتصرفات الأفراد الخاضعين لهذا القانون تتضمن بالضرورة وجود فهم مشترك بينهم بحيث تنشأ حاجة إلى نقل أو ذكر كثير من الوقائع التى حدثت بالفعل ولكن ما هى الاهمية التى تكمن وراء دراسة ما هو مألوف واعتيادى ؟ الا تعد دراسة احداث وظواهر فريدة مثل الثورات والحروب والصراع أكثر دلالة وأهمية ؟ ترفض الاثنوميثودولوجيا الاذعان لذلك وتقدم مبررات قوية لضرورة وأهمية دراسة الاحداث اليومية الاعتيادية فدراسة هذه المسائل ستعمق دون شك فهمنا للسلوك الاجتماعى .

ولكن هل هناك طريقة نرنو بها من الاحداث العادية حتى يظهر لنا منها أكثر مما نسلم به فى حياتنا اليومية ؟ وما هى الطريقة التى توصلنا إلى القواعد والتوقعات التى تحكم التفاعل الاجتماعى ؟ يرى جارفينكل امكانية تحقيق هذا الأمر من خلال احداث الاضطراب والخروج عن المواقف الروتينية والطبيعية للتفاعل الاجتماعى ، عن طريق تحدى مفاهيم الأفراد تجاه الأحداث المألوفة سيتم اكتشاف تلك القواعد التى يسلمون بها .. وهنا تتجلى استراتيجية جارفينكل والتى تتمثل فى تصميم ما يشبه التجربة بالأسلوب الذى يحقق هذا الغرض ولقد أوضحت هذه التجارب أن أى تحد للقواعد الروتينية للتفاعل يقابل بالرفض والاستنكار وقد كانت تلك استجابة كل من اجريت عليهم التجربة ومن هنا جاء التأكيد الاثنوميثودولوجى على فكرة الثقة كحجر اساس بالنسبة للتفاعل الاجتماعى ، فمن خلال مفهوم الثقة يفترض الافراد فى تفاعلهم أن الآخرين يشاركونهم توقعاتهم وتعريفهم للمواقف ومن ثم يجمعهم فهم عام ومشترك للأمور . فالأفراد يتفاعلون فى علاقاتهم من خلال انماط مسبقة **والسؤال** الملح بالنسبة للانثوميثودولوجيا هو : كيف تؤثر هذه الأنماط على التفاعل وما مصدرها وما هى النتائج المترتبة على التحدى أو الخروج عن هذه الأنماط ؟

وجدير بالملاحظة انه اذا كانت الاثنوميثودولوجيا تتخذ من دراسة الواقع الروتينى اليومى والفحص الجذرى لما هو قائم والتساؤل فى المسلمات قضية أساسية تستند اليها فان ذلك يتضمن فى ثناياه رفض الواقع الاجتماعى وتناول معطيات هذا الواقع بالتعديل والتغيير .

(أ) دراسة الحياة اليومية

تركز الاثنوميثودولوجيا اهتمامها على البدء بدراسة الحياة اليومية باعتبارها فى ذاتها موضوعا للدراسة حيث ان فهم هذه الحياة يجب أن يكون اساسا لكل البحوث والنظريات الاجتماعية .

ويعتقد رواد هذا الاتجاه ان فهم هذه الحياة سيوضح لنا مدى سطحية دراسة التنظيمات والمؤسسات الرسمية بالمجتمع حيث أنها تعتمد أساسا على احصائيات وبيانات يعتقد علماء الاجتماع التقليديون انها ممثلة للواقع وهى فى الحقيقة غير ذلك وبالتالى يعتبر فهمنا عن المجتمع بمؤسساته المختلفة غير صحيح حيث أن هذه الأرقام تمثل فى واقع الأمر تقييما لدوافع ومقاعد الافراد الذين اقدموا على هذا العمل ، كما أن المعدلات الاحصائية للانتحار والجناح والطلاق تبدو وكأنها ارقام جامدة ولكننا اذا رجعنا إلى مصدرها الحقيقى وإلى الكيفية التى تم بها تجميعها لتبين انها تستند على أكثر الأسس ذاتية ..

وتأكيدا لهذه الرؤية الاثنوميثودولوجية يقدم جارفينكل نتائج احدى دراساته التى قام بها حول ظاهرة الانتحار بأحد مراكز الوقاية من الانتحار والتى اشرنا اليها سابقا .

وعلى هذا فالتحقيق من هذا المنطلق التصورى على الفهم الشائع لمجتمع واضح بكل تفصيلاته والقرار ما هو الا نمط متوقع من المجتمع ومتخذو القرار اعتمدوا لا شعوريا على معرفتهم بهذا المجتمع .

وتعد الاحصائيات الرسمية التى يعتقد البعض انها قوالب موضوعية مستقلة عن مقاصد الافراد غير ممثلة للواقع بدقة ، فهذه الاحصائيات يتم جمعها على يد اجهزة بيروقراطية تقوم بتحويل وتعديل الملاحظات الأولية الخاصة بحوادث معينة إلى نتائج نهائية ، فقد يقوم رجل البوليس أو جامع التعداد السكانى أو حتى عالم الاجتماع بكتابة تقرير عن احداث أو مواقف معينة ولكن عند كتابة التقرير نجده قد استخدم ملامح معينة من الحوادث التى يصفها أو يختار اشخاصا معنيين يشتركون فى الموقف

وهنا نرى عالم الاجتماع الذى يود الاستفادة من هذه التقارير يعتمد أساساً على من قام بالملاحظة ومن قدم البيانات والصعوبة فى ذلك تبدو فى أن الفرد لا يزال يعتمد على حكم انسانى بالنسبة لبياناته وليس على الخبرات الحسية فهو يعتمد على مدركات معقدة لاحكام انسانية مبنية على تفاعلات اجتماعية .

ولقد علق بعض الاثنوميثودولوجيين على عدد من الدراسات التى تناولت ظاهرة الانتحار بالذات ووضحوا أخطاء الأخذ بالبيانات الاحصائية حيث هناك مثلا أحد الموظفين يصف الموت على أنه انتحار فى حالة واحدة فقط وهى اذا ما وجدت قصاصة بجانب جثة المتوفى تشير إلى انه انتحر فالتوصيف الرسمى لاسباب الوفاة هو نتيجة عمليات معقدة تشمل مسرح الحادثة وتتابع الاحداث والأشخاص المتهمين بالنسبة للمتوفى ... وقد يسلم جهاز بيروقراطى رسمى كالمدرسة مثلا ببعض البيانات ولكنها فى حقيقة الامر تكون غير ممثلة للواقع فقد يقرر المسئولون أن نتائج الامتحانات هى التى تقيم الاداء الكلى للطلبة فى المدارس كما أنها تعتبر اساس التحاقهم بالجماعة ، لكن المهم فى هذه الحالة هو الوقوف على كيفية تفسير المسئولين لهذه البيانات والعمل على أساسها ما معنى هذه البيانات ؟ كيف تم تجميعها ؟ وما هى القواعد التى اتبعوها ؟ وما تكون ذا دلالة لعالم الاجتماع ليس هو عملية الارتباطات والعلاقات بين البيانات الموضوعية ولكن كيف كان الموظف البيروقراطى يفسرها ؟ اى كيف تم تجميع هذه البيانات .

وفى ضوء ما سبق عرضه نرى أن الأجهزة الرسمية تستندعلىأفعال عملية وليست علمية ويقوم بها الموظفون لانجاز مهامهم وهم فى ذلك يستندون على فهم شائع فى المجتمع وهذا الوضع كما ترى الاثنوميثودولوجيا ينطبق على الأفراد فى مختلف المواقف حيث يفهم الفرد الأحداث المختلفة فى مجتمعه من خلال فهمه للأنشطة الواقعية اليومية .

ويعتقد جارفينكل انه من الممكن أن نقبل ذلك من الأفراد العاديين أى اتخاذ قرارات مبنية على الفهم الشائع ولكن لا يمكننا قبوله من علماء الاجتماع فاذا

جاز للفرد ادراك الاحداث فى مجتمعه من خلال الطريقة التى يفسر بها منطق الحياة اليومية فان ذلك لا يجوز للباحث السوسيولوجى لأن تفسيره فى هذه الحالة يعد تفسيرا عمليا وليس علميا .

ومن هنا يأتى التأكيد الاثنوميثودولوجى على أن الأفراد فى مختلف المواقف يقومون باتخاذ قراراتهم بشكل عملى معتمدين اساسا على الفهم الشائع فى المجتمع عن تلك المواقف .

(ب) الواقع الديناميكى للابنية والانظمة الاجتماعية :

تهتم الاثنوميثودولوجيا بدراسة انشطة التفاعل الاجتماعى بناء على الاعتقاد بأن أنشطة الأفراد وممارستهم هى التى تشكل الابنية والتنظيمات والأنظمة الاجتماعية ، فليس للوقائع الاجتماعية وجود موضوعى مفروض من الخارج وهذا عكس ما يذهب اليه علماء الاجتماع الوضعى الذى ينظر إلى الابنية الاجتماعية كوقائع اجتماعية موضوعية وملزمة .

رابعا : تيار البحث الأثنوميثودولوجى

سوف نوضح النقاط السابقة الآن وتبلورها بواسطة فحص ومراجعة دارسيتين قد اجريتا انطلاقا من منظور الاثنوميثودولوجيا[1]

(١) هارولد جارفينكل وتجربة فى الاستشارة H.Garfinkel-an Experiment in Councelling زعم جارفينكل أن الأعضاء يستخدمون منهج التوثيق الكتابى Documentary فى اضفاء معنى وتفسير العالم الاجتماعى واقامة مظهر النظام . وهذا المنهج يشتمل على اختيار جوانب معنية من عدد غير محدد من السمات أو الخصائص التى ينطوى إليها على أنها شاهد على نمط أساسى Under lying pattern . ثم تعكس العملية وتستخدم أمثلة معينة على هذا النمط الأساسى كشاهد على وجود النمط . ويشتمل المنهج التوثيقى على حد تعبير جارفينكل

(1) M. Haralambos, Sociology; Thomes & Persprctives, Univ., Totorial, 1980, pp. 552-559.

على معالجة المظهر الفعلى على أنه وثيقة أو على اشارة إلى أو يقف مثلا على النمط الأساسى المفترض سلفا . فلا يشتق أو يستخلص النمط الأساسى فقط من مجموعة الشواهد الموثقة فرديا ، وانما تفسر الشواهد الموثقة فرديا على أساس ما هو معروف عن النمط الأساسى ، اذ يستخدم كل منها فى بلورة الآخر . فمثلا فى حالة دراسة « اكينسون » للمحققين فان حالات الوفاة التى كانت ينظر اليها على أنها حالات انتحار كانت تعتبر كذلك بالاستناد إلى نمط أساسى . هذا النمط هو نظرية المحققين فى الانتحار التى تقوم على الفهم الشائع بينهم Common Senses - Theory of Suecide . وعلى أية حال ، وفى نفس الوقت ، فان حالات الوفاة هذه التى حددت على أنها حالات انتحار كان ينظر إليها على أنها شاهد على وجود النمط الأساسى . وبهذه الطريقة تدعم الأمثلة والحالات المعنية من هذا النمط والنمط ذاته بعضها الآخر على نحو تبادلى وتستخدم فى بلورة كل منها الآخر . وهكذا فانه يمكن النظر إلى المنهج التوثيقى على أنه منهج انعكاس Rerlexive وينظر إلى المثال أو الحالة المعينة على أنها انعكاس للنمط الأساسى والعكس بالعكس . ويزعم جارفينكل أن الحياة الاجتماعية انعكاسية فى جوهرها . ويقوم أعضاء المجتمع باستمرار بالاشارة إلى جوانب النشاط والمواقف للتسليم بالانماط الاساسية وفى ثبات وجود هذه الأنماط من خلال الاشارة إلى امثلة وحالات معينة فى التعبير عنها . وبهذه الطريقة ينتج الأعضاء أوصافهم للعالم الاجتماعى التى لا تضفى فقط معنى عليه وتفسره وانما تشكل بالفعل هذا العالم . وهكذا فان المحققين فى تقديمهم الأوصاف لمحاولات الانتحار ، فهم يقومون فعلا بانتاج حالات الانتحار . وتسهم تفسيراتهم للانتحار فى تشكيل الواقع الاجتماعى . وتعتبر الأوصاف من هذه الناحية جانبا فى مجموعة الأشياء التى يحددونها ويفسرونها ولذلك يتشكل العالم الاجتماعى من خلال مناهج واجراءات الوصف التى يتم فى ضوئها التعرف على تحديد وتفسير هذا العالم . وهكذا يتشكل العالم الاجتماعى بواسطة اعضاؤه ومن خلال استخدام المنهج التوثيقى . وهذا ما كان يعنيه جارفينكل عندما يصف الواقع الاجتماعى على أنه انعكاس فى جوهره أو أساسه .

ودعى جارفينكل إلى البرهنة على المنهج التوثيقى وطبيعته الانعكاسية من خلال تجربة أجريت فى قسم الطب النفسى بالجامعة Psychiatry ، حيث وجهت الدعوة للطلاب للمشاركة فيما وصف على أنه اسلوب جديد فى العلاج النفسى Psychotherepy وطلب منهم تلخيص المشكلة الشخصية التى يحتاجون فيها إلى النصيحة ثم توجيه سلسة من الأسئلة لمن يستشيرونه . ويجلس المستشار فى غرفة مجاورة للطالب ، بحيث لا يمكنهم رؤية بعضهم الآخر . ويتم الاتصال بينهم عن طريق توصيلة داخلية Intercom وكانت استجابات المستشار محددة فى اما « نعم » أو « لا » وهو غير معروف للطالب ، فلم يكن المستشار هو الذى يقدم له النصيحة لأن الاجابات التى يتلقاها كانت تنقسم فى النهاية بين نعم ولا ، وكان تتابعها يحدد مسبقا طبقا لجدول الأعداد العشوائية .

وكانت الحالة المعروضة لطالب يشعر بالقلق من علاقته بصديقته . فكان هو يهوديا وكانت صديقته مسيحية ، وكان قلقا من استجابة والديه لهذه العلاقة ومن المشكلات التى قد تنجم عن الزواج والأطفال . وكانت اسئلته منصبة على هذه الاهتمامات وبرغم الحقيقة التى مؤداها أن الاجابات التى تلقاها كانت عشوائية وقدمت بدون الرجوع إلى محتوى الأسئلة وأحيانا كانت متناقضة مع الأسئلة السابقة الا أن الطالب وجدها مفيدة ومعقولة وذات معنى . ثم قدمت تقديرات مماثلة لجلسات الاستشارة من جانب طلاب آخرون فى التجربة . واستطاع جارفينكل أن يستخلص من التعليقات التى قدمها الطلاب على كل الاجابات التى تلقوها مجموعة النتائج التالية : أن الطلاب أضفوا على الاجابات معنى برغم أنه لا تنطوى على أى معنى ، وفرضوا نظاما على الاجابات برغم عدم وجود النظام. وعندما كانت الاجابات تبدو متناقضة أو مثيرة للدهشة ، كان الطلاب يسلمون بأن المستشار لم يكن واعيا أو مدركا لكل الحقائق بالحالة المعروضة عليه . فكان الطلاب يقيمون مظهر النظام من خلال استخدام المنهج التوثيقى . ولقد أدرك الطلاب من الأجابة الأولى النمط الأساسى لنصيحة المستشار وكان معنى كل اجابة تالية يفسر فى ضوء هذا النمط وفى نفس الوقت كان ينظر إلى كل اجابة على أنها

شاهد ودليل على وجود النمط. وهكذا كان منهج الطلاب فى التفسير منهجا انعكاسيا. وهم لا ينتجون فقط وصف جلسة الاستشارة وانما يصبح الوصف جزءا فى الجلسة وهكذا فهم يشكلون الجلسة. وبهذه الطريقة فان اجراء الوصف قد حدد وفسر وأقام أيضا وشكل الواقع الاجتماعى مرة واحدة وفى نفس الوقت. ويزعم جارفينكل أن تجربة الاستشارة تسلط الأضواء وتجذب الانتباه، نحو الاجراءات التى يستخدمها الأعضاء باستمرار فى حياتهم اليومية فى بناء وتشكيل العالم الاجتماعى. ويمكن أيضا الاستعانة بهذه التجربة فى توضيح فكرة « سياق الدلالة Indexicality » باعتباره مفهوما محوريا استخدمه جارفينكل وغيره من علماء الاثنوميثودولوجيا ويعنى « سياق الدلالة » ان معنى أى موضوع أو نشاط يشتق من سياقه، لأنه يشار إليه فى موقف معين ونتيجة لذلك فان أى تفسير أو فهم يقدمه الاعضاء فى حياتهم اليومية يتم بالاشارة إلى ظروف معينة ومواقف. وهكذا فان المعنى الذى أعطاه الطلاب لاجابات المستشار اشتق من سياق التفاعل وبناء على الموقع — قسم الطب النفسى — والمعلومات المقدمة لهم اعتقد الطلاب أن المستشار كان هو ما ادعى أن يكون عليه وانه يبذل جهده لتقديم النصيحة المخلصة والمناسبة. وكانت اجاباته تفسر من داخل اطار هذا السياق. واذا تلقى الطالب اجابات مماثلة على نفس الأسئلة من طالب زميله آخر يجلس فى الكافيتريا فان تغير السياق قد يؤدى احتمالا إلى تفسير مختلف تماما. وقد ينظر إلى مثل هذه الاستجابات التى يبديها الطالب الزميل على أنها دليل أو شاهد على أنه أصيب بجنون مؤقت أو كان يمزح على حساب صديقه أو كان تحت تأثير الخمر أو ما إلى ذلك. وزعم جارفينكل ان معنى أى فعل يتحقق بالاشارة إلى سياقه. ويعتمد المعنى الذى يأخذ به الأعضاء لما قد يحدث أو يسير على الطريقة التى يفسرون بها سياق هذا النشاط الذى نعنيه. ومن هذه الناحية تعد تفسيراتهم وفهمهم اشارية Indexiccal ويقيمون المعنى فى ضوء مواقع معينة.

(٢) دون زيمران وتطبيقات القاعدة المستخدمة

D.Zimmerman · The Practicalities of Rule use

غالبا ما كانت دراسات البيروقراطية تهتم بطبيعة القواعد فى التنظيمات البيروقراطية وعادة ما كان ينظر إلى البيروقراطى على أنه ذلك الشخص الممثل وبدقة للقواعد الرسمية أو حتى هو ذلك الذى يسير عمله على أساس مجموعة القواعد الرسمية وينظر إلى سلوكه فى كلا الحالتين على أنه محكوم بالقواعد. وتشير دراسةزيمرمان إلى منظور بديل وبدلا من النظر إلى السلوك على انه محكوم بقواعد، زعمزيمرمان أن الأعضاء يستخدمون القواعد فى وصف وتفسير نشاطهم وقد ينتهك جانب من هذا النشاط مباشرة بعض القواعد المحددة برغم أنه لا يزال لهذا الجانب من النشاط ما يبرره استنادا إلى هذه القاعدة وسوف نقدم تفسيرا مختصرا لهذه المشكلة

وقامزيمرمان بدراسة السلوك فى مكتب الولايات المتحدة للمساعد العامة. اد يقوم موظفو الاستقبال بتحديد مواعيد دراسة الحالة للعملاء الذين يتقدمون بطلب المساعدة. وكان اجراء تحديد المواعيد ينفذ فى المكتب طبقا لقاعدة بسيطة فاذا كان هناك أربعة من اخصائى دراسة الحالة، تعطى مواعيد للأربعة من العملاء الأول الذين يصلوا إلى المكتب بتوزيعهم على الاربع اخصائيين وتعطى المواعيد للعملاء الأربعة التالين بنفس الاسلوب، بحيث تغطى المقابلة الشخصية الثانية والتى يقوم بها كل أخصائى الوقت المخصص لدراسة الحالة فى هذا اليوم وهكذا وعلى أية حال، كانت هذه القاعدة عرضة للانتهاك من وقت لآخر فقد يصادف الاخصائى القائم بدراسة الحالة مثلا، عميل تتصف حالته بالصعوبة وقد تستمر المقابلة الشخصية لوقت طويل عما هو معتاد وفى مثل هذا الموقف يقوم موظف الاستقبال باعادة تنظيم قائمه المواعيد. ويعير دور العميل التالى ويعرضه على اخصائى دراسة حالة اخر ومثل هده الانتهاكات للقاعدة يقوم موظف الاستقبال بتبريرها وتفسيرها استنادا

إلى القاعدة نفسها . لأن كسرهم للقاعدة فى نظرهم فيه امتثال لهذ القاعدة ويفسر فهم موظفو الاستقبال لما تقصد إليه القاعدة هذه المعضلة . فكانت القاعدة فى نظرهم ترمى إلى المحافظة على حركة العملاء دون تأخير إلى الحد الذى يتمكن فيه الكل انهاء مهمته مع نهاية اليوم ، وهكذا فان انتهاك القاعدة للوصول إلى هذه النتيجة يمكن تفسيره على أنه يتفق وهذه القاعدة وكانت هذه هى الطريقة التى يقولها موظفو الاستقبال بتبرير وتفسير هذا السلوك ونزملائهم اخصائيو دراسة الحالة . وهكذا عمل هؤلاء الموظفون على خلق مظهر النظام من خلال النظر إلى نشاطهم على أنه يمتثل وقاعدة العمل . وعلى أية حال ، زعم زيمرمان أنه بدلا من أن يسترشد الموظفون فى سلوكهم بالقواعد كانوا يعملون على Manitoring وتقدير الموقف ويكيفون سلوكهم على أساس ما يفهمون أنه من متطلبات الموقف . ويدعى زيمرمان أن بحثه يشير إلى أن التطبيق الفعلى للقواعد المستخدمة لا يسمح للباحث بتفسير الأنماط المنتظمة للسلوك من خلال الأخذ بالفكرة التى مؤداها ان هذه التطبيقات تمارس لأن اعضاء المجتمع يتبعون القواعد . وزعم أن استخدام الأعضاء القواعد فى وصف وتفسير سلوكهم ، يجعل المواقع الاجتماعية تبدو منظمة امام المشاركين وأن هذا هو المعنى والمظهر للنظام الذى توفره القواعد المستخدمة والذى يقوم علماء الاثنومينودولوجيا بدراسته فعلا .

ويسلط بحث زيمرمان الأضواء على بعض الاهتمامات الاساسية للاثنوميثودولوجيا ، وتمدنا بمثال على منهج التوثيق ويوضح الطبيعة الانعكاسية للاجراءات المستخدمة بمعرفة الأعضاء فى تشكيل أو بناء مظهر النظام . ويفسر موظفوا الاستقبال نشاطهم باعتباره دليلا أو شاهدا على النمط الأساسى — ما ترمى اليه القاعدة — ويرون أفعالا معينة حتى عندما ينتهكون القواعد — على أنها دليل أو شاهد على النمط الأساسى .

خامسا : نقد الاثنوميثودولوجيا

الاثنوميثودولوجيا والاتجاه السائد فى علم الاجتماع .

يزعم جارفينكل ان الاتجاه السائد فى علم الاجتماع قد تعود على تصوير الانسان على أنه مخدر ثقافيا Cultural dope وهو الذى يمتثل للتوجيهات المعيارية التى تمده بها ثقافة المجتمع . ويذهب جارفينكل إلى أنه يشير بمفهوم « المخدر ثقافيا » الى الانسان فى المجتمع الذى يتصوره عالم الاجتماع والذى ينتج السمات الثابتة للمجتمع عن طريق العمل بما يتفق مع بدائل للفعل مشروعة وقائمة من قبل توفرها الثقافة المشتركة . وبدلا من المخدر ثقافيا ، يتصور عالم الاثنوميثودولوجيا العضو الماهر الذى يشهد باستمرار الخصائص الدلالية للمواقف ، ويضفى عليها المعنى ويجعلها معروفة وينقل معرفتها إلى الآخرين ويصيغ معنى ومظهر النظام . وفى نظر هذا المنظور يشكل الأعضاء ويتممون عالمهم الاجتماعى أكثر مما يسهم هذا العالم فى تشكيلهم .

ويقدم علماء الاثنوميثودولوجيا نقدا متشددا للفروع الأخرى لعلم الاجتماع . وهم يزعمون أن علماء الاجتماع التقليديون قد أساءوا فهم طبيعة الواقع الاجتماعى وقاموا بمعالجة العالم الاجتماعى كما لو كان له واقعا موضوعيا وهو واقع مستقل عن فهم الأعضاء وتفسيراتهم . وهكذا كانوا يعتبرون جوانب العالم الاجتماعى مثل الانتحار والجريمة بمثابة حقائق لها وجودها الخاص بها ثم حاولوا بعد ذلك تقديم التفسيرات لهذه الحقائق . ويزعم علماء الاثنوميثودولوجيا على خلاف ذلك أن العالم الاجتماعى لا يتشكل من شيء أكثر من التصورات والتفسيرات والأوصاف التى يقدمها الاعضاء . ولذلك فان مهمة عالم الاجتماع هى تفسير المناهج واجراءات الوصف التى يستخدمها الاعضاء فى تصور عالمهم الاجتماعى . وهذه هى المهمة الأساسية التى أخفق الاتجاه السائد فى علم الاجتماع فى انجازها فيما يرى علماء الاثنوميثودولوجيا .

هذا ولا يرى علماء الاثنوميثودولوجيا الا اختلافا بسيطا بين علماء الاجتماع فى

بحوثهم تشبه فى أساسها تلك المناهج التى يستخدمها الاعضاء فى المجتمع فى حياتهم اليومية .

ويقدم الاعضاء الذين يستخدمون المنهج التوثيقى باستمرار افكارهم النظرية ويستنتجون العلاقات بين أوجه النشاط ويعملون على جعل العالم الاجتماعى يبدو منظما ومنسقا . وهم الذين يعالجون العالم الاجتماعى كما لو كان له واقعة الموضوعى المنفصل عن ذواتهم . ويزعم علماء الأثنوميثودولوجيا ان الاجراءات التى يستخدمها علماء الاجتماع التقليديون مشابهة فى جوهرها لمناهج رجل الشارع ، لأنهم يستخدمون المنهج التوثيقى ويصنعون النظرية ويستنتجون العلاقات ويرسمون صورة لنسق اجتماعى منسق ومنظم . ويسير عملهم على نحو انعكاسى شأنهم شأن غيرهم من أعضاء المجتمع . وهكذا عندما ينظر صاحب الاتجاه الوظيفى إلى السلوك على أنه تعبير عن نمط أساسى من القيم المشتركة ، فانه يستعين أيضا بالأمثلة على هذا السلوك كشواهد على وجود هذا النمط . وبواسطة اجراءات الوصف يقوم الأعضاء بتصور أو رسم صورة للمجتمع . وبهذا المعنى يعتبر رجل الشارع هو عالم الاجتماع نفسه . ولا يرى علماء الاثنوميثودولوجيا اختلافا بين صور المجتمع التى يقدمها رجل الشارع وبين تلك الصور التى يمدنا بها علماء الاجتماع التقليديون .

ولقد رد ما أطلق عليهم علماء الاجتماع التقليديون أو الشعبيون على انتقادات الاثنوميثودولوجيا للاتجاه السائد فى علم الاجتماع . وتذهب انتقاداتهم إلى أن الأعضاء الذين يقطنون ذلك النوع من المجتمع الذى يتصوره علماء الأثنوميثودولوجيا يفتقروم إلى الدوافع والاهداف وكما يلاحظ انتونى جيدنيز ، ليس هناك ادنى اشارة إلى متابعة اهداف معينة أو مصالح . فما الذى يدفع مثلا الطلاب فى تجربة جارفينكل عن الاستشارة أو موظفو الاستقبال فى دراسة زيمرمان؟وليست هناك اشارة واضحة فى كتابات علماء الاثنوميثودولوجيا إلى الاسباب التى تجعل الأعضاء يرغبون فى سلوك معين أو التى تجعلهم يتصرفون بطرق معينة . وليس هناك أى اعتبار لطبيعة القوة فى العالم الاجتماعى وللنتائج

الممكنة للاختلافات فى القوة على سلوك الأعضاء . وكما يلاحظ « جولدنر » ان العملية التى يصبح بها الواقع الاجتماعى محددا ومثبتا Established لم يتصورها جارفينكل على أنها تستلزم الصراع بين تحديدات الجماعات المتنافسة للواقع والنتيجة هى أن تصور الفهم الشائع للعالم ، لم يفهم على أنه قد تشكل من خلال الاختلافات فى القوة التى تجد سندا نظاميا لها . وزعم النقاد ان علماء الاثنوميثودولوجيا قد أخفقوا فى أن يأخذوا فى اعتبارهم الحقيقة القائلة أن اجراءات الاعضاء فى الوصف تمارس داخل نسق من العلاقات الاجتماعية يشتمل على اختلافات فى القوة . ويبدوا أن الكثير من علماء الاثنوميثودولوجيا يرفضون أى شيء غير معترف به ويقوم اعضاء المجتمع بوصفه وهم يعنون ضمنيا انه اذا لم يعترف الأعضاء بوجود الأشياء والأحداث ، فانهم لا يتأثرون بها . ولكن كما يلاحظ « جون جولدثورب » فى نقده للاثنوميثودولوجيا فاذا كانت الدنيا مثلا تزأر بالقنابل والنابالم ، فان الاعضاء ليس عليهم ان يهتموا بها بأى طريقة أو بالمرة لكى يلقوا حتفهم . وليس على الأعضاء أن يعترفوا بضغوط معينة حتى لا يتأثر سلوكهم بها . وكما يلاحظ جولدثورب وبالاشارة إلى المثال السابق فان الموت يحد من التفاعل بطريقة مخادعة . وفى النهاية ، بالامكان أن نعيد انتقادات علماء الاثنوميثودولوجيا للاتجاه الاساسى فى علم الاجتماع ونوجهها إليهم وكما يلاحظ جيدنيز ينبغى على أى وصف اثنوميثودولوجى أن يظهر نفس الخصائص التى يدعى أنها تميز اوصاف رجل الشارع . ولذلك تصبح اجراءات علماء الاثنوميثودولوجيا فى الوصف موضوعا للدراسة شأنهم شأن علماء الاجتماع التقليديون أو أى عضو آخر فى المجتمع . ونظريا ان عملية حصر الأوصاف فى عملية لا نهاية لها . وينطوى الموقف الاثنوميثودولوجى فى تطرفه على القول بأنه ليس هناك شيء يمكن معرفته . ولكن مهما كانت جوانب الضعف فى الاثنوميثودولوجيا فانها تطرح مجموعة تساؤلات مثيرة ، وهذا هو حال علم الاجتماع فى جملته .

الفصل الحادى عشر
الوضعية المحدثة

مقدمة

اولا : جورج لنديرج .

ثانيا : وليم أوجبرن .

ملاحظات حول الوضعية المحدثة والقياس الكمى .

الفصل الحادى عشر

الوضعية المحدثة

كانت بداية علم الاجتماع على يد اوجيست كونت تهتم بأن ينتهج هذا العلم الوليد الاتجاه الوضعى لكى يكون مثل العلوم الطبيعية الاخرى متحلى بالدقة والموضوعيةوبعيدا عن الأهواء وعن الآراء الفلسفية والميتافيزيقية .

ولقد رأينا فى عرضنا لآراء كونت كيف بدأ هذا العلم وكيف تطورت مناهجه .

غير أن الوضعية تغيرت كثيرا عن تلك التى وضعها كونت فظهر اتجاه جديد يعرف بالوضعية المحدثة - ويمثله فى هذا الصدد لندبرج ووليم أجبرن - وهما ما سنعرض لآرائهما هنا .

أولا - لندبرج

يعد جورج لندبرج (١٨٩٥ - ١٩٦٦) واحدا من أظهر ممثلى الوضعية المحدثة . حيث يعتبر كتابه « هل يستطيع العلم أن ينقذنا » ؟ وأهم ما كتب وفيه يعرض عرضا عاما وشاملا لوجهات نظره ، وتتلخص أهم آرائه فيما يلى :

أ- العلم سواء كان علما طبيعيا أو اجتماعيا - يعتبر وسيلة فنية للتوافق بالضرورة . ذلك أن كل استقصاء يبدأ بتوتر أو اختلال من نوع معين فى الكائن المستقصى . وتعتبر هذه الفكرة لب « السلوكية » لأنها تغفل الاشارة الى الحقائق العقلية ، هذا الى أن كل التوافق فى حياة الانسان يقترب من « موقف متوازن » يعبر عن الوضع الطبيعى للأشياء .

ب - التوافق المعين الذى يكون العلوم الاجتماعية ، وعلى

الأخص علم الاجتماع يصوره لندبرج على النحو الاتى : كل الظواهر التى تهتم بها العلم تتكون من انتقالات الطاقة (أي الحركة) فى عالم طبيعى ، وكل حركة تتم (تأخذ مكانا) فى الزمن . فى « حقل القوة » الذى يشكل جزءا من العالم ، والذى يعرفه لندبرج على انه « الموقف » وحركات الناس (سلوكهم) التى تحدد مواضعهم فى المواقف الاجتماعية تكون موضوع العلوم الاجتماعية .

جـ - السلوك المتبادل أو المتساند بين أى عدد من المكونات (بين الناس) فى موقف يسمى « التفاعل » وكل التفاعل الانسانى يتضمن تنمية واستخدام الرموز التى يشار اليها غالبا باسم « وسائل الاتصال » ويعتبر الترابط والتفكك النمطين الرئيسين لها ، ويشيران الى الحركة التى تتم فى اتجاه معين أو بعيدا عنه ، ويذكرنا هذا التفسير بحركتى الجذب والطرد لأجزاء الذرة .

د - لاتنفصل « الكمية »عن « السلوكية » عند لندبرج . ولذلك فانه يرى أن اصطلاحات مثل الشعور والأهداف والدوافع والقيم ليست الا المتاهات التى لاتزال تعرقل نمو العلوم الاجتماعية . وعلى الرغم من رفضه « السلوكى » لهذه الاصطلاحات الا أنه ينكر أهميتها كأحد الموضوعات الهامة التى على علم الاجتماع أن يدرسها .

هـ - لاينبغى على العلم أن يتورط فى اصدار أحكام قيمية ، ذلك أن الأقوال ذات الطابع العلمى وذات الطابع الخلقى لايمكن ردهما أحدهما للآخر . ولذلك فان علم الاجتماع - بما انه علم - لايتعرض مطلقا لاصدار أحكام قيمية .

ز- يلجأ لندبرج الى « التعريفات الاجرائية » . فالظواهر فى نظره ، موضوعية اذا انطبقت عليها مقاييس ، الاتفاق والتأييد والتنبؤ ، ولذلك

فالتعريفات القبلية عن « الطبيعة الضرورية » للمجتمع أو الثقافة أو النظم الاجتماعية وما شابهها . انما تنبع من منطق صورى ارسطى مضى زمانه ولاقيم له من الناحية العلمية . ومن أمثلة تعريفات لندبرج ، أن المكان هو ذلك الشيء الذى يمكن قياسه بأداه من أدوات القياس (كالمتر) كما أن الزمن هو الذى يقاس بالساعة . والذكاء يمكن قياسه بأحد مقاييس الذكاء الموضوعية[1] .

ومن الواضح أن نظرية لندبرج نظرية متطرفة ، فالانسان ليس درة ولا حياة فيها ولاشعور صحيح أن لندبرج أراد أن يطبق العلم ومناهجه فى دراسة الحياة الاجتماعية الا أنه طبقها بكثير من التطرف .

ثانيا – وليم أوجبرن

يعتبر أوجبرن من أشهر علماء الاجتماع المعاصرين . وقد أثارت نظرياته عن التغير الاجتماعى والتخلف الثقافى مجادلات كثيرة بين العلماء والباحثين فى العلوم الاجتماعية . ونصنفه هنا ضمن « الاتجاه الوضعى الحديث » الا أن موقفه النظرى أقل تطرفا من اتجاه لندبرج . وتتلخص أهم أراءه فيما يلى :

أ– التزم أوجبرن بالجانب السلوكى من الاتجاه الوضعى ، ولهذا فانه مال الى تأكيز « التأثير الاجتماعى أكثر من البيولوجى فى تفسير الأحداث الاجتماعية » فأهم شيء فى نظره لتفسير أعمال الانسان هو « التراث الاجتماعى » الذى لايعتبره نتيجة لأعمال الانسان خلال فترة محددة ، بل انه النتاج الانسانى المتبقى من زمن بعيد واستطاع أن يدوم لينتقل من جيل الى جيل ، ويرى تيماشيف أن دراسة أوجبرن عن « الآثار الاجتماعية للطيران » جعلته يقترب من الشعبة الرياضية للمدرسة

(١) انظر – عاطف غيث – علم الاجتماع – مرجع سابق ، ص ص ٨٨ – ٩٠ .

الوضعية .

ب - يعتبر العلماء أن أهم نظريات أوجبرن جاءت فى كتابه « التغير الاجتماعى » حيث استبدل فيه اصطلاح « التطور » باصطلاح « التغير » ليضع الأساس الذى يفرق بين التطوريين النفسيين والتطوريين الاجتماعيين . كما أنه من أوائل العلماء الذين لفتوا النظر الى الثقافة - النتاج المتراكم للمجتمع الانسانى .

جـ - تشتمل الثقافة عند أوجبرن على الأشياء المادية ، والنظم الاجتماعية والطريقة الاجتماعية التى سير عليها الناس فى حياتهم . ولذلك كان التغير الثقافى هو التغير فى هذه المنتجات . والعامل الأساسى فى التغير هو تراكم الصور الثقافية التى تترتب على الاختراع والاكتشاف . ولهذا كانت العناصر الأساسية للعملية الاجتماعية الاضطرارية ، هى الاختراع والانتشار ، وتوافق العناصر الثقافية .

وبذلك يفرق أوجبرن بين الثقافة المادية والثقافة الغير مادية ويؤكد على ضرورة التوافق بينهما عند حدوث أى نمو .

د - ان توافق الجزء اللامادى من الثقافة لايسير بسهولة ، بل تعترضه عقبات كثيرة منها « الصراع الذى يبديه أصحاب المصالح التى سوف تضار من التغير ، والخوف الذى يسيطر على بعض الناس خشية تجربة ماهو جديد ، والبطء الذى قد يعود الى تحكم العادات أو النزعات المحافظة والتربية غير المتغيرة وغيرها ، من الأسباب الهامة لتعويق التغيرات الجديدة ، ولكن التغير نتيجة لاستمرار عملياته يقلل من هذه المعوقات بالتدرج .

هـ - لما كان التغير فى الثقافة المادية يسبق التغير فى الثقافة المتوافقة (اللامادية) ونظرا لبطء وصول الأخيرة الى نقطة التقاء مع

الأولى ، فان هذا يترتب عليه ما سماه أوجبرون « التخلف » الذى قد يكون ضارا بالمجتمع ، من أجل هذا يجب قياس هذا التخلف لمعرفة مداه ، وتأثيراته المختلفة .

و - يحدد أوجبرن عوامل التغير فى اربعة هى الاختراع ، والتراكم ، والانتشار ، التوافق . والاختراع أما أن يكون آليا أو اجتماعى ، ويظهر نتيجة لعوامل ثلاث هى : النشاط العقلى والحاجة الى وجود عناصر ثقافية أخرى ، ويحدث التراكم عندما تكون نسبة العناصر الجديدة التى تضاف الى القاعدة الثقافية أكثر من نسبة العناصر التى تفقد . والانتشار انتقال المخترعات فى اتجاهات مختلفة . ويكون التوافق أمرا يجب فرضه عندما يتفاعل اختراع مع عناصر الثقافة الأخرى .

ان نظريات أوجبرن - كما رأينا - لقيت اهتماما كبيرا من علماء الاجتماع وله الفضل فى بيان أهمية العوامل التكنولوجية فى تغير المجتمع - حتى أن مثيرا من النقاد اتهموا بأنه يناسى عوامل التأثير فى الحياة ، الا عاملا واحدا قد يصل فى تفسيره للتغير الى مرتبة الحتمية .

ملاحظات حول الوضعية المحدثة والقياس الكمى :

لاشك أن علم الاجتماع الرياضى أو الوضعية المحدثة قد أسهم فى مجال علم الاجتماع اسهامات عديدة - أهمها أنه حاول أن يرسى دعائم الدراسة العلمية للمجتمع (والتى ندى بها من قبل كونت ودوركايم وغيرهم) .

كما أن التطور السريع الذى طرأ على تكنولوجيا الآلات الحاسبة ، فضلا عن تزايد علماء الاجتماع الرياضى ، كل ذلك أدى الى تحقيق تقدم سريع فى هذا الجانب ، ولكن علم الاجتماع الرياضى لم يقدم لنا حتى الآن سوى طائفة قليلة من القضايا المتعلقة بالمشكلات

السوسيولوجية التقليدية .كما أنه تعرض لسيول من النقد خاصة فى تلك المسلمة التى تذهب الى أن كل الظواهر الاجتماعية تمثل ميدانا يمكن أن يخضع للأساليب الرياضية التى تتميز بدرجة عالية من الصدق . وهذا الكلام غير سليم فنحن نستطيع مثلا استخدام الرياضة فى بعض التنبؤات السكانية كالوفيات ومعدلات الخصوبة مثلا – وهذا التنبؤ يكون محدودا بزمان ومكان معينين – إلا أن السلوك الانسانى من الصعوبة أن يخضع للتحليل الرياضى والاحصائى .

بذلك نجد أن الوضعين المحدثين يتفقون مع كونت فى ضرورة الأخذ بالمنهج العلمى الا أنهم استبدلوا المنهج التاريخى عند كونت بالمناهج الاحصائية والرياضية .

الفصل الثانى عشر

الإتجاه النقدى فى نظرية علم الإجتماع

مقدمة .

أولاً : اليسار الجديد :

١ – المقصود باليسار الجديد .

٢ – نشأة اليسار الجديد وتطوره .

٣ – قضايا اليسار الجديد .

ثانياً : الماركسية المحدثة :

١ – جورجان هابيرماس .

٢ – ماكس هوركهايمر .

٣ – جورج لوكاش.

٤ – أنطونى جرامشى .

مناقشة وتعقيب.

الفصل الثانى عشر *

الإتجاه النقدى فى نظرية علم الإجتماع

مقدمة :

من الملاحظ أن هناك إتجاهات نظرية ومنهجية متعددة ظهرت فى إطار نظرية علم الإجتماع وإتجاهاتها الأساسية ، تلك الإتجاهات الأساسية التى كانت مسيطرة على علم الإجتماع فى فترة محددة ، وتقوم على أفكار محددة أيضاً ، عبر عن بعضها الإتجاه البنائى الوظيفى فى تحليله للمجتمع باعتباره نسق إجتماعى فى حالة توازن مستمرة، وهذا النسق إنما يتكون من أجزاء وانساق أخرى فرعية كل منها يؤدى دور ووظيفة محددة من أجل الحفاظ باستمرار على حالة التوازن التى عليها النسق، وذلك على الرغم مما يتعرض له أحياناً من تغير ، إلا أنه سرعان ما يعود إلى حالته الأولى ألا وهى حالة التوازن ، هذا من ناحية .

وعلى الطرف المقابل كان هناك الإتجاه المادى التاريخى أو ما يطلق عليه أحياناً باتجاه الصراع الذى ينظر إلى المجتمع فى ضوء ما يتكون منه محددة فى البناء الإقتصادى التحتى والبناء الفوقى بحيث يكون بناء هذا المجتمع فى حالة تغير مستمرة تنجم فى البداية عما يحدث من تغيرات فى البناء الأساسى أو التحتى وما يترتب عليها من تغيرات أخرى فى البناء الفوقى وكل ما يتضمنه ذلك البناء.

كما كان لكل إتجاه من هذا الإتجاهات نظرة مختلفة فى تحليله

(*) أعد هذا الفصل د. السيد الرامخ .

للمجتمع، فإذا كانت نظرة الإتجاه الوظيفى له على أنه فى حالة استاتيكية فإن نظرة الإتجاه المادى التاريخى للمجتمع إنما تعتبره فى حالة ديناميكية مستمرة. وعلى الرغم من إختلافهم فى ذلك إلا أن كل منهما قد تعرض لأزمات وإنتقادات عديدة سواء كان هذا على مستوى النظرية أو التطبيق، وذلك نتيجة لما حدث من تغيرات إجتماعية وسياسية، وكذلك تغيرات أخرى إقتصادية وأظهر نحوها كل منهما عجزه وعدم قدرته على تحليلها ومحاولة إستيعاب ما ظهر من تناقضات فى الواقع الإجتماعى.

ولقد ظهر الإتجاه النقدى فى النظرية السوسيولوجية نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها، وفى مجتمعات عديدة. وكان أكثر وضوحاً فى مرحلته المبكرة فى أعمال « س. رايت ميلز » و « الفن جولدنر»، كما وجه نقداً إلى الإتجاهات الأساسية فى النظرية السوسيولوجية ، عبرت جماعات اليسار عن أحد أشكاله فى تلك القضايا التى طرحتها للمناقشة وسعت نحو تحقيقها من خلال إتباعها لأساليب متميزة ، وتبنيها لبعض المفاهيم التى تعبر عن نقدهم للواقع الإجتماعى السائد ومحاولة تقديم تصور لآخر بديل له ، تعبر عنه خصائص الجماعات الأولية .

كما عبرت الماركسية المحدثة من ناحية أخرى عن هذا التيار النقدى ، وعملت على توجيه النقد للنظام الإقتصادى والسياسى السائد فى تلك الدول المتقدمة صناعياً ، فى علاقتها بغيرها من الدول النامية ، علاوة على نقدها للواقع الإجتماعى السائد ، ومحاولة تقديم بديل آخر له تعبر عنه تلك الملكية الجماعية، والجماعات الأسرية الممتدة، والقضاء على العمل المأجور وغير ذلك من خصائص أكد عليها هذا الإتجاه النقدى بصفة عامة وتبدو - من وجهة نظرنا - أكثر واقعية.

ولقد عبر « جولدنر » فى مؤلفه « الأزمة المقبلة لعلم الإجتماع الغربى» عما تعرضت له النظرية السوسيولوجية متمثلة فى إتجاهاتها الأساسية من أزمة أدت إلى ظهور تيارات أخرى بديلة أهمها الإتجاه النقدى أو الراديكالى فى علم الإجتماع [١] وأنه على الرغم من تباين تلك المسميات التى أطلقت على الإتجاهات المعاصرة التى ظهرت حديثاً فى نظرية علم الإجتماع، إلا أنها تشترك جميعها فى التأكيد على النقد باعتباره عنصراً أساسياً فى كتابات معظم أنصارها سواء كان نقد يتعلق بالأفكار والأيديولوجيات السائدة أو بالنظرية ، أو يتصل بنقد المجتمع ذاته ، وحتى نقد علماء الإجتماع أنفسهم. وكانت تهدف فى النهاية إلى محاولة تقديم نظريات أخرى بديلة تكون أكثر تطابقاً وملاءمة مع الواقع الإجتماعى القائم [٢].

ويحدد لنا « سمير نعيم أحمد » فى مؤلفه « النظرية فى علم الإجتماع » (١٩٧٧) أهداف علم الإجتماع الراديكالى فيما يلى :

١ - « فهم المجتمع والعلاقة بين الإنسان والمجتمع على أساس علمى سليم وذلك بتطبيق المنهج العلمى تطبيقاً سليماً ورفض العبودية للمفهومات التى يروج لها علماء الإجتماع التقليديين ، مع التركيز على آليات التغير الإجتماعى الجذرى ».

---

(١) أحمد سليمان أبو زيد ، الإتجاه الراديكالى فى النظرية السوسيولوجية ، رسالة ماجستير غير منشورة، تحت إشراف أ. د. محمد عاطف غيث ، أ. د. محمد على محمد ، مكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ٢٩.

(٢) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى ، إتجاهات نظرية فى علم الإجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٤ ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون ، ١٩٨١ ، ص ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٢ - « عدم تقبل النظريات السائدة بشكل آلى وإخضاعها الدائم للنقد والتحليل والكشف عن مضمونها السياسى » .

٣ - « الإلتزام الصريح الواضح بالقيم الإنسانية وجعل علم الإجتماع وسيلة تساعد على تنمية قدرات الإنسان الحقيقية عن طريق خلق الظروف الملائمة لإشباع إحتياجاته وتحريره من الإستغلال » [١].

كما لم يقتصر ظهور هذا التيار النقدى على مجتمع دون غيره، بل نجده ظهر فى ألمانيا حيث تطورت فيها نظرية نقدية عبرت عنها مدرسة فرانكفورت للبحث الإجتماعى، وكذلك تفاعل النقد الإجتماعى فى فرنسا أيضاً مع تلك الإتجاهات الفكرية السائدة فيها كالإشتراكية ، وتفاعل أيضاً مع الحركة الإجتماعية للطلاب. كما كان ظهوره كذلك فى الولايات المتحدة أقل حدة ، ويرجع هذا فى حقيقة الأمر إلى عدم إرتباطه بالحركات الإجتماعية فيها، وكذلك إلى عدم تأثره بالفكر الماركسى من ناحية أخرى [٢] .

ولقد ساعد على ظهور هذا التيار النقدى مجموعة من العوامل منها مايتعلق بطبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى وماترتب عليها من تغيرات إجتماعية وإقتصادية فى بناء المجتمع ، وظهور مشكلات جديدة مرتبطة بنمو المجتمع البورجوازى بصفة عامة وفى كل جوانب الحياة الإجتماعية فيه، وخاصة مايتعلق بالأوضاع الإقتصادية الدنيا للطبقة العاملة، هذا بالإضافة إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى، ومحاولة تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على موضوعات الدراسة فى العلوم الإنسانية [٣]، كما أن ثمة عامل آخر

---

(١) د. سمير نعيم أحمد ، النظرية فى علم الإجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٧٣.

(٢) د. أحمد زايد ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٩ ، ٣٦٣ - ٣٦٦.

(٣) أحمد سليمان أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ٤.

يرتبط بعلم الإجتماع ذاته وما يتضمنه من « تناقض داخلى بين مثالياته وسلوكه الفعلى؛ ففى الوقت الذى يدعو فيه إلى التحرر من القيم ومحاولة تحقيق أكبر قدر من الموضوعية فى سعيه نحو فهم وتفسير سلوك البشر، يسعى إلى الإرتباط الوثيق بالسياسة وينحرف بأهدافه الإنسانية نحو خدمة أهداف لا إنسانية [1]. ولذلك أكد « معظم أنصار الإتجاه النقدى فى علم الإجتماع وخاصة « س. رايت ميلز » و « الفن جولدنر » على ضرورة التزام علم الإجتماع بوظيفته الإجتماعية الإنسانية التى تتمثل فى البحث وكذلك الفهم بهدف تشخيص الواقع القائم وتجاوزه نحو مستقبل مخطط يكون أكثر رحابة للإنسان [2].

بناء على ما سبق يمكن القول أن الإتجاهات الأساسية فى النظرية السوسيولوجية تعرضت لأزمة عبرت عن بعضها تلك الجماعات اليسارية التى كان معظم أعضائها من بين الشباب والطلاب وغيرهم ممن أطلق عليهم اليساريون الجدد ، التى ظهرت نتيجة لمجموعة من العوامل والظروف، ومن المؤكد أنها اتبعت فى سبيل تحقيق أهدافها وقضاياها وسائل معينة دون غيرها. كما ظهرت جماعة أخرى يطلق عليها الماركسية المحدثة، عبرت عن بعضها الآخر أيضاً وكان لها أفكار ومسلمات واضحة حاولت التعبير عنها ، وكان ظهورها يرجع إلى مجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها، علاوة على ما قدمته من تفسير لظهور الجماعات الإجتماعية غير الرسمية يتحدد فيما يتعرض له أعضاء المجتمع من سيطرة وضغوط فى مختلف مجالات الحياة الإجتماعية.

---

(١) د. أحمد زايد ، مرجع سابق ، ص ٢١٣

(٢) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى ، إتجاهات نظرية فى علم الإجتماع، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

أولاً : اليسار الجديد :

من المؤكد أن ثمة مجموعة من العوامل والظروف المتشابكة فيما بينها قد ساهمت جميعاً فى ظهور جماعات اليسار الجديد سواء داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها بحيث يمكن القول بأنه لايعتبر ظاهرة محلية فقط بل صار ظاهرة عالمية سادت فى فترات زمنية محددة.

١- المقصود باليسار الجديد :

إنه نتيجة لعجز البنائية الوظيفية - باعتبارها الإتجاه النظرى الذى كان سائداً فى المجتمع الأمريكى فى حقبة الستينات، والتى كانت تتمتع بشهرة كبيرة آنذاك عن فهم طبيعة النسق الإجتماعى وما يحويه من تناقضات قد شجع هذا على ظهور مجموعة من علماء الإجتماع الشبان أطلق عليهم اليساريون. وكان ظهورهم يعتبر إستجابة مضادة لخصائص المجتمع الأمريكى وما تمثل بعضها فى طبيعة المناخ السوسيوثقافى لذلك المجتمع، وما حدث فيه من تقدم كبير فى جوانب الثقافة المادية ، وظهور النزعة الفردية نتيجة لسيطرة تلك التنظيمات البيروقراطية المعقدة على الأفراد والجماعات مما أدى بهم فى النهاية إلى إحساسهم بالإغتراب عن ذلك المجتمع هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ظهر هذا الإتجاه كرد فعل للتأكيد الثقافى فى المجتمع الأمريكى على القيم الإيجابية والتى تبدو ممثلة فى النجاح مع إغفال القيم السلبية. أو بعبارة أدق كان نتيجة للصراع بين قضيتى العقلانية والقيم الإنسانية، وسرعة حدوث معدلات التغير فى الحياة الأمريكية . حيث ركزت الجماعات اليسارية على تلك الجوانب السلبية فى الحياة الإجتماعية داخل هذا المجتمع[1].

---

(١) زينب شاهين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٩ - ٦٤.

كذلك هناك عوامل أخرى أسهمت فى ظهور الجماعات اليسارية منها ماهو ذات طابع إقتصادى تمثل فى سعى الإقتصاد الأمريكى للسيطرة على الأسواق فى الداخل على المستوى المحلى، وفى الخارج على المستوى العالمى والحفاظ على الإقتصاد الرأسمالى فى توسعه نحو خلق أسواق عالمية له عبر البحار من أجل تصريف منتجاته فى العالم الثالث، وذلك بعد حصوله على مواردهم الأولية بأسعار زهيدة ، ثم القيام بتصنيعها وإعادتها إليهم مرة أخرى بأسعار خيالية، فى صورة سلع إستهلاكية تعمل بدورها على خلق حاجات إستهلاكية أخرى، وبذلك يتمكن الإقتصاد الأمبريالى من السيطرة على أسواق العالم، بحيث يصبح من خصائصه تعبئة الموارد من أجل الحروب، وقيامه على المنافسة الحرة، والعمل على النمو السريع للمؤسسات الصناعية والعسكرية، وإقتصاديات دولة الرفاهية[1].

وهكذا لجأت الولايات المتحدة الأمريكية من أجل الحفاظ على نسق الإقتصاد الرأسمالى إلى إتباع سياسة الحرب الباردة ، باعتبارها الشكل الممكن والملائم لرفض كل الأشكال أو الصور الأخرى البديلة للمجتمع، ومن ثم عملت على توجيه الموارد الإقتصادية نحو توفير متطلبات الحرب ضد الشيوعية باعتبارها العدو الحقيقى للنظام الأمريكى. وفى هذا الصدد وجه « ماركيوز » نقداً للمجتمع الأمريكى فى مؤلفه عن الإنسان ذو البعد الواحد [2].

علاوة على ذلك هناك عوامل ذات طابع سياسى تمثلت فى سيطرة المجتمع الأمريكى على كل العمليات السياسية فيه من خلال السلطة

(1) Ronald A. & John C. Cowley. The New Left in the United States. in : The **Philosophy of the New Left,** Arthur Lothstein (ed.), U. S. A., Capricorn Book, N. Y., 1971, PP. 29 - 30.

(2) Ibid., P.P. 28 , 33 , 43.

السياسية التى تتركز فى أيدى جماعات الصفوة، وذلك لقمع أى معارضة حقيقية تظهر. كما أن الصراع بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى أدى إلى إتجاه الأولى نحو إدخال بعض التعديلات على نسقها الرأسمالى ، والتى بدت واضحة فى إجراءات رعاية المسنين وغيرها ، مما يعرف بدولة الرفاهية، والتى أخذت فى النمو باعتبارها وسيلة للسيطرة والضبط الذاتى والمجتمعى على حد سواء؛ ومن أجل الحفاظ على البناء الرأسمالى لنسق الإقتصاد الأمريكى [١].

وفى ظل هذه الظروف ظهر اليسار الجديد بالولايات المتحدة الأمريكية باعتباره إستجابة مضادة للخصائص المتناقضة لهذا المجتمع، وكان ظهور جماعات اليسار فى هذا المجتمع وبخارجه بمثابة مؤشر يعكس طابع وإتجاه المجتمع الأمريكى المعاصر القائم على التسلط والإستبداد والقمع وسلب الحرية وإرادة الإختيار ، ومن ثم اتجهت بعض جماعات اليسار إلى الكليات الجامعية محاولة الإهتمام بإضفاء الطابع السياسى على الحرم الجامعى ، علاوة على الإنتقادات التى وجهوها إلى الوظائف التقليدية للجامعة وهذا مايعرف باسم اليسار الأكاديمى باعتباره أحد جماعات اليسار الجديد.

كما اتجه شباب اليسار الجديد نحو تغيير القيم الثقافية ، من خلال محاولة إيجاد قيم أخرى بديلة تمثلت فى إهتمامهم بقيم الفنان وعمله [٢]. وذلك رغبة منهم فى تغيير تلك القيم التقليدية السائدة . ويعبر شباب اليسار هذا عن جماعة مجال إهتمام مسلماتها الأساسية هو التطلع نحو بناء جديد من العواطف والواقع الشخصى الذى يتضمن الحرية ورفض الحروب،

---

(١) أحمد سليمان أبو زيد ، الإتجاه الراديكالى فى النظرية السوسيولوجية ،مرجع سابق ، ص ص ١٤٧ - ١٤٨.

(2) A. Gouldnar, Op. cit., P. 400.

والتأكيد على التلقائية والكرامة والإبتكار والمساواة، وذلك بعكس النظرية الوظيفية التى تؤكد على التوازن الإجتماعى؛ ويتطلع شباب اليسار نحو تحقيق كل ذلك بدون عنف ويؤكد أنصاره على التغير الإجتماعى باعتباره ذات أهمية عن التأكيد على النظام الإجتماعى [١].

إن تطلعات هؤلاء الشباب إنما تعبر فى مجموعها عن علاقات الجماعات الأولية ومافيها من إرتباط عاطفى عميق بالآخرين، والإحساس بمشاعر الألفة والمودة والتعبير عنه بطريقة مباشرة خلال التفاعل مع الآخرين من أعضاء الجماعة، بدلاً مما يسود فى تلك التنظيمات البيروقراطية ذات الحجم الكبير من علاقات وتفاعلات غير مباشرة. كما أن هذه الحركة وإن كانت فد ارتبطت بأفكار « ماركس » من ناحية ، إلا أنها من ناحية أخرى رفضت العمليات السياسية فى الماركسية التقليدية وما وجدته من تأييد لها فى الطبقة العاملة.

كما ارتبط اليسار الجديد بجماعات إجتماعية متنوعة منها جماعات الطلاب البيض والسود ، وبعض الأغنياء والفنانين ، منهم شباب جامعى وغير جامعى يعبر عن تلك الجماعات [*] المتطلعة نحو تطور دولة الرفاهية والتغيير الإجتماعى من خلال وسائل سلمية إصلاحية ، وتوجيه النقد إلى كل من السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية معاً ، علاوة على معاداتهم للسلطة فى محاولة التمييز بين كل جماعات السكان فى المجتمع [٢].

---

(1) Ibid., P. 401.

(٢) د. على جلبى ، نظرية علم الإجتماع ، فى : مجالات علم الإجتماع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٥٧.

(*) ويطلق على أنصار اليسار الجديد لفظ جماعة نظراً لاشتراكهم فى أيديولوجية واحدة من الناحية الفكرية، هذا إلى جانب أهدافهم المشتركة التى يتعاونون جميعاً فى تحقيقها، بالإضافة إلى توحدهم فى الأساليب والوسائل التى يرونها مناسبة لتحقيق الأهداف التى رسموها لأنفسهم منذ البداية.

وتتشابه الجماعات اليسارية مع ما يطلق عليهم بالهيبز فى رفضهم للثقافة الأمريكية، كما أنها لم تهتم بعلم الإجتماع باعتباره جزءاً من الثقافة الأوسع التى يرفضونها أيضاً [(١)]. وهناك بعض جوانب التشابه الأخرى تتضح فى تبنى أنصار جماعات اليسار الجديد أيضاً تلك الطرق التى تساير أساليب الهيبز فى الزى أو الملبس والشعر ، والحديث ، وتركيزهم على تعاطى العقاقير والمخدرات باعتبارها صوراً معبرة عن معارضتهم ورفضهم للأشكال الثقافية السائدة فى المجتمع الأمريكى [(٢)].

وقد أكد أنصار اليسار الجديد على بعض المفهومات مثل مفهوم ديمقراطية المشاركة سواء كان ذلك فى العمليات السياسية أو فى المؤسسات الجامعية وغيرها على مختلف المستويات بالمجتمع، كما أكدوا على الحياة المشاعية فى الجنس وعالجوا الفوضى النقابية، وضبط العمال، والمجتمع المحلى. وفى بعض الأماكن الأخرى من تراث الحركة اليسارية ظهرت محاولة من جانبهم لفهم العالم الأكبر أو الأوسع، علاوة على ذلك، ظهرت فيه بعض الجماعات التى ترفض التعصب للرجل وتنادى بتحرر المرأة وكان أعضاؤها من اليساريين البيض ، وحدث ذلك فى عام (١٩٦٩) حينما اهتمت الوطنيين من الرجال بالتعصب للذكور والتمييز فى المعاملة بينهم وبين الآخرين من النساء [(٣)].

---

(١) د. أحمد زايد ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦.

(2) George R. Vickers, The Formation of the New Left, U. S. A., Health & Company. 1975. P. 131.

(3) Staughton Lynd, Towards History of the New Left, in : The New Lef : Collection of Eassy, S. Lynd. (et. ol.) " edis " . U. S. A., Poston Sergent, 1969, P. 11.

كما ينتمى الشباب اليسارى إلى أسر يتمسك بعضها بقيم علمانية ، ويتمسك البعض الآخر بقيم دينية، وفى ظل هذه البيئة الإجتماعية الأسرية الدينية أو العلمانية تبنى هؤلاء الشباب قيم جماعاتهم الأسرية، التى تشجع الأعمال الفنية والقراءة، وتعطى إهتماماً وعناية بالإصلاح الإجتماعى والنزوع نحو التسامح، والتاكيد على ضرورة الاستقلال وتطوير الذات الفردية للانسان . وان ما تبناه هؤلاء الشباب من قيم ثقافية بديلة لتلك الخاصة بالطبقة الوسطى يرجع الى محاولتهم جعل شخصياتهم متميزة عن غيرها فى المجتمع وأصبحت القيم التى تبنوها معبرة عن قيم معظم المفكرين والفنانين فى القرن التاسع عشر [١].

٢ - نشأة اليسار الجديد وتطوره :

انه لا يمكن تناول اليسار الجديد وتاريخ ظهوره ، دون محاولة تناول اليسار القديم أو البعيد وماكان يتكون منه الأخير من جماعات يسارية عبرت عن شكله آنذاك ، حيث يقتضى منا ذلك ضرورة تناول هذه الجماعات اليسارية منذ البداية فى ضوء العوامل الذاتية وذلك باعتبارها كائنات إنسانية من ناحية ، وفى ضوء العوامل الموضوعية من ناحية ثانية باعتبار أن ظهورها إلى حيز لوجود كان بمثابة إستجابة مغايرة أيضاً للظروف التى كانت سائدة. وذلك نظراً للتفاعل بين كل من هذه العوامل الذاتية والموضوعية وهذا ماأكد عليه بعض الباحثين بصدد دراسته لليسار الجديد من أمثال « بيرتل أولمان » Bertell Olman وذلك فى وجهة « النظرة العلائقية » (*) Relation Alise حول العالم [٢].

(١) أحمد سليمان أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ص ١٥١ – ١٥٢.

(2) George R. Vickers, Op. cit., PP. 11 - 12.

(*) تنظر إلى مايوجد فى العالم من تغير وتطور باعتباره ذات حدوث دائم ومستمر وبذلك يصبح الحاضر ما هو إلا إمتداد للماضى ويساعد على التنبؤ بالمستقبل أيضاً. حيث أكد =

يتكون اليسار القديم من بعض الجماعات اليسارية منها جماعة الطلاب وغيرها التى أخذت أشكالاً عديدة منها حركة الشباب الثورى (R. U. M.) ، وكذلك حزب العمل التقدمى فى نيويورك الذى كرس جهوده للدفاع عن الثورة الماركسية، وكان معظم أعضائه من بين الجنس الأبيض فى الطبقة الوسطى وجماعة الدارسين الراديكاليين والمتمردين [1].

كذلك أيضاً من بين تلك الجماعات المكونة لليسار القديم كان الحزب الشيوعى الأمريكى الذى يرجع تاريخه بالولايات المتحدة إلى عام (١٩١٩) ، وهو فى حقيقة الأمر يكون بمثابة إمتداد للحزب الشيوعى الدولى الذى تأتى سياسته مباشرة من موسكو. حيث كان ينظر ذلك الحزب أيضاً إلى السياسة الأمريكية باعتبارها أداة النسق الرأسمالى الهادفة إلى تحقيق مزيد من الربح والسيطرة، وهو فى ذلك إنما يؤكد على بعض أهداف تلك الجماعات اليسارية القديمة ، والتى حاولت معه وبطرق متنوعة توجيه النقد ضد إدارة ذلك النسق الأمريكى [2]. والسعى نحو إلغاء الملكية لخاصة بهدف إقامة مجتمع قائم على المساواة والتأكيد على عملية المشاركة فى القرارات وغير ذلك من أهداف حاول تحقيقها من خلال وسيلة الفعل المباشرة ، وأحياناً أخرى من خلال الفعل غير المباشر أيضاً مثل الإهتمام بعملية أو سياسة الإنتخابات.

= « أولمان » على وجهة النظر الجدلية هذه فى مناقشته لكل من العمليات الذاتية والموضوعية، وعلى الأخص فى تحول التغيرات الكمية - فى ضوء عدد من الأنصار ، أو فى ضوء التغيرات فى البناء المهنى - إلى تغيرات أخرى كيفية مثل طبيعة اليسار وخصائصه البنائية».

(1) A. U. S. News & World Report Book Communism and the New Left, London , The Macmillan Company, 1969, P. 26.

(2) Ibid., P., P. 17 , 172.

علاوة على هذه الجماعات اليسارية السابقة أيضاً كان هنك جماعة تعـرف باسم « تروتسكى » Trotsky ، عبرت عن تحالفها مع الشباب الإشتراكى بهدف تأيد النظريات الماركسية اللينية . وهذه الجماعة كانت بقيادة «نيلسون» ؛ ومعظم أعضائها كانوا من بين الطلاب البيض فى الجماعات الراديكالية المعادية للحرب والفاشية دون تأكيد منها على الثورة كوسيلة [١].

كما أن تلك الحركات والجماعات المعبرة فى مجموعها عن شكل اليسار القديم فى الخمسينات لم تستمر فى الوجود لفترات طويلة، نظراً لأنها كانت غير منظمة من ناحية ، ونتيجة لرفض أعضائها حياة الترف التى كانت تتمتع بها الطبقة الوسطى، هذا إلى جانب رفضهم للإمتثال من ناحية أخرى، وكان أيضاً من بين أسباب إختفاء هذه الجماعات اليسارية القديمة هو قلة عدد أعضائها وظهور سلطة ستالين فى روسيا [٢]. علاوة على الإستقرار السياسى الذى حققته الدول الرأسمالية فيما بعد الحرب العالمية الثانية أدى كل هذا إلى تقلص أو إختفاء اليسار القديم[٣].

نجد أن ثمة إتفاق بين معظم الباحثين على أن اليسار الجديد قد ظهر فى بداية الستينات، وذلك كقوة سياسية بدأت تأخذ طريقها إلى الظهور فى دول أخرى غير أمريكا ، كان من بينها دول شرق وغرب أوروبا وغيرهما أيضً، وذلك مع ظهور كثير من الجماعات اليسارية فى صور وأشكال عديدة منها حركة الحقوق المدنية ، وحركات التمرد التى ظهرت بين الطلاب فى

---

(1) Ibid., P., P. 23 , 24 , 178.

(٢) أحمد سليمان أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ص ١٤١ ، ١٥١ .

(٣) د. أحمد زايد ، مرجع سابق ، ص ٢١٩.

الجامعات وغيرها من الحركات التى تنادى بتحرير المرأة والحركات المعادية للحرب والداعية للسلام [1].

علاوة على ذلك أيضاً ظهر اليسار الجديد مع ظهور تلك الجماعات اليسارية (*) التى كان يتكون منها، وتحددت بعضها فى حزب النمر الأسود، ولجنة التنسيق القومى التى تكونت من الطلاب، وكذلك مما يطلق عليهم بحركة الفعل الثورى، وحزب الشباب الدولى أيضاً [2]، وكذلك أيضاً مع ظهور تلك الأفكار والصيغ السياسية والإجتماعية النقدية، والتى بدت

---

(1) George R. Vickers, Op. cit., P. 172..

(*) حيث نجد فى ذلك المؤلف الذى بعنوان : الشيوعية واليسار الجديد توضيحاً لبعض هذه الجماعات اليسارية منها ما يطلق عليه « حزب النمر الأسود » Black Panther Party ويرجع تاريخه إلى عام (١٩٦٨) وكان يسعى نحو إحداث تغيير فى الولايات المتحدة ومعظم أعضاؤه كانوا من بين الأعضاء السود الثائرين ، وكذلك أيضاً هناك جماعة الطلاب من دارسى لجنة التنسيق القومى(.S. N. C. C) بقيادة « جيمس فورمان » J. Forman سعت نحو تدعيم ثورة السود القومية وحصولهم على كافة حقوقهم فى المجتمع الأمريكى، وتميزت عضويتها بسيطرة الشباب الزنجى الثائر ضد عملية التمييز بينهم وبين جماعات الشباب البيض وظهرت هذه اللجنة فى عام (١٩٦٠) وذلك من خلال تكاملها مع حركة الحقوق المدنية أيضاً .

أما حركة الفعل الثورى (.R. A. M) فكانت بقيادة « روبرت وليمز » وظهرت فى نيويورك عام (١٩٦١)، كما عبرت عن مساندة أنصار ثورة السود أيضاً فى تحررها ومحاولة حصولها على حقوقها. وأصبحت ذات طابع دولى حيث ظهرت خارج الولايات المتحدة فى مساندة جمهوريات أفريقيا فى عمليات التحرر السياسى ورفض التفرقة العنصرية فيها أيضاً.

وأخيراً كانت رسالة حزب الشباب الدولى (Yippies) موجهة إلى مناشدة الشباب فى أمريكا ومتخلف مدنها وهو يعد بمثابة تنظيم غير رسمى يعبر عن جماعة صغيرة من البيض الراديكاليين والذى يرجع تاريخه إلى عام (١٩٦٧) واعتمدنا فى ذلك على اقتباسات متفرقة من المصدر التالى :

A. U. S. News & World Report Book, Op. cit., P., P., 28 , 98 . 100, 102.

(2) A. U. S. News & World Report Book ' Op. cit., P., P., 98 , 100 , 102.

واضحة فى تلك المؤلفات التى نشرها « س . رايت ميلز » بعنوان «صفوة القوة» ، و «الخيال السوسيولوجى» ، حيث أن ما قدمه فيهما من تحليلات نظرية قد لفتت أنظار كثير من الباحثين آنذاك نحو تلك الأيديولوجية الأمبريالية السائدة فى المجتمع الأمريكى، وسعيها نحو الحفاظ على الوضع الراهن، كما حاول « ميلز » أيضاً الكشف عن ذلك الوعى الزائف بين الأفراد فى المجتمع الناجم عن تسلط الصفوة السياسية فى ممارسة السلطة وإتخاذ القرارات [١].

كما ظهرت إلى جانب ذلك مؤلفات أخرى من جانب «بول جودمان» Paul Goodman بعنوان النمو الأعلى والمنافى للعقل (١٩٥٦) ، وكذلك أيضاً مع نشر «وليام أبليمان» لمؤلفه بعنوان : تراجيديا الدبلوماسية الأمريكية (١٩٥٩) ، وأنه فى ذلك الوقت، وفى بداية الستينات أيضاً شرع «س. رايت ميلز» فى كتابة خطاب حاول توجيهه إلى اليسار الجديد ، وذكر فيه أنه إذا لم يحدد اليسار الجديد أيديولوجيته وإتجاهاته المختلفة بوضوح. فإنه أمر يترتب عليه التدخل من جانب الآخرين وإلى جانب ذلك أيضاً نشر « جان بول سارتر » مؤلف له بعنوان « الأيديولوجية الثورية » ، ومن ثم فلقد اهتمت كل تلك الدراسات والمنشورات التى ظهرت آنذاك جميعها بمناقشة موضوعات مشتركة تعبر فى مضمونها عن تلك التناقضات السائدة فى الواقع الإجتماعى بالمجتمع الغربى من ناحية ، ومعبرة أيضاً عن تلك الخصائص المميزة لفكر اليسار الجديد [٢].

ويمكن تقسيم تلك الفترة الزمنية لتاريخ اليسار الجديد من بداية الستينات وحتى نهايتها أيضاً بما ظهر فيها من حركات متنوعة إلى مراحل

---

(١) د. السيد محمد حسينى ، نحو نظرية إجتماعية نقدية ، القاهرة، مطابع سجل العرب ، ١٩٨٢ ، ص ص ٢١٢ - ٢١٣.

(2) Staughton Lynd, Op. cit., P. 4.

حيث تتحدد المرحلة الأولى : من بداية الستينات حتى عام (١٩٦٣) والتى ساد فيها سيطرة القضية الليبرالية وإنتشار الوسائل العامة للتسلية والراحة وقضاء أوقات الفراغ، والتفجير النووى. كما ظهر فيها أيضاً تلك الإعتداءات المتفرقة على الحرية الأكاديمية. حيث كانت كل هذه الحركات الجماعية إنما تعبر عن قضايا فردية تعمل من خلالها على نشر الشكوك فى الأيديولوجيات السياسية السائدة ، وبذلك قام إتحاد دارسى السلام بتنظيم إحتجاجاً ضخماً ضد الحروب وتوجيه الإقتصاد نحو الإستعداد لها والخوض فيها وناقش ذلك الإتحاد الرافض للحروب أثرها على التجرد من كل الحقوق المدنية فى الحياة الإجتماعية بالمجتمع آنذاك [1].

كما تنحصر المرحلة الثانية من تاريخه فى الفترة من عام(١٩٦٤) ، (١٩٦٥) وذلك حيث برزت فيها قضية المشاركة الديمقراطية ، والتى عبرت عنها الجماعات اليسارية ذات النشط والحيوية وكان من بينها جماعة طلاب المجتمع الديمقراطى، وإحتجاج جماعة الطلاب أو الدرسين من لجنة التنسيق القومية ضد العنف ، وكانت كل هذه الجماعات تؤكد فى هذه المرحلة على ضرورة خلق حركة تعطى للناس العاديين فى المجتمع حق التصويت السياسى والمشاركة فى عملية إتخاذ القرارات. تلك التى تنفرد بها جماعة الصفوة القيادية فى الحكومة.

أما المرحلة الثالثة فهى تبدأ بتحالف الأنصار السود مع البيض داخل المجتمع الأمريكى، وذلك حينما اشتدت الحرب الأمريكية ضد فيتنام وعلى الأخص فى عام (١٩٦٥) ، حيث أنهم حولوا فى ذلك الوقت تركيز جهودهم على النشاط الراديكالى المعادى للسياسة الأمريكية القائمة على خوض المعارك والحروب تلك السياسة التوسعية والتى حاولت أن تنفذها

(1) Ibid., P. 7

خارج حدودها وذلك لتحقيق أغراضها التى تسعى إليها ونظراً لذلك ظهرت هذه الجماعات متحالفة مع بعضها فى مقاومة نشاط الحكومة هذا وامتد نشاطها أيضاً إلى خارج الولايات المتحدة نحو دول العالم الثالث ومساندتها فى تحررها ومحاولة رسم سياستها بنفسها

وأخيراً تعبر المرحلة الرابعة فى تاريخ اليسار الجديد - فى عام(١٩٦٦) - عن صياغة مفهوم القوة السوداء الذى برز إلى حيز الوجود ، وذلك من خلال الدخول فى عملية الإئتلاف بين معظم الحركات، والتى أدت فى النهاية إلى نمو الوعى بينهم وضرورة دخولهم فى نشاط متحرر من السيطرة الحكومية [١] .بينما قد حدثت بعض التغيرات الأساسية فى نهاية الستينات تمثل بعضها فيما واجهته الرأسمالية من تناقضات أصبحت بمثابة مشاكل أساسية لها تهدد وجودها فى الداخل والخارج، كان من بينها ظهور فائض كبير من العمالة المدربة وإنتشار ظاهرة البطالة ؛ ورغم أنها حاولت آنذاك العمل على حل تناقضاتها هذه من خلال إفتراضها بأنها تسعى نحو إشتراكية الوفرة باعتبارها بمثابة الهدف الذى يأملون فى الوصول إليه إلا أنها فشلت فى ذلك[٢]

وتحددت بعض التغيرات الأخرى أيضاً فيما واجهه اليسار الجديد من إنفصال للمعارضة السياسية عن المعارضة الثقافية حيث أدى ذلك به إلى فشله أيضاً فى إعادة حل التناقضات القائمة فى الرأسمالية، ومن ثم قد عبر عن هذا الفشل أيضاً الذى يرجع إلى فقدانهم للوعى الذاتى التاريخى بعض الباحثين المشهورين فى علم الإجتماع « س رايت ميلز » وكان نتيجة

(1) Ibid., PP 78 - 79

(2) George R Vickers, Op cit P 137

ذلك الفشل أن ظهرت تناقضات داخلية بين هذه الجماعات اليسارية فى محاولتها لإنجاز أهدافها التى حددتها منذ البداية (١).

كذلك نجد ثمة محاولات أخرى تعبر من جانبها عن الوضع الحالى لليسار الجديد ، وترى أنه قد تعرض لأزمة راجعة إلى طبيعة تلك الأزمة السياسية التى تعرض لها المجتمع البريطانى على وجه الخصوص، وكان من بين مظاهر هذه الأزمة هو تحدى يسار العمل، حيث إنه ما حدث من فشل لحكومة العمل فى منتصف السبعينيات إنما يكون متشابهاً إلى حد ما لنفس الفشل التى تعرضت له تلك الإجراءات فى يسار العمل فى الفترة من (١٩٦٤)، حتى (١٩٧٠) ، ومابعدها أيضاً.

ومن ناحية ثانية نجد أن تحول اليسار الجديد إلى الماركسية أدى به أيضاً إلى الفشل وذلك لتأثره بجيل القدامى ، كما أن هناك بعض الأسباب الأخرى التى أدت به إلى تعرضه للأزمة التى يعانى منها ذلك اليسار حالياً. هى أن محاولته لتعديل أو تغيير وتنقية النظرية ، وتغيير البناء الطبقى فى المجتمع أدى به إلى نوع من التناقض راجعاً إلى إرتباطه بجانبين من الخبرات السياسية المختلفة، تمثلت أحدها فى راديكالية الطبقة الوسطى وإتجاهها نحو الوفرة، وتمثلت الأخرى فى تراث المجتمعات الإشتراكية وقدامى الطبقة العاملةالمقهورة، وكان من نتيجة ذلك هو النجاح الأيديولوجى لليمين وإنتشاره بمثابة ظاهرة عامة معبرة عن فشل اليسار الجديد وفشل معادل للحركة فى بريطانيا أيضاً (٢).

---

(1) Ibid , P. , P., 133 , 1[illegible]

(2) Mechael Rustin, The New Left and the Present Crisis, New Left Review, (May - Joune), Vol., 121 , 1980 , P. , P., 63 , 64 , 70.

٣ - قضايا اليسار الجديد :

يمكن تناول هنا تلك المطالب والأهداف الأساسية لدى كل أعضاء جماعات اليسار الجديد والتى أبرزوها فى صورة قضايا أساسية تمثلت فى رفض الحروب والدعوة إلى السلام، رفض التفرقة العنصرية والمساواة بين جماعات المجتمع وغير ذلك من مطالب.

(أ) الدعوة إلى السلام :

كانت الحرب التى قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية ضد فيتنام بمثابة عامل هام من بين غيرها من العوامل التى أدت بالجماعات اليسارية نحو الدخول فى تنظيم مظاهرات معادية للحروب بصفة عامة والحرب الأمريكية فى فيتنام بصفة خاصة، ومن ثم ركزت فى مظاهراتها هذه على الدعوة إلى السلام ورفض الحرب. كذلك أيضاً أدى إستخدام الأمريكان لبعض الأسلحة الحربية، مثال « النابالم » Napalm آنذاك فى الحرب الدائرة بينها وبين أهل فيتنام ، إلى أن كسب اليسار الجديد تأييداً له من جانب المعتدلين وظهرت كثير من المنشورات والمجلات المعبرة عن دعوة هذه الجماعات اليسارية نحو رفض هذه الحروب الدامية.

ومن ناحية أخرى أدى ذلك إلى دفع حركة جماعات الدارسين فى المجتمع الديمقراطى (.S. D. S) نحو العمل على تحويل إهتمامات العاملين بهذه المصانع التى تقوم بتصنيع الأسلحة الحربية وتوجيهها نحو الإهتمام بالبناء وذلك بدلاً من الهدم [1]. وفى عام (١٩٦٥) قام « كارل أوجليزلى» Carl Oglesly باعتباره قائداً لحركة الدارسين فى المجتمع الديمقراطى بوضع الدساتير المعادية للحرب، إلا أن هذه الحركة قد واجهتها

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P., P., 61 , 27.

صعوبة تمثلت فى إنها لم تكن على وعى بكل الحركات اليسارية فى الأقطار الأخرى مثال تركيا وكوريا وغيرهما (١).

كما ظهرت جماعات شيوعية أخرى لعبت دوراً بارزاً فى هذه الحركة المعادية للحرب وعملية التسليح ، ومن ثم قادت بعض المظاهرات فى إحدى كليات جامعة كاليفورنيا عام (١٩٦٤) ، ووجدوا أنهم فى حاجة إلى ضرورة توسيع نطاق الحركة من خلال العمل على زيادة حجم الأعضاء فيها وخلق بينهم نوع من الوحدة مما يمكنهم هذا فى النهاية من تجنب أى محاولة تهدف إلى عزلهم عن اليسار . هذا علاوة على تلك الأدوار المعادية للحرب وتمثلت فيما قامت به لجنة أصدقاء الخدمات الأمريكية، والتجمع القومى للدارسين، وكذلك أيضاً ذلك الدور الذى قامت به جماعة لجنة التنسيق القومية من بين الدارسين، كانت جميعها أدوار تعبر عن معاداتها للحرب من خلال تنظيم مظاهرات الإحتجاج والتى امتدت أيضاً إلى جماعات أخرى فى الجنوب. حيث وصفت تلك الجماعات المتظاهرة جميعها أن هذه الحرب تكون بمثابة حرب عنصرية تقوم بها جماعات الأغلبية من البيض وذلك ضد جماعات الأقلية من الزنوج (٢).

(ب) معارضة الأمبريالية (*) والتأكيد على ديمقراطية المشاركة :

أظهر أنصار اليسار الجديد معارضتهم للنظام السياسى والإقتصادى السائد بالمجتمع الأمريكى، حيث أنهم وجدوا أن النظام السياسى إنما يقوم

(1) Staughton Lynd. Op. cit., P. , P., 9 , 6.

(2) AU. S. News & World Report Book. Op. cit., P.P., 43 - 44.

(*) الشخص الإمبريالى هو الذى يدافع عن الإمبراطورية البريطانية ويسعى إلى إمتدادها وتوسعها، ويأمل فى أن يراها أكثر وحدة ، ولقد ظهرت إستخدامات متعددة لمصطلح « الإمبريالية » Imperialism يشير أولها إلى وصف نظام الحكم الذى كان متبعاً فى الإمبراطورية الرومانية ، كما يشير الإستخدام الثانى له فيما حققه هذا المصطلح فى النصف الثانى من =

تأسيساً على الديكتاتورية ، ويتركز في أيدى أقلية يطلق عليهم جماعة الصفوة الحاكمة، التى عملت بدورها على تزييف الوعى بين أفراد المجتمع من خلال إعتناقها لبعض الشعارات الجوفاء كالديمقراطية، ومحاولة تحقيق العدالة والسلام الإجتماعى بين جميع أفراد وجماعات المجتمع [1].

كما رفض أنصار اليسار الجديد للإمبريالية وذلك النظام الإقتصادى بما يتضمنه من مؤسسات ذات سلطة استبدادية ونظام بيروقراطى قد وصفوها بأنها وضع ضرورى وملازم للنسق أو النظام الاقتصادى الرأسمالى فى مراحله الأخيرة، ولقد رفضوا كل تلك الأسس التى يقوم عليها ذلك النظام من تحقيق أكبر ربح ممكن ، والملكية الخاصة، وضبط ملكية ووسائل الإنتاج من خلال حكم وسيطرة قلة من المديرين، وغيرذلك من العمل المأجور بما يترتب عليه من إحساس بالإغتراب وإنتشار الفردية، وفقدان للمعايير. وحاولوا إعادة بنائها على أسس أخرى جديدة تمثلت فى إحلال الملكية الجماعية محل الملكية الخاصة، وإيجاد مواقف التفاعل المباشر داخل تلك المؤسسات، وتبادل المساعدات والآراء الشخصية مع محاولة إيجاد أشكال إجتماعية أخرى كالأسرة الممتدة لكى تحل محل الأسرة النواة [2].

= القرن الثامن عشر من إنتشاراً كبيراً فى بريطانيا للتعبير عن تلك السياسات التى تهدف للحفظ على مصالح الإمبراطورية البريطانية فى سعيها نحو المنفعة وتفضيل الحرية السياسية. بينما نجد أن الإستخدام الثالث إنما ظهر فى الفترة من (١٨٨٠ - ١٨٩٠) لوصف ما تسعى إليه السيطرة الأوروبية فى سياستها التوسعية عبر القارات أو البحار ، كما ظهر له استخدام حديث أيضاً من جنب « لينين » فى تحديده له بالإحتكار ، وأخيراً يعنى هذا المصطلح حديثاً السيطرة التى تمارسها دولة على أخرى.

واعتمدنا فى هذا على :

د. محمد عاطف غيث ، قاموس علم الإجتماع ، مرجع سابق ، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١) د. سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(2) Jefferson Airplane, Introduction . in : The Philosophy of the New Left, A. Lothstein, (ed.), U.S.A., Capricorn Book, 1971, P.P. 13 - 14.

أما فى معارضتهم للنظام السياسى وديكتاتورية حكم الصفوة وما تروج له من شعارات غير حقيقية. قد أكدوا فى ذلك الصدد على محاولة نشر الديمقراطية، وضرورة الإلتزام بها فى عملية إتخاذ القرارات على كل المستويات، وفى كل مجالات الحياة الإجتماعية، ومن ثم قد تبنوا مفهوم ديمقراطية المشاركة، ولذلك يجب أن يتدرب الناس جميعاً على كيفية ضبط حياتهم بأنفسهم ، وأن تكون مشاركتهم إيجابية وفعالةوذات معنى على كل المستويات والمجالات السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، وأن تكون هذه الديمقراطية ذات إستراتيجية واضحة وممثلة لكل طبقات وأفراد المجتمع حتى يمكن لهم العودة إلى أوضاعهم الإجتماعية الحقيقية.

وبناء على ذلك حاول هؤلاء الأنصار العمل على إستبدال النسق السياسى الحالى فى تلك المجتمعات الرأسمالية المتقدمة والقائم على الإستبدادية ، والقيادة الكارزمية بنسق آخر يقوم على المشاركة والتفاعل المباشر فى عملية إتخاذ القرار ، وأيضاً على المسئولية الجماعية ، وما تتضمنه من حرية فى الإختيار والتصويت الإنتخابى، ومن ثم تصبح ممارسة السلوك السياسى غير مقيدة بمجالات معينة فى الحياة اليومية، وتنبع هذه الممارسة من مؤسسات ديمقراطية ومن خلال الإنتماء للأحزاب السياسية وبعض الإتحادات والجامعات والنوادى وبعض الجماعات الأخرى التى تعمل على تكوين وبلورة الوعى الذاتى وتنمية القدرات الشخصية (1).

(جـ) المساواة والتكامل الإجتماعى بين جماعات المجتمع :

يتسم المجتمع الأمريكى بما يحتوى عليه من جماعات عديدة مغايرة من حيث الأصل والموطن ، فهى جماعات مهاجرة إليه منذ البداية ، وينحدر كل منها عن خصائص إجتماعية وثقافية ولغوية مختلفة، علاوة على أنها قد

(1) Ibid., PP. 15 - 16.

جاءت أيضاً من أقطار مختلفة مثل « ألمانيا ، وإيطاليا ، والصين ، ثم اليابان وكذلك بولندا وأيرلندا » ، وعلى الرغم مما بذله أعضاء هذه الجماعات من محاولات عديدة لتحسين مستوى معيشتهم إلا أنهم قد عانوا كثيراً من الفقر والحرمان وأخطار البطالة، وإنتشار الأمراض المعدية، حتى أن طبيعة الأعمال التى كانوا يقومون بها إنما كانت أعمال يدوية وذات دخل منخفض وموسمية هذا إلى جانب أنهم كانوا يقيمون فى مناطق محددة ومعظمها فى جنوب الريف؛ وفى الحضر كانوا يتركزون فى أطراف المدينة وخاصة فى الشمال والغرب وكانت معظمها أحياء فقيرة فى مستوى خدماتها التي تقدم لهم [١].

وإن كان ذلك هو وضع جماعة الزنوج أو جماعات الأقلية فإنه أمر نجم أصلاً عن ذلك التمييز بينهم وبين جماعة البيض فى الحقوق والواجبات فى مختلف مجالات الحياة الإجتماعية والإقتصادية، ومن ثم فإنهم كانوا يتمتعون بمكانة إجتماعية منخفضة أو أقل من مكانة البيض، وكانت تورث هذه المكانات لأبناء الزنوج فيما بعد ومن هنا فإنهم فى ممارستهم لحقوقهم الشرعية سواء كان ذلك فى مجال التعليم أو العمل إنما كانوا يحصلون على نصيب غير متكافئ مع جماعة البيض . حيث ترجع جذور هذه التفرقة العنصرية إلى تلك النظرة التى سادت بين جماعات البيض تجاه جماعات الزنوج على إعتبار أن الأخيرة لايحرص أعضائها على تنمية قدراتهم وأنهم يميلون إلى الكسل والتراخى، وذات طابع عدوانى، علاوة على أنهم يميلون إلى ممارسة الجنس ، والتناسل بطريقة غير مألوفة [٢].

---

(1) Irving M. Zeitlin, Op. cit., P., P., 178 , 181.

(2) J. Milton Yinger, Aminority group in American Society, U.S.A , McGraw-Hill, Inc., 1965, P., P., 40 , 45.

كما أن في نظرة أعضاء جماعات البيض - الأغلبية - إلى أعضاء جماعات الأقلية من الزنوج ووصفهم للزنوج بأنهم جنس (*) معاد للإنسانية، ويفتقرون إلى القدرات والكفاءات التي تمكنهم من ممارسة الأعمال المهنية وتحمل المسئوليات ، نجد أنها نظرة غير صحيحة ومن ثم فهي لم تبن على أساس واضح وذلك نظراً لأنه لايمكن لنا أن نحكم على قدرات وكفاءات أعضاء أي جماعة ما . ما لم نعط لهم فرص متكافئة مع غيرهم من الآخرين حتى يكون حكمنا عليهم في النهاية صحيحاً ، هذا إلى جانب أن تلك النظرة إنما هي كانت مقيدة بالزمان والمكان (١).

وأنه نتيجة لهذه التناقضات التي بدت واضحة في المجتمع الأمريكي وما ظهر فيها من فجوة بين الحديث والممارسة أو القول والفعل، وتأكيد البعض على المساواه دون محاولة تطبيقها من جانبهم لها . من هنا ظهرت حركة

(1) Irving M. Zeitlin, Op. cit., P. 177.

(*) حاول كثير من العلماء في القرنين التاسع عشر والعشرين تحديد مفهوم « الجنس » Race، ومن ثم وضع علماء الأنثروبولوجيا في الخمسينات تصنيفاً جغرافياً للجنس البشري يقوم أساساً على تلك السمات الفيزيقية التي تميز جماعات السكان وانتهوا في تصنيف الأجناس إلى القوقازي ثم المغولي ، والزنجي والأبيض والأسود حيث يوجد النوع الأول في أوربا، والثاني في آسيا ، والثالث والأخير في أفريقيا ، والأبيض في أستراليا . في حين يرى علماء الجغرافيا أنه يمكن تصنيف الأجناس طبقاً للظروف المناخية وأثرها على لون البشرة ومدى تكيف الأفراد مع البيئة ومن ثم يؤكدون على أن الجنس الزنجي إنما يوجد في المناطق الحارة وخاصة الغابات والصحراء ولديهم من القدرة وقوة التحمل ما يفوق غيرهم من البيض الذين يعيشون في المناطق الباردة ، بينما يرى في ذلك الصدد أيضاً علماء الوراثة أن تحديد لون البشرة يرجع أساساً إلى تلك العمليات الوراثية وما يحمله الأبناء فيها من صفات عن الآباء . بينما استخدم علماء الإجتماع هذا المصطلح للإشارة به إلى أنماط متنوعة من الفئات والجماعات الإجتماعية المقهورة والتي ليس لديها القدرة على التكيف مع غيرها من

إلى مجموعة من الناس تعيش معاً ولها ثقافة ولغة مشتركة : ولقد اعتمدنا في ذلك على :
Irving M. Zeitlin. Op.cit., P.P. 174 - 176.

الحقوق المدنية فى الستينات ، بهدف الدعوة إلى تكامل جماعات الزنوج مع غيرهم من جماعات البيض فى المجتمع وحصولهم على كافة حقوقهم المشروعة فى مختلف المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وغير ذلك. مع القضاء على العزلة والتفرقة العنصرية بينهم وبين جماعات البيض (١). ومحاولة تحرير الزنوج داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم قد نتج عن هذه الحركة أيضاً ما يعرف باسم حركة تحرر السود (٢).

كما ساعد إنتشار حركة الحقوق المدنية وذلك كما فى الحركات الصينية والنازية على ظهور السخط الكبير من جانب جماعة الفعل على نطاق واسع، حيث أنه أعطى فرصة لكسب مزيد من الأنصار هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أيضاً قد سعد هذا على الوضوح والإنتشار الأيديولوجى لتلك الإستراتيجيات والخطط التى قامت عليها جماعة الفعل، وذلك مما ساعد على زيادة فعاليتها وإستمرارها ، وأخيراً تلك القيادة الكارزمية التى لعبت دوراً هاماً فى محاولة كسب ثقة أنصار وأتباع الحركة (٣).

هكذا أتحدث أيضاً حركة الحقوق المدنية مع غيرها من حركات السود واللجان اليسارية. وتزايد نشاط معسكرات قادة السود بين قوات الجيش، وكذلك إتحاد كل من السود والبيض فى أمريكا ونضالهم جميعاً بعد الحرب العالمية الثانية من أجل الدفاع عن الديمقراطية، والتعبير عن المساواة المفقودة بين جماعات السكان فى المجتمع، وعلى الرغم من ذلك كله فقد فشلت فى نهاية الأمر وذلك نظراً لانخفاض تلك المكانة الاقتصادية لهؤلاء السود أو الزنوج ، وكذلك نظراً لعدم وجود خبرة كافية لديهم عن كيفية العمل على

---

(1) D.A. Gouldnar, Op. cit., P. 399.

(2) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P. 66.

(3) Irving M. Zeitlin, Op. cit., P., P., 290 , 299.

تغيير المجتمع ومحاولة تقديم صورة بديلة لما هو قائم . مما أدى بهم كل هذا في النهاية إلى ميلهم نحو الإهتمام بالإصلاح وذلك في ضوء النسق القائم. مما كان له أثره المباشر على إصابتهم بنوع من اليأس في عملية التغيير هذه[1].

(د) حركة التحول الإجتماعي :

يرى أحد القادة في بعض المنظمات والجماعات اليسارية الجديدة – «فاير Feuer » – في فترة الستينات أن كل الحركات الطلابية وغيرها من الحركات الأخرى التي تمثلت في حركة البيض والسود قد أظهرت جميعها إعتراضها التلقائي على تلك الأجيال القديمة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أيضاً قد اتصلت هذه الحركات في عام (١٩٦٥) بحركة الحقوق المدنية وعبروا عن تلك القضية الأساسية التي تتصل بجماعات الزنوج ومحاولة إدخال تعديلات على التشريعات القانونية من أجل حصول جماعات الزنوج على حقوق متساوية مع جماعات البيض ، هذا إلى جانب محاولة تطوير أحياء الفقراء من اليهود في المجتمع الأمريكي والعمل على مكافحة تلك الأمراض المعدية والمنتشرة فيها ، ومقاومة الفقر والحرمان الإجتماعي والمادي في كل صورة وأدنى مستوياته. حيث إنهم يعتبرون هذا التحول بمثابة مؤشر للتغيير[2].

وهكذا تركزت مناقشات قادة (*) كل هذه الحركات حول الأوضاع الإقتصادية ومحاولة التظاهر ضد الحروب والتسابق على التسليح ، والعمل

---

(١) أحمد سليمان أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(*) ويعد « مارتن لوثر كنج » ذلك الرجل الذي حمل على عاتقه النضال من أجل جماعة الزنوج والدفاع عن حقوقهم، ويعد أن حقق مارتن لوثر نصراً وذلك في ٢١ ديسمبر عام (١٩٥٦) تحرك ناحية المحيط الأطلسي وقاد جماعة تطلق على نفسها جماعة الفعل =

على لفت أنظار لجميع نحو إعادة توجيه ما ينفق فى مجال الحروب وصنع الأسلحة وترشيد تلك الموارد المعبئة من أجل الحرب وتوجيهها ناحية أخرى من أجل إطعام الفقراء ، وتوفير إحتياجاتهم الأساسية بهدف النهوض بمستويات معيشتهم وذلك حتى يمكن لهم العمل على زيادة قدراتهم وكفاءاتهم فى مواجهة المشكلات الإجتماعية والإقتصادية وغيرها فى حياتهم الإجتماعية [1].

(هـ) فكر الجامعة وبناؤها :

علاوة على تلك القضايا السابقة التى حظيت باهتمام أعضاء الجماعات اليسارية الجديدة ومعظم حركاته التى يتكون منها ، فلقد امتد نشاطهم أيضاً إلى الجامعات، حيث تظاهرت جماعات الطلاب داخل الحرم الجامعى وعبرت عن تذمرها وذلك فى تلك الإنتقادات الموجهة إلى بناء الجامعة على إعتبار أنها ذات تنظيم بيروقراطى يتزايد تعقيداً فى نموه، وتتصف العلاقات الإجتماعية داخلها بذلك الطابع اللاشخصى وذلك نظراً لما بدى لهم من تزايد فى إعداد الدارسين بصورة كبيرة من ناحية.

كما أنه من ناحية أخرى أيضاً نظراً لانخراط أعضاء هذه الجماعات فى العمل بتلك النشاطات العسكرية المتمركزة معظمها على إمكانية تطوير برامج وبحوث الدفاع وغير ذلك من نشاطات أخرى تتصل بعمليات الحرب. كما انتقدت تلك الجماعات الطلابية المتظاهرة العلاقة بين الحكومة والجامعات ، وما تقوم به الأولى من فرض ضغوط عديدة عليها وفى ذلك

= المباشر . وتتحدد إستراتيجيته هو وجماعته للدفاع عن السود فى مناهج هى: الفعل المباشر وغير العنف، والإصلاح الرسمى ، وحق الإقتراع أو التصويت ، ورفض إقتصاد المقاطعات.

ولقد عتمدت فى ذلك على .

Irving M. Zeitlin, Op. cit., PP. 292 - 293.

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P. 5.

حاول هؤلاء الطلاب من جانبهم لتأكيد على عملية إستقلال الجامعات عن الحكومة وتوجيه نقد إلى ماتقوم به الجامعات من وظائف تقليدية، وبناء على هذا وصفوا الجامعات على أنها بمثابة مصانع للمعرفة الإنسانية، ومراكز أيديولوجية للدفاع عن ذلك النسق الرأسمالى إلى الإحتكارى. وحدث أول هجوم موجه نحو بناء الجامعات وذلك فى عام (١٩٦٤) فى بيركلى بجامعة كاليفورنيا [١].

وكانت هذه الجماعات الطلابية وما يطلق عليهم باليسار الأكاديمى ينحصر هدفها فى الإتجاه إلى الجامعات، وذلك لمحاولة إعداد أنفسهم داخل هذه الجامعات مما يمكنهم فيما بعد تولى بعض الأدوار القيادية، وكذلك أيضاً محاورلتهم لتأسيس تلك الحركة داخل الجامعة حتى يمكن لها أن تشكل فكر قوى ينتشر خارجها، ويمارس تأثيراً قوياً على المستوى المجتمعى، وأخيراً فى العمل من جانبهم على محاولة تغيير أو تعديل بعض اللوائح الجامعية والتى تعطى للطلاب حق المشاركة فى سياستها [٢].

كما أخذت هذه الحركات التى ظهرت داخل أمريكا صفة عالمية انتشرت فى غرب أوربا، وفى اليابان وامتدت أيضاً إلى دول شرق أوربا وأخذت بعض أشكال متنوعة فى بلدان العالم الثالث، علاوة على ظهورها فى انجلترا، وعبرت هذه الحركات عن نفسها من خلال الفعل المباشر واشتركت جميعها فى رفض النسق الرأسمالى والبيروقراطية التنظيمية له وأطلقت على نفسها اسم العالم الحر، كما عملت على نشر الوعى بين الدارسين من خلال مناقشة المنشورات داخل الكليات الجامعية [٣]. وكذلك

---

(1) Ibid., P. 29.

(٢) بوتومور، علم الإجتماع : منظور إجتماعى نقدى، ترجمة د. عادل مختار الهوارى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٢٦٦.

(3) Staughton Lynd. Op. cit., PP. 2 - 3.

كانت حركات الطلاب فى المجتمع الفرنسى عام (١٩٦٨) بمثابة ظاهرة تعكس قلق هؤلاء الشباب، وبداية لانغماسهم فى ممارسة الحياة السياسية الأمر الذى بدى فيه واضحاً من أنه لايمكن بأى حال من الأحوال تجاهل هذه الفئات أو الجماعات من الشباب اليسارى ذات التأثير والفعالية فى نشاطها الذى تمارسه [١].

وكذلك كان من بين تلك العوامل التى ساعدت على نجاح تلك الحركات الطلابية هو ما تولد بينهم من إحساسهم بأنفسهم كجيل له هوية متميزة هذا إلى جانب معارضتهم للحرب فى فيتنام والدفاع عن الثورة الكوبية علاوة على ذلك، أن ماحدث من تقدم تكنولوجى فى تلك المجتمعات الصناعية وزيادة أعداد هؤلاء الطلاب الجامعيين جعلتهم يعتبرون أنفسهم مؤهلين لشغل مكانات هامة داخل المجتمع فى المستقبل [٢].

وبذلك نستطيع من خلال تناولنا لليسار الجديد أن رصد بعض الملاحظات التحليلية يمكن تحديدها فى النقاط التالية :

١ - يتكون اليسار الجديد فى حقيقة الأمر من عدد من الجماعات الإجتماعية بعضها محلى والآخر عالمى ظهرت داخل وخارج الولايات المتحدة الأمريكية. تمثل بعضها فى تلك الجماعات اليسارية من بين الطلاب فى المجتمع الديمقراطى، وأيضاً فى جماعات أخرى من الدراسين بالكليات الجامعية.

٢ - أن هذه الجماعات اليسارية كان لها أهداف مشتركة تعمل على تحقيقها تمثل بعضها فى الدعوة للسلام والتظاهر ضد الحروب ،

---

(٢) بوتومور ، علم الإجتماع والنقد الإجتماعى ، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهرى وآخرين، الطبعة الأولى ،القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١ ، ص ص ٢٦٩ - ٣٥٧.

وكـذلك العـمل على تكامل جـمـاعـات الزنوج مع غـيـرها من الجماعات الأخرى التى يتكون منها المجتمع الأمريكى وغيره، وذلك حتى يمكن لها الحصول على كافة حقوقها المشروعة فى الحياة الإجتماعية، من خلال إتباعها لوسائل معينة عبرت عن بعضها فى التظاهر والتمرد ضد السلطة السياسية والنظام الرأسمالى ، وكانت هذه جميعاً بمثابة وسائل سلمية تميل إلى الإصلاح دون الثورة.

٣ - ومن ناحية ثالثة أكدت هذه الجماعات اليسارية للسلطة السياسية آنذاك على ضرورة تبنيها لديمقراطية المشاركة القائمة على المناقشة والإقناع والإشتراك فى إصدار القرارات المتعلقة بشأن الجماعة والمجتمع على حد سـواء، وذلك حـتى يمكن للجـمـاعـة فى ظل هذه القـيـادة الديمقـراطيـة من أن تعـمل بكفـاءة ، وذلك إذا مـا قـورنت بظروف عملها فى ظل القيادة الإستبدادية القائمة على تحكم وإنفراد جماعة الصفوة السياسية فى إصدار قراراتها الموجهة بدون مناقشة أو إشتراك من جانب أعضاء الجماعات الأخرى. وهذا ما أكدته نتائج دراسات كيرت ليفين على الجماعة.

٤ - كذلك أيضاً أوضحت تلك الجماعات اليسارية طبيعة العلاقة التى تربط بين جماعة الأغلبية من البيض بجمـاعـة الأقلية من الزنوج. حيث أن هذه العلاقة إنما تقوم فى الأساس على التمييز بينهم من حيث الجنس أو السلالة من ناحية، والقوة والمكانة والدخل من ناحية أخرى ، هذا فضلاً عن أماكن الإقامة داخل المجتمع الأكبر الذى توجد فيه .

٥ - وأخيراً أكدت هذه الجماعات اليسارية الثائرة والمتمردة على ضرورة العودة إلى ما تتميز به الجماعات الأولية من خصائص يتحدد بعضها

فى العلاقات الإجتماعية ذات الطابع الشخصى والتفاعل المباشر، كما يتحدد بعضها الآخر فى المبادرة بالفعل والتلقائية فى الحركة والسلوك تلك التلقائية تسمح بتطوير الذات الفردية وتسهم فى تكامل شخصية الفرد مع جماعته، ولذلك رفضت تلك التنظيمات البيروقراطية التى تتسم بالحجم الكبير والمعقد والعلاقات ذات الطابع اللاشخصى.

ثانياً : الماركسية المحدثة :

تناول معظم الباحثين من أصحاب النزعة المحافظة فى علم الإجتماع الجماعات الإجتماعية باعتبارها نسقاً إجتماعياً وأكدوا على مايحدث فى ذلك النسق من عمليات إجتماعية خلال تفاعل الأعضاء مع بعضهم البعض، وتؤكد تلك العمليات على التعاون والتوازن وفى هذا نجد أن فى معالجتهم للجماعات الصغيرة إنما عزلوها عن تلك القوى الإجتماعية والإقتصادية للمجتمع الأكبر الذى توجد فيه.

وينطلق معظم الباحثين فى إطار الإتجاه المحافظ فى دراساتهم، من تلك الظروف والإتجاهات الفكرية أو النظرية التى سادت فى علم الإجتماع الغربى وعملت على توجه البحوث السوسيولوجية نحو دراسة ما يؤكد على الثبات والتوازن، حتى أن تناولهم للصراع الذى يحدث فى النسق إنما كان يتسم بالتركيز على وظائف هذا الصراع، باعتباره من عوامل تكامل النسق دون تناول معوقاته أو نتائجه ، ويمكن لنا تفسير ذلك فى ضوء تلك الأفكار التى يقوم عليها الإتجاه البنائى الوظيفى فى علم الإجتماع، وفى ضوء تلك الأيديولوجية السائدة فى المجتمع الذى ظهر فيه هذا الإتجاه.

كما أنه من ناحية أخرى فإذا كانت نظرية « ماركس » عالجت موضوع الصراع الذى أغفلته الوظيفية، ومارست تأثيراً على المدرسة الألمانية،

وكان ذلك واضحاً فيما قدمه « تونيز » من إسهامات في علم الإجتماع وخاصة حول دراساته عن الجماعة والمجتمع المحلي. والذي حاول فيه « تونيز » تفسير أسلوب الإنتاج الرأسمالي في ضوء هذه المفهومات السابقة. وفي إطار الإتجاه الشكلي أو الصوري في النظرية السوسيولوجية كان تأثير «ماركس» واضحاً على صورية « جورج سيمل » في دراسته الرئيسية عن العلاقات الإجتماعية ، والتي تطورت مع الإنتقال من الإقتصاد الطبيعي إلى إقتصاد النقود [1]. إلا أن في معالجة الماركسية التقليدية للصراع قد أهملت بعض الجوانب، وأكدت كثيراً على جوانب أخرى لم توفق في تحليلها وعرضها.

ويمكن القول أنه مثلما تعرضت النظرية البنائية الوظيفية لأزمة ترتب عليها ظهور بدائل، فإن نظرية « ماركس » قد تعرضت لأزمة مماثلة ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ، حينما أصبحت الماركسية بمثابة الأيديولوجية الرسمية المسيطرة في الإتحاد السوفيتي، وبعض من دول شرق أوربا ومن ثم حاولت الدفاع عن تلك النظم السياسية السائدة مما ترتب على ذلك أن فقدت قوتها النقدية [2].

وهكذا حدثت كثير من التغيرات في الماركسية التقليدية بعد وفاة «ماركس» في عام (١٩٨٣) على الرغم من إنتشارها السريع في الحركة الإشتراكية [3]. حيث ظهرت بعض الإسهامات الأخرى والتي تأثرت بأعمال «ماركس» إلا أنها من ناحية أخرى عملت من جانبها على تعديل تلك

---

(1) T.. Bottomore. Op. cit.. P. 128.

(٢) د. السيد الحسيني ، نحو نظرية إجتماعية نقدية ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٢ - ١٩٠

(3) Alan Swingewood. A Short History of Sociological Thougth, London. Macmillan Publishers Ltd.. 1984, P. 196.

الأفكار الماركسية على ضوء التغيرات الجديدة التى أفرزها الواقع الإجتماعى ومن ثم عبرت عنها تلك الأعمال التى قدمها « كورس » و « لوكاش » و «مانهايم» و «جرامسكى» و «هابيرماس» وغير ذلك من الأعمال التى عبرت عنها مدرسة فرانكفورت للبحث الإجتماعى، والتى بدأت تتشكل فى نهاية العشرينات، وبداية الثلاثينات من هذا القرن بقيادة بعض المفكرين من أمثال «أدورنو» ، و «هوركهايمر» [1]

كما شكلت هذه الإسهامات فيما بينها ما يعرف بالإتجاه الماركسى الجديد أو ما يطلق عليه أحياناً أخرى بالماركسية المحدثة (*) التى عملت من جانبها على توجيه إنتقادات إلى الماركسية وماظهر فيها وفى غيرها من تناقضات عبرت عن بعضها ما طرأ على الطبقة العاملة والبناء الطبقى فى المجتمع من تغيرات، ترتب عليها أن أصبح أفراد الطبقة العاملة يشعرون بالرفاهية وذلك نتيجة لحدوث الحراك الإجتماعى فيما بينهم ونظراً لعوامل متعددة. علاوة عليذلك أنها لم تعد طبقة ثورية بمفردها ودون أن تقيم

---

(1) T Bottomore, Op. cit., P. 129

(*) حيث يطلق عليها محدثة نظراً لحداثة روادها الذين جاءوا بعد « ماركس » والمؤسسين للماركسية هذا من ناحية ، ويأتى لفظ الماركسية فيها وذلك من تسليمها منذ البداية ببعض المفاهيم فى الماركسية التقليدية وكذلك منهجها وقوانينها العامة كما صاغها الرواد. إلا أنها تختلف عن الماركسية التقليدية فى أنها « تنطلق من الحقائق الجديدة التى يفرزها الواقع » كما ظهرت هذه المدرسة أيضاً « إستجابة لوجود تجارب ناجحة لتطبيق الماركسية فى الدول النامية وبصفة خاصة بعد ظهور أناس مثل « ماو » استطاعوا أن يغيروا واقع مجتمعاتهم ، علاوة على ذلك ما يؤكده أنصار هذه المدرسة الفرعية من ضرورة الإهتداء بالمادية التاريخية لقيادة البحوث السوسيولوجية وتوجيهها موضوعاً وتصميماً ، مع الإفادة من الأساليب الفنية البحثية التى توصل إليها العلم ، واعتمدنا فى ذلك على

د. عبد الباسط عبد المعطى ، إتجاهات نظرية فى علم الإجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، مرجع سابق ، ص ص ٢١٠ ، ٢١٢

تحالفات مع غيرها في المجتمع، واستند أنصار الماركسية المحدثة في التأكيد على هذا إلى تلك الشواهد التي حدثت في بعض دول العالم الثالث وذلك في كفاحها من أجل التحرر الإقتصادى والسياسى من سيطرة العالم الصناعى الرأسمالى المتقدم وحصولها على الإستقلال في النهاية [١].

وكذلك وجه أنصار الماركسية المحدثة نقداً إلى الماركسية التقليدية في أنها لم تكشف عما يدور من صراع بين تلك المجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً وبين دول العالم الثالث، وما تمارسه الدول المتقدمة من فرض سيطرة إقتصادية وسياسية على الدول النامية وجعلها تابعة لها باستمرار ، ويشترك معها في ذلك الفكر البورجوازى الغربي. وعدم ظهور محاولة من جانبها لتفسير تلك التغيرات المجتمعية وما ترتب عليها من ظهور طبقة متوسطة جديدة، ذات طبيعة فنية وثقافية في المجتمع، علاوة على ذلك ماحدث من نمو وتعقيد في عملية الإنتاج ونمو للانساق الكبرى في الإدارة والتوزيع والخدمات . مما أدى في النهاية إلى ظهور قوى عاملة جديدة تتميز بخصائص التأهيل العلمى، وتسلسل بيروقراطى منظم [٢].

علاوة على ما سبق أيضاً حاول أنصار الماركسية المحدثة تعديل تلك الأفكار التى قامت عليها الماركسية التقليدية في ضوء ما ظهر من متغيرات جديدة في الحياة الإجتماعية ، حيث عملوا على كشف القناع عن تلك الأيديولوجيات السائدة في النظريات البورجوازية ، وما تقدمه من تبريرات للدور الذى تمارسه الرأسمالية أو الإمبريالية المعاصرة ، ومن ثم أكدوا على ضرورة فهم المجتمع المعاصر في ضوء كليته أو شموليته، وجاء ذلك واضحاً

---

(1) Norman Birnbaum, The Crisis in Marxist Sociology, in : Radical **Sociology, Op. cit., PP., 109 - 110.**

(2) Norman Birnbaum, Op. cit., PP. 114 - 115.

فى تبنى البعض منهم لمفهومات مثل الكلية وغيره من المفهومات التى تحرص فى تناولها لأى جانب من جوانب المجتمع على توضيح علاقته بغيره من الجوانب الأخرى التى يحتويها وفى ضوء علاقته بالبناء الإجتماعى الأشمل ، وأخيراً نقدوا الماركسية فى تأكيدها بشدة على الدور المنتظر للبروليتاريا فى القيام بالثورة ، ومن هنا أكدوا على ضرورة تحالفها مع غيرها من الجماعات الأخرى الموجودة فى المجتمع حتى يمكن لها - مع التحفظ - أن تقوم بدور فى ذلك ، كما لم تعد البروليتاريا وحدها ثورية بل هناك جماعات أخرى مثل جماعة الفلاحين [١].

هكذا فإن إتخاذ أنصار الماركسية المحدثة موقفاً نقدياً من النظريات البورجوازية وغيرها من الماركسية التقليدية سواء اتخذ ذلك الموقف بعد الكلية أو بعداً اقتصادياً وغيره سياسياً وأيديولوجياً وتأكيدهم على دراسة الطبقات الإجتماعية فى حالتها الديناميكية ، وليس كما فعلت تلك النظريات الغربية فى تناولها من خلال الحراك الإجتماعى الذى أضفى عليها طابعاً إستاتيكياً، وتأكيدهم أيضاً على الدور الثورى لجماعات أخرى غير البروليتاريا مثل الفلاحين . كل هذا قد ساعد على تشكيل ملامح وخصائص هذا الإتجاه الجديد [٢].

كما عبر أنصار هذا الإتجاه عن إختلافهم مع ماركس فى عدة جوانب من بينها ضرورة تعديل مفهوم « الرأسمالية إلى الإمبريالية ليعكس الطبيعة المنتظمة للنظام الرأسمالى العالمى المعاصر وأساليبه فى التعامل مع دول العالم الثالث » ، وكذلك إهتمامهم بالخصوصيات القومية ، ودور الأمة فى التحرر

---

(١) د. عبد الباسط عبد المعطى ، إتجاهات نظرية فى علم الإجتماع ،مرجع سابق ، ص ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢١٨ - ٢١٩.

الشامل بوصفها تجسدات لعمل القوانين النوعية للتطور الإجتماعي »[١].

علاوة على ذلك ما طرحوه أيضاً من قضايا تتصل أساساً بالطبقات على المستوى النظرى ، مؤداها أنه يجب النظر إلى تطور المجتمع الأوروبى ، مراحله ومقولاته، بوصفها حالات إستقاها ماركس من تاريخ الإنسان، ولكن لاينبغى أن يوضع تاريخ الإنسان فى قوالب تمثلها مراحل ومقولات تطور المجتمع الأوروبى، وفى هذا حاولوا إبراز دور الرأسمالية العالمية فى تشويه تطور المجتمعات النامية وإيقافها عند مراحل ما قبل الرأسمالية [٢].

وهكذا لقد شهد الفكر الإجتماعى المعاصر حركات نقدية واسعة النطاق امتد نقدها من المجتمع إلى محاولة نقد علم الإجتماع ذاته . وإن كانت تلك الحركة النقدية فى علم الإجتماع عبرت عنها أعمال البعض من أمثال «س. رايت ميلز» ، و« جولدنر» ، إلا أننا نجد من ناحية أخرى ارتبط اسمها بمدرسة فرانكفورت [*]. وأن ما واجهته هذه المدرسة من نقد ممثلاً

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

(*) يرتبط تاريخ هذه المدرسة بعام (١٩٢٣) حينما انتقل معهد البحوث الإجتماعية من فرانكفورت بألمانيا إلى نيويورك ، ثم إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة ، فلقد عنيت هذه المدرسة بحكم إهتمامها المادى أساساً بتقديم تطوير كيفى للجانب النقدى الفلسفى من الماركسية. محاولة الإنطلاق منه إلى صياغة علم إجتماع له مفاهيمه ومجالات بحثه ومناهجه، التى تختلف عن التيارات الوضعية والوظيفية التى عرفها علم الإجتماع الأمبيريقى وأصبحت مميزة له .

كما لا تكتمل دراسة أعمال مدرسة فرانكفورت إلا من خلال تتبع جذورها الفلسفية عند «هيجل» و «كانط» و «ماركس» و «فيلهلم ديلثاى» . الذى تمثله أعمال «هانز جورج جادمر H. G. Gadamer» و «ألفريد لورزنر A. Lerenzer» ، و «تشارلز تايلور» و «بول كيور P. Ricoeur» . ففى هذه التيارات الفكرية نستطيع الوقوف على المصادر الأولى التى شكلت مصدراً عاماً لعلم الإجتماع النقدى عند «هوركهايمر M. Horkheimer» و «تيودور أدورنو T. W. Adorno» و«هربرت ماركيوز» و«جورج هابيرماس Jurger Habermas» . وإن كانت النظرية النقدية هى نتاج للحركة الفكرية التى سادت خلال =

فى تلك الإسهامات التى قدمها أنصارها إنما عمل على بلورة بعض المفاهيم «كالثقافة الجماهيرية ، والنزعات التسلطية » وغير ذلك من مفاهيم كان لها أثراً كبيراً فيالولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ، وعلى الرغم من أن أعمال هذه المدرسة بقيت لفترة طويلة مهملة وذلك لأنها كانت مكتوبة أصلاً باللغة الألمانية إلا أنها ظهرت مرة أخرى وذلك من خلال تلك الأعمال التى قدمها بعض الباحثين من أمثال « هابيرماس ».

كما أن ما قامت عليه من أسس وقضايا فكرية إنما تمثل فيما شهده ذلك المجتمع الألمانى مثل الفكر الفلسفى المثالى الماركسى والتأويلى أو التفسيرى. وغير ذلك من أعمال فى التحليل السيكولوجى التى ترجع أساساً إلى « فرويد » ، وفكرة النقد التى بلورها « كارل ماركس » فى بعض مؤلفاته، والتى ترجع أصلاً إلى فلسفة عصر التنوير أيضاً . وفى إهتمامها بالنقد إنما كانت تسعى إلى محاولة الكشف عما يتعرض له أفراد وجماعات المجتمع من كل أشكال القهر والضغوط ومحاولة تحريرهم منها [1]. وسوف يتضح لنا كل هذا من خلال تناولنا محاولات وإسهامات بعض الأنصار.

١ - جورجان هابيرماس J. Habermas :

تمثل أعمال « هابيرماس » تعبيراً عن الإلتقاء بين ثلاثة جوانب أساسية يتحدد أولها فى تلك المناهج المستخدمة للبحث والدراسة فى العلوم الإجتماعية، ويتمثل الجانب الثانى فى ذلك الإرتباط بين ما حدث من

= الفترات الأولى من الثلاثينيات، إلا أنها تعد أيضاً من مكتشفات حقبة الستينيات :
نقلاً عن :
د. محمد على محمد ، تاريخ علم الإجتماع ، الرواد والإتجاهات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤٢ - ٥٤٣.

(١) د. محمد على محمد ، تاريخ علم الإجتماع ، الرواد والإتجاهات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ٥٤٤ - ٥٤٥.

تطور فى العلوم الطبيعية والقدرة على محاولة إستخدام التقدم التكنولوجى فى عملية الضبط والتحكم أو السيطرة ، وأخيراً . تناول أيضاً مدى الإرتباط بين العلم والأفكار السياسية السائدة فى تلك المجتمعات الرأسمالية الصناعية [1].

ويوجه « هابيرماس » فى مؤلفه بعنوان : الإتصال وتطور المجتمع (١٩٧٩) بعض الإنتقادات للماركسية التقليدية محاولاً إعادة صياغة المادية التاريخية باعتبارها نظرية للتطور الإجتماعى ، وذلك من خلال فحصه لتلك المفهومات الخاصة بالعمل الإجتماعى وتاريخ المجتمعات الإنسانية باعتبارهما من المسلمات الأساسية للمادية التاريخية . حيث يحددها « هابيرماس » العمل الإجتماعى المنظم بأنه طريقة خاصة بالكائنات الإنسانية ومطابقاً لإعادة إنتاج أو تشييد حياتهم ويميزهم عن غيرهم من الحيوانات [2]. وذلك نظراً لما لديهم من وعى. حيث يبدأ هذا التمييز وذلك حينما يحاول الإنسان إنتاج تلك الطرق والوسائل التى تمكنه من البقاء والوجود ، وتجعله قادراً على السيطرة والتنظيم لبيئته الفيزيقية ، وغير ذلك مما يكون بمثابة منتجات غير مباشرة لحياته المادية ذاتها . كما يعد ذلك المفهوم الإجتماعى للعمل فى نظره أيضاً بمثابة شكل حاسم يحتوى على بعض المسلمات الأساسية فى الفلسفة المعاصرة وخاصة حول الذات والإنعكاس .

تأكيداً على ما سبق يرى « هابيرماس » أن عملية توزيع المنتجات هذه إنما تتطلب قواعد للتفاعل وتنظيم للمعايير الخاصة بالفعل الإتصالى [1]. ولذلك يوجه إلى « ماركس » نقد فى نظرته للعمل الإنسانى باعتباره يعنى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٤٤.

(2) Jurgen Habermas, Communication and Evolution of Society, London, Heinemann, 1979, P. 131.

(3) Ibid., PP., 131 - 132.

إنتاج السلع المادية ، وأكد على ضرورة النظر إليه فى ضوء تلك الطبيعة البشرية والمميزة للإنسان ، باعتباره قادراً على الخلق والإبتكار الذاتى ، وصانعاً لكل أدوات العمل، ومستخدماً أيضاً اللغة فى تفاعله مع غيره من أعضاء المجتمع الذى يعيش فيه (١).

علاوة على ذلك حاول « هابيرماس » التمييز بين جوانب النشاط الإنسانى والذى حددها فى العمل ، والتفاعل . وموضحاً لجوانب الضعف فى النظرية الماركسية وخاصة فى تأكيدها على أهمية العمل الإجتماعى ، فى الوقت الذى تجاهلت دور التفاعل الإجتماعى، الذى من خلاله يحدث إتصال بين أفراد وجماعات المجتمع من خلال إستخدام اللغة وبعض الرموز، وبين المجتمع وغيره من المجتمعات الأخرى ككل . ووجدها « هابيرماس » أن ذلك إنما يرجع إلى ما وصلت إليه تلك الدول الصناعية من تحقيق لمستوى معيشى مرتفع جعل كثيراً من جماعات المجتمع الذى تتمتع به تميل إلى التغاضى عن فكرة تحرير المجتمع من ذلك الإستغلال الإقتصادى (٢).

كما حدد « هابيرماس » التفاعل الإنسانى فى ذلك الفعل الإتصالى ، والتفاعل الرمزى الذى تحكمه تلك المعايير الإجتماعية المتفق عليها فى المجتمع وهذه المعايير هى التى تحدد أيضاً التوقعات السلوكية المتبادلة بين الأفراد والجماعات فى المجتمع ، وأن صحة هذه المعايير الإجتماعية للتفاعل الإنسانى والرمزى إنما تعتمد كذلك على الفهم الذاتى المتبادل بين الناس فى المجتمع، ومن ثم يمكن ضمان صحة هذه المعايير من خلال المعرفة العامة للإلتزامات.

---

(١) توم بوتومور ، نقد علم الإجتماع الماركسى،ترجمة د. محمد على محمد ، د. على جلبى، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٤ ، ص ص ١١٥ - ١١٦.

(٢) د. السيد الحسينى ، نحو نظرية إجتماعية نقدية ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥.

ومن ناحية أخرى أكد « هابيرماس » على أن تلك الجماعات التى لم تتمتع بالإمتيازات والتى أطلق عليها الجماعات المحرومة ، وغيرها من الجماعات التى تتمتع بما يوجد من إمتيازات لم تعد تواجه بعضها البعض وذلك باعتبارها طبقات إقتصادية إجتماعية فى المجتمع الرأسمالى المتقدم، وهكذا فإن العداء الطبقى باعتباره العلاقة الأساسية التى كانت موجودة فى كل المجتمعات التقليدية ، قد خفت حدتها وذلك مع استمرار الإستغلال الإقتصادى والظلم السياسى، والذى فى ظله أصبح الإتصال مزيفاً وقاصراً ، مما ترتب على هذا أن أصبحت الأوضاع الشرعية التى تستخدم كغطاء وقناع أيديولوجى ، لايمكن الإعتماد عليها أو الإستفادة منها، ومن ثم أصبح الوعى التكنوقراطى ذا طابع أيديولوجى رأسمالى (١).

هكذا يبدو تأكيد « هابيرماس » على العوامل السياسية باعتبارها بديلاً للعوامل الإقتصادية تلك العوامل السياسية التى قد أصبحت حاسمة فى إدارة شئون المجتمع الحديث، حيث كان يهدف من ذلك كله نحو محاولة التوصل إلى صياغة نظرية جدلية تكشف عن مدى الضغوط الخارجية التى تمارسها التكنولوجيا على أفراد وجماعات المجتمع. من الناحية الإنسانية والإجتماعية، وكذلك أيضاً تكشف عن نمو الوعى فى تلك المجتمعات الرأسمالية والذى إتخذ شكل الترشيد التكنولوجى ، وبناء على ذلك يؤكد لنا « هابيرماس » أنه بمجرد تحرير الإنسان من كل هذه الضغوط عندئذ يمكن له إستعادة تشكيل وعيه الحقيقى وإكتساب مكانته التاريخية الحقيقية ذلك الوعى الذى تم تزييفه، وهنا تلعب وسائل الاتصال دوراً هاماً فى هذه العملية(٢).

---

(١) سعد عيد مرسى ، الأيديولوجيا ونظرية التنظيم فى علم الإجتماع الغربى ، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير غير منشورة ، تحت إشراف .. محمد على محمد ، مكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٧.

(٢) د. السيد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، مرجع سابق، ص ص ٢٦٥ ، ١٦١.

٢ - ماكس هوركهايمر M.Horkheimer :

يعد تولى «ماكس هوركهايمر» لرئاسة معهد فرانكفورت فى عام (١٩٣٠)، واستمرار ادارته له من منفاه فى فرنسا وكذلك الولايات المتحدة بعد عام (١٩٣٣) بمثابة عامل هام أدى إلى إحداث تغيير أساسى فى مدرسة فرانكفورت[١].

فلقد ناقش «هوركهايمر» طبيعة العلاقة بين الفرد والمجتمع، وذلك من خلال تحديده لمفهوم الجماعة الاجتماعية، ومن ثم أكد على أن هذه الجماعة إنما تعتبر بمثابة كل إجتماعى، وهكذا فان الفرد يتفاعل مع ذلك الكل الاجتماعى باعتباره جزاء منه. وإن تفاعله هذا مع الجماعة أو ذلك الكل إنما يعد أيضا خاصية أساسية من خصائص وجود الجماعة[٢].

ومن ناحية أخرى ففى مقال له بعنوان النظرية التقليدية والنقدية (١٩٣٧) أوضح هدف كل من العلم الوضعى أو البورجوازى وحدده فى المعرفة الخالصة وليس الفعل فى حين أكد على ضرورة قيام النظرية النقدية على الفعل أو «الممارسة» Praxis والنظر إلى المعرفة ليس باعتبارها بمثابة محصلة آلية، ولكنها تتطلب مقابلة النشاط مع الفكر. فبينما تؤكد النظرية التقليدية الوضعية على انفصال التفكير على الفعل، محاولة فى ذلك تأسيس السلطة على ملاحظة التخيل، وأيضا تدافع عن مناهج العلوم الطبيعية وعلى الأخص البيولوجيا من أجل استخدامها فى تحليل الظاهرة السوسيوثقافية، يرى «هوركهايمر» أن الفعل الصحيح يعنى ذلك الفعل المرتبط بالاهتمامات المتحررة، والتى تكون أيضا متميزة عن اهتمامات الجماعة أو الطبقة وكما تتميز من خلال عموميتها واعتمادها على الصدق[٣].

---

(١) د. عبد الباسط محمد عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى، فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦، ص ٣٠٠.

(٢) د. اسماعيل حسن عبد البارى، بناء المجتمع ونظمه، الطبعة الأولى ، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٣، ص ١١٥.

(3) Alan Swingewood, op.cit.,pp. 10 - 311.

علاوة على ذلك يؤكد على أن نظرية علم الإجتماع يجب أن تكون نقدية ولا تهتم بما هو ظاهر فقط ، ولكن عليها أن تكشف عن تلك العلاقات الخفية والكامنة بين الأشخاص من أعضاء المجتمع بعضهم وبعض، حتى تتمكن في النهاية من التعرف على مايكمن خلف هذه العلاقات وما تتضمنه تلك النظم الإجتماعية السائدة في المجتمع (١).

٣ - جورج لوكاش J. Lukacs :

تتشابه تلك الظروف والأوضاع الإجتماعية التى عاش فى ظلها مع «جرامسكى» ، فلقد عانى «لوكاش» كثيراً من الفقر والحرمان ، وذلك على الرغم من أنه كان يعيش فى عالم الوفرة ، وفى ألمانى قضى معظم سنوات حياته الأولى وبدأت تظهر دعوته الخلاقة للأوضاع الإجتماعية والإنسانية متأثراً فى إتجاهه الفكرى بصداقته « لجورج سيمل ، و ماكس فيبر » ، وأنه على الرغم من قراءاته الواسعة « للتصوف » أو المذهب الباطنى Mysticism و «فلسفة الحيوية Vitalistic إلا أنه قد هجرها ، وكان يدين بالفضل هو جماعته لما يعرف بالروح والثقافة (٢).

وكان « لوكاش » من أشهر المفكرين وعياً بالنظرية الماركسية، وقدم إسهامات فى مجالات متعددة منها الأدب، والفن، والفلسفة ثم السياسية والإجتماع، ومن بين أهم إسهاماته فى الماركسية المحدثة ما ظهر منها مباشرة بعد عام (١٩١٧) . ولقد شكلت كتاباته بعد الحرب العالمية الأولى إتجاهاً معادياً للوضعية ، متأثراً فى ذلك بأعمال « ريكرت وديلثى » وآخرين ، وعبر

---

(١) د. محمد على محمد ، تاريخ علم الإجتماع : الرواد والإتجاهات المعاصرة ، مرجع سابق، ص ٥٥٢.

(2) Lewis A. Coser, Marxist Thought in the First Quarter of the 20 the Century, A. J. S., Vol., 78 . No. 1, 1972, PP. 196 - 197.

عن نقده للماركسية والفكر البورجوازى فيما كتبه من مقالات (١٩١٨) وكذلك مع نشر مؤلفه : « التاريخ والوعى الطبقى » (١٩٢٣) [١].

كما وجه «لوكاش» إنتقاداً إلى إسهام « انجلز » فى الماركسية ، وذلك لأنه يرى أن انجلز عمل على تحويلها من الجدل إلى نظرية إجتماعية ذات طابع ميكانيكى ، والتى فيها يصبح الوعى بمثابة محصلة نهائية لتأثير القوى الخارجية ، ويعكس الشروط أو الظروف الموضوعية [٢]. مؤكداً فى ذلك على التمييز بين ما أطلق عليه بالوعى السيكولوجى الفعلى أو الممكن ، والوعى الرشيد أو العقلانى الذى ظهر فى إطار سيطرة الرأسمالية وترتب عليه تكوين رؤية شمولية بالعملية التاريخية وذلك من خلال مفهوم وعى طبقة البروليتاريا والذى ظهر فى أشكال عديدة ومتنوعة، وأصبح غير ثورى من ناحية، ومن ناحية أخرى لايعبر عن تلك النظرة الماركسية للتاريخ، وانتهى فى النهاية إلى التأكيد على وجود الوعى الفردى الذى يفسر فى ضوء الكل فقط وإنكار أى وعى واقعى أو سيكولوجى آخر [٣].

علاوة على ذلك نظر أيضاً إلى الماركسية التقليدية محاولاً ربطها بأصولها الهيجلية فى مفهوم الكلية والمنهج الجدلى حيث أن البديهيات الأساسية للمنهج الجدلى هى أن الكل يكون سابقاً على الأجزاء ، كما أن هذه الأجزاء لا تفسر إلا فى ضوء علاقتها بالكل ، وبالنسبة « للوكاش » كان يرى أن الكل أيضاً أسبق من عناصره أو أجزائه ، كما أن معنى الحقائق إنما يكمن أيضاً فى تأمل أو تفكير الكل ، ولذلك فإن معنى التاريخ أو الصدق لايكمن فى دراسة البناء الأمبيريقى والموضوعى للرأسمالية، ولكنه

---

(1) Alan Swingewood, Op. cit., PP. 201 - 202.

(2) Ibid., P. 202.

(٣) توم بوتومور ، نقد علم الإجتماع الماركسى ؛ مرجع سابق ، ص ص ٦١ ، ٦٧.

فيما يحرك الطبقة العاملة للتعبير عن ضروريات التقدم التاريخى ، ولذلك فإن معرفة جماعة البروليتاريا لذاتها ، ووعيها بوضعها فى البناء الإجتماعى وذلك باعتبارها طبقة مستغلة Exploited إنما يتوافق أو يتطابق مع المعرفة بالكل، حيث أنه يمكن بلورة وعيها بوضعها الطبقى وفهمه فقط من وجهة نظر المجتمع ككل أى من خلال العلاقات الإجتماعية، ونسق الإنتاج وهكذا فإن المعرفة بالواقع تتمثل فيما يلازم الوضع الطبقى للبروليتاريا .

وهكذا نظر « لوكاش » للماركسية على انها أيديولوجية دفاعية وليست نسق منظم للمعرفة يقوم على قوانين التاريخ الموضوعية ، وتطبيق المنهج العلمى ولكنها الفعل أو « الممارسة » Praxis التى فيها يصبح الفرد بمثابة ذات وليس كموضوع لعملية تاريخية . وبذلك يكون واضح أن مفهوم الكلية لديه لايكون أمبيريقياً ولكنه كمقولة تاريخية ، والتى فيها يكون الكل بمثابة تعبير مباشر عن العملية التاريخية، وتكون علاقة الأجزاء بالكل متناسقة هذا فضلاً على أنها جدلية [1] . حيث أنه لايمكن لنا فهم أى علاقة من جانب الفرد إلا فى ضوء علاقته بالجماعة أو الطبقة التى ينتمى إليها ككل، وفى ضوء علاقتها أيضاً بالمجتمع الذى توجد فيه، وجاء هذا التأكيد على الكليات الثقافية أيضاً عند « كيرت ليفين » فى علم النفس الجشطلت وكذلك من جانب المناهج الجدلية ، و «جولدمان» أيضاً فى تحليله لإنبثاق الصيغ أو الكليات الثقافية بعد إقامة أساس لعلاقة سوسيوإقتصادية [1] .

٤ - أنطونى جرامشى A. Gramisci :

يمكن وصف أعمال « جرامشى » على أنها أعظم النظريات الماركسية

---

(1) Alan Swingewood. Op. cit., PP. 203 - 205.

(2) Norman Birhnbaum, Op. cit., P. 133.

الأصيلة التى ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين ، ويأتى ذلك من خلال إهتمامه بمشاكل الثقافة وعلاقة الصيغ أو الأشكال الثقـ ـ بالبعد أو المجال السياسى. كما يشترك « جرامشى » مع « لوكاش » فى معارضة الوضعية ، وكذلك كل أشكال الحتمية والمادية فى الماركسية التقليدية وما تتضمنه من فلسفة للعمل أو الممارسة [١].

ولقد نظر « جرامشى » إلى مفهوم « التجانس » باعتباره يستخدم الآن على نطاق واسع فى العلوم الإجتماعية ، شأنه فى هذا شأن مفهوم الإغتراب، وكان يرى فيه تعبيراً عن إستقلالية المجتمع المدنى فى السماح بتكوين تنظيمات خاصة، وذلك فى مجال التعليم وفى الأحزاب السياسية، وإتحادات التجارة والجماعات الإجتماعية غير الرسمية والرسمية تلك التى تشكل أسلوباً للتوافق ، ومن ناحية أخرى نجد أنه قد استخدم مفهوم التجانس بطرق متعددة منها ما هو سياسى ، وثقافى . حيث يتضمن التجانس لديه معاً كل من الأجبار أو القهر المباشر ، وغير المباشر ، والوعى، وتلك الطرق التى من خلالها يحدث توافق وتكيف للعناصر فى ظل النظام القائم [٢].

وكذلك رفض « جرامشى » ثنائية أو إزدواجية الطبيعة والمجتمع، مؤكداً فى تناوله لهما ، على أن مقولة الطبيعة تكون ذاتها إجتماعية وتاريخية، حيث تكون العملية التاريخية ذات خصائص مميزة لها وأنها ليست ببساطة قوى إقتصادية ولكنها إرادة إنسانية طوعية ، تنتظم فى أشكال جمعية، وتصبح محركاً أو دافعاً لقوى الإقتصاد ، كما أن فى تفسيره للثورة أكد

---

(1) Alan Swingewood. Op. cit., PP. 207 - 209.

(2) Jack Lindsay, The Crisis in Marxism, New Jersey, Barnes & Noble Books; 1981, P. 4.

على العامل الثقافى ، ومن ثم يرى أن الثورة لاتكون مرحلة آلية أوتوماتيكية لقوى الإقتصاد الخارجية، ولكنها تكون نتيجة لتأكيد وتأسيس إحدى الطبقات للبعد الثقافى عبر كل الطبقات الأخرى. ومن ثم يكون التجانس الثقافى فى رأيه سابقاً لفعل الثورة ، وهكذا فإنه يخلق من خلال ذلك الفعل الجمعى الذى تعبر عنه أفعال الجماعة ككل؛ فالتجانس هنا إنما يحدث داخل المجتمع المدنى، وداخل تلك المنظمات والجماعات التى تتوسط بين الفرد والدولة (١).

علاوة على تلك فكان يرى أن الدولة إنما تعنى كلا من المجتمع المدنى والمجتمع السياسى ، حيث إن هناك تطابقاً بين المجتمع المدنى والدولة، وكان يبدى معارضة شديدة لإرجاع البناء الفوقى والثقافة للأساس الإقتصادى(٢). ولذلك لايمكن أن ننظر إلى الظروف الإقتصادية باعتبارها محدد نهائى للأوضاع الإنسانية حيث لا تنبع الأفكار تلقائياً من تلك الجوانب المادية مؤكداً فى ذلك على الدور الخلاق للأوضاع الفكرية ، وعلى إنجاز التحرر الثورى للبروليتاريا فقط من خلال إلتحام المفكرين ونشاطاتهم ، وكذلك الأعمال الطوعية والإرادة الخلاقة مع الطبقة العاملة التى يجب عليها قبل أن تحدد حجم قوتها أن تؤسس المطالبة بالقوة فى المجال السياسى والثقافى والأخلاقى وتطور خصائص ثقافية لها حددها فى التجانس (٣).

وفى هذا نجد أن استخدامه لمفهوم التجانس إنما يناقشه من منطلق فكرة تكامل الجماعات الإجتماعية . حيث أنه يرى التجانس كمركب فعال يفيد فى تماثل الجوانب الفكرية والسياسية ، والقيادة الأخلاقية . حيث يمكن

---

(1) Alan Swingewood, Op. cit., PP. 208 - 209.

(2) Jack Lindsay, Op. cit., P. 137.

(3) Lewis Acoser, Op. cit., PP. 194 - 195.

الجماعات أن تدافع عن مصالحها وذلك من خلال التوحد بينها وبين كل تلك الجماعات الأخرى حتى تنمو وتتطور الجماعة إلى طبقة إجتماعية متجانسة فيما بعد من خلال تمثيلها لكل القوى الشعبية.

كما يتضمن مفهوم التجانس لديه من ناحية ثالثة وجود علاقة ديمقراطية بين الحاكم والمحكوم ، ووجود تلك المنظمات التى تمكن الجماعات الخاضعة والمحكومة من الإرتباط بمصالحها والدفاع عنها وتبنى ثقافة متميزة لها . فالثورة لديه لاتكون فى الإنتقال إلى طبقة جديدة من خلال إحداث تحول فى القوى الإقتصادية والإستيلاء على أجهزة الدولة، ولكن ببساطة تكون ثورة البروليتاريا هى عملية مشاركة شعبية وجموعية Mass وتدريب لإرادة الجمع من خلال المشاركة الثقافية لتصبح بمثابة ذات نشطة وقوى متجانسة ، وهكذا يتسع أو ينمو المجتمع المدنى وكذلك مؤسساته الديمقراطية [1]. وفى النهاية يمكن لنا القول أن تأكيده على التجانس فيكل صوره وأشكاله ربما يأتى مما عانى منه فى طفولته من إحساس بالعزلة والإغتراب وما تعرض له من مصاعب.

وأخيراً يوضح « جرامشى» ما تقوم به العملية الفكرية من دور هام فى الربط بين الأساس الإقتصادى للبناء الطبقى مع المنظمات الثقافية الواسعة، وذلك من خلال أن كل جماعة إجتماعية إنما تأتى إلى الوجود على أرض جديدة ولوظيفة أساسية فى عالم الإنتاج الإقتصادى ، وتخلق وتعمل معاً من خلال إرتبطها مع ذاتها عضوياً وتكون ذات خاصية فكرية أو أكثر ، ومن ثم فإن الذى يمنحها التجانس ووعيها بوظيفتها لايكون فى الإقتصاد ، ولكن فى المجالات الإجتماعية والسياسية.

---

(1) Alan Swingewood, Op. cit., PP. 210 - 211.

وبهذا فإن نضال الطبقات الإجتماعية إنما يكون من أجل التجانس الذى يعمل على الإنتقال بذاتها من بناء غير متبلور أو ناضج إلى جماعة ذات وحدة أيديولوجية متجانسة، ولكن يجب على تلك الجماعة أن تستوعب أو تعى جيداً بتلك الأفكار التقليدية. لأنه يميز داخلها بين نوعين من الأفكار الثقافية أحدهما عضوى والآخر تقليدى حيث تنتمى الأولى – العضوية – إلى جماعات إجتماعية تهدف مباشرة إلى التوجه للمجتمع ككل وتظهر كنتيجة للتغيرات فى أسلوب الإنتاج فهى تعبر عن طموحات الطبقة دون أن تؤسس ذاتها كطبقة، وفى مقابل ذلك نجد تلك الأفكار التقليدية التى تظهر من خلال عملية الإستمرار التاريخى . فهى تحدد ذاتها من خلال الإعتماد على بعد الطبقة، وتربط بين الماضى والحاضر وذلك باعتباره عملية تاريخية مستمرة [١].

٥ – هربرت ماركيوز H. Marcuse :

يعد ذلك الفيلسوف الألمانى « هربرت ماركيوز » (*) من بين مؤسسى مدرسة فرانكفوورت للبحث الإجتماعى ، والتى تعرف بمدخلها الماركسى فى

(1) Ibid., PP. 213 - 214.

(*) على الرغم مما اتضح من خلال تناولنا للكتابات السوسيولوجية فيما أشارت إليه بعضها إلى محاولة تصنيفه ضمن أنصار اليسار الجديد والهيجليين الجدد فى حين أشار البعض الآخر منها أيضاً إلى تصنيفه ضمن إتباع مدرسة فرانكفورت ، ورغم ذلك الإختلاف إلا أننا نميل إلى هذا الرأى الأخير .

ولد « ماركيوز » فى ألمانيا وكان واحداً من بين أولئك الذين نزحوا إلى « سيوتزرلاند » Suitzerland ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام (١٩٣٦) ثم عمل محاضراً بجامعة كولومبيا وأصبح مواطناً فى الولايات المتحدة ، ونظراً لاتجاهه الماركسى وازدراء السلطة له اضطر إلى الرحيل لروسيا وكما حدث له فى أمريكا حدث كذلك فى روسيا حيث حكم عليه بالإدانة نظراً لاشتراكه فى بعض وكالات الإستخبارات المركزية واعتمدنا فى ذلك على :

Ibid., P. 179.

معالجة المشكلات الإجتماعية [1]. ويتحدد فكر « ماركيوز » فى بعض الجوانب أو العناصر الرئيسية منها نقده لتلك الأساليب الفكرية السائدة ، ثم نقده أيضاً للوضعية، ويتحدد أخيراً فى النقد الذى وجهه للمجتمع [2]. ثم حاول أن يعبر فى مؤلفه بعنوان « الإنسان ذو البعد الواحد » (١٩٦٤) عن تلك التناقضات السائدة فى المجتمع الرأسمالى وما يسوده من ظواهر القمع والتمرد، وبعض المشاكل المترتبة على التقدم الصناعى والتكنولوجى فى هذه المجتمعات الصناعية [3].

ذلك النظام الرأسمالى السائد فى المجتمعات الصناعية ذات التقدم التكنولوجى، ومن ثم وجد أنه يسعى نحو الضبط والسيطرة سواء كان ذلك فى المجال التنظيمى، أو فى مجال الحياة الإجتماعية بصفة عامة، فهو يعد وسيلة للضبط على حياة الأفراد وحقوقهم من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح مما يترتب على ذلك القضاء على كل الجوانب والقدرات الإبتكارية لدى الكائنات الإنسانية فى هذه المجتمعات.

كما أوضح عجز النظرية الماركسية عن تحليل وتفسير تلك النظم الإقتصادية الإمبريالية، وما ترتب على وجودها من تغيرات جعلت أفراد الطبقة العاملة يستشعرون بضرورة الحفاظ على ذلك الوضع الراهن من أجل البقاء على مصالحهم، حيث نبع ذلك أصلاً من تلك الأيديولوجية التى تبناها هذا النظام الرأسمالى وما تقدمه من تبريرات مقنعة جعلت الطبقة

---

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P. 179 .

(٢) د. أحمد زايد ، علم الإجتماع بين الإتجاهات الكلاسيكية والنقدية ، مرجع سابق ، ص٢٣٤

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى ، فى النظرية المعاصرة لعلم الإجتماع، مرجع سابق ، ص ٣٦٢.

العاملة تفقد دورها الثورى [1]. وعبر عن ذلك « ماركيوز » فى وصفه لسيطرة الأيديولوجية الرأسمالية ببعض المفاهيم السيكولوجية مثل مفهوم «القمع الفوقى أو القمع القائم من خلال تسامى النزوات» [2]. وبهذا يكون يكون « ماركيوز » قد حاول أن يقدم تحليلات متعمقة للمجتمع الذى يعيش فيه وكشف فيها عن الكثير من مثالبه وما يترتب عليه من شرور إجتماعية قد انتشرت فى مختلف الأنظمة السائدة فى المجتمع والتى يرى أنها تتساوى فى هذا مع غيرها السائدة فى تلك الدول الإشتراكية [3].

هكذا يبدو تشابه بين « ماركيوز » وبعض أنصار هذا الإتجاه فى التأكيد على فقدان طبقة البروليتاريا لدورها الثورى ، وتحويل الإهتمام إلى دور بعض الجماعات الأخرى. إلا أن « ماركيوز » قد حددها خاصة فى « الملونين والمتعطلين أو المضطهدين بصفة عامة » فى الوقت الذى يحددها البعض الآخر فى جماعات الفلاحين والمفكرين [4].

مناقشة وتعقيب :

أنه على الرغم مما أوضحته تلك الجماعات اليسارية الجديدة على المستوى المجتمعى بصفة عامة وعلى مستوى الجماعات الإجتماعية بصفة خاصة حول ما يتعلق بطبيعة العلاقة الإجتماعية بين جماعات الأغلبية من البيض وجماعات الأقلية من الزنوج وما تقوم عليه هذه العلاقة المتميزة من

---

(١) د. عبد الباسط عبد المعطى، **الإتجاه السوفيتى : قراءة نقدية فى علم الإجتماع**، مرجع سابق ، ص ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) جورج لاباسادر ، رينيه لورو ، مرجع سابق ، ص ص ٨٠ - ٨١.

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى، د. عادل مختار الهوارى ، **فى النظرية المعاصرة لعلم الإجتماع**، مرجع سابق ، ص ٣٦٢.

(٤) د. عبد الباسط عبد المعطى، **إتجاهات نظرية فى علم الإجتماع**، سلسلة عالم المعرفة، مرجع سابق ، ص ٢١٤.

أسس واضحة هذا من ناحية . كما أنه على الرغم مما أسهمت به تلك الجماعات اليسارية فى تكوين النواة الأولى للحركة الراديكالية الساعية نحو التغيير ومحاولة البحث عن واقع آخر جديد عبرت عنه فى شكل أهداف وقضايا أساسية طرحتها للمناقشة هذا من ناحية أخرى ، إلا أن هناك بعض المثالب التى تؤخذ على هذه الجماعات اليسارية.

وكان من بين تلك الأخطاء التى وقع فيها أعضاء هذه الجماعات وترتب عليها فشلهم فى تحقيق أهدافهم هى مشكلة التمركز ، والتى تبدو من خلال المقارنة بين الوسائل الإصلاحية التى تعرضها الإشتراكية بتلك الأخرى لليسار الجديد . حيث نجد أن الأخير إنما يتركز فى فترة الدعوة للإصلاح فقط على المناقشة والخطابات، كما أن تلك السياسات التى تقوم على المناقشات النظرية لدى هذه الجماعات اليسارية إنما عملت على ضعفها نظراً لحاجتها إلى الممارسة والخبرات العملية، وكذلك أيضاً تمركزت وسائلهم فى التعبير عن رفض الواقع فى التذمر والتظاهر والإحتجاج أو الإنعزال أحياناً أخرى، ولايمكن حل المشكلات وإصلاح النظم الإجتماعية أو استبدالها بأخرى من خلال العزلة، وبالتالى يمكن القول بأن خبرة اليسار الجديد كانت تتسم بالعوز والحاجه إلى الإكتمال فهى ولاتزال فى مراحلها الأولى للنمو . هذه الخبرة فى حاجة إلى برنامج متصل من التفكير والعمل ، والنظر للتنظيمات البيروقراطية ذات الحجم الكبير على أنها شبكة متصلة من العمل والنشاط الفكرى وليس على أنها تسلسل للأوامر[1].

كما أنه لم تكن ثمة علاقة قوية قائمة بين أفكارهم وممارساتهم لبعض الأنشطة المتصلة بنمط محدد من الموسيقى ، وإستخدام العقاقير المخدرة. حيث

---

(1) Mechael Rustin, Op. cit., P., P., 67 , 80.

أن ذلك لايعبر سوى عن أحاسيس فترة المراهقة فى حالة الإصابة بالملل واليأس من تغيير الواقع القائم والمحيط بهم. هذا من ناحية ، وكذلك نجد أن فى إستخدامهم لهذه العقاقير إنما يمثل فى حد ذاته تدمير لقوى المجتمع حتى وإن كانت طريقة إستخدامها ومغزاها من وجهة النظر الفردية تعبر عن حالة الرفض للواقع إلا أنها تمثل مصدراً للإضطرابات وإثارة المتاعب الشخصية هذا من ناحية أخرى.

وكذلك وكما عبر أنصار اليسار الجديد عن وسائلهم فى تحقيق أهدافهم فإنه يمكن القول أن الرغبة فى إقامة مجتمع آخر وتقديم نظم أخرى بديلة لاتنبع من مجرد تلك الإحتفالات التى تستخدم فيها الموسيقى الشعبية، وذلك لأنها تكون فى حد ذاتها بمثابة محاولة تتسم بالسعى نحو تحقيق أهداف شخصية ومزيد من المكاسب المادية ، الأمر الذى يكون واضحاً فيما يستخدمه بعض الفنانين لنوع معين من الأغانى [١]. وإلى جانب هذا قد انجذب اليسار الجديد نحو سياسات جديدة - الليبرالية - وفشل فى خلق أو تطوير فكرة ديمقراطية المشاركة وترجمتها إلى تصور فى شكل كيفى جديد لبناء المجتمع، كما أن دفاعه عنها لم يحتو على أساس سوسيوإقتصادى ملائم لنقد النظام الرأسمالى حيث انشغل أنصاره بالحديث عن حكم الصفوة وبلورة متاعب الأشخاص الخاضعين فقط، فى حين أنهم فشلوا فى الإشارة إلى أهمية تحليل وتفسير الحكم الطبقى [٢]. وفى تصورهم لمفهوم ديمقراطية المشاركة باعتباره يقوم لديهم على حكم القاعدة وليس صفوة القوة المسيطرة . إنما يعكس هذا إهتماماتهم الضيقة التى كانت أشبه بالفوضوية فى حالات التمرد والتظاهر وإفتقارهم آنذاك إلى التنظيم خاصة

---

(١) بوتومور ، **علم الإجتماع :منظور إجتماعى نقدى**، مرجع سابق ، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(2) Ronald Aronson & John C. Cowley, Op. cit., P. 44.

فى إعتقادهم بأن كل جماعات المجتمع سوف تشارك جميعاً فى إتخاذ القرارات. وذلك على إعتبار أن الناس سوف تستجيب لهذه المشاركة الديمقراطية وكأن هناك روح خفية تحركهم، ومن ثم نجد فى هذا ما يدلل على قصور تصورهم لمدلول ذلك المفهوم السياسى (١).

كما أنه على الرغم مما أسهمت به الحرب التى كانت قائمة بين أمريكا وفيتنام فى إثارة المشاعر النضالية لدى الجماعات اليسارية الرافضة لعملية الحروب والتسليح المعبرة عنها فى تظاهرها وتمردها ، إلا أن إستمرارية هذه الجماعات فى الوجود أو إنتهائها منه إنما يكون محكوماً بإنتهاء أو إستمرارية هذه الحرب باعتبارها عامل هام فى ذلك (٢).

وكذلك فإن تلك الإنتقادات التى وجهتها الجماعات الطلابية إلى البناء الجامعى ووظائفه إنما تكون فى ذاتها بمثابة عامل يؤدى إلى التقليل من دور الجامعات فى المجتمع . حيث أنه لايمكن تصور حدوث أى تطور مجتمعى بدون وجود لمثل هذه الجامعات التى تعمل على توجيهه فكرياً ومنهجياً . كما أنه إذا كان سخط هذه الجماعات الطلابية يكون بمثابة علامة مميزة لتمرد جيلى، ويعكس بعض التحولات أو التغيرات الرئيسية فى دور الطلاب وأعضاء الجامعات بالمجتمع المعاصر ، إلا أن فيها من ناحية أخرى ما يضفى على أنصار اليسار الجديد سمة الهامشية الذين لايملكون أى أمل واقعى لإحراز هذا التغيير الذى يرغبونه (٣).

---

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P. 181 .

(٢) بوتومور، علم الإجتماع: منظور إجتماعى نقدى ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

(3) Bogdan Denitgh , The New Left and the New Working Class, in : **Radical Sociology, Op. cit., P. 350.**

[illegible]
تأكيدهم كان على البناء الفوقى ، واهتموا بعملية [illegible] القوى من [illegible]
الجماعات الإجتماعية إلى غيرها دون أية محاولة من جانبهم لتوضيح ما
الذى يجب عمله فى هذا الشأن ، وبناء على ذلك يمكن القول بأن أنصار
اليسار الجديد إنما سعوا للتظاهر والمعارضة وتوجيه النقد لما هو قائم فقط
دون محاولة من جانبهم لتقديم البديل لما هو قائماً . لذلك كانت
الأيديولوجيات التى تبناها هؤلاء الأنصار تتسم بالغموض وعدم الوضوح،
وغير جديرة بالصدق أو المسئولية لما كانت تتضمنه من سلوك أو فعل سياسى
علنى [1].

وعلى الرغم من أن الجماعات الطلابية حاولت إيجاد نوع من الوحدة
بينها وبين غيرها من الجماعات الأخرى فى المجتمع مثال تلك النقابات
العمالية فى فرنسا ودول ألمانيا الغربية إلا أن نجاح تلك الحركات لم يستمر
كثيراً من ناحية ، كما أن ثمة إختلافات أساسية توجد بينهم من ناحية
أخرى تكمن فى أن عضوية جماعات الطلاب فى الدراسة الجامعية إنما
تكون مؤقتة حيث أنها ترتبط بتلك الفترة الدراسية فى الجامعة فقط. علاوة
على أن جماعات الطلاب ليسوا مثل جماعات العمال من حيث مدى
الظلم والإضطهاد الواقع عليهم فى المجتمع ، وإنخفاض ظروفهم المعيشية،
وطبيعة أعمالهم الصعبة التى يؤدونها كل ذلك لانجده عند جماعات
الطلاب، علاوة على أن الجماعات العمالية تشكل فى حد ذاتها تأثيراً قوياً
على جماعات السكان الأخرى فى المجتمع أكثر من جماعات الطلاب التى
تعتبر على المستوى المحلى جماعة أقلية [2].

---

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P.. P., 17 , 39 .

(٢) [illegible] . علم الإجتماع: منظور إجتماعى نقدى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥ ، ٥٥.

إنما هى فى حد ذاتها تتصف بالشيخوخة على حد تعبير البعض حيث لم يعد التظاهر والتمرد علامة للإحتجاج فى العصر الحديث حيث حل محله القانون والنظام ، وكذلك أيضاً لظهور بعض الإسهامات الأخرى التى شكلت فيما بينها ما يطلق عليه باسم علم الإجتماع النقدى وذلك قبل أن يأخذ اليسار الجديد فكراً إجتماعياً متميزاً [1]. وكذلك فإن ثمة إتفاق يسود بين الباحثين فى علم الإجتماع على أن اليسار الجديد - البريطانى والأوروبى - بصفة عامة كان يفتقر إلى تصور إستراتيجى واضح عن كيفية تحقيق الإشتراكية . حيث أن تلك الجماعات اليسارية إنما اقتصرت من جانبها على محاولة توجيه النقد الأخلاقى والفكرى للمجتمع مجرداً عن إطاره التاريخى والتى لايمكن للقيم الإجتماعية أن تتجسد إلا فى ضوئه [2].

وإلى جانب هذا فإنهم إتفقوا جميعاً على التطلع نحو الواقع الإجتماعى الآخر ذى الخصائص التى يرغبونها فيه، والتى يتمثل بعضها فى إتسامه بالمساواة والعلاقات الإجتماعية الشخصية، وإختفاء الملكية الخاصة حيث تحل محلها الملكية العامة ، وإلغاء العمل مقابل أجر . إلا أنهم من ناحية أخرى يختلفون حول نوع النظريات الإجتماعية التى توجه هذا التغير لديهم، فمن الصعوبة تحرير الناس والسعى نحو تحقيق كل ذلك دون محاولة تكوين ثقافة مضادة تحتوى على نظريات إجتماعية واضحة ، علاوة على أن رفضهم للنظريات السائدة كان قائماً على سعيهم نحو تبنى نظريات أخرى -

---

(١) د. حازم الببلاوى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٢) بيرى أندرسون ، مشاكل الإستراتيجية الإشتراكية ، مقال منشور بمجلة اليسار الجديد :نحو الإشتراكية ، ترجمة د. عبد الكريم أحمد ، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٥، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١.

الماركسية – لايعرفون عنها الكثير . وهذا موقف ينطوى بداخله على فجوة وتناقض واضح بين أهدافهم ومستوى نظرياتهم [1] .

علاوة على كل ما سبق نجد أن كلا من اليسار الجديد والماركسية المحدثة أو بعبارة أخرى تلك الإتجاهات النقدية فى النظرية السوسيولوجية إنما تشترك فيما بينها فى سعى أنصار الإتجاه الأول إلى توجيه النقد إلى الإتجاه المحافظ فى الفكر البورجوازى ، وتلك السياسات الخاصة بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً ، كما يشاركه فى ذلك أنصار الماركسية المحدثة أيضاً فى نقد تلك السياسات الإمبريالية وسعى الدول المتقدمة فى تكريس تخلف الدول النامية من العالم الثالث. هذا من ناحية ، وكما وجه أنصار اليسار الجديد نقداً للإتجاه المحافظ، وجه أنصار الماركسية المحدثة ، وكذلك أنصار مدرسة فرانكفورت للبحث الإجتماعى نقداً إلى نظرية « ماركس » وكذلك النظريات البورجوازية الغربية وأشكالها الوضعية، هذا من ناحية ثانية. وذلك فى الوقت الذى حاول فيه أنصار اليسار الجديد توجيه نقداً إلى الماركسية ذاتها . ومجمل القول سعت هذه الإتجاهات النقدية نحو رفض الواقع الإجتماعى القائم بكل بوسائلهم المعبرة عن ذلك، مع محاولة تقديمهم البديل له . الذى انحصر عند أنصار اليسار الجديد فى التغيير السلمى بينما جاء عن طريق التغيير الجذرى الشامل كما عبر عنه أنصار الماركسية المحدثة ومدرسة فرانكفورت أو الإتجاه النقدى فى علم الإجتماع [2] .

وعلى أية حال تحدد تلك الإتجاهات النقدية خصائص لهذا المجتمع الذى كانوا يتطلعون إليه منها أن يكون المحدد الإجتماعى للعمل فيه ليس إحتياجات الرأسمالية الإحتكارية بل الحاجات الإجتماعية ، وكذلك أن يقوم

---

(١) د. سمير نعيم أحمد ، مرجع سابق ، ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣.
(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٧١ – ٢٧٢.

تنظيم هذا المجتمع على اللامركزية فى إتخاذ القرارات ومحاولة الإعتماد على مناقشتها بين كل جماعاته المكونة له . وإحلال التماسك والمودة . "التعاون محل السيطرة الإقتصادية والثقافية والسيادة السياسية، ومحاولة التحرر من كل هذه الأخيرة، كما يعد القضاء على كل أشكال الملكية الخاصة وإحلال الملكية العامة بدلاً منها وظهور بعض أنماط الجماعات الإجتماعية المختلفة كماً وكيفاً مثال الأسرة الممتدة والكميونات، وذلك بديلاً عن الأسرة النواة والفردية وما يترتب عليها من ظواهر كلها فردية [1].

كما أنه على الرغم من تلك الإسهامات الأساسية التى قدمها أنصار مدرسة فرانكفورت للبحث الإجتماعى وخاصة فيما يتعلق بتلك المفهومات الأساسية فى علم الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى ، وذلك كمفهوم الفرد والجماعة والمجتمع وتأكيدهم على عدم وجود مجتمع أو فرد مطلق وذلك نظراً لما بينهما من علاقة تفاعلية متبادلة وأن لكل منهما وجود واقعى حيث أنه يجب النظر إلى الفرد من خلال إدراك حريته فى القدرة على التعبير عن رأيه فى إطار مجتمع إنسانى عادل من ناحية، ومن ناحية أخرى حاول أنصار هذه المدرسة تقديم تفسير لظهور الجماعات الاجتماعية غير الرسمية فى تلك المجتمعات الرأسمالية والمتقدمة صناعياً بصفة خاصة، وفى كل المجتمعات عامة، وذلك باعتبارها تمثل مظهراً من مظاهر الإستجابة النقدية لتلك الضغوط وكل أشكال القهر التى يمارسها المجتمع الجماهيرى وأصبحت تسيطر عليه العلاقات الرسمية [2].

وعلى الرغم من ذلك كله إلا أن هناك بعض نقاط الضعف التى تؤخذ على أنصار الإتجاه النقدى منها إذا نظرنا إلى « جرامشى » نجده لم يبلور

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٠.

(٢) د. محمد على محمد ، **تاريخ علم الإجتماع :الرواد والإتجاهات المعاصرة**، مرجع سابق، ص ٥٥١.

تلك الفكرة المتعلقة بالمبدأ أو المنهج الجدلي ولم يحاول توضيح قيمتها في محاولة بحث وتتابع معين للأحداث، وإن كل ما قدمه هو عبارة عن صياغة لبعض الإنتقادات التي كان أكثرها عامة حول نقطة محددة هي أن علم الإجتماع لم يقدم أي قوانين أصيلة بل كان هدفه الرئيسي هو وصفه وتعريفه للماركسية على أنها نظرة فلسفية للعالم [(١)].

كذلك من خلال النظر إلى إسهامات « لوكاش » نجده في فكرة الوعي إنما يقيم مقابلة مفروضة بين الوعي السيكولوجي للبروليتاريا ووعيها الطبقي[(٢)]، وكذلك أيضاً عندما تحول من « ماركس » إلى « هيجل » مزج هيجل باسميه « ماكس فيبر » وبطريقة توفيقية، وبنى فكره عن الطبقات الإجتماعية وخاصة طبقة البروليتاريا على نظرية ميتافيزيقية وضعت أمامه كثير من الصعوبات. هذا إلى جانب أن الطبقات الإجتماعية من حيث تحديد المفهوم، كان لدى عدد كبير من أنصار الماركسية المحدثة بمثابة ظواهر إجتماعية كلية، وليست مجموعات وسن النماذج المتماثلة أو الفئات الإجتماعية، أو تلك الجمعيات الإختيارية ، وأخيراً مجرد تنظيمات [(٣)] وكذلك يمكن النظر إلى « لوكاش » باعتباره من أنصار الوعي الشامل والمغلق والمعزول، وذلك مما يتعارض تماماً مع تلك الواقعية المتضمنة في المادية الجدلية، ومع تعريف الطبقة على أنها موضوع كلي وإشاراته إلى نية الوعي. ولذلك فإنه يجهل نظرية الوعي والإتفاق الجمعي عند دوركايم [(٤)].

---

(١) توم بوتومور، **نقد علم الإجتماعي الماركسي** ، مرجع سابق ، ص ٦٩.

(٢) جورج جورفيتش ، **الطبقات الإجتماعية**، ترجمة أحمد رضا ، د. عز الدين فوده، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ ، ص ٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٩٣ – ٩٧.

(٤) المرجع السابق ، ص ٩٠.

علاوة على كل هذه الإنتقادات السابقة أيضاً، يوجه البعض الآخر إنتقادات إلى « هربرت ماركيوز » في نقده للمجتمعات الصناعية ذات النظام الرأسمالي المتقدم على أنه لم يقدم أو يقترح بديلاً للنسق القائم الذى نظر إليه على أنه غير عقلي، ومقيد للجوانب والقدرات الإنسانية. كما أكد على تناقض موقفه النظرى « سيدنى هوك Sidney Hook » وخاصة في تفسيره لوجهة نظره في الفلسفة الماركسية وقوله بأنها ديمقراطية فاشلة ويعتقد بأنه يجب إرغام الناس ليكونوا أو يصبحوا أقوياء ومتآلفين مع بعضهما البعض أيضاً(١).

وأخيراً يرى بعض الباحثين أيضاً أن تحليل « ماركيوز » للعلاقة بين البورجوازية والبروليتاريا تحليل يفتقد إلى الدقة والعمق التاريخي، وذلك لأن جوهر العلاقة بين هاتين الطبقتين لم يتغير ... كما أن « ماركيوز » لم يضع فكرته الأساسية الخاصة بقبول العمال في إتجاه وحيد في الإعتبار عند تفسير العلاقة بين هاتين الطبقتين. فالعمال مازالوا خاضعين ، وكل ما حولهم يعمل على تزييف وعيهم، سواء من خلال الثقافة، أو من خلال العلم الإجتماعى (٢).

---

(1) AU. S. News & World Report Book, Op. cit., P., P. 179, 181 .

(٢) د. عبد الباسط عبد المعطى، الإتجاه السوفيتى: قراءة نقدية فى علم الإجتماع، مرجع سابق، ص ١٣٥.

الفصل الثالث عشر
الاتجاه الراديكالى

تمهيد .

اولا : اهمية الخيال السوسيولوجى .

ثانيا : العلاقة بين الخيال السوسيولوجى والاتجاه الامبريقى .

ثالثا : كيفية دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجى .

رابعا : الخيال السوسيولوجى وتحليل المشاكل الاجتماعية .

خامسا : الخيال السوسيولوجى والنظرة الشمولية .



الفصل الثالث عشر

الاتجاه الراديكالى

وأهم من يميز هذ الاتجاه عالم الاجتماع الامريكى الشهير س . رايت ميلز .

س . رايت ميلز

تمهيد :

تشارلز رايت ميلز من أبرز علماء الاجتماع الامريكيين المعاصرين فى تيار النقد الاجتماعى . ولعل نقطة البدء فى فكر ميلز هى أن مهمة عالم الاجتماع ومسئوليته الأساسية تتمثل فى دراسة مشكلات العصر الحديث وهى تدهور الحياة الاجتماعية وكيف أصبح الانسان المعاصر مكروها على أن يحياها داخل أكثر المجتمعات خاصة تلك التى تتميز بالتقدم على المستوى الصناعى وأكثرها رفاهية من الناحية الاقتصادية . ويرى ميلز أن ظاهرة عدم الاكتراث واللامبالاة خاصة السياسية وشعور الفرد بعدم الارتياح وبالاغتراب من عمله بل عن حياته ونفسه – ماهى الا مظاهر لهذا التدهور فى توعية حياة الانسان بالاضافة يؤكد ميلز أن لعلاقات الاجتماعية والسلوكية تتميز بالتعقيد والتداخل لدرجة أنه من الممكن دراسة مجتمع قومى بمعزل عن ظروف العصر وظروف العلاقات الدولية . كذلك لايمكن دراسة المشاكل الشخصية بمعزل عن ظروف العصر وظروف العلاقات الدولية . كذلك لايمكن دراسة المشاكل الشخصية بمعزل عن الأوضاع البنائية والتاريخية للمجتمع .

ولهذا يقدم لنا ميلز فكرة الخيال السوسيولوجى كاطارا تصورى واداة تحليلية لمحاولة ادراك البناء الاجتماعى باعتباره حقيقة تاريخية مركبة

قائمة بذاتها يمكن تقسيمها الى انساق فرعية تدرس فى علاقاتها بالسياق البنائى الكلى / ويرى ميلز أن الباحث السوسيولوجى ماهو الا جزءا من المجتمع الذى يدرسه ، ذلك لأن حياته لاتنفصل عن موضوع بحثه ، ومن ثم فهو يحتاج الى الخيال السوسيولوجى لكى يتفهم حياته من خلال الظروف الاجتماعية المحيطة به ، وهى كذلك يستعين به من أجل ادراك المعنى الحقيقى للمشاكل والظواهر محل تفكيره كباحث فى علم الاجتماع .

على أية حال سوف تناقش فكر ميلز من خلال :

أولا – أهمية الخيال السوسيولوجى .

ثانيا – العلاقة بين الخيال السوسيولوجى والاتجاه الامبريقى .

ثالثا – كيفية دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجى .

رابعا – الخيال السوسيولوجى وتحليل المشاكل الاجتماعية .

خامسا – الخيال السوسيولوجى والنظرة الشمولية .

أولا : أهمية الخيال السوسيولوجى :

يرى ميلز أن العلوم الاجتماعية هى الآن القاسم المشترك الأعظم لعصرنا الثقافى ، وأن التصور السوسيولوجى قد أصبح من أهم ما يحتاج اليه العلماء ، ويذهب ميلز أن العلوم الاجتماعية الجهود المبذولة فى هذا المجال اتجهت الى ثلاثة مجالات رئيسية :

أ- الاتجاه الأول وهو الذى يحاول بناء نظرية تاريخ الانسان ككل ويضرب ميلز أمثلة لذلك من كتابات أوجست كونت ، ماركس سبنسر ، وماركس فيبر . فالكتابات الأولى فى علم الاجتماع ماهى الا نوع من المعرفة الشاملة التى تستهدف دراسة الحياة الاجتماعية للانسانية فى

عمومها . ويرى ميلز أن هذا الاتجاه يتميز بمنهجية خاصة بالاضافة الى موقفه التاريخي حيث ينشر التوصل الى تحديد مراحل تطور الانسان وحياته الاجتماعية اعتماد على البيانات التاريخية وينتقد ميلز هذا الاتجاه لمحاولته التنبؤ بمستقبل الانسان خاصة والحالة التى سوف تكون عليها الانسانية عامة .

ب - أما الاتجاه الثانى ، فهو الذى يهدف الى بناء نظرية منهجية تدور حول طبيعة الانسان والمجتمع . ويبدو هذا الاتجاه - كما لاحظ ميلز في كتابات علماء الاجتماع الالمان النظريين خاصة كتابات زيميل ، وتونيز ، والفكرة الأساسية التى يدور حولها هذا الاتجاه ، تقديم تصور مجرد وثابت لمكتبات البناء الاجتماعى . ويرى ميلز أن هذا الاتجاه غال في مجتمع تعقد الاتجاه السابق .

ج - والاتجاه الثالث فهو الذى يهدف الى دراسة الوقائع والمشاكل الاجتماعية المعقدة دراسة امبريقية من خلال النظر الى علم الاجتماع على أنه دراسة لقطاعات معينة من المجتمع وينتقد ميلز هذا الاتجاه بقوله أنه يتدهور فى بعض الأحيان الى الحد الذى يصبح فيه نوعا من تجميع الوقائع التى لاتصلها أية صلة .

ويضيف ميلز أن انجازات علم الاجتماع وخاصة فى امريكا استمدت أصولها من تلك الاتجاهات الثلاثة ، كما أن المشاكل التى يعانى منها علم الاجتماع المعاصر انما تعدد الى ما حدث من اعتراف فى تلك الاتجاهات الثلاثة الأساسية .

ويدعو ميلز الى أن هدف الدراسة الاجتماعية هو تفهم الحقيقة الاجتماعية وليس تفسرها فحسب ، وهذا ما دعا ميلز الى تأكيد أهمية الخيال السوسيولوجي والذى يقصد به تلك القدرة على ادراك الانسان

داخل المجتمع باعتباره كيان واحد يتكون من عنصرين : الفرد والمجتمع اللذين ينقصدان الا بعملية تجريدية من أجل التحليل والبحث ولكنها فى الحقيقة منقصدان فالحيال السوسيولوجى ، اذن ، يساعد الباحث على تفهم الواقع الذى يتناوله بالدراسة . فى حين أن التفهم العلمى للظاهرة الاجتماعية يمكنه من التعبير عنه باللغة العلمية التى تمكن الباحث من نقل تجربته العلمية الى زملاءه فى شكل رموز علمية لها دلالات معترف بها عالميا .

ويؤكد ميلز فى أكثر من موضع فى كتابه الخيال السوسيولوجى الى ضرورة الافادة من هذا الخيال واثرائه . فالخيال السوسيولوجى يمكننا من الالمام بالتاريخ وسير الحياة والصداقة بينهما داخل المجتمع . ويرى ميلز أن محاكاة العلوم الطبيعية قد حجب الرؤية عن كثير من الأمور والمصادر الهامة التى كان يمكن أن تثرى العلم الاجتماعى لو أن الباحثين اهتموا بها ونظروا اليها .

فالخيال السوسيولوجى عند ميلز اذن هو أداة من أدوات الخيال النظرى تنمى بالممارسة لدى الباحث قدرة خاصة على استخلاص المبدأ العام من جملة الملاحظات والدراسات الأمبريقية .. وهذا هو أول خطوة نحو احياء بناء نظرى يفسر الواقع الاجتماعى الملموس .

ويذهب ميلز الى أكثر من هذا ، فالخيال السوسيولوجى ليس فقط أدلة صورية تفيد الباحث المتخصص وحدة بل هو أيضا سلاحا يعين المواطن العادى على النظرة الشمولية التى تمكنه من أن يدرك شخصيته باعتباره فردا فى طبقة اجتماعية لأن هذا الشعور بالأنتماء الطبقى أصبح — فى عصر الوحدات الاقتصادية والسياسية الكبرى — هو وسيلة الفرد وفرصته وأن يتحول الى قوة اجتماعية مؤثرة ولها وزنها فى عملية

اتخاذ القرار .

هكذا تطورت وظيفة الخيال السوسيولوجى عند ميلز من مجرد كونها أداة تحليلية الى أن تصبح وسيلة العقل فى اتخاذ القرار الرشيد فيما يتعلق بشئون الانسان . فالفرد فى نظر ميلز ليس مجرد نتاج اجتماعى دائما هو صانع المستقبل والتاريخ . والخيال السوسيولوجى لذلك هو وسيلة الفرد للتثقيف الذاتى الذى تتيح للفرد أن يملك مقدرات حياته ويكون وعيه الحقيقى .

ثانيا – العلاقة بين الخيال السوسيولوجى والاتجاه الامبريقى :

عندما يفسر عالم الاجتماع الواقع الاجتماعى فانه يعتمد فى ذلك على نظرية سوسيولوجية تستمد مقوماتها من نتائج الدراسات الامبريقية لهذا الواقع الذى يتضمن بدوره كل النتاج الفكرى للانسان من قواعد للتنظيم ونظم ثقافية تعكس صور هذا الواقع فى مخيلة الباحث .

والخيال السوسيولوجى عند ميلز أكثر الأشكال ادراك الذات خصوبة ، ذلك لأنه يعبر عن قدرة الفرد على ادراك موقعه ووضعه فى السياق التاريخى خلال الفترة الزمنية التى يعيشها . فالخيال السوسيولوجى يمكن الباحث من ادراك أعمق وأشمل للواقع .

ويؤكد ميلز أن الخيال السوسيولوجى يمثل ضرورة ملحة فى المجتمع المعاصر الذى يتغير بالتغير السريع ، ذلك لأن الفرد يشعر بالغربة وسط مجتمع يغير من عليه اتجاهات معينة من السلوك ، وحيث يمد نفسه حتمية لاطماع الآخرين ، ولهذا يلجأ الانسان الى اللامبالاة ويقف من المجتمع موقف المتفرج ، وليضرب لنا مثالا على ذلك ، حلل ميلز المجتمع الأمريكى الحديث وتعرض لتوضيح مظاهر الضعف فى هذا

المجتمع الذى أخذ يؤكد على الثروة كأساس للسلطة والقوة . ويحاول ميلز من دراسته للمجتمع الأمريكى الذى انتشرت فيه ظاهرة اللامبالاة وانتشارا واسعا أن يبلور تصور معين عنه وعن مهمة علم الاجتماع ودور الدارسين فى العلوم الاجتماعية .

ويرى ميلز أن هناك ارتباط بين التقدم التكنولوجى فى هذا المجتمع الى جانب ارتباطه بالكثير من المشاكل الاجتماعية بمظاهرة اغتراب الفرد عن عمله ولا مبالاته فى الأمور التى تعرض عليه دون أن يحاول أن يغير من الواقع شيئا .ولهذا كان علم الاجتماع الأمريكى ، فى نظر ميلز ، يؤكد على قيمة التوافق والتوازن بتفادى ما يمكن أن يترتب على تزمر الفرد من مشكلات اجتماعية . ويلاحظ ميلز أن أساليب العقلانية التى ارتبطت بهذا التقدم التكنولوجى تحاول عبثا أن تؤكد للفرد حريته وممارسته لحياة ديمقراطية حرة ولكنها فى الحقيقة تجعله دائما يشعر بأنه محاصر بقوى هائلة تكاد تسحقه وتحدد له كل شيء . هذا كله أدى الى عزوف الفرد عن ممارسة حياته بحرية بل استسلم لهذا النمط من الحياة وزصبح غريبا عن ذاته وعن المجتمع . وفى مواجهة تلك الأزمة حاول علم الاجتماع الأمريكى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية والبيولوجية التى حققت نجاحا ملحوظا فى مجالاتها خاصة فى أساليب البحث الامبريقى تقول حاول علم الاجتماع الامريكى اتصال مناهج هذه العلوم فى مجال الدراسة فى علم الاجتماع .

ويفسر لنا ميلز أزمة المجتمع الغربى بأنها راجعة الى التصورات الخاطئة للمفهوم السوسيولوجى . فالمفهوم السوسيولوجى – كما يراه ميلز « يجب أن يكون فكرة ذات مضمون امبيريقى » . والمشكلة تقع اذا كان المضمون أكبر من الفكرة اعترف علم الاجتماع أى التيار

الأمبيريقى، أما اذا كانت الفكرة اوسع من المضمون فان علم الاجتماع يقع فى شرك النظريات الكبرى المجردة .

ويتنقد ميلز كلا الاتجاهين – التجريدى – الأمبيريقى – من ناحية كذلك ينتقد النظريات الكبرى من ناحية اخرى . فالاتجاه الأول التجديد الامبريقى يستهدف الوصول الى نظرية سوسيولوجية تقوم أساسا على تراكم النتائج المستنبطة من الدراسة الواقعية لموضوعات مختارة . ولكن هذا الاتجاه يمثل معادلة لدراسة الظاهرة بمعزل عن بقية أجزاء النسق الاجتماعى أو دراسة الظاهرة الاجتماعية على أساس أجزاء تصور المجتمع كنسق مترابط ، بالاضافة فان هذا الاتجاه لاينطلق من أى نظرية وانما يبدأ بالاستقرار الدقيق للواقع ليتوصل فى النهاية الى بناء نظرى . ولهذا يذهب ميلز أن هذا الاتجاه يعنى بالمنهج أكثر من اهتمامه بالموضوع . ويرى ميلز أنه بسبب افتقار هذا الاتجاه الى البناء النظرى جعل علم الاجتماع فى خدمة المؤسسات المالية وأفقدة موضوعية واستقلاله وأصبح بهذا أداة لتبرير الأمر الواقع ووسيلة التعهد وتدعيما للأيديولوجية السائدة والمسيطر فى المجتمع .

وفى مقابل هذا الاتجاه نجد أصحاب النظريات الكبرى يحاولون الابتعاد عن الواقع والبحث فى أمور مجردة وعامة بدلا من البحث فى المشكلات الاجتماعية داخل سياقها البنائى والتاريخى ويرى ميلز أنه غاب عن أصحاب هذا الاتجاه أن الغرض من تعريف المفهوم السوسيولوجى هو اكتشاف جوانب الواقع وليس وضع مفاهيم ذات قوالب بعيدة عن الواقع. أو بعبارة أخرى ربط النظرية بالواقع بحيث تؤدى البحث الامبريقى من النظرية ويثريها فى نفس الوقت .

هكذا يرى ميلز أن الاتجاه الأمبريقى يفرق ما بالمناقضات ويحاول

اخضاع الحقيقة الاجتماعية للمعالجة العملية والاحصائية ويحدد المشاكل الاجتماعية عن صفها السوسيولوجية ويفسرها بعوامل سيكولوجية بعيدا عن الأبعاد البنائية والتاريخية كما ان النظريات الكبرى تدير ظهرها للواقع وتحلق فى عالم الأفكار المجردة محاولة صياغة بناء نظرى يصلح لكل المجتمعات وفى كل العصور فى الوقت الذى تهمل البد التاريخى فتعجز عن فهم حركة التاريخ .

اذا كان كل من الاتجاهين عاجز عن التوعية الحقيقية للمجتمع . فكيف اذن يمكن دارسة المجتم . هنا يقرر ميلز أن دارس علم الاجتماع يجب أن يتسلح بما أسماه الخيال السوسيولوجى كأداة ممكنة من ادراك أبعاد المشكلة الاجتماعية التى تظهر بوضوح فى اغتراب الفرد عن ذاته وعمله ومحيطه الاجتماعى وشعوره بالضياع وسط قوى اجتماعية تحاول توجيهه وفقا لاراداتها .ومصلحتها . ان للخيال السوسيولوجى فى نظر ميلز دورا هاما فى ادراك أن الفرد جزء من المجتمع والمجتمع جزء من التاريخ أى ادراك الفرد من خلال دوره فى البناء الاجتماعى وادراك البناء الاجتماعى من خلال موقعه من التاريخ .

كما أن الخيال السوسيولوجى ، فى رأى ميلز ، يحول دون تقوقع الفرد داخل نفسه أو انغلاقه داخل تجربته الخاصة ، بل يتيح له فرصة أوسع ليمارس دوره فى توجيهه مجريات الأمور . فالخيال السوسيولوجى يصل ما بين الفرد والمجتمع ولايعزل أحدهما عن الآخر وهو أيضا أداة تعين الباحث على دراسة المشاكل الاجتماعية فى المجتمع الحديث على أنها مشاكل بنائية وليست مشاكل فردية ، أى تناول المشاكل على مستوى النظم الاجتماعية مراعى المستوى السيكولوجى . والخيال السيوسيولوجى بالاضافة من الأداة القصيرة للتغلب على مشكلة

الاغتراب وان الفرد يستطيع أن بذلك ذلل باعتباره جزءا من كيان كلى أكبر من البناء الاجتماعى أولا ثم التاريخ ثانيا . والخيال السوسيولوجى فوق كل هذا هو الدعامة الأساسية للديمقراطية لأن الفهم هو أدل خطوات التغيير الواعى لمجريات الأمور . ويلاحظ أن ميلز كان مهتما بالدور الذى تلعبه الرادة الحرة فى عمليات التغير الاجتماعى . هكذا نرى بسهولة أن فكرة الخيال السوسيولوجى وكانتها بما بالنظرية المعاصرة مرتبط ارتباطا وثيقا بموقف الامبريقية فى علم الاجتماع .

ثالثا – كيفية دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجى :

تتميز دراسة المجتمع من خلال الخيال السوسيولوجى بأنها تدور حول ثلاث موضوعات :

١– طبيعة البناء الاجتماعى ومكوناته وشكل الترابط بين أجزائه .

٢– مكان المجتمع – محل الدراسة – من التاريخ الانسانى ومعنى وجوده بالنسبة بتطور الانسانية .

٣– طبيعة نماذج الرجال والنساء ومعنى كل سمة من سمات المجتمع بالنسبة للطبيعة البشرية .

ويرى ميلز أن هذه الموضوعات بمثابة المحاور الكلاسيكية لدراسة الفرد داخل المجتمع والأسئلة التى يثيرها الأهمية الذى يتمتع بالخيال السوسيولوجى ، فالخيال السوسيولوجى اذن هو تلك القدرة على ادراك الشخص لنفسه باعتباره جزء من المجتمع العالمى وليس باعتباره فقط عضوا فى أسرة محددة وان اتسع نطاقها ، أو فى مجتمع هو بالنسبة للمجتمع العالمى جزء من كل ، وبالتالى يترتب على ادراك الفرد لذاته وللعالم ، باعتبارهما مدركا واحدا ، ان يتضاءل التناقض بين مصالح

الفرد وأهداف المجتمع العالمى .

وهنا يرى ميلز أهمية وجود علم اجتماع جديد هو « علم اجتماع الوحدات الكبرى » هذا العلم الجديد هو محاولة أو جهد منظم لاقامة علم اجتماع يهتم بدراسة الوحدات الكبرى . ولاتعبر هذه المحاولة عن تحيز سياسى معين كما أنها ليست فكر الفرد بالتراث أو لجماعة بعينها ، وانما علم اجتماع الوحدات الكبرى هو علم اجتماع عام يخضع للنقد والتقنين ويتقبل كل اصلاح وتجديد . ويرى ميلز أن هذا العلم الجديد ماهو الا استمرار للتقليد العقلى فى علم الاجتماع فى مواجهة الاتجاه الاكاديمى الضيق النطاق .

ومن أهم الوسائل السوسيولوجية التى ينتجها الخيال السوسيولوجى للباحث من دراسة المجتمع ، هو التميز بين المشاكل الفردية التى ترجع أسبابها الى البيئة وبين المشاكل العامة التى ترجع أسبابها الى البناء الاجتماعى . فالمشاكل الفردية تنشأ من التعارض القائم بين الفرد باعتباره وجودا بيولوجيا وبين هدف البيئة المحيطة به أى بين ارادته الفردية ومطالبة الشخصية وبين الأهداف التى يضعها المجتمع له ويفرض عليه السعى لبلوغها فى المشاكل العامة فتلك التى تنم عن الطريقة التى تتفاعل بها البيئات المختلفة والنظم داخل البناء الاجتماعى .

والحق أن ميلز عالج أزمة علم الاجتماع الأمريكى فى الكثير من أعماله وبين افتقاد العلماء للخيال السوسيولوجى الذى يعتبر ضروريا لفهم الحقيقة من الداخل كذلك فقد عبر ميلز عن رأيه بضرورة التزام العلم الاجتماعى باسهام فى رسم السياسة الموجهة للمجتمع وذلك فى دراسته عن الخيال السوسيولوجى حيث صرح بأسفه لافتقار علم الاجتماع كان نظرة قد فشل فى الدفاع عن قضايا الحق وترشيد الحياة

الاجتماعية على الرغم من أن أغلب الأبحاث السوسيولوجية تؤكد تعرض الحياة العقلانية للعديد من المخاطر فى العالم الجديد . والحق أن الدعوة التى أقلقها ميلز وغيره والتى تدور حول ضرورة التزام العلوم الاجتماعية بقضايا المجتمع - أثارت هذه الدعوة الكثير من النقاش والحوار بين الباحثين فى علم الاجتماع فعلم الاجتماع يجب أن يكون موجها فى ابحاثه لخدمة المجتمع والعمل على تقدمه ومواجهة مشاكله .

رابعا - الخيال السوسيولوجى وتحليل المشاكل الاجتماعية :

بين ميلز أن الخيال السوسيولوجى يمنح من يتمتع به القدرة على استيعاب المشهد التاريخى العريض بالرجوع الى معناه بالنسبة لحياة الفرد الشخصية وكذلك بالنسبة للحياة العملية لمجموعة معينة من الأفراد فيكون الخيال السوسيولوجى بذلك من القدرة على ادراك علاقة الخاص بالعام . ذلك إنه من المشاهد أن هناك تغيرا ملموسا فى نوعية المشاكل التى أصبح يعانى منها المجتمع الصناعى الحديث حيث انتقل نطاقها من المجال الاقتصادى - نظرا لارتفاع مستوى المعيشة فى المجتمعات الصناعية - الى مجال شعور الفرد الداخلى والخطوة هنا تكمن ، كما يرى ميلز ، الى أن الفرد العادى لايملك بمفرده أن يقدم حلا لهذه المشاكل،حقيقة يعانى الفرد من هذه المشاكل ولكنه لايعيها بوصفها مشاكل اجتماعية . اذ يرجعها الى مشاكل شخصية متعلقة بعجزه هو شخصيا عن التوافق مع هذه الظروف المتغير .

ويقول ميلز «وعلى ذلك فان الناس لايقدمون بتوصيف المشكلات التى يعانونها بالرجوع الى التغير الاجتماعى وتضارب النظم فيما بينها ، فهم لايملكون القدرة الذهنية للازمة لادراك التأثير المتبادل القائم بين الفرد والمجتمع وبين السيرة الذاتية والتاريخ بين المرء والعالم » ويرى ميلز

أن للفرد بعض العذر فى ذلك لأنه لايملك بمفرده دفعا لمخطط التجهل الذى ترسمه مراكز القوى فى ذلك المجتمع الرأسمالى الصناعى وتستخدم فى تنفيذه كل وسائل الاتصال الجماهيرى بالتى تروج بالتفسيرات السيكولوجية للمشاكل الاجتماعية التى من شأنها ان تجعل الفرد يعتبر نفسه مسئولا عن فشله وعن شعوره بالاغتراب لذاك يقول ميلز :« انه أصبح من واجب عالم الاجتماع السياسى والفكرى أن يوضح عناصر الشعور المعاصر بعدم الارتياح وبالمبالاه ، وهذا الواجب من ما يدعو للاعتقاد فى أن العلوم الاجتماعية فى سبيلها وأن تصبح القاسم المشترك الأعظم لنظرنا الثقافى . والخيال السوسيولوجى فى سبيله لأن يصبح أهم القدرات الذهنية التى نحتاجها » .

ويتيح الخيال السوسيولوجى للباحث الاجتماعى فى دراسة المشاكل الاجتماعية معيار يميز به المشكلة الاجتماعية بالنظر الى ارتباطها بالنسق القيمى فى المجتمع . خاصة وان تغير نوعية المشاكل الاجتماعية جعل الخلط بين الظاهرة الاجتماعية والظاهرة السيكولوجية شيئا ممكنا . فالقلق ، وهو من الموضوعات التى يهتم بدراستها علم النفس ، أصبح ظاهرة اجتماعية تميز المجتمع الصناعى الحديث . ويقول ميلز : « المشكلة الفردية موضوع خاص فهى تنجم عن أن الخيال السوسيولوجى ، اذن يتيح للباحث الاجتماعى أن يفهم المشكلة الاجتماعية من الداخل » أذ أنه يتيح له أن ينطلق من المشكلة يربطها بشكل البناء الاجتماعى وبظروف العصر والمشكلات المحيطة بالمجتمع والفرد ، أى يتيح له أن يتفهم المشكلة من موقعه كمواطن يعانى فيها على ضوء أسبابها وأبعادها الحقيقية ثم يتيح له أن ينظر الى المشكلة بعد ذلك « من أعلى » فتبدو فى مقايسها الفعلية على ضوء الظروف العالمية والظروف الاجتماعية .

خامسا – الخيال السوسيولوجى والنظرة الشمولية :

الخيال السوسيولوجى هو اذن القدرة على ادراك البناء الاجتماعى باعتباره حقيقة تاريخية قائمة بذاتها . وادراك الظاهرة الاجماعية – باعتبارها جزء من هذا البناء – ينبغى تفهمه فى اطار سياقه البنائى التريخى الذى لاينفصل عنه ، ذلك أن ظروف العصر أصبحت تجعل الباحث الاجتماعى يستشعر حاجة ماسة الى النظرة الشمولية التى تقوم الرؤية المتكاملة . « أن الكثير مما كان يعتبر علما أصبح اليوم مجرد فلسفة تحتمل الخطأ والكثير مما يعتبر علما أصبح يشعر المرء بأنه يحصل على أجزاء غير واضحة فحسب من الحقيقة التى يعيشها الناس .

ذلك أن التقدم الباهر الذى حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية منذ مطلع القرن العشرين أصبح يخلق مشكلات من نوع جديد، فهو يحارب الفقر والجهل والمرض . وفى الوقت نفسه يتهدد البشرية بأسرها بالدمار بما استحدثه من أسلحة ذرية شديدة الفتك . وفى هذا يقول ميلز :« خلال العصر الحديث كانت العلوم الطبيعية والبيولوجية تمثل القاسم المشترك الأعظم لأى تفكير جاد ميتافيزيقا تلقى شعبية فى المجتمعات الغربية – فكان أسلوب المعمل هو أسلوب المعالجة الذى يحظى بالقبول وكان يعتبر مصدر الزمان الذهنى . ولكن التفوق الركيز والمخاطرات على العلوم الطبيعية – التى وصلن الى ذروتها – فى شكل القنبلة الهيدروجينية ووسائل نقلها عبر الأرض – لاتقدم حلا لأى مشكلة معروفة أى كان مدافعا .. فقد أثارت من المشاكل الفكرية والأخلاقية أكثر مما حلت .. والمشاكل التى أثارت تدخل بأكملها تقريبا فى نطاق المسائل الاجتماعية لا المسائل الطبيعية .. والآن أصبح العلم يبدو وكأنه قد فقد توازنه » .

الفصل الرابع عشــر

الديموقراطية،التصنيع،والنظرية السوسيولوجية

المار كسية والتصنيع والديموقراطية .

نظرية مجتمع ما بعد الصناعة .

مشكلات الشرعية .

النظرية والمجتمع الصناعى : التقاء وتقارب أم تنوع وتباعد .

الفصل الرابع عشر

الديموقراطية، التصنيع، والنظرية السوسيولوجية

رأينا فيما سبق، كيف تحددت النشأة الأولى لعلم الاجتماع فى إطار من فلسفة القرن الثامن عشر والاقتصاد السياسى والتاريخ الثقافى، ورأينا كيف اشتملت النظرية الاجتماعية فى القرن الثامن عشر على منظور طوعى إرادى ـ عند ڤيكو مثلا ـ جنباً إلى جنب مع منظور نسقى حتمى ـ عند مونتسيكيو. لذلك ظل التعارض بين هذين المدخلين لدراسة المجتمع الإنسانى مسيطراً على التطور اللاحق لكل من الوضعية السوسيولوچية والماركسية. واتضح لنا أيضاً أنه على الرغم من إسهامات ڤيكو ومونتسيكيو وفيرجسون وميلار فى وضع أسس النظرية الاجتماعية، إلا أن أعمالهم لم تكن لتشكل علم اجتماع، حيث ظلت العلاقة التاريخية والسوسيولوچية المعقدة بين الفعل والبناء دون تنظير: إذ لم يتكامل مفهوم فيرجسون للنتائج غير المقصودة للفعل الإنسانى مع فكرة المجتمع كنسق. ويأتى ماركس ليطور هذه الأفكار المتناقضة فى ثنائية النسق الرأسمالى الذى انتظم فى قوانين موضوعية للتغير، وتنظيم الطبقة الذى انتظم فى الشعور والوعى الجمعى والتنظيم السياسى. كذلك تصور معاصرو ماركس ـ كونت وسبنسر ـ المجتمع ككل عضوى يتحدد بناؤه بواسطة قوانين خاصة للنمو بينما يبقى عنصر الفعل خاضعاً للنسق وللكل.

ولقد أدرك كل من كونت وماركس وسبنسر مفهوم المجتمع كنسق دينامى ينمو تاريخياً وبطريقة حتمية تجاه بناءات صناعية معقدة. وعلى الرغم من التباين والاختلاف الحاد بين ما قدمه هؤلاء الكتاب من تحليلات للمجتمع الرأسمالى الحديث، إلا أنهم أجمعوا فيما بينهم على قضية واحدة ومشتركة، هى أن المجتمع الصناعى يشكل نمطاً جديداً للتنظيم الاجتماعى الذى ينهض على أساس تمييز الدولة عن المجتمع المدنى. لقد ساعدت النزعة الصناعية على انتشار وتوسع مؤسسات ونظم المجتمع الصناعى، وقدمت نتيجة لذلك إطاراً يمكن الأفراد، باعتبارهم أعضاء فى تجمعات اجتماعية مختلفة (ارتبطت بالتعليم والاتصال والتنظيم السياسى واتحادات العمال والمهن.. الخ)

من تغيير المجتمع. ومع ذلك كان علماء الاجتماع الأوائل على شك فى أمر المجتمع البورجوازى، ولذلك طور علم الاجتماع الكلاسيكى نظرية متشائمة عن الثقافة البورجوازية، وذلك من خلال ماقدمه من أفكار وقضايا حول الاغتراب والحضرية واللامعيارية والعقلانية والبيروقراطية والتشييء والآلية... الخ. ومن هنا كان دوركايم وتونييز وفيبر وزيمل أكثر اهتماماً بتدهور وانهيار النظم الاجتماعية التقليدية والقديمة حال ظهور المجتمع الصناعى والدينامى والديموقراطى الحديث. ولذلك بدت عمليات التصنيع كما لو كانت تؤدى إلى ثقافة معادية وكارهة للقيم الإنسانية. وكانت أعمال ماكس فيبر فى علم الاجتماع من أكثر الأعمال قدرة على إبراز هذه التناقضات والتوترات، حيث نجح فيبر فى تحليل التغير الاجتماعى فى ضوء البناء الموضوعى، وفى حدود الفعل الإنسانى الذاتى معاً، ومع ذلك نراه يخلص من تحليلاته إلى نتيجة مماثلة مفادها أن مصير الإنسانية يتجه حتماً نحو زيادة التحول البيروقراطى وسيطرة «الصفوات» المتخصصة.

الماركسية والتصنيع والديموقراطية:

ارتبط تاريخ علم الاجتماع وتاريخ الماركسية بكل هذه التطورات، فعلى مدار قرن من الزمان، انشغل علم الاجتماع الأوروبى بخلافه مع الماركسية التى أثارت وبالتحديد مشكلات البناءات الديموقراطية داخل إطار النزعة الصناعية المتقدمة. وكانت تشاؤمية علم الاجتماع الكلاسيكى نابعة فى الأصل من فشله فى إدراك وفهم الطاقات الديموقراطية العديدة التى أطلقها النظام الرأسمالى عبر تطوره التاريخى. وقد يقال أن علم الاجتماع الكلاسيكى كان يفتقر إلى المعنى الديالكتيكى للتغير التاريخى، ذلك لأنه رد التعقيد البنائى للتكوين الاجتماعى وبصراحة إلى عملية عامة أو إلى تاريخ عالمى متصور وذلك على نحو أكثر تجريداً، مثال ذلك التحول البيروقراطى للثقافة والتشيئ والاجماع أو الاتفاق الوظيفى والمجتمع الجماهيرى والثقافة الجماهيرية... الخ.

إن ما حدث فى علم الاجتماع، حدث أيضاً بالنسبة للماركسية. ففى بعض كتاباته أكد ماركس الدور الإيجابى والخلاق الذى تلعبه الذات الإنسانية (من خلال الممارسة العملية) فى تشكيل المجتمع الاشتراكى اللامركزى المفتوح. ومع ذلك، ذهب الفكر الماركسى بعيداً عن هذه المفاهيم التحررية

متجهاً إلى نظرية حتمية واقتصادية للتغير التاريخي فيها لا يكون للفعل الإنساني أى معنى إلا فى حدود النظام الاجتماعى العام الذى بدأ ينمو فى «رحم» المجتمع القديم. ومن هنا ردت كل النظم الاجتماعية والتغير الاجتماعى والثقافة إلى النسق الاقتصادى المسيطر. وبالمثل تحولت كل الذوات الإنسانية إلى موضوعات وأشياء سلبية. وأسلمت النزعة الجمعية الكامنة فى الماركسية، من حيث إطارها التصورى وأيديولوچيتها السياسية، إلى نوع من الجمعية الصفوية التطورية وغير الديموقراطية سيطرت على الديموقراطية الاجتماعية الألمانية، ممثلة فى نظرية الحزب المركزى عند لينين والأيديولوچية الشمولية الاستبدادية عند ستالين. وكان المحور الأساسى الذى ارتكزت عليه الماركسية ممثلا فى أيديولوچية القطع والقرار النهائي Finalization (فالتاريخ ليس له إلا معنى واحداً ومحدوداً) وفى أوامر سياسية جمعية (حيث يتعين على الطبقة الصاعدة أن تنظم المجتمع ككل من الداخل فى ضوء مصالحها الخاصة). وكانت المشكلة التى واجهت الماركسية أن هذا القطع والقرارات الماركسية النهائية سياسيًا واجتماعيًا كانت متعارضة ومناقضة للمنطق التاريخي للنزعة الصناعية الرأسمالية. ذلك أن المجتمعات الصناعية الحديثة كانت أبعد ما تكون انتظاماً حول مركز واحد مسيطر، بل طورت باستمرار بناءات اجتماعية مفتوحة ولا مركزية. وعلى الصعيد السياسى أسلمت الماركسية إلى إلغاء المجتمع المدنى كقوة إيجابية حية تنهض على أساس المؤسسات والنظم الديمقوقراطية. وبوجه عام، فإن الاتجاهات الماركسية فى القرن العشرين ـ ممثلة فى شكلها «الإنسانى» الذى انبثق عن الاهتمام بقضايا الاغتراب وإهدار إنسانية الذات، وفى شكلها «العلمى» الذى ارتبط بالبنيوية ـ عملت فى مجموعها على الإساءة والإقلال من شأن قدرة الذات الإنسانية على فهم حتمية التغير الديموقراطى الجمعى «من القاعدة» أو على إضفاء الطابع الإنسانى والديموقراطى على هذه العملية. وهكذا كان مفهوم الماركسية «كأيديولوچية قاطعة ونهائية» بالنسبة للذات وللبناء معاً متضمناً فى شكلى الماركسية: الإنسانى والعلمى.

ومع ذلك، فإن هناك اختلافًا كبيراً بين تشاؤمية علم الاجتماع الكلاسيكى وبين «قطعية» النظرية الماركسية. فقد وصف تونييز وفيبر وزيمل المجتمع الصناعى الحديث فى حدود سلبية، ولكنهم أدركوا فى نفس الوقت

الإمكانات الكامنة داخل إطار التطور الصناعي. وعلى العكس من الماركسية، أكد علم الاجتماع الكلاسيكي على تناقض المجتمع الحديث : بين بناءاته المفتوحة - الحراك الاجتماعي، العلاقات الطبقية، التحول نحو الديموقراطية، تزايد الأساليب الاتصالية الحوارية... الخ - جنبًا إلى جنب مع الاتجاه نحو الأنساق المغلقة - عقلانية الثقافة، التشيؤ الافتقار إلى روابط المجتمع المحلي. لقد مثلت هذه العناصر المتناقضة فى وقت واحد. ففى أمريكا، جذب تشارلز كولى Charles cooley الانتباه إلى المغزى البنائي للجماعات الأولية فى المجتمع الصناعي، كما أشار إلى أنه وإن كانت المجتمعات تنتظم حول الجماعات الأولية حتى أنها غالباً ما تكون مستبدة فى إخضاعها للفرد إلى المعايير الجمعية، إلا أن التصنيع والتحول نحو الديموقراطية كانتا من العوامل التى أوجدت الظروف الملائمة للوعى الحر، ومكنت الفرد من أن يصبح عضواً عقلانياً فعالا بدلا من أن يكون أداة طيعة عمياء للكل الاجتماعي (Cooley. 1956,p. 116)

ويتميز المجتمع الحديث فى نظر كولى بأنه مجتمع لا مركزى يتكون من نسيج معقد من جماعات أولية داخل مجتمعات محلية متميزة وقد ساعد هذا البناء الأفراد على أن يخلقوا لأنفسهم ولاءات وأيديولوجيات مختلفة غير أن تفاؤلية كولى كانت معارضة تماماً لتطور علم الاجتماع الكلاسيكى فى مدرسة شيكاجو للدراسات الحضرية. فقد فسر روبرت بارك R. Park وزملاؤه - متأثراً بزيمل - تطور النزعة الصناعية بطريقة سلبية، ووصف المجتمع فى حالة من الفوضى والاضطراب الأيكولوچى، كما وصفت المدينة الحديثة كموطن للعزلة الإنسانية، تدهور فيه المجتمع المحلى تحت تأثير الضغط السكانى والثقافة الجماهيرية. وقد شارك علماء الاجتماع الأمريكان بعد ذلك - باستثناء تالكوت بارسونز - فى هذه النظرة القاتمة للثقافة الصناعية الحديثة. ويعتبر س رايت ميلز C.Wright Mills واحداً من أكبر علماء الاجتماع الأمريكان تأييداً لهذا الموقف النظرى المتشائم. لقد أنجز ميلز (١٩١٦ - ١٩٦٢) سلسلة من الدراسات العامة - مثل «الياقة البيضاء» "The White Collar" (١٩٥٢) و«صفوة القوة» "The Power Elite" (١٩٥٦) - وصف فيها المجتمع الأمريكى فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية على أنه مجتمع يفتقر إلى وجود الطبقة الوسطى المستقلة، وإلى الروابط القديمة للمجتمع المحلى. وإلى المجتمع

المدنى القوى. ويشكل المجتمع الأمريكى الحديث مجتمعًا جماهيريًا «ذريًا» مفتتًا، تسير على نظمه ومؤسساته وثقافته أيديولوچية وقيم وعسكرية ذات طابع تجارى غالب، كمركب صناعى يعمل على تحقيق تكامل الأفراد فى نسق بيروقراطى وبطريقة سلبية بحتة. وبعيداً عن محاولة التوسع فى النظم والمؤسسات الديموقراطية والشعبية، انتجت الرأسمالية الصناعية مجتمعاً تسيطر عليه جماعات الصفوة فى مجالات الصناعة والثقافة والسياسة، ونظراً لتمركز القوة فى أيدى جماعات الصفوة لم يعد لجماهير الشعب مجالا لممارسة أى تأثير يذكر فى توجيه الحياة العامة (Mills, 1965, pp. 30-120).

وعلى أية حال، كانت النتائج التى خلص إليها ميلز حول التحول الحتمى للمجتمع الأمريكى نحو الشمولية الاستبدادية Totalitarianism قريبة الشبه بقضية هربرت ماركيوز Herbert Marcuse (١٩٦٨ ـ ١٩٧٨) التى قدمها فى مؤلفه «الإنسان ذو البعد الواحد» One Diamentional Man وكشف فيها عن تحول المجتمعات الصناعية الحديثة نحو نظم الإدارة الشاملة. غير أن أهم ما توصف به هذه النزعة التشاؤمية هى، أنها كانت غير محكمة من الناحية التاريخية، وغير ناضجة من الناحية السوسيولوجية. لقد عمل كل من ميلز وماركيوز ـ تماماً مثلما فعلت مدرسة فرانكفورت ـ على تجريد اتجاه واحد فقط داخل التكوين أو الهيكل الاجتماعىّ، وتصوروا أنه يشكل المبدأ الأساسى والمسيطر ـ أى مركز النسق ـ على منطق التطور الاجتماعى. غير أنه من الملاحظ فى اعتقادى أن منطق النزعة الصناعية يعمل على تدعيم قوة الدولة من خلال زيادة المركزية البيروقراطية، كما يحرص على تقوية وتعزيز النظم والمؤسسات المستقلة التى يختص بها المجتمع المدنى فى نفس الوقت. وفى الوقت الذى وضع فيه علم الاجتماع الكلاسيكى الأسس الى ينهض عليها فهم هذه العملية المعقدة ـ وبخاصة المشكلات المرتبطة بالذات والأيديولوچية والوعى ـ فشلت الماركسية وفشل معها علم الاجتماع المتأثر بها فى تطوير أفكار مثل هذه.

ويؤكد علماء الاجتماع الأمريكان المعاصرون الذين انتقدوا قضية المجتمع الجماهيرى ـ مثل دانيال بل Danial Bell وإدوارد شيلز Edward Shils ـ من جديد مدى التعقيد الذى يكشف عنه المجتمع والثقافة الصناعية، حتى أنه على الرغم من استمرار وجود اللامساواة فى الدخل والمكانة والقوة، إلا أنه لا يزال

هناك إحساس قوى بالارتباط بالمجتمع ككل. إن المجتمع الصناعى، على حد تعبير بل وشيلز، ليس مجتمعًا جماهيريًا كما يتصور البعض، ولكنه مجتمع انتظم فى مؤسسات ونظم تعددية وعمليات ديموقراطية. كما أن المجتمع المحلى لا يزال باقيا فى نظرهما حتى فى هذا العصر الصناعى. لقد كانت نظرية المجتمع الجماهيرى وحدها هى التى انفردت، من بين نظريات الوحدات الكبرى الثلاثة التى سيطرت على تطور علم الاجتماع منذ العشرينيات ـ الماركسية والوظيفية والمجتمع الجماهيرى ـ بالنظرة إلى الوراء فى الماضى السحيق، عندما كانت استقلالية الفرد والمجتمع المحلى تمثل قوى فعالة وإيجابية. لذلك نجد شيلز على العكس مما ذهبت إليه نظرية المجتمع الجماهيرى يأخذ بفكرة المجتمع الذى يقوم على الإجماع وعلى حكومة وإدارة مركزية، إلى جانب الجماعات الضاغطة المستقلة التى تمثل المصالح المختلفة والمتعارضة أحيانًا. وفى هذا الصدد يذكر شيلز:

«وتستطيع هذه النظم والمؤسسات أن توجد وأن تبقى لأن هناك إجماعًا واسع النطاق ـ وبخاصة بين أكثر أعضاء «المجتمع إيجابية وفعالية ـ يمنحها شرعية الوجود، ولأن هناك اجماعًا أكثر عمومية واتساعًا من جانب الأفراد الأقل فعالية يفرض قيودًا معينة على أولئك الأكثر إيجابية وفعالية. فى حين ينمو الإجماع بعيدا عن أى ارتباط بالمركز أو بالنسق النظامى والقيمى للمجتمع » (Shils, 1972).

وهكذا، نجد أنه رغم اعتراف شيلز بأهمية المجتمع المدنى وإمكانية تطوير الأشكال الديموقراطية الشعبية، إلا أنه يتابع الوظيفية والماركسية فى الإقلال من قيمة وأهمية القيم والثقافة المعاصرة وذلك لصالح كل من الفرد والمجتمع. ومن ثم، تصور المجتمع كما لو كان منتظمًا حول محور مركزى للقيم، وعرف العمليات الديموقراطية فى حدود صنع القرار بطريقة مركزية.

وكما سبق أن أوضحت فى نهاية الفصل الثامن، غدت الوظيفية نظرية مسيطرة على ساحة علم الاجتماع الغربى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة، وبالمثل غدت الماركسية أيديولوجية استهلكت فكريًا وأصبحت ذات قيمة سوسيولوچية مشكوك فيها. ومن ثم، غدت نظرية المجتمع الجماهيرى البديل اللازم لكل من الماركسية والوظيفية. ومع ذلك، وعلى الرغم مما كان

لنظرية المجتمع الجماهيرى من تأثير وانتشار فى فترة الخمسينيات وأوائل فترة الستينيات، إلا أنها أصبحت على مرّ الأيام نظرية هامشية بالنسبة لعلم الاجتماع. وظهرت فى المقابل نظريات جديدة عن المجتمع والثقافة الصناعية، كان من أكثرها أهمية نظرية ما بعد المجتمع الصناعى.

نظرية مجتمع ما بعد الصناعة:

خلال فترة الخمسينيات من هذا القرن أجمع بعض علماء الاجتماع المبرزين ـ من أمثال دنيال بل Daniel Bell وليبست S.M. Lipset وريموند آرون Remond Aron ورالف داهرندورف Ralf Dohrendorf على معارضة ما اعتبروه تحيزاً استاتيكياً وغير تاريخى فى النظرية الوظيفية، وتاريخية أيديولوچية بالية فى النظرية الماركسية، وقدموا فى معارضتهم هذا مفهوم «ما بعد النزعة الصناعية» Post-industrialism (من الملاحظ أن المصطلح المستخدم لوصف هذا المفهوم اختلف من عالم لآخر، مثال ذلك «مجتمع ما بعد الرأسمالية» و«مجتمع ما بعد البورجوازية» و« المجتمع التقنى» و«مجتمع المعرفة» وهكذا. ولكن مع هذا الاختلاف إلا أن هناك تصوراً أساسياً يكمن وراء استخدام هذه المصطلحات يتمثل فى أولوية التكنولوچيا والعلم والثقافة على الملكية الخاصة وتقسيمات الطبقة) . وطبقاً لهذه النظرية يتعارض مجتمع ما بعد الصناعة، مع المجتمع الرأسمالى فى القرن التاسع عشر، ومع المجتمع الصناعى فى القرن العشرين، وذلك فى حدود تحول البناء الاجتماعى: حيث يشكل مجتمع ما بعد الصناعة هيكلا اجتماعياً فيه فقدت الملكية الخاصة ومصالح الطبقة والصراع الطبقى ما كان لها من مركزية، كمبادئ محورية. وفى الوقت الذى انتظم فيه البناء الاجتماعى للمجتمع الصناعى والرأسمالى حول محور الملكية الخاصة، انتظم البناء الاجتماعى لمجتمع ما بعد الصناعة حول محور «المعرفة النظرية» . وفى مؤلفه «مجتمع ما بعد الصناعة» The Coming Post-industrial Society (١٩٧٣)، ذهب «بل» إلى أن «المبدأ المنشط» Energising Principle فى المجتمع الحديث سيتمركز بدرجة أكبر حول النظم والمؤسسات التعليمية والعلمية والحكومية. ولذلك سيحل العلماء والاقتصاديون والمهندسون محل مؤسسات الأعمال والمشروعات التقليدية. كما ستحل الجامعة محل مشروع العمل فى كونها مصدراً للتجديد والابتكار ولاتخاذ القرار.

وتنهض قضية «بل» الأساسية على تصوره بأن المجتمع الحديث ينتظم فى ثلاثة مجالات مستقلة، ولكنها مترابطة فيما بينها، هى الاقتصاد والسياسة والثقافة. أما السياسة فتنظم توزيع القوة والمصالح المختلفة فى المجتمع، فيما تمثل الثقافة مجال تحقيق الذات، فتشيد المعانى من خلال القدرة التعبيرية للفن والطقوس. هذا فى الوقت الذى يرتبط فيه المجال الاقتصادى بالبناء الاجتماعى. ويرى «بل» أن هذه المجالات الثلاثة تحكمها مجموعة من المبادئ المحورية المختلفة: كمبدأ تحقيق الذات فى المجال الثقافى، ومبدأ المساواة فى المجال السياسى، ومبدأ الكفاية فى المجال الاقصادى. ومن هنا، لا ينتظم المجتمع ككل حول مبدأ مسيطر واحد، كما أنه لا يتكامل فى نسق واحد بعينه، إذ أن هناك دائماً انفصالا بين المجالات المختلفة. فقد ترفض الثقافة مثلا الاعتراف بالمبدأ المحورى للكفاية والرشادة الاقتصادية من أجل تدعيم مبدأ اللذة اللاعقلانى فى عملية التحديث التى ترفض النظم والمؤسسات التقليدية أو الراهنة. وبالمثل قد تتحدد المشكلة المحورية فى المجال السياسى فى تلك العلاقة القائمة بين البيروقراطية والرغبة فى المشاركة الشعبية. وهكذا يتحدد لكل مجال منطقه الداخلى الخاص وطبيعته المختلفة. فالتنبؤ والتكهن فى المجالين الثقافى والسياسى يكونان بوجه عام عملية تتوقف على الصدفة البحتة، ولذلك كان تأكيد «بل» مركزاً بصفة خاصة على المجال الاقتصادى فقط. وفى هذا الصدد كتب يقول:

«ليس مفهوم مجتمع ما بعد الصناعة صورة لنظام اجتماعى كامل، بل يعكس محاولة لوصف وتفسير التغير المحورى فى البناء الاجتماعى للمجتمع (محدداً بصفة خاصة فى الاقتصاد والتكنولوجيا ونسق التدرج الطبقى). غير أن هذا التغير لا يتضمن أى حتمية بين البناء الأساسى والبناء الفوقى... بل يعنى فقط أن المجتمعات المختلفة التى دخلت مرحلة ما بعد الصناعة سيكون لها تكويناتها وهياكلها الثقافية والسياسية المختلفة». (Bell, 1976, p. 119)

وككل القضايا المرتبطة بـ «مرحلة ما بعد الرأسمالية»، يفترض مفهوم «مجتمع ما بعد الصناعة» عند «بل» تدهور وانهيار العمل اليدوى، فى مقابل النمو السريع والمتزايد لأعمال الياقة البيضاء وصناعة الخدمات وجماعات المهن الفنية العليا، وزيادة الإنفاق على التعليم الجامعى والعالى وعلى مجالات البحث والتنمية. كما يعنى فى نفس الوقت أنه ما أن يتحول المجتمع من حالة يخضع

فيها كلية لعملية انتاج السلع إلى حالة أخرى تسيطر عليها عملية انتاج المعرفة النظرية، فإن ثمة بناءاً اجتماعياً جديداً سيظهر إلى حيز الوجود. ففى المجتمعات الحديثة تسيطر النظرية على الأمبريقية فى مجال الدراسات العلمية والاقتصادية ودراسات الحاسب الآلى. ومن ثم، تصبح الغلبة للعلماء والرياضيين وخبراء الحاسب الآلى والمنظرين الاقتصاديين، ليشكلوا فى نهاية الأمر ما أسماه «بل» بـ «طبقة المعرفة» Knowledge Class المتميزة. كما تشكل طبقة المهن الفنية العليا «قلب» أو مركز مجتمع ما بعد الصناعة، لأنها تجسد معايير الاستجابة الاجتماعية للمجتمع المحلى، تلك المعايير التى تشتق من أخلاقيات المهنة أو الخدمة. ويترتب على ذلك أن لا يجد دافع المصلحة أو المنفعة مكاناً له فى الجامعات ومراكز ومؤسسات البحث النامية، بل سرعان ما تعمل الطبقة العلمية والمهنية العليا على تشبع المجتمع بما تدعمه من قيم مهنية. وفى هذا الصدد، ميز «بل» وضعه عن وضع الكتاب الأوائل، مثل سان سيمون، وذلك بأن عرف هذه الطبقة الجديدة بأنها تتكون من أولئك الذين يحاولون تطبيق معرفتهم لتنظيم المجتمع ككل، وأن هذه الطبقة لا تمثل طبقة التكنوقراط التى تمارس القوة، بل طبقة تكنوقراط جديدة لإنتاج قيم ومبادئ جديدة للتنظيم.

وعلى الرغم من مبالغته فى تقدير أهمية استقلالية المعرفة النظرية، إلا أن «بل» قدم فى دراساته العديد من التغيرات الجذرية التى مرت بها المجتمعات الصناعية الحديثة. ففى كثير من المجتمعات الصناعية الحديثة، نجد أن نسبة ما يخصص من إجمالى الناتج القومى للدراسات العلمية البحتة (من أجل العلم فقط) مثلا أقل بكثير من تلك التى توجه للبحث العلمى التطبيقى فى مجالات قائمة بالفعل. وعلى هذا الأساس لم يكن «بل» يعنى أن تكون المعرفة النظرية هى العامل المسيطر الذى يوجه البحث والتطور، بل تمثلت قضيته الأساسية فى أن المهنيين ذوى التوجيه والأساس العلمى والذين ينتجون قيماً خاصة بمهنهم وتوجيهاتهم العلمية (وبخاصة تلك القيم العامة التى تخدم المجتمع المحلى دون اهتمام بمنفعة أو مصلحة بعينها)، سيجدون من الصعوبة بمكان أن يدعموا النظرة القائلة بانشغال المفكرين الأكاديميين بمشروعات الدفاع الحكومى أو بمسائل السياسات الأجنبية. وأكثر من ذلك، يفترض تصور «مجتمع ما بعد الصناعة» أن قوى السوق سوف تختفى تماماً كمحور للتنظيم أو التغيير. ومع ذلك نجد أن «النزعة أو الاتجاه المالى» Monetarism

والذى كان من أبرز إسهامات النظرية الاقتصادية البحتة فى القرن العشرين، يركز على مركزية قوى السوق فى تشكيل النظام الديموقراطى، كما يركز فى نفس الوقت على عدم ملاءمة الحكومة والسلطة والبيروقراطية المركزية لأن تنشغل بالإدارة الاقتصادية.

حقًا، أكدت الكثير من الانتقادات التى وجهت إلى نظرية مجتمع ما بعد الصناعة من استمرار وجود عدم المساواة الطبقية، والصراع الطبقى، وتركيز الموارد الاقتصادية فى أيدى قلة من الأفراد، والطبيعة غير الماهرة لأعمال الياقة البيضاء، والاتجاه نحو «حرفانية كل الأعمال والمهن» وبالتالى نحو تمييع معيار «الاحتراف المهنى» ذاته. ومع ذلك، فإن أكثر جوانب نظرية «بل» أهمية هو دعوتها ودفاعها عن النسق الاجتماعى الذى يتسم بالمركزية والتخطيط والعقلانية والبيروقراطية كضرورة تاريخية لا مفر منها. ومن ثم تبقى نظرية مجتمع ما بعد الصناعة على أستمرارية واضحة مع علم الاجتماع الكلاسيكى. غير أن منطق النزعة الصناعية لم يعمل على عزل المجالات الاقتصادية عن المجالات السياسية والثقافية، الأمر الذى مكن من تركيز واستقلالية السلطة داخل السياسة على نحو ما ذهب إليه بل ومن تابعه، بل أكد الاتجاه نحو المجتمع المركزى من ناحية، ونحو انتاج إمكانات اللامركزية الديموقراطية من ناحية أخرى. وهذا هو الجدل الذى رده «بل» إلى فكرة «صفوية» حاسمة عن «مابعد الصناعية». فطبقًا لنظرية «بل» لا تلعب الذات الإنسانية دوراً ما فى تشكيل الثقافة والسياسة والاقتصاد. وذلك لأن جماعة المخططين والتكنوقراط، فى تأسيسها لقراراتها السياسية على المعرفة النظرية وأخلاقيات المهنة، تعمل على تحييد الأشكال الديموقراطية الشعبية والمؤسسات السياسية الايجابية. ومن ثم تستمر العلاقة الإدارية والبيروقراطية قائمة بين الحاكم والمحكوم. إن منطق مجتمع ما بعد الصناعة هو إلغاء الأساليب الحوارية الجدلية فى الاتصال، وإنهاء التناقض فى الأفعال والمعاملات الإنسانية. وهكذا نجد أن ثمة تيار تشاؤمى دقيق سيطر على فكر «بل» تمثل فى عدم الثقة بنظم ومؤسسات المجتمع المدنى.

وجملة القول، شاركت قضية مجتمع ما بعد الصناعة المنظور الصفوى الذى تبنته مدرسة فرانكفورت، كما تلاءمت فى نفس الوقت مع التيار العام

الذى سيطر على علم الاجتماع الحديث فى تغافله وإهماله لاحتمالات التحول نحو الديموقراطية من القاعدة (أى من أسفل).

مشكلات الشرعية:

إذا كان من الضرورى أن ينظم مجتمع ما بعد الصناعة سياسيًا من «القمة» لا من القاعدة، فإنه يواجه حتماً بمشكلة الديموقراطية: فمجتمع ما بعد الصناعة لابد وأن يبقى نظامًا ديموقراطيًا ينهض على أساس الاتفاق القيمى، والفصل بين المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية يخلق حتماً تناقضات تمثل بصفة خاصة بين القيم الثقافية والأهداف الثقافية. ذلك أن ثقافة تنهض على أساس قيم اللذة والسعادة أكثر من قيامها على أساس القيم والأخلاق البروتستانتية لا تستطيع أن تخلق النمط اللازم للدافعية من أجل تدعيم التطور الاقتصادى. هكذا وصف «بل» العملية على أنها أهم وأخطر أزمة تواجه المجتمع فى تحوله من النمط الصناعى إلى نمط ما بعد الصناعة. وباختصار، هناك مشكلة تراكم رأس المال، وأزمة شرعية القيم. إن على الدولة - على حد تعبير «بل» - أن تعمل على تحديد اتجاه موحد للنظام الاقتصادى بما يحقق الخير العام من ناحية، وأن تحقق التوافق بين دعاوى ومصالح الجماعات المختلفة من ناحية أخرى. أو كما يقول «بل»:

«تنبثق المعضلة الاقتصادية الكبرى التى تواجه المجتمعات الغربية عن حقيقة أننا نحاول أن نربط بين الرغبات البورجوازية المحمومة، التى تقاوم كل قيود على تحقيق المكاسب، وبين السياسة الديموقراطية التى تطالب بالمزيد والمزيد من الخدمات الاجتماعية كحقوق لابد من ضمانها، وبين الأخلاقيات الفردية التى تدافع فى أحسن صورها عن فكرة الحرية الشخصية، وتعمل فى أسوأ صورها على التهرب من المسئوليات والتضحيات الاجتماعية التى يتطلبها المجتمع». (Bell, 1979, pp. 248-9)

ويكمن حل هذه المشكلة على المدى البعيد فى الأخلاق الجمعية المشتركة لثقافة ما بعد الصناعة. وفى هذا الصدد، يشير «بل» ساخراً إلى أن «مصطلح ما وراء الصناعة» كان قد استخدم فى الأصل من قبل أتباع وليام موريس William Morris من ذوى العقلية اليوتوبية يصفون به نموذجاً بديلاً للمجتمع فى مقابل المجتمع الرأسمالى غير الديموقراطى، والذى تميز

بالفردية والارتباط الشديد بعامل الربح والمنفعة. ومع ذلك، كانت نظرة «بل» أكثر واقعية، حيث يرى أن المجتمع الإنسانى يجب أن ينتظم وينتظم عن طريق مجموعة من القيم التى لا تنبثق من جماهير الشعب، بل من صفوة العلماء والفنيين.

هكذا، شارك «بل» مدرسة فرانكفورت نظرتها إلى المجتمع الحديث على أنه مجتمع «جمعى» تعمل فيه الدولة باستقلالية تامة عن المجالات الاقتصادية والثقافية، كما يشكل انفصال الاقتصاد عن كل من السياسة والثقافة مشكلة أساسية من مشكلات الشرعية، حيث لا تكون السياسة مجرد أحد عناصر البناء الفوقى للمجتمع، بل تشغل وبطريقة إيجابية بمسألة ضمان الولاء الجماهيرى للنسق الاجتماعى مع ضمان استمرارية الانتاج الاقتصادى. إن جانباً كبيراً من علم الاجتماع الحديث ومن الماركسية أيضاً أصبح أكثر اهتماماً بمشكلة الدولة وعلاقتها بالعناصر الأخرى للتكوين أو الهيكل الاجتماعى. إلى أى مدى إذن تشكل الدولة بناءاً خاصاً ومستقلا يتميز بقوانينه وعملياته الخاصة؟. وهل يحتم تحليل الدولة (أى النظام السياسى) ضرورة توضيح المفاهيم الخاصة بالبناء السياسى؟. للإجابة على هذه التساؤلات مالت النظرية الماركسية بوجه عام إلى تحليل بناء الدولة فى ضوء مفاهيم مشتقة من النسق الاقتصادى، فذهبت إلى ضرورة أن تعمل الدولة على انتاج أو توفير الشروط اللازمة لتراكم رأس المال وللعمل من أجل المصالح بعيدة المدى للطبقة المسيطرة. أما «بل» فكانت أعماله مثالا لمحاولة تجنب هذا الاتجاه الاختزالى. وبالمثل، كان جيورجين هابرماس Jurgen Habermas (١٩٢٩) واحداً من المفكرين الذين حاولوا تطوير علم اجتماع ماركسى حديث يعنى بمشكلات الشرعية والتماسك الاجتماعى فى المجتمع الصناعى الحديث.

لقد دانت أعمال هابرماس بالكثير لنظرية مدرسة فرانكفورت عن الرأسمالية التى تنظمها الدولة. كما حاول فى تحليلاته للمجتمع الحديث أن يوحد بين عدد كبير من تصورات ومفاهيم النظرية النقدية أهمها : تصور أن المعرفة ذات ارتباط وثيق بالمصلحة، وتصور أن التحرير وليس السيطرة الفنية هو الهدف الأساسى للنظرية الاجتماعية، وتصور أن الوضعية لم تعد منهجًا أو وسيلة لتحقيق التحرر، كما كان شأنها فى القرن الثامن عشر وبداية القرن

التاسع عشر، عندما شنت هجومها على الميتافيزيقا، وتصور أن العلم والتكنولوچيا أصبحا أكثر تغلغلاً وسيطرة على مجالات الانتاج والإدارة، ثم أخيراً تصور أن الوعى الاجتماعى أصبح أكثر اتساماً بالطابع التكنوقراطى، وأكثر انتظاماً لأسباب وسائلية بحتة.

لقد أصبح المجتمع الرأسمالى، فى نظر هابرماس، نسقاً رأسمالياً للدولة، A State - Capitalism System كما أصبح أكثر تنظيماً ومركزية. إذ أنه مع تطور التكنولوچيا والبيروقراطية اختفى «المجال الشعبى» الذى كان يتوسط ما بين المجتمع والدولة فى النظام الرأسمالى فى القرن التاسع عشر. كما أصبحت المؤسسات والنظم التى كانت تعمل على توضيح وإيصال الرأى العام أكثر تميزاً بالطابع التجارى وأقل توجهاً نحو السياسة. ومن ثم، أصبح المجتمع الجماهيرى «الذرى» هو النتيجة الحتمية لكل هذه التغيرات.

ويركز هابرماس بصفة خاصة على مشكلات الشرعية والاتجاهات المتأزمة المرتبطة بالدولة أو ما أسماه بـ «الرأسمالية اللاحقة». وفى تحليله لهذه المشكلات، استخدم هابرماس بعض المقولات التى قام باشتقاقها من عدد كبير ومتنوع من المصادر الفكرية، تدرجت بدءاً بنظرية النسق الحديثة وانتهاءاً بماركس وفرويد وميد وبياجيه وبارسونز. وفى هذا الصدد، ذهب إلى أنه يتعين على النظرية السوسيولوجية أن تؤكد فى تركيب واحد على كل من الفعل والنسق أو الذات والبناء. إذ تتضمن دراسة الشرعية فى نظره على تحليل البناءات الموضوعية كالدولة والنظام الاقتصادى، ودراسة الدافعية وأنماط الاتصال جنباً إلى جنب. يقول: «وبدءاً بهيجل وانتهاءاً ببياجيه مروراً بفرويد، كان هناك فكرة أساسية مؤداها أن الذات لا تستطيع أن تفهم نفسها إلا عن طريق تشييدها لعالم موضوعى». لذلك يعرف هابرماس الأنساق الاجتماعية بأنها «شبكات معقدة من أفعال اتصالية تواصلية تتضمن كلا من الشخصيات الاجتماعية والذوات المتحدثة. ومن هنا، فإن الأزمة تتحدد فى نظره على مستوى النسق الاجتماعى وأيضاً على مستوى التفاعل الاجتماعى»، يقول:

«يتعين على التصور الملائم علمياً واجتماعياً للأزمة، أن يدرك الارتباط بين تكامل النسق والتكامل الاجتماعى. ذلك لأن التعبيرين «التكامل الاجتماعى» و«تكامل النسق» يشتقان من عناصر مختلفة للتراث النظرى،

ونحن نتحدث عن التكامل الاجتماعي بالنسبة لأنساق النظم التي ترتبط فيها الذوات الفاعلة والمتحدثة اجتماعياً. أما الأنساق الاجتماعية هنا فهي «عوالم حياتية» Life Worlds تبنى وتنتظم بطريقة رمزية. ونحن نتحدث عن تكامل النسق من منظور «التسيير النوعي والخاص لأداء النسق الذي ينتظم انتظامًا ذاتيًا... إن كلا الجانبين - عالم الحياة والنسق - على قدر متساوي من الأهمية، ولهذا كانت المشكلة هي أن نوضح ونبرهن على ما بينهما من ارتباط وثيق ومتبادل» . (HaberMas, 1976, p. 4)

إن النسق الاجتماعي وعالم الحياة يربطان - على حد تعبير هابرماس - القوى البنائية الموضوعية بالدافعية النفسية الطوعية والإرادية. ومع ذلك كان الاتجاه الذي غلب على هابرماس هو تحليل النظم الاجتماعية من منظور تكامل النسق.

حدد هابرماس ثلاثة أنساق فرعية هي : النسق الفرعي الاقتصادي والنسق السياسي الإداري، والنسق الثقافي الاجتماعي. وذهب إلى أن اتجاهات الأزمة في الرأسمالية اللاحقة ليست مجرد أزمات اقتصادية فحسب، بل يمكن أن تظهر في نقاط أو مواقع مختلفة داخل النسق الاجتماعي. وفي هذا الصدد، وضع هابرماس تنميطاً من أربعة اتجاهات محتملة للأزمة هي:

نقطة البدء	أزمة النسق	أزمة الهوية
النسق الاقتصادي	الأزمة الاقتصادية	---
النسق السياسي	الأزمة العقلانية	أزمة الشرعية
النسق الثقافي الاجتماعي	---	أزمة الدافعية

أنتجت الرأسمالية اللاحقة، على هذا النحو، تحولا في نمط الدافعية أصبح يميز التطور التاريخي للمجتمع الرأسمالي: حيث تحدث أزمة الدافعية عندما لا يعمل النسق الثقافي الاجتماعي (أي القيم الموجهة نحو العمل مثلا) على تطبيع الأفراد في أدوار ومهن ونظم أو مؤسسات ثقافية. أما أزمة العقلانية فتحدث عندما يعجز النسق الإداري عن تنسيق وإشباع الملزمات التي يفرضها النسق الاقتصادي مثل توزيع المكافآت المتساوية على العمل (النزعة

الاستهلاكية) وضرورة تراكم رأس المال. ونظراً لاعتماد النسق الاجتماعى على التقبل الواسع للقواعد والقوانين وعلى أنماط تكامل الدافعية والهوية الاجتماعية، لذلك فإنه - أى النسق الاجتماعى - يمكن الأفراد من الاعتراف بكفاءة النظام السياسى وجدارته. غير أنه إذا ما أصبحت الثقافة «أكثر خصوصية» وذلك من خلال الأيديولوچية الاستهلاكية كهدف للمتعة الخاصة، عندئذ يكمن خطر أن تصبح الثقافة مستقلة عن عملية التطبيع الاجتماعى وبالتالى تعجز عن تحقيق تكامل نسق الشخصية مع النسق الاجتماعى : ذلك أنه كلما كان النسق الثقافى أقل قدرة على انتاج الدافعية نحو السياسة والنسق التعليمى والمهنى، كلما حلت القيم الاستهلاكية محل معنى القدرة. ومع تطور البناء المعيارى الجامد وغير المرن، تصبح الشرعية مشكلة فى حد ذاتها، لأن هذا البناء المعيارى لن يمد النسق السياسى والاقتصادى بالمصادر الأيديولوچية، بل قد يواجههما بمطالب متطرفة وباهظة. (Habermas, 1976, p. 91) .

ومع أن القضايا النظرية التى ارتبطت بالأزمة عند هابرماس كانت قد قدمت كفروض مؤقتة وغير مؤكدة، إلا أنه حاول أن يصف الاتجاهات العامة للمجتمعات اللاحقة، وارتكزت نظريته العامة على دعوى مدرسة فرانكفورت بانهيار «المجال الشعبى» وابتعاده عن السياسة. فمن وجهة النظر التاريخية ذهب هابرماس إلى أن المجتمع البورجوازى كان قادراً على أن ينتج البناءات الدافعية الملائمة من داخل نسقه الثقافى والاجتماعى، غير أن مع تطور نسق الدولة المركزية أخذت النظم والمؤسسات فى أن تعمل وتخطط من المركز فقط. فإذا ما أصبحت الثقافة تحمل طابعًا خاصاً «وذريًا» عندئذ تترك مهمة انتاج القيم الدافعية إلى النسق السياسى والإدارى، فى الوقت الذى لا يستطيع هذا النسق أن يقوم بمهمة مثل هذه. إن نسق الدولة هو الذى ينتج القيم الأيديولوچية التى تبرر البناءات القائمة بالفعل. وهنا تكمن المشكلة : وهى أن أجهزة الدولة فى الرأسمالية اللاحقة سوف تواجه لا محالة وعلى المدى البعيد سلسلة من المشكلات المستعصية لأنه لو كانت الدولة نفسها تعرف بأنها جهاز منتج للقيم الأيديولوچية - كمصدر للتكامل الاجتماعى - عندما تظهر أزمة الشرعية. وفى هذا الصدد، يذكر هابرماس «أن أزمة الشرعية تستند بالضرورة إلى أزمة الدافعية، أى على تلك الأزمة الناجمة عن التباين والاختلاف بين الحاجة إلى الدوافع التى تعلن عنها الدولة والنظام التعليمى والنسق المهنى من ناحية، والدافعية التى يدعمها

وفي نهاية المطاف، تتهدد الديموقراطية ذاتها. ذلك أن التصنيع، وهو أبعد ما يكون عن إثراء المجتمع الإنساني، يحول الأفراد وبالضرورة إلى موضوعات سلبية وخاصة، تعتمد أفعالها اعتماداً كاملا على أداء النسق الاجتماعي لوظائفه. وتظهر مشكلات الشرعية كنتيجة لازمة عن الانفصال القائم بين الأنساق الفرعية المختلفة، وبسبب عجز المجال السوسيوثقافي عن توفير ما هو كاف وملائم لاحتياجات المجال الاقتصادى. وهكذا يتبين لنا أن موقف هابرماس كان وثيق الصلة بالوظيفية البارسونية، وبخاصة في تصورها أن النسق وحده وليس الذات أو الفرد هو مصدر كل فعل وتغير وتناقض وأزمة في المجتمع الصناعي المتقدم.

النظرية والمجتمع الصناعي ـ التقاء وتقارب أم تنوع وتباعد:

بعد أن أفل نجم الوظيفية السوسيولوجية كنموذج مسيطر وغالب على علم الاجتماع الغربي، حاولت الماركسية بأشكالها المختلفة، وبالاشتراك مع دعوى المجتمع الجماهيري، أن تطور نظرية كلية عن المجتمع الصناعي. وكانت نظرية «مجتمع ما بعد الصناعة» تمثل استثناءاً عن هذه المحاولة، ولكنها مع ذلك لم تتطور كنظرية سوسيولوجية عامة يمكن مقارنتها بالوظيفية البارسونية أو بالماركسية. لقد قدمت أعمال هابرماس ـ كما سبق أن أوضحت ـ تصوراً شمولياً للعلم الاجتماعي، وشكلت في مجموعها حركة مرتدة نحو «النظرية الكبرى». فقد حاول هابرماس ـ شأنه في ذلك شأن بارسونز ـ أن يتمثل مدخلا شموليا ونسقياً (استمده من الماركسية ونظرية الأنساق البارسونية) إلى جانب نظرية طوعية دينامية عن الفعل الإنساني الاتصالي (استمدها من أعمال ميد وفرويد وبياجيه وجولدمان وشومسكي). لذلك اتفق هابرماس مع بارسونز في دعوته إلى التقاء أو تقارب النظرية السوسيولوجية، ولكنه اختلف عنه في نفس الوقت في تأكيده ـ تأكيد هابرماس ـ على الدور التحرري الذي تقوم به النظرية الاجتماعية ورفضه للموضوعية العلمية وقبول فكرة الوضع الراهن التي اختصت بها الوظيفية والنظرية الكبرى التي شاع قبولها إبان القرن التاسع عشر. هذا في الوقت الذي ظل فيه هابرماس يؤكد استمرار التقائه النظرى مع أفكار مدرسة فرانكفورت، وبخاصة في محاولته التركيبية التي جمع فيها بين التحليل البنائي النسقي وبين فلسفة الممارسة العملية.

لقد عنيت النظرية السوسيولوچية ـ على نحو ما أوضحته فى هذا الكتاب ـ بالمجتمع كبناء ونسق جنبًا إلى جنب مع اهتمامها بالذات الإنسانية كما لو كانت تشكل نظرية للفعل أو الممارسة العملية. وفى الوقت الذى حاول فيه علم اجتماع القرن التاسع عشر أن يقضى على عنصر الفعل من أجل تأكيده العملية التطورية المستمرة، إلا أن ازدواجية الفعل والبناء ظلت قائمة وواضحة لتشكل تناقضًا هامًا داخل علم الاجتماع ذاته. ولذلك كان فشل وضعية وماركسية القرن التاسع عشر فى حل هذا التناقض عاملاً أساسيًا دفع إلى تطوير النظرية الطوعية للفعل فى صورها المختلفة، خلال الفترة ما بين عام ١٨٨٠ وعام ١٩٢٠ . وكان ذلك بمثابة محاولة لإعادة اكتشاف الذات الإنسانية، بدت واضحة فى نظرية فيبر عن التغير الاجتماعى، وتصور زيمل للثقافة، وفكرة جرامشى عن الزعامة، ونظرية لوكاتش عن الوعى والأيديولوچية. وسرعان ما أصبحت هذه الأفكار أساسًا لتطوير ما عرف باسم «علم الاجتماع الراديكالى» فى فترة الستينيات: حيث ظهرت سوسيولوچيات جديدة رفضت كل من الوظيفية والماركسية وركزت اهتمامها على الذات المشيدة ـ مثل الاتجاه الفينومونولوچى (الظاهراتى) والإثنوميثودولوچى والماركسية الإنسانية وعلم الاجتماع الانعكاسى. ومن ثم، ظهر تمييز سطحى مصطنع بين النسق والفعل، أو بين كونت وماركس وبارسونز من ناحية، فى مقابل ميد وفرويد وشوتز من ناحية أخرى. ولعل من أبرز الأعمال الحديثة مؤلف بيرجر Berger ولوكمان Luckmann «التشييد الاجتماعى للواقع والحقيقة» The Social Construction of Reality (١٩٦٦) ، نادى فيه المؤلفان بـ «ماركسية شابة» ، ونظرية للاغتراب فى مواجهة «الماركسية القديمة» ونظرية قوانين التطور والتغير النسقى ذو النطاق الواسع. ويأتى ألفين جولدنر Alvin Gouldner فيقدم فى كتابه «الأزمة المقبلة فى علم الاجتماع الغربى» The Coming Crisis of Western Sociology (١٩٧١) مفهوم «علم الاجتماع الانعكاسى».

يرى جولدنر أن لكل نظرية اجتماعية ملاءمتها السياسية والشخصية، وأنها لا تنتج عن منطق أو شاهد أمبريقى فقط، بل هى نتاج الوجود الاجتماعى الكلى لعلماء الاجتماع. (Gouldner, 1973, pp. 148-9) ولذلك كان غياب الوعى بالذات من جانب علماء الاجتماع يشكل فى نظره أهم نقاط الضعف

فى علم الاجتماع الأكاديمى. ويكشف التطور التاريخى لعلم الاجتماع عن حقيقة هامة فى نظر جولدنر هى أنه ـ أى علم الاجتماع ـ كان ذى طابع راديكالى نقدى وآخر محافظ فى نفس الوقت. ولكن ظهور دولة الرفاهية وتطور الأنساق الصناعية المركزية جعل النظرية السوسيولوجية تتميز بطابعها المحافظ بصفة أساسية، وجعل علماء الاجتماع يقعون فى شرك علم اجتماع تشبع بنظريات تؤكد أهمية النظام الاجتماعى العام. يقول جولدنر : «لقد نجمت أهم وأخطر التناقضات التى وقع فيها علم الاجتماع الحديث عن دوره «كباحث سوق» Market Researcher لدولة الرفاهية. حيث عرض هذا الدور علماء الاجتماع للدخول فى تجربتين متناقضتين : فمن ناحية حدد اهتمام عالم الاجتماع فى الحلول الإصلاحية لدولة الرفاهية. ولكن من ناحية أخرى جعل عالم الاجتماع عرضة لفشل الدولة والمجتمع اللذين يسعى لحل مشاكلهما » (Gouldner, 1971, p. 439).

وبالإضافة إلى ما سبق، أشار جولدنر إلى أن كلا من النظرية الوظيفية والنظرية الماركسية التقليدية كانتا قد التقيتا فى تطوير نموذج محسوس ومجسم وغير إنسانى للنسق الاجتماعى استبعد كل ارتباط بالقيمة وبإمكانية تحررية، الأمر الذى أكد الحاجة إلى علم اجتماع جديد وإلى مجتمع جديد فى نفس الوقت. ذلك لأن معرفة المجتمع لا تكتشف بل لابد أن تشيد، وهذا لن يكون ممكناً إلا داخل مجتمع عام يرتبط فيه أعضاؤه برابطة الثقافة واللغة المشتركة والخلاقة. ومن هنا تتحدد مهمة علم الاجتماع الراديكالى والانعكاسى والتحررى فى نظره فى خلق طليعة فكرية جديدة تأخذ على عاتقها مهمة إعادة بناء المجتمع. وباختصار، يخلص جولدنر إلى حقيقة هامة مفادها «أن التنظيم الاجتماعى هو الذى يقدم مفتاح الوساطة بين النظرية الاجتماعية والممارسة العملية، وبهذا المعنى لا يحتاج علم اجتماع اليوم إلى نيوتن القديم وكارل ماركس آخر، بل يحتاج إلى لينين الذى استطاع أن يصيغ متطلباته التنظيمية. (Gouldoner, 1973, p. 97). وبهذه الطريقة وحدها يسهم علم الاجتماع فى نظر جولدنر فى إعادة بناء المجتمع وفى تحقيق المزيد من التحرر الإنسانى. كما تستطيع النظرية السوسيولوجية أن تتحرر من سيطرة القيم الذرائعية ومن الموضوعية العلمية الزائفة.

ومن الواضح أن ثمة «ذاتية» خطرة تكمن في ثنايا هذه الصياغات السابقة: إنه لمن الصعوبة بمكان أن نفهم كيف يستطيع علم اجتماع تحررى أن يربط نفسه بالافتراضات الشمولية الاستبدادية التى ارتكزت عليها النظرية التنظيمية اللينينية. لقد أصبح الصدق والموضوعية أكثر ارتباطا بالتنظيم وبصفوة علماء الاجتماع الراديكاليين الذين ينادون بدقة علمية تنساب من قيم تحررية أولية. وكما أوضحنا فى مواضع متفرقة من هذا الكتاب لم يكن أياً من هذه الأفكار السابقة يمثل جزءاً أصيلا من التراث السوسيولوچى. حيث مالت افتراضات وتصورات الفكر الماركسى نحو المركزية «والقطع أو القرار النهائى»، أى نحو حوار أيديولوچى مغلق. كما أن الاهتمامات والمصالح التحررية افترضت هى الأخرى حواراً أيديولوچيا مماثلا. ومن ثم، أنهى كل من جولدنر وهابرماس تحليلاتهما لعلم الاجتماع الأكاديمى وللمجتمع الصناعى بالدعوة (تذكرنا بسان سيمون ولوكاتش) إلى الصفوة المفكرة والمثقفة من العلماء الاجتماعيين الذين يستطيعون، من خلال إدراكهم الحدسى للقيم الحقيقية، مواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وتقديم الحلول العلمية الناجحة لها. وقد تبدو هذه النظرة متضمنة فى نظرية هابرماس عن الأزمة، ذلك لأنه يفترض أن الأشخاص العاديين، وهم يتكاملون بطريقة سلبية فى رأسمالية الرفاهية المنظمة، لايمكن أن يشكلوا بطريقة إيجابية أى مصدر الشرعية، بل أن أزمات الشرعية تنبثق من قيم النسق ذاته ومن العلاقات البنائية المعقدة بين الأنساق الفرعية المختلفة. ومن الواضح أن هذه الفكرة الأيديولوچية المغلقة عن النسق الاجتماعى وعن سلبية «الجماهير» الذين يكونونه تنتمى إلى التراث الصفوى لماركسية مدرسة فرانكفورت، كما تعكس فشلها فى تنظير الطابع الجدلى المتناقض للمجتمع الصناعى الحديث.

ويشتمل المجتمع، كموضوع للدراسة فى علم الاجتماع، على كل من البناء والفعل : فإذا كان علم الاجتماع علماً تحررياً فذلك لأنه ينظر بكفاءة التطور التاريخى الحقيقى. ومن ثم، كان جولدنر محقًا فى تأكيده على الطابع المتناقض لعلم الاجتماع الكلاسيكى. غير أن هذه التناقضات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقدرة علم الاجتماع على تنظير الحركة التاريخية الموضوعية والحقيقية، حال

تطور المجتمع من أنساق ما قبل الصناعة، التى تتميز بدرجة عالية من المركزية، إلى الأنساق الصناعية المعقدة وغير المركزية، والتى تتميز بتطوير النظم والمؤسسات المستقلة التى تمكن الجماعات والمجتمعات المحلية من تحديد مصالحها الخاصة والإفصاح عنها بالنسبة للآخرين وللمجتمع الأكبر ككل.

إن علم الاجتماع مذهب إنسانى وعلم فى نفس الوقت، يتصور المجتمع كبناء موضوعى يوجده العقل الإنسانى. ولذلك لا يستطيع بحال من الأحوال أن ينأى بنفسه عن تأثيرات السياق التاريخى والاجتماعى. ولكن ذلك لا يعنى التأكيد على الذاتية. ونظراً لأن النظرية السوسيولوچية تتعامل مع نتاج الفعل الاجتماعى التى لا يمكن التنبؤ بها بدقة، لذلك يتعين عليها أن تظل دائماً على استعداد لفهم وتفسير بناء وتطوير المجتمع الإنسانى. ومن هنا يبدو أن مستقبل العلم الاجتماعى أمر يتوقف على مصير المجتمع الصناعى، سواء أصبحت المجتمعات الغربية أكثر مركزية بما يضعف المجتمع المدنى فيها، وسواء ظلت المجتمعات السوفيتية تدار من مركزها أو انتعش فيها المجتمع المدنى من جديد نتيجة انهيار أيديولوچية القطع والقرار النهائي. إن هناك كما أكد جولدنر تقارباً والتقاءاً محتملا بين نظريات النسق الحتمية كالوظيفية والماركسية، والتى ربطت ذاتها بمسائل التنظيم والضبط، كما أن هناك التقاءاً محتملا أيضاً بين نظرية الأنساق الإنسانية ونظرية الفعل الاجتماعى (مثل نظرية هابرماس وجولدمان). ويشهد وجود سوسيولوچيات مختلفة ومتنوعة فى نهاية الأمر، على فضل علم الاجتماع فى أن ينظر فى مسائل الديموقراطية والتصنيع، وفى أن يتمثل الانفتاح الحوارى المتضمن فى أفكار الذات الفعالة والبناء الإنسانى.

الفصل الخامس عشر

علم اجتماع الطبقة والسيطرة

نظرية ماركس فى السيطرة .

الدولة وسيطرة الطبقة .

نظرية الطبقة : ڤيبر .

الرأسمالية والبيروقراطية والديموقراطية : نظرية ڤيبر فى السيطرة .

الفصل الخامس عشر

علم اجتماع الطبقة والسيطرة

أرست أعمال دوركايم وفيبر وزيمل أسس النظرية السوسيولوچية. وكان من أهم موضوعات الدراسة التى عنى بها هؤلاء الرواد.المجتمع الصناعى وبخاصة مشكلات التماسك الاجتماعى والشرعية والديموقراطية. وفى هذا الصدد، اهتم كل منهم بدراسة الصراعات والتوترات التى ذخر بها المجتمع المدنى الحديث كنتيجة لازمة عن الاتجاه نحو البيروقراطية والعقلانية والاغتراب والتغير الاجتماعى السريع الناجم عن تحول هذا المجتمع من الثقافة السابقة على الصناعة إلى ثقافات صناعية متحضرة. ولذلك كان المنظور الاجتماعى عملية تحلل فى ضوء مصطلحات ومفاهيم جدلية مثل التعقيد الاجتماعى المتزايد والتفردية المستقلة وثراء الثقافة من ناحية، والجمعية والاتساق والعقم الثقافى من ناحية أخرى. وبالمثل، جمع تنظيرهم للمجتمع مابين التحليل على المستوى المتزامن Synchronically (فى فترة تاريخية محددة) ومستوى التعاقب التاريخى غير المتزامن Diachronically، وفى كل مستوى كان المجتمع - فى نظرهم - عبارة عن بناء يتكامل حول القيم والفعل الإنسانى. ولقد انتهى المطاف بكل من فيبر وزيمل، وإلى حد ما بدوركايم، وهم بصدد دراسة المجتمع كبناء وكعملية تستوعب الذوات الإنسانية الإيجابية والفعالة، إلى اكتشاف الأساس الموضوعى والنظامى للسلطة والسيطرة وإلى تحديد تأثيراتها على الفعل الإنسانى.

وعلى الرغم من أن مفهوم السيطرة وعلاقتها بالنظم الاجتماعية والاقتصادية قد سبق تحليله من قبل عند سان سيمون Sant - Simon والكسس دى توكوفيل Alexis De Tocqueville (١٨٠٥ ـ١٨٥٩) من زاوية النتائج السياسية اللاحقة للثورة الفرنسية، إلا أن ماركس كان أول من قدم تنظيراً سوسيولوچيا منظماً عن قضية السيطرة فى المجتمع الصناعى الرأسمالى. حقاً لقد أسهم كونت وسبنسر ببعض المنظورات فى مجال الدراسة السوسيولوچية

للصراع الاجتماعى والبناء الطبقى وتوزيع القوة: حيث نجد أن الاتجاه التطورى العضوى ـ فى اهتمامه بالنظام الاجتماعى والاتساق والتوازن كان قد جذب الأنظار بعيداً عن دور القوة والصراع والأيديولوجية فى الحياة الاجتماعية، وتصور النظام الاجتماعى العام على أنه أمر لا مشاكل فيه (باعتباره نتيجة تركيب المصالح الفردية فى خير عام عن طريق الأيدى الخفية لاقتصاد السوق)، أو على أنه مسألة فرضت من علٍ وبطريقة أوتوقراطية (كنيسة كونت الوضعية). ومع ذلك، فإن التحول من التأكيد على مفهوم التمايز الاجتماعى، إلى التأكيد على مفهوم تقسيم العمل عند ماركس ودوركايم وفيبر وزيمل، كان أمراً أدى إلى تركيز الانتباه حول تعارض المصلحة داخل المجتمع الصناعى، وحول الصراعات التى تولدت عن الانقسام الطبقى.

نظرية ماركس فى السيطرة:

لم يكن ماركس أول من أكد الطابع الطبقى للمجتمع الرأسمالى وما يتولد فيه من صراعات بين الطبقة الحاكمة والطبقة المحكومة، ولكن ما هو جديد فى موقف ماركس أنه حاول ـ كما يقول فى كتاباته ـ «البرهنة على : ١ ـ أن وجود الطبقات أمر يرتبط بفترات تاريخية معينة فى تطور الانتاج، و٢ ـ أن النضال الطبقى أمر يؤدى لا محالة إلى ديكتاتورية البروليتاريا أو الطبقة العاملة، و٣ـ أن هذه الديكتاتورية هى نفسها ـ ووحدها ـ تشكل التحول نحو الغاء الطبقات وقيام المجتمع اللاطبقى (Marx & Engels, N.D.P.86). وفى إطار هذه الصيغة أو المعادلة طور ماركس فكرة دوجماطيقية عن الدور المركزى الذى تلعبه الدولة فى التحول نحو الاشتراكية. ففى «البيان الشيوعى» "The Communist Manifesto وصف ماركس وانجلز الدولة الحديثة على أنها «لجنة لإدارة المسائل العامة لكل البرجوازية».، وحددا القوة السياسية كما لو كانت «القوة المنظمة التى تمتلكها طبقة لقهر طبقة أخرى». أما مضمون هذه الصيغة فيتمثل فى أن القوة تنجم أصلا عن ملكية الموارد الاقتصادية، وأنها ببساطة تعبير عن مصالح الطبقة. لذلك فإن سيطرة الطبقة تعد الناتج النهائي للعداءآت الطبقية التى ترتكز على اللامساواة الاقتصادية. وفى الوقت الذى أكد فيه ماركس على أن اللامساواة الاقتصادية والاستغلال كانتا خصائص متميزة

ولكل أساليب الإنتاج وأنماطه ـ فيما عدا نمط الانتاج الشيوعى القبلى البسيط ـ إلا أن النظام الرأسمالى هو وحده الذى حول كل العلاقات الاجتماعى إلى علاقات اقتصادية. ففى مجتمعات ما قبل الصناعة كانت العلاقات الاجتماعية بين الأجراء ومالكى الأرض تتم داخل إطار من علاقات شخصية جنباً إلى جنب مع العلاقات الاقتصادية، وبالتالى استندت السيطرة التى تتمتع بها طبقة الملاك على علاقات التبعية والرق والخضوع الاقطاعية، تلك العناصر الشخصية التى جاء النظام الرأسمالى فأطاح بها ولم يبق إلا على المصلحة الشخصية الهزيلة كأهم ما يربط الأفراد بعضهم بالبعض. هذا هو معنى ما كتبه ماركس مشيراً إلى أن علاقات الطبقة غدت فى ظل النظام الرأسمالى أكثر بساطة وعمومية، الأمر الذى أدى إلى تركيز القوة فى نظم ومؤسسات سياسية واقتصادية كبرى.

ميز ماركس بين ثلاثة أنماط للسيطرة، هى السيطرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتشير السيطرة الاجتماعية والاقتصادية إلى الطرق أو الوسائل التى يحدد بها رأس المال عمل النظم والمؤسسات بوجه عام، أما السيطرة السياسية فتشير عنده إلى الطرق التى من خلالها تفلح الدولة فى خلق وتدعيم الإطار الشرعى للحكم البورجوازى. وعلى الرغم من أن ماركس لم يستخدم أبداً مصطلح «السيطرة الأيديولوچية» إلا أن ذلك كان متضمناً فى تحليله للأيديولوچية، مشيراً إلى حاجة النظام الرأسمالى إلى الشرعية بعد ظهور النظم الديموقراطية الحديثة.

وفى كتابه «رأس المال»، صور ماركس المجتمع الرأسمالى كنسق يعمل فيه رأس المال كقوة مستقلة، حيث تحاول الطبقة الرأسمالية وعلى نحو مباشر، أن تستولى على فائض العمل وفائض الانتاج بالطرق التى تزيد باستمرار من "سيطرة رأس المال على العمل». وشأنه فى ذلك شأن سان سيمون، ذهب ماركس إلى أن النظم والمؤسسات السياسية تعبر عن مصالح اقتصادية أساسية كعلاقة ارتباط وظيفى وثيق ومتميز بين النظم السياسية والنظم الاقتصادية. لذلك، قدم ماركس فى «البيان الشيوعى» نمطاً للقوة السياسية يجمع على نحو متبادل بين الأساس التحتى والبناء الفوقى، فيه تصور الدولة (أي المجتمع

السياسى) على أنها نظام أيديولوجى يدعم حقوق الملكية الخاصة ويدافع عنها. إن الدولة هى دولة الطبقة، ولكننا نجد ماركس، فى كتاباته التاريخية اللاحقة، وبخاصة تلك التى حلل فيها التاريخ الفرنسى والبريطانى المعاصر، يطور نمطاً للقوة أكثر تعقيداً، ميز فيه بين الانقسامات التى تحدث داخل الطبقة المسيطرة، مشيراً إلى أنه فى أغلب الأحيان تقوم ما أسماه بـ «الطبقة الحاكمة» ـ وليست طبقة البورجوازية » بتوجيه جهاز الدولة وضبطه.

من هنا، ذهب ماركس فى تحليله للنسق السياسى البريطانى إلى أنه على الرغم من أن حزب المحافظين Tory Party ظل حزباً لطبقة النبلاء، إلا أنه كان قائماً على تنفيذ سياسات الطبقة البورجوازية. فلقد غدت طبقة الأرستقراطية على قناعة تامة بالحاجة إلى أن تتحكم فى مصالح البورجوازية، ولكنها فى نفس الوقت حددت هذه الطبقة بحيث لا تسمح للبورجوازية أن تقوم نيابة عنها بإدارة مسائلها « Mar. & Engels, 1962, PP .351 - 8 ». تتكون الطبقة المسيطرة إذن فى نظر ماركس من شريحة حاكمة وأخرى غير حاكمة، أما الشريحة أو الطبقة الحاكمة فتمارس قوتها من خلال الدولة لصالح الطبقة المسيطرة اقتصادياً كما هو الحال بالنسبة للبورجوازية الإنجليزية فى القرن التاسع عشر. وبنفس الطريقة، وصف إنجلز الأرستقراطية الإقطاعية البروسية فى ألمانيا بأنها طبقة حاكمة لألمانيا التى صنعت نفسها وتحولت إلى مجتمع بورجوازى حديث. أما صراع المصلحة بين البورجوازية القائمة وبين الطبقة البروليتارية النامية، فمسألة يمكن التغلب عليها عن طريق رفع جهاز الدولة، أو الارتفاع به فوق المجتمع ككل.

ويشير ماركس بعد ذلك إلى أن هذا التعقيد الداخلى لبناء الطبقة مسألة موجودة أيضاً على المستوى الاقتصادى: فكما أن الربح أو المنفعة يتكون من شكلين مختلفين للعائدات، فإن وجود الرأسماليين الصناعيين وأصحاب رأس المال لا يعبر عن شيء آخر غير هذه الحقيقة (Marx, 1973) لذلك، فإن الطبقة المسيطرة لا تكون أبداً كلا متجانساً متناغماً، بل هى بناء من مصالح مختلفة إن لم تكن متصارعة. وبالتالى، ليست هناك علاقة ميكانيكية بسيطة بين الطبقة والسيطرة الاقتصادية. ذلك لأن القوة لا تمارس إلا بتوسط النظم

والمؤسسات السياسية التى تطور بدورها إيقاعاً مختلفاً عن القوى الاقتصادية التى نجحت فى ممارسة استقلاليتها فى مجال مصالح الطبقة.

الدولة وسيطرة الطبقة.

قد تبدو نظرية ماركس فى السيطرة فى بعض كتاباته على أنها بسيطة وغير مثيرة للخلاف أو الجدل، على اعتبار أن السيطرة انعكاس للبناء الاقتصادى داخل المجتمع السياسى. غير أن تحليل هذه النظرية كما تطورت فى أعمال ماركس يحتم ضرورة التمييز بين كتابات ماركس الجدلية وبين أعماله التاريخية والعلمية، بل وأكثر من ذلك يحتم ضرورة الفصل بين كتابات كل من ماركس و إنجلز :

فقد اعتنق انجلز بوجه عام نظرية اختزالية Reductionist بسيطة، وكانت تعليقاته الشائعة على الماركسية مثل-"Anti -Duhring and Socialism : Scien-tific and Utopian" ودراسته التاريخية مثل «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة the Origin of The Family, Private Property and state ، تميل كلها إلى إعادة صياغة القضية التى وضعها فى «البيان الشيوعى». ومما هو جدير بالذكر، أن مفهوم ماركس للدولة كما تحدد فى كتاباته المبكرة (١٨٤١ _١٨٤٥) كان مختلفاً عن المنظور الذى تبناه فى «البيان الشيوعى»، حيث نجده فى كتاباته الأولى يوحد ما بين الدولة وعالم الاغتراب مستنداً على تناقض الحياة العامة مع الحياة الخاصة وتعارض المصالح العامة مع المصالح الخاصة. وفى عام ١٨٤٤ ذهب ماركس إلى أن الطابع اللااجتماعى للحياة فى المجتمع المدنى مقروناً بالأنانية التى أوجدتها قوى الملكية الخاصة والتجارة والصناعة شكلت فيما بينها «الأسس الطبيعية» للدولة الحديثة. فالدولة ليست ببساطة شكلا للتنظيم تتبناه الطبقة البورجوازية بالضرورة ضماناً لملكياتها ومصالحها، بل هى نظام يتطور عن العلاقات الاجتماعية المغتربة فى المجتمع المدنى.

ومع ذلك، كانت دراسات ماركس التاريخية تمثل أكثر أعماله أهمية عن الدولة، مثل «النضال الطبقى فى فرنسا» (١٨٥٠) وتحليله لـ «كوميون

باريس» (١٨٧١ ـ ١٨٧٢). وكانت نية ماركس متجهة في الأصل لإكمال دراساته عن الرأسمالية في مجلد أخير يخصصه للدولة، إلا أنه توفى قبل أن ينهى التحليل الاقتصادى. بهذا المعنى إذن، لا يوجد هناك نظرية عن الدولة في أعمال ماركس، كما لا يوجد أى تحليل عن نظام الدولة يمكن مقارنته بتحليلاته الاقتصادية. وربما كان ذلك سبباً في سهولة العثور على عدد كبير من المفاهيم المختلفة عن الدولة تتدرج بدءاً بفكرة الدولة كقوة طبقية إلى الدولة كنظام أو مؤسسة مستقلة. من هنا، كان لابد أن نضع في اعتبارنا أن ماركس كان قد فشل في تطوير نظرية متكاملة عن السيطرة الرأسمالية، وأنه من الأفضل في بحثنا عن نظرية الدولة أن نركز على قضيتين مترابطتين رغم تناقضهما هما: أن التحرر الإنسانى لابد وأن يعتمد على المجتمع المدنى مستقلاً عن سيطرة الدولة، وأن القضاء على النظام الرأسمالى يستوجب بالضرورة وجود سلطة مركزية.

وفى كتابات ماركس المبكرة، انفصلت الدولة تماماً عن المجتمع المدنى، حيث تعبر الدولة عن حالة المجتمع المدنى ووصفت بأنها تعبير رسمى للمجتمع، وفى مقالته عن «المسألة اليهودية» "The Jewish question" تقبل ماركس تصور هيجل للمجتمع المدنى ووصف نشأته بأنها «إنجاز العالم الحديث»، ولكنه ـ أى ماركس ـ سرعان ما ينتقد هيجل في تعريفه للدولة على أنها النظام الذى يؤدى ـ جنباً إلى جنب مع البيروقراطية ـ إلى التماسك الاجتماعى. وعلى الرغم من أن فكرة هيجل عن المجتمع المدنى كانت مستمدة وإلى حد كبير من كتابات مؤرخى القرن الثامن عشر ومن أعمال علماء الاقتصاد السياسيين، إلا أنه ـ أي هيجل ـ كان أكثر نقداً لآدم سميث في وصفه للمجتمع المدنى على أنه عالم متجانس أو منسجم تتركب فيه المصالح الفردية المتصارعة في وحدة واحدة بفعل تدخل «يد خفية». أما هيجل فقد عرف المجتمع المدنى بطريقة مختلفة إلى حد ما، حيث اعتبره بمثابة مجموعة من النظم التى تعجز بذاتها عن تحقيق الوحدة والنظام. وبالطبع انتقلت بعض هذه الأفكار إلى نظرية ماركس عن الدولة والمجتمع المدنى. لقد صورت كتاباته المبكرة الطبقة العاملة على أنها مغتربة كلية عن المجتمع، وأنها يمكن أن تحقق تكاملها فقط من خلال الثورة الشاملة، وبالتالى من خلال

الدولة الناجحة. أما كتابه «رأس المال» فيقدم صورة مخالفة تماماً : حيث يذكر أن الطبقات العاملة الصناعية تنجح فى تطوير نظمها ومؤسساتها الخاصة التى تتوسط علاقة الطبقة بالدولة، تلك النظم التى تتمركز فى المجتمع المدنى وتنظم بطريقة ديموقراطية. لذلك قد يوحى تحليل ماركس للعلاقات الاجتماعية للنظام الرأسمالى بإمكانية أن تستطيع الطبقة العاملة، عن طريق مؤسساتها الديموقراطية، أن تضع أسس التحول الاشتراكى.

وتشير القضية الأخيرة إلى عنصر «فوضوى ثائر على السلطة Anaarchist» فى تفكير ماركس، دافع عنه ببراعة وبخاصة فى كتاباته عن الكوميون الباريسى. ومع ذلك، فإن النظرية الماركسية عن الدولة، والتى تقرر أن الدولة البورجوازية تجسيد لقوة الطبقة التى يمكن أن تتغير فقط عن طريق الدولة الاشتراكية المركزية، يمكن أن تشتق من كتابات إنجلز أكثر مما تستنبط من كتابات ماركس. لقد أعلن إنجلز، وبطريقة أكثر مواربة، أن العامل الاقتصادى فى الحالة الأخيرة هو العامل الحاسم، وقد قادته هذه الفكرة الاختزالية إلى أن يميز الدولة بأنها تجسيد، فى صورة أكثر تركيزاً، للحاجات الاقتصادية للطبقة المسيطرة على الانتاج»، وأن التطور التاريخى للدولة ليس إلا نتاج أوتوماتيكى للقوى الاقتصادية. فالدولة الحديثة هى ـ على حد تعبيره ـ تنظيم يتولى فيه المجتمع البورجوازى دعم الظروف الخارجية لنمط الانتاج الرأسمالى، وذلك فى مواجهة أى تجاوز أو اعتداء يقوم به العمال أو الرأسماليون الأفراد». إن الدولة فى نظر انجلز ببساطة عبارة عن آلة رأسمالية، إنها دولة الرأسماليين، أو هى التشحص (الذجى) لمجموع رأس المال القومى » (Marx and Engels, 1962, val 2. PP.) . وتعكس الدولة فى الحالة الأخيرة الحاجات الاقتصادية للطبقة المسيطرة على الانتاج، وذلك كجهاز خارجى قهرى للإبقاء على سيطرة الطبقة.

وقد توحى عبارات انجلز السابقة بأن الدولة فى المجتمع الرأسمالى تدار إدارة كاملة ومقصودة من قبل الطبقة المسيطرة اقتصادياً». ومن ثم، لا يتمتع البناء السياسى بأى قدر من الاستقلالية، بل يصبح ببساطة مجرد شكل أو صورة عارضة من صور النظام الاقتصادى. وبالمثل ذكر ماركس بعض القضايا

المماثلة لموقف انجلز، وبخاصة فى كتابه عن الأيديولوجية الألمانية، يصف فيها التطور التاريخى للدولة الحديثة فى ضوء تقسيم العمل ونمط الانتاج. ذلك أن المجالات المستقلة للإدارة (كالقانون والجيش والشرطة والخدمة المدنية)، والتى نجمت عن التقسيم المتزايد والتخصص للعمل، قد تخلق إحساساً وشعوراً بالوحدة الوطنية، أى بمجتمع واهم يحاول أن يخفى حقائق النضال الطبقى والمصالح المادية المتصارعة. «إن الدولة هى الشكل الذى يعمل فيه أفراد الطبقة الحاكمة على تدعيم مصالحهم المشتركة... إنها تعمل كوسيط فى تشكيل كل النظم والمؤسسات الطائفية لتعطيها شكلاً سياسياً» (Marx and Engels, 1964) .

وبانتهاء أربعينيات القرن التاسع عشر (١٨٤٠)، كان ماركس قد أوشك على الانتهاء من وضع نظريته عن التغير الاجتماعى وفائض القيمة والاستغلال: وكان تحليله للرأسمالية مستنداً إلى ذج إستقطابى Polarised للصراع بين الطبقات. غير أنه فى كتاباته التى صدرت فى الخمسينيات والستينيات (١٨٥٠ ـ١٨٦٠) مرّ ذجه المزدوج (الثنائى) لبناء الطبقة والتكوين الاجتماعى بتغيرات جذرية. لقد كان تزايد مركزية الرأسمالية كنسق واحد من أهم التطورات التاريخية التى حدثت خلال القرن التاسع عشر وبخاصة فى البلدان الرأسمالية المتقدمة. لذلك، شغل ماركس بتكامل هذه التطورات مع ذجه النظرى للرأسمالية. وفى هذا الصدد، ذهب ماركس إلى أنه على الرغم من أن الثورات السابقة، كالثورة الفرنسية، كانت تحتضن مبادئ الحرية والديموقراطية فى مواجهة القوة الاستبدادية التسلطية، إلا أن النتائج الفعلية كانت دائماً «اكتمال» Perfecting الدولة. لقد ظهر الجهاز المركزى للدولة فى الأصل إبان فترات الحكم الملكى المطلق «كسلاح فى يد المجتمع الحديث (الوليد) فى نضاله من أجل التحرر من العهود الإقطاعية». وعلى الرغم من أن الثورة الفرنسية كانت تسعى لتحقيق الوحدة القومية اللازمة ل المجتمع البورجوازى، إلا أن هذا التطور لم يتحقق إلا بتزايد قوة المؤسسات التى كانت تعارض مبادئ ١٧٨٩ والتى تمثلت فى الحرية والليبرالية. (Marx & Engels, 1971,P. 149). وفى سنوات ما بين نشر «البيان الشيوعى» وتحليله لسقوط الكوميون الباريسى، تخلى ماركس بالتدريج عن النظرة الاختزالية التى كان قد

تبناها في البيان الشيوعى، والتى تضمنت القول بأن الطبقة العاملة فى ثورتها الاشتراكية سوف تتولى مهام جهاز الدولة القائم وسوف تستخدمه فى مهمة إعادة البناء. وفى مقدمة الطبعة الألمانية للبيان الشيوعى ١٨٧٢، كشف ماركس عن تغيرين أساسيين هما:

١ ـ أدى التطور السريع لحركة العمل الناجمة عن الرأسمالية إلى زيادة إمكانية حدوث تغير ديموقراطى من داخل المجتمع المدنى نفسه وذلك من خلال مؤسسات الطبقة العاملة.

٢ ـ أدى تزايد مركزية الرأسمالية كنسق اقتصادى إلى أن تصبح الدولة أكثر مركزية، حتى أن مهمة التحول الاشتراكى لم تعد تقتصر على إصلاح الدولة بل الإطاحة بها والقضاء عليها. «إذ لا تستطيع الطبقة العاملة أن تتمسك بجهاز للدولة موجود من قبل، أو أن تستخدمه لتحقيق أغراضها» .(Marx & Engels, 1971,P. 270)

هكذا، بات عداء ماركس للدولة عداءاً شاملا: ففى كتاباته عن الكوميون الباريسى وصف ماركس جهاز الدولة المركزية فى المجتمع الحديث بأنه «زائدة دودية متطفلة على المجتمع المدنى»، لا يسمن ولا يغنى من جوع، لا فائدة منه بل إن ضرره يطغى على نفعه، إنه بمثابة الكابوس الثقيل الذى يجب التخلص منه. "Marx & Engels, 1971,PP. 149-170" . وفى الوقت الذى نجد فيه ماركس فى «البيان الشيوعى» وفى « Adress to the Commu- nist » (١٨٥٠) يقرر أن الاشتراكية تحتم ضرورة التوسع فى المركزية، وهنا نجده يدعو إلى مزيد من التحول اللامركزى للاشتراكية.

ولقد ارتبطت هذه الموضوعات السياسية ارتباطاً وثيقاً بتحليلات ماركس النظرية للدولة كمجال مستقل عن المجتمع المدنى، وكمجال مستقل فى إحدى جوانبه عن الطبقة المسيطرة، ومع ذلك يرتبط بها بالضرورة فى جوانب أخرى. إذ يجب على البورجوازية أن تطور بناءاً مركزيًا للدولة لتسهيل عمليات التقدم الرأسمالى (خاصة وأن الدولة هى المسئولة عن الاتصالات والتعليم والضرائب والقانون والتجارة الخارجية)، ولكن نظراً لأن الحياة الفعلية

للبورجوازية تقع فى نطاق المجتمع المدنى أكثر مما تندرج فى المجال السياسى، لذا كانت الدولة دائماً أكبر من مجرد وكيل أو متعهد لهذه الطبقة. ولقد عرض ماركس لهذا الجانب من نظريته عن السيطرة فى تحليله للحركة البونابرتية Bonapartism : ففى عام ١٨٥١ قام لويس بونابرت-Louis Bona-Parte بإلغاء كل المؤسسات البرلمانية للبورجوازية الفرنسية، وإلقاء القبض على النواب ونفى الاشتراكيين والجمهوريين، وفرض حصاراً شديداً على حرية الكلمة وحرية الصحافة. وذلك كله بهدف حماية المصالح البورجوازية ضد الاشتراكية. وكانت الطبقة البورجوازية وقتها مكونة من شريحتين كبيرتين هما كبار ملاك الأراضى الزراعية من ناحية، والبورجوازية الصناعية والرأسمالية من ناحية أخرى، ومع ذلك حال هذا الانقسام الداخلى لهذه الطبقة دون تطوير بورجوازية حاكمة مستقلة وذات وعى طبقى موحد. وفى هذا الصدد، حاول ماركس أن يوضح كيف أن الدولة لم تكن مجرد انعكاس بسيط للقوى الاجتماعية، بل كانت مثالا حيًا لانفصال الدولة عن المجتمع: حيث يذكر ماركس أنه فى ظل حكم بونابرت الثانى، بدت الدولة وكأنها تعمل على أن يكون لنفسها استقلالا تاماً وذلك بهدف أن تركع تحت قدميها كل الطبقات. فقد استوعبت القوة التنفيذية شريحة كبيرة من موظفى الدولة قدرت بأكثر من نصف مليون، حتى أن ماركس كان قد وصف هذا الجهاز البيروقراطى للدولة بأنه «جسم طفيلى مروع جثم على صدر المجتمع الفرنسى كالشرك خانقًا أنفاسه» وهكذا ارتفعت قوة الدولة عاليًا على المجتمع بأسره. وقد ظهر هذا النمط من السيطرة ـ تاريخيًا ـ عندما لم تكن الطبقة البروليتارية مستعدة أو حتى قادرة، وعندما فقدت البورجواز ية أمكانات حكم الشعب» (Marx & Engels, 1962 val2.,PP.331-32) . ومن ثم، ينتهى ماركس إلى القول بأنه عندما لا تستطيع أى طبقة أن تتمتع بالسيطرة الاجتماعية والسياسية، عندئذ تظهر الدولة لتقوم بدور الوسيط: حيث يقول:

«وتعترف البورجوازية بأن مصالحها الخاصة تملى عليها أن تتخلص من تبعات حكمها، وأنه من أجل أن تستعيد سكينتها فى المجتمع يجب أن تقضى على برلمانها البورجوازى، وأنه من أجل أن تحتفظ بسلامة قوتها الاجتماعية

يتعين عليها أن تقوض قوتها السياسية، وأنه لا يمكن للبورجوازية الفردية أن تستمر فى استغلال الطبقات الأخرى وأن تتمتع بصفو الملكية والأسرة والدين والنظام، ما لم تتهم طبقة البورجوازية بتفاهتها السياسية، وأنه من أجل أن تنقذ أموالها عليها أن تخسر تاجها» (Marx & Engels, 1962,vol.2, P. 288).

وعلى نحو متناقض تماماً لما سبق، حاول ماركس أن يحلل الأحداث التى أحاطت بالكوميون الباريسى. حيث يذهب إلى أن كل المؤسسات انحلت تلقائياً عندما نظمت الطبقة العاملة نفسها فى مواجهة البورجوازية لتمثل البديل الوحيد والمعتمد لاتجاهات الدولة الحديثة نحو المركزية. لقد كان الكوميون الباريسى الشكل السياسى للتحرير البروليتارى، وتميزت الديموقراطية المباشرة باستدعاء الممثلين السياسيين، وبإعادة استيعاب المجتمع لقوة الدولة باعتبارها تمثل قوى وجوده وكيانه لا باعتبارها قوى لضبطه وقهره، كما تميزت أيضاً بالجماهير الشعبية. وكان الكوميون هنا بمثابة البشير الجليل لذج جديد للمجتمع، «فيه يعمل الشعب بنفسه ولنفسه» وفيه أيضاً تستطيع الطبقة العاملة الصناعية وحدها أن تقدم مفاهيم الكوميوم والمجالس العمالية وأن تضعها موضع التنفيذ الفعلى. (Marx & Engels, 1971,P. 153).

وعلى أية حال، انتقد ماركس وبشدة السياسات التى اتبعها الكوميون الفرنسى، مشيراً إلى افتقاره للقيادة الاشتراكية وللأيديولوچية الاشتراكية المتماسكة. ولم يكن الكوميون فى نظره اشتراكياً، وحتى لا يستطيع أن يكون كذلك. ولذلك خلصت الأجيال الماركسية اللاحقة إلى نتيجة هامة مفادها أن الثورة البروليتارية الناجحة تتطلب ما هو أكثر من مؤسسات الطبقة العاملة ذات الحكم الذاتى، وبالتحديد تتطلب وجود حزب سياسى ثورى منظم وتوافر نظرية ماركسية إلى جانب الإدارة الاشتراكية المركزية. ومع ذلك، فإن التحليل الدقيق لكتابات ماركس عن الكوميون يوحى بأنه على الرغم من أن ماركس كان قد نظر إلى أحداث ١٨٧١ على أنها منيت بالفشل الذريع عن طريق قياداتها المتخبطة وغير المتماسكة، إلا أنه نظر إلى الكوميون نفسه على أنه تجسيد للنضال ضد الدولة والاتجاهات المركزية فى المجتمع الحديث، وكأنه كان تأكيداً متجدداً لاستقلالية المجتمع المدنى.

غير أن أعمال ماركس ككل ـ بدءاً بنقده الفلسفي لنظرية هيجل التسلطية عن الدولة، وانتهاءً بنقده العدائي للتصور الفوضوى Anarchist الذى قدمه باكيونن Bakunin عن الدولة كمصدر لكل مشاكل المجتمع الرأسمالى ـ تتميز على وجه الخصوص بالتوتر الحاد بين الطابع الديموقراطى والتحررى : فالدولة ـ كما يقول ـ عبارة عن «قوة اجتماعية مغتربة» تسيطر على المجتمع المدنى، أو هى بناء تسلطى مركزى يشكل عنصراً جوهرياً فى المجتمع ككل، ومن هنا، كانت سياسة الكوميون فى التحول نحو الديموقراطية فى نظر ماركس بمثابة جزء من عملية تحاول أن ترجع بالتاريخ إلى الوراء وفى عكس الاتجاه، لتفتح الأبواب على مصراعيها لثورات الماضى، ولتستثمر الدولة وأجهزتها للسيطرة على المجتمع المدنى. ولكن ماركس نفسه يعود فيؤكد فى أعمال أخرى له ـ مثل «الأيديولوجية الألمانية» و«البيان الشيوعى» ـ على أن الدولة تأسست تاريخياً على تقسيم العمل ومصالح الطبقة والصراع الطبقى، وكانت فى نهاية الأمر «الشكل الرسمى للعداوات الاجتماعية فى المجتمع المدنى» : لذلك فإن التحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية يتطلب مزيداً من المركزية. وتتشابه نظرة ماركس هذه مع نظرته التى تبناها فى نقده للبرنامج الماركسى للحزب الديموقراطى الاجتماعى الألمانى ـ الذى عرف ببرنامج جوتا Gotha سنة ١٨٧٥ ـ حيث رفض ماركس بسخرية شديدة مفهوم «الدولة الحرة »، وذهب إلى أن البرنامج كان بمثابة إعداد تفصيلى للوظائف الاجتماعية للدولة فى المجتمع الشيوعى يماثل تماماً لوظائفها فى النظام الرأسمالى. فى مثل هذه الكتابات عرفت الدولة بوضوح كأداة لقوى الطبقة، أو كبناء متكامل للمجتمع: لذلك، ففى النظام الاشتراكى سوف تسيطر الدولة، كديكتاتورية الطبقة العاملة، على المجتمع المدنى وتختفى فقط مع قدوم الشيوعية. إن الدولة وأجهزتها القمعية ستظل راسخة بشدة داخل المجتمع. غير أنه بعد تجربة الكوميون الباريسى فقط بدأ ماركس يتحول عن موقفه ليقدم متردداً نظرته عن الدولة كضد للمجتمع ويؤكد على ضرورة أن يستوعب المجتمع المدنى أو أن يلغى الأجهزة المتميزة للمجتمع السياسى، وأن يعكس الاتجاه التاريخى نحو مزيد من المركزية.

غير أن هذه الصيحات التحررية الراديكالية ظلت صامتة لدى ماركس وإنجلز: ففى كتاباتهما المنشورة كان الاثنان يميلان إلى اعتبار سيطرة وتركيز رأس المال قضية محورية وهامة. ومن ثم عنيا بطغيان رأس المال أكثر من عنايتهما بطغيان الدولة. ويظهر ذلك الموقف بجلاء وخصوصية فى مقال إنجلز الذى نشره «عن السلطة» On Authorityعام ١٨٧٢، وكتبه بطريقة موارية ضد الاشتراكية الفوضوية، وفيه رفض انجلز صراحة الأشكال الديموقراطية واللامركزية للسلطة. وفى هذا الصدد، كتب يقول: «إن الرغبة فى القضاء على السلطة فى الصناعات الكبرى أمر يتساوى مع الرغبة فى القضاء على الصناعة ذاتها، وهذا يعنى أنك تحطم آلة النسيج من أجل العودة مرة أخرى إلى دولاب الغزل اليدوى». إن الصناعات الكبرى والتطور الاجتماعى أمران يستحيل وجودهما دون سلطة. إن السلطة فى نظر إنجلز ليست خيراً بذاتها وليست شراً كذلك، بل هى أمر نسبى يرتبط بالموقف الاجتماعى. ولسوف تستطيع الاشتراكية فى نهاية الأمر أن تحول الوظائف السياسية للدولة إلى «وظائف إدارية بسيطة تعمل على حماية المصالح الحقيقية للمجتمع»، وبهذا المعنى تؤكد أقوال انجلز اتجاه النزعة الصناعية نحو المركزية: حيث تفرض السلطة من فوق المجتمع المدنى بدلا من أن يحاول استيعابها داخل إطاره النظامى (Marx & Engels, 1962,Vol .2·pp. 636 - 9).

نظرية الطبقة ـ فيبر:

لم يقدم كل من فيبر وماركس نظرية متكاملة عن الترتيب الطبقى الاجتماعى، ومع ذلك، فإن مناقشة فيبر للتدرج الطبقى كبناء متعدد الأبعاد يشتمل على الطبقة الاجتماعية والمكانة والحزب تعد بمثابة المصدر الأساسى للنظرية الاجتماعية الحديثة فى مجال الترتيب الطبقى الاجتماعى.

استند تفسير فيبر لماركس على نظرة معاصرة للماركسية كشكل من أشكال الحتمية الاقتصادية. وبوجه عام، تقبل فيبر ذلك التفسير الذى أعلنه بعض الماركسيين ـ مثل كاوتسكى Kautsky ـ والذى تمثل فيه كل ما هو سياسى فى كل ما هو اقتصادى. وعلى العكس من ذلك، أكد فيبر أن ما هو سياسى ليس ظاهرة ثانوية مشتقة، بل هو عنصر إيجابى فعال ومستقل يلعب

دوراً حيوياً في تركيب المجتمع الحديث. لقد رفض فيبر تحليل ماركس للرأسمالية كنسق أسس على الصراع الطبقي والتناقضات الداخلية، وعرفها بأنها نمط عقلاني للتنظيم يتميز تمييزاً واضحًا عن غيره من التكوينات الاجتماعية السابقة. وانتهى تأكيده على استقلالية ما هو سياسي، وسيطرة الطابع العقلاني على النظام الرأسمالي، برفضه للنظرية الماركسية فى الدولة كأداة لسيطرة الطبقة. وقد يكون من الملائم قبل الشروع فى مناقشة نظرية فيبر عن السيطرة، أن نعرج على منظوره العام عن الطبقة والقوة.

وعلى نحو ظاهرى سطحى، يبدو فيبر مشايعًا لأفكار ماركس: فالملكية، أو الافتقار إليها، تشكل «المقولات الأساسية لكل مواقف الطبقة »، كما أن العامل الحاسم الذى ينتج الطبقة يمثل «المصلحة الاقتصادية» ، ومع ذلك، يتمايز «موقف الطبقة» وفقًا لنوع الخدمات التى يمكن أن تطرح فى السوق. هنا ينفصل فيبر عن ماركس فى تأكيده على أن المهارة يمكن أن تمثل شكلا من أشكال الملكية لتؤدى بدورها إلى تمايز طبقى داخلى: ذلك أن الذين يعرضون الخدمات يتمايزون تمايزاً كبيراً وفقًا لأنواع الخدمات التى يعرضونها ووفقًا للطريقة التى يستخدمون بها هذه الخدمات. لذلك نجد فيبر يحدد ما أسماه بـ «الفرصة Chance داخل بناء السوق» على أنها «اللحظة الحاسمة التى تمثل شرطاً أو ظرفًا عامًا لمصير الفرد» . بهذا المعنى يكون «موقف الطبقة» فى نهاية الأمر هو نفسه «موقف السوق» . وفى تعليقه على بعض كتابات ماركس عن الطبقة، أشار فيبر إلى أنه « كانت النية متجهة نحو دراسة موضوع وحدة الطبقة فى مواجهة موضوع تمايزات المهارة » . ومن ثم، نراه ـ أى فيبر ـ يميز بين «الطبقات المالكة» ownership classes أو طبقات الملاك» (وهم الذين يحصلون على عائدات أو إيجارات من ملكية الأرض الزراعية والمناجم والمصانع) . وبين «الطبقات المتكسبة» aquistion classes أو «طبقات الكسب» (وهم الذين يعرضون خدمات للسوق، مثال ذلك الصيارفة والممولين وأعضاء المهن الفنية العليا الحرة الذين يتمتعون بوضع متميز من خلال قدراتهم أو تدريبهم) . ويصف فيبر هذه الجماعات بأنها «جماعات ذات امتياز إيجابى Positively Privileged، مقارنًا وضعهم فى السوق بـ «الجماعات ذات

الامتياز السلبي» Negatively Privileged وهي جماعات العاملين بالأجر الذين لا يمتلكون ملكية يمكن التصرف فيها، ولا تتوافر لديهم مهارات متخصصة. ولا تكون الطبقات في نظر فيبر كليات متجانسة متناغمة، بل تتمايز داخليًا تمايزًا كبيرًا لتستوعب عددًا كبيرًا من المصالح المختلفة. لذلك، كان الاتجاه الأساسي للرأسمالية يتمثل - على حد تعبيره - في الاتجاه نحو التوسع في الطبقات المتكسبة الأمر الذي يؤدي إلى خلق بناء اجتماعي جمعي Pluralistic يرتكز على أساس المؤهلات التعليمية.

ينطوي نسق التدرج الطبقي الجمعي إذن على تمايزات متعددة داخل الطبقة المسيطرة والوسطى والعاملة. ويصف فيبر نسق التدرج الطبقي للرأسمالية الحديثة بأنه يتكون من ثلاث طبقات : الطبقة العاملة وطبقة صغار البورجوازية Petty Bourrgeoisie أو «طبقة المثقفين» Intelligentsia (وهي طبقة تفتقر إلى الملكية المستقلة ولكن يتوقف وضعهم الاجتماعي على التدريب الفني المتخصص، ومن هؤلاء المهندسين والموظفين البيروقراطيين وغيرهم من عمال الياقة البيضاء)، ثم أخيرًا الطبقة التي تشغل أوضاعًا لها امتيازات خاصة من خلال الملكية والتعليم معًا. ولا يكشف هذا النسق المعقد للتدرج الطبقي عن علاقات بسيطة بين الموقف الطبقي والوعي على النحو الذي تصوره ماركس من قبل. فالطبقة عند فيبر تشكل عاملاً موضوعيًا حاسمًا في تركيب الوعي، فهي تؤثر في «فرص الحياة» أمام الأفراد بطرق كثيرة ومتنوعة. ولكن من الصعب أن تستبدل المصالح الاقتصادية ومصالح الطبقة على نحو آلي بما يسمى بالوعي الطبقي الباعث على التماسك. لقد رفض فيبر العلاقة التاريخية للطبقة بالتغير الاجتماعي. أي رفض مفهوم القوانين الموضوعية ذات الحتمية التاريخية للتطور الاجتماعي، لذلك، فإن الوعي ى ويدعم في الواقع الراهن أي داخل الموقف الأمبريقي للسوق. ومن ثم أطاح علم الاجتماع الفيبري بفكرة «الطبقة لذاتها» أي بفكرة وعي الطبقة وعيًا كاملاً بمصالحها التاريخية.

ويزداد نسق التدرج الطبقي الاجتماعي تعقيدًا، في نظر فيبر، بوجود «جماعات المكانة» Status Groups، حيث يميز فيبر الطبقات الاجتماعية عن

جماعات المكانة على أساس أن الموقف الطبقي يختلف عن موقف المكانة بسبب «التقدير الاجتماعي الخاص للشرف، سلبياً كان أم إيجابياً»، حيث يعتمد الموقف الطبقي أساساً على السوق، بينما يعلق موقف المكانة على الأحكام التي يصدرها الآخرون، تقييماً للوضع الاجتماعي للفرد لتنسب إليه تقديراً ايجابيًا أو سلبيًا. ولأن جماعة المكانة تتميز بأسلوب أو نمط خاص للحياة Style of Life «يشتمل على المسافة أو البعد الاجتماعي، وعلى إنكار العوامل الاقتصادية كأساس للعضوية، وعلى ارتباط بأنماط استهلاك غير نفعية، لذلك تقترب جماعة المكانة من الطبقة الاجتاعية الموحدة. وفي هذا الصدد يذكر فيبر أنه مع قدر من التبسيط، يمكن للمرء أن يقول أن «الطبقات» تتدرج فيما بينها وفقًا لعلاقتها بالانتاج وكسب السلع، بينما تتدرج «جماعات المكانة» فيما بينها وفقًا لمبادئ استهلاك السلع» ممثلاً في أنماط وأساليب خاصة للحياة. «وبالطبع قد ترتبط جماعات المكانة ارتباطاً وثيقاً بالملكية، وهنا يبدو ارتباط الطبقة بالمكانة: فقد تستطيع الطبقة المسيطرة اقتصادياً أن تكتسب وضع جماعة المكانة عن طريق الأجيال المتعاقبة. وقد ينتمي الأفراد المالكون والمعدمون معًا إلى جماعة مكانة واحدة، بينما تمارس الجماعات الأدنى سيطرة من الناحية الاقتصادية تأثيراً ونفوذاً اجتماعياً ملحوظاً. إن القضية التي يريد فيبر أن يؤكدها هي أن الطبقة والمكانة يشكلان معاً صورتين متميزتين لتشكيل الجماعة وتنظيمها: ولذلك فعلى الرغم من ارتباطهما المتداخل. تعبر الطبقة والمكانة عن بنائين متنافسين أو متقابلين للتدرج الطبقي، وبخاصة في علاقتهما بتوزيع القوة. فالقوة ـ كما يراها فيبر ـ ليست بعداً مستقلا للتدرج الطبقي، بل إن الطبقات الاجتماعية وجماعات المكانة والأحزاب السياسية مظاهر لتوزيع القوة داخل المجتمع» (Weber, 1964,, pp. 424- 429 & Gerth & Mills, 1948,pp 180 - 95)

ومن الناحية النظرية البحتة، يتضح أن هذا النمط الجمعي للتدرج الاجتماعي الذى قدمه فيبر يتصور وجود «المجتمع المدني القوى». فالقوة تشكل عنده تعبيراً عن توزيع المصالح داخل المجتمع المدني. غير أنه لا يمكن أن تتمثل القوة والطبقة في عناصر اقتصادية أو أحزاب سياسية باعتبارهما التعبير الوحيد

لمصالح الطبقة. ومن هنا، كان مبدأ الاستقلال على درجة كبيرة من الأهمية للفصل بين الدولة وبين بيروقراطية المؤسسات المرتبطة بالطبقة والمكانة والقوة. إن المجتمع المدنى - فى نظر فيبر - قوة حية، لذلك يمكن من الناحية النظرية أن تشكل الأحزاب طبقات أو أحزاب مكانة. ولكن نظراً للطابع المعقد للمجتمع الصناعى فإنها - أى الأحزاب - تكون أكثر شبهًا بـ «النماذج المختلطة». ويتصور هذا المدخل الجمعى لدراسة التدرج الطبقى أيضًا وجود صراع على المصالح، كما يتصور وجود تكوين اجتماعى مفتوح وأكثر مرونة. ولكن، كما هو الحال بالنسبة لماركس، هناك بعض التوترات والتناقضات بين أقواله السابقة وبين وعيه باتجاهات المجتمع الصناعى الحديث نحو المركزية.

الرأسمالية والبيروقراطية والديموقراطية : نظرية فيبر فى السيطرة :

ظل فيبر طوال حياته مقتنعًا بضرورة وجود دولة قومية ذات سلطة عليا فى كل المجالات السياسية والاجتماعية. ولقد أشارت دراساته المبكرة حول الظروف الزراعية لألمانيا الشرقية، إلى المشكلات التى تسببت عن غزو العمال البولنديين لإقليم ألمانيا بما يهدد الثقافة الألمانية. وبنهاية القرن التاسع عشر كانت ألمانيا قد تطورت فى شكل دولة قومية ومركزية لها ثقافتها القومية المتميزة، كما أمكن تحقيق التوحيد السياسى خلال البدايات الأولى للتطور الصناعى، لذلك أكد فيبر أنه لايمكن لألمانيا أن تصبح أمة صناعية حديثة إلا فى ظل توجيهات قادة سياسيين جدد. حقاً كانت الطبقة الأرستقراطية الاقطاعية مالكة الأرض لا تزال تهيمن على قطاعات كبيرة من الحياة السياسية الألمانية، إلا أن فيبر كان يعتبرها بمثابة طبقة منهارة عاجزة عن أن تولد القيادات الدينامية اللازمة. وبالمثل كانت البورجوازية الصناعية - كما صورها فيبر - طبقة حذرة مترددة وغير سياسية إلى جانب خضوعها التام للأرستقراطية الاقطاعية. زد على ذلك أن الطبقة العاملة الصناعية كانت عاجزة هى الأخرى عن الأخذ بزمام القيادة، إذ لم تكن طبقة ناضجة سياسيًا، فضلا عن أن قادتها فى الحزب الديموقراطى الاجتماعى كانوا قد طردوا بازدراء واعتبروا مجرد صحفيين من الهواة. لذلك نرى فيبر يحدد خصائص الطبقة الناضجة سياسياً بأنها التى تنبذ المصالح الطائفية الانقسامية من أجل مصالح القوة السياسية للأمة الألمانية.

تعرض فيبر للعديد من الموضوعات ذات الصلة بقضية القوة، وقد تحدد اتجاهه بصددها فى اعتقاده بأن كل الدول الحديثة تتطلب وجود بناء للسيطرة من خلاله يتمكن بعض الأفراد من حكم أفراد آخرين. وفى هذا الصدد، رفض فيبر صراحة ما اعتبره «تصورات أو مفاهيم سياسية يوتوبية» مثل الديموقراطية المباشرة، على أساس أن وجود مثل هذه المؤسسات أمر يصعب تحقيقه فى المجتمعات الحديثة الكبرى والمعقدة. كذلك قبل فيبر فكرة «التوسع فى الحقوق الديموقراطية» فى المجتمعات الحديثة، ولكنه ذهب إلى أن عملية التحول الديموقراطى للمجتمع تستلزم مزيداً من بيروقراطية القوة ومركزيتها تنهض على أساس معايير عقلانية للأجهزة البيروقراطية فى الدولة. ففى المجتمع الحديث تتحدد الوظائف الإدارية على أساس الحجم: حيث تختلف إدارة البناءات الجماهيرية اختلافا جذرياً عن العلاقات الشخصية فى إدارة الجماعات والروابط الصغيرة. ويعنى التوسع فى الإدارة أن أولئك الذين لديهم الخبرة والتدريب سوف يمارسون نوعًا من التفوق الفنى فى مجال الاضطلاع بالمهام المعقدة. من هنا نجد أن المذهب الديموقراطى الكلاسيكى، الذى استند على فكرة سيادة واستقلال الشعب، لا يمثل جزءاً حيوياً فى نظرية فيبر عن الديموقراطية، حتى أنه عندما كتب خطاباً لروبرت ميتشلز R. Michels الذى طرح فى كتابه «الأحزاب السياسية» Political Parties (١٩١١) عدداً من القضايا المماثلة عن طبيعة التظيم ـ ذكر له أن مفاهيم مثل «إرادة الشعب» أو «الإرادة الأصيلة والحرة للشعب» لم يعد لها وجود عنده منذ زمن بعيد لأنها مفاهيم زائفة، وأن كل الأفكار التى تسعى للإطاحة بسيطرة بعض الأفرادعلى أفراد أخرين يعتبرها أفكاراً يوتوبية خيالية (Mommsen, 1947, p. 87).

ومن بين القضايا الهامة التى طرحها فيبر، قضية أن ظهور الأحزاب السياسية الحديثة ـ وهى فى حد ذاتها تطور ديموقراطى ـ عملية تؤدى إلى مزيد من التحول البيروقراطى ومزيد من إضعاف المبادأة والفعل الإنسانى. وجدير بالذكر أن دعمه الأيديولوجى للدولة الألمانية القوية مع عدم ثقته بالديموقراطية الشعبية كان موقفًا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بدراسته السوسيولوجية للبيروقراطية. فقد وصف الشكل العقلانى الشرعى للسيطرة بأنه محاولة لاقتلاع كل العناصر

الشخصية والعاطفية واللاعقلانية للإدارة. فهو يرى أن الإدارة البيروقراطية عملية تخضع الفرد لتقسيم عقلانى متخصص للعمل، ولمزيد من العقلانية فى كل مجالات الحياة الاجتماعية. وبطريقة تشاؤمية للغاية وصف فيبر هذه العملية على أنها بمثابة «قضبان جديدة للعبودية» أو «عالم يحط من قدر الإنسانية».

وللديموقراطية البرلمانية (النيابية) نتائجها السلبية فى نظر فيبر، منها أن جماهير الشعب تكون غير متعلمة وجاهلة سياسياً، بالإضافة إلى كونها عاجزة عن إصدار الأحكام السياسية السليمة. إن الهدف الحقيقى للديموقراطية يتمثل، على حد تعبيره، فى خلق القادة الملهمين (الكاريزما Charismatic) القادرين على فرض زعامتهم على جماهير الشعب، لا من خلال سياسات معينة، بل عن طريق ما يختصون به من صفات شخصية. وبهذه الطريقة قد تقابل اتجاهات التحول نحو البيروقراطية بظهور الشخصية المؤثرة ذات القوة، والتى بمقدورها أن تعمل على تكامل جماهير الشعب المعدمة فى المجتمع الحديث. ومع ذلك، تنهض الأحزاب السياسية الشعبية الحديثة على مبادئ بيروقراطية للتنظيم، ومن ثم فإن الاتجاه الأساسى للمجتمع الحديث هو أن تختار الأحزاب قادتها وتطرحهم للانتخاب من أجل الوصول إلى مقاعد البرلمان. وبعبارة أخرى غدت الديموقراطية فى نهاية الأمر نمطاً لاختيار القيادة.

وفى كل كتاباته، أكد فيبر على أن النضال من أجل القوة كان خاصية لازمة لكل الحياة الاجتماعية، بحيث يسيطر على كل مجالات الفعل الاجتماعى، وأن الأحزاب توجد لكسب القوة. وقد يكون من الأهمية بمكان أن نتفهم تصور فيبر للقوة فى هذا السياق: لم يتقبل فيبر الموقف الماركسى الذى يعرف القوة فى ضوء المصالح الاقتصادية وبناء الطبقة. فالقوة عنده لا تعرف إلا فى ضوء الفعل الاجتماعى باعتبارها «الفرصة التى تتاح للفرد، أو مجموعة الأفراد، لكى يحقق إرادته الخاصة فى فعل جمعى مشترك حتى ولو كان فى مواجهة الآخرين المشاركين له فى الفعل». (Gerth and Mills, 1948, p. 180). وليس من الضرورى فى نظر فيبر أن يجاهد الفرد كسباً للقوة من أجل المكاسب الاقتصادية وحدها. فالقوة ـ بما فى ذلك القوة

الاقتصادية ـ قد تقيم لذاتها أو للشرف الاجتماعي الذى تضفيه على صاحبها ومن ثم، لا يكون هناك مصدر واحد للقوة. ولعل من أهم ما يترتب على فكرة فيبر هذه أن تغيرات التنظيم الاقتصادى للمجتمع لا تستطيع بالضرورة وعلى نحو آلى بحت إحداث تغيرات في توزيع القوة. هذا وعلى الرغم من أن أعمال عالم السياسة الإيطالى جاتانوموسكا "Geatano Mosca" (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) كانت أكبر تحدى سوسيولوچى لقضايا ماركس من الناحية التاريخية، إلا أن موسكا ذاته كان قد طور أفكاره وقضاياه متأثراً بكتابات روبرت ميتشلز R.Michels (١٨٧٦ ـ ١٩٣٦) وماكس فيبر : ففى الوقت الذى تمثل فيه التنظيمات السياسية والبيروقراطية مصادر أساسية للقوة فى نظر موسكا وميتشلز، ظهرت نظرية فيبر عن السيطرة البيروقراطية كتطوير أكثر تعقيداً لنفس الفكرة.

وفى كتابه "Elementi di Scienza Politica" الذى ترجم إلى الإنجليزية فيما بعد تحت عنوان «الطبقة الحاكمة» "The Ruling Calss" ونشر لأول مرة عام ١٨٦٩، بدا موسكا وكأنه يتابع ماركس فى قضيته التى تقرر «وجود طبقتين أحدهما حاكمة والأخرى محكومة، كقاعدة فى كل المجتمعات»، فالقوة السياسية فى نظره تمارس دائمًا من قبل الأقليات المنظمة التى تفرض حكمها على الجماهير غير المنظمة. وتتمتع هذه الطبقة السياسية ـ أو الحاكمة بسلطة فعلية وشرعية، كما أن اختيار المرشحين من قبل الأحزاب السياسية في المجتمعات الديموقراطية يكون دائماً نتاجاً للأقليات المنظمة. ويؤكد موسكا على أن الطبقة السياسية لا تمثل مصالح اقتصادية، بل تكون شريحة اجتماعية مستقلة، أو جماعة صفوة طبيعية «لها وضعها الاقتصادى الذى يستقل عن أولئك الذين يمتلكون قوة أسمى ويستحوزون على الوسائل الكافية التى تمكنهم من تكريس جزء من وقتهم لاستكمال ثقافاتهم وتحقيق مصالحهم فى الصالح والخير العام». وتمثل هذه الصفوة فى نظر موسكا أفضل عناصر الطبقة الحاكمة. ومن ثم ذهب إلى أن استقرار انجلترا فى القرن الثامن عشر لم يكن راجعًا إلى مؤسساتها البرلمانية بقدر ما يعزو إلى استمرار بقاء طبقتها السياسية. ولعل من أهم نتائج هذه النظرية ذلك التأكيد على أن الدولة

ليست تعبيراً عن المصالح الطبقية، بل تمثل مؤسسة تنهض على قوى أخلاقية ومادية، وتحاول جاهدة أن توحد بين كل الجماعات الاجتماعية داخل الأمة (Mosca, 1939, pp. 144- 5.).

ويعتبر التنظيم البيروقراطى مدخلا لفهم القوة السياسية فى نظر موسكا، وفى هذا الصدد، عرض موسكا قضاياه وصاغها على شكل قوانين ـ مثل قانون الأقليات المنظمة ـ لها نفس قوة القوانين الطبيعية : لذلك نجده يتخلى تمامًا عن نظرية ماركس فى الاشتراكية بقوله : «إنه ليس هناك تنظيم اجتماعى يمكن أن يستند كلية على مشاعر العدالة»، ذلك لأن الطبيعة الإنسانية تتميز بلا عقلانيتها وسعيها الدائب وراء الثروة والقوة والعبث الدنيوى. ويستند نقد موسكا لما تميزت به الاشتراكية من طابع جمعى على نظريته فى التنظيم وفكرته عن الطبيعة الإنسانية: حيث يرى أن الديمقراطية ستصبح حكماً للأقليات المنظمة التى ـ رغم المظاهر المتناقضة مع كل المبادئ الشرعية التى تستند عليها الحكومة ـ تظل محتفظة بسيطرتها الفعلية والمؤثرة على الدولة». ويلقننا التاريخ ـ على حد تعبيره ـ درسًا مفاده أن التقدم الاجتماعى أمر لا يتحقق إلا إذا خضع من يمتلكون القوة لسيطرة من يتمتعون بأوضاع مستقلة تمامًا ولا يشتركون فى مصلحة عامة مع الذين يستخدمون القوة. ويستطرد موسكا قائلا «أن وساطة القوة تميل إلى الاختفاء مع تطور الجمعية، وأن الاعتقاد الأعمى فى الجماهير لا يؤدى إلا إلى تقويض المراكز المتعددة للقوة السياسية» (Mosca, 1939, pp. 50- 87.).

هكذا، كان علم الاجتماع ذو النزعة التشاؤمية عند موسكا بمثابة النقد اللاذع لما عرف بالديموقراطيات الشعبية، وللتهديد الذى تعرضت له الأقليات الحاكمة نتيجة ظهور الأحزاب السياسية ذات التنظيم البيروقراطى فى دعواها بتمثيل مصالح الجماهير «اللاعقلانية». وبنفس الطريقة، قدم ميتشلز Michels ـ فى كتابه «الأحزاب السياسية» "The Political Parties" (١٩١١)، عدداً من القضايا التى عبرت عن «القانون السوسيولوجى للحتمية الأوليجاركية» : حيث يذهب أن كل التنظيمات، بغض النظر عن أيديولوجيتها الديموقراطية، ستصبح بالضرورة تنظيمات بيروقراطية أوليجاركية، ذلك أنه « كنتيجة لازمة عن

التنظيم»، يصبح كل حزب أو اتحاد مهنى منقسماً إلى أقلية تدير وأغلبية تدار».
واستناداً إلى الاتجاهات البيروقراطية فى الحزب الديموقراطى الاجتماعى الألمانى (الذى كان أكبر الأحزاب السياسية الماركسية فى أوربا وقت أن أعد ميتشلز دراسته) حاول ميتشلز، شأنه فى ذلك شأن موسكا، أن يوضح الاتجاه الحتمى للسيطرة البيروقراطية على الدولة، وأن يكشف النقاب عن الوسائل التى عن طريقها تنجم هذه العملية عن المتطلبات التنظيمية للمجتمع الجماهيرى الحديث. ويعمل «القانون الجديد للأوليجاركية» عند ميتشلز خلال المؤسسات الاجتماعية، ويعنى حكم الموظفين البيروقراطيين لممثلى الشعب فى البرلمان والذين انتخبوا بطريقة ديموقراطية، كما يعنى السلطة المرتكزة على الأوضاع داخل التسلسل الهيراركى لطبقة الموظفين. أن التنظيم البيروقراطى بمثابة قانون طبيعى يحدد بناء الأحزاب السياسية الحديثة واتحادات العمال والنقابات. ويضيف ميتشلز قوله أنه «فى النظام الرأسمالى يتزايد اكتساب الإداريين للسلطة أو على الأقل يكتسبون سلطة تتساوى مع سلطات المالكين لرأس المال، أما فى النظم الاشتراكية فسرعان ما تتبدد أحلام مبادئ ومثل مجتمع اللاطبقة فى اللحظة التى تحقق فيهاانتصارها... إن ضرورة البيروقراطية وحتميتها توجب سيطرة المنتخبين على الناخبين، أو سيطرة المفوضين على من قاموا بتفويضهم نيابة عنهم، أو سيطرة النواب على من اختارهم. لذا، فمن قال بالتنظيم يقول حتماً بـ «الأوليجاركية» (Michels, 1962, pp. 333 - 56.).

وكما رأينا من قبل، شارك فيبر كل من موسكا وميتشلز رفضهما للمبادئ اليوتوبية للاشتراكية. فقد ذهب إلى أن تقسيم العمل البالغ التخصص والذى يشكل العمود الفقرى للاقتصاد الحديث، يجب أن يؤدى بالضرورة إلى مزيد من الاتجاه نحو البيروقراطية : إن الأشكال البيروقراطية للتنظيم، والتى تعلو فى نظره كل الأشكال الأخرى من الناحية الفنية، تعد مطلبًا ضرورياً وحيوياً للتخطيط واسع النطاق ولتحريك الموارد. وعن طريق التنظيم البيروقراطى وحده يصبح بالإمكان تطوير التكنولوجيا والاقتصاد والسياسية فى المجتمع الحديث. ومثل البناء البيروقراطى المتطور، إذا قورن بالتنظيمات الأخرى، مثل نمط الانتاج الآلى الحديث إذا قورن بالأنماط غير الآلية للانتاج. وتتميز

البيروقراطية بعدة خصائص مميزة منها: الدقة والتحديد، والسرعة، والوضوح، والمعرفة القائمة على السجلات، والاستمرارية، والتحفظ والاجتهاد، والوحدة، والتبعية، والخضوع، إلى جانب أن الإدارة البيروقراطية يكون لها مجالا محدداً بوضوح للجدارة والكفاءة، ينتظم فيه موظفوها فى تسلسل رئاسى متدرج وهيراركى يحدد بوضوح تام الأوضاع المختلفة، ويعينون ـ ولا ينتخبون ـ على أساس القدرات والمؤهلات الفنية. هذا بالإضافة إلى أن الموظفين يكونون أكثر حرية على المستوى الشخصى ولا يخضعون للسلطة إلا فى حدود واجباتهم والتزاماتهم البيروقراطية غير الشخصية. ويتطلب تطور المجتمع الحديث هذا النمط الخاص من الإدارة، لأنه كلما كانت الرابطة أو المجتمع أكبر حجمًا كلما زادت مهامه تعقيداً وكلما زاد اعتماده على تنظيم عقلانى، وبهذا المعنى فان المستقبل سيكون لا محالة عصر البيروقراطية أو التحول البيروقراطى.

ويشكل التحول البيروقراطى المتزايد للحياة الاجتماعية، فى نظر فيبر، الصورة البنائية الكبرى للرأسمالية الحديثة: فعلى الرغم من أن الكفاءة العقلانية الناجمة عن التنظيم البيروقراطى قد تمكن الإنسانية من التطور على الصعيد الاقتصادى والسياسى والتكنولوجى، إلا أن هذا التقدم له نفقاته الباهظة، التى تتمثل فى انقسام الروح الإنسانية والانحطاط بإنسانية الذات. وكما هو الحال بالنسبة للاشتراكية، سيؤدى التنظيم البيروقراطى إلى مزيد من مركزية النظم والمؤسسات وديكتاتورية الإدارة البيروقراطية. وهكذا بلغ تشاؤم ڤيبر ذروته لينتهى إلى القول بأن المجتمع الحديث لن يتمكن بحال من الأحوال من الهروب أو التخلص من التنظيم البيروقراطى.

ويترتب على ذلك أنه ثمة تناقضًا يتواجد بين الاتجاهات الديموقراطية للمجتمع البورجوازى، وبين الروح المعادية للديموقراطية والتى تسيطر على التنظيم البيروقراطى. لقد خلصت تحليلات فيبر إلى أن البيروقراطية ستصبح المصدر الرئيسى للسلطة في العالم الحديث: حيث تعبر كل سلطة عن نفسها وتعمل من خلال الإدارة. وحيث تحتاج كل إدارة، فى الجانب المقابل، إلى السلطة، لأنه من الضرورى دائمًا أن تكون القوى الآمرة والمسيطرة فى أيدى شخص ما (Weber, 1954, p. 330) . وهذا ما أسماه فيبر بـ «التنسيق الملزم»

imperative coordination أى احتمالية أن تطاع الأوامر بغض النظر عن مضمونها ودرجة إدارتها. وتتميز السيطرة عن القوة فى أن السيطرة تحمل طابع الشرعية وأهميتها بالدرجة التى تجعل الأفراد يطيعونها وذلك لاعتقادهم وإيمانهم بثبات المعايير المنظمة للأوامر. وليست السيطرة ـ فى نظر فيبر ـ مجرد واقع خارجى للآمر المطاع، بل تتضمن أيضاً عنصراً أو مقوماً ذاتياً كما لو كان المحكومون يتخذون مضمون الأمر موعظة أساسية توجه نشاطهم. وفى هذا الصدد، يختلف فيبر اختلافا كبيراً مع موسكا فى بحثه عن الأساس الطوعى والإرادى للقوة، حيث يقول «أن عملية استقراء الخبرات والتجارب تشير إلى أنه ليس هناك نسق للسيطرة يحدد نفسه بطريقة طوعية فيلجأ إلى دوافع مادية أو مثالية يتخذها كأساس لضمان استمراره بل أن كل نسق للسيطرة يحاول أن يغرس ويعمق الإيمان بشرعيته » (Weber, 1954, p. 325) .

ويحدد فيبر ثلاثة نماذج مثالية للشرعية هى: الشرعية التقليدية، التى تستند على الاعتقاد الراسخ فى سلطة التقاليد، والشرعية الكاريزمية التى تنهض على أساس القرارات الملهمة للقادة العظماء والمدعمة بقدرات وملكات «سحرية» أو خارقة، ثم أخيراً الشرعية العقلانية التى تبنى على أساس الاعتقاد بمشروعية القواعد القانونية وبحق من هم فى السلطة فى إصدار الأوامر التى تجد فى القانون أساساً لها. لذلك، تحمل الأوامر دائماً حداً أدنى من الإذعان الطوعى، فهى تطاع بسبب الإيمان بمشروعية السلطة. فالمسألة عند فيبر إذن ليست مسألة «جماعة أقلية منظمة» ولا «صفوة» تفرض حكمها على الجماهير غير المنظمة، ولكنها عملية إضفاء الطابع النظامى على الدعم الداخلى «الذى تسبغه الذوات الإنسانية على الأنماط المختلفة للسلطة. ومن ثم، كان علم الاجتماع الفيبرى فى السيطرة أقل اهتماماً بتحديد مصادر السيطرة فى قوى مادية كالملكية مثلا، موجهاً جل عنايته إلى الأيديولوجيات التى تضفى المشروعية على أشكال الحكم المختلفة.

ويتميز المجتمع الحديث، فى نظر فيبر، بالسيطرة العقلانية القانونية التى تتمركز حول البيروقراطية. وفى هذا الصدد، ذهب فيبر إلى أن نظام الانتاج الرأسمالى يخلق باستمرار حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة وحازمة ومركزة

ودقيقة»، وأنه في مجال الإدارة تقع فرصة الاختيار «بين البيروقراطية والهواية». ففي محاضرة له عن الاشتراكية عام ١٩١٨، ذهب فيبر إلى أن الديموقراطية الحديثة ديموقراطية ذات طابع بيروقراطي، حيث ينفصل الجهاز الإدارى كلية عن مسائل الملكية، وتنهض كل المشروعات البيروقراطية، بدءاً بالمصانع وانتهاءً بالجيش أو التعليم، على معايير فنية للكفاءة معتمدة على سلطة عقلانية قانونية وتحاول باستمرار عزل الفرد عن وسائل الانتاج والعمل. وتعمل الاشتراكية على الاسراع من هذه الاتجاهات وعلى تمهيد الطريق «لعبودية جديدة»، ذلك النمط البيروقراطي للسيطرة الذى يخنق كل الحريات وكل نشاط إنسانى مستقل.

والواقع، كانت أفكار فيبر ذات بصيرة بالأحداث في ضوء التطورات اللاحقة التى حدثت داخل النظام الرأسمالى وفى مجتمعات اشتراكية الدولة. حيث شهدت كلها نمواً ملحوظاً فى مجال الإدارة البيروقراطية. ولقد كان فيبر - بما لا يدعو مجالاً للشك - محقاً فى تأكيده على الاستقلال النامي للدولة وعلى حاجة المجتمعات الصناعية الحديثة إلى الشرعية. ومن ثم نجد أنه على الرغم من الانتقادات التى وجهت لما قدمه فيبر عن تنميط للسيطرة (خاصة وأنه كان يشكل تصنيفاً أو بناءً شكليًا للمفاهيم دون أن يقدم نظرية تعنى ببحث الأداء الفعلي لمختلف أنماط السيطرة. بما فى ذلك أجهزة القمع فى الدولة كالشرطة والجيش... الخ). إلا أنه تمكن من توضيح العنصر الذاتي في بناءات السلطة، ففى محاضرة له حول «السياسة كحرفة» "Politics as a Vocation" عام ١٩١٨، اقتبس فيبر تعليق تروتسكى Trotsky «أن كل دولة تؤسس على القوة»، ثم أضاف قوله بأن «الدولة الحديثة ليست ببساطة جهاز قمعى ولكنها مجتمع يطالب باحتكار العنف الشرعى» (Gerth and Mills, 1948, pp. 78 - 83)

وعلى الرغم من أن السيطرة تنطوى - فى نظر فيبر - على عنصر القبول والموافقة الذاتية، إلا أنه ظل محتفظاً بنظرة تشاؤمية بحتة نحو الديموقراطية الحديثة. فهو يرى أن الجماهير تمنح الشرعية بطريقة سلبية تماماً : إذ لا يتوافر لديهم الإحساس العميق بالعلاقة الإيجابية بين الجماعات والطبقات المختلفة

. فى المجتمع المدنى وبين جهاز الدولة. وفى هذا الصدد، تقبل فيبر نظرية ميتشلز عن الديموقراطية الشعبية وعن حتمية حكم «الموظفين». ومن هنا، حذفت قضية الضبط والسيطرة الديموقراطية الشعبية برمتها على أساس أن المجتمع الصناعى الحديث استوجب ضرورة فرض الإدارة البيروقراطية «من فوق أو من عل». غير أن مفهوم السيطرة ـ كما أشرنا من قبل فى نظرية فيبر عن التدرج الطبقى الاجتماعى ونظريته فى البيروقراطية ـ يرتكز أساساً على وجود المجتمع المدنى المستقل. إذ أنه من داخل المجتمع المدنى القوى فقط تستطيع الذات أن تتقبل السيطرة على نحو إيجابى، وأن تمنح الشرعية من خلال المؤسسات الاجتماعية والسياسية. وباختصار، قدم فيبر وصفاً دقيقاً للضرورة الفنية للسيطرة العقلانية والمشروعة، وبالتالى لظهور طبقة الموظفين داخل جهاز الدولة من أجل توجيه المجتمع الحديث، والتى شكلت بدورها عملية ديموقراطية سهلت الحراك والترقى بالاستحقاق والأهلية والجدارة. غير أن عملية التحول البيروقراطى هذه والتى تبدو أنها ستؤدى لا محالة إلى زيادة المركزية وحكم الأقلية للأغلبية، وبالتالى إلى أفول المجتمع المدنى كبناء مستقل، تتناقض مع إصرار فيبر على أن التغير الاجتماعى، وبالتالى المجتمع ذاته، نتاج للفعل الإنسانى. وهنا فشل فيبر فى أن يوفق بين ما قدمه من علم اجتماع سياسى تميز بتشاؤمية واضحة، وبين ما قدمه من علم اجتماع الفعل الاجتماعى الذى غلبت عليه نظرة تفاؤلية ملحوظة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن ما قدمه من علم اجتماع البيروقراطية والديموقراطية كان يفتقر إلى نظرية ملائمة ومتسقة عن المجتمع المدنى.

الفصل السادس عشر

أزمة علم الاجتماع الغربى والبدائل المطروحة

مقدمة .

١- مقولة العقل والوعى .

٢- الوعى بالعلم والوعى المغترب .

٣- الوعى بأزمة العلم .

٤- الوعى بأزمة المجتمع العربى .

٥- الوعى البديل .

خاتمة .

الفصل السادس عشر

أزمة علم الاجتماع الغربى والبدائل المطروحة

مقدمة :

علم الاجتماع « منتج » عربى - إسلامى أفرزته العقلية العربية عندما وصل الوعى الإسلامى الحضارى الى قمته . وعلم الاجتماع ليس فى حاجة الى من يثبت هويته ونسبة العربى ، فالذى يلحق صفة العربية أو الإسلامية لعلم الاجتماع ، مثله فى ذلك مثل الذى يلحق العربى للعربية أو التوحيد للإسلام - أن مواجهتنا « للآخر » لاتعنى وتتضمن تأكيدا لهوية علم الاجتماع ، فلابد وأن نكون على وعى كاف بما لدينا وبأصالتنا ولانقع فريسة للوعى « المغترب » أيا كان شكله ومصدره . إن علم الاجتماع - مثله فى ذلك مثل معظم العلوم الاخرى التى جاءت من الشرق ونقلت إلى الغرب - عاد الينا مغلفا بالطابع الغربى وبأسماء أجنبية ، وما علينا ألا نزيل هذا الطلاء الخارجى حتى يتضح لنا هوية هذا العلم . ولن يتأتى ذلك إل بوعى يقظ للمشتغلين بهذا العلم ، وعى يقظ بكيفية التأريخ للعلم ، وعى يقظ بوظيفة هذا العلم ، وعى يقظ بدور عالم الاجتماع فى واقعه العربى ، ووعى بأزمة هذا العلم - سواء فى بيئته الغربية أو العربية - ووعى بالوعى البديل ».

والحق أنه لم يعد العلم عنصرا هاما فى تحديد شكل الحياة اليومية ، إلا فى المائة وخمسين السنة الأخيرة . وسوف يستمر العلم فى إحداث تغيرات تزيد من سرعتها على مر الأيام . وأهم ما قد يشغل الباحثين الآن هو الصور الجديدة التى يتطلبها العلم من تغيرات . لقد اكتسب العلم وضعا جديدا فى تكوين الوعى ، إن العلم - أى كان طبيعته - أداة خلاقة للبناء . والعيب ليس فى العلم ، ولكن فى وعى العلم ومقصده ،

فقد يستغل العلم - كأداة - من أجل الهدم أو البناء ، وقد يستخدم العلم لتزييف وعى الجماهير ، وقد يستخدم العلم لتزييف حقائق الواقع ، وقد يستخدم العلم لتزييف وعى العالم نفسه ، إن العيب ليس فى العلم ولكن فى ذات أنفسنا وأن الأزمة تكمن لا فى العلم ذاته ، بل فى تزييف وعينا بعلمنا وواقعنا . إن الفاحص الواعى للحضارة الإسلامية يشهد بأن كافة العلوم استخدمت من أجل البناء ورفاهية الإنسان ، فلم يستخدم العلم لتزييف واقعا ، ولم تهدد قيمة أى علم طالما كان نافعا ، ولم يكن هناك « فصام » بين العلم والدين .

لاشك أن العلاقة بين العالم والعلم تتحدد فى ضوء السياق الاجتماعى أو الحضارى للفترة التاريخية . بمعنى ، أن هناك علاقة تفاعلية بين العالم والعلم ينتج عنها « وعى » قد يكون صادقا ويقظا أو يكون كاذبا ومزيفا . ولاشك أن هذا الطرح يؤدى الى « فهم أكثر نضجا » للعلم ووعى العالم ولطبيعة أزمة العلم . ومن ناحية أخرى يؤدى هذا الى تحديد واضح لوظيفة العلم ودور العالم فى المجتمع . ولاشك أن إشكالية الوعى بالعلم قد تمثل إحدى مظاهر الأزمة التى يعيشها العلم ذاته - خاصة علم الاجتماع . فالوعى بالعلم لدى الباحث يجعل من دوره إما موجها للواقع أو ينحصر دوره لتبرير ماهو قائم وواقع . ولقد لخص أحد الباحثين هذه الاشكالية على النحو التالى : « إن الإشكالية الحقيقية للعلم الاجتماعى تكمن فى « وعى » المشتغين به بالجدلية القائمة بين ثلاثية العلم - الباحث - السياق الاجتماعى ، وما يرتبط بهذه الثلاثية من مشكلات وقضايا كالموضوعية والحيادية والإلتزام وارباداع والمسئولية الاجتماعية لهذا العلم »[1] .

---

(١) عاطف أحمد فؤاد، فى الوعى بالعلم : القاهرة : دار الكتب للنشر والتوزيع ،١٩٨٦، ص ص ٢٤،٢٢ ، ٣٧ ، ٣٨ .

وبدون الدخول فى مقولات علم الاجتماع المعرفة ، فإن تاريخ العلم - خاصة علم الاجتماع - تشير الى أن هناك حركة تفاعل بين العالم ومجتمعه وقد تتخذ حركة التفاعل أشكالا سلبية أو إيجابية ، إلا أنه فى نهاية المطاف ، فإن العالم محاصر بقيم مجتمعه وحضارته ، هذه القيم تم إستدماجها فى وعيه العلمى وأصبحت جزءا من كيانه فهو يرى العلم والمجتمع ومشاكله من خلال هذا الوعى . إن الوعى الصادق للعلم الاجتماعى يجعله يشعر بضرورة خصوصية العلم الاجتماعى . فالعلاقة بين العالم والعلم والمجتمع تقتضى أن يكون العالم على قدر عال من الوعى والفهم لخصوصية المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم خصوصية العلم الاجتماعى الذى يحسب أنه يوظف فى هذا المجتمع .

ومن المعروف أن العلم الاجتماعى يحمل مضامين أيديولوجية وموجهات سياسية ، فعلم الاجتماع لايمكن أن يكون متحررا من القيمة ، بسبب أن العلم الاجتماعى يتعامل مع الواقع الاجتماعى بكل مايتسم به من صراعات ين الجماعات الاجتماعية وعالم الاجتماع ما هو الا إنسان يتعامل مع بشر فى محيط اجتماعى يتميز بمواقفه المعقدة والمتناقضة . ولهذا فالتحرر من الموقف أو القيمة أمر صعب التحقيق . فلابد لعالم الاجتماع إذن من « موقف » فللباحث الاجتماعى ايديولوجية وانتماءاته وقيمه فهو محاصر بكل هذا ، وهذا ما يشكل وعيه ويكون له موقفا من كل القضايا المطروحة أمامه . فالباحث الواعى قد يهتم بالقضايا العامة لمجتمعه ، إلا أن هذا الانتقاء للقضايا العامة ذاته يخضع لمتغير الإنتقاء الذاتى . من قبل الباحث ووعيه ، فأولوليات هذه المشاكل وكيفية طرحها ومعالجتها وتحليلها وتفسيرها تخضع بلاشك للموجهات القيمية للباحث ، ووضوح درجة الوعى الخلاق واليقظ لديه. إن كل هذا يؤكد حقيقة واحدة وهى أن وعى العالم بعلمه يجعله

يرفض رفضا قاطعا أن يكون هو نفسه أو يكون علمه محض « أداة » يستخدمها أى شخص أو جماعة تستهدف تشويه الحقيقة أو تزييف الواقع أو تعتيمه ، إن هناك العديد من المحاولات الجادة لتقديم الوعى البديل وتقديم علم اجتماع بديل إلا أن هذه المحاولات مازالت فى بداية الطريق ومازالت تحتاج إلى جهود منظمة لإخراج علم له وعى ، مع بيان كيفية استخدامه فى دراسة الواقع العربى .

إن الوعى « البديل » الذى نريده ينظم حركة علم الاجتماع بتفاعله معها .ويكون وعيا قادرا على مواجهة الوعى « المغترب » والمهيمن ، هذا الوعى البديل يرتبط بالواقع الاجتماعى والاقتصادى للبدء منه لتجاوزه ، وبصفة اساسية إدراكه وتصوره وتفسيره لخصائص الوعى المغترب والمهيمن ، وما قد يحتويه من تناقضات وثغرات ، لقد فشلت العديد من المحاولات السابقة ، لأنها لم تبدأ من الوعى القائم خاصة وعى الجماهير ، وبدلا من أن تثرى الوعى البديل ، فإنها وقعت فريسة الوعى الزائف والوعى المغترب .

لقد أدى الوعى « المغترب » إلى نقل أفكار ونظريات محبوكة الصياغة أعلنت فى ظاهرها أن مسعاها إنجاز تنمية حقيقية ، لكنها أفضت الى تكريس التخلف وإعادة إنتاجه . واسهمت فى تعميق التبعية الفكرية والعلمية ، وحتى الجهود النقدية ، انشغلت بعضها بنقل النقد الذى أتى بعض المهم منه من المصادر ذاتها التى صاغت فى أول الرواية الأفكار والنظريات نفسها التى أسهمت فى إعاقة التنمية . واشنغل بعض آخر بالدفاع الطويل عن أفكار وبدائل نظرية محددة ، الأمر الذى أسهم فى وجود إنحسار نسبى للدراسات المتعمقة حول الواقع الاجتماعى والاقتصادى العربى ، وخصوصياته ، فى علاقاتها بالقوانين الاساسية

والعامة لتطور المجتمع البشرى . وبالتالى لم تتوفر التربة الخصبة لأختبار هذه الأفكار أو تلك ، ولظهور أفكار نوعية مرتبطة ومعبرة عن الحالة النوعية للبناء الاجتماعى العربى ومتطلبات تغييره »[1] .

خلاصة ماسبق أن الوعى بعلم الاجتماع لايزال محدودا بأفكار غربية لم تتجاوز الظنريات والمفاهيم الغربية ، فلم ينظر الى علم الاجتماع على أنه أداة فى يد العالم لتحرير العلاقات الاجتماعية وتحرير العقل من كل ضروب الجهل ، ولهذا فإن علم الاجتماع بوضعه الحالى يحمل مصالح خاصة ويكرس تبعية فكرية ويبررها ولهذا يمكن وصفه ووسمه بأنه حمال للوعى الزائف والكاذب . نحن فى أشد الحاجة الى « حى بن يقظان » جديد ، ذلك العقل الواعى المستنير الذى يصل الى الحقيقة - كما أقرها الإسلام - ويعود الى أمته يعلمها ويرشدها ويخرجها من الظلمات الى النور ، نحن فى مسيس الحاجة إلى إعادة بنية الوعى العلمى ليكون بمثابة الفيصل فى التفرقة بين « الزبد » و « ماينفع الناس » .

إن من نتائج الثورة العلمية الجديدة هى ضرورة إعادة النظر فى مفهوم العقل ذاته فقديما كان ينظر إلى العقل كمحتوى . أما الآن فلقد أدى تطور العلم وتقدمه الى قيام نظرية جديدة فى العقل قوامها النظر الى العقل باعتباره أداة أو فاعلية فالعقل - حسب التصور العلمى المعاصر - ليس مجموعة من المبادىء ، بل القدرة على القيام بإجراءات حسب مبادىء ، أنه نشاط منظم حسب قواعد معينة والعلم لايؤمن بمصدر آخر للعقل وقواعده غير الواقع ، وهو أن قواعد العقل إنما تجد مصدرها الأول

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، الوعى التنموى العربى ، ممارسات بحثية ، القاهرة ، دار الموقف العرب ، ١٩٨٩ ، ص ٧ .

فى الحياة الاجتماعية التى تشكل أول أنواع الواقع الحى الذى يحتك به الانسان ، بل ويعيش فى كنفه والحياة الاجتماعية لاتستقيم إلا بقواعد ومعايير تنظم هذا التعامل والإنسان لايحيا حياة اجتماعية . إلا بخضوعه لتلك القواعد وتتعدد صور الحياة الاجتماعية ، ومن ثم تتعدد أنواع القواعد العقلية ولنفس السبب فإن لكل مرحلة تاريخية منطقها وإذا أردنا التعميم قلنا أن العقل هو جملة قواعد مستخلصة من موضوع ما ، أى من الموضوع الذى يتعامل معه الإنسان [1] هذا الإتجاه يساعد على إنشاء منظومات جديدة للعمل الذهنى تعمل على تكيف العقل مع الواقع أو تعمل على خلق عقل جديد بوعى جديد يعى ظروف اللحظة التاريخية التى يمر بها هذا الواقع .

والوعى . كما يعرفه ابن منظور فى لسان العرب ، هو العقيدة والعقل والوجدان ، فهو حفظ القلب للشىء وفهمه واستيعابه وقبوله والتمسك به والعمل من أجله [2] فالوعى موقف نفسى وفكرى يقفه العالم أو العقل المفكر من العالم بكل مايشتمله من جوانب الحياة المتعددة [3] ويظهر الوعى الجديد عندما يشعر العقل فيه بالقلق وخيبة

---

(١) محمد عابد الجابيرى ، تكوين العقل العربى : بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ط الخامسة ١٩٩٠ . ص ٢٤ .

(٢) انظر أيضا . بنية العقل العربى : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة فى الثقافة العربية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ط الثالثة ١٩٩٠ .

(٣) إن إغتراب العقل الواعى هنا ليس اغترابا سلبيا. بل إغترابا إيجابيا فهو العقل الواعى الوحيد، وفى قصة توفيق الحكيم نهر الجنون مثالا لمثل هذا الإغتراب وباختصار شديد فالقصة تحكى بأن أى شخص يشرب من ذلك النهر يصاب بلوثة تجعله غريبا فى نظر المجتمع الذى يهزء منه ونبذه ويبتعد عنه ولكن بمرور الزمن يتزايد عدد الشاربين والمجانين . وتناقص عدد العقلاء بسرعة وانقلبت الآية وتغيرت الأوضاع وأصبح (العقلاء) قلة تعرضت لسخرية الأكثرية (المجنونة) التى كانت تنظر الى هذه الأقلية على أنها غريبة الأطوار ويجب نبذها من المجتمع لما بها من جنون حتى لايؤثر على بقية افراد المجتمع حتى لم يبق سوى شخص واحد فى آخر الأمر كان يأبى على نفسه أن يشرب من النهر حتى لايفقد عقله ولم يكن يريد أن يفقد تميزه وتفرده وشخصيته وعقله وقيمه كان يعيش مغتربا عن ذلك المجتمع الذى ينتمى ولاينتمى اليه ، وكان يقاسى من هذا الإغتراب انظر .

الأمل من الواقع الذى يعيشه أو يعيشه مجتمعه ومع العلم بهذه الوضعية يبدأ الوعى اليقظ أولا فى رفضه واغترابه عن هذا الواقع ، واغترابه هنا ليس اغتراب صوفيا أو سلبيا بل اغترابا يجعله يبتعد بنفسه عن الآخرين وشعور العقل الواعى بالوعى شعور مزدوج . إنه شعور بأن الأنا الواعية يمتلك شيئا يختلف عن الآخرين فهو يشعر بعدم التجاوب مع الأوضاع العامة السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه والثقافة التى يفترض أنه ينتمى إليها [1] فالأنا هنا ذات مفكرة واعية بما يدور حولها . تميز بين الأصيل والزبد . فالعقل الواعى هنا عقل نقدى حتى لذاته ومن ناحية أخرى لايكتفى العقل الواعى بوعيه لذاته ونقده لها بل يتعداه لخدمة الاخرين وتقديم رؤياه لهم بما ينفعهم فى شئون الدنيا والآخرة هذا العقل الواعى اليقظ هو الذى جسده المفكرون الإسلاميون فى شخصية حى بن يقظان ذلك العقل الذى لايرى تعارضا بين النقل والعقل ، ولابين الذات والآخرين فحى بن يقظان عقل يقظ يبحث عن الحقيقة وينتقل من المحسوس الى المعقول ويعترف بحدود العقل وما يهمنا هنا هو أنه عقل غير مغترب عن هذا العالم . بل يسعى الى المجتمع لتغييره ويصحح مفاهيمه ، ويكشف له التزييف فى وعيه وفى الحقائق الأساسية فى ثقافته [2] .

علم الاجتماع فى أزمة وأزمته راجعة الى تخلف نظريته عن تفسير

---

(١) أحمد أبو زيد « الاغتراب » ، عالم الفكر ، الكويت . المجلد العاشر العدد الأول ابريل، مايو ، يونيو ١٩٧٩ ، ص ١٢ .

(٢) قصة « حى بن يقظان » موضوع لقصص رمزية عديدة لابنا سينا ، وابن طفيل والسهروردى انظر مصطفى غالب ابن طفيل ، بيروت ، منشورات دار مكتبة هلال ، ١٩٨٥ ، ابن طفيل حى بن يقظان ، تقديم فاروق سعيد ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ١٩٧٤ .

الواقع بكل ما فيه من حركات مناهضة للواقع المرير الذى تعيشه الجماهير ، كذلك فإن أزمة هذا العلم راجعة الى عدم ملائمتها فى تفسير معاناة شعوب العالم النامى من ضروب التخلف والقهر والتبعية فأزمة علم الاجتماع هى أزمة مجتمع إنعكست بدورها على العلم فأردته ، الآخر فى أزمة فالأزمة الراهنة فى علم الاجتماع الغربى أزمة مجتمع وأزمة عالم وأزمة نظرية وأزمة منهج .

علم الاجتماع فى أزمة وأزمته تحتوى عنصرا جديدا وهى أن العلوم اليوم أكثر سلطانا من ذى قبل والعلم فى أزمة كتجربة اجتماعية فالنظرية الاجتماعية مفاهيمها غير واضحة ومحددة بشكل نهائى . كذلك فإن احتمالاتها غير مترابطة بعضها ببعض ، وأحيانا يكون المفهوم الواحد له أكثر من معنى واحتمال . بمعنى آخر أن أزمة النظرية تكمن فى أنها لاتخضع لمكونات النظرية العلمية التى يجب أن تتبع فى تفسير الواقع ومن ثم افتقدت النظرية الاجتماعية مصداقيتها كنظرية علمية . ومن ناحية أخرى تميزت نظرية علم الاجتماع بالتضخم النظرى لمعالجة موضوع واحد ، وكان لابد من اختزال هذه النظريات وتحقيق نوعا من التكامل بينها إلا أن هذه المحاولة لم تبذل حتى الآن من أجل البحث عن جوانب الالتقاء والتكامل بين الأطر النظرية للعلم .

لقد انعكست أزمة التنظير فى علم الاجتماع على أزمة المنهج فلقد غرقت بحوث علم الاجتماع فى جزئيات أدت بالضرورة الى طمس جوهر المجتمع المدروس ومن ثم أعاق هذا تحقيق شمولية التفسير إن ثنائية المنهج بين ماهو وضعى وبين ماهو إنسانى إنعكست على تفسير الواقع وأخيرا فإن هذه الأزمة إنعكست على وعى العالم فهناك محاولة واعية تهدف الى تزييف هذا الوعى وبالتالى يصبح العالم عاجزا عن الرؤية

الواحدية والشمولية للواقع الذى يعيشه إن هذه الأزمة عملت على الغاء الذات المفكرة لدى الباحث وحصر دوره فى أعمال الذات المدركة التى تكتفى بتسجيل ماهو قائم دون أعمال للعقل ودون أى محاولة للنقد من أجل التغيير والتصحيح . وإن كان هذا هو حال علم الاجتماع الغربى فى أزمته فإن علم الاجتماع الموظف فى العالم العربى فى أزمة من نوع آخر ، أزمة اغتراب عن الواقع المراد دراسته . فتوظيف نظريات جاءت من بيئات أخرى لها مشاكلها القيمية وتناقضاتها الطبقية لايمكن أن تكون صالحة لتفسير واقع مغاير ولهذا فإن مرحلة تغريب العلم جعلت منه نظاما أكاديميا لاتتعدى تأثيراته مدرجات الجامعة هذا ماسوف نحاول إبرازه فى هذا الفصل – أعنى أزمة علم الاجتماع الغربى والوعى بأزمته فى المجتمع العربى .

١ – مقولة العقل والوعى :

عندما نتحدث عن الوعى العربى ويقظته فإنما نشير الى أن الوعى لايعنى مجرد التفكير وأن التفكير هو توجيه الإنتباه نحو مشكلة بعينها ومعالجتها بالأسلوب العلمى أما المقصود بالوعى فهو يتصل بالشعو وباللاشعور أنه يضرب بجذوره فى أعماق النفس البشرية ويغرس فى المزاج الفردى والجمعى للأمة والشعوب يتعمق فى هذا كله حتى يصل الى المياه الجوفية عند الفرد والمجتمع . ولهذا فإن كل ما يتصل بالوعى يكون أكثر التصاقا بالقلب أو بالوجدان الذى يتجاوز التعامل معه الحدود العلمية أو المعرفية ويقوم على الحفر أو السير فى مهيات الشعور حتى يستيقظ الوعى حقا ويتحقق من هويته ويشعر بوجوده واستقلاليته[١] .

وعندما نتحدث عن العقل فإننا نتحدث عن الفكر بوصفه أداة

(١) فهمى هويدى . الف باء مشروعنا الحضارى ويقظة الوعى العربى ، الأهرام ١٩٩٢/٦/٢٣ .

وليست بوصفه محتوى وهذه الأداة عبارة عن شيء مركب هذه الأداة تستمد هويتها من فاعليتها وطريقة وأسلوب استعمالها . ويرى « لالاند » التمييز بين العقل المكون أو الفاعل والعقل المكون أو السائد ، الأول يقصد به النشاط الذهنى الذى يقوم به الفكر حيث البحث والدراسة والذى يصوغ المفاهيم ويقرر المبادىء فهو الملكة التى يستطيع بها كل إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مبادىء كلية وضرورية وهى واحد عند جميع الناس أما الثانى أعنى العقل المكون أو السائد فهو مبدع المبادىء والقواعد التى يعتمدها فى استدلالاتنا هذه المبادىء رغم كونها تميل الى الوحدة فانها تختلف من عصر لآخر كما تختلف من فرد لآخر فالعقل المكون والمتغير هو العقل كما يوجد فى حقبة زمنية معينة فحديثنا عن العقل يعنى العقل كما هو فى حضارتنا وفى زمننا فهو منظومة القواعد المقررة والمقبولة فى فترة تاريخية ما ، والتى تعطى لها خلال تلك الفترة قيمة مطلقة [1] .

وما نقصده بالعقل العربى هو إذن العقل المكون ، أى جملة المبادىء والقواعد التى تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لإكتساب المعرفة أو لنقل تفرضها عليهم كنظام معرفى ، أما العقل المكون فهو ما يميز الإنسان عن الحيوان أى القوة الناطقة » . فالإنسان اذن . يتكون له عقل مكون عبارة عن النظام المعرفى الذى يؤسس الثقافة التى ينتمى اليها . هذه التفرقة بين العقل الفاعل والعقل السائد لاتجعلنا نغفل علاقة التأثير والتأثر القائمة بينهما . فالعقل السائد ليس سوى تلك المبادىء والقواعد التى أنشأها وينشئها العقل المكون الفاعل . ومن جهة أخرى فالعقل المكون الفاعل يفترض عقلا مكونا ، أى أن النشاط

---

(١) محمد عابد الجابرى ، مرجع سابق ، جـ١ ، ص ١٥ .

العقلى – الفاعل – إنما يتم إنطلاقات من مبادىء وحسب قواعد . أى انطلاقا من عقل سائد . فالعقل العربى . إذن ، هو حتى فى مظهره الفاعل من نتاج الثقافة العربية [١] .

هذه التفرقة السابقة تساعدنا فى حديثنا عن وعى العقل العربى لذاته وذلك من حيث التميز بين العقل العربى بوصفه عقلا حاويا لجملة المبادىء والقواعد التى تؤسس الثقافة والحضارة العربية والإسلامية ، والعقل العربى – بوصفه عقلا فاعلا وواعيا يحدد الهوية ويصوغ العقل السائد فى فترة تاريخية ما ، الأمر الذى يمكننا من إنشاء وصياغة مبادىء وقواعد جديدة وبالتالى قيام عقل سائد جديد أو على الأقل تعديل أو تغيير أو تحديث أو تجديد العقل السائد القديم . ولايتم هذا إلا من خلال نقد العقل العربى السائد ، وعملية النقد هذه يجب أن تمارس داخل هذا العقل نفسه من خلال وعى يقظ – يمارس – نقده وتعريفه للعقل لبيان فاعلياته وتطويرهاوإغنائها لكى يحتفظ العقل العربى بهويته ويسمح له بالإنفتاح على الفكر الإنسانى الجيد [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٥ – ١٧ .

(٢) هناك العديد من الدراسات التى تعالج موضوع علاقة العلم الحديث والوعى انظر : معين زيادة ، معالم على طريق تحديث الفكر العربى ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، سعيد اسماعيل على ، الفكر التربوى العربى الحديث ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، فؤاد زكريا ، التفكير العلمى . الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ، جون ديكنسون ، العلم والمشتغلون بالبحث العلمى فى المجتمع الحديث ، ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو . الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ ، روبرت التروس وجورج ستانيو، العلم فى منظوره الجديد ، ترجمة كمال خلايلى ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٩ ، اسامة أمين الخولى « العلم والعطاء العلمى » مجلة المستقبل العربى ، السنة الثامنة ، العدد ٧٧ (يوليو ١٩٨٥ ، ص ص ٤ –٢٨ . انطوان زحلان :« الانفتاح العلمى العربى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٩ – ٤٣ .

يتميز الإنسان بوظيفة خاصة تقوم به « جملة عصبية » وهى إنتاج « الوعى ». ولقد تطورت هذه الوظيفة عبر التاريخ ، ولولا هذه الوظيفة لتغير كل تاريخ الإنسان والوعى بمعناه العام له مظهران : فردى وإنسانى ، فهو نتاج فرد وفى نفس الوقت نتاج الحياة الاجتماعية . ولقد تطور الوعى تاريخيا ، ولإدراك هذه الحقيقة علينا أن تقارن بين وعى الانسان البدائى مع وعى الإنسان المتطور كى نتصور الفاصل الكبير بين وعينا وبين وعى الإنسان القديم . ولهذا نقول أن الوعى الذى وصل إليه إنسان اليوم مر بمراحل تاريخية طويلة حتى وصل الى هذا المستوى . ولهذا فالوعى مركب نفسى – اجتماعى – تاريخى . إن وعى الفرد مرتبط إذن بحركة الوعى التاريخية . ومرتبط بالتالى بدرجة الوعى التى وصل اليها المجتمع . فالوعى « هو الحصيلة المستمرة لعملية الإدراك الشاملة ، التى يقوم بها الإنسان ، اينما وجد وبأجياله المتعاقبة منذ ظهوره فى هذا الكون ، وهى عملية مستمرة ، مادام الإنسان موجودا ، وإذا كان كل فرد على الإطلاق يساهم فى عملية الإدراك الشاملة . ويغنى وعى الإنسان بمجموع الفعاليات التى يقوم بها فى حياته . فإن ما يقدمه يرتبط بحركة الوعى التاريخية وبمجموع شروط حياته ، فهو لايبدأ فى عملية الإدراك من الصفر ولايقوم بها بشكل مستقل ، أو منعزل عن سائر ظروفه المادية والاجتماعية بالنسبة لحركة الوعى التاريخية ، فإن ملامحها تتحدد فى مجتمع معين . وفى زمن معين ، بمجموع المعطيات السابقة للزمن المفروضة من جهة ، وبمجموع المعطيات القائمة فى المجتمع من جهة أخرى [1] .

---

(١) محمد الجندى ، حول الإنتاج والوعى والتركيب الاجتماعى ، محاولة نظرية بيروت : دار الكلمة ، ١٩٨٣ ، ص ص ٨٩ ، ٧ ، ١٠١ .

إن النشاط العلمي يجسد الوعي ، كذلك التركيب الاجتماعي يجسد درجة الوعي ، التي وصل إليها المجتمع ، فدرجة الوعي هي تعبير عن التركيب الاجتماعي بكل ما يحمله من علم وثقافة وإنتاج فكري ومادي . إن الوعي القائم هي معطى بالنسبة للعلم الجديد ، إذ لم يتوفر ، لايمكن للعملية العلمية أن تبدأ ، وعندما تبدأ ، فإن الوعي لايبقى على حاله ، وإنما تضاف اليه تراكمات جديدة ، فلولا الوعي الجاهز ما كان النشاط العلمي ، والإنجازات والإكتشافات العلمية هي نتاج لوعي جديد . فالعلم والوعي متلازمان ، فبغير الوعي لايتم العلم وبغير العلم لايتم الوعي . والوعي اليقظ أو الجاهز الذي نقصده ليس مجرد الوعي النظري أو المعرفي فهذا لايكفي بل لابد من إضافة كل ما يتجسد به الوعي في درجة التطور ، التي وصل اليها المجتمع من مهارات وأدوات بحثية تسمح بالعملية العلمية وهذا يجسد مرحلة التطور التي تم الوصول اليها ومن ضمنها درجة الوعي المكتسبة . إن الوعي الجديد يتجسد في الإنجازات العلمية وفي كل ما ينعكس على المجتمع من العملية العلمية كمعطى جديد يتألف هذا الوعي الجديد من مجموع المعارف والخبرات الجديدة التي اكتسبت والتي تؤدي الى تحسنات كيفية وكمية في مجال الحياة . إن الوعي المقصود هنا هو الوعي المجتمعي - أي مجموعة الخبرات والمعارف والاعتقادات التي يختزنها عقل ووعي المجتمع . إن هذه الصفة الاجتماعية لإنتاج الوعي هي الأمر الطبيعي ».. إن وعي الإنسان كان منذ بداياته الأولى اجتماعيا .. إن وعي الإنسان، ولو كان فرديا ، لبقي محدودا جدا .. والفرد يستطيع أن يساهم في التطور بشكل عام ، وفي تطور الوعي بشكل خاص ،بتعميق الصفة الاجتماعية لفعاليات الانسان، ومن ضمنها فعالياته في إنتاج الوعي من جهة أخرى ، إن الصفة

الاجتماعية لاتنفى الصفة الفردية ».[1] .

٢- الوعى بالعلم والوعى المغترب :

وبدون الدخول فى مناقشات فلسفية حول الوعى كمقولة فلسفية ونفسية [2] فإن الوعى من المنظور السوسيولوجى مرتبط بالبناء الإجتماعى . بمعنى أن المجتمع بكل صوره موجود فى رؤوس وعقول الأفراد ، أو بمعنى آخر « أن الوعى هو الذى يجدد البناء ، ومع أن هذا البناء واقعيا أكبر من محصلة وعى الأعضاء المشاركين فيه ، فإنه يمكننى القول أيضا أن مافى عقول الناس لايصور البناء الاجتماعى تصويرا واقعيا ، لا فى حالة كون هذا الوعى زائفا فقط ، ولكن لأنه يشترط كما يعبر الوعى عن البناء الاجتماعى توفير ظروف موضوعية بنائية فى جوهرها [3] وباختصار فإن قضية علاقة الوعى بالبناء الاجتماعى ، هى علاقة جدلية فلا وعى يأتى من فراغ ، بل له سياقه وأساسه الاجتماعى ، ومن ناحية أخرى لايقف البناء الاجتماعى ساكنا أمام الوعى ، بل هو يتأثر به ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) انظر : ف . أ . فومينا ، الوعى الاجتماعى وقوانين تطوره . ترجمة فؤاد المرعى ، بيروت : منشورات دار الفجر .

أ . ي . وليدون ، الوعى الاجتماعى ترجمة ميشيل كيلو ، بيروت ، دار ابن خلدون ، ١٩٨٢ .

- Omstein, R. The Psychology of Consciouness. San Francisco. W.H. Freeman and Company, 1972.
- Leo, J., Political Consciousness and American Democracy: Alass: University of Southern University, 1983.
- Wuthnow, R., The Consciousness Reformation. Berkely : University of California Press, 1976.
- Gabel, J., False Consciousness Oxford : Basil Blackvell, 1978.

(٣) عبد الباسط عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

ويتحرك إذا ما توفرت ظروف أخرى بجانب الوعى .

وهناك من العوامل التى تؤثر فى العلاقة بين الوعى والبناء الاجتماعى . خاصة العوامل الخارجية والتى تعمل على التأثير على القوى الاجتماعية – مثل الاستقطاب أو التهميش أو التشويش على مصالحها ، الأمر الذى قد يؤثر فى الوعى ويجعله مضطربا ومشوشا أو مزيفا [1] ولاشك أن هذه العوامل يختلف تأثيرها من بناء إجتماعى لآخر . ومن ناحية أخرى لايمكن لهذه العوامل الخارجية أن تعمل وتجد تأثيرها إلا إذا كان لها مدى من العوامل الداخلية ، وبصفة عامة فإن الوعى ليس دورا سلبيا ، إنما له دوره النشط والخلاق والمؤثر فى الوجود الاجتماعى فالوعى بالرغم من أبعاده الاجتماعية إلا أنه يوجد فى الوعى بعد ذاتى – فردى أو جماعى – يتفاعل مع الواقع ويدركه فى ضوء ظروف الذات العاكسة والواعية فالذت الواعية تعى المجتمع والمجتمعات الأخرى التى تدخل فى علاقة مع هذا المجتمع المعين وباختصار فإن للوعى قدر من الاستقلالية النسبية عن المبدأ والواقع ومن ناحية أخرى هو مرتبط بعوامل اجتماعية وسياسية تحدد مستواه وأبعاده ومن خصائص الوعى الاجتماعى إحاطته بكل الواقع المحيط بالإنسان والمجتمع ككل هى لحظة تاريخية محددة ومن المنظور السوسيولوجي يمكن التمييز به مستويين للوعى المستوى الفردى والمستوى الجماعى والفارق الرئيسى بينهما يكمن فى الخصائص الاجتماعية لحامل كل منهما حيث خصائص حاملى الوعى الاجتماعى تكون فردية ، وبالتالي يكون وعيهم أكبر من مجرد وجود كل وعى فردى . لأن ينتج عن مركب جديد نتاجا لتفاعل وعى كل فرد مع الأخرين . وتفاعل وجود كل فرد مع

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ .

الاخرين وتفاعل الوجود الجماعى مع الوعى الجماعى هذا بجانب التفاعل مع العوامل الداخلية والخارجية الأخرى وبإيجاز ، ففى الوقت الذى يعبر فيه الوعى الفردى عن فرد محدد له ظروفه النوعية . فإن الوعى الاجتماعى يعنى وعى طبقة محددة أو وعى مجتمع محدود [1] ومن ناحية أخرى ، يمكن التمييز بين الوعى اليومى المباشر والوعى النظرى المجرد ، فالأول تعبير عن خبرة الحياة اليومية . ولهذا فهو تفصيلى وتجزينى فى حين أن الوعى النظرى يحاول من منظور تاريخه وحاضره فهو جوهر الواقع الاجتماعى وظاهراته والقوانين الأساسية التى تحكم سيرورته وكلا المستويين الفردى والاجتماعى بناء يحمل طابع التأثير والتأثر ويحتاج فهم الواحد فهما لفهم الآخر فالوعى الفردى إنعكاس مباشر للوجود الفردى فى حين أن الوعى الاجتماعى يعكس الروابط والعلاقات بين الظواهر والجماعات والأفراد [2] .

ويجمع الباحثين بأن العلم طبيعيا كان أو اجتماعيا من مكونات الوعى ويؤثر فى محتواه ومكوناته ويتأثر بها . فالعلم نشاط انسانى يتحدد بإطار اجتماعى اقتصادى ويتحدد بقيمة العلم نفسه فى الزمان والمكان المعينين وبالحاجات المجتمعية وإن تشابك العلم كمكون للوعى مع غيره من مكونات الوعى من ناحية وتأثر الوعى بالمنهج العلمى من ناحية أخرى مالم تتدخل قوى داخلية وخارجية فى هذا التأثير المتبادل . تجعله يسهم ببلورة وعى مستقبلى فيجاوز الوعى القائم الى وعى ممكن [3] .

ومن مستويات الوعى . الوعى بالعلم بالإضافة الى الوعى

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، الوعى التنوى العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣) عبد الباسط عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ص٢٧ - ٢٨ .

الجماهيرى والوعى الأيديولوجى والمقصود بالوعى العلمى هو دور العلم الممارس فى الوطن العربى فى إنضاج الوعى على مستواه الجماهيرى والأيديولوجى من أجل وضع أيدلوجية علمية متسقة مع طموحات الجماهير وواقعها فالعلم منتج إنسانى . ولهذا فهو يتأثر بكل العلاقات المؤثرة فى وجود المجتمع المعين فى مرحلة تاريخية بعينها ويتحدد دور العلم فى خلق الوعى بمقدار تصويره الدقيق للواقع ، الإسهام فى تغييره وبمقدار تغلغله فى وعى الجماهير ، والتخلف فى المقابل يعنى فصل العلم عن العمل فالعلم الذى يخلق الوعى هو العلم المنتج وهو الذى يصل إلى الوجود اليومى للمجتمع . لتطويره ويحاول تغييره والإسراع بتقدمه ويترتب على ذلك أن تطورا اجتماعيا اقتصاديا مشوها يصاحبه تطور علمى مشوه . فتعطيل القوى المنتجة فى المجتمع المعين وإنحسار الإنتاج ورهنه بفصل بين العلم والعمل ويعيق تطوير العلم [1] .

وتأسيسا على ذلك فإنه بتبعية مجتمع ما لمجتمع آخر . تعكس فى نفس الوقت تبعية العلم، ويعد العلم بضاعة أجنبية ، تستوعب فى لغة اجنبية ، وأحيانا فى مناخ أجنبى ، تذهب بعثات تلو بعثات . لكنها عند رجوعها لاتسهم فى تطوير العلم وتوظيفه . بسبب التلقين فى البلد التابع . وتطوره المشوه . وإنفصال العلم وإغترابه عن العمل ومن ناحية أخرى فإنه نظرا لتأثير العلم بالأيديولوجية المهيمنة فى المجتمع المعين ، فإن العلم فى المجتمع التابع يحتاج لنمطين من الهيمنة الأيديولوجية ؛ أيديولوجية الطبقات المهيمنة فى المركز ، وأيديولوجية الطبقة أو الطبقات المهيمنة فى البلد التابع ، وتقابل هذين النمطين من الهيمنة ينتج سياقا للعلم ومنتجا علميا فى البلد التابع حافلا بالتناقض والاضطراب والخلط

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨٠ - ٨١ .

نجد فيه الزيف ووعى هذا الزيف، كما نجد فيه خليطا من النظريات والأفكار التى توقع الباحثين فى حالة من الإغتراب المكثف ونجد فيه قيما علمية بعضها يتجه نحو الإسترزاق والمسايرة ، وبعضها يتمسك بتلابيب المنهج ومايسمى بالأكاديمية وكأنها غايات بذاتها ، وغير ذلك من الصور التى لاتخفى على الباحث الملاحظ بوعى "[1] .

إن المدقق فى العلم الاجتماعى فى الوطن العربى يمكن أن يلاحظ أنه لايوجد علم اجتماع قائم بذاته والموجود ماهو الا مجموعة نظريات وأدوات بحثية مستمدة من أطر نظرية نشأت وتطورت فى مجتمعات أخرى . فالممارسة العملية لعلم الاجتماع فى الوطن العربى ماهى إلا تبعية للدول المهيمنة ، ولهذا جاء علم الاجتماع الموظف الآن فى العالم العربى قاصرا ومشوها ومحكوما عليه بمصالح المهيمنين سواء من الداخلى أو الخارجى إن واقع المجتمع العربى يقتضى أن يكون هناك وعيا علميا يقظا مستمد من تاريخ وتطور وديناميات المجتمع العربى هو وعى يقتضى دراسات علمية تاريخية لحركة المجتمع العربى . لها خصائص نظرية ومنهجية وتوجهات مستقبلية والحق أن الدراسات الاجتماعية والتاريخية قد أدت الى تأخر بروز وجود وعى تاريخى – اجتماعى عربى وذلك للإنشغال الباحثين برصد الأحداث أكثر من إقامة نظرية علمية عن الأحداث أكثر من هذا . فإن معظم الكتاب السوسيولوجيون العرب مازالوا مشغولين بالترجمة والنقل عن أفكار ونظريات غربية فمن المشاهد أن علم الاجتماع الذى يوظف فى العالم العربى يعمل على تجزأة الواقع ويحمل الفكر السوسيولوجى الغربى بكل ما يحمله من تناقضات قيمية تعكس مشاكل المجتمع الغربى ، ولهذا فإن

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨١- ٨٢ .

المنتج السوسيولوجي العربي مازال قاصرا على أداء دورة في بلورة وعى عربي أو العمل على أحداث التغيير البنائي المخطط على المستوى الإقليمى أو القومى [1] .

إن هذا الوضع لعلم الاجتماع فى الوطن العربى قد أفضى إلى دعوة العديد من العلماء العرب الى تصحيح المسيرة من أجل وعى يقظ بهذا المنتج الغربى ، فلقد تساءل البعض منهم « أيظل علم الاجتماع على صورته الحالية أم ينبغى أن نهاجمه باعتباره أداة إنهزامية ؟» إن ما يأتينا من الغرب الأوربى والأمريكى ليس كلاما نهائيا . يجب أن تكون لدينا القدرة الخلاقة وشجاعة النقاد ، أن نهدم بناء قديما فقد كل مقوماته لتقديم بناء جديد يعبر عن طابع مجتمعنا [2] فعلم الاجتماع - طبقا لهذا الرأى - ظل اعتماده فى نموه على أفكار صادرة عن العالم الغربى شكلت معالم النظرية . وعملت على إعاقة وتهميش الواقع وتزييف الوعى به [3] .

فعلم الاجتماع لابد وأن يرتبط بالمجتمع العربى والإنتقال بقضاياه كشرط أساسى لنجاحه واستمراريته فى المجتمع العربى أما عن عالم الاجتماع فهو بدفع مطالب مسيرة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والعمل على السيطرة على مشاكل المجتمع وتفهم قضاياه الأساسية وذلك من أجل تحرير الإنسان وتحقيق مطالبه الحضارية [4] .

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ص ٨٤ - ٨٦ .
(٢) انظر عاطف غيث ، المشاكل الاجتماعية والسلوك الانحرافى . الاسكندرية ، دار المعارف ١٩٦٥ ، ص ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٠٥ ، ٢١٣ .
(٣) انظر عاطف غيث : مقدمة كتاب أوسيبوف قضايا علم الاجتماع : دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الرأسمالى ترجمة سمير نعيم ، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٠، ص ص ط ى.
(٤) انظر عاطف غيث الموقف فى علم الاجتماع وإمكانيات ربط المتخصصين فيه بالقضايا المحلية والعالمية .الحلقة الدارسية للنهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى الجزائر مارس١٩٧٣

إن المناقشة السابقة تقتضينا إلى أن نخلص بأن هناك تناقضا فى الوعى العلمى فالوعى بالعلم الاجتماعى مازال محملا ببعض مؤشرات زيفه . ومع ذلك فإن هناك محاولات على المستوى الفردى تسعى الى تغيير هذا الوضع القائم لعلم الاجتماع وتعمل على تقديم الوعى البديل ان هذا الوعى البديل يواجه بالوعى المهيمن وهو يتسم بالتبعية للخارج ويعمل على تزييف الوعى بمستوياه العلمى والأيديولوجى . هذا بالاضافة إلى تجزئته وتشويه وتزييف حقائق الواقع . الأمر الذى عمل على تعطيل نمو وعى علمى شامل وهذا الوعى المهيمن أدى الى :

١- تبعية العلم الاجتماعى للمنتج العلمى الخارجى ، وحتى المحاولات النقدية لم تزل بعد فى محاولة الإعداد والتمهيد لمنتج علمى آخر هذه المحاولات مازالت مشغولة بنقد الفكر الغربى والرد عليه وكشف زيفه .

٢- أن هناك ضغوطا داخلية وخارجية تمارس على المشتغلين بالعلم خاصة المناهضين لما هو مهيمن - وتتراوح هذه الضغوط ما بين الترغيب والرشوة والتهديد وغيرها من الوسائل التسلطية .

٣- ولقد أفضى ذلك إلى « تزييف الوعى بالعلم والمشتغلين به ، وبخاصة قيم العمل العلمى ، وقيم تقييمه ، لمحاصرة الإنتاج الجاد والحيلولة دون وصوله للجماهير وتغلغله من خلال وعيها وممارساتها . ففى أحيان غير قليلة يذكر الكم على الكيف والشكل الاكاديمى المرتبط بالمصادر والحواشى على المضمون وغير ذلك من أخلاقيات هى نتاج لوجود نوعى لجماعات المشتغلين بالعلم وفى علاقته بالوجود العربى العام [1] .

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، مرجع سابق ، ص ص ٩٠ - ٩١ .

ان الواقع الاجتماعي العربي بكل ما فيه كان ومازال مهيئا بمصادر تزييف الوعي ، وبالذات فيما يتعلق بتصورات تغير الواقع العربي وباختصار شديد فإن عملية تزييف الوعي هي عملية مقصودة يهدف اليها أصحاب المصلحة في استمرار التخلف الراهن للمجتمع العربي . وتهدف هذه العملية الى منع تبلور مشاعر الجماهير ضد الواقع الاجتماعي والاقتصادي القائم وضد القوى المدعمة لاستمراره . وضد التوجهات والنماذج والمشروعات والعلم التي تحافظ عليه . وتعمل هذه العملية إلى منع تبلور هذه المشاعر وتلك القيم في صيغ جماعية جماهيرية تبقى مفتتة لأكبر عدد ممكن من الاقسام المتباينة والمتناقضة . كذلك تعمل هذه العملية - تزييف الوعي - على الحيلولة دون إدراك التخلف العربي وتفسيره تفسيرا علميا من أجل معرفة العوامل التي أدت الى وجوده . وأخيرا تعمل هذه العملية الى منع ظهور وتبلور تصورات بديلة لتغيير الواقع الاجتماعي والاقتصادي العربي القائم[1] .

فالوعي العربي في جملته وعي مجزأ نتيجة التذبذبات الاجتماعية التي يعيشها المجتمع العربي هذه التجزأة في الوعي سواء بسبب الفعل الخارجي أو الداخلي يجب أن تؤخذ في الحسبان عن العمل مع هذا الوعي وبه وفي هذا الوعي نجد فيه مظاهر التناقض وفيه أيضا مظاهر التزييف وفيه أيضا علامات الوعي بهذا التزييف وفيه الوعي بمحاولات الوعي البديل وان كانت كامنة ومعطاة فهي موجودة تظهر عند الضرورة في الأزمات والمحن وقد يكون للمثقف العربي دورا في إنضاج هذا الوعي البديل ولكن الحقيقة أن المثقفين غالبا ما يميلون الى الحلول الوسيطة والتوفيقية فتراهم يجمعون ويوفقون بين الأصالة والمعاصرة ومصالح

(١) عبد الباسط عبد المعطي ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٣ - ١٠٤ .

السلطة والجماهير وبين التغريب والتعريب كل هذا بلاشك أفضى الى تعالى المثقف ومبالغته فى تقدير ذاته وأفضى هذا أيضا الى تهميش أدواره وتطلعه الى السلطة كمبرر للتنظيم وقرارته وشرعيته [١] .

ترتبط بالوعى حالتان : الأول تعنى بحالة الوعى عندما يكون حقيقيا والأخرى تعنى بحالته عندما تمارس عليه ضغوط لتزييفه والحيلولة بينه وبين إدراك واقعه وتصوره وتصور بدائل تغيره ومع أن الفصل بين الحالتين مستحيل من قبل التحليل لأنه يصعب وسم حالة ما بأنها زائفة كلية ، أو حقيقية كلية الا أن قصد التحليل هو تحديد الفكرة ونقيضها بما يساعد على فهم كل منهما لأنه يستحيل عمليا من ناحية اخرى استنتاج أن وعيا ما مزيفا الا إذا كان لدينا حد أدنى من المؤشرات الدالة على هذا الوعى . فى حالة تجليه أو كونه حقيقيا هذا بالاضافة الى أن بعض مؤشرات تجلى الوعى ليست ثابتة أو جامدة لأن الوعى نفسه عملية دينامية لها شكل ومضمون وللمضمون مستويات وأبعاد فيها الخاص والعام والجوهر والعرض والطارىء والمطرد [٢] .

والرؤية السوسيولوجية للوعى نراه إحساسا بالواقع وإدراكا له وتصورا لبدائله وتعبر عن الإحساس بالمشاعر الجمعية التى تعنى إنصهار المشاعر الفردية فى مشاعر جماعية . ويرى البعض أنه لايتم التعبير عن الإدراك فقط عندما يصف الواقع ، وتمايزاته وتناقضاته ، بل أيضا عند تفسيره هذه التناقضات وربطها بالكلية الاجتماعية ، التى تنتجها ، لأن فهم

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٣٨ - ١٣٣ .

(٢) عبد الباسط عبد المعطى ، « التعلم وتزييف الوعى الاجتماعى » : دراسة فى استطلاع مضمون بعض المقررات الدراسية » مجلة العلوم الاجتماعية ، الكويت العدد الرابع ، المجلد الثانى عشر ، ١٩٨٤ ، ص ٥٦ .

[illegible] وتفسيرها . مقدمة ضرورية لفهم واستيعاب الكلية الاجتماعية خاصة عندما يسير الإدراك والتناقضات ، ليعينها وليميز فيها بين التناقضات الخارجية والداخلية والأساسية الجوهرية والثانوية حتى يكون المستوى الثالث مستوى التصورات البديلة التى يحدد المفاضلة بينها بالنسبة للزمان والمكان . وأهداف مايتم تفضيله . ووسائل تحقيق هذه الأهداف الأيديولوجية العلمية الواقعية ، التى تحدد مواضع الإمكانية ، وكيفية تحولها إلى واقع يواجه التناقضات الأساسية الداخلية والخارجية [1] .

ومن مظاهر الوعى المغترب أيضا فى بعض الأحيان توجيه نتائج البحوث الى من لايهمه الأمر من يهمهم الأمر فى أحيان أخرى طلب من صناع القرار بدعوى ترشيد القرار السياسى . إتخاذ قرارات هم على قناعة تامة بأنها ضد مصالحهم ، وفى أحيان ثالثة ، يقول الباحثون فى مجالسيهم الخاصة غير ما يعلنونه ويكتبونه وسرعان ما يتحول بعضهم من الموقف الى نقيضه ومن الفكر الى المضاد له ويدافع بالحماس نفسه عن الأخير . كما كان يدافع ويبرر الأول ومع أنهم لم يختبروا هذا الفكر أو ذاك ولم يمارسوه جماهيريا وعمليا [2] .

ومن ناحية أخرى نجد أنه من المفارقات أن أصحاب المصلحة فى

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٥٦ - ٥٧ .

انظر أ . ك أوليدوف الوعى الاجتماعى ترجمة ميشيل كيلو ، بيروت ، دار لبن خلدون ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، انظر أيضا : محمد رجب الاغتراب : سيرة مصطلح ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٨٨ .

والإغتراب عالم الفكر ، الكويت ، المجلد العاشر العدد الأول ، ابريل ، مايو ، يونيو ١٩٧٩ .

إستمرار الأوضاع ، يرددون أحيانا بعض مما يردده أصحاب المصلح فى التغيير وأن أصحاب المصلحة فى التغيير يأتون بأفكار ومواقف وأمثال تطيح بالتغيير وتسهم فى الأبقاء على الأوضاع القائمة .

مما سبق نخلص ان هناك ثمة وعيين أحدهما قائم مهيمن مسيطر بالقوة والثانى وعى ممكن أو بديل يعمل على الممارسة لإنضاج هذا الوعى وتدعيمه فالطرف الأول يسعى وبإلحاح الى تزييف وعى الطرف الثانى يساعد فى ذلك الظروف البنائية والتاريخية والمعاصرة فعملية تزييف الوعى عملية تاريخية مستمرة ومطردة ، وحائزى الوعى المهيمن لن يتنازلوا بسهولة حتى ينضج الوعى الممكن وتقع الجماهير نتيجة الظروف التى تعيشها فى شباك عملية وأساليب تزييف الوعى والمثقف العربى مطالب بأداء دوره وعليه تجاوز مصالحه الشخصية ويقام عملية التزييف ويعمل على إنضاج الوعى اليقظ سواء لدى العالم أو الجماهير [١] .

٣- الوعى بأزمة العلم :

يشهد علم الاجتماع فى الأونة الأخيرة حركة نقد لاذعة ونشطة لتصحيح مسار هذا العلم ابتداءا من أوجيست كونت حتى بارسونز . فمنذ ظهور أعمال تشارلز رايت ميلز ، وجولدنر واليسار الجديد وحركات النقد الاجتماعى ومدرسة فرانكفورت . ظهرت الحاجة الى مناداة العاملين بالعلم بأن يكون لهم أدوارا جديدة وأن يكون للعلم أهدافا جديدة أكثر جديدة أكثر تحررا وإنسانية . وتتعلق الحركة الجديدة بتحديد تعريف للعلم ذاته والوظيفة التى يجب أن يقوم بها من خلال القضايا التى ينبغى أن يرتكز عليها عند مناقشته لدور الباحث فى المجتمع ،

(١) محمد فرج ، الدولة وتشكيل الوعى الاجتماعى ، دراسة فى الدور الايديولوجى للدولة ، مجلة قضايا فكرية العدد الأول (يوليو ١٩٨٥) ص ص ١٣٩ - ٢٦٢ .

وماهى القيود المفروضة على الباحث فى اختياره لمشكلة بحثه والأدوات التى يستعين بها كذلك القيود التى تفرضها تمويل البحوث على نتائج هذه البحوث فى دراستها للواقع [1] .

والحق أن أزمة علم الاجتماع راجعة أساسا الى أزمة المجتمع الغربى فمع تزايد التصادم بين الواقع المحافظ المتردى والعاجز عن استيعاب التناقضات البنائية والفكرية التى تأكله وتنخر أسسه والعاجز عن ايجاد حلول لها ، ومع سيطرة التشاؤمية الاجتماعية العميقة وإنتشار دوافع البؤس والكآبة ، تبلورت حركات اجتماعية رافضة لهذا الواقع الاجتماع - وما ارتبط به من اتجاهات فكرية - فبعض هذه الحركات وجه نقده مباشرة نحو المجتمع فى محاولة الى إعادة تقييمه ... والبعض الآخر سعى من خلال مجموعة من الإعتراضات القوية على النظرية القائمة ونماذجها المختلفة الى بلورة نظريات تقويمية للمجتمع تنفتح على صور عديدة لتجارب اجتماعية مختلفة [2] إن ما حدث فى المجتمع الغربى من أزمات كان رد الفعل المباشر لها هور الحركات الشبابية التى جاءت كرد فعل إيجابى تجاه مظاهر القلق والإغتراب التى يعيش فيها الشباب ويفرضها عليهم النظام القائم عبر أجهزته الأيديولوجية المتعددة . هذه الحركات كانت الدليل الذى أكد بأن هناك واقعا جديدا أخذا فى الظهور كتحد أمبريقى يختلف تماما عن الواقع القديم المرتبط بالأيديولوجيات المهيمنة .

لقد أدت هذه الحركات وهذا الجدل الفكرى الى التحول من أزمة

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، الوعى التنموى العربى ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

(٢) سمير أيوب ، تأثيرات الأيديولوجيا فى علم الاجتماع ، بيروت : معهد الإنماء العربى ، ١٩٨٣ ، ص ٢١٨ ..

المجتمع الغربى إلى أزمة علم الاجتماع ذاته . ولهذا [illegible]
الراديكالية فى البحث الاجتماعى من أجل التغيير لصالح الجماهير .

فالنقد الذى وجه الى المجتمع كان موجها بدوره الى العلم الذى يفسر ويشخص هذه الأزمة . فهذا العلم يحوى الكثير من النظريات التى لاتكتفى بتفسير البناء القائم بل تحاول أن تبرره وتدافع عن مشروعيته . » وكان من الطبيعى أن تبرز مجموعة من العلماء ليعيدو النظر فى المفاهيم والنظريات والمناهج التى قدمها العلماء المرتبطون بالنظام القائم . وجاءت إعادة النظر هذه فى شكل حركة نقدية عارمة كان أبرزها ظهور علم الاجتماع النقدى كبديل لعلم الاجتماع المحافظ . وباختصار فإن أزمة المجتمع الغربى قد انعكست على العلم ذاته فاردته هو الآخر فى أزمة [1]. وقد تمثلت أزمة العلم فى مجموعة من القضايا نلخصها فى :

١- المجتمع العلمى وصانعوا القرارات المتعلقة بالمجتمع ، ٢- دولية العلم وقومية العلماء ، ٣- علم الاجتماع كمهنة ، ٤- عالم الاجتماع كمواطن ، ٥- مسئولية عالم الاجتماع ، ٦- وأخيرا المنهج العلمى وممارسته الاجتماعية .

وبإيجاز شديد فإن أزمة علم الاجتماع الراهن هى فى المحل الأول .

إن ما كتب عن أزمة التنظير فى علم الاجتماع فهى كثيرة ومتراكمة ، إلا أن الملاحظ أن ما كتب عن أزمة المنهج لازال قليلا وغير كاف . وهنا يذكر بأن « الضباب النظرى » فى علم الاجتماع قد انعكس بدرجة كثيفة على متطلبات الوضوح المنهجى الأمر الذى جعل

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

الكثير من الباحثين يتصورون أنه « بقليل من التنظير » الذى يصلح لتوجيه البحث بدءا من اختيار الموضوع وإنتهاءا بالمعطيات الميدانية وتحليلها وبالاعتماد على أدوات البحث التقليدية يمكن التوصل إلى تصميمات عن المجتمع المعين . والمتأمل للكثير من الأعمال البحثية فى كثير من بلاد العالم – بما فى ذلك العالم العربى – يدرك بسهولة أن بحوث علم الاجتماع قد غرقت فى الجزئيات ، وبهذا طمست جوهر المجتمع ومن ثم أعاقت تحقيق أهداف علم الاجتماع الشمولية . إن المناهج الموظفة فى علم الاجتماع ليست مناهج كاملة أو تامة التكوين بحيث يكون المطلوب مجرد استعمالها ، بل أن هذه المناهج فى حاجة الى مراجعة دائمة وتتطور باستمرار من خلال استخدامها فى تحليل متجدد لمشاكل بعضها قديم وبعضها جديد . لقد انعكست أزمة التنظير فى علم الاجتماع الى ثنائية المنهج ، فمنذ بداية علم الاجتماع[٢] ونجد اتجاهين يعكس كل منهما موقفا نظريا بالنسبة للحقيقة الاجتماعية . الاتجاه الأول وهو ما يطلق عليه الإتجاه الوضعى أو علم الاجتماعى العلمى أو الوضعية المحدثة أو علم الاجتماع الكمى أو الرياضى وتتلخص دعواه بأن : الحقيقة تنحصر فى كل ماهو متاح أمام إدراك الحواس ، وأن العلوم الطبيعية والاجتماعية تشترك فى أساس منطقى ومنهجى واحد وأن ثمة فروق جوهرية بين الواقع والقيمة ، فالعلم يتعامل مع الأولى بينما تعكس الثانية نظاما للظواهر بتميز باختلاف التام عن نطاق العلم . ومن الواضح أن المذهب الوضعى لم يفرق بين « ماهو إنسانى » وماهو مادى ، فما هو إنسانى يمثل نظاما

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٣٠ – ٢٥٦ : انظر أيضا : السيد الحسينى ، نحو نظرية اجتماعية نقدية . بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٨٥ ، ص ص ١٤١ – ١٧٧ .

يختلف عن النظام الماد ، ومن ثم لايمكن أن يفهم ماهو إنسانى بواسطة الطرق الملائمة فى العلوم الطبيعية ، هذا القصور أدى الى ظهور البديل الانسانى ، ليقدم منهجا بديلا يعتمد على الفهم التفسيرى للموجهات والأسباب ورء الأفعال الاجتماعية . فعن طريق هذا الفهم التفسيرى يمكن للعالم الاجتماعى أن يقوم بدراسة الفعل الاجتماعى على نحو أكثر عمق مما يفعله العالم الطبيعى فى دراسته للمادة الجامدة .

إن تشكيل الوعى الإنسانى الاجتماعى - كان ولايزال - الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع الواعى . ذلك لأن موقف الإنسان من هذا الواقع - مقبولا أو رفضا ، ترسيخا أو تغيرا - يعتمد على طبيعة هذا الوعى . ولقد تبلور فى علم الاجتماع منذ نشأته تياران [1] :

أ- تيار يهدف الى تزييف هذا الوعى وتجهيل الواقع ، أى جعله موضوعى غير قابل للفهم والاستيعاب وبالتالى يصبح عاجزا عن تغيير مساره .

ولقد اتخذ هذا الاتجاه لتحقيق هدفه أساليب متعددة ومتنوعة منها محاولة إلغاء الذات المفكرة لدى الباحث الاجتماعى أو حتى لدى المواطن العادى وحصر دوره فى أعمال الذات المدركة التى تكتفى بتسجيل ماهو قائم بوصفه حقائق واقعة ودون أعمال العقل فيها ، أى قبولها بشكل إيجابى دون أى محاولة لنقدها وهذا هو جوهر الإتجاه الوضعى ومن هذه الأساليب أيضا التغافل عن الواقع الاجتماعى بكل مايشتمل عليه من تناقضات والاستغراق فى حالة من التأمل الفكرى

(١) انظر : ريكمان ، منهج جديد للدراسات الإنسانية ، ترجمة على عبد المعطى ومحمد على ، بيروت : الدار الجامعية ، ١٩٨٩ ، نحو علم اجتماع عربى : علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة . بيروت ، مركز دراسات الوحدة البحرية ، ١٩٨٩ .

والنظرى والتعامل مع مفهومات مجردة لا صلة لها بالواقع المعاش ومن بين هذه الأساليب أيضا مايطلق عليه « الحرفية » أى أن تصبح المهمة الرئيسية للباحث هى استنباط أدوات محددة لاستخدامها فى البحث وتطويعها وتنسيقها وإنفاق الوقت فى إعدادها مما يجعله ينسى أو يتغافل الواقع الذى يستخدمها من أجل فهمه .

ب – أما الإتجاه الآخر ، فهو الذى يعمل على جعل الباحث قادرا وواعيا على كشف وفهم واستيعاب حقائق الواقع المعاش بكل ما يتضمنه من متناقضات ويعمل على تزويد الباحث بالمعرفة التى تمكنه من المواجهة الفعالة لمشكلات هذا الواقع ، ويستخدم هذا الإتجاه أساليب مغيرة للإتجاه الأول ، منها التأكيد على ضرورة عدم الفصل بين الذات المفكرة والذات المدركة.. ودعوته لدراسة الواقع ورصده وتحليله وفقا لمعايير تعلو على هذا الواقع ، وأخيرا جعل العلم واضحا لا للمشتغلين بعلم الاجتماع فحسب ، بل لعامة الناس ، أى أن الباحث لايتعالم على الآخرين .

« أزمة نظرية » تخلفت عن تفسير الواقع ، ومن ناحية أخرى فلم تتطور نظرية علم الاجتماع بل نجدها مفتتة ويغلب عليها المنظور الذاتى والتجريد فالنظرية الاجتماعية لم تصل بعد الى مرحلة الكمال فى بنائها .

والأزمة لاتعنى فشل علم الاجتماع فى التوصل الى قوانين عامة وإنما تعنى الأزمة أن الكثير من التعميمات والنماذج التفسيرية اصبحت غير ملائمة إما لأنها استنفدت قدرتها على استثارة مكتشفات جديدة وإما لأن الواقع الاجتماعى الذى طبقت عليه قد تغير تغيرا عميقا بحيث فقدت هذه النماذج مصداقيتها تماما إن صلاحية النظرية تتحدد بقدرتها

على كشف تناقضات الواقع وسبل حلها لدفع حركة المجتمع للأمام [1] .

إن الملاحظ كما أشرنا على أزمة علم الاجتماع الغربى أن هناك تمردا ونقدا لكل الإتجاهات النظرية والمنهجية هذا التمرد استباح نقد مقولات الفكر السوسيولوجى وبالرغم من أن الفكر الغربى قد نقد ذاته فإن باحثينا العرب مازالوا يدورون فى فلك المقولات التقليدية لاتجاهات علم الاجتماع . وهى المقولات التى تم التمرد عليها من قبل أصحابها بيد أن غالبية باحثينا مازال يردد مقولاتها ويهيم بها . ويستميت فى الدفاع عنها [2] .

غير أن هذه اليقظة فى وعى بعض الباحثين وذلك الوعى الناشىء إزاء مخاطر التبعية الفكرية ، لم تخلق وتتبلور بعد محاولة جادة لربط هذا النقد بخصوصية الواقع الاجتماعى العربى ، ومن ثم دون أى محاولة لتقديم أى رؤية بديلة تأخذ فى اعتبارها الطبيعة النوعية للتكوين الاجتماعى والثقافى والسياسى للمجتمع العربى ومن المدهش أن تأتى أحيانا هذه الدعوة للإبداع السوسيولوجى من غير المتخصصين فى علم الاجتماع [3] .

---

(١) انظر عبد الباسط عبد المعطى ، فى استشراق مستقبل علم الاجتماع فى الوطن العربى بيان فى التمرد والإلتزام فى نحو علم اجتماع عربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٩ - ٣٨ .
عبد الباسط عبد المعطى وعادل الهوارى ، فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ ، محمد عزت حجازى الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع فى الوطن العربى ، فى نحو علم اجتماع عربى ، مرجع سابق ، ص ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٣) عاطف أحمد فؤاد ، مرجع سابق ، ص ١٧٦ .

إن بعض الباحثين العرب قد يقتنع باختبار بعض مقولات هذا الإتجاه أو ذاك فإن هذا الإقتناع لاينبغى أن يكون صيغة أبدية يقف عندها باحثونا عاجزين عن تحقيق أى قدر . ولو يسير من الإبداعات المنهجية والإسهامات النظرية الخلاقة وهنا قد تتخلف عن الإسهام فى صياغة نهج الدور الحضارى للعلم الاجتماعى . وهو دور تتحقق ماهيته بصورة دقيقة عندما يوضع فى إطاره المجتمعى . وهو إطار يستمد مقوماته من خصوصية المجتمع وتفرد بنائه وتميزه وهويته الاجتماعية والسياسية فضلا عن تميزه الدينى (وهو بعد هام) والثقافى [1] .

هذا الدور الحضارى الذى يجب أن يكون لنا دورا فيه لايمكن أن يتحققونحن فى طريق التقليد ودون أى محاولة لتحديد معالم الهوية السوسيولوجية العربية ولايمكن أن يتحقق الا اذا وضعنا هذه الاعتبارات فى الحسبان :

١- أفضى إغتراب النظرية والمنهج المستخدمين فى الوطن العربى إلى تحليلات وتفسيرات متناقضة مع هذا الواقع ومع تاريخه وهذا بلاشك يؤدى الى تحجيم دور الباحثين فى مسيرة علم الاجتماع ويكشف من الآن بنفسه عن ضآلة الوعى .. لدى البعض وعن ماهية الخصوصية النظرية والمنهجية تدعيما لمقولة الخصوصية البنائية والتاريخية .

٢- لابد من الأتساق بين النظرية والمنهج من ناحية ومتغيرات

---

(١) المرجع السابق ، انظر أيضا ، العلم الاجتماعية فى الوطن العربى ، مجلة الوحدة ، السنة الخامسة ، العدد ٥٠ (نوفمبر ١٩٨٨) حيدر ابراهيم ، علم الاجتماع والصراع الأيديولوجى العربى ، مجلة المستقبل العربى ، السنة الثامنة ، العدد ٧٨ .

(٢) عاطف أحمد فؤاد ، مرجع سابق ، ص ص ٧٧ - ٧٩ .

الماضى والحاضر من ناحية أخرى ، فالكثير من مشاكلينا لها أبعاد تاريخية وثقافية ولهذا فلابد من أن نكون إستقلالية فكرية .

٣- إن دعوى الإستقلالية الفكرية لاتتعارض مع عالمية الفكر وشرعية التأثير والتأثر . ولكن لايعنى هذا أن نكون عالة على فكر الآخرين فهناك بالوطن العربى تراث فكريا وحضاريا يمكن أن يكون عونا على تحقيق الخصوصية الإبداعية . فى علم الاجتماع وغيره من العلوم .

إن حالة علم الاجتماع فى العالم العربى وهو يتعامل مع الإنسان ومجتمعه مازال يعتمد فى دراساته على ما أنتجه الفكر الغربى رغم الإغتراب الفكرى لهذه الأفكار فى واقعنا العربى كذلك فإن علم الاجتماع فى الوطن العربى لم يحاول إقامة صلات علمية بينه وبين العلوم الاجتماعية الأخرى وغالبا ما تؤثر أوضاع هذه العلوم وما بينها من صلات وما بين المشتغلين فى نطاقها من علاقات علمية على حالة الفكر وأوضاعه .

فلاتوجد مدارس فكرية يشترك فيها باحثون من عدة تخصصات ليوظفوا التخصصات الجزئية فى إطار أوسع وأشمل يتناول المشاكل المجتمعية ذات الأبعاد والتشابكات والتأثير فى مستقبل المجتمع ويشرون وعيهم من ناحية أخرى بالعمل الجماعى والقضايا القومية ، إن الإنعزال القائم بين العلماء فى العلوم الاجتماعية أدى الى وعى علمى مجزءا ، يؤدى الى نتئج غير دقيقة غالبا ماتكون ناقصة وأحيانا زائفة حول الواقع الأشمل [1] .

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، الوعى التنموى العربى ، مرجع سابق ، ص ص ١٩٩ - ٢٠١ .

إن المنهج السوسيولوجي قد نشأ ونمى فوقيا ومن الخارج فقد اعتمد على النقل والإستعارة والمحاكاة لمصادر الفكرى الغربى الأمر الذى أدى الى تبعية فكرية فى جانب علم الاجتماع العربى للخارج ولقد ساعد ذلك على وجود تقصير فى كم ونوعية الدراسات الضرورية المتعمقة ، حول لمجتمع الغربى ، فى ماضيه وحاضره ، وبالتالى لم تتوفر التربة الخصبة لاختبار هذه الأفكار من ناحية ، ولبروز أفكار وقضايا نوعية ، توضح خصوصيات المجتمع العربى فى علاقاتها بالقوانين العامة لتطور المجتمع الإنسانى"[1] .

إن الوعى المهيمن لايعمل لإفراز عدم حقيقى للمجتمع ولايسمح بوجود وعى يقظ للعالم ومن ناحية أخرى فإن الوعى البديل لايزال جنينيا ومحدودا ومحاصرا إن العملية التاريخية لتزييف الوعى جعلت من هذا الوعى متفتتا ومتناقضا الا أنه مع ذلك يحمل إمكانات هائلة لو أعطى الفرصة للتعبير عبر ذاته لأفضى على الوعى المهيمن الذى يعمل الى تجزئة الوجود وتفتته وتزييف الوعى به وتفتيت الوعى البديل ومحاصرته وتزييف إدراكه للوجود إن إبراز دور هذا الوعى البديل ليس بالأمر السهل فهو بحاجة الى بلورة وتحديد وهو ليس بالعمل الفردى ولكن من خلال توصيل العلم الاجتماعى للجماهير لكى تعى دوره فى تحليل الواقع مع كل ما يحمله من مشاكل كل هذا لابد أن يتم بعيدا عن المصالح الفردية للمشتغلين بعلم الاجتماع فدور العالم الاجتماعى مازال غير واضح ومجدى علميا ومحددا ، ووعيه مازال زائفا وتابعا فنحن فى حاجة مرة أخرى لوعى حى بن يقظان ليعى ذاته أولا ثم يعى

(١) انظر محمد شقرون ، « أزمة علم الاجتماع أم أزمة المجتمع » فى : مجلة المستقبل العربى ، السنة الثانية ، العدد ٧٦ ، (يونيو ١٩٨٥) . ص ص ٢٥ - ٢٦

أمته ومشاكلها [1] .

ولكن السؤال الذى يجب أن نطرحه الان هو ماذا عن وعى الباحثين العرب بخصوصية علم الاجتماع وعلاقة هذا العلم بواقعنا الاجتماعى والحضارى ، وبالتالى هل هناك وعى بطبيعة استقلالية العلم وإنعكاس ذلك على محاولات الإبداع .

إن أزمة علم الاجتماع فى العالم العربى تكشف عن أزمنة فكر ومنهج فالأزمة تعوق القدرات الإبداعية للباحثين من أن تنطلق نحو الخلق والأبداع . على العكس من ذلك نجد التبعية المطلقة للإتجاهات النظرية لعلم الاجتماع الغربى ويمكن تلخيص الملامح العامة لهذه الأزمة على النحو التالى [2] .

١- التسغراق غير الواعى فى الأخذ بالموجهات النظرية والمنهجية لعلم الاجتماع الغربى ، وما تبع ذلك من ولاء أيديولوجى أو تبعية أيديولوجية وسياسية .

٢- أن الإدراك غير الواعى لبعض هذه الإتجاهات النظرية وتوظيفها فى العالم العربى قد أدى الى تفسيرات مشوهة للواقع العربى .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٠٢ ، ٢٠٤ : انظر أيضا سعد الدين ابراهيم ، تأمل الآفاق المستقبلية لعلم الاجتماع فى الوطن العربى : من إثبات الوجود الى تحقيق الوعود . فى نحو علم اجتماع عربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٤٣ - ٣٥٧ .

(٢) عاطف أحمد فؤاد ، مرجع سابق ، ص ص ٦٨ - ٧٣ أنظر أيضا المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، إشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى القاهرة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٨٤ ، أحمد أبو زيد ، أزمة العلوم الإنسانية فى مجلة عالم الفكر . الكويت المجلد الأول ، العدد الأول ، ١٩٧٠ ص ص ١٩٥ - ٢٢٣ .

٣- أدى عدم الوعى بخصوصية البناء الاجتماعى العربى وتميزه التاريخى الى نوع من الفصامية فصامية النظرية عن الواقع وقد أفضى هذا الى نوع من الأغتراب الاجتماعى والتاريخى .

٤- تلعب القيم السياسية والدينية والاجتماعية نوعا من التحريم العلمى على بعض القضايا والموضوعات وعدم الإحساس بها وهذا ما يطلق عليه التابو الثقافى للدين والسياسة والجنس ولهذا فلقد اقتصرت البحوث على تقديم الجديد حول هذه الموضوعات .

٥- أدى الأزمة الى الإغتراب الفكرى ومن ثم الإغتراب عن القضايا والمشكلات التى يواجهها المواطن ، فالتعامل مع هذه المشكلات غالبا ما يتم عن بعد ومن ثم تركت هذه المشاكل تتفاقم دون مواجهة حقيقية .

٦- هناك نوع من التجاهل والتشكيك من قبل السلطة هى فرصة مبتدوى وأهمية نتائج العلوم الاجتماعية لقد أفضى هذا الى التأثير على التقدير المبدئى للباحثين فى العلوم الاجتماعية مما أثر بلا شك على حركة البحث فى العلم الاجتماعى .

أن هذه الملامح قد أفرزت وعيا ناميا لدى الباحثين تجلى فى :

١- حركة نقد لكل الإتجاهات النظرية الغربية وما تبعها من توظيف فى البحوث الاجتماعية فى العالم العربى .

٢- بروز وعى ناشىء يعى خطورة الأزمة التى تمر بها العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة وتشهد بذلك مجموعة من الدراسات والبحوث والمؤتمرات الا أنها على أية حال ارهاصات أمل ويشير يقظة وملمح من ملامح الاستقلالية

المنهجية المرتقبة [١] .

٤- الوعى بأزمة المجتمع العربى :

هناك ثنائية فى الوعى العربى المعاصر وهى ثنائية القديم والحديث الدينى والعلمانى ... الخ وسبب هذه الثنائية هو أن منهج دراسة الفكر والثقافة بقى فى أغلب الأحيان منهجا سجاليا يقوم على تبرير تأكيدات ومواقف معينة اصلانية أو عصرية والدفاع عنها فى خضم مفترض فالمذهب الأصولى يرى أن أسباب هذه الثنئية كامن فى نجاح الغزو الفكرى الغربى فى التغلغل فى عقول ووعى الجماهير العربية سواء نتيجة لجهل هؤلاء أو لسوء نواياهم ونوايا الجماعات المهيمنة والحل كما يرى أصحاب هذا الاتجاه هو فى محاصرة هذا الغزو وانتصار الاصالة على هذا الغزو الفكرى والمادى ومن ناحية أخرى فان المدافعين عن الحداثة يرون أن السبب وراء هذه الثنائية استمرار التقاليد والقيم التراثية التى ارتبطت بالعقل العربى والتحديث بالنسبة لهم هو تحديث الثقافة والعقل والخروج من عصور الظلام العقلية أو ظلامية الوعى إلى نور الحضارة أو نورانية العقل والحل كما يراه أنصار هذا الاتجاه هو انفتاح الوعى أمام معطيات العصر وحقائقه بمعنى آخر أن هذا الاتجاه . يرى ان تغير الوعى مرتبط بتغير الأفكار والعقائد ولقد ولد اتجاه ثالث جديد توفيقى يسعى الى الربط بين الاتجاهين ويصلح أحدهما بالآخر [٢] .

---

(١) عاطف أحمد فؤاد ، مرجع سابق ص ص ٢٧٤ انظر المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، إشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى ، مرجع سابق .

(٢) برهان غليون ، «وعى الذات» ، مجلة الحوار ، السنة الأولى ، العدد ٣ (خريف ١٩٨٦) ، ص ص ٠٩-١٢ . انظر أيضا : حسن حنفى ، مقدمة فى علم الاستغراب ، القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٩٣ ، أنور الجندى ، أهداف التغريب فى العالم الاسلامى ، القاهرة مطابع رزز اليوسف ، ١٩٨٧ .

محمد حمدى زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ، قطر مطابع الدوحة العربية ، ١٩٨٣ .

أكرم ضياء العمرى . التراث والمعاصرة ، قطر : مطابع الدوحة العربية ، ١٩٨٥ .

عماد الدين خليل . حول اعادة تشكيل العقل المسلم قطر مطابع الدوحة العربية ١٩٨٣ .

والحق أن أسباب هذه الأزمة تكمن في الكشف فيما وراء التنازع بين تيارين ايديولوجيين ، عن الانقسام الأول للوعى على ذاته وتمزقه بين اختيارات ورغبات ومشاعر لايستطيع ن يتخلى عن بعضها دون أن يبرر نفسه ولاينجح في الجمع بينهما لتحقيق صيرورته فالوعى منقسم على ذاته ولهذا فهو عاجز عن الحركة كذلك « الانسان المشدود بين قطبين جاذبين بنفس القوة لايستطيع ان يتقدم ولايستطيع أن يتأخر ولايكف عن الحركة للخلاص من هذا الانشداد وهذا الانشداد المتناقض والممزق هو محنة الوعى العربى بكل ما تعنيه كلمة محنة من أبعاد مأساوية ومن رغبة في الخلاص والخروج من الذات وفقدان الرؤية الواقعية والمقدرة على التحكم في الوضع والوقوع ضحية للظروف ولتيارات ومجارى الرياح التى تهب عليه وتتقاذفه من شتى الجهات [١] .

إن الأزمة التى يعيشها الوعى العربى تكمن في نظام التبعية التى مر بها في مراحله المختلفة وهى التى تحدد ثنائية الوعى والخطوة الأولى في تخليص الوعى العربى من أزمته هو في نظرنا تحويل الوعى الذاتى الى وعى بطبيعة هذه الأزمة ووعى بطبيعة التناقضات التى نمزقنا . عندئذ سندرك « ان وراء هذا الشقاق في الوعى ووراء محنة الثقافة ارتهان الوعى نفسه لحركة واقع تاريخى لم يجد حلا لمشكلاته الكبرى . وأنه بقدر مايتيح الوعى في الامساك الموضوعى بتناقضات هذا الواقع والسيطرة عليها ، ومن ثم تغييرها أو تحويل وجهتها يستطيع أيضا أن يرتفع فوقها ، وأن يكون عاملا مستقلا في التغيير ، قادر على اعادة تركيب هذا الواقع تركيبا منتجا ، في الذهن أولا ثم في الحقيقة فيما بعد [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٣ - ١٤ .

(٢) المراجع السابقة ، ص ، انظر محمد عزت حجازى «الأزمة الراهنة في علم الاجتماع بالعالم العربى » في نحو علم اجتماع عربى ، مرجع سابق ، ص ص ١٣ - ٤٤ .

ولهضم القوى الايجابية التى يتنبؤ منها والخطوة الأولى لهذه العلمية هى فض النموذج العربى الذى حدى حدووه اجيالنا المثقفة منذ بدأ اليقظة فى اوائل القرن الماضى ووضعه مثالا أعلى لكل علم وفن ومعرفة فى العالم ان هذا النموذج الغربى ينبثق من مجتمع يختلف عن المجتمع الذى يصوره ويصوره مثقفونا وهو يعبر عن قيم وأهداف غير تلك التى يعتقدونها فهذا المجتمع موبو ، وهو ذو قدرة هائلة على نقل عداوة الى المجتمعات النامية وما الفوضى والتضارب والتمويه التى عانيناها ولا يزال يعانيها الا أحدى نتائج هذه العدوى [1] .

والمشكلة الرئيسية التى يعانى منها المجتمع الغربى هى ظاهرة الخبل الكامنة فى صميمه هذا المجتمع الغربى ليقوم فقط على الاستغلال والقهر والعنف بل أيضا على مقدرة هائلة للكذب والتمويه على النفس وحجب الحقيقة عن الذات [2] .

والمجتمع الذى يرمى الى تغيير ذاته لابد وأن يقوم أولا بعملية معرفة الذات هذه المعرفة الذاتية هى الشرط الأول للتغير الذاتى سواء على مستوى الفرد أو المجتمع ولاتكون هذه المعرفة مجرد معرفة نظرية بل معرفة نقدية قادرة على اختراق الفكر السائد والنفاذ الى قلب القاعدة الحضارية التى ينطلق منها سلوكنا الاجتماعى وينبع منها الفكر والقيم والاهداف والوعى الصحيح هو الوعى النقدى القادر على كشف الواقع وتعرينه واظهار قاعدته الحضارية ولايمكن تغيير الواقع إلا بكشف النقاب عن حقيقته وما عملية الكشف هذه الا عملية المعرفة النقدية الهادفة الى تغييره [2] .

---

(١) هشام شرابى ، مقومات دراسة المجتمع العربى ، بيروت الدار المتحدة للنشر ١٩٨٤ ص ص ٨٢ ، ٨٣.

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٨٤ - ٩٥ .

والملاحظ أنه ومنذ عصر النهضة علمت المعرفة الدفاعية والفكر الدفاعى على المعرفة النقدية والفكر النقدى فالفكر السائد هو فكر تبريرى وأصبح هدف المعرفة. درء الخطر عن الذات بدلا من معرفة الذات وفهمها وبهذا يحجر الفكر النقدى منذ البداية وبهذا تميز الفكر العربى المعاصر وخرج عن معرفة الذات وهروبه من مجابهة الواقع وكشفه ، فالظروف التى مر بها المجتمع العربى فرضت عليه اتجاها دفاعيا افقده القدرة النقدية، ومدى قيمة نزعة المسايرة والتجريد اللا علمى ونتج عن ذلك ان تصور المجتمع لذاته وتفهمه لتاريخه وحضارته . اتخذا شكلا مبهما ومغلوطا إختلطت فيه الحقيقة التاريخية بالمخاوف والتحديات والأحلام من هنا كان تفهمنا لواقعنا تفهما يرتكز على الوهم والعاطفة لا على العقل والحقيقة العلمية . وكانت كل محاولة لازالة الوهم واصلاح الخطأ تقاوم بشدة بارتباطها . من جهة ، بحاجات نفسية متأصلة ، ومن جهة بمصالح اجتماعية وسياسية قائمة [1] .

ولكى نتحرر من هذا الوعى الكاذب لابد – كخطوة أولى – أن ترفض التعتيم واستعادة الثقة بالذات وذلك بامتلاك الادراك النقدى والمعرفة الذاتية والجماهير قادرة على تجاوز الوعى الخاطىء والعودة الى العلاقات الاجتماعية القائمة على الوضوح ولايعنى انهاء جو التعتيم سوف يؤدى مباشرة الى انبثاق الوعى اليقظ وانتشار المعرفة النقدية ، فالمجتمعات تحتاج الى مرحلة إنتقالية من ثباتها التاريخى الى مراحل التجريد والتغير والتحديث ولتحقيق هذه النقلة لابد من وعى قادر على إنهيار حالة التعتيم ؛ وعى قادر عن التعبير على ذاته فى نظرية شاملة

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨٥ – ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٨٧ – ٨٨ .

مرتبطة بارادة واعية وقادرة على تطوير المجتمع ونقله الى المستوى الحضارى المطلوب [1] .

ان الوعى لايمكن أن يتعرف على ذاته اذا كان معتمدا على معرفة من خارج المجتمع فالمعرفة والنظريات والمفاهيم الواردة من الخارج تؤدى الى التعمية والفوضى اللتين تعانيهما حاليا إن المعرفة فى اشكالها لاتصبح معرفة حقة الا عندما تمتلكها الذات الاجتماعية . فتصبح تعبيرا عن واقعها وعن امكان تجاوز هذا الواقع إن كل علم وفن وفلسفة نبقى وسيلة للتمويه والكبت مادام شكلها مستورد تعرض وتعلم فى المدارس والجامعات كما نعرض السلع المستوردة وتشترى دون ادراك لماهيتها والنهج الذى اتبع فى صنعها ان العلم والفن والفلسفة المستوردة تحافظ على استمرار ذهنية الوعى الخاطىء وتقويها فى المجتمع [1] ما يريد أن نؤكده هنا هو أن ما يقود العلم ويسيره فى المجتمع هو دافع منبثق من ذلك المجتمع فيعطيه منطقه الخاص وطبيعته الخاصة .

ان مانحتاج إليه هو كسر الطوق الذى يبعدنا عن انفسنا ويحجب عنا واقعنا ويجعل وعينا مغتربا عن ذاته نحن فى حاجة الى التغلب على التمويه والتعتيم وان يكون لنا القدرة على تكوين المعرفة النقدية حتى ننتقل الى المعرفة الذاتية المستقلة والتى تشكل القاعدة الوحيدة للوعى اليقظ لكن هذه المعرفة الذاتية تبقى عرضة للقوى المسيطرة فى المجتمع لتحد من هذه المعرفة وتستخدمها فى سبيل تأمين مصالحها ومن ناحية أخرى فمن الخطأ أن نعتبر النموذج الغربى فى العلوم والحياة الاجتماعية مثلا يحتذى به فى عملية الحداثة والمعاصرة مازلنا فريسة التمويه الذى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩ انظر ايضا « الانتلجانسيا العربية » مجلة الوحدة ، السنة الرابعة العدد ٤ (يناير ١٩٨٨) .

حمله الينا مثقفينا بتقديسهم للتراث والعلوم الغربية والحضارة الغربية وعجزهم عن اتخاذ أى موقف نقدى واع نحوها ، فأصبحنا نأخذ لكل ماهو غربى ونرفض كل ما يتناقض مع قيمنا وحضارتنا والنتيجة وعى زائف وتمويه على هذا الوعى بحيث ما يدخل هذا الوعى . من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية وعن طريق التعليم وعن طريق وسائل الاعلام ، تزيف له يصف تغيره مهما طال العمر وتراكمت التجارب ، وبهذا تتشكل عقولنا وذواتنا ووعينا على هذا التزييف وهذا التعتيم . والمحصلة النهائية أشخاص ليس لديهم القدرة على النقد والتمحيص والتقييم [١] . ان ما نحتاجه هو دور حقيقى لعلماء العلوم الاجتماعية ، إذ أنهم يمثلون القدرة الذاتية فى المجتمع العربى التى تملك الوعى الصادق ولديهم القدرة على كشف الواقع ، وهم فى وعيهم يعبرون عن ارداة ووعى بالمجتمع الكبير . وأمام هؤلاء العلماء اختيار فاصل إما الإستسلام (كما فعلت أكثرية مثقفى الجيل السابق) للقوى والمؤسسات المهيمنة فأمنوا مستقبلهم وقبلوا بدور المستخدم والمستلزم . أما لعب الدور التاريخى ورفض رشوة المستقبل المؤمن . ومزلة الاستهدام والاستلزام والوقوف الى جانب جماهير الشعبر التى يتوقف عليها فى السياق الطويل ، مصير المجتمع ومستقبله [٢] .

ان التفكك الذى يصيب المجتمع العربى ليس تفككا على مستوى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ويقول فى نفس المعنى من الواضح ان مجتمعنا يرمى من خلل عملية التربية والتثقيف الى هدف أساسى هو اخضاع الفرد وكسر شوكته والتعبير الأقوى والأكثر وضوحا لهذا يتضح فى معاملتنا لاطفالنا وفى اسلوب تربيتهم وتثقيفهم « المرجع السابق » ص ١٠٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

البنية الاجتماعية التابعة وخصائصها المتناقضة ، بل هو أيضا تفكك على مستوى علاقة الوعى بالواقع وهو قطيعة غريبة بين الوعى والواقع . فالفكر الواعى عليه ان يواجه عملية المزج بين الحاضر والمستقبل والماضى وما يحمله من هوية وموجهات ثقافية . فلا تغريب ولا نكوص فى هذا الوعى ، بل معاناة واعية بظروف الواقع . فالاستلاب الحضارى الذى يفرزه الوضع التابع بشكل حاجزا هاما أمام هذا الوعى وهذه المعاناة ، مما يجعل المشروع التابع والمشروع المضاد له أحيانا فى نفس الوضع من التغريب [1] .

٥- الوعى البديل :

إن علم الاجتماع - مثله فى ذلك مثل العلوم الاجتماعية الاخرى - يسعى الى تقديم تفسير ورؤية للواقع من خلال مجموعة من الأحكام القيمية . ومنذ نشأته وعلم الاجتماع مرتبط بإطار أيديولوجى يحدد وعيه بأهداف المجتمع العليا ، وينعكس هذا بدوره على تشخيصه ومعالجته لمشكلات المجتمع . فالعلاقة بين علم الاجتماع والأيديولوجيا علاقة مستمرة فى وعى الباحث سواء قصد هذا أو لم يقصد [2] . إن

---

(١) أحمد عياض ، اشكالية التحول فى المجتمع العربى والهوية الثقافية ، مجلة اليقظة العربية العدد الأول ، السنة الثانية (يناير ١٩٨٦) ص ص ١١٩ - ١٢٦ .

(٢) انظر : نبيل السمالوطى ، الايديولوجيا وأزمة علم الاجتماع المعاصر : دراسة تحليلية للمشكلات النظرية والمنهجية ، الاسكندرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ .

حيدر ابراهيم على ، (علم الاجتماع والصراع الأيديولوجى فى المجتمع العربى) ، مجلة المستقبل العربى ، السنة الثامنة ، العدد ٧٨ (أغسطس ١٩٨٥) ، ص ص ٤ - ٢٧ .

محمد شقرون ، (أزمة علم الاجتماع أم أزمة مجتمع) ، مجلة المستقبل العربى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٣٦ .

العباسى عنصر ، أزمة غياب علم الاجتماع ، مجلة المستقبل العربى ، المرجع السابق ، ص ص ٣٧ - ٤٨ .

تشخيص الأزمة يكمن فى عجز علماء الاجتماع فى تفسير الواقع تفسيرا مقنعا وخلق الوعى بمشاكله .

أما فى الوطن العربى فإن علم الاجتماع يواجه أزمة عميقة أزمة مركبة أكثر عمقا من الأزمة التى يعانيها علم الاجتماع الغربى . ولعل من المظاهر الصارخة لهذه الأزمة . هو ذلك الكم الهائل من الكتب المدرسية أو التراجم ، ولانجد مراجع ذات قيمة تتصدى لأكثر الظواهر الاجتماعية العربية خطورة وأهمية ، بل قد نجد هذا بأعمال باحثين من ثقافات غربية [1] .

إن النتيجة المنطقية لأزمة علم الاجتماع فى الوطن العربى أنه يعمل على تزييف الوعى أو على الأقل يجعل الناس سفهمون أنفسهم وواقعهم فهما خاطئا مشوها ، ولهذا فإن علم الاجتماع يعمل على تزييف وعى الناس بتقديمه الواقع كمعطى غير قابل للمناقشة وبدون أن يقدوم تحليلا مستمدا من السياق الاجتماعى والتاريخى للمجتمع العربى [2] .

إن كل هذا أدى الى ظهور العديد من الأصوات التى تنادى بتقديم وعى جديد أو علم اجتماع بديل ، أخذت هذه الأصوات الطابع الغربى أو الرقليمى أو الإسلامى وسوف نقدم هنا بإيجاز شديد أهم صور هذا الوعى البديل .

---

(1) Sabagh, G., and Ghazalla, I., Arab Socialogy today: " A View from within" Ann, Rev. Social, (12 1986) PP. 373-399.
- Boudon, R., the Crisis of Socialogy, trans. by H. H. Paris. London. the Macmillan Press, 1980.

(٢) محمد عزت حجازى ، (الأزمة الراهنة لعلم الاجتماع فى الوطن العربى) ، فى : نحو علم اجتماعى عربى ، مرجع سابق ، ص ص ١٣ - ١٤ .

أ- علم الاجتماع العربى :

لقد كان من أهم ملامح الفكر العربى المعاصر وهو يبحث عن هوية جديدة يواجه بها « لآخر » المسيطر : الصدام أو الرفض ، أو القبول، أو التعايش مع ذلك الآخر . لقد أفضى الفكر العربى المعاصر – كما أشرنا – إلى ثنائية أيديولوجية فهناك الموقف السلبى الرافضة للغرب والتجديد والتحديث وآخر ايجابى تجاه الغربى وإنجازاته وعلومه والى جانب هذين النقيضين توجد حركة وسيطة يطلق عليها الموقف الإصلاحى .

وكما أشرنا ، فإن علم الاجتماع منذ توظيفه فى العالم العربى فى المرحلة الأخيرة كان يحمل الأيديولوجية الغربية والمفسر لأوضاع علم الاجتماع فى الوطن العربى يستطيع بسهولة أن يربط بين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى ولد فى رحابها . فلقد عمل الاستعمار على طبع العلم بطابع يخدم مصالحه ويحافظ عليها ويشهد على ذلك العديد من الكتابات التى مهدت هذه النشأة والتى تعكس الارتباط بالنموذج الغربى ومحاولة محاكاته بغض النظر عن الخصوصية النوعية والتاريخية للواقع العربى . ولقد أدى هذا بطبيعة الحال إى تشويه صورة العلم الجديد وإنعدام تأثيره على المجتمع العربى ، ولهذا بات واضحا أن علم الاجتماع الذى وظف فى العالم العربى هو علم مغترب عن حق عن الواقع المتغير والذى تختلف قضاياه عن قضاى العالم الغربى الذى نبع فيه علم الاجتماع كاستجابة فكرية لهذه القضايا .

ولهذا ظل علم الاجتماع حتى نهاية الخمسينات من هذا القرن يدرس على أنه نظام اكاديمى له تاريخ ونظرية ومنهج وسارت بحوث هذا

العلم فى العالم العربى فى طريق التعريب . وقد أدى هذا بطبيعة الحال إلى عدم وجودة دعائم حقيقية لعلم اجتماع نوعى له خصائصه المرتبطة بسياق المجتمع العربى ويمكننا أن نلاحظ بسهولة التخبط النظرى والمنهجى الذى سادت تلك الفترة ، فالوظيفية والإمبريقية التجزئية هما أهم سمات علم الاجتماع فى الوطن العربى أما عن تطبيق العلم فهو بلاشك ، تزييف الواقع والوعى به . وبطبيعة الحال ، أن تؤءى هذة التبعية الى إنحصار دور علم الاجتماع فى التلقين والتوارى وراء أسوار الجامعة .

وبدأت الأصوات ترتفع منادية بأن علم الاجتماع الذى يدرس فى العالم العربى ماهو إلا علم اجتماع غربى يبتعد فى روحه ونتائجه عن التراث العربى . ولقد جاء عاطف غيث عن وعى ثاقب يرى ضرورة قيام علم اجتماع عربى ، لقد طالب بضرورة نقد علم الاجتماع فى صورته الحالية ، فما يأتينا من الغرب ليس له طابع المسلمات ، ولذلك يجب أن يكون لنا قدرتنا الخلاقة لتقديم البديل . هذا البديل هو العلم القادر على اسخلاص الحقئق الخاصة بنا والتى نستخلصها بأيدينا من واقع ظروفنا . لقد أن الأوان لأن نطارد كل التسللات الفكرية التى تهدف الى ربط الواقع العربى بعجلة مجتمعات أخرى . ولقد أن الأوان أيضا لكى نجتمع لإخراج علم اجتماع عربى .

كانت هذه الصرخة - كما أشرنا - هى البداية لتصحيح مسار علم الاجتماع فى الوطن العربى ، وبدأت المحاولات الجادة لإخراج علم اجتماع عربى ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، وكتبت الدراسات التى يطالب أصحابها بإعادة قراءة تراث العلم

وتقديم البديل [1] . وجاءت الأفكار فى شكل نقد العلم وتشخيص أزمته ثم الإنتقال إلى أزمة الواقع العربى ونقد العلم المستخدم . ويرى أحد الباحثين أن علم الاجتماع الغربى استخدم فى العالم العربى لغرض الهيمنة والسيطرة ، ولتحقيق هذا تم تزييف واقع عالمنا العربى ، وزيفت أسباب تخلفنا وزيفت قدرتنا وإرادتنا على الخروج من حلقة التبعية والتخلف . لقد ساهم علم الاجتماع فى تزييف وعى الناس وتزييف النظم القائمة .

وعلم الاجتماع مطالب – طبقا لهذه الدعوة – بأن يدرس هذا الوعى الزائف وتصويره ، وتقديم تفسيرا سوسيولوجيا حقيقيا ، بمعنى

---

(١) انظر أعمال ندوة : نحو علم اجتماع عربى ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٩ . ندوة العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى (مجلة لوحدة) السنة الخامسة ، العدد ٥١ ، (نوفمبر ١٩٨٨) . إشكالية العلوم الاجتماعية فى الوطن العربى ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٨٣ ، مؤتمر : علم الاجتماع وقضايا الإنسان العربى المعاصر ، الكويت ، ١٩٨٤ ، مؤتمر نحو علم اجتماع عربى ، أبو ظبى ، ١٩٨٣ ، ندوة: الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع ومدى ملائمتها للوطن العربى ، مجلة العلوم الاجتماعية ، السنة التاسعة ، العدد ٤ (ديسمبر ١٩٨١) . جهينة سلطان (أزمة علم الاجتماع فى الوطن العربى.٢) ، المجلة العربية لعلم الاجتماع ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ١٩٨٤ .

انظر أيضا : الأعمال التى تتحدث عن علم الاجتماع أو علم الاجتماع المصرى : محمد الجوهرى ، (أراء نقدية فى تاريخ علم الاجتماع فى مصر) ، مؤتمر علم الاجتماع وقضايا الإنسان العربى المعاصر ، مرجع سابق ، حسن الساعاتى ، (تطور المدرسة الفكرية لعلم الاجتماع فى مصر مذ سنة ١٩٥٢) المجلة الاجتماعية القومية السنة ١ ، العدد١ ، (يناير ١٩٦٠ ، مؤتمر : علم الاجتماع فى مصر إلى أين ، جامعة الأزهر ، ١٩٩١ ، خاصة أوراق : محمد الكردى ، مصطفى خلف عبد الجواد ، محمود مصطفى كمال .

الاهتمام بالجوهر الذى يحدد هذا الوعى أى بالواقع الاجتماعى للناس فى علاقتهم مع وعيهم ، مع بيان محاولات تشويه هذه العلاقة من أجل التهيئة لتزييف الوعى بالواقع . إن هذا يساعد ، بلا شك ، على تقديم التصورات البديلة أو الطرح الجديد . إن الحوار مازال دائرا حول قيام علم اجتماع عربى ، أو قيام مدارس عربية ، وإن كان هذا يعنى شيئا فهو يعنى فى المعنى الأول رفض علم الاجتماع القائم فى العالم العربى وانه مغترب عن الواقع العربى وأن هناك تقصيرا من قبل المشتغلين به وأنه من الضرورى البحث عن هوية صادقة معبرة عن الهوية الثقافية لواقع العالم العربى ومشكلاته .

إن تقديم هوية بديلة لعلم الاجتماع تقتضى إحداث تغيرات فى القوى المهيمنة على مسار العلم وتحتاج هذه الحركة إلى جهود مكثفة من أجل تحديد البديل الذى يعبر عن الهوية الثقافية والخصوصية التاريخية والمعاصرة للمجتمع العربى . إنه من الضرورى من وجود تجمعات ينتمى إليها المشتغلون بعلم الاجتماع فى الوطن العربى والسعى لخلقها ، تعمل هذه التجمعات لخلق الاطار والحماية لمشتغلين بالعلم وتمهد ارضية العمل الجماعى وتساعد على تحقيق ما يسعى اليه الباحثون [1] .

---

(١) عبد الباسط عبد المعطى ، « فى استشراق مستقبل علم الاجتماع فى الوطن العربى : بيان من التمرد والالزام » فى نحو علم اجتماع غربى ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٩ – ٣٨٠.

ان هذه الدعوة تتفق مع ما نادى به حسن حنفى فى اقامة علوم للاجتماع وطنية للخروج من دائرة الوعى الاوربى أو الهيمنة الفكرية والقضاء على اكذوبة . ان الوعى الاوربى هو الذات العارفة والوعى اللاأوربى موضوع المعرفة . ان الوعى اللاأوربى قد شوه بدعوى العلم والموضوعية وحول من ذات الى موضوع وأبقى على الوعى الاوربى على أنه الـذات =

ب - علم الاجتماع الاسلامى :

وكرد فعل للتغريب الثقافى التى عاشت فيه العلوم الاجتماعية بصفة عامة وعلم الاجتماع بصفة خاصة ظهرت حركة انتشرت فى العالم الاسلامى تؤكد الهوية الاسلامية لعلم الاجتماع وتحاول ان تبين زيادة اسهامات المسلمين فى علم الاجتماع وأخذت هذه المحاولات أشكالا متعددة مثل علم الاجتماع الاسلامى وعلم الاجتماع القرآنى[1]

= العارفة فقط ان العلمم الاجتماعية الوطنية تكشف هذه المغالطة وتحرر العقل العربى عن لبعيته الثقافية انظر : ندوة عاطف غيث الثالثة « علم الاجتماع ومستقبل الانسان العربى » ١٩٩٢

(٢) هناك العديد من المحاولات التى تبذل لاقامة علم اجتماع اسلامى تذكر منها :

حسن الساعاتى : « أصول علم الاجتماع فى القرآن » مجلة كلية العلوم الاجتماعية جامعة الامام محمد بن مسعود الاسلامية ١٩٧٧ .

زكير مجمد اسماعيل :« علم الاجتماع الاسلامى » الاهداف وخطط الدراسة ندوة الدراسات الاسلامية ، جامعة أم درمان الاسلامية ، فبرير ١٩٧٨ .

سامية الخشاب : علم الاجتماع الاسلامى . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٣ .

عبد الباسط حسن « نحو علم اجتماع اسلامى » ندوة الدراسات الاسلامية ، جامعة أم درمان الاسلامية فبراير ١٩٧٨ .

محمد ابراهيم الفيومى : قضايا فى علم الاجتماع الاسلامى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

مصطفى الخشاب : « علم الاجتماع الاسلامى » مجلة كلية الآداب ، جامعة أم درمان الاسلامية ، العدد الأول ، ١٩٧٧ .

نبيل السمالوطى ، علم الاجتماع الاسلامى ، بيروت : دار الشروق ، ١٩٨٢ ،

بشارات على : أسس علم الاجتماع وقضاياه من مقتطف قرآنى اسلامى ، ترجمة محمد على محمد ، فى مجالات علم الاجتماع المعاصر . تأليف عاطف غيث واخرين الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ ، ص ص ٥ - ٢٠ .

محمد اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الاسلامى ، ج١ ، محاولة تنظير ، ج٢ ، طور الازدهار الدار البيضاء : دار الثقافة ، ١٩٨٠ .

ولقد احتوت مجلة المسلم المعاصر ، العديد من المقالات التى تدور حول علم اجتماع اسلامى انظر : المؤتمر السنوى الرابع لجمعية علماء الاجتماع المسلمين ، السنة الثانية ، العدد الخامس ، ١٩٧٦ ، ص ص ١٧٣ - ١٨٠ .

محمد المبارك ، « نحو صياغة اسلامية لعلم الاجتماع »، السنة الثالثة ، العدد الثانى عشر ، ١٩٧٧ ، ص ص ١٥ - ٤٤

وعلم اجتماع المجتمعات الاسلامية [1] ويمكن تميز اتجاهين فى هذا المجال الاتجاه الأول يتميز بوضع افكار علم الاجتماع فى ثوب جديد اسلامى ، دون تغيير للمضمون السوسيولوجى الغربى . ولذا يتسم هذا الاتجاه « بعدم الأصالة » اذ لاحظنا عدم الاتساق الفكرى عند دعاته وتحولهم فى فترة زمنية قصيرة من اتجاهات ومدارس متناقضة تماما مع هذا الاتجاه الجديد. أما الاتجاه الثانى وهو أصيل اذ أن قناعاته اسلامية منذ البداية ، ولذيه اتساق فكرى واضح وينطلق من حاجة حقيقية وصادقة بضرورة الكشف عن الجوانب الايجابية فى التراث وربط الماضى بالحاضر على أساس وجود فترة انقطاع مفتعل ومفروض من قبل الاستعمار الغربى ، ولكنه يؤمن بقدره التراث على العطاء فى كل الظروف والأوقات [2] .

= أحمد المختارى ، نحو علم اجتماع اسلامى ، السنة الحادية عشر ، العدد ٤٣، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٩ - ٥٤ .
انظر كذلك أعمال ندوة علم الاجتماع فى مصر بجامعة الأزهر ١٩٩١ خاصة أوراق عبد الفتاح أحمد فؤاد :« اسلمة النقدية » ، زكى اسماعيل التأصيل الاسلامى لعلم الاجتماع ، نبيل السمالوطى « محاولة منهجية لتحديد طبيعة وموقع علم الاجتماع الاسلامى » .
اكبر . س . أحمد ، نحو علم الانسان الاسلامى ، ترجمة عبد الغنى خلف الله : المعهد العالى للفكر الاسلامى ، ١٩٨٩ .
هانى يحيى نصر ، فى سبيل علم اجتماع اسلامى ، جده : دار المجتمع العلمى ، ١٩٧٩ .
زكى محمد اسماعيل ، نحو علم الاجتماع الاسلامي ، الرياض : دار المطبوعات الجديدة ، ١٩٨١ .
مصطفى الفوال ، المقدمة لعلم الاجتماع العربى والاسلامى ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٨٢ .
نبيل السمالوطى ، بناء المجتمع الاسلامى ونظمه : دراسة فى علم الاجتماع الاسلامى : دار الشروق ، ١٩٨١ .

(١) انظر على سبيل المثال : على عبد الرازق جلبى ، « نحو علم اجتماع المجتمعات الاسلامية » ، فى : قضايا علم الاجتماع المعاصر ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٧٩ .
حيدر ابراهيم على ، علم الجتماع والصراع الايدلوجى فى المجتمع العربى » ، المستقبل العربى ، مرجع سابق ، ص ص ٤ - ٢٧ .
(٢) حيدر ابراهيم على ، مرجع سابق ، ص ص ١٩ - ٢٥ .

ان الدعوة الى علم اجتماع اسلامى هو محاولة لايجاد هويتنا الاسلامية الضائعة كذلك صياغة وتوضيح النظرية الاجتماعية الاسلامية - فالاسلام - طبقا لهذه الدعوة - نظام اجتماعى شامل وكامل يقوم على اساس التوحيد . فالتوحيد حقيقة يرتكز عليها البناء الاجتماعى الاسلامى ويدور فى فلكها كل خلقه . والنظام الاجتماعى الاسلامى يتجسد فى مفهوم الأمة . وان كانت الأمة الاسلامية ممزقة الآن ومتأخرة عن باقى الشعوب ، فان دور عالم الاجتماع الاسلامى يجب أن يكون أحد العوامل المساعدة على توحيد الأمة وذلك بالكشف عن المشاكل وتحليلها وايجاد الحلول لها. فعلم الاجتماع الاسلامى يدرس المشاكل فى واقع معقد وهو عندما يقوم بذلك لايخدم فئة اجتماعية دون غيرها ولا قومية ضد أخرى ولايقدم تبريرا للتخلف الذى تعيشه الامة ، وليعنى هذا عن تخلى علم الاجتماع الاسلامى عن مهمته النقدية التى تعرى المشاكل اينما كانت - ان المهمة الكبيرة لعلم الاجتماع الاسلامى هى « قلب التصورات الفكرية والنظريات المنتشرة فى انحاء العالم العربى عن الواقع الاجتماعى وعن الانسان . فالسنن والقوانين الاجتماعية التى تسير المجتمع ، أى مجتمع ، هى من عند الله هذه العملية - اعنى خلخلة الواقع والتصورات الفكرية الخاطئة ليست بالأمر السهل ، ولايتحقق ذلك ألا باسلمة العلوم خاصة علم الاجتماع فهو يكاد يكون الحلقة المفقودة فى بناء التخصصات الاسلامية الأخرى . لابد من الاهتمام بوجود علم الاجتماع الاسلامى بكونه يهتم أصلا بواقع المجتمعات ومشاكلها الانية والمستقبلية [1] .

---

(١) أحمد المختارى ، « نحو علم اجتماع اسلامى » مجلة المسلم المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ - ٤٤ .

ان ايجاد علم اجتماع اسلامى من شأنه ان يعالج كل القضاى الاجتماعية فى العالم من وجهة نظر اسلامية بالاضافة الى معالجة لمشاكل المجتمع الاسلامى . فالمهمة الأساسية للسوسيولوجيا الاسلامية هى فى دراسة الواقع الاسلامى المريض وتنقيته من البدع والخرافات « ان لعلم الاجتماع الاسلامى اهمية قصوى اذ من وظيفته دراسة البنى والمؤسسات دراسة ميدانية لشعوب الأمة وبالتالى اذا عرفت القوى الفاعلة والطفيلية وغيرها يمكن اصلاح المجتمع افراده وجماعاته ومؤسساته ».

ولهذا فان محاور علم الاجتماع الاسلامى متعددة ومتشابكة ، فهو من ناحية يهدف الى العالمية من حيث النظرة الاسلامية .

كما أنه يتفاعل مع الفكر الانسانى ، علاوة على ان مهماته متعددة فهو نقدى جدلى نابع لاتابع ، بتكارى النزعة والاتجاه ، ملتزم التزاما كاملا بالمبادىء الكلية للاسلام [١] .

ان أهمية علم الاجتماع الاسلامى تكمن فى « كونه واقعيا » أى أنه يصف الظواهر كما هى لا كما ينبغى أن تكون ، واذا استطاع تشريح المجتمع تشريحا واقعيا علميا ، يمكنه حينئذ ان يوجه الأفراد والمؤسسات الاجتماعية توجيها معينا . بحيث ينطبق السلوك مع الاعتقاد والمبادىء الكلية للاسلام »، وأخيرا فان علم الاجتماع الاسلامى « ليس علما اجتماعيا غربيا مكررا ، أو على الأرجح مبتذلا ولقيطا ، فخصوصية علم الاجتماع الاسلامى ، هى كلية لكل التصورات والنظريات الغربية حول المجتمع ، كما أن هدفه أو أهدافه تكمن فى كونه علما يهتم بقضايا الأمة [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٩ - ٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٢ - ٥٣ .

ان هذا الاتجاه الذى يحاول ايجاد بديل اسلامى لعلم الاجتماع مازال فى بداية المحاولة . فقد تكون الرغبة صادقة وقد يكون الهدف واضح ولكن لابد من جهود مضنية فى مناقشة قضايا المفاهيم والمنهج والنظريات وكيفية تطبيق كل هذا فى دراسة الواقع العربى والاسلامى . العلم اداة فى يد العالم واذا سلمنا بوعى العالم فانه يبقى كيفية استخدام هذه الاداة وقبل استخدام هذه الاداة يجب أن يطمئن العالم العربى إلى صلاحية الاداة المستخدمة للهدف المطلوب . ان هذه المحاولة وغيرها مازالت تحتاج الى تكوين الوعى وإعداد الباحث الواعى وتقديم «البديل» مع بيان كيفية استخدامه في الدراسة والتحليل . وليس هذا بمستطاع فرد واحد بل يحتاج الى تضافر العديد من الجهود المختلفة .

جـ - اسلمة المعرفة :

تهدف حركة أسلمة المعرفة أو اسلامية لمعرفة الى ممارسة النشاط المعرفى سواء على مستوى التأليف أو البحث من زوايا التصور الاسلامى أو التأصيل الاسلامى للمعرفة . وإعادة صياغته العلوم صياغة اسلامية ، أو صياغة العلوم من منظور اسلامى أو اقامة نظريات اسلامية أو رؤية اسلامية . هذه الحركة ليس « بنت اليوم ، أو بنت عشر سنوات مضت ولكنها تمثل الخط العميق فى التاريخ الاسلامى » حيث إحتكاك المسلمون بالعلوم الوافدة المتصلة بالواقع جعل العلماء المسلمين يستوعبوها داخل الحضارة الاسلامية واستبعدوا ما يخالف الاصول الاسلامية ، ولقد صار العالم الاسلامى فى هذا الاتجاه الى أن جاء عصر الركود وانقطع الاجتهاد وتوقف الابداع وبدأ الغزو الفكرى من علوم وثقافات أخرى معايرة عن الحضارة الاسلامية وبدأت النهضة الجديدة على أساس اقتباس هذه العلوم الوافدة دون تمحيص وظهرت إزدواجية فى

الثقافة ، علوم قديمة وعلوم جديدة وافدة . هذا أدى الى انفصام فكرى وهى حالة نحاول الخروج منها من خلال تحديثنا لهويتنا حتى نستعيد الخط الاسلامى للعلوم [1] .

بدأت هذه الصيحة فى أواخر السبعينيات وحمل لواءها فى امريكا دكتور اسماعيل الفاروقى حيث كان وعية الاسلامى الصادق مدركا للازمة التى كان يعشها بين ولائه الاسلامية والواقع المغترب الذى يعيش فيه ، لقد قدم الفاروقى أول (محاولة) منظمة فى مجال اسلامية المعرفة حاول من خلالها تشخيص أزمة أو عله المجتمع العربى ، كذلك أزمة الفكر وقصور المنهجية واعتبر ان اسلامية المعرفة ماهى الا جانب من جوانب الاسلامية وتختص ببناء الفكر والتصوز والمحتوى الانسانى القيمى وعلاقته فى العقل والنفس والضمير . ولذلك فاسلامية المعرفة - كما يرى الفاروقى شرط اساسى مسبق لنجاح بناء الأمة الاسلامية [2] .

ولقد تابع المعهد العالى للفكر الاسلامى هذه الدعوة وأصبحت للدعوة الآن وجود حقيقى فى كل أرجاء العالم . ان المبعث الاساسى لهذا الحركة يكمن فى محاولة المسلمين فى ربط مفاهيم الدين بالعلوم

---

(١) سيد دسوقى وآخرون ، اسلامية المعرفة . القاهرة : المعهد العالى للفكر الاسلامى ، ١٩٩٠ ، ص ص ٢ - ٣ .

(2) AL- Faruqi., I., R., Islanization of Knowledge : General Principles and workplan, Mavyland: International Institnte of Islanic thoought, 1982 .

انظر الترجمة العربية : .

اسلامية المعرفة : المبادىء العامة - خطة العمل - الانجازات المعهد العالى للفكر الاسلامى ١٩٨٦ . انظر أيضا : AL- Faruqi I., R., (eds). Natural sciences: The Islanic Respective, Jaddah, King Abdul Aziz unversit 1982.

الوافدة وما نجم عنها من ثورة فى العلومات لقد أدخلت الجماهير المسلمة فى عمق المشكلة سواء كان الهدف التأثير فيها بالصدفة أم لا وتحول التناقض من تناقض فردى الى تناقض اجتماعى، أصبح المسلم يعيش مشكلة اجتماعية حقيقية وهى كيفية معايشة الواقع الذى قد يختلف أو تتفق فى بعض أوجهة مع معتقداته ومفاهيمه [1] .

وتعمل حركة أسلمة المعرفة على محورين احدهما تنظيرى والآخر تطبيقى ، فالمحور الأول يتولى التعريف بالمصطلح ويوضح ضرورته المبحة ، ويلقى الضوء على التراث المعرفى الاسلامى فى اطاره التاريخى لتحديد معطياته الاسلامية الاصيلة ، كما يسعى ايضا الى بيان عوامل الانفصال بين هذا التصور الاسلامى فى العصر الحديث ، حيث لعبت القوى الاستعمارية دورا فى تعميق هذا الإنفصال والوصول به الى الازدواجية فى الفكر الاسلامى . وبالاضافة الى هذا فان هذا المحور التنظيرى يتابع المعطيات الاسلامية الحديثة والمعاصرة ويصنفها لكى تعين عملية الاسلمة، كذلك اقتراح كافة الوسائل التى تعين تنفيذ هذه العملية وتحويلها الى واقع فعال ونشط . إما المحور التطبيقى فهو يهدف الى معالجة كل فرع من فروع المعرفة البشرية الانسانية والطبيعية والتطبيقية لكى تصاغ وفق المنظور الاسلامى . وهذا ليس بطبيعة الأمر – بمقدور باحث مفرد بل يجب ان يتفرغ مجموعة من الباحثين المتخصصين فى كل فرع والذين يمتلكون ناصية تخصصهم الدقيق ، فضلا عن رؤيتهم الاسلامية ووعيهم بواقع المجتمع العربى واحتياجاته [2] .

---

(١) سيد دسوقى وآخرون ، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) عماد الدين خليل ، مدخل الى إسلامية المعرفة المعهد العالمى للفكر الاسلامى (رسائل إسلامية المعرفة ٧) ، ١٩٩٠ ، ص ص ٥ - ٧ .

ان اسلمة المعرفة ضرورة على أكثر من مستوى ، فمن ناحية هى ضرورة عقائدية ، حيث المعرفة - أى كان نوعها . لابد ان تتشكل فى دائرة الايمان أو أن يعاد تركيبها ثانية من منظور ايمانى ، كذلك فان هناك ضرورة انسانية متمثلة فى أن النشاط المعرفى المنضبط بالرؤية الايمانية يعين الانسان المؤمن المتبصر على التوازن فى كل شيء. ومن ناحية اخرى فان اسلمة المعرفة تحقق ضرورة حضارية لأنها تتجاوز بمسلمى اليوم والغد احدى اثنتين قد تأتيان عليهم كأمة متميزة : الزوبان فى الغير ، أو العزلة الكلية عن الاستفادة من تقدمه . أن أسلمة المعرفة تعنى « منح النشاط العلمى - على مستوى الكم والكيف وقوداً يدفعه للمزيد من الاشتعال والتألق اللذين يكشفان عن الحقائق[1] .

لقد ظهرت عدة أوجه لهذه الحركة ، فالنموذج الاول فى مجال اسلمه العلوم هو الطلاء الظاهرى للعلوم ، بمعنى ان تأتى الى علم من العلوم وتلحق كلمة اسلام ، أما أن تأخذ كل العلوم وتعطيها العنوان الاسلامى ... فان هذا كارثة ...» أما النموذج الثانى فيتمثل فى قيام البعض بتفسير بعض الايات القرآنية والاحاديث الشريفة ويلوون اعناقها ليستخرجوا منها اشياء تتفق مع العلوم الحديثة ، والنماذج فيها كثيرة وغريبة والواقع ان الهدف لدى بعضهم قد يكون شريفا وهو اثبات ان الاسلام كان أسبق الى هذا أو ذاك واننا أول من فعل . الخ وهذا سياق مضحك ، فالاسلام ليس فى حاجة الى أن يثبت شيئا فالاسلام اسلام بمفاهيمه . اننى ارى أن من المفيد تأصيل العلوم فى تاريخ الاسلام والمسلمين وليست معارضا لدراسة التراث وجهود الاجداد العلمى ولكن

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٨ - ١٨ ، انظر أيضا : طه جابر العلوانى ، اسلامية المعرفة ، المعهد العالى للفكر الاسلامى ، ١٩٨٨ .

يجب ألا نستهلم جهدنا فى ذلك . والنموذج الثالث فهو محاولة البعض اثبات أن القرآن الكريم احتوى قضايا علمية معاصرة ، بمعنى « ان تأتى الى أية وتقول ان القرآن قد أورد هذه الحقيقة والسؤال هو : اية حقيقة ؟ ان العلم الكونى متغير باستمرار وما يثبت اليوم قد يصبح خطأ بعد ذلك : فالقرآن ثابت . كيف نحاول اثباته بشىء متغير ، ثم هل الإسلام فى حاجة الى هذا ؟ إن القرآن لم يأتى كتاب جغرافيا أو كيمياء ، ولكنه جاء كتاب هداية يضع للانسان قاموس حياته [1] وان كان هذا هو الجانب النقدى ، فان هناك وظائف يمكن لهذه الحركة القيام بها الوظيفة الاولى تنحصر فى تأصيل العلوم المعاصرة اسلاميا لوصل ما انقطع ولايعنى هذا التغنى بأمجاد الماضى ولكن المقصود إحداث الوصل والارتباط فالماضى لايكون بديلا عن العمل المعاصر . هذه الوظيفة جوهرها عملية ربط القديم بالجديد ومساعدة العالم المسلم فى الاحساس بالارتباط العضوى بهذه العلوم حتى يتسنى له المساهمة فيها مساهمة اصيلة .

أما الوظيفة الثانية فهى الانطلاق من القضية القيمية لحل مشاكل المسلم المعاصر . ان العالم الاسلامى يعانى من العديد من المشاكل والعلم بالمفهوم الاسلامى – يجب أن يكون نافعا للانسان ومساعدا على أعمار الارض . واخيرا فان الوظيفة الثالثة لهذه الحركة أعنى اسلمة العلوم ، هى تقديم فلسفة العلوم الاسلامية . فالمعرفة الاسلامية لاتعنى الانعزال عن العالم بل الانفتاح عليه ، وعلى العالم المسلم الواعى ان ينتقى ويعدل ويجود فى هذه العلوم . أما الانعزال عنها ، فانه ليس قضيتنا حتى لو أردنا [1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٢ – ١٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٥ – ١٦ .

د - صياغة اسلامية للعلوم الاجتماعية :

تأتى دعوة أخرى فى شكل صياغة اسلامية للعلوم الاجتماعية . ويلاحظ « اسماعيل الفاروقى » أنه لاتوجد جامعة مسلمة واحدة تستطيع إدعاء أن منهجها فى العلوم الاجتماعية يتسم بالصفة الإسلامية . فالملاحظ أن معظم حملة الدرجات العلمية العليا قد مروا « بعملية تامة من غسل المخ بواسطة الغرب حتى أنهم أصبحوا أعداء متفرجين نياما يتسمون باللامبالاة بل والتشكك وإنعدام القابلية للتأثير أو التأثر[(١)] ولبيان هذا أخذت هذه المحاولة وجهة نقدية حيث استعرضت نشأة العلوم الاجتماعية فى الغرب وكيف أن هذه العلوم جاءت كرد فعل لما كان عليه الغرب من عداء بين العلم والدين وجاء أوجست كونت ليرى كيف كان العالم (الغربى) يتمرغ فى الوحل وسذاجة المعتقدات وكيف أنه لم يع مايمليه العقل[(٢)] لقد شهد كونت سيطرة العقل بعد إنهاء الطغيان الفكرى للكنيسة ، ولقد أمن كونت بضرورة تطبيق العلم لتنظيم حياة الانسان . ولهذا فإنه نادى بتطبيق مناهج العلوم الطبيعية - والتى حققت نجاحا باهرا فى تلك الفترة - على دراسة السلوك الاجتماعى من أجل التوصل الى القوانين التى تحكمه ومن ثم تغييره وتوجيهه

---

(١) اسماعيل الفاروقى ، صياغة العلوم الاجتماعية صياغة اسلامية ، المعهد العالى للفكر الاسلامى ، رسائل اسلامية المعرفة ، مرجع سابق ص ٢٦ . ويقترح الفاروقى عدة إجراءات للخروج من هذا الوضع تتمثل فى تكون إتحاد العلماء الاجتماعيين الملتزمين بالاسلام والذى من أهدافه نشر وتقوية الوعى لبث الادراك بوجود تلك المشكلة وخطورتها ويرى الفاروقى أن هذا العمل يمكن أن يسند الى القلة الذين لديهم الوعى والذين يتسمون بالإخلاص والإيجابية المرجع السابق ، ص ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) المرجع السبق ، ص ٨ .

والتخحطيط له [١] .

إلا أن هذه الميثودونوجيا الغربية - كما يرى الفاروقى - تنطوى على نقائص ومغالطات من أهمها أن الظاهرة الإنسانية لاتتكون من عناصر « طبيعية » بل يتدخل فيها عناصر اخرى تنتمى الى نظام مختلف ، أى النظام الأخلاقى الروحى ، وهذه العناصر لايمكن عزلها أو فصلها ولايمكن أيضا إخضاعها للأسلوب القياسى الوحيد الذى يعرفه العلم ، وهو الأسلوب الكمى . لقد رفض العلم ادخال هذه العناصر فى تفسيره للسلوك . ومن ناحية أخرى ، فإن الحقائق الخاصة بالسلوك الانسانى - على خلاف حقائق العلوم الطبيعية لاتتسم بالجمود » فهى ليست ذات حصانة ضد اتجاهات وأفضليات الشخص القائم بالملاحظة ، وهى لاتكشف عن صورها الحقيقية لكل باحث ، فالمواقف والمشاعر ، والرغبات والاحكام ، والأمال الخاصة بالبشر ... لاتبدى نفسها الشخص القائم بالملاحظة الذى لايدين بأى تعاطف تجاهها »[٢] .

ومن ناحية أخرى يلاحظ الفاروقى أن العلماء الاجتماعيين الغربيين يعلنون أن أبحاثهم تتسم « بالموضوعية » ، والحق أنهم يدينون بالتحيز ، إن العقل الغربى كان بعيدا عن الإدراك الواعى لفهم أديان وحضارات وثقافات الشعوب الأخرى وذلك بسبب عدم قدرته على التعاطف مع تلك الحقائق [٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٠ - ١١ انظر أيضا : أبو بكر أحمد بافادر ، « أسلمة العلوم الاجتماعية »، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، (جامعة الملك عبد العزيز - جدة ، المملكة العربية السعودية) المجلد الأول (١٩٨١) ص ص ١٣ - ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٣ - ١٤ .

(٣) المرجع السابق ، ص ص ١٥ - ١٦ .

إن كانت هذه هى نقائص الميثودولوجيا الغربية ، فإن هناك فى المقابل ميثودولجيا اسلامية والتى من أهم صفاتها « مبدأ وحدة الحقيقة» ويقرر ذلك المبدأ أن الحقيقة تعد شكلا من أشكال الله وليس من الممكن فصلها عنه . والحقيقة واحدة ... إنها تشتق معناها وقيمها من إرادته التى تعد غايتها .. وتقاس فاعلية تلك الحقيقة بمقتضى تحقيقها أو عدم تحقيقها للقيمة . وفى الواقع فإن الحقيقة أصبحت تتسم بالفعالية حتى غدا الممكن وصفها بأنها صياغة للإرادة الإلهية ، ولذلك يجب دراستها فى إطار تحقيق القيم وانتهاكها "[1] . معنى هذا أنه لايمكن معرفة الحقيقة الإنسانية بطريقة عما يجب أن تكون عليه تلك الحقيقة ، ولهذا فإن البحوث الاجتماعية والانسانية يجب أن تبين موقفها من الغايات والقيم .

وهناك مبدأ آخر يتعلق « بالأمة » ودعوى هذا المبدأ الإسلامى أنه ليس ثمة قيمة ومن ثم ليس ثمة أمريتسم بالصفة الشخصيةأو يتعلق بفرد واحد . وإدراك القيم أو تحقيق القيم لايتصل بالشعور الشخصى فى لحظة معينة أو بالفرد وعلاقته الخاصة مع الله ، إن الإسلام يؤكد أن وصايا الله. أ، الأمر الأخلاقى يعد بالضرورة شيئا خاصا بالمجتمع ، إنه بالضرورة يتصل بالنظام الاجتماعى فى الأمة ولايمكن أن يسود إلا بها ، وذلك السبب فى أن الاسلام لايدين بأية فكرة تتعلق بالأخلاق أو التقوى الشخصية إلا إذا عرفها فى إطار الأمة "[2] . معنى هذا أنه ليس من الممكن أن تكون ثمة قيمة دينية أو أخلاقية إلا فى اطار الأمة ، وكما اشرنا فإن « حى بن يقظان » بعد أن توصل الى الرؤية العالمية والأخلاقية

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ث ١٧ - ١٨ .

الخاصة بالإسلام ركب البحر بحثا عن « الأمة » التى لايستطيع أن يحيا بدونها .

وأخيرا فإن الميثودولوجيا الغربية قد فصلت بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، وقد نجح هذا الفصل فى إستبعاد جميع التقيمات من العلوم الاجتماعية ، فيما عدا تلك التى تقوم على أساس غايات مقيدة والتى لم تستطع المضووعية إجازتها ، ومن ثم تركتها الى العلوم الإنسانية التى اتسمت بالشخصية والفردية التامة إن هذا « التطهير » المتعمد للعلوم الاجتماعية من جميع اعتبارات القيم الجوهرية قد جعلها عرضة للتأثير بأى قوة تتعرض لها ، وكانت النتيجة - كما يرى الفاروقى - « إنحواذ الحقائق الواقعية لكل مجتمع على المقدرة لتكوين المعايير الخاصة به ، لقد أدى مبدأ الواقعية ، ومن ثم الإستقلال الذاتى القيمى للحقائق الاجتماعية ، ووضعها موضع الاختبار الى التدهور الأخلاقى الحتمى للمجتمع.[1] لقد أدى اخراج العلوم الإنسانية خارج نطاق العلم ، إن نظر الغرب الى هذه العلوم نظرة خاصة وإنزالها الى مرتبة أخرى حيث لاتطالب بالموضوعية العلمية ومن ثم أصبحت هذه العلوم عرضة للنسبية والتشكك والذاتية ومن ثم ضعف اثرها فى الحياة .

إن إضفاء الصفة الاسلامية على العلوم الاجتماعية يمكن أن تتحقق لو وحدت هذه الدراسات نفسها حول لواء « مبدأ التوحيد » وأن جميع المعرفة الموضوعية عن العالم تعد بمثابة معرفة لإرادته وتدبيره وحكمته . هذه العلوم يجب أن تقرر بأن الإنسان يحيا فى ملكوت يحكمه الله وأن الإنسان خليفة الله على الأرض . ونظرا لأن خلافة

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٨ - ١٩

الانسان تعد ضرورة اجتماعية بالضرورة ، فان العلوم التى تقوم بدراستها يجب أن تسمى العلوم الخاصة بالأمة. فالاتجاه الاسلامى لايفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية . فدراسة الأمة والمجتمع لاتخلو من الأحكام والتقييمات . والفارق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والانسانية لايكمن فى الميثودولوجيا ولكن فى موضوع الدراسة ، أحدهما يعمل على إكتشاف النمط الإلهى فى نطاق الاشياء المادية والآخر فى نطاق الشئون البشرية ، وهذا يستدعى بالضرورة ايجاد أساليب ومناهج مختلفة ، وفى التحليل النهائى ، أى عند تصوير النمط الإلهى ، يخضع الإثنان ، لنفس القوانين لإثبات صحتهما [1] .

إن الحياد والعلمية التى يطبقها الغرب على العلوم الاجتماعية تعد بمثابة « خرافة » ، فإنه ليس ثمة إدراك نظرى لأية حقيقة بدون إدراك طبيعتها وعلاقاتها القيمية ، ومن ثم فبدلا من الإمتناع عن إصدار أحكام قيمية ، وتضمينها بطريقة سرية النتائج ، فإن العالم الواعى يعلن جميع أحكامه القيمية بطريقة صريحة . هذا العالم الواعى « لن يدعى أبدا التحدث عن المجتمع الإنسانى فى حين أنه فى الحقيقة يعنى المجتمع الغربى ، أو يدعى التحدث عن الدين فى حين أنه فى الحقيقة يعنى المسيحية ، أو يدعى التحدث عن القوانين الاجتماعية والاقتصادية ، فى حين أنه فى الحقيقة يعنى بعض الممارسات العامة للمجتمعات الغربية [1] .

إن الصيغة الاسلامية للعلوم الاجتماعية تقتضى على الباحث الواعى ان يعمل على إظهار الحقيقة موضوع الدراسة من حيث اتصالها

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

بالنمط الإلهى فتحليل الواقع لايجب أن يغفل ما يجب أن تكون عليه الأشياء هذا لايعنى شكلية مقدسة للوجود بل النمط الإلهى وحكمته تقتضى بأن يكون الواقع نهرا مستمر التدفق وفى الواقع يتجسد النمط الإلهى ولهذا فالعالم الواعى يعمل على كشف ذلك النمط فى الشئون الإنسانية وأن يؤكد ذلك الجزء الواقعى منه . وذلك الجزء الذى تكمن فيه القوة ، وأن يكشف عن العوامل التى تؤدى الى تحقيق أو إعاقة إتمام عملية التجسيد ، وأن يركز ضوء الفهم على علاقات تلك العملية مع جميع العمليات الأخرى الخاصة بالحياة فى الأمنة ان العالم الاجتماعى المسلم لايتسم فقط بالصفة العلمية بمقتضى أنه لايترك النواحى القيمية ولكنه أيضا يكون نزاعا لانتقاد الحقيقة فى ضوء النمط الإلهى فإن العالم الاجتماعى المسلم كان يلتزم بالقيم السلامية بطريقة صريحة وعلنية وذلك بعد مذهب يطالب بالحقيقة بأسلوب عقلى نزاع للإنتقاء ، وهو لايشعر بالأسف أو الخجل إذا قام أنداده المسلمون أو غير المسلمين بتوجيهه ، فإن الحقيقة فى رأيه ليست بأكثر من تفهم ذكى للطبيعة المتمثلة فى التقرير والتجارب العلمية أو تفهم الوحى الالهى المتمثل فى القرآن ، وكلاهما من صنع الله ، وكلاهما موصوف بالصفة العلنية ولايحتكمان لشىء سوى العقل والفهم (١) .

إن هذه الدعوة ترى فى العالم الاجتماعى المسلم قادرا على تقديم أسلوب إنتقادى جديد فى العلوم الاجتماعية إن هذا العالم الواعى فى نظرته للإنسان كخليفة الله على الأرض يتمثل واجبه فى تحقيق القيمة على مدى التاريخ فالعلوم

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٣ ، ٢٤ .

الاجتماعية الإسلامية تستطيع أن تضفى الصفة الانسانية على ذلك الفرغ من الدراسة وتعيد المثل الأعلى الإنسانى الى وضعه السابق فى حياة الإنسان الذى كان طبقا لوجهة نظر العلوم الاجتماعية الغربية العوبة لاحول لها ولا قوة فى أيدى القوة الغامضة"[1] .

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

خاتمـــة :

بينا فى هذا الفصل علاقة العلم لخلق الوعى الصحيح هذا لوعى هو المسئول الأول عن الرؤية الحقيقية للواقع وتحليله وتفسير مابه من أجل التحكم فيه من أجل حياة أفضل وعلم الاجتماع علم المجتمع والدين درسوا هذا العلم وقعوا فريسة الإغتراب الفكرى عن الواقع المعاش فعلم الاجتماع الذى يدرس فى مجتمعنا ماهو الا ترديد لما يلقن فى جامعات الغرب رغم الاختلاف الأيديولوجى والفكرى بين المجتمع الغربى والمجتمع العربى هذا أفضى الى اغتراب العلم الاجتماعى عن الواقع وإغتراب وعى العالم عن الحقيقة ومن ثم خلق الوعى الكاذب الذى لايستطيع أن يميز بين الأصيل والوارد من الخارج لقد وعى العقل الغربى أزمة علم الاجتماع حين نخلف هذا العلم عن ملاحقة الواقع وظهرت حركة نقدية عارمة هرت بعروش هذا العلم وأوشك علم الاجتماع فى الغرب على الإفلاس الفكرى والنظرى والمنهجى . وللأسف فإن وعى علمائنا بالأزمة مازال على مستوى التأليف والمراجع ولم نجد إلا أصواتا مفردة تصحح مسيرة العلم فى علمنا العربى .

إن أزمة علم الاجتماع فى عالمنا العربى هى أزمة مجتمع بكل ما يحمله من إزدواجية فالوعى العربى مقسم بين الهروب للماضى فالحديث عن أمجاد سابقة ونسبتها للجيل الحالى لكى يكتسب نوعا من الراحة ثم يحيل أزمته الى الظروف التى تتأمر عليه ولاشك أن هذا يعنى عدم مواجهة الذات لنفسها ونقدها ومن ثم استمرار الأزمة ومن ناحية أخرى . هناك هروب أسوأ من الماضى وهو التبعية وتقليد الغرب فى مادياته ولغته وفكره وعلومه والحديث عن أزمة العالم العربى بأسلوب الإنسان الغربى ولقد ظهر فى العالم العربى صحوة معاصرة نحاول أن

تقدم الوعى البديل ولكن هذه المحاولات منها ماهو ايجابى ومنها ماهو يحتاج الى إعادة صياغة ليكون واقعيا فى معالجته للعلوم الاجتماعية فى تصديها للواقع الذى نعيشه حتى لاتقع فى اغتراب من نوع آخر وهذا بطبيعة الحال يقتضى زمنا طويلا وجهودا صعبة ونشاطا متواصلا دؤوبا كما يتطلب حشد العديد من الباحثين المتخصصين والذين يتحتم أن يتوفر فيهم فضلا عن التخصص معرفة متعمقة للقيم الاسلامية المشكلة للهوية هذا التميز يرجع الى وعى العالم فى وظيفة العلم والعلاقة بين الدين والعلم والعلم والمجتمع .

ومن ناحية أخرى بينا أن الوعى بتاريخ العلم تقتضينا إعادة قراءة تاريخ علم الاجتماع قراءة واعية فالقول بأن علم الاجتماع نتاج غربى فيه مغالطة تاريخية أن العقل الواعى الفاحص لتاريخ الفكر الانسانى يستطيع أن يميز بوضوح محاولات صادقة من قبل العلماء المسلمين لتأسيس علوم اجتماعية تشيد لهم بوعيهم ببدايات مشكلات عصرهم هذا ماسوف نبينه فى الفصل القادم. فلقد تفاعل هؤلاء العلماء بوعيهم الصادق مع واقعهم ولكن من خلال مسقهم القيمى الذى يربط هذا الواقع بالقيم العليا . ولقد جاء إسهام ابن خلدون كمنارة بارزة فى الفكر الإنسانى ليعى أنه لابد من علم اجتماعى يدرس الظواهر الاجتماعية بأسلوب علمى وغير متميز وجاء العلم الجديد فى المقدمة ناضجا ومكتملا سبق بها الفكر الغربى وقدم تحليلا متميزا للمجتمع العربى الذى عاشه ولم يكن ابن خلدون استثناء بل ظهر قبله وبعده العديد من العلماء من أمثال ابن تيمية الذى شخص أزمة المجتمع الإسلامى وحاول الاصلاح على أساس من الإسلام الحنيف .

إن تبعية المجتمع العربى والعلم الاجتماعى لم يعوق العقل الواعى

العربى من أن يصحح المسيرة فظهرت محاولة صادقة تتساءل عن علم اجتماع خاص بالوطن العربى له أيديولوجية ومنهج ونظرية مختلفة إن هذه المحاولة وقفت موقف الناقد لهذا الوافد أعنى علم الاجتماع . بكل تراثه الغربى وحاولت أن تقيم معالم علم اجتماع جديد له مصداقية من نتائج واقعنا وله وعى بمشاكلنا وله وظيفة وهى تغيير الواقع نحو الأفضل .

لقد كان الهدف من هذا الفصل إبراز دور الوعى فى تشخيص أزمة العلم وأزمة المجتمع والوعى بتاريخ العلم وتقديم الوعى البديل ولايعنى هذا وصول الوعى الى درجة من الإكتمال واليقظة التامة فما زلنا فى بداية الطريق ولابد منه تكوين العقول الواعية بهويتها وبدورها فى صنع مجتمع الغد إذا توصلنا الى هذا الوعى اليقظ فإنه يستطيع أن يميز بين الثوابت والمتغيرات فى حركة المجتمع العربى وهذا هو موضوع الباب الثانى .

المراجــــع

المراجــــع

أولا: مراجع باللغة العربية.

١- ابراهيم حسن العيسوى، نحو خريطة طبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعى والجنائية،١٩٨٩.

٢- أحمد الخشاب وآخرين، دراسات فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥.

٣- أحمد زايد، علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٤- أحمد زايد، البناء السياسى فى الريف المصرى. تحليل لجماعات الصفوة القديمة والجديدة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٥- أحمد صقر عاشور، السلوك الانسانى فى المنظمات، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

٦- اسماعيل حسن عبد البارى، بناء المجتمع ونظمه، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣.

٧- السيد محمد الحسينى، النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١.

٨- السيد محمد الحسينى ، علم الاجتماعى السياسى: المفاهيم والقضايا، ط٣، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤.

٩- السيد محمد الحسينى، نحو نظرية اجتماعية نقدية، الطبعة الأولى، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨٢.

١٠- السيد محمد بدوى، نظريات ومذاهب اجتماعية، الاسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٩.

١١- جيهان أحمد رشتى، الأسس العلمية لنظريات الاعلام، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٧٨.

١٢- حازم الببلاوى، على أبواب عصر جديد: علم المستقبل، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٣.

١٣- حسن شحاته سعفان، تاريخ الفكر الاجتماعى، القاهرة، دار التأليف، ١٩٥٧.

١٤- زيدان عبد الباقى، التفكير الاجتماعى: نشأته وتطوره، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦.

١٥- زيدان عبد الباقى، ركائز علم الاجتماعى، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٤.

١٦- سمير نعيم أحمد، النظرية فى علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ١٩٧٧.

١٧- عبد الباسط محمد عبد المعطى، دراسات فى التكوين الاجتماعى والبنية الطبقية لمصر، القاهرة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٨٠.

١٨- عبد الباسط محمد عبد المعطى، الاتجاه السوفيتى: قراءة نقدية فى علم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

١٩- عبد الباسط محمد عبد المعطى، فى نظرية علم الاجتماع، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣.

٢٠- عبد الباسط محمد عبد المعطى، عادل مختار الهوارى، فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٦.

٢١- عبد الفتاح ابراهيم، الاجتماع والماركسية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٠.

٢٢- على عبد الرازق جلبى، دراسات فى علم اجتماع الصناعة، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٨١.

٢٣- على كامل ليلة، البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا: المفاهيم والقضايا، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢.

٢٤- غريب سيد أحمد وآخرين، المدخل في علم الاجتماع المعاصر، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٤.

٢٥- غريب سيد أحمد، الطبقات الاجتماعية: النظرية والقياس، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٨٣.

٢٦- غريب سيد أحمد، المدخل في دراسة الجماعات الاجتماعية، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣.

٢٧-غريب سيد أحمد، ديناميات العلاقات الاجتماعية، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٥.

٢٨- غريب سيد أحمد، من أعلام علم الاجتماع: كولي، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٣.

٢٩-كمال دسوقي، الاجتماع ودراسة المجتمع، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١.

٣٠- محمد عارف عثمان، الاتجاهات الفكرية المعاصرة في علم الاجتماع، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨١.

٣١- محمد عارف عثمان، المنهج في علم الاجتماع، الجزء الأول: المنهج الكيفي والمنهج الكمي في علم الاجتماع ،القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٢.

٣٢- محمد عاطف غيث، الموقف النظرى في علم الاجتماع المعاصر، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٧.

٣٣- محمد عاطف غيث، علم الاجتماع، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٨.

٣٤- محمد عاطف غيث وآخرين، مجالات علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الأولى، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٨٢.

٣٥- محمد على محمد ، علم اجتماع التنظيم، الجزء الأول، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية، ١٩٧٢.

٣٦-محمد على محمد ، تاريخ علم اجتماع: الرواد والاتجاهات المعاصرة، الجزء الأول، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤.

٣٧- محمد على محمد ، أصول الاجتماع السياسي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠.

٣٨-محمد على محمد ، أصول الاجتماع السياسي، القوة والدولة، الجزء الثانى، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

٣٩- محمد على محمد ، علم الاجتماع والمنهج العلمي، الطبعة الثانية الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨١.

٤٠- محمد على محمد ، علياء شكرى، قراءات معاصرة فى علم الاجتماع، القاهرة، دار النشر المتحدة، ١٩٧٢.

٤١ - محمد على محمد وآخرين ،ميادين علم الاجتماع، الطبعة الثانية، القاهرة، دار العارف، ١٩٧٢.

٤٢- محمد الغريب عبد الكريم ، اتجاهات فكرية فى نظرية علم الاجتماع المعاصر، الطبعة الثالثة، الاسكندرية، المكتب الجامعى الحديث، ١٩٨٣.

٤٣- مكرم سمعان ، مشكلة الانتحار، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤.

أ: مراجع مترجمة:

٤٤- (آلان) سوينجوود ، تاريخ النظرية فى علم الاجتماع، ترجمة د. السيد عبد العاطى السيد، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية،١٩٩٦.

٤٥ -انجلز (اليكس) ،مقدمة فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمد على محمد وآخرين، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٠.

٤٦ -اندرسون (بيرى) ،اليسار الجديد: نحو الاشتراكية، الطبعة الثالثة، ترجمة د. عبد الكريم أحمد، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٥.

٤٧-أوسيبوف (ج)، قضايا علم الاجتماع: دراسة سوفييتية نقدية لعلم الاجتماع البرجوازي [illegible]
أحمد فرج، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠

٤٨- باركر (س)وآخرين ،**علم الاجتماع الصناعي**، ترجمة د. محمد علي محمد وآخرين، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٢.

٤٩- بلاميناتز (جون) الأيديولوجية، ترجمة د. اسماعيل سعد، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.

٥٠- بلاميناتز (توم) ،**تمهيد في علم الاجتماع**، ترجمة د. محمد الجوهري وآخرين، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٨.

٥١- بوتومور (توم) ،**علم الاجتماع والنقد الاجتماعي**، ترجمة وتعليق د. محمد الجوهري وآخرين، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١.

٥٢- بوتومور (توم) ،**النقد علم الاجتماع الماركسي**، ترجمة د. محمد علي محمد ،د. علي عبد الرازق جلبي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٤.

٥٣- بوتومور (توم) ،**علم الاجتماع: منظور اجتماعي نقدي**، ترجمة د. عادل مختار الهواري، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.

٥٤- بوتومور (توم) ،**الصفوة والمجتمع**، ترجمة د. محمد علي محمد وآخرين، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٢.

٥٥- بول بولانتزاس(نيكوس) **السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية**، ترجمة عادل غنيم، ط الكاملة، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٨٩.

٥٦- تيماشيف (نيقولا) ،**نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها**، الطبعة الأولى ترجمة د.محمد الجوهري وآخرين، القاهرة، ١٩٧٢.

٥٧-جورفيتش (جورج) ،**الطبقات الاجتماعية** ، ترجمة د. أحمد رضا، د. عز الدين فودة، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

٥٨- روشيه (جي) .علم الاجتماع الامريكي: دراسة لأعمال تالكوت، بارسونز، ترجمة د. محمد الجوهري ،د. أحمد زايد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١

٥٩- ركس (جون)، مشكلات أساسية في النظرية الاجتماعية، ترجمة وتقديم د. محمد الجوهري وآخرين، ط١، الأسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٣.

٦٠- ريكمان (هـ.ب)، منهج جديد للدراسات الانسانية، ترجمة د. محمد على محمد، بيروت، ١٩٧٢.

٦١- ساباربنا (ايلينا)، بين الانسان والآله: **السيبرناطيقا في داخلنا**، ترجمة صبحي أبو السعود، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨.

٦٢- فينر (نوربرت)، **السيبرنتيكا: أو التحكم والتوصيل في الآله والحيوان**، ترجمة د. رمسيس شحاته، د. اسحق ابراهيم حنا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

٦٣- موسى (هاينز) **الفكر الاجتماعي: نظرة تاريخية عالمية**، ط٢، ترجمة د. السيد الحسيني، د. جهينة سلطان عيسى، القاهرة، مطابع سجل العرب، ١٩٨١.

ب- قواميس ودوريات عربية:

٦٤- ابراهيم مدكور وآخرين، **معجم العلوم الاجتماعية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

٦٥- محمد عاطف غيث وآخرين، **قاموس علم الاجتماع**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٦٦- المجلة الاجتماعية القومية، العدد الاول، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٦٧.

٦٧- عبد الباسط محمد عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة

عالم المعرفة، العدد ٤٤، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١.

٦٨-محمد مصطفى الفولي ،السيبرنية: في الانسان والمجتمع والتكنولوجيا، العدد ٢٧٥، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١.

٦٩-محمد غيث وآخرين ،قاموس علم الاجتماع، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.

٧٠- مجلة عالم الفكر، العدد الرابع، المجلد الثاني، الكويت، ١٩٧٢.

٧١-مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد الرابع، الكويت، ١٩٧٣.

جـ: رسائل علمية.

٧٢- أحمد سليمان أبو زيد، الاتجاه الراديكالي في النظرية السوسيولوجية، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة الاسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣.

٧٣-حسين علي حسين، دراسة سوسيومترية للتكامل الاجتماعي، رسالة دكتوراه، (غير منشورة)، جامعة الاسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٧٧.

٧٤-زينب شاهين، الأسس العامة لاتجاه الواقعية المنهجية: مع دراسة لمفهوم الزواج والأمومة عند المرأة المصرية، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعةالقاهرة، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٢.

٧٥- سعد عيد مرسى بدر، الأيديولوجيا ونظرية التنظيم في علم الاجتماع الغربي دراسة تحليلة نقدية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الاسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣.

٧٦- نادية محمد عمر، الاتجاه الفينومينولوجي في علم الاجتماع، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الاسكندرية، مكتبة كلية الآداب، ١٩٨٣.

ثانياً: مراجع باللغة الأجنبية

أ- كتب أجنبية

78- Abercrombie, N. & John Ung, Captial, Latour and Middle Classes, London, 1983.

79- Bailey John, Ided and Intervention Social Theory, London, 1978.

80- Bhatia, H.R., Elements of Social Psychology, Somaiy A Publication Putltd. 1970.

81- Benson, Douglas & Joh A.Hughes, Perspectives of Ethnomethodology, N.Y., Longman Inc., 1983.

82- Bernstein J. Richard , The Restructuring of Social and Political Theory, London, 1962.

83- Chadwick, J.K., Social Exchange Theory, London, Academic Press, 1976.

84- Calfax,J., David & Jackle Roach, Radical Sociology, N.Y., Basic Book, 1971.

85- Cooley, C.H., Introduction to Human Group, U.S.A., Henry Holet & Company Inc., 1959.

86- Coser, Lewis A., Masters of Sociological Thought, 2 nd., Edition, U.S.A., Harcourt Brace Jovanvich, 1977.

87- Goff W. Tom, Marx and Mead, Contribution to Eociology of Knowledgl, London, 1980.

88- Cuff & Payne, Persepectives in Sociology, London,

Georgallen & Unwin Ltd . 1979

89- Deumphy, Dexter, (et al), **Primary Group**, N.Y., Meredith Corporation, 1972.

90- Deutsch, Marton, **The Resloution of Conflict**, London, Yale University Press, 1973.

91- Dubin, Robert, Human Resolution , 3 rd., Edition, U.S.A., Prentice Hall Inc., 1968.

92- Filmer, Paul, "et al" , **New Direction in Sociological Theory**, Mass A Chusettes, The Mite Press Cambridge, 1973.

93- Freedman, Jonathan, **Clinical Sociology**, N.Y., Longman Inc., 1970.

94- Goulnar, A., **The Comming Crisis of Western Sociology**, London, Heinman, 1970.

95- Guilband, G.T., **What is Cybernetics?** London , Heineman, 1961.

96- Gvishiani, D., **Organization & Management**: A Sociologyical Analysis of Western Theories, Moscow, Progress Publishers, 1972.

97- Habermas, Jurgen, **Communication and Evolution of Society**, London, Heinemann, 1979.

98- Harolambas, Michael & Roben Heald, **Sociology Themes and Perspectives**, london, University Tutorial Press, 1980.

99- Himes, Joseph S., **The Study of Sociology** , U.S.A., Scatt Foresman & Company, 1968.

100- Homans. G.C. Social Behaviour Its Elementary Forms London, Routledge & Kegan Paul, 1961

101- Jocker, Crinne, Man, Memory and Machines, N.Y . Conic. 1964.

102-Kalb, William L., "et al" , **Sociological Analysis**, U.S.A., Carcourt & Company Inc., 1949.

103- Kirschenman, Peter, P., **Informantion and Reflection**, Dordrech- Holland, D. Reidel Publishing, 1970.

104 Lemert C.Charles, Socialogy and Twilight of Man, London, 1929.

105- Levine. Donald Nathan, **Simmel and Parsons**: Two Approaches to The Study of Society, N.Y., Arno Press, Inc., 1980.

106- Lindsay, Jack, **The Crisis in Marxism**, New Jersey, Barnes & Noble Book, 1981.

107- Lothstein, Arthur, **The Philosophy of The New Left**, U.S.A., N.Y., Capricorn Book, 1971.

108- Lynd, Staughton, **The New Left: Collection of Eassys**, U.S.A, Poston Sergent, 1969.

109- Martindal, Don, **The Nature and Types of Sociological** Thories, London, Boston, 1960.

110- Meltzer, B. N., "et al", **Symbolic Interactionosm**: Gensis, Varieties and Criticism, London, Routledge & Kegan Paul, 1975.

111- Mckee, james B., **Introduction to Sociology**, U.S.A, N.Y., 1974.

112- M., Charon Joel, **Symbolic Interactionism**: An Integration, An Interpretation, Englewood Cliffs, Prentic Hall Inc., 1979.

113- Mills T., **The Sociology of Small Groups**, Prentic Hall, New Jersy, 1967.

114- Mitchell, G., Duncan, **Sociology**, London, Routledge & Kegan Paul, 1970.

115- Napier, Rodney W., **Groups**: Theory and Experience, U.S.A., Houghten Miffline Company, 1973.

116- Natanson Mourice, Phenomenology and Social Sciences, N.Y., 1973.

117- Nisbet, Robert & T.Bottomore, **Sociological Analysis**, London, Heineman, 1978.

118- Pivgic Edo, Phenomenology and Philosophical Understanding, London, 1975.

119- Pekelis, V., **Cybernetics A to Z.**, Moscow, Mer Publishers, 1974.

120- Poulantzas, Nicos, Classes in Contemporary Capitalism, London, Verso, 1978.

121- Reynobolds, Larry T., "et al"., **The Sociology of Sociology** N.Y., David Mcky Company Inc., 1970.

122- Ribben, G.F., **Pattern of Behaviour**, London, Edward Arnold 1979.

123- Rose, Arnold M. & Carolina B. Rose, Sociology: The Study of Human Rilation, 3rd., Edition, N.Y., Alfera A. Knopf, 1967.

124-Schwartz, Barry, N., **Human Connection and New Media**, New Jersy, Persy, Prentic Hall, 1973.

125- Schwartz, Howard & Jersy Jacobs, **Qualitative Sociology**, N.Y., A Division of Macmillan Publishing Co., Inc., 1979.

126- Sherief, Muzafer, **Intergroup Relations and Leadership**, N.Y., HJohn Wiely & Sonic Inc., 1962.

127- Smart Barry, **Sociology, Phenomenology and Marxian Analysis**, London, 1976.

128- Sternberg, David Joel, **Radical Sociology**, N.Y., Hicksville, 1977.

129- Stryker, Sheldon. **Symbolic Interactionism: A Social Sturctural Version**, London, Benjamin & Comming, 1980.

130- Swingewood, Alan, **A Short History of Sociological Thought**, London, Benjamin & Comming, 1980.

131- Vickers, Georg R., **The Formation of The New Left**, U.S.A., D.G.Health & Company, 1975.

132- Vold, GeorgB., **Theoretical Criminology**, 2nd Edition, N.Y., Oxford University Press, 1980.

133- Wallace, Rutho A. & Alison Walf, **Contemporary Sociological Theory**, U.S.A., N.Y., 1980.

134- Weaver, Richard L. et al. Speech Communication, 2 nd., Edition, N.Y., Dvan Nosu & Company, 1974.

135-Weber, Max, Basic Conceptsın Sociology, London, 1972.

- Wright, Erikolin,Classes , London. Verso,1985.

136- Wiener, Nerbert, Cybernetics and Society, U.S.A., Avon Books, 1967.

137-Wilden, A , System and Structure: Essays in Communication and Exchange, 2nd Edition, U.S.A., Tovistock Publications, 1980.

138- Yinger, J. Milton, Aminority Group in American Society, U.S.A., McGraw-Hill Inc., 1965.

139- Zeitlin, Irving, M., The Social Condition of Humanity: An Introduction to Sociology, N.Y., Oxford University Press, 1984.

ب: قواميس ومقالات من موسوعات:

140- Slerecomlic, Nicholas. Letal. Dictionary of Sociology, N.Y., London 1984.

141- Bales, Robert. "Interaction Process Analysis" in International Eccyclopedia of Social Sciences, David Sills (ed.), N.Y., The Macmilan Company, Vol.,7, 1968.

142- Deutsch, Marion. "Group Behaboou", In: International Encyclopedia of Social Sciences, David Sills, (ed.)., N.Y., THe Macmillan Comany, Vol. 6, 1968.